

نهاية الإيجاز
في سيرة ساكن الحجاز
رفاعة رافع الطهطاوي

♦ المؤلف: الشيخ رفاعة رافع الطهطاوي

♦ العنوان: نهاية الإيجاز في سيرة ساكن الحجاز

♦ طبعة آفاق الأولى 2022

♦ تصميم الغلاف: عمرو الكفراوي

♦ مستشار النشر: سوسن بشير

♦ المدير العام: مصطفى الشيخ



رقم الإيداع:

٢٠٢١ / ٢٩٢٦٦

الترقيم الدولي: ISBN

978 - 977 - 765 - 329 - 9

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن مسبق من الناشر.

All rights are reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form, or by any means without prior permission in writing from the publisher.

Afaq Bookshop & Publishing House

1 Kareem El Dawla st.- From Mahmoud Basiuny st. Talaat Harb

CAIRO- EGYPT- Tel: 00202 25778743- 00202 25779803 Mobile: +202-0111602787

E-mail: afaqbooks@yahoo.com- www.afaqbooks.com

١ شارع كريم الدولة- من شارع محمود بسيوني- ميدان طلعت حرب- القاهرة- جمهورية مصر العربية

ت: ٢٥٧٧٨٧٤٣ - ٠٠٢٠٢ ٢٥٧٧٩٨٠٣ - ٠٠٢٠٢ - موبايل: ٠١١١١٦٠٢٧٨٧

نهاية الإيجاز في سيرة ساكن الحجاز (سيرة الرسول ﷺ)

تأليف

الشيخ رفاعة رافع الطهطاوي

حققه وعلّق عليه الأستاذان

عبد الرحمن حسن محمود وفاروق حامد محمد بدر

آفاق للنشر والتوزيع

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشؤون الفنية

الطهطاوي، رفاعه رافع.

نهاية الإيجاز في سيرة ساكن الحجاز: رفاعه رافع الطهطاوي

ط1 القاهرة - آفاق للنشر والتوزيع - 2022

608 ص، 24 سم.

رقم الإيداع 29266 / 2021

الترقيم الدولي 9 - 329 - 765 - 977 - 978

1 - تراث

أ - الطهطاوي، رفاعه رافع

ب - العنوان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقديم

رفاعة الطهطاوي ومدخل حديث لكتابة السيرة النبوية

(١)

مثل رفاعة الطهطاوي (١٨٠١ - ١٨٧٣ م) نموذجاً للمثقف العربي المجدد في أولى مراحل النهضة العربية الحديثة التي بزغت مع بدايات القرن التاسع عشر، وقد فرضت تلك المرحلة على ذلك المثقف الحديث والمحدث أن يسهم بكتابته في مجالات ثقافية واجتماعية متعددة، وقد جسد الطهطاوي هذا النموذج إذ جمعت كتاباته بين عمل المفكر الاجتماعي والتعليمي، والصحفي، والأديب (الشاعر والناثر)، والمؤرخ غير المحترف، ومثل منحاه الإصلاحية العنصر الأساسي الرابط بين كتاباته التي تؤكد، بتنوعها، سعي الطهطاوي إلى الوفاء بما تطلبه واقعه.

وقد تنوعت إسهامات الطهطاوي في مجالات الأدب العربي في القرن التاسع عشر؛ ورغم كونه واحداً من شعراء المرحلة الأولى من مراحل حركة الإحياء، على نحو ما يتجلى في ديوانه، فإن من اللافت أن إسهاماته في ميادين الكتابة النثرية هي التي وضعت اسمه في قائمة الأدباء المجددين في القرن التاسع عشر؛ إذ جمع بين تقديم شكل الرحلة في كتابه «تلخيص الإبريز في تلخيص باريز» (١٨٣٤) والإسهام في تأصيل الرواية

التعليمية وذلك بترجمته لرواية فينيلون (١٦٥١ - ١٧١٥) المسماة «وقائع تليماك» (١٦٩٩) والتي أعطاها الطهطاوي عنوان «مواقع الأفلاك في وقائع تليماك» (١٨٦٨). كما أن له إسهامات بارزة في مجال الكتابة التاريخية يعكسها كتابه «أنوار توفيق الجليل في توثيق مصر وبني إسماعيل» (١٨٦٨)، كما يعكسها كتابه «مناهج الأبواب المصرية في مباهج الآداب العصرية» وإن لم يكن من نمط الكتابة التاريخية الخالصة.

وقد كتب الطهطاوي السيرة النبوية وقدمها تحت عنوان «نهاية الإيجاز في سيرة ساكن الحجاز»، وهي تمثل أول نموذج للكتابة الحديثة لمتن السيرة النبوية. وتحمل تلك العنوان أكثر من دلالة؛ فالطهطاوي قد ربط «نهاية الإيجاز» بكتاب «أنوار توفيق الجليل» وهذا ما يسوغ النظر إلى «نهاية الإيجاز» بوصفه جزءاً من كتابات الطهطاوي التاريخية، ويدعم ذلك تقسيم الطهطاوي كتابه إلى أبواب وفصول تحمل عناوينها دلالات مرتبطة بتتبعه حياة الرسول ﷺ وبعض هذه العناوين - مثل «الأسباب الباعثة على الهجرة» - يبدو أكثر اتصالاً بعمل المؤرخ منه بعمل الأديب.

وفي مقابل الدلالات السابقة هناك دلالات مضادة تشير إلى إمكانية قراءة «نهاية الإيجاز» بوصفه كتاباً مستقلاً عن «أنوار توفيق الجليل»، من ناحية، وبوصفه كتابة تقع في المنطقة الواصلة بين الأدب والتاريخ من ناحية أخرى. فالطهطاوي أعطى كتابته عن السيرة اسماً مستقلاً عن كتابه التاريخي، كما أن كتابة الطهطاوي للسيرة ذات وشائج قوية في ارتباطها بأنماط كتابات السابقين عليه للسيرة النبوية، بقدر ما هي مختلفة عن كتابات اللاحقين له مباشرة أو الأجيال التالية له؛ فكتاب محمد الخضري «نور اليقين في سيرة خير المرسلين» (١٨٩٥) بمثابة سيرة تاريخية بالغة الاختصار، بينما كتاب محمد حسين هيكل «حياة محمد» (١٩٣٥) يمثل، فيما نرى، أول دراسة تاريخية يقدمها كاتب أو مؤرخ مصري حديث يفيد من مناهج البحث التاريخي الغربي، ويتجادل مع كتابات بعض المستشرقين حول سيرة النبي ﷺ.

وبعد «نهاية الإيجاز» وكتاب «المرشد الأمين للبنات والبنين» آخر كتابات

الطهطاوي، وقد نُشرت فصول «نهاية الإيجاز» في ثلاثة وأربعين عددًا من أعداد مجلة «روضة المدارس» في سنواتها الثالثة والرابعة والخامسة. ويتكون النص المنشور في «روضة المدارس» من ستة أبواب، وتتفق الأبواب الخمسة الأولى منه مع الطبعة المحققة التي تقوم عليها دراستنا هذه^(١). بينما عنون الطهطاوي الباب السادس على النحو التالي: الباب السادس في الوظائف والعمالات البلدية، خصوصية وعمومية، أهلية داخلية جهادية، التي هي عبارة عن نظام السلطنة الإسلامية، وما يتعلق بها من الحرف والصنائع والعمالات الشرعية على ما كان في عهد رسول الله ﷺ وفيه فصول^(٢)، ولكن المحققين (عبد الرحمن حسن محمود وفاروق حامد بدر) جعلوا من هذا الباب وما يليه كتابًا سميّاه (الدولة الإسلامية: نظامها وعمالاتها) ثم وصفاه بأنه المتمم لكتاب «نهاية الإيجاز»^(٣).

وفي نهاية العدد الثالث والأربعين من «روضة المدارس» هناك فقرات - حذفها المحققان - يقرر فيها علي رفاعه أن الطهطاوي قد أتم قبل موته تسويد كتابي «نهاية الإيجاز» و«المرشد الأمين»، وقد راجع نهاية الإيجاز حتى الفصل التاسع من الباب الثالث، بينما تتبع علي رفاعه بقية الكتاب (قراءة وتصحيحًا، حذفًا وإثباتًا)^(٤).

واللافت أن المحققين قد حذفوا المقدمة التي وضعها الطهطاوي لكتابه، والتي نشرها في العدد الرابع من السنة الثالثة من سنوات «روضة المدارس» وهي مقدمة مكونة من صفحتين يشير فيها الطهطاوي إلى أن «نهاية الإيجاز» يمثل الجزء الثاني من «أنوار توفيق الجليل»، ويشير أيضًا إلى أن علي مبارك هو الذي رأى التعجيل بنشر

(١) نعتد على طبعة مكتبة الآداب الصادرة في عام ١٩٩٠ بتحقيق عبد الرحمن حسن محمود وفاروق حامد بدر.

(٢) انظر مجلة روضة المدارس، السنة الرابعة، العدد العشرين (غاية شوال ١٢٩٠هـ) ص ٣٥٠، الطبعة الثانية، دار الكتب المصرية ١٩٩٨.

(٣) انظر: رفاعه الطهطاوي: نهاية الإيجاز في سيرة ساكن الحجاز، تحقيق عبد الرحمن حسن محمود وفاروق محمد بدر، مكتبة الآداب، ١٩٩٠.

(٤) روضة المدارس، مرجع سابق، السنة الخامسة، العدد الثاني عشر، (غاية جمادى الثانية ١٢٩١هـ) ص ٥٣٠.

هذه السيرة منجمة في «روضة المدارس» على أن تُطبع كاملة بعد ذلك^(١). ولما كان «نهاية الإيجاز» متممًا لـ «أنوار توفيق الجليل» فقد احتل في هذا النسق ترتيب المقالة الخامسة على النحو التالي: المقالة الخامسة: في ظهوره ﷺ وأحواله وشؤونه ووقائعه والدخول في الحياة البرزخية وذكر الخطط والعمالات الإسلامية التي كانت في عهده ﷺ إلى استخلاف أبي بكر رضي الله عنه وفيه أبواب.

ويمكن للقارئ المعاصر أن يقرأ «نهاية الإيجاز» من منظور التشكيل السردى الذي وضع فيه الطهطاوي السيرة النبوية، بما ينطوي عليه ذلك التشكيل من وحدات وتقنيات وطرائق سردية اعتمدها الطهطاوي لينقل بواسطتها، من ناحية، رسالة ضمنية حملتها كتابته، وليُسهم، من ناحية ثانية، في تقديم نمط جديد من أنماط كتابة السيرة النبوية بوصفها نصًا سرديًا، وليساهم، من ناحية ثالثة، في إنشاء تقاليد كتابة بعض الأنواع السردية الحديثة في الأدب العربي.

وبقدر ما تكشف النواحي الثلاث السابقة عن منحى التجديد الأدبي لدى الطهطاوي فإنها تتطلب إضاءة عدة أطر تتمثل في أنماط كتابة السيرة النبوية - بوصفها نصًا سرديًا - لدى السابقين على الطهطاوي، وعلاقة كتابة الطهطاوي السيرة بلحظة نشأة الأنواع السردية الحديثة في الأدب العربي، ووعي الطهطاوي بالأشكال السردية العربية الوسيطة، ومستويات تلقي نص الطهطاوي ودور الوسيط الثقافي الذي نقله إلى المتلقي في تحديد طرائق التلقي، وعلاقة كتابة الطهطاوي بالموقف أو الرسالة التي ضَمَّنَها تلك الكتابة.

وستبدى طبيعة كتابة الطهطاوي عبر الأطر المختلفة التي نضع «نهاية الإيجاز» في سياقاتها المتداخلة والمتفاعلة معًا.

(١) انظر: روضة المدارس، مرجع سابق، السنة الثالثة، العدد الرابع (غاية صفر ١٢٨٩هـ) ص ٤٤ - ٤٥.

(٢)

مرّ متن السيرة النبوية بمراحل متعددة ومتشابهة، ومتوالية أيضاً، إلى أن استوى نصّاً سرديّاً مكتملاً؛ إذ شكلت المرويات التي رواها بعض الصحابة عن حياة النبي ﷺ وصفاته وسلوكه المادة الأولى لمتن السيرة، وطوال القرنين الأول والثاني الهجريين برزت أسماء بعض التابعين - مثل عروة بن الزبير وعاصم بن عمر بن قتادة والزهري وعبد الله بن أبي بكر وغيرهم - ممن تخصصوا في رواية أخبار النبي ﷺ. وقد وازى تطور الاهتمام بجمع أخبار النبي ﷺ التطور في علوم الحديث والتفسير والتاريخ^(١) وهذا ما برز، منذ بداية القرن الثالث الهجري، إذ توزع الاهتمام بسيرة النبي ﷺ بين أصحاب كتب طبقات المحدثين، من ناحية وكتب التاريخ العام من ناحية ثانية وكتب سيرة النبي ﷺ من ناحية ثالثة. فابن سعد (ت ٢٣٠هـ) صاحب (الطبقات الكبرى) قد دوّن سيرة النبي ﷺ في الأجزاء الأربعة الأولى من كتابه، حيث كان يعنون الفقرات، ثم يسوق داخل كل فقرة مجموعة المرويات: أي الأحاديث والأخبار التي تقع في دائرتها، ولا يكاد يقدم رأياً فيما يرويه^(٢). على حين أصّل الطبري (ت ٣١٠هـ) في كتابه (تاريخ الرسل والملوك) تقليداً يتمثل في تقديم سيرة الرسول ﷺ بوصفها جزءاً من التاريخ العام، وقد تابعه في ذلك المؤرخون التالون له كابن الأثير (ت ٦٣٠هـ) في كتابه (الكامل في التاريخ) وابن كثير (ت ٧٧٤هـ) في كتابه (البداية والنهاية) وغيرهما. وتشكلت كتابة السيرة النبوية في ثلاثة أنماط مختلفة؛ نمطان منها يمكن وصفهما

(١) للإحاطة بمسألة نشأة رواية السيرة النبوية وتدوينها، تنظر الكتابات التالية:

- دائرة المعارف الإسلامية، مادة السيرة، المجلد الثاني، ص - ص ٤٣٩ - ٤٥٨، طبع لجنة الترجمة، ١٩٣٣.
- أحمد أمين: ضحى الإسلام، الجزء الثاني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٨، ص - ص ٣١٩ - ٣٣٩.
- محمد عبد الغني حسن: التراجم والسير، دار المعارف، ١٩٥٥، ص - ص ٣٠ - ٣٤.
- مارسدن جونز: مقدمة تحقيقه لكتاب المغازي للواقدي، مطبعة جامعة أكسفورد، ١٩٦٦، الجزء الأول، ص - ص ٥ - ٣٥، ولا سيما ص - ص ١٩ - ٢٩.
- (٢) انظر: محمد بن سعد: الطبقات الكبرى، طبع لجنة نشر الثقافة الإسلامية ١٩٣٩، الأجزاء الأربعة الأولى.

بأنهما نمطان سرديان خالصان، على حين يمكن وصف ثالثهما بأنه يضيف إلى المتن السردى نصاً آخر شارحاً بعض الوقائع أو يضيف معارف من علوم متنوعة. ويمثل نمط السيرة المكتملة التي تقدم وقائع حياة النبي ﷺ وغزواته وعلاقاته المختلفة النمط السردى الأول، ونموذجه الأجلى سيرة ابن إسحاق (ت ١٥١هـ) التي رواها ابن هشام (ت ٢١٨هـ)، وقد قسم ابن إسحاق السيرة إلى ثلاثة أقسام كبرى هي المبتدأ، والمبعث، ثم المغازي، وكان يقدم - سواء داخل كل قسم من الأقسام الكبرى أو الأقسام الصغرى التي تشكل الأقسام الكبرى - الأخبار المختلفة، ويقدم الوقائع مستشهداً بالأشعار سواء في إطار سرده الوقائع، أو في نهايتها؛ كما في تقديمه - في نهاية الغزوات - الأشعار المختلفة التي قيلت فيها. وإذا كان ابن هشام قد هذب نص ابن إسحاق فإنه قد أهمل بعض مرويات ابن إسحاق كما حذف أشعاراً لم ير أحداً من أهل العلم بالشعر يعرفها، وأشياء بعضها يُشنع الحديث به^(١).

ولقد تحول متن ابن هشام إلى المصدر الأساسي الذي اعتمده اللاحقون له سواء كانوا من المؤرخين الخُلص أو في كُتَاب السيرة النبوية، ويمثل كتاب «عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير» لابن سيد الناس (ت ٧٣٤هـ) نموذجاً لكتابة تتابع تقاليد سرد السيرة النبوية المكتملة التي أصَّلها ابن إسحاق وابن هشام، ثم تضيف إليه تقاليد جديدة مثل تقديم مرويات مختلفة عن رواة آخرين غير ابن إسحاق، وتقديم مرويات تمثل تحديدات أدق لمضامين بعض مرويات ابن إسحاق، أو تصحيح بعض المرويات التي قدمها ابن إسحاق^(٢).

(١) عبد الملك بن هشام: سيرة النبي، ﷺ، حقق أصلها وضبط غرائبها، وعلق عليها محمد محيي الدين عبد الحميد، مكتبة محمد علي صبيح ١٩٧١، الجزء الأول، ص ٢. وقد ذكر ابن هشام في بقية نصه أن مما حذفه أشياء يسوء بعض الناس ذكرها، وأشياء أخرى لم يقر له البكائي بروايتها.

(٢) انظر: ابن سيد الناس (محمد بن محمد بن عبد الله بن محمد بن يحيى اليعمري) عيون الأثر في المغازي والشمائل والسير، دار الآفاق الجديدة، بيروت ١٩٧٧، الجزء الأول صفحات: ٢٩٠، ٢٩٣، ٢٩٤، ٢٩٥، ٢٩٧، ٢٩٨، ٣٠٠، ٣٠٩، حيث يقدم مجموعة من المرويات التي قدمها رواة آخرون - لا سيما ابن عقبة - عن وقائع غزوة بدر. وانظر ص ٢٩٤ حيث يقدم خبراً يصحح به خبر ابن إسحاق عن عدد القرشيين الذين خرجوا للقتال في بدر.

ولما كان معنى مصطلح السيرة النبوية قد انصرف - لا سيما في المراحل المبكرة من رواية السيرة وتدوينها - إلى دلالة تقصره على تقديم المرويات الخاصة بمغازي الرسول ﷺ فإن كتاب محمد بن عمر الواقدي (ت ٢٠٧هـ) «المغازي» يمثل نمط الكتابة في السيرة طبقاً لهذا الفهم. ويبدو أن اقتصار عمل الواقدي على فترة قصيرة من حياة النبي ﷺ قد منحه فرصة وضع تقاليد خاصة في سرد المغازي؛ إذ بُثَّت طرائق واحدة اتبعتها في سرد الغزوات المختلفة؛ فبعد أن افتتح كتابه بذكر أسماء الرواة الذين نقل عنهم أخباره مشيراً إلى اختلاف مروياتهم أخذ يسرد (المغازي واحدة واحدة مع تاريخ محدد للغزوة بدقة، وغالباً ما يذكر تفاصيل جغرافية عن موقع الغزوة، ثم يذكر المغازي التي غزاها النبي ﷺ بنفسه وأسماء الذين استخلفهم على المدينة أثناء غزواته، وأخيراً يذكر شعار المسلمين في القتال، كل ذلك بالإضافة إلى وصفه لكل غزوة بأسلوب موحد، فيذكر أولاً اسم الغزوة وتأريخها وأميرها، ويكرر في بعضها اسم المستخلف على المدينة وتفاصيل جغرافية مما كان قد ذكرها في مقدمة الكتاب. وفي أماكن كثيرة يقدم لنا الواقدي قصة الواقعة بإسناد جامع - أي يجمع الرجال والأسانيد في متن واحد. وإذا كانت الغزوة قد نزل فيها آيات كثيرة من القرآن، فإن الواقدي يفردها وحدها مع تفسيرها ويضعها في نهاية أخبار الغزوة. وفي المغازي الهامة يذكر الواقدي أسماء الذين شهدوا الغزوة وأسماء الذين استشهدوا أو قُتلوا فيها)^(١).

ويشكل نمط الكتابة المختصرة النمط السردى الثاني من أنماط كتابة السيرة النبوية، وهو يشترك مع النمط السابق في تقديم الأخبار الخاصة بحياة الرسول ﷺ ووقائع دعوته وغزواته المختلفة، وتقسيم هذه الأخبار طبقاً للمسار الزمني لحياة الرسول ﷺ، ولكن كُتِبَ ذلك النمط كانوا يركزون على اختيار الوقائع، ويُعرضون عن تقديم المرويات المختلفة حول الوقائع التي يعرضونها، كما يندر لدى بعضهم - كابن عبد البر - تقديم الأشعار المرتبطة بوقائع السيرة، بينما لا يورد بعضهم الآخر - كابن حزم -

(١) مارسدن جونز: مقدمة تحقيقه لكتاب المغازي، مرجع سابق، ص ٣١.

أثماً من أشعار السيرة. ومن أبرز النماذج التي تمثل هذا النمط كتاب «الدرر في اختصار المغازي والسير» لابن عبد البر (ت ٤٦٣هـ)، وكتاب «جوامع السيرة» لابن حزم الأندلسي (ت ٤٥٩هـ)^(١).

وثمة احتمال أن يكون تأصل هذا النمط في إطار كتابة السيرة النبوية قد أثر على كتابة بعض النصوص التي تنتمي إلى النمط الأول؛ فكتاب المقرئ (ت ٨٤٥هـ) (إمتاع الأسماع بما للرسول ﷺ من الأنباء والأموال والحفدة والمتاع) يقوم على إيجاز المرويات المختلفة التي يعيد المقرئ صياغتها بلغته هو، مقدماً - في ثانيا سرده - بعض المرويات المسندة إلى قائلها الأول، ومستشهداً بالقليل من أشعار الوقائع^(٢)، ولعل قيام كتاب المقرئ على لغة مؤلفه في الصياغة جعل منه متناً مختلفاً عن متون النمط الأول التي كانت تنظيمًا لمجموعات من الأخبار ذات الأسانيد.

إن متن السيرة النبوية في كتابات النمطين السابقين يشكل نصاً سردياً يقوم على تتابع عدد من الوحدات السردية الكبرى التي تصور حياة النبي ﷺ، وإذا كانت كل وحدة سردية كبرى تقدم مرحلة مهمة ودالة من حياة شخصية النبي ﷺ فإن الوحدة السردية الكبرى يمكن أن توصف بأنها مقطع سردي طويل يبدأ من نقطة زمنية محددة وينتهي عند نقطة زمنية محددة، وتحمل كل نقطة منهما قيمة دالة في حياة الشخصية، وما بين نقطة البداية ونقطة النهاية يتشكل امتداد زمني تملؤه عناصر سردية متنوعة كالوقائع والأخبار والأحداث وغيرها. وإذا كانت كل وحدة كبرى تشكل (سلسلة

(١) انظر: ابن عبد البر (يوسف بن عبد البر النمري): الدرر في اختصار المغازي والسير، تحقيق د. شوقي ضيف، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، ١٩٩٥.

- ابن حزم (أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد): جوامع السيرة وخمس رسائل أخرى، تحقيق إحسان عباس وناصر الدين الأسد، دار المعارف، ١٩٥٦.

(٢) انظر: المقرئ (تقي الدين أحمد بن علي): إمتاع الأسماع بما للنبي ﷺ من الأنباء والأموال والحفدة والمتاع، تحقيق وتعليق محمد عبد الحميد النمسي، دار الأنصار، القاهرة، ١٩٨١.

من الأفعال المتعاقبة^(١) فإن الراوي لا يكتفي بتقديم تلك السلسلة عبر مسار زمني صاعد، وإنما يستطيع دائماً أن يكسر ذلك المسار بالعودة المطولة إلى الماضي أو ماضي الماضي أحياناً. -ولا سيما لتأصيل نسب الشخصية- أو تقديم نبوءات بمصائر بعض الشخصيات -ولا سيما أعداء البطل- أو الاستطراد نحو كثير من التفرعات السردية التي تُضعف -أحياناً- من ظهور المسار الزمني الأساسي للوقائع.

وتشكل بعض الوقائع في السيرة النبوية ما يمكن أن يسمى وحدة سردية وسطى إذ تقع -من ناحية- في مدى زمني أقل من المدى الذي تستغرقه وقائع الوحدة السردية الكبرى، كما تقوم -من ناحية ثانية- على نواة صراع مباشر يحدد للراوي طريقة معينة في سرد الوقائع وتنظيمها وصياغة التفاصيل، مما يجعل السرد أدنى إلى التركيز على خيوط متوالية زمنياً، ومتوالدة سببياً. وتمثل الغزوات الكبرى نماذج دالة لتلك الوحدات السردية الوسطى، ولعل هذا «التمييز» الذي تتصف به وحدات المغازي هو الذي جعل عبد الله إبراهيم يصفها بأنها قد جاءت -في سيرة ابن إسحاق (بشكل وحدات شبه قصصية)^(٢)، بينما وصف عبد الحميد بورايو الغزوة بأنها (تمثل قصة مكتملة، لها بداية ووسط ونهاية، وهي في الوقت نفسه ترتبط بمثيلاتها بوحدة ملحمة)^(٣).

وتمثل الأخبار والحكايات المختلفة نمط الوحدة السردية الصغرى ليس في متن السيرة النبوية وحدها، ولكن في كل أشكال السرد العربي الوسيط.

وتمثل السيرة المشروحة النمط الثالث من أنماط كتابة السيرة النبوية، ويقوم هذا النمط على الموازنة بين نصين مختلفين ومتصلين في الآن نفسه، ويتمثل النص الأول في متن ابن إسحاق أو ابن هشام الذي يتحول لدى كتاب هذا النمط إلى نص أصلي،

(١) عبد الله إبراهيم: السردية العربية: بحث في البنية السردية للموروث الحكائي العربي، الطبعة الثانية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ٢٠٠٠، ص ١٧٠.

(٢) عبد الله إبراهيم: المرجع السابق، ص ١٤٧.

(٣) عبد الحميد بورايو: المغازي لون من السير الشعبية العربية، مجلة الفنون الشعبية، عدد ٥١، إبريل -يونيه ١٩٩٦، ص ٣٧.

بينما يتمثل النص الثاني في نص شارح يقدم فيه مؤلفه شرحاً للألفاظ الغريبة أو إعراباً لبعض الكلمات أو العبارات الغامضة، وتجلية لأنساب بعض الشخصيات، وإكمالاً لبعض الأخبار الناقصة، وتناولاً لبعض الجوانب الفقهية أو الكلامية التي تثيرها بعض وقائع السيرة أو مواقفها.

ويبدو أن هذا النمط قد تشكل في مرحلة تالية لتشكيل النمطين الأولين، كما يبدو أنه كان يؤدي بعض الوظائف التعليمية المباشرة، ومن الكتب الممثلة لهذا النمط كتاب «الروض الأنف في شرح السيرة» الذي ألفه عبد الرحمن السهيلي (ت ٥٨١هـ)، وهو يقرر في مقدمته أنه قد جمع فيه (من فوائد العلوم والآداب، وأسماء الرجال والأنساب؛ ومن الفقه الباطن اللباب، وتعليل النحو وصنعة الإعراب، ما هو مستخرج من نيف على مائة وعشرين ديواناً، سوى ما أنتجه صدري ونفحه فكري ونتجه نظري ولُقتته عن مشيختي، من نُكتٍ علميةٍ لم أُسبِقَ إليها ولم أَرْحَمَ عليها)^(١).

ولعل ذلك النص أن يكون كاشفاً عن أن اكتمال نص السيرة النبوية لدى ابن هشام -في بداية القرن الثالث الهجري- قد جعل من شراحه يسعون إلى إفادة القارئ بتقديمهم مجموعة من المعارف المختلفة المستمدة من مجالات الحديث والفقه وعلوم اللغة وعلم الكلام والتاريخ، والقراءات أحياناً، في إضاءة النص الأصلي للسيرة، وذلك ما يُخرج بعض هذه النصوص، وربما معظمها، عن إطار الكتابة الأدبية والكتابة التاريخية؛ يستوي في هذا كتاب «الروض الأنف» وكتاب «الشفاء في حقوق المصطفى» الذي ألفه القاضي عياض (ت ٥٤٤ هـ) وجعل من شروحه وسيلة لعرض بعض المسائل الكلامية أو تقديم تفسيرات لبعض الآيات القرآنية، أو تقديم بعض

(١) عبد الرحمن السهيلي: الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام، تحقيق وتعليق وشرح عبد الرحمن الوكيل، دار الكتب الحديثة، القاهرة ١٩٦٧، الجزء الأول ص ٣٥، وانظر أيضاً ص ٣٣، وانظر نموذجاً في شرحه لغزوة بدر في الجزء الخامس من كتابه حيث قدم جزءاً من نص ابن هشام ص -ص ٨١- ١١٥، ثم قدم شروحه وتعليقاته ص -ص ١١٦- ١٤٤، ثم عاد إلى تقديم بقية نص ابن هشام ص -ص ١٤٥- ١٧١، بينما قدم شروحه وتعليقاته عليه ص -ص ١٧٢- ٢٠١.

الأحاديث والأخبار، أو عرض بعض مسائل القراءات القرآنية^(١).

شكل كل نمط من الأنماط السابقة مجموعة من التقاليد الكتابية الخاصة بمتن السيرة النبوية بوصفه نصًّا سرديًّا، أو بشرحه لغايات مختلفة. وكانت هذه الأنماط متاحة أمام الطهطاوي وهو يكتب «نهاية الإيجاز»، وقد نقل الطهطاوي كثيرًا من النصوص السابقة عليه، وكان يردّها إلى مصادرها، لكنه أعاد صياغة تقاليد كتابة السيرة النبوية حيث أفاد من تقاليد كتابتها لدى أصحاب الأنماط الثلاثة السابقة عليه (وذلك ما سيتضح تفصيلًا في فقرات تالية). وبقدر ما كان سعي الطهطاوي إلى إعادة صياغة تقاليد كتابة السيرة النبوية دالًّا على منحاه التجديدي الذي يبدأ بتمثيل الموروث -مع السعي إلى تجاوزه- فإن فعل التجاوز لدى الطهطاوي يمثل بدوره، دالًّا آخر على أن كتابة الطهطاوي السيرة النبوية لم تنفصل عن لحظتها التاريخية والأدبية؛ أي لحظة ميلاد الأنواع السردية الحديثة في الأدب العربي.

(٣)

إذا كان الطهطاوي قد قدم صياغته للسيرة النبوية في أوائل العقد الثامن من القرن التاسع عشر فإن عمله هذا يمكن تفهمه في تقاطعه مع إطار التيار الأساسي السائد على الرواية العربية الحديثة في المرحلة الأولى من مراحل تبلورها، والتي تمتد من الثلث الأخير من القرن التاسع عشر إلى بداية الحرب العالمية الأولى. وقد ساد فيها نمطان روائيان هما الرواية التاريخية والرواية التعليمية، ويتفق النمطان في كون التعليم

(١) انظر: القاضي عياض (أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض البحصبي): الشفا بتعريف حقوق المصطفى، جزآن، تحقيق علي محمد البجاوي، مطبعة عيسى الحلبي، القاهرة ١٩٧٧.

ويمكن أن يضاف إلى هذا النمط كتاب الوفا بأحوال المصطفى، الذي ألفه ابن الجوزي (أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي)، وهو يتشابه مع كتاب «الشفا» في تناوله لموضوعات كثيرة، ويختلف عنه في أمور أهمها: حذفه أسانيد الأخبار، وذكر القليل من أشعار السيرة، وتناوله حوادث السيرة بإيجاز ودون تعليقات دائمة. انظر: ابن الجوزي: الوفا بأحوال المصطفى، تحقيق مصطفى عبد الواحد، دار الكتب الحديثة، القاهرة ١٩٦٦.

الهدف المشترك لكليهما؛ وإن اختلفت طبيعته بينهما؛ فبينما كانت الرواية التاريخية تُعلم الأحداث والوقائع التاريخية الخاصة بفترة أو شخصية ما من التاريخ العربي والإسلامي فإن الرواية التعليمية قد تغيت تقديم معارف من علوم متنوعة، على نحو ما يتجلى في رواية «علم الدين» (١٨٨٣) لعلي مبارك (١٨٢٣ - ١٨٩٣) والتي تعد النموذج الأساسي لها في هذه المرحلة^(١).

ومن اللافت أن بدايات الرواية التاريخية قد بدأت في لبنان في وقت معاصر لتقديم الطهطاوي «نهاية الإيجاز»؛ إذا قدم سليم البستاني (١٨٤٨ - ١٨٨٤) روايات: «زنوبيا» (١٨٧١)، و«بدور» (١٨٧٢)، و«الهيام في فتوح بلاد الشام» (١٨٧٤)؛ وقد نشرت كلها في أعداد مجلة الجنان. بينما قدم جميل نخلة المدور روايته «حضارة الإسلام في دار السلام» في عام ١٨٨٨، ثم بدأ جرجي زيدان (١٨٥٦ - ١٩١٤) مع بداية العقد الأخير من القرن التاسع عشر، أي عام ١٨٩١، تقديم سلسلة رواياته عن تاريخ الإسلام؛ إذ قدم -في الفترة من ١٨٩١ إلى ١٩١٤- اثنتين وعشرين رواية صاغ في معظمها أحداث التاريخ العربي الإسلامي^(٢)؛ وركز فيها على بعض المراحل

(١) وصف علي مبارك كتابه «علم الدين» بأنه (اشتمل على جمل شتى من غرر الفوائد المتفرقة في كثير من الكتب العربية والإفريقية في العلوم الشرعية والفنون الصناعية وأسرار الخليقة وغرائب المخلوقات وعجائب البر والبحر وما تقلب فيه نوع الإنسان من الأطوار في الزمن الغابر، وما هو عليه في الوقت الحاضر وما طرأ عليه من تقدم وتقهقر وتكدر وراحة وهناء وبؤس وعناء إلى غير ذلك من الشؤون بتقلب الدهور وتصرف الأمور مع الاستكثار من المقابلة والمقارنة بين أحواله وعاداته في الأوقات المتفاوتة والأنحاء المتباعدة)، علي مبارك: علم الدين، الجزآن الأول والثاني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٩، ص ٨ من المقدمة. وقد رأى عبد المحسن طه بدر أن «علم الدين» (رواية تعليمية) وعلى هذا حلل العناصر الروائية فيه، انظر كتابه: تطور الرواية العربية الحديثة في مصر (١٨٧٠ - ١٩٣٨)، الطبعة الرابعة، دار المعارف، ١٩٨٣، ص -ص ٦٧ - ٧٢، أما أحمد درويش فيرى أن علي مبارك قد (وضع بذرة للرواية التعليمية في الأدب العربي المعاصر ممثلة في علم الدين)، انظر كتابه تقنيات الفن القصصي عبر الراوي والحكاكي، الشركة المصرية العالمية للنشر، ١٩٩٨، ص ١٢٧، ونشير إلى أن الاقتباس المذكور من فصل عنوانه «علي مبارك: قراءة في علم الدين» ص -ص ١٢٣ - ١٤٨.

(٢) نشير إلى أن القليل من روايات زيدان كان يتناول بعض أحداث العصر الجاهلي تمهيداً لتصوير التغير الذي أحدثه ظهور الإسلام في الشخصيات التي عاصرت الجاهلية وبداية الإسلام، على نحو ما يظهر في روايته «فتاة غسان» التي صدرت عام ١٨٩٨.

والشخصيات المؤثرة فيه مثل: الحجاج بن يوسف (١٩٠٢)، وأبو مسلم الخراساني (١٩٠٥)، والعباسة أخت الرشيد (١٩٠٦)، والأمين والمأمون (١٩٠٧)، وعبد الرحمن الناصر (١٩٠٩)، ثم صلاح الدين ومكائد الحشاشين (١٩١٣). على حين أنه اعتمد في القليل من رواياته التاريخية على وقائع بعض الفترات التاريخية الحديثة أو المعاصرة له، أو بعض شخصيات التاريخ العربي المصري الحديث، كما في روايته محمد علي (١٩٠٧) والانقلاب العثماني (١٩١١).

إن تلاقي نمطي الرواية التاريخية والرواية التعليمية في الهدف التعليمي العام هو الذي يفسر مظاهر التلاقي بينهما في طرائق الصياغة والتشكيل واستخدام تقنيات بعينها. فلما كان تعليم التاريخ - بالمعنى العام والمباشر لهذه العبارة - هو مبتغى كتاب الرواية التاريخية فإن ذلك الهدف كان يضم إلى تقديم الحقائق التاريخية المتعلقة بفترة ما، من ناحية، تصوير بعض الجوانب الحضارية التي تميز هذه الفترة، من ناحية ثانية، وتصوير الأخلاق والعادات، من ناحية ثالثة. وكان حرص كاتب الرواية التاريخية على أن يقدم لقارئه الحقائق والأحداث التاريخية الكبرى في الفترة التي يكتب عنها دافعاً له إلى أن يثبت المراجع التاريخية التي اعتمد عليها سواء في بداية الرواية أو في نهايتها أو في مواضع مختلفة، على نحو ما يبدو لدى جرجي زيدان وجميل نخلة المدور. وقد أفرز ذلك ظاهرة متكررة تتمثل في حرص كُتاب الرواية التاريخية على إسناد الأخبار والمعلومات إلى مصادرها. وبقدر ما تشير هذه الظاهرة إلى ارتباط هؤلاء الكتاب ببعض طرائق نقل الأخبار التاريخية وغير التاريخية - في الأشكال السردية العربية الوسيطة - فإنها تشير أيضاً إلى أن الجمهور الذي كان يتوجه إليه هؤلاء الكتاب إنما هو جمهور كانت «التقليدية» سمة مؤثرة في ثقافته؛ إذ كان يطالب كتاب هذا الشكل بالحرص على «المرويات الصحيحة» مما كان يدفع بعض الكتاب - مثل جميل نخلة المدور - إلى إعادة صياغة بعض الوقائع وتناولها (بشيء من التهذيب والتنقيح وتبديل

الروايات الضعيفة بما هو أصح وأثبت عند أئمة النقل^(١).

وكان كتاب الرواية التاريخية يسعون إلى تقديم وصف تاريخي وجغرافي دقيق ومفصل وموثق للأماكن التي تدور فيها أحداث رواياتهم، بينما نحا بعضهم أحياناً إلى الاهتمام بإيراد التفاصيل التاريخية أكثر من العناية بإحكام (الخيال في خلق صورة حية واقعية)^(٢) للمجتمعات أو الفترات التاريخية التي يصورونها.

وقد دفع المسعى التعليمي المباشر كتاب الرواية التاريخية إلى الإلتكاء على تقنية الاستطراد؛ إذا كان كاتب هذا الشكل يتخذ من أحداث روايته وسيلة لتقديم معلومات عن عصرها، أو تقديم النصائح والمواعظ والحكم والتوجيهات المباشرة^(٣). كما تتجلى الظاهرة نفسها في «علم الدين» حيث ينتقل الراوي بين عدة مسامرات تختلف في موضوعاتها مما يضعف من دور الرابطة الأساسية التي تربط هذه المسامرات^(٤).

لقد كان كُتّاب نمطي الرواية التاريخية والرواية التعليمية يسعون - كلٌّ بطريقته - إلى اتخاذ التشكيل السردي وسيلة ناجعة لتعليم جمهور المتلقين، وهذا ما حدد دور «الخيال» في تشكيل حركات أعمالهم؛ إذ ثمة صيغ مختلفة لتشكيل الحبكة؛ منها صيغة تقوم على الجمع بين حكاية وقائع تاريخية وحكاية متخيلة غالباً ما تكون حكاية عاطفية؛ وإذا كانت الحكاية الأولى تتشكل من عناصر قدمتها المصادر العربية القديمة عن الشخصية أو الفترة موضوع الرواية فإن الحكاية المتخيلة قد تستند إلى شخصيات

(١) جميل نخلة المدور: حضارة الإسلام في دار السلام، الطبعة الثانية، مطبعة المؤيد، ١٩٠٥، ص ١ من المقدمة.

(٢) محمد يوسف نجم: القصة في الأدب العربي الحديث في لبنان حتى الحرب العظمى، دار مصر للطباعة، ١٩٥٢، ص ١٧٨، وانظر أيضاً: تطور الرواية العربية الحديثة، ص - ص ١٠٤ - ١٠٦.

(٣) انظر: تطور الرواية العربية الحديثة ص ١٠٦، القصة في الأدب العربي الحديث ص ١٨٥، ١٩٢.

(٤) في الجزء الأول من علم الدين تمضي المسامرات من المسامرة الحادية عشرة إلى الثامنة عشرة على النحو التالي: الخانات واللوكدات، النساء، البوستة، المكاتب، الملاحة، التعلم والتعليم، البحر وعجائبه، ثم البراكين. واللافت أيضاً أن بعض المسامرات تتألف من موضوعات مختلفة ولذلك كان مبارك يعطيها عنواناً دالاً على ذلك، فالمسامرة العاشرة يسميها شتي، بينما يسمي المسامرة التاسعة عشرة «شذور»، مما يشير إلى تصويره أن وحدة الموضوع كانت تؤدي إلى اتصال المسامرة أو وحدتها.

تاريخية يملك الكاتب حرية الإفاضة في سلوكها أو ابتكار أحداث تُنسب إليها أو مجاوزة بعض الأطر التاريخية في تصويرها له، على نحو ما يبدو في تصوير جورجي زيدان لشخصية أبي العتاهية في روايته «العباسة أخت الرشيد»^(١).

وبينما قامت معظم روايات زيدان على تلك الصيغة من الحكبات، فإن ثمة صيغة أخرى قدمها جميل نخلة المدور هي صيغة الرحلة الخيالية إلى فترة تاريخية سابقة؛ فروايته «حضارة الإسلام في دار السلام» تصور رحالة فارسياً يطوف معظم البلدان الإسلامية في المائة الثانية للهجرة، ويلتقي بعدد من رجال العصر العباسي ويتصل بالبرامكة بصفة خاصة، ويقدم رحلته -إلى المتلقي- في إطار مجموعة من الرسائل

(١) تتبدى السمات المشار إليها في المتن في رواية «العباسة أخت الرشيد» بدءاً من العنوان الفرعي الذي يصفها بأنها «تتضمن على نكبة البرامكة وأسبابها، وما يتخلل ذلك من وصف مجالس الخلفاء العباسيين وملابسهم، ومواليهم، وحضارة دولتهم في عصر الرشيد»، ومروراً بما أثبتته المؤلف في الصفحة التالية لصفحة العنوان من قائمة المراجع التي اعتمد عليها. أما حبكة الرواية فتجمع بين حكايتين تصور أولاهما وقائع صعود البرامكة وسقوطهم عبر أحداث كثيرة، وتركز على علاقة جعفر البرمكي بالعباسة أخت الرشيد بوصفها حكاية تتضمن خطاً عاطفياً قوياً، وحكاية أخرى تصور حب أبي العتاهية لعتبة جارية العباسة، وعبر استخدام تقنيات المصادفة والحيلة والمفاجأة -والصراع أحياناً- تبدو الملامح التعليمية واضحة في:

- تقديم وصف تفصيلي لقصور بغداد وأسوارها (ص ٣-٤)، ووصف تفصيلي لقصر الأمين وبستانه، وكذا قصر الرشيد (٨٧-٨٨)، ثم وصف قصر زبيدة (٧٩-٨٠).

- وصف جوانب الحياة الاجتماعية والحضارية لاسيما في قصور الخلفاء وعلية القوم، كوصف جوانب اللهو (٥٧-٦٤) وموكب الرشيد (٨٥) ووصف الرقيق وأصنافهن وطرق تربيتهن وإعدادهن لمتطلبات الحياة العباسية (٢٣-٢٨)، وظاهرة التمسك بالطالع (١٣٧-١٣٨)، وتصوير مجالس الرشيد في جده ولهوه (٩٩-١٠٤)، وبيدو اهتمام المؤلف بالجوانب التاريخية في الموضوعات السابقة وفي وصفه للملامح الخارجية للشخصيات واضحاً.

- تصوير أجواء التنافس السياسي في بلاط الحاكم -كما في تصوير الصراع بين الفضل بن الربيع والبرامكة، أو بدايات الصراع بين الأمين والمأمون، أو لجوء أفراد الطبقة الحاكمة إلى التجسس على بعضهم البعض.

- الاتكاء على تقنية الاستطراد كما في الصفحات: ١٣، ٢١، ٤٠، ١٦-١٧، وغيرها. ففي الموضوع الأول، على سبيل المثال، ينتقل الراوي من الحديث عن بعض ملامح العباسة الخارجية إلى الحديث عن أول من اتخذت العاصبة المكللة، بينما ينتقل في الموضوع الثاني من تقديم الملامح الخارجية للفضل بن الربيع إلى الحديث عن أنواع الأمزجة وتأثيرها في السلوك، وهو ما يتكرر مرة أخرى ص ٤٠، بينما تهدف بعض الاستطرادات إلى التأثير العاطفي في القارئ وتقديم بعض النصائح والحكم التي يستخلصها الراوي من الموقف، كما في كلام الراوي (١٦-١٧) الذي يرد بعد وصفه لقاء العباسة بجعفر.

التي تصور للمتلقي كثيراً من جوانب العصر الذي ارتحل إليه.

وتمثل حبكة رواية «علم الدين» الصيغة الثالثة من صيغ الحبكات، وهي صيغة تقوم على الجمع بين حكاية رئيسية تمثل حكاية الإطار، وهذا ما تجسده علاقة علم الدين بالرجل الإنجليزي، سواء في مبتدأها أو تطورها أو نهايتها - وحكايات أخرى فرعية تتصل - بطريقة أو بأخرى - بحكاية الإطار، وتنشأ هذه الحكايات - دائماً - من دورانها حول شخص واحد كما في قصة يعقوب أو قصة المصري المغترب^(١).

إن وضع كتابة الطهطاوي السيرة النبوية في «نهاية الإيجاز» في توازيها الزمني مع تأصيل الرواية التاريخية والرواية التعليمية يكشف عن كثير من جوانب التلاقي بينهما، والتي يمكن أن يكون بعضها دالاً، بدوره، على بعض صور التفاعل بين تشكيل الرواية التاريخية وبنية بعض الأشكال السردية العربية الوسيطة. فإذا كان كاتب الرواية التاريخية يحرص على الاعتماد على مرويّات تاريخية «موثقة» ويشير إلى مصادره، فإن كتابة الطهطاوي كانت تحقق الشرط ذاته مستجيبة في ذلك إلى «خصوصية» متن السيرة في إطار الثقافة العربية الوسيطة؛ بمعنى أن حرص المهتمين بالسيرة النبوية - في عديد من العلوم في الحضارة الإسلامية - على تحقيق نسبة الأحداث والوقائع إلى النبي ﷺ قد حدد مجال الابتكار أمام كاتب السيرة إذ أصبح ماثلاً في التأكد من صحة الأخبار، ثم اصطفاء بعضها، أو الكثير منها أحياناً، مع التخلي عن كثير من التفاصيل أو المرويّات الخلافية. ولعل ذلك ما شكل مبدأ لكتابة السيرة النبوية حتى لدى الأجيال التالية للطهطاوي؛ على نحو ما يبدو عند طه حسين في «على هامش

(١) أحمد درويش: تقنيات الفن القصصي، ص - ص ١٤٠ - ١٤٥ حيث يمثل لهذه الظاهرة بقصة يعقوب التي بدأت في المسامرة الثالثة والخمسين - والتي حملت عنوان «حكاية يعقوب» - وانتهت في المسامرة الثانية بعد المائة - والتي حملت عنوان «تمتة حكاية يعقوب» - وقد تخللت هذه القصة قصص أخرى كثيرة عن أحوال البحار وغابات أفريقيا وحياة الكنيسة والدير وغيرها، انظر: علم الدين، الجزء الثاني ص - ص ٦٥١ - ٧٧٨، الجزء الثالث ص - ص ١١٥٣ - ١٢٥٢.

وبقدر ما كان الشرط السابق يقيد خيال كاتب السيرة في ابتكار أحداث أو وقائع فإن ضخامة مرويّات السيرة - لا سيما عند كتاب النمط المطول - كانت تعطي كاتب السيرة المُحدّث فرصة اختيار مجموعة من الأحداث والوقائع ليشكل منها هيكلًا سرديًا متصلًا، وهو الموقف نفسه الذي كان يتخذه كاتب الرواية التاريخية إزاء المواد التي تقدمها له المصادر التاريخية العربية القديمة والوسيلة.

ولما كان هدف الطهطاوي من كتابة السيرة يتصل بأهداف كتاب الرواية التاريخية والتعليمية، فقد كانت تقنية الاستطراد في السرد تقنية مشتركة بين كتابته وكتابتهم. وستبدى تلك الجوانب بتفصيل أكبر في فقرات تالية، ولكن ذلك لن يتحقق إلا بعد الوقوف على مدى وعي الطهطاوي بالأشكال السردية المختلفة ووظائفها.

(٤)

تقع سيرة الطهطاوي في المنطقة الواصلة بين التاريخ والأدب، وكانت كتابة الطهطاوي لها تتصل - بقدر تماسها مع الرواية التاريخية والرواية التعليمية - بمرحلة الإحياء التي ينتسب إليها فكر الطهطاوي وكتاباته المختلفة. ويتبدى اتصال الإحيائية بكتابة الطهطاوي «نهاية الإيجاز» من كون الطهطاوي قد أعاد إحياء ذلك الشكل السردى بعد أن توقفت كتابته في مصر لمدة أربعة قرون؛ إذ إن آخر الكتابات المصرية السابقة على الطهطاوي هو كتاب المقرئ «إمتاع الأسماع» (٢). ويتصل بذلك

(١) طه حسين: على هامش السيرة، الجزء الأول، الطبعة الثامنة عشرة، دار المعارف ١٩٦٨، ص ١ من المقدمة، حيث يقول طه حسين إنه قد منح نفسه (الحرية في رواية الأخبار واختراع الحديث...) إلا حين تتصل الأحاديث والأخبار بشخص النبي ﷺ، أو بنحو من أنحاء الدين) حينئذ كان يلتزم (ما التزمه المتقدمون من أصحاب السيرة والحديث، ورجال الرواية وعلماء الدين) حيث كاد يرد الأخبار إلى مصادرها الأولى.

(٢) انظر: جمال الدين الشيال: التاريخ والمؤرخون في مصر في القرن التاسع عشر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ٢٠٠٠، ص ٨٠.

الإحياء بعدان يتعلق أولهما بالصلة بين الأدب والتاريخ ودورها في تحديد طريقة كتابة السيرة وتقديمها بوصفها شكلاً سردياً. بينما يرتبط ثانيهما بوعي الطهطاوي بالأشكال السردية العربية الوسيطة والقديمة. ولا ينفصل عن هذين البعدين تصور الطهطاوي لمهمة الأشكال السردية والأنواع الأدبية الحديثة.

يتبدى البعد الأول الكاشف عن الصلة بين الأدب والتاريخ لدى الطهطاوي فيما يظهر في مواضع مختلفة -على قلتها- من كتابات الطهطاوي بتناول الأدب أو بعض جوانبه أو بعض قضاياها أو ما يبدو من اهتمامه النسبي بتناول مسائل كتابة التاريخ ووظائفه. واللافت أن تناول الطهطاوي لمسائل الأدب يركز فيه -على عادة غيره من الإحيائيين- على الشعر، بينما يغلب أن يتصل تناوله للنثر عامة أو السرد خاصة بتناوله للتاريخ. ولعل تقديم الطهطاوي لتناول الشعر في مقابل التغييب النسبي لتناول النثر أو السرد بوصفه الطرف الثاني من أطراف ثنائية الشعر والنثر أن يشير إلى انتماء الطهطاوي إلى اللحظة التاريخية التي كان الأديب والناقد الإحيائي يسعى فيها، حثيثاً، لصياغة موقف من الأشكال النثرية بتأثير اتصاله بالثقافة الأوروبية. وبالمثل يبدو تناول الطهطاوي لبعض الأشكال السردية العربية الوسيطة في إطار تناوله للتاريخ دالاً على منحي إحيائي يتصل باستعادة تناول المؤرخ العربي الوسيط -في مرحلة نضج الكتابة التاريخية- لأوجه التشابه والتلاقي بين بعض الأشكال السردية والكتابة التاريخية، وأوجه الاختلاف والتمايز بينهما^(١).

إن التاريخ عند الطهطاوي ينقسم إلى أثري وبشري (فالأول ما كان من طريق الشرع كالقصص الواردة في الكتب السماوية والثاني ما وقف عليه الناس من الوقائع والحوادث الحاصلة في الأعصر القديمة والحديثة فأرخوه)^(٢).

(١) حول مواقف بعض المؤرخين العرب القدامى من العلاقة بين القصص والتاريخ، انظر دراسة ألفت كمال الروبي، الموقف من القص في تراثنا النقدي، مركز البحوث العربية، ١٩٩١، ص -ص ١٥٨- ١٦٨.

(٢) الطهطاوي: أنوار توفيق الجليل، تحقيق محمد عمارة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٧٤، ص ١٤ من المقدمة. وهو الجزء الثاني من الأعمال الكاملة وقد نشره عمارة تحت عنوان «تاريخ مصر والعرب قبل الإسلام».

وإذا كان التاريخ أحداثاً ووقائع تنتمي إلى الماضي دائماً أو إلى الحاضر أحياناً، فإن الكتابة التاريخية عند الطهطاوي تستهدف تحقيق مهمة مزدوجة، وتعود هذه الازدواجية إلى المتلقي الذي كان الطهطاوي يتوجه إليه؛ إذ كان بحكم موقعه الثقافي والطبقي وطبيعة المرحلة يتوجه بكثير من كتاباته إلى الحاكم من ناحية، وإلى عامة القراء - ولا سيما طلاب المدارس من أبناء النظام التعليمي الذي أنشأه محمد علي ودعمه إسماعيل - من ناحية أخرى، فالطهطاوي يقرر أن (تعلم التاريخ أليق بأبناء الأمراء والسلاطين، إذ هو معرفة أحوال الأمم والدول والملوك الماضين، فتقف الملوك به على أحوال من مضى من الأنبياء والأصفياء وغيرهم من أرباب الرياسات والسياسات، ممن مرَّ زمانهم وانقضى، فيعتبر القارئ لسيرتهم من تلك الأحوال، ويتحصل على ملكة التجارب من تعرفه تقلبات الزمان والانتقال، فيحترز عن تجرع غصص ما نقل عن المضار، ويتنزه التمتع بفرص ما قيل من المنافع والمضار، فالتاريخ عمر ثانٍ للناظرين، فمن تعلمه فكأنما زاد في عمره وأحسن عاقبة أمره)^(١).

إن كتابة التاريخ لدى الطهطاوي بمثابة (معاد معنوي لأنه يعيد الأعصار وقد سلفت، وينشر أهلها وقد ذهبت آثارهم وعفت)^(٢). وليست هذه سوى عملية استحضار للماضي، بأحداثه وشخصياته إلى وعي المتلقي الذي يتوجه إليه الكاتب المؤرخ، وتنهض تلك العملية على مجموعة من الأشكال السردية المختلفة التي يشير الطهطاوي إلى عدد منها عرفه التراث العربي القديم كالخبر والقصة والسيرة، ثم المقامة التي جمعت بين التعليم والنقد الاجتماعي. بينما يبدو تناول الطهطاوي للأسطورة بوصفها - شكلاً سردياً - نابعاً من اتصال الطهطاوي بالأدب الفرنسي وجذوره اليونانية. ومن اللافت أن كل الأشكال السردية العربية التي تناولها الطهطاوي

(١) الطهطاوي: المرجع السابق ص ١٣ من المقدمة. وانظر أيضاً: الطهطاوي: مناهج الأبواب المصرية في مباهج الآداب العصرية، مطبعة شركة الرغائب ١٩١٢، ص - ص ١٩٧ - ١٩٨ حيث يعرض الطهطاوي أفكاراً مماثلة لما قدمناه في المتن.

(٢) الطهطاوي: أنوار توفيق الجليل، ص ١٧.

قد كانت لها فاعليتها في تبلور أشكال الرواية العربية في مرحلة نشأتها بصفة خاصة. يبدو مصطلح الخبر أو الأخبار لدى الطهطاوي مقترناً بالتاريخ من حيث كون التاريخ نقلاً أو تقديمًا للأخبار، ومن هنا يربط الطهطاوي بين التاريخ والأخبار من ناحية، والكتب السماوية - في جانب من جوانبها السردية - من ناحية أخرى. إذ يؤكد أنه لمكان العناية به (أي بالتاريخ) لم يخل منه كتاب من كتب الله المنزل، فمنها ما أتانا بأخباره المجملّة ومنها ما أتانا بأخباره المفصلة^(١).

ولعل تلك الأهمية التي نالتها الأخبار التاريخية هي التي جعلت الطهطاوي يرفض الأخبار التي أولع بها (الإخباريون والقصاص) من (الأقويل غير المرضية) و(ما يظهر بعرضه على ميزان العقل أنه من محض الخرافات) أو من (الأباطيل والخزعات)^(٢). ويمثل موقف الطهطاوي استمراراً لمواقف فئات مختلفة في المجتمع العربي الوسيط من نشاط القصاصين وحكاياتهم وأخبارهم^(٣)، كما أنه يمثل دافعاً من الدوافع المباشرة التي دفعته إلى تلخيص السيرة النبوية وتقديمها في شكل موجز.

ويتردد مصطلحا القصة والقصص في مقدمة ترجمة الطهطاوي لرواية «مواقع الأفلاك في وقائع تليماك» وفي كتابه «مناهج الألباب المصرية في مباهج الآداب العصرية»، ومن اللافت أن الطهطاوي في مقدمة ترجمته تلك يمدح النبي ﷺ بأنه (خير من أختص بالقصص والنبأ، وأنبأ عن قصة بلقيس وسبأ، ولم يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها من أخبار العرب والعجم)^(٤). ولقد قرن الطهطاوي رواية «تليماك»

(١) الطهطاوي: المرجع السابق ص ١٧.

(٢) العبارات الأربع المتقولة في المتن هي عبارات الطهطاوي في: أنوار توفيق الجليل، ص - ص ٩ - ١٠.

(٣) حول تفاصيل هذه المواقف، انظر: ألفت كمال الروبي: الموقف من القص، مرجع سابق، ص - ص ٥٩ - ٩٦.

(٤) الطهطاوي: مواقع الأفلاك في وقائع تليماك، المطبعة السورية، بيروت، ١٨٦٧، ص - ص ٢ - ٣ من المقدمة. ومن اللافت أن القصة عن الطهطاوي في «مناهج الألباب» قد اقترنت - كثيراً - بالقرآن الكريم، وقد كرر فيه عدة مرات الإشارة إلى قصة يوسف، وربط بين القصص القرآني والعظة والعبرة، من ناحية، كما أخذ - من ناحية ثانية - يستنبط المعارف «التصورية والتصدقية» من قصة يوسف في القرآن، واللافت أيضاً أنه قد أخذ يستنبط منها الدلالة الفكرية والتاريخية، انظر: مناهج الألباب المصرية في مباهج الآداب العصرية، ص - ص ١٨١ - ١٨٦.

ببعض الأشكال السردية العربية الوسيطة، فتليماك - كما يراها الطهطاوي - موضوعاً (على هيئة المقامات الحبرية في صورة مقالات)^(١)، كما أطلق الطهطاوي مصطلح «قصة» على بعض السير الشعبية العربية، ثم فضل رواية تليماك عليها وعلى بعض الأشكال السردية العربية الأخرى كألف ليلة وليلة؛ إذ يقرر (وَأَيْنَ مِنْهَا (أَيَّ مِنْ تَلِيمَاكَ) عند القوم ألفُ ليلة وليلة وألف يوم ويوم، وهل تقاس بها قصة ذي يزن أو عتتر، فكيف وموضوعهما أقطع أوتر، فقد اشتهرت هذه المقالات بين الملل والأمم اشتهار نار على علم وترجمت بفصاحتها الركبان في سائر الجهات لما اشتملت عليه من المعاني الحسنة مما هو نصايح للسلطين والملوك وبها لسائر الناس تحسين السلوك تارة بالتصريح والتوضيح وأخرى بالرمز والتلويح)^(٢).

ولما كان الطهطاوي بترجمته رواية «تليماك» يقدم نصّاً يقوم على استلهم أصل أسطوري فقد توقف أمام مصطلحي الأسطورة والأساطير؛ إذ قدم - في ديباجة ترجمته - تعريفاً بتليماك وعرف بأصله الأسطوري، ونصّ على أنه يستسقي معلوماته من (كتب الخرافات اليونانية)^(٣). وفي ضوء ذلك حاول أن يبرر ميلاد تليماك من واقعة المشتري للكمينة زوجة انفتريون، وسعى إلى تقريب هذا إلى ذهن المتلقي العربي بتقديمه عدة أخبار من التراث العربي تتحدث عن زواج الإنس بالجان أو الإنس بالملائكة^(٤). وفي هذا ما يشير إلى أن الطهطاوي قد أدرك أن الأسطورة شكل سردي يقوم على مجموعة من الأخبار التي تحوي أفعلاً خارقة أو مجاوزة للمألوف، من ناحية، كما أنها - من ناحية ثانية - تجسيد لعقيدة جماعية معينة، ولكنها يمكن - من

(١) الطهطاوي: المرجع السابق، ص ٢٨.

(٢) الطهطاوي: مواقع الأفلاك، ص ص ٢٨ - ٢٩ من ديباجة الكتاب.

(٣) الطهطاوي: المرجع السابق، ص ٢٤، وانظر أيضاً ص - ص ٢٣ - ٢٤ حيث يتحدث عن الأصل الأسطوري لتليماك.

(٤) الطهطاوي: مواقع الأفلاك، ص - ص ٢٧ - ٢٨، ويشير الطهطاوي إلى أنه ينقل هذه الأخبار عن كتاب «حياة الحيوان» للدميري.

ناحية ثالثة- أن تُوظف لأهداف تعليمية أو أخلاقية. وفي ضوء ذلك يتبدى وصفه للأدب اليوناني بأنه مبني (على إفراط العبارة) في الاعتماد على الأساطير مؤكداً أنه (لما كان الفرنج يحذون في آدابهم حذو اليونان اتخذوا الخرافات اليونانية قدوةً في ذلك وألفوا فيها تأليف تُسمّى الميثولوجيا ووقائع تليماك مشحونة بهذه الأشياء)^(١).

ويتضمن تناول الطهطاوي للأسطورة ودورها في الأدبين اليوناني والفرنسي دلالات متعددة لعل أبرزها تأكيده على ضرورة التفريق بين الظاهر والباطن فيها^(٢) وهو تمييز قد يسهم في تأويل الرسالة الضمنية التي ينطوي عليها «نهاية الإيجاز» على نحو ما سيتضح في فقرات تالية.

ويمثل مصطلح المقامة واحداً من مصطلحات الأشكال السردية التي أشار إليها الطهطاوي، وتشير بعض سياقات استخدامه لديه إلى إطلاقه إياه على القصص الفرنسية^(٣). وأما مصطلح سيرة فمن المؤكد أن الطهطاوي قد عرفه -منذ البداية- إبان دراسته بالأزهر قبل سفره إلى باريس، ثم أتيح له في باريس أن يقرأ سيراً أوروبية متنوعة كسير فلاسفة اليونان وسيرة نابليون، وقد قرأها في إطار دراسته «النظامية» للتاريخ، واللافت أنه وصف مادة بعضها مستخدماً بعض المصطلحات المستخدمة

(١) الطهطاوي: المرجع السابق، ص ٢٨.

(٢) من المؤكد أن حديث الطهطاوي عن تبني المؤلفين الفرنسيين فكرة تعدد الآلهة كإله الجمال وإله العشق وغيرهما وإن كانوا فيما يقول (لا يعتقدون ما يقولون، وإنما هذا من باب التمثيل ونحوه) -كان يسهم بطريقة غير مباشرة في تهئية أذهان المتلقين المصريين لنقل بعض الأنواع القديمة الحديثة في الأدب الأوروبي والتي تبنى على أساس الأساطير، وأعني المسرح أو التراجيديات بصفة خاصة، وهذا جانب يكشف عن ريادة الطهطاوي للتحديث، حتى في المجالات التي لم يعمل بها مباشرة وإن أثبتت له فرص الاحتكاك بها في باريس.

(٣) قرن الطهطاوي في مقدمته لمواقع الأفلاك بين تلك الرواية ومقامات الحريري، كما أشرنا في المتن. أما في تلخيص الإبريز فقد ذكر عدداً كبيراً من الكتب التي قرأها والمجالات التي اطلع عليها، وقد وردت ص ٣٣٤ عبارة يقول فيها: (وقرأت أيضاً). كثيراً من المقامات الفرنسية). ويقول محمود فهمي حجازي في تعليقه على هذه العبارة: (استخدام الطهطاوي هنا كلمة المقامات الفرنسية بمعنى القصص). انظر تلخيص الإبريز في تلخيص باريس، دراسة وتعليق: محمود فهمي حجازي، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٤.

في السرد العربي الوسيط كالقصاص والحكايات والنوادر^(١).

إن تحليل المصطلحات السردية التي استخدمها الطهطاوي يكشف عن أنه كان على دراية واسعة بكثير من الأشكال السردية العربية القديمة والوسيط، كما أتيح له التعرف على عدد من الأشكال السردية الأوروبية القديمة والوسيط والحديثة، ولما كانت معرفته بهذه الأشكال قد تمت في إطار تشكل معرفته بالتاريخ فقد كان ذلك دافعاً له لأن يرى دور هذه الأشكال في تحقيق مهام تعليمية وتهديبية يحققها التاريخ. كما قادت تلك المعرفة إلى الوعي بالأدوار التي يمكن أن يؤديها السرد في توصيل معارف مختلفة، ولهذا اعتمد عليه في عدد من مؤلفاته سواء التاريخية مثل «أنوار توفيق الجليل» أو التعليمية التوجيهية العامة مثل «المرشد الأمين» و «مناهج الأبواب». وقد قاده ذلك الوعي إلى إعادة كتابة السيرة النبوية بوصفها نصاً سردياً، ولعله كان يدرك -على نحو ضمني- أن مثل هذه الكتابة هي صورة من صور التجادل مع تقاليد راسخة تثبتت في كتابة السيرة النبوية لدى السابقين عليه، وإذا كانت كتابته تلك قد استندت إلى توجهاته الإصلاحية التي حكمت مجمل مؤلفاته، فإنها قد تأسست، من ناحية، على رؤيته التاريخية، بينما قامت، من ناحية أخرى ومن حيث هي إعادة تشكيل لتقاليد شكل سردي راسخ في الثقافة العربية الوسيط، على أداة الذوق الذي رأى الطهطاوي أنه ملكة متجددة يتغير دورها بتغير البيئة والأزمان ويرتقي مع تقدم العمران^(٢). وفي هذا ما يؤسس للطرائق والتقنيات التي اعتمدها الطهطاوي في إعادة تشكيل كتابة السيرة النبوية ليواجه متطلبات جديدة طرحها واقع جديد.

(١) انظر الطهطاوي: تلخيص الإبريز، مرجع سابق، ص ٣٣٣ حيث يحدد كتب التاريخ والسير التي قرأها في بيت «الأندية» بباريس، ويصف أحدها بأنه (يتضمن قصصاً وحكايات ونوادر). وانظر ص -ص ٤٨٤- ٤٨٥ حيث يقدم محمود فهمي حجازي تعليقات وشروحاً بالغة الأهمية حول هذه الكتب.

(٢) حول مفهوم الذوق عند الطهطاوي، انظر: عطية عامر: رفاة الطهطاوي.. الناقد الأدبي، منشور ضمن كتاب «شوقي ضيف: سيرة وتحية، إشراف طه وادي، دار المعارف، ١٩٩٢، ص ص ٣٤٧- ٣٤٨ حيث يعرض لمعنى الذوق عند الطهطاوي.

(٥)

تتصل كتابة الطهطاوي السيرة النبوية بتقاليد كتابة السيرة النبوية في التراث العربي السابق عليه، كما ترتبط بطرائق الكتابة والتشكيل في الرواية التاريخية والرواية التعليمية المعاصرتين له. وتتكشف تلك الصلات -أكثر ما تتكشف- في التشكيل السردي الذي صاغ فيه الطهطاوي كتابته، ويقوم ذلك التشكيل على عدة عناصر هي: تنظيم الوحدات السردية الكبرى، والاعتماد على تقنية الإيجاز والحذف، والركون إلى تقنية الاستطراد، ثم توظيف الشعر داخل الكتابة السردية.

وبقدر ما تمارس تقنيتا الإيجاز والحذف والاستطراد تأثيرات متعددة في إطار الوحدات السردية (الكبرى والوسطى والصغرى) في سيرة الطهطاوي فإن أدوارهما في تشكيل الوحدات الوسطى تحمل دلالات واضحة على المنحى التجديدي في كتابة الطهطاوي للسيرة النبوية، ومن هنا ضرورة التوقف أمام نموذج من نماذج تشكل الوحدات الوسطى.

وبقدر ما تمثل العناصر السابقة متن السيرة النبوية عند الطهطاوي فإنها تكشف عن كون الطهطاوي نموذجاً لذلك الراوي المفارق لمرويه.

(٥/١)

تنظم السيرة النبوية لدى الطهطاوي في ست وحدات سردية كبرى، هي على تتابعها: المولد، والمبعث، والهجرة، وظواهر ما بعد الهجرة، ثم وفاة النبي ﷺ وذكر بعض أخلاقه وصفاته ومعجزاته وأزواجه وأعمامه وعماته وأحواله ومواليه وخدمه وحشمه، ثم الوظائف والعمالات البلدية.

ومن البين أن الوحدات الأربع الأولى -بالإضافة إلى نقطة الوفاة في بداية الوحدة الخامسة- قد رُتبت على أساس زمني قائم على التوالي التاريخي. وتشكل العلاقة بين

هذه الوحدات نمطاً من أنماط البنية المركبة التي تقوم على منطق النظم أو التنضيد - عند شلوفسكي - حيث تتتابع مجموعة من القصص القصيرة يغلب أن تكون وحدات سردية (مستقلة كل واحدة عن الأخرى، لكن تصل فيما بينها شخصية مشتركة)^(١)، ويؤدي تعاقبها في نص واحد إلى إنشاء (وحدة جديدة لها بنية مخصوصة، ولعل أظهر ما تتجلى فيه هذه البنية القصص التاريخية أو قصص السيرة)^(٢). وتشكل تلك الوحدات الهيكل الأساسي لمتن السيرة النبوية، ومن اللافت تأمل العلاقات التي ينشئها نص الطهطاوي مع الكتابات السابقة عليه؛ فهو من ناحية يتابع كُتّاب نمط السيرة المختصرة - كابن عبد البر وابن حزم - الذين قصروا متن السيرة على متابعة حياة النبي ﷺ من ميلاده إلى وفاته. بينما يبدو - من ناحية ثانية - مُعدّلاً في بعض التقاليد السائدة لدى كتاب النمط المطول والنمط المشروح؛ فإذا كانت سيرة ابن هشام تنتهي بوفاة النبي ﷺ فإنها قد توقفت عند القصائد التي قيلت في رثائه، بينما وضع ابن سيد الناس - قبل تقديمه وحدة الوفاة - أخباراً مختلفة عن الجوانب الاجتماعية والأسرية للنبي ﷺ كأولاده وأعمامه وأزواجه وأسرته ومواليه وكتابه وحراسه وجمل من صفاته وغيرها^(٣)، وهذه هي نفسها الوحدات الصغرى التي ساقها الطهطاوي بعد ذكره الوفاة. ومن اللافت أن المنطق الكامن خلف ذلك التنظيم الذي قدمه الطهطاوي يبدو متصلاً - بقوة - ببعض السير الغيرية التراثية، كما يرتبط أيضاً بنظام الترجمة في بعض كتب التراجم العربية ككتاب الأغاني؛ فسيرة عمر بن الخطاب لابن الجوزي (ت ٥٩٧هـ) تقوم على سرده وقائع حياته من مولده إلى توليه الخلافة عبر تتابع زمني محكم، ثم تلجأ إلى السرد القائم على الموازنة بين عرض سلوكه وتصرفاته من ناحية وصفاته وسماته من

(١) شلوفسكي: بناء القصة القصيرة والرواية: ترجمة إبراهيم الخطيب، ضمن كتب نظرية المنهج الشكلي (نصوص الشكلايين الروائيين)، مؤسسة الأبحاث العربية - بيروت، والشركة المغربية للنشر المتحدّين، ١٩٨٢، ص ١٤٦. ونشير إلى أن كلمة «قصة قصيرة» هنا بمعنى حكاية أو وحدة سردية.

(٢) محمد القاضي: الخبر في الأدب العربي: دراسة في البنية السردية، طبع كلية الآداب - منوبة، تونس، ودار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٨، ص ٣٦٦.

(٣) انظر: ابن سيد الناس: عيون الأثر، مرجع سابق، الجزء الثاني، ص - ص ٣٦٤ - ٤١٧.

ناحية أخرى، مما يخرق الترتيب الزمني لسرد الوقائع الذي تجلّى في الوحدات الأولى. ولا تمثل حادثة مقتل عمر نهاية السيرة إذ تتلوها مجموعة من الوحدات التي يقدم فيها المؤلف عددًا من الوحدات أو الموضوعات المتصلة بعمر كـ بعض صفاته، وبكاء الناس عليه، والمنامات التي رآها أو التي رؤي فيها، وذكر ثناء الناس عليه^(١).

ورغم أن نظام الترجمة في كتاب الأغاني يقوم على الابتداء بنسب المترجم له والانتهاؤ بوفاته، فإن بعض التراجم كانت تنتهي بأخبار تتصل بالمترجم له بعد وفاته^(٢). وإذا كانت الوحدة السادسة التي قدم فيها الطهطاوي الوظائف والعمالات البلدية قد مثلت لدى دارسي كتاباته التاريخية دالًا من دوال تجديده^(٣) فإنها - من حيث علاقتها بوحداث السيرة - تبدو متصلة بها في اعتمادها على تقديم كم كبير من المرويات السردية المختلفة، بينما تبدو - في الآن نفسه - منفصلة عن متن السيرة؛ إذ تبدو عرضًا لجوانب اجتماعية وسياسية تنظيمية يستعين ببعض العناصر السردية كالأخبار والحكايات، كما تبدو إيجازًا لكتاب الخزاعي (ت ٧٨٩هـ) «تحرير الدلالات السمعية»^(٤). وقد صرح الطهطاوي بأن إضافته تلك الوحدة إلى السيرة تمثل نمطًا

(١) انظر: أبو الفرج بن الجوزي (عبد الرحمن بن علي بن محمد): سيرة عمر بن الخطاب، عني بضبطه وحل مشكله، وعرضه على كتب الحديث: ظاهر النعسان الحموي وأحمد قدري كيلاني، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، دون تاريخ.

(٢) محمد القاضي: الخبر في الأدب العربي، مرجع سابق، ص ٤٢٥.

(٣) انظر: جمال الدين الشيال؛ التاريخ والمؤرخون، مرجع سابق، ص ٨١، حسين فوزي النجار: رفاة الطهطاوي، مرجع سابق، ص ١٤٣، أما كرايس جونيوفيرى أن هذا الجزء من كتاب الطهطاوي... يمثل تقدمًا في التكنيك - أي تكنيك الكتابة التاريخية، ثم يرد ذلك إلى تأثير الطهطاوي بفولتير إذ يقول إن الطهطاوي قد استطاع (أن يضمن في دراسته دراسة مستفيضة عن المؤسسات الإسلامية المبكرة - وهي بدعة هامة في زمانه، ربما يكون قد أوحى لها بها قراءاته لتاريخ فولتير Voltaire عن لويس الرابع عشر، الذي حاز شهرة لهذا السبب بالتحديد) كتابة التاريخ في مصر في القرن التاسع عشر: دراسة في التحول الوطني، ترجمة وتعليق عبد الوهاب بكر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٣، ص - ص ١١١ - ١١٢.

(٤) انظر: أبو الحسن علي بن محمد الخزاعي بن محمد الخزاعي التلمساني: تخريج الدلالات السمعية على ما كان في عهد رسول الله ﷺ من الحرف والصنائع والعمالات الشرعية، تحقيق أحمد محمد أبو سلامة، طبع المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ١٩٨٠، وتقوم بنية هذا الكتاب على مجموعة من الأبواب التي تنقسم =

من أنماط التجديد في كتابتها^(١)، ولعل هذه الإضافة دال يشير إلى أن كتابة الطهطاوي السيرة لم تقف فقط عند حد التغيير في تقاليد كتابة السيرة النبوية، بل جمعت إليها لونا من النصوص المقالية - الاجتماعية والسياسية - التي قد تنهض - بدورها - دالا على تغير ما في توجهات الطهطاوي الفكرية في أخريات حياته.

وتختلف أطوال الوحدات السردية الكبرى في سيرة الطهطاوي نتيجة عاملين يتمثل أولهما في حجم العناصر السردية وغير السردية التي يعتمد عليها الطهطاوي، وتبدو الوحدة الرابعة، وهي الخاصة بظواهر ما بعد الهجرة، أطول هذه الوحدات، ولذا قسمها الطهطاوي إلى وحدات أصغر حيث جعل من أحداث كل عام وما فيه من غزوات وحدة واحدة. على حين يتمثل ثانيهما في بروز تقنيتي الإيجاز والحذف والاستطراد حيث تبدو فاعلية كل منهما سببا من أسباب تحديد حجم الوحدة السردية، من ناحية، ودالا - من ناحية أخرى - على أهمية هذه الوحدة أو تلك في متن الطهطاوي.

(٥/٢)

مارست تقنية الحذف والإيجاز تأثيرات متعددة في تشكيل الطهطاوي لمادة سيرته، ويعد إدخال كلمة الإيجاز في العنوان «نهاية الإيجاز في سيرة ساكن الحجاز» دالا أوليا على تلك التأثيرات. وتبدو فاعلية هذه التقنية بعنصرها - الحذف والإيجاز -

= بدورها إلى فصول، ويتناول المؤلف في كل فصل حرفة أو مهنة مما كان على عهد الرسول ﷺ، ويعد السرد عنصرا أساسيا من عناصر بنية الفصل في هذا الكتاب إذ كان الخزاعي يبدأ كل فصل بتقديم أسماء الشخصيات التي مارست هذه المهنة أو تلك، ثم يقدم مرويات ونقولا من مصادر مختلفة تؤكد ما ذكره أو وتنبه، ثم يتبع ذلك بتقديم (أنساب وأخبار) هذه الشخصيات، بينما يختم الفصل بتقديم بعض الشروح اللغوية التي تتصل بالمادة التي قدمها في الفصل. انظر - على سبيل المثال - الباب الخامس وعنوانه (في ذكر الخادم)، وهو يتكون من فصلين هنا: (في ذكر من تولى خدمة النبي ﷺ) و (في ذكر أنسابهم وأخبارهم) ص - ٥٤ - ٥٦. وقد لجأ الطهطاوي إلى إيجاز ما ورد في هذا الباب وأدمجه في بابين آخرين (من أبواب الخزاعي) وقدمهما في فصل واحد وعنوانه (وفي خدمه الخاصة به ﷺ) ..

(١) الطهطاوي: نهاية الإيجاز، الجزء الثاني، ص ٣٢٩.

جليةً في حذف الطهطاوي للوحدة السردية الكبرى الأولى في سيرة ابن هشام وهي وحدة المبتدأ، واستعاضته عنها بتقديم بعض الجوانب الأساسية في حياة العرب في الجاهلية وانتهائه إلى الحديث عن الإرهاصات الداخلية والخارجية بمولد النبي ﷺ، وذلك في الجزء الأول من «أنوار توفيق الجليل»^(١)، واللافت هنا أن الطهطاوي قد قدم نبوءة سيف بن ذي يزن بمولد النبي ﷺ، وذلك في لقائه بعبد المطلب، وهذا ما يتناقض مع ما يبدو من ميل الطهطاوي إلى تجاهل كثير من الرؤى والنبوءات التي اعتمدت عليها كثير من نصوص السير السابقة، على نحو ما يظهر، على سبيل المثال، في سرده وقائع غزوة بدر.

وبقدر ما كان الحذف دالاً على مسعى الطهطاوي إلى استبعاد عناصر متعددة من متن السيرة السابقة عليه فإن الطهطاوي كان يعتمد على الاتكاء على عنصر الإيجاز حيث كان يقدم بإيجاز شديد الدلالة الأساسية التي تشير إليها تلك الوحدة المحذوفة؛ فإذا كانت سيرة ابن هشام قد أفاضت في تقديم أخبار العرب قبل ميلاد الرسول ﷺ ولذلك لتمجد شخصية الرسول ﷺ بوصفه المثل الأعلى للبطولة العربية^(٢) فإن الطهطاوي قد حذف تلك الوحدة، وقدم في إطار تناوله للإرهاصات بمولد النبي ﷺ، تفسيراً سياسياً يثبت حاجة الجماعة العربية إلى رسالته.

وإذا كان الطهطاوي قد بدأ سيرته بمولد النبي ﷺ فإنه قدم نسبه بإيجاز مقارنة بسيرة ابن هشام^(٣)، ومتفقاً في هذا مع كتاب النمط المختصر للسيرة كابن عبد البر وابن حزم. وتبدو تقنية الحذف والإيجاز بارزة في حذف الطهطاوي لمعظم أسانيد المرويات المختلفة من أخبار وأحاديث وحكايات واكتفائه دائماً بالراوي الأول أو الأصلي لكل

(١) انظر: الطهطاوي: أنوار توفيق الجليل، ص - ص ٦٥٧ - ٦٦١.

(٢) انظر: نبيلة إبراهيم: السيرة النبوية بين التاريخ والخيال الشعبي، عالم الفكر، عدد مارس ١٩٨٢، ص ٣٣٥.

(٣) انظر: نهاية الإيجاز، ص - ص ٧٧ - ٧٨. وقد أصلت السيرة النبوية مبدأ البدء بتقديم نسب البطل في كل السير الشعبية العربية، انظر: أحمد شمس الدين الحجاجي: مولد البطل في السيرة الشعبية، كتاب الهلال، العدد ٤٨٤، إبريل ١٩٩١، ص ٧٤.

منها. ويلتقي الطهطاوي في ذلك مع كُتاب النمط المختصر من السيرة، كما يلتقي مع كتب المختصرات في التراث السردى العربى الوسيط^(١). وتبرز تقنية الحذف في استبعاد الطهطاوي لكثير من الأشعار -مقطوعات كانت أم قصائد- التي قدمها ابن هشام وغيره من كتاب النمط المطول من السيرة كابن سيد الناس، دون أن يمنعه هذا من توظيف الشعر وظائف مختلفة في سيرته.

ويبدو أن تلك التقنية كانت تمارس فاعليتها في كتابة الطهطاوي اعتماداً على عنصر الحذف في عدد من المواضع التي كانت كتابات السيرة السابقة تستخدم فيها عناصر تشويق تدفع المتلقي إلى متابعة السرد؛ ففي سرده أخبار حفر عبد المطلب بئر زمزم حذف كل المرويات التي قدمتها السير السابقة، والتي جعلت من ذلك الفعل استجابة لرؤيا رآها عبد المطلب^(٢). كما تجلّى النمط نفسه في حذفه لعدد من النبوءات المرتبطة بوقائع مع غزوة بدر (وهذا ما سيتضح تفصيلاً في فقرة تالية).

وإذا كان ارتكان الطهطاوي إلى تقنية الحذف والإيجاز يقرنه بطرائق كتابة الرواية التاريخية في مرحلته التاريخية -الأدبية فإن حضور تلك التقنية في كتابة الطهطاوي إنما كان يقترن بتغيّبه تقنية الاستطراد، بينما يمثل حضور تقنية الاستطراد دالاً على فعاليتها المختلفة عن فاعلية تقنية الحذف والإيجاز.

(١) حول حذف الأسانيد في مختصرات كتاب الإغاني مثل «تجريد الأغاني من ذكر المثلث والمثنائي» لابن واصل الحموي (ت ٦٧٩هـ) و «مختار الأغاني في الأخبار والتهاني»، انظر: محمد القاضي: الخبر في الأدب العربي، مرجع سابق، ص ٣٣٥ ومن الملاحظ أن ابن الجوزي قد حذف الأسانيد في كتابه «الوفا بأحوال المصطفى» رغبة في الإيجاز وخوف إملال السماع، وهذا ما جعل الوقائع تحتل مساحة موجزة -انظر على سبيل المثال- تقديمه لغزوة بدر ص -ص ٦٧٥، ٦٨٢، من الجزء الأول.

(٢) انظر: الطهطاوي: نهاية الإيجاز، مرجع سابق ص ٩٦، وانظر: سيرة ابن هشام الجزء الأول، ص -ص ٩٢- ٩٣ ومن اللافت أن بعض الكتاب «العقلانيين» من الجيل التالي للطهطاوي قد قبلوا هذه الرؤيا -كما نجد عند طه حسين ومحمد حسين هيكل، انظر: طه حسين: على هامش السيرة، مرجع سابق، ص -ص ٣- ٦، محمد حسين هيكل: حياة محمد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٠، ص ١١٦.

(٥/٣)

الاستطراد تقنية محورية اعتمد عليها الطهطاوي في تشكيله لمتن السيرة النبوية، وتقوم تلك التقنية على تطرق الطهطاوي -والذي يمثل نمط الراوي المفارق لمرويه- إلى بعض الجوانب الفرعية التي تتصل بالوقائع أو الشخصيات أو المواقف التي يدور حولها السرد. ويقوم الاستطراد على تصور الراوي وجود صلة بين ما يحكيه وما يستطرده إليه، دون أن يتطلب السياق السردى الاتكاء على هذه الصلة في الموضع الذي يبرز فيه الاستطراد. وتبدو الصلة واضحة بين هذه التقنية لدى الطهطاوي ومفهومها الذي استقر لدى كثير من النقاد والبلاغيين العرب؛ إذ تحدد الاستطراد لديهم بأنه (أن يأخذ المتكلم في معنى فبينما يمر فيه يأخذ في معنى آخر وقد جعل الأول سبباً فيه)^(١) مما يشير إلى أن الصلة الفكرية أو الشعورية بين المعنيين -والتي قد ترد إلى التقاليد الجمالية والثقافية أو إلى إرادة المتكلم- هي دافع المتكلم إلى الاستطراد. ولعل أهمية المعنى الأول الذي يحدث عنده أو منه الاستطراد هي التي دفعت بعض البلاغيين العرب القدامى إلى اشتراط أن يعود إليه المتكلم مرة أخرى بعد انتهاء استطراده^(٢).

وبقدر ما يمثل الاستطراد في متن الطهطاوي صورة من صور إيقاف السرد مما ينتج وقفات سردية كثيرة، فإنه دال يشير إلى الغايات الدفاعية والتعليمية التي أراد الطهطاوي تحقيقها لدى من توجه إليهم بمتن سيرته.

وهناك نمطان من تقنية الاستطراد بارزان في سيرة الطهطاوي، ورغم أن ما يجمعهما هو الهدف التعليمي «العام» فإن ثانيهما يبدو فيه ذلك الهدف أكثر مباشرة، ولهذا يمكن وصفه بأنه استطراد تعليمي مباشر، بينما يمكن وصف أولهما بأنه استطراد سردي.

(١) أحمد مطلوب: معجم النقد العربي القديم، الجزء الأول، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٨٩، ص ١٤٩، وهو يعالج مصطلح الاستطراد ص -ص ١٤٨- ١٥٣.

(٢) انظر أحمد مطلوب: المرجع السابق، ص ١٥٢.

ويتمثل نمط الاستطراد السردى في جنوح الطهطاوي الراوي إلى تقديم عدة أخبار أو وقائع تصور بعض سمات الشخصية التي يدور حولها السرد أو تقديم جزء من «تاريخ» الشخصية التي تسهم في الحدث. وتكشف معاينة السياقات التي برز فيها هذا النمط أن المنطق الكامن وراءه يتمثل -دائمًا- في علاقات النسب أو الاتصال التي تربط بين الشخصيات التي يسرد الراوي عنها. وثمة نموذج دال على بروز هذه التقنية يتمثل في سرد الطهطاوي لواقعة زواج النبي ﷺ من السيدة خديجة^(١) حيث يقوم نمط هذه التقنية على قطع الخيط الأساسي لزمان الوقائع، والانتقال منه إلى زمن آخر أسبق تاريخيًا، يضم وقائع أخرى ترتبط بالشخصية التي يدور حولها السرد؛ فإذا كان زمن واقعة الزواج ينتمي إلى ما قبل المبعث فإن بعض الوقائع التي يقدمها الطهطاوي تنتمي إلى الزمن نفسه، وبذلك يتحقق قدر من الاتساق في المسار الزمني للوقائع المقدمة، بينما تنتمي وقائع أخرى إلى مرحلة ما بعد المبعث وبذلك تمثل -بمعنى أو بآخر- استكمالًا لبعض الجوانب التي تكمل صورة الشخصية التي يدور حولها السرد (أي شخصية السيدة خديجة)، بينما يقوم السرد على نوع من الانتقال «الحر» بين المراحل الزمنية للوقائع المقدمة.... وتبرز فاعلية هذا النمط الاستطرادي في سرد تلك الواقعة على النحو التالي:

يأخذ الطهطاوي في سرد حادثة زواج النبي ﷺ بالسيدة خديجة (١٤٧- ١٤٨)، ثم في تقديم بعض الأخبار عن أولاده منها؛ فيشير بإيجاز إلى أبي القاسم (١٤٩)، ثم يتوقف عند زينب وزواجها بالعاص (١٥٠)، حيث يبدو ما يقدم عن العاص أكثر بكثير مما يقدم عن زينب، ثم يتحدث عن رقية (١٥١)، ثم عن أم كلثوم (١٥١- ١٥٢)، ثم عن فاطمة (١٥٢). وحيث تبرز تقنية السرد التعليمي الخالص التي يستخدمها الطهطاوي في تناول مسألة فضائل أهل البيت معتمداً على حشد تفسير بعض الآيات القرآنية، والاستشهاد ببعض الأحاديث النبوية، مضيفاً إليهما شواهد شعرية مختلفة (ص - ص

(١) انظر: الطهطاوي: نهاية الإيجاز، ص -ص ١٤٧- ١٦٦، وتجنباً لإطالة الهوامش ستشير إلى الصفحات داخل المتن.

١٥٣- ١٥٧). واللافت أن الاستطرايين السردى والتعليمى يتمثلان فى الطول... ثم يعود الطهطاوى إلى سرد موجز عن بنات فاطمة (زينب وأم كلثوم ورقية) (ص ١٥٧)، وينتقل منه إلى سرد وفاة السيدة خديجة وتقديم جوانب من حياتها قبل زواجها بالنبي ﷺ (١٦٠- ١٦١)، ثم يتوقف مستطردًا أمام مقولة بعض الصوفية عن أن (أربعة من النساء أنجن أربعًا من الأنبياء عليهم السلام فوجدن بذلك المغفرة) (ص ١٦٢).

ويتكرر هذا النمط الاستطرايى فى تقديم الطهطاوى لعدد من الشخصيات منها: عبد المطلب، وفاطمة الزهراء، ثم حليلة السعدية التى يبدو أن تقنية الاستطراد السردى تتحول -عند تقديمها- إلى استطراد عكسى؛ إذ يبدأ الطهطاوى بتقديم بعض جوانب حياتها وسلوكها بعد الإسلام، ويتبع ذلك بتلخيص القصة المتواترة عن إرضاعها للنبي ﷺ^(١).

إن ذلك النمط السردى يقوم، دائمًا، على تغييب زمن الوقائع المسرودة عن طريق تحرير الراوى من الالتزام بتنسيقها وضبطها فى مسار زمنى قائم على تتابعها فى زمن الحدوث. ومن اللافت أن ذلك التغييب الزمنى يبدو ظاهرة بارزة فى كثير من كتب التراجم والطبقات فى التراث السردى العربى^(٢)، وكذلك فى عدد من السير الغيرية التراثية كسيرة عمر بن الخطاب لابن الجوزى وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم (ت ٢١٤هـ)؛ فبعد أن ضبط ابن عبد الحكم وقائع حياة عمر من بدايتها إلى توليه الخلافة أخذ يقدم العناصر السردية -كالأخبار والحكايات والقصص- وغير السردية -كالمواعظ والرسائل- دون حرص على ترتيبها أو العمل على إبراز الترابط الزمنى فيها^(٣).

(١) انظر: نهاية الإيجاز، ص -ص ١١١- ١١٧.

(٢) انظر: محمد القاضى: الخبر فى الأدب العربى، مرجع سابق، ص -ص ٤٢٥- ٤٢٦، حيث يمثل لهذه الظاهرة بتراجم كتاب الأغاني.

(٣) انظر: أبو محمد عبد الله بن عبد الحكيم: سيرة عمر بن عبد العزيز، على ما روى الإمام مالك ابن أنس وأصحابه، نسخها وصححها وعلق عليها أحمد عبيد، الطبعة الأولى بنفقة المكتبة العربية، مصر ودمشق، ١٩٢٧. وانظر: أيضًا: سيرة عمر بن الخطاب لابن الجوزى، مرجع سابق، وانظر ملاحظتنا عليها فى الفقرة الخاصة بالوحدات السردية فى متن هذه الدراسة.

ولعل هذا ما يشير إلى قوة تأثير التراث السردى العربى فى تقنيات كتابة الطهطاوى السيرة النبوية.

وتمثل تقنية الاستطرد التعليمى المباشر تقنية متواترة بكثرة وفى مواضع مختلفة من نص الطهطاوى^(١)، وبقدر ما يمثل بروزها لديه تجديدًا فى نمط كتابة السيرة الموجزة أو المختصرة؛ إذ لم يلجأ إليه ابن عبد البر أو ابن حزم، فإن استخدامها يشير إلى متابعة الطهطاوى ما استقر فى متون شرح السيرة النبوية من العروج إلى قضايا ومسائل دينية وأخلاقية وكلامية وتاريخية ولغوية وأدبية مختلفة يرى الشارح أنها ذات صلة بوقائع السيرة النبوية.

ويختلف نمط هذه التقنية عن نمط الاستطرد السردى فى كون الاستطرد السردى غالبًا ما كان يقوم على صياغة الطهطاوى الوقائع بلغته هو (وإن استعان أيضًا بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية)، بينما غلب على الاستطرد التعليمى المباشر أن يكون نقلًا أو تلخيصًا لمرويات وكتابات من مصادر سابقة على الطهطاوى، كان الطهطاوى يتصور أن ما قدمته مفيد للمتلقى الذى يتوجه إليه.

وتتسم بعض نماذج هذه الاستطردات بالطول حتى إن الواحد منها قد يستغرق فصلًا كاملًا أو ما يقل عنه بقليل، على نحو ما يبدو فى الاستطرد الخاص بمسألة الاحتفال بالمولد النبوى الذى يتمثل فى مجموعة من النصوص المنقولة عن مصادر فقهية وتشريعية وغيرها^(٢). ومن اللافت أن ذلك النموذج يمثل قطعًا ممتدًا ومطولًا فى مسار الوقائع التى يقدمها الراوى، كما يُغيب فترة من حياة النبى ﷺ؛ إذ انتهى الطهطاوى

(١) انظر نماذج مختلفة لهذه الاستطردات فى المواضع التالية:

ص - ص ١٠٨ - ١١١ عن أبى لهب، ص - ص ١٢٢ - ١٣٨ عن المولد النبوى، ص - ص ١٨١ - ٢٠٥ تنتشر استطردات مختلفة ص - ص ٢٢٦ - ٢٣١ حيث يسرد وقائع الهجرة إلى الحبشة، ص - ص ٢١٣ - ٢٤٢ استطردات مختلفة مرتبطة بالإسراء والمعراج. أما فى الجزء الثانى فيُنظر - على سبيل المثال - عرضه لوقائع الهجرة، ص - ص ٢٠٠ - ٢٤٠، حيث تبرز فيه استطردات مختلفة فى هذه الصفحات.

(٢) انظر: نهاية الإيجاز، ص - ص ١٨١ - ٢٠٥.

في الفقرة السابقة عليه إلى قص وقائع حياة النبي ﷺ حتى بلوغه السادسة، بينما استأنف السرد -في نهاية هذا الاستطراد- وقد صار عمر النبي ﷺ ثلاثة عشرة عامًا. وبذلك أدى الاستطراد إلى قطع يتمثل في إسقاط أخبار ووقائع عدة سنوات من طفولة النبي ﷺ.

وقد تكررت الظاهرة نفسها في سرد الطهطاوي لوقائع الهجرة إلى الحبشة^(١).

وتشكل الاستطرادات المختلفة الناتجة عن حادثة الإسراء والمعراج نموذجًا آخر دالًا على مهام تقنية الاستطراد التعليمي المباشر لدى الطهطاوي؛ فبينما لا يحتل سرد الطهطاوي لوقائع الإسراء والمعراج سوى مساحة محدودة تزيد قليلًا عن الصفحة، ملتقيًا في هذا مع ابن عبد البر وابن حزم^(٢) -فإنه ينجح إلى استطرادات مختلفة معظمها يدور حول مسائل كلامية ناتجة عن الإسراء والمعراج^(٣) وهي تمضي على النحو التالي:

مسألة شق الصدر (٢١٦)، ماء زمزم وأفضليته (٢١٦- ٢١٨)، ضرورة الامتثال للأفعال التي أمرنا الله بها (٢٢٠)، كيفية الإسراء: هل كان بالروح والجسد أم بالروح فقط (٢٢٢- ٢٢٤) رؤية النبي ﷺ لله (٢٢٦- ٢٣٢)، ثم مسألة رؤية المؤمنين النبي ﷺ

(١) تناول الطهطاوي الهجرة إلى الحبشة ص -ص ١٨١- ٢٠٥، وقد مضت كتابته على النحو التالي: بدأ بالحديث عن أسباب هذه الهجرة وبدأيتها ص ١٨١، ثم عرض إسلام عمر بن الخطاب وما ترتب عليه ص -ص ١٨٢- ١٨٣، ثم لجأ إلى قطع مطول للسرد حيث قدم واحدًا من استطراداته التعليمية ناقش فيه مسألة «الغرائق» ص -ص ١٨٣- ١٩٤، واللافت أن هذا الاستطراد قد قاده إلى تناول الصفات التي يجب توفرها في الأنبياء، والصفات التي يجب ألا يتصفوا بها، وذلك ما يشكل عرضًا لمسائل كلامية صرف داخل الاستطراد التعليمي (ص -ص ١٩٧- ١٩٩). وأغلب ذلك بتقديمه حكاية عثمان بن مظعون (ص -ص ١٩٩- ٢٠٠)، ثم عاد ثانية إلى مسألة الهجرة إلى الحبشة، ثم تناول مقاطعة قريش لبني هاشم ومسألة الصحيفة (ص -ص ٢٠٢- ٢٠٣)، ثم قدم أخبارًا عن إسلام الطفيل بن عمرو الدوسي (ص ٢٠٣)، وإسلام عشرين من نصارى نجران (ص ٢٠٤)، ثم قدم حكاية نعمان بن عدي (ص -ص ٢٠٤- ٢٠٥) فيما يمثل آخر نماذج الاستطراد في تلك الفقرة.

(٢) انظر: نهاية الإيجاز ص -ص ٢١٣- ٢١٤، وقد حكى ابن عبد البر الإسراء والمعراج في خمسة أسطر فقط، انظر الدرر في اختصار المغازي والسير، مرجع سابق، ص ٦٩، بينما رواها ابن حزم في صفحة إلا قليلًا، انظر: جوامع السيرة، ص ٦٨.

(٣) انظر: نهاية الإيجاز، ص -ص ٢١٦- ٢٤٠.

في الدنيا وفي المنام (٢٣٤ - ٢٣٧)، ويتناول أخيرًا مسألة المفاضلة بين الليل والنهار (٢٣٧ - ٢٤٠)، وليس غريبًا أن تكون تلك المفاضلة قد نتجت عن كون الإسراء ليلاً.

ومن اللافت أن هذا النمط من الاستطراد قد تحول لدى الطهطاوي إلى وسيلة تجعل من بنية بعض الوحدات السردية الكبرى بنية قائمة على سرد وقائع هذه الوحدة، من ناحية، وتقديم استطرادات تعليمية تمثل قطعًا متكررًا لمسار تلك الوقائع، من ناحية أخرى. ويشكل سرد الطهطاوي لوحدة الهجرة نموذجًا دالًا على ذلك، حيث يراوح الطهطاوي بين قص الوقائع، وتقديم استطرادات تعليمية مباشرة يتصف معظمها بالطول^(١).

ويبدو الاستطراد بنمطيه تقنية راسخة في بعض كتابات الطهطاوي غير الأدبية^(٢) واللافت أن الطهطاوي كان يدرك أن الاستطراد خصيصة متواترة في كتاباته التاريخية والأدبية، وكان يبرر اعتماده عليه بالغاية التعليمية التي تهدف إلى تبصير المتلقي؛ إذ يصف كتابه «أنوار توفيق الجليل» بأنه (اشتمل على ذكر الحنفاء والخلفاء والعلماء والسلاطين والأمراء والوزراء، وجميع ما اقتضاه فن الاستطراد، وأوجبته المناسبة وحكم به الأسلوب الحكيم لبيان المرام والمراد)^(٣). كما نص الطهطاوي - في سرده لوقائع غزوة بدر - على بعض استطراداته.

إن بروز الاستطراد تقنية أساسية في كتابة الطهطاوي السيرة النبوية دال يقرن كتابته

(١) انظر: نهاية الإيجاز، ص ٢٥٧ - ٢٨١، وتمضي فيها استطرادات الطهطاوي على هذا النحو: استطراد عن قول أبي بكر الشعر ص - ص ٢٦٣ - ٢٦٤، استطراد عن مسألة الرسول والشعر ص - ص ٢٧١ - ٢٧٣، المفاضلة بين مكة والمدينة ص ٢٧٧، ثم الفرق اليهودية والتوراة وأسفارها ص - ص ٢٧٩ - ٢٨١.

(٢) من اللافت ما يقوله «كرابيس جونيور» بصدد كتاب «مناهج الألباب» من أن الفصل الأول منه (بلا رابط) وليس له (موضوع أساسي واضح أو غرض) وأن الطهطاوي فيه كان (ينقلب سريعًا جيئةً وذهابًا من التفسير إلى الحديث إلى الشعر). وفي موضع آخر يصف كتابة الطهطاوي هذا الكتاب بأنه (كان في الشكل شاردًا ملأ عمله بالاستطراد وعدم التسبغ)، انظر: كتابة التاريخ في مصر في القرن التاسع عشر، مرجع سابق، ص ١ - ٧، ١١٤.

(٣) الطهطاوي: أنوار توفيق الجليل، مرجع سابق، ص ١٠. وقد ذكر الطهطاوي في مقدمته لتخليص الإبريز أنه قد دون فيه «رحلة صغيرة» وقد رشحها (بعض استطرادات نافعة) انظر: تخليص الإبريز في تلخيص باريز: تحقيق وتعليق محمود فهمي حجازي، الهيئة العامة للكتاب: ١٩٧٤، ص ١٤١ (ص ٣ من المقدمة).

بتقاليد كتابة الرواية التعليمية والتاريخية (١٨٧٠ - ١٩١٤) حيث اعتمد كتابها دائماً على تلك التقنية لتحقيق غايات تعليمية وإصلاحية تشبه غايات الطهطاوي.

(٥/٤)

أصّلت كتابات السيرة النبوية السابقة على الطهطاوي ثلاثة تقاليد تتصل بتوظيف الشعر في إطار سرد السيرة، يتمثل أولها في الإكثار من تقديم الأشعار -مقطوعات كانت أم قصائد- في إطار السرد، وهذا ما يتجلى لدى كُتّاب النمط المطول كابن هشام والواقدي؛ إذ اعتادوا تقديم كثير من المقطوعات الشعرية التي قالتها بعض الشخصيات المساهمة في الوقائع المسرودة، مما جعل منها وسيلة لاستكمال بعض جوانب هذه الوقائع أو تأكيد أو تدعيم جانب أو أكثر من جوانبها. بينما انفرد ابن هشام بتقديم عدد كبير من القصائد والمقطوعات التي قيلت في غزوات النبي ﷺ بصفة خاصة، وكان يوردها بعد انتهائه من سرد الوقائع، وقد تابعه في ذلك ابنُ سيد الناس^(١).

ويتمثل ثاني هذه التقاليد في تحجيم دور الشعر في سياقات سرد السيرة النبوية، ويبرز هذا التقليد لدى ابن عبد البر حيث اكتفى بإيراد اثني عشر شاهداً شعرياً يتراوح الواحد منها من بيت إلى سبعة أبيات، وقد وردت هذه الشواهد في سياق سرده للوقائع، ومعظمها منسوبة إلى شخصيات مشاركة في الوقائع مما يجعلها جزءاً من تلك الوقائع^(٢). بينما يتمثل التقليد الثالث في الاستبعاد التام للشعر من دائرة سرد السيرة النبوية، ويبرز هذا التقليد لدى ابن حزم؛ إذ تخلو «جوامع السيرة» من الأشعار تماماً وتقتصر على تقديم الأخبار والوقائع.

(١) انظر: ابن هشام: السيرة النبوية، الجزء الثاني ص - ص ٥٣٦ - ٥٥٧، ابن سيد الناس: عيون الأثر، المجلد الأول ص - ص ٣٣٤ - ٣٤٩.

(٢) انظر ابن عبد البر: الدرر في اختصار المغازي والسير، مرجع سابق، صفحات ١١٥، ١٢٠، ١٦٨، ١٦٩، ١٧٢ - ١٧٣، ١٨٣، ٢١٢ - ٢١٣، ٢٣٨، ٢٤٧.

ولقد كانت تلك التقاليد ماثلةً أمام الطهطاوي والذي اختار متابعة التقليد السائد الذي يقرن السرد بالشعر، فاعتمد في صياغته السيرة على نماذج كثيرة من الأشعار؛ ونذر أن يسرد وقائع دون أن يورد فيها أشعاراً^(١)، ومع هذا فقد أبقى الطهطاوي قليلاً من الأشعار التي وردت في سيرة ابن هشام، وأضاف إليها نماذج كثيرة نقلها عن التالين لابن هشام، وغلب على الأشعار عنده أن تكون مقطوعات أو قصائد قصيرة، بينما ندرت لديه القصائد الطويلة^(٢) كما نذر تقديمه لأشعار من تأليفه هو^(٣).

وقد تنوعت وظائف الشعر في سرد الطهطاوي تبعاً لاختلافات السياقات التي وردت فيها نماذجها؛ ففي بعض السياقات يبدو الشعر جزءاً متمماً للواقعة التي يرويها الطهطاوي أو ينقلها عن السابقين، كما يبدو في الأبيات المنسوبة إلى أبي طالب عند موته، أو المقطوعة التي قيلت في غزوة بدر^(٤). على حين يتحول الشعر - في سياقات أخرى - إلى وسيلة لإثبات الفكرة التي يقدمها، أو بالأحرى، يناقشها الطهطاوي؛ فحين يشير إلى الخلاف حول إيمان عبد المطلب، ويرجح القول بأنه من أهل الفترة ينقل مقطوعة شعرية من خمسة أبيات تعبر عن الرأي الذي يتبناه هو^(٥).

ويجعل من المقطوعات الشعرية أحياناً وسيلة لشرح الفكرة؛ إذ يقدم فكرة ما في

(١) انظر المواضع التي يرد فيها الشعر في الباب الأول - على سبيل المثال - فيما عدا الصفحات التي يتحدث فيها عن المولد النبوي (ص - ص ١٢١ - ١٤٥)، وهي في الصفحات: ٨٠ وفيها ثلاثة نماذج، ٨٣، ٨٤، وفيها نموذجان، ٨٥، ٨٧ وفيها نموذجان، ٩١، ٩٥، ٩٦، ٩٧ وفيها خمسة نماذج، ١٠٢، ١٠٣ - ١٠٤، وفيها ثلاث نماذج، ١٠٦، ١٠٧، ١٠٨، ١٠٩، ١١٠، ١١١، ١١٢، وفيها ستة نماذج، ١١٣، ١١٤، ١١٥، ١١٧، ١١٩، وفيها ثلاثة نماذج أيضاً. وأما المواضع التي تخلو من الأشعار فهي: الفصل الخاص برحلة الرسول ﷺ إلى الطائف، في الباب الثاني، والفصل الثالث من الباب الثاني ص - ص ٢٠٧ - ٢١١.

(٢) من المواضع التي أورد فيها الطهطاوي قصائد طويلة: في مدح السيدة عائشة وذكر فضلها أورد قصيدة كمال الدين ابن العديم، وهي تتكون من خمسين بيتاً، ص - ص ٥٦٧ - ٥٦٩ من الجزء الثاني. وفي مسألة الاحتفال بالمولد النبوي أورد قصيدة لعبد العزيز الزمعي، تقع في سبع صفحات إلا قليلاً ص - ص ١٣٨ - ١٤٤.

(٣) الشاهد الوحيد الذي قدمه الطهطاوي من أشعاره هي القصيدة التي عبر فيها حبه أهل البيت ومدحهم، ص ١٥٦.

(٤) انظر: نهاية الإيجاز، ص ٩١.

(٥) انظر: نهاية الإيجاز ص ٩٧، وانظر نموذجاً آخر ص ١١٨.

السرد أو الوصف أولاً، ثم يجعل من الشعر سبيلاً لصياغة الفكرة وشرحها، على نحو ما يبرز في الشاهد التالي: (هل يجوز أن يكني غيره ﷺ بأبي القاسم أو لا؟ خلاف، وإليه أشار بعضهم بقوله:

في كنيةٍ بقاسمٍ خُلفٌ وقَعُ فالشافعي مطلقاً لها منعُ
ومالكٌ جورٌّ، والنَّهْيُ حِمْلُ على الحياة، والنواوي جَعَلَ
هذا هو الأقرب، أما الرافعي منعٌ مَنْ سُمِّيَ محمداً، فع^(١).

وتشير النماذج السابقة إلى أن بعض الأشعار التي قدمها الطهطاوي كانت تمثل إضافات إلى المتن السردية الذي صاغه، أو وسيلة لتقديم صياغة شعرية لبعض الأفكار التي ناقشها. غير أن توظيف الشعر، في سياقات أخرى لدى الطهطاوي، يكشف عن تلك العلاقة الوثيقة التي ربطته بتقنية الاستطراد والتي هيمنت على كثير من المواضع السردية، إذ قد يجعل من الشعر - في عدد من المواضع - وسيلة لتقديم صياغة شعرية للفكرة التي قدمها في السرد^(٢)، وإذا كانت الفكرة - بهذه الطريقة - تصاغ سرداً وشعراً فإن النماذج الشعرية تنتمي إلى دائرة الشعر التعليمي الذي يقدم نظماً لأفكار أو وقائع ليسهل حفظها وتردادها.

ويبدو الشعر، في مواضع أخرى، وسيلة لتنظم الوقائع التي قدمها الطهطاوي سرداً؛ فبعد أن سرد وقائع حياة النبي ﷺ منذ مولده إلى كفالة عبد المطلب له، ثم وفاة عبد

(١) نهاية الإيجاز، ص ١٤٩.

(٢) انظر الصفحات التالية في «نهاية الإيجاز»:

- ص ٨٠-٨١ حيث يقدم ثلاثة أبيات لأبي طالب في مدح النبي ﷺ والفخر به.
- ص ٨٣ حيث يقدم جزءاً من قصيدة لابن سيد الناس يحصي فيها ما وافق أسماء النبي ﷺ من أسماء الله الحسنى.
- ص ١١٧ حيث يسرد عن واقعة شق صدر النبي ﷺ ثم يقدم مقطوعة من ستة أبيات تصف المواضع الثلاث التي تم فيها ذلك.
- ص ٢٣٣ حيث يعرض أشعاراً في مسألة الإسراء، وهل كان الروح والجسد أم بالروح فقط، وذلك بعد أن ناقش المسألة.

المطلب، قدم خمسة عشر بيتاً للحافظ العراقي نظم فيها هذه الوقائع ذاتها^(١).

وقد يجعل من الشعر وسيلة لتحقيق الاستطراد؛ فحين يشير إلى قصيدة أبي طالب في مدح النبي ﷺ يذكر أنها تزيد على ثمانين بيتاً، ويشير إلى أن ابن إسحاق ذكرها، ثم ينقل منها بيتاً واحداً فقط، هو:

وشقَّ له من اسمه لِجِجْلَه فذو العرش محمودٌ وهذا محمد

ثم يقول (وحسان بن ثابت ضمن شعره هذا البيت) ويأتي بمقطوعة له من ستة أبيات فيها البيت المضمن^(٢).

واللافت أن الشعر، لدى الطهطاوي، قد يكون وسيلة لتحقيق استطراد داخل الاستطراد؛ ففي بعض أنماط الاستطراد التعليمي المباشر يستطرد الطهطاوي من السرد أو الوصف إلى الشعر، ففي نهاية استطرده إلى مسألة المولد النبوي والاحتفال به يستطرد مرة أخرى إلى ذكر همزية عبد العزيز الزمزي، ومطلعها:

أثغورُ منها الصباحُ أضاءَ أم بروقٌ على النقا تترأى

ويستغرق هذا الاستطراد الشعري سبع صفحاتٍ إلا قليلاً^(٣). كما يتكرر الاستطراد الشعري داخل الاستطراد الثري في مسألة المفاضلة بين الليل والنهار^(٤).

إن توظيف الشعر داخل متن سيرة الطهطاوي سواء لاستكمال بعض الوقائع، أو لإعادة صياغتها، أو لتحقيق صورة من صور الاستطراد يقرب كتابته من تقاليد استخدام الشعر لدى كتاب الرواية التاريخية والتعليمية (١٨٧٠ - ١٩١٤) الذين أكثروا من

(١) انظر: نهاية الإيجاز، ص ١١٩.

(٢) انظر: نهاية الإيجاز ص ١٠٦، وانظر أيضاً نموذجاً آخر ص ١١٠، حيث يحكي الطهطاوي واقعة تحقق نبوءة النبي ﷺ لعنتية زوج ابنته أم كلثوم، ثم يقدم بيتاً أشار فيه حسان بن ثابت إلى هذه الواقعة.

(٣) انظر نهاية الإيجاز ص - ص ١٣٦ - ١٤٥.

(٤) انظر: نهاية الإيجاز، ص - ص ١٣٦ - ١٤٥ وانظر أيضاً، ص: ٢٣٧ - ٢٤٠.

استخدام الشعر لتحقيق وظائف تتلاقى مع وظائفه في متن سيرة الطهطاوي^(١).

(٥/٥)

تمثل صياغة الغزوات الكبرى - كبدور وأحد والخندق - دوالاً بارزة على الطرائق التي اعتمدها الطهطاوي في تشكيل الغزوة بوصفها وحدة سردية وسطى، وتتبدى فيها الفعاليات المختلفة لتقنيتي الإيجاز والحذف والاستطراد وتوظيف الشعر في إطار السرد، كما تبرز فيها الطريقة التي يعتمدها الكاتب الراوي لتنظيم الوقائع التي يقدمها، وهي طريقة تتضمن دلالات متعددة، وستكشف دراسة الوحدة السردية الوسطى عن هذه الجوانب جميعاً، وذلك ما سيتحقق عبر المقارنة بين نص الطهطاوي ونصوص السابقين عليه من كتاب السيرة النبوية.

وردت وقائع غزوة بدر عند كتاب السيرة المطولة كابن هشام، وكتاب المغازي كالواقدي، وكتاب النمط المشروح كابن سيد الناس، كما وردت لدى كتاب النمط المختصر كابن عبد البر وابن حزم، بينما وضعها الطهطاوي في إطار ظواهر السنة الثالثة للهجرة^(٢) ورغم ما يشير إليه ذلك من جعلها تابعة للإطار الزمني المتمثل في أفراد الحوادث وضمها إلى سنوات حدوثها، فإن ذلك لا ينفي أهمية هذه الوحدة في إطار ذلك التقسيم الزمني.

(١) حول تواتر هذه الظاهرة في روايات مرحلة النشأة، انظر:

- محمد يوسف نجم: القصة في الأدب العربي الحديث، مرجع سابق، ص ٢٠٢.
- إبراهيم السعافين: تطور الرواية العربية الحديثة في بلاد الشام (١٨٧٠ - ١٩٦٧)، وزارة الإعلام العراقية، ١٩٨٠، ص - ص ٩٤ - ٩٥، ص ١٠٩، ١١٨.

(٢) انظر وقائع بدر عن هؤلاء المؤلفين على النحو التالي:

- ابن هشام: السيرة النبوية، الجزء الثاني، ص - ص ٤٤٠ - ٥٥٧.
- الواقدي: المغازي، الجزء الأول، ص - ص ١٩ - ١٧١.
- ابن سيد الناس: عيون الأثر، الجزء الأول، ص - ص ٢٩٠ - ٣٤٩.
- ابن عبد البر: الدرر في اختصار المغازي والسير، ص - ص ١١٠ - ١٣٨.
- ابن حزم: جوامع السيرة، ص - ص ١٠٧ - ١٥٤.
- الطهطاوي: نهاية الإيجاز، الجزء الثاني ص - ص ٥١ - ٧٧.

إن كل كاتب من أولئك الكتاب يمكن وصفه بأنه الراوي الأساسي لأنه هو الذي يقوم باختيار الوقائع، واستبعاد بعضها، وإيجاز بعضها الآخر، ثم يقوم -في النهاية- بعملية تنظيم المرويات المختلفة، وإن اختلفت -بطبيعة الحال- ماهية هذه العمليات لدى كل واحد من هؤلاء الرواة.

ويبدو لدى كتاب النمط المطول اهتمام واضح بتقديم سلاسل الأسانيد التي نقلت المرويات، فالواقدي ساق، في بداية كتابه، أسماء الرواة الذين نقل عنهم مغازيه قائلاً إن كلاً منهم (قد حدثني بطائفة، وبعضهم أوعى لحديثه من بعض، وغيرهم قد حدثني أيضاً فكتبت كل الذي حدثوني)^(١). ولذا بدأت معظم مروياته بعبارة «قالوا» إشارة إلى أن مضمونها أو متنها منقول عن هؤلاء الرواة أو معظمهم، بينما كان يتوقف في بداية خبر من الأخبار المفردة -التي تقدم جانباً مختلفاً أو متناقضاً مع الأخبار المنقولة عن مجموعة الرواة الذين نقل عنهم- ليقدم سلسلة الرواة الذين نقلوا هذا الخبر. على حين تبدو الأخبار عند ابن هشام متتابعة ومسندة إلى رواتها، وتقدم الأخبار متوالية حتى حين تتضمن معلومات متشابهة أو قريبة من التكرار. أما عند ابن سيد الناس فرغم اعتماده على مرويات ابن إسحاق فإنه قد أضاف إليها مرويات أخرى عن رواة آخرين أهمهم ابن عقبة، وهو يهتم بها حين تقدم إضافات أو تصحيحات لمرويات ابن إسحاق، وذلك ما يمكن وصفه بأنه عملية تقوم على آلية التدقيق^(٢). ولما كانت مرويات ابن إسحاق تشكل الخيط السردى الأساسي الذي يتابعه ابن سيد الناس فإنه كان حريصاً دائماً على استخدام عدد من التعبيرات والصيغ التي تشير إلى عودته إلى ذلك الخيط السردى الأساسي، مثل: «رجع إلى خبر ابن إسحاق» و«رجع إلى الخبر عن ابن إسحاق» و«رجع إلى خبر الأول» أي ابن إسحاق.

(١) الواقدي، المغازي، ص ٢.

(٢) انظر: محمد القاضي: الخبر في الأدب العربي، مرجع سابق، ص ٥٠٣، حيث يتناول التدقيق بوصفه أسلوباً من أساليب تفخيم الأخبار ويعرفه على النحو التالي (كثيراً ما يرد الخبر مجعلاً في مرحلة أولى ثم يرد بعد ذلك وقد ألحقت به تفاصيل تشرح غوامضه أو تضيف إليه جزئيات لم تكن فيه أصلاً)، وهو يقدم ص -ص ٥٠٣- ٥٠٧ أمثلة لفاعلية هذا الأسلوب في صياغة الأخبار في كتاب «الأغاني».

أما كتاب النمط المختصر كابن عبد البر وابن حزم والطهطاوي فقد كانوا يختارون بعض المرويات ليشكلوا منها وحداتهم السردية، وقليلًا ما كانوا يقدمون سلسلة أسانيد هذه المرويات، كما كانوا يميلون إلى الاكتفاء بالراوي الأول للخبر.

وقبل سرد الوقائع حرص هؤلاء الرواة جميعًا على تقليد يتمثل في تقديم مجموعة من الأوصاف التي حملتها هذه الغزوة أو تلك؛ فغزوة بدر هي «بدر الكبرى» و «بدر القتال»، ورغم «بساطة» هذا التقليد فإنه يكشف عن وظيفة من وظائف الراوي المفارق لمرويه حيث يسعى إلى تحديد الأهمية الاعتبارية للأبطال أو لبعض الوقائع^(١).

ويمثل تقديم البداية الزمنية للوقائع نقطة مشتركة عند أولئك الرواة جميعًا، فكل منهم جعل من علم النبي ﷺ بأمر قافلة قريش وإرساله اثنين من المسلمين لتحسس أخبارها نقطة منشأ الوقائع، وإن اختلفت الكيفية التي قدمت بها نقطة البداية تلك؛ فبينما يشير ابن هشام إلى معرفة أبي سفيان قائد قافلة قريش بتصرف النبي ﷺ، فإن الواقدي يؤجل هذه الواقعة، ويأخذ في سرد تحرك المسلمين والنبي ﷺ وانتقالهم من المدينة إلى بدر، ويحدد مختلف الأماكن التي مروا بها، ويتشابه ابن حزم معه في ذلك^(٢)، وهذا ما يشير إلى ملمح متكرر لدى بعض رواة السيرة من حرص على تتبع الانتقالات المكانية المفصلة للوقائع، بينما أعمل الطهطاوي تقنية الحذف؛ إذ لم يشر إلى الأماكن التي انتقل عبرها جيش النبي ﷺ إلا مرة واحدة فقط^(٣).

وتبدو البنية السردية لنقطة البداية «السابقة» عند الواقدي قائمة على توالي الأخبار، ويشير الواقدي، دائمًا، إلى الأيام التي وقعت فيها الانتقالات المكانية، كما يقدم تفصيلات لبعض الجوانب الثانوية^(٤).

(١) انظر: عبد الله إبراهيم: السردية العربية، مرجع سابق ص ١١٤.

(٢) انظر: الواقدي: المغازي، ص - ص ٢٠ - ٢٧، وانظر: ابن حزم: جوامع السيرة، ص - ص ١١٠ - ١١١.

(٣) انظر: الطهطاوي: نهاية الإيجاز، ص ٢٩٩.

(٤) انظر: الواقدي: المغازي، ص ٢٤ حيث يحدد أسماء بعض الصحابة الذين كانوا يتعاقبون على الإبل في مسير المسلمين نحو بدر.

وتمثل رؤيا عائشة بنت عبد المطلب النقطة المحورية التالية في تحريك الوقائع وتوجيهها، وهي تقدم نبوءة ضمنية أولية بخسائر قريش. ويبدو حرص الواقدي وابن هشام على تقديم هذه الرؤيا مفصلة^(١) ولكن الواقدي قدم، بعدها، بعض التفاصيل التي تصور جانباً من جوانب الصراع بين بني هاشم وبني أمية، كما قدم الواقدي عدة أخبار منسوبة إلى شخصيات قرشية مختلفة، يمثل كل خبر منها نبوءة بمصير قريش أو بعض رجالها، وأفاد الواقدي من هذه النبوءات في تصوير دعوة بعض القرشيين إلى عدم الخروج لقتال محمد ﷺ كما صور قيام بعض رجال قريش باستسقام الأقداح، فخرج النهي إليهم، لكنهم خالفوا ذلك^(٢).

إن النبوءة تقنية من التقنيات السردية التي تشير إلى مستقبل أو مصير بعض الشخصيات المهمة، ومن هنا لعبت دوراً أساسياً في السير الشعبية العربية^(٣)، وبها يحقق الراوي وظيفة الاستباق إذ يشير بها إلى أحداث ستقع^(٤) فيما بعد.

إن راوي السيرة النبوية في نمطها المطول كان يتعامل دائماً مع الوحدة السردية بوصفها إطاراً عاماً مرناً لا يقيد حريته في تقديم الأخبار التي تقدم بعض التفاصيل، أو الأخبار التي تمثل تكراراً لما قدمه من قبل، أو الأخبار التي تدعم منحي ضمنيّاً -تعبيراً أو أيديولوجياً- يعمل على تثبيته لدى المتلقي. وبقدر ما كانت تلك الحرية تفيد الراوي في تحقيق الأهداف السياسية والاجتماعية المتصلة بالسياقات والقوى الاجتماعية التي كان يروي السيرة في إطارها -فإنه كانت تمنحه إمكانية تقديم بعض التفاصيل التي تهدف إلى إقناع المتلقي، من ناحية، وتشويق المتلقي وإثارة رغبته في تتبع الوقائع، من ناحية أخرى... وذلك ما يبدو واضحاً في سرد الواقدي وابن هشام

(١) انظر: الواقدي: المغازي ١/ ٢٩- ٣١، وابن هشام: السيرة النبوية ٢/ ٤٤١- ٤٤٢.

(٢) انظر: الواقدي: المغازي ١/ ٣٣، ٣٧.

(٣) حول دور النبوءة في السير الشعبية العربية، انظر دراستي أحمد شمس الدين الحجاجي:

- النبوءة أو قدر البطل في السيرة الشعبية، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ١٩٩٤.

- مولد البطل في السيرة الشعبية، مرجع سابق، فصل النبوءة.

(٤) انظر: عبد الله إبراهيم: السردية العربية، مرجع سابق، ص ١٦٥.

لنقطة التالية لرؤيا عاتكة؛ إذ يقدمان الأخبار المختلفة عن سعي قريش - قبل خروجها إلى بدر - إلى إصلاح ما بينها وبين بني بكر، حيثئذ يلجأ الراوي (الواقدي وابن هشام) إلى تصوير ظهور إبليس في صورة سراقه بن جعشم المدلجي أحد زعماء بني كنانة ليؤكد لقريش أن بني بكر لن تهاجمها^(١). وذلك ما يدفع الراوي إلى التوقف عن سرد وقائع الغزوة ليعود إلى الماضي فيقدم تفاصيل الخلاف بين قريش وبني بكر^(٢). وبقدر ما يمثل ذلك التوقف قطعاً لتقديم الوقائع فإنه يهدف إلى تفسير بعض الجوانب المرتبطة بقريش بوصفها طرفاً من طرفي الصراع.

إن محورية الدور الذي تؤديه الرؤيا في كثير من مواقف السيرة النبوية والسير الشعبية العربية هي التي تفسر سعي الراوي - في إطار النمط المطول للسيرة النبوية - إلى الإبقاء عليها في اللحظات التي تسبق حدوث الوقائع المهمة. وقد توقف الواقدي وابن هشام عند تقديم رؤيا جهيم بن الصلت بن مخزومة بن عبد المطلب التي تمثل نبوءة بمصير عدد من القرشيين الذين سيقتلون في القتال^(٣). وتلعب هذه الرؤيا دوراً مزدوجاً في تشكيل الأحداث؛ إذ ينكص بعض القرشيين عن الذهاب إلى بدر، بينما يزداد إصرار أبي جهل على القتال. وعلى مستوى تشكيل الوقائع يبدو الواقدي أكثر من ابن هشام ميلاً إلى تقديم الحواريات - بينما يبدو ابن هشام ساعياً إلى ضغط هذه الحواريات أو حذف فقرات منها أو تقديمها سرّداً^(٤).

ومن الملاحظ أن الطهطاوي قد استبعد تماماً تلك الرؤيا والأخبار التي سبقتها، ملتقياً في هذا مع ابن عبد البر وابن حزم.

أما الوقائع الأساسية المرتبطة بأحداث الغزوة فهي: استشارة النبي ﷺ وأصحابه، واستطلاع أخبار مسير قريش، ثم تحرك المسلمين لقتال قريش، ثم مشاور النبي

(١) انظر: ابن هشام: السيرة النبوية ٢/ ٤٤٥، والواقدي: المغازي ١/ ٣٨.

(٢) انظر: ابن هشام: السيرة النبوية ٢/ ٤٤٣ - ٤٤٤، الواقدي: المغازي ١/ ٣٨ - ٣٩.

(٣) انظر الواقدي: المغازي ١/ ٤٢، ابن هشام: السيرة النبوية ٢/ ٤٥٠.

(٤) انظر الوقائع التي يقدمها الواقدي ص - ص ٤١ - ٤٢، وقارنها بما يقدمه ابن هشام ص ٤٥٠.

مع أصحابه واقتراح الحباب بن المنذر مكان عسكرة جيش المسلمين، ثم وقائع القتال ونتائجه، ولا يختلف ترتيب هذه الوقائع «الأساسية» عند هؤلاء الرواة جميعاً، وإن بدت بعض الطرائق التي استخدمها هذا الراوي أو ذاك ذات دلالة على منحاه في الصياغة والتشكيل. فبينما اعتمد السرد لدى ابن هشام والواقدي وابن سيد الناس على تقديم مجموعة من الأخبار المتوالية والمتعاقبة فإن اهتمام كل منهم بتقديم سلاسل أسانيد هذه الأخبار يجعل منها -أي من هذه السلاسل- وسيلة موجهة نحو تحديد كيفية للتلقي تقوم على تأكيد الفواصل بين المتلقي والوقائع التي تُقدم له.

وإذا كان ابن عبد البر وابن حزم قد قدما الوقائع ذاتها موجزة فإنهما قد اختلفا في اعتمادهما على الاستطرادات في تناولهما لبعض جوانب هذه الوقائع^(١). ورغم أن كتابة الطهطاوي تشترك معهما في انضوائها إلى النمط الموجز من كتابة السيرة النبوية فإن من اللافت أن صياغة الطهطاوي لهذه الوقائع تكشف عن بروز منحيين مختلفين لدى الطهطاوي؛ أولهما يعد إعادة صياغة وتشكيل للوقائع، بينما يعد ثانيهما بمثابة استطراد^(٢). ويبرز المنحى الأول في سرد الطهطاوي الوقائع بلغته هو، وترتيبه الوقائع ترتيباً قائماً على منطق السببية مما يدفعه إلى تقديم الوقائع على أساس تواليها الزمني، من ناحية، ويتيح له من ناحية أخرى إمكانية تقديم أو تأخير بعض الأخبار التي قدمها الرواة السابقون ليضعها في سياق سببي مباشر^(٣)، ويمكن أن توصف تلك العملية بأنها نوع من التركيب السياقي الذي يتمثل في إنشاء سياق سردي (يستلزم

(١) انظر، على سبيل المثال، جوامع السيرة ص -ص ١٠٨- ١٠٩ حيث يبدو ابن حزم مهتماً بتتبع تفاصيل الانتقال المكاني لجيش المسلمين، ص -ص ١١٠- ١١١ حيث يقدم خبراً عن كيفية تعرف أبي سفيان على جيش المسلمين.

(٢) من اللافت أن المنحى الأول يبرز في الصفحات ٢٩٨- ٣٠٩، بينما يتبدى المنحى الثاني في الصفحات ٣٠٩- ٣٢٦.

(٣) المثال الواضح لذلك يبدو في إعادة وضع الطهطاوي لخبر اشتراك الملائكة في بدر؛ فبينما قدم ابن إسحاق مرويات مختلفة عن اشتراك الملائكة في القتال إلى جانب المسلمين في بدر -في نهاية سرده لوقائع القتال- فإن الطهطاوي قد قدم مضمون هذه المرويات في إطار سرده للحظات التي سبقت القتال، فكان ذلك سبباً لتحريك السرد. انظر: ابن هشام ٢/ ٤٦٢- ٤٦٢، الطهطاوي ص ٣٠٤.

ترتيب مجموعة من الأحداث، بحيث تصبح هذه الأحداث سلسلة متتالية قابلة للفهم والتتبع^(١) وتحمل دلالة. ولعل تلك العملية كانت تتطلب الارتكان إلى آلية الإيجاز والحذف، وقد ظهرت فاعليتها في حذف الطهطاوي لأسانيد المرويات التي كانت تشكل عائقاً أمام «ضغط» السياق السردى وتركيزه، والإشارة الموجزة التي قدمها في نهاية صياغته الوقائع إلى أسماء عدد من شهداء المسلمين وقتلى قريش، مختلفاً في هذا عن كتاب النمطين المطول والموجز للسيرة النبوية الذين حرصوا - في نهاية سرد وقائع الغزوة - على تقديم قوائم كاملة بأسماء من أسهموا في الغزوة، وأسماء الشهداء وأسماء القتلى، واللافت أن هذه القوائم كانت تحتل دائماً مساحة أكبر من المساحة التي تحتلها وقائع الغزوة نفسها^(٢).

وبقدر ما أدت تقنية الحذف والإيجاز إلى مساعدة الطهطاوي على التركيز على سلسلة الوقائع الأساسية، فإنها لم تمنعه من الإشارة الموجزة إلى تعدد المرويات أو اختلافها حول هذا الجانب أو ذاك. ورغم صياغة الطهطاوي لوقائع الغزوة بلغته هو فإنه قد قدم، في إطار ذلك، الآيات القرآنية المرتبطة بالغزوة، كما قدم أيضاً عدداً من المرويات الحوارية أو الحديثية كما هي. وتابع الطهطاوي تقليداً من تقاليد كتاب السيرة بنمطها يتمثل في

(١) سيزاقاسم: الخطاب التاريخي من التقييد إلى الإرسال: قراءة في الطبري والمسعودي وابن خلدون، ضمن كتاب: الأدب العربي: تعبيره عن الوحدة والتنوع، إشراف عبد المنعم تليمة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ١٩٨٧، ص - ص ١٤٩ - ١٥٠.

(٢) انظر: الطهطاوي: نهاية الإيجاز، ص ٣٠٩، وانظر: ابن عبد البر: الدرر في اختصار المغازي والسير ص - ص ١١٧ - ١٣٨، حيث يقدم الفصول التالية: تسمية من استشهد ببدر من المسلمين ١١٧، تسمية من قتل ببدر من كفار قريش ١١٨ - ١١٩، تسمية من أسر ببدر من كفار قريش ١١٩ - ١٢١، تسمية من شهد بدرًا من الأنصار ١٢٥ - ١٢٨، تسمية من شهد بدرًا من الخزرج ١٢٩ - ١٣٨، بينما يعرض وقائع بدر ص - ص ١١٠ - ١١٦، أما ابن حزم فقد عرض الوقائع ص - ص ١٠٧ - ١١٤، ثم قدم الأسماء في ثلاث فقرات على النحو التالي: تسمية من شهد بدرًا من المسلمين رضي الله عنهم مع رسول الله ﷺ ١١٤ - ١٤٦، ذكر شهداء بدر رضوان الله عليهم أجمعين ١٤٦ - ١٤٧، ثم ذكر من قتل من المشركين يوم بدر ١٤٧ - ١٥٢، بينما عرض الوقائع ص - ص ١٠٧ - ١١٤، انظر: جوامع السيرة. والملاحظ أن ابن حزم كان يذكر أسماء المشاهير فقط، وكان يقسم الأسماء تبعاً لانتماءاتها إلى بطون قريش، كما ذكر الأسرى في إطار حديثه عن قتلى المشركين.

شرح أو تفسير بعض الكلمات أو أسماء الأماكن داخل المتن السردى^(١).

ويبرز المنحى الثاني في استخدام الطهطاوي لتقنية الاستطراد بنمطها؛ وإن كان من الواضح أن نمط الاستطراد السردى قد أصبح عنده مرتبطاً بتقديم حكايات موجزة، أو مطولة أحياناً، عن بعض قتلى أو أسرى بدر؛ كحكاية النضر بن علقمة وقتله بأمر النبي ﷺ، وحكاية عمير بن وهب الجمحي وصفوان بن أمية وهي منقولة عن ابن إسحاق، وحكاية أسر العباس بن عبد المطلب في بدر ثم إسلامه وهي تتضمن استطرادات أخرى عن زوجته وعن دعائه وإجابته، وحكاية نوفل بن الحارث بن عبد المطلب، وأخيراً حكاية إسلام عمرو بن العاص^(٢).

أما نمط الاستطراد التعليمي المباشر فيبدو أقل استخداماً من النمط السردى، ويبرز في حديث الطهطاوي عن لون من الألوان البديعية يسمى غريب الاتفاق، وتناوله لمسألة الشهادة وأنواع الشهداء^(٣).

وتبدو وظائف الشعر داخل تلك الوحدة السردية متسقة مع وظائفه في إطار سيرة الطهطاوي؛ فبعض الأشعار كانت جزءاً من الأحداث أو متممة لحكاية من الحكايات، بينما كان بعضها الآخر بمثابة إعادة لما قيل سرّداً أو وصفاً، في حين أن بعض الأشعار قد سيقّت بهدف تأكيد الفكرة، بينما مثلت بعض النماذج الشعرية استطراداً على الاستطراد السردى أو النثري في كتابة الطهطاوي^(٤).

(١) انظر: نهاية الإيجاز ص ٢٩٨، ٢٩٩.

(٢) انظر: نهاية الإيجاز، ص - ص ٣٠٩ - ٣٢٠.

(٣) انظر: نهاية الإيجاز ص - ص ٣٢٢ - ٣٢٦.

(٤) انظر: الأشعار الواردة في غزوة بدر في نهاية الإيجاز في الصفحات التالية: ٣٠٧، ٣٠٩، ٣١٠، ٣١١، ٣١٧، ٣٢٢ حيث تبدو نماذج الوظائف التي أشرنا إليها في المتن، وقد رتبنا ذكر صفحات الشواهد تبعاً لترتيب وظائف الأشعار المذكور في متن الدراسة.

(٥/٦)

تفضي دراسة عناصر التشكيل السردى للسيرة عند الطهطاوي -بداية من تنظيم الوحدات السردية الكبرى، واستخدام تقنيتي الإيجاز والحذف والاستطراد لتأدية وظائف مختلفة ترتبط بتقديم المواد السردية، وانتهاء بتوظيف الشعر في سياقات السرد، وكيفية بنية الوحدة السردية الوسطى -إلى الكشف عن تجليات التجديد في كتابة السيرة النبوية لدى الطهطاوي. فإذا كانت كتابة الطهطاوي قد انطلقت من التماس مع كتابة الرواية التاريخية والرواية التعليمية في مرحلة (١٨٧٠ - ١٩١٤) فإن هذا المنطلق هو الذي حدد للطهطاوي التجديد في تقاليد كتابة السيرة النبوية بوصفها نصاً سردياً، وذلك ما حققه بإعادة تقديم السيرة في شكل جديد يفيد من التقاليد الكتابية والصياغة المختلفة التي تجلت في أنماط كتابة السيرة النبوية السابقة عليه.

وقد بدت في التشكيل السردى الذي قدمه الطهطاوي ملامح تماس «قوية» مع الرواية التاريخية المعاصرة له، سواء في الاعتماد على أحداث تاريخية، وحذف أسانيد المرويات، واستخدام تقنية الاستطراد لتؤدي وظائف تعليمية مباشرة أو غير مباشرة، أو توظيف الشعر داخل السياقات السردية المختلفة ليؤدي وظائف مماثلة لوظائفه في الرواية التاريخية المعاصرة له. وأما خاصية تنظيم الوقائع تنظيمًا قائمًا على منطق السببية، مع إعمال تقنية الحذف والإيجاز، والتي تبدت في صياغة الطهطاوي للوحدة السردية الوسطى الممثلة في الغزوة -فهى دال كاشف عن التماس الشديد بين التشكيل السردى لبعض وحدات السيرة عند الطهطاوي والرواية التاريخية المعاصرة له، بل إن سبق الطهطاوي لمعظم نماذج هذه الشكل الروائي - في مرحلة (١٨٧٠ - ١٩١٤) - يشير إلى إمكانية النظر إلى كتابة الطهطاوي السيرة النبوية بوصفها فعلاً إبداعياً مسهمًا بفاعلية في التمهيد للرواية التاريخية. وذلك ما يكشف عن جانب جديد من جوانب ريادة الطهطاوي في مجال كتابة أو تقديم الأشكال السردية الحديثة؛ إذ لا تقتصر ريادته - في هذا المجال على كتابه «تخليص الإبريز» وترجمة «وقائع تليماك» أو عمله

الصحافي الذي أسهم - فيما يرى آلن روجر - في تطور الرواية العربية^(١)، بل تمتد أيضًا إلى إعادة صياغة متن السيرة النبوية وجعله شكلًا مسهمًا في التمهيد للرواية التاريخية. وبقدر ما يبدو في كتابة الطهطاوي السيرة من تماس مع الرواية التاريخية فإن ذلك التماس هو الذي يمكن أن يُفسر «خفوت» تأثير الكتابات الغربية - والفرنسية تحديدًا - عن النبي ﷺ على كتابة الطهطاوي؛ فعند إقامة الطهطاوي في باريس (١٨٢٦ - ١٨٣١) واتصاله بالثقافة والأدب الفرنسيين كان هناك خمسة عشر عملاً فرنسيًا تناول النبي ﷺ سواء بكتابة سيرته، أو بتقديم وصف تاريخي له، أو بتقديم فهم جديد له يكشف عن رؤية جديدة له تخالف رؤية القرون الوسطى، واستلهم شخصيته في بعض الأعمال الإبداعية الكبرى^(٢). ولا يبدو تأثير هذه الكتابات على كتابة الطهطاوي السيرة على الرغم مما يبدو في «أنوار توفيق الجليل» من اتصال الطهطاوي بكتابات المستشرقين حول بعض جوانب الثقافة «الدينية العربية»^(٣)، فلعل الطهطاوي لم يُعَنَ بما كتبه المستشرقون الفرنسيون السابقون عليه والمعاصرون له عن سيرة النبي ﷺ.

لقد كانت كتابة الطهطاوي السيرة النبوية بصياغة تشكيلها السردية نابعة من الموقف الذي كان الطهطاوي يسعى إلى تأصيله لدى من توجه إليهم بها.

(١) انظر:

Roger, Allen: The Beginnings of the Arabic Novel, In: Modern Arabic Literature edit- ed by M. M. Badawi, Cambridge University Press, 1992, P. 183.

(٢) حول هذه الكتابات، انظر مادة «محمد» ﷺ في:

The Encyclopaedia of Islam, New Edition, V. VII, edited by: Gibb, Hamilton Alexander, Leiden- New York 1993, P- P 360 -387.

وقد ورد الحديث عن الكتابات الحديث لسيرة النبي ﷺ ص - ص ٣٨٢ - ٣٨٤ تحت عنوان «النصوص التي قدمت رؤية أقل تحيزًا»، كما قدمت قائمة بالمؤلفات الفرنسية حول النبي، ص - ص ٣٨٣ - ٣٨٤، ولعل جودة هذه الكتابات أنها قدمت رؤية «منصفة» للنبي ﷺ تختلف عن رؤية كتاب القرون الوسطى الذين غلب عليهم تقديم رؤية «سلبية»، لمزيد من التفصيل حول هذه الرؤية وأسبابها يمكن مراجعة الفصل الأول من الدراسة التالية.

Buaben, Jabal Muhammad: Image of the prophet Muhammad in west: A study of Muir, Margoliouth and watt, published by the Islamic foundation, Markifield Dawah cen- tre, printed in Geat Britain, 1996, P- P3- 20.

(٣) انظر الطهطاوي: أنوار توفيق الجليل، ص ٦٥٥، حيث يشير إلى موقف المستشرقين من الإعجاز والمشابهة والمحكم في القرآن، حيث يقول إنهم يعدون ذلك (من المعاييب) ويصفهم بشدة التعنت في ذلك.

(٦)

إذا كان درس التشكيل السردى للسيرة النبوية لدى الطهطاوي قد كشف عن جوانب التجديد في كتابته لها، فإن استنباط الموقف الذي تنطوي عليه تلك الكتابة سيفضي إلى إدراك مستويات الدلالة فيها، وهذا ما يتطلب الالتفات إلى أنماط المتلقين الذين تلقوا نص الطهطاوي، ودور الوسيط الثقافي الذي حمل كتابة الطهطاوي إليهم.

تركزت في شخصية الرسول ﷺ الصفات الأساسية التي شكلت مرتكزات البطولة لدى الجماعة العربية عبر عصورها المتوالية، وتلخصت هذه الصفات في (اتصال نسبه بما يثبت عروبه وشرفه وأهمية آبائه جميعاً)^(١) و (دفاعه عن مبدأ أو عقيدة، وأياً كان هذا المبدأ أو تلك العقيدة فلا بد أن تكون خيرة مؤمنة)^(٢)، وتعضيد أفعاله بقوة غيبية خارقة تثبت صحة ما يدافع عنه من مبدأ)^(٣)، والاتساق بين أفعاله وأقواله التي تهدف إلى تحرير الإنسان، وإرساء قيمة العدالة، وتأسيس السلوك على قيم أخلاقية مثالية.

ولعل هذا ما يفسر، من ناحية، بقاء سيرة الرسول ﷺ طوال حياة المجتمع العربي، وتأثيرها في تشكيل نموذج البطل في السير الشعبية العربية، من ناحية أخرى، ولا ينفي انقطاع المصريين - قبل الطهطاوي بأربعة قرون عن كتابة السيرة النبوية - بقاءها حية وفاعلة في الوجدان الشعبي المصري / العربي. ومن هنا كانت كتابة الطهطاوي «نهاية الإيجاز» بمثابة إعادة تقديم النموذج البطولي الذي تعكسه شخصية الرسول ﷺ، ليجعل منه وسيلة مباشرة وضمنية في الآن نفسه لنقل موقفه أو رسالته الإصلاحية إلى دوائر المتلقين الذين يتوجه إليهم.

وتتمثل الدائرة الأولى في شرائح من المتعلمين والمثقفين الذين أنجبهم النظام

(١) فاروق خورشيد: في الرواية العربية: عصر التجميع، الطبعة الثالثة، دار الشروق، بيروت - القاهرة - ص ٩٨٢، ص ١٨٧.

(٢) فاروق خورشيد: المرجع السابق، ص ١٨٧.

(٣) فاروق خورشيد: المرجع نفسه، ص ١٨٧، وانظر أيضاً ص - ص ١٨٤ - ١٨٥، ١٨٨.

التعليمي الذي أنشأه محمد علي ودعّمه إسماعيل فيما بعد، وقد كان الوسيط الثقافي الذي نقل «نهاية الإيجاز» إلى تلك الدائرة مؤسسة «جديدة» من مؤسسات إرساء التحديث وثبت التمدن؛ إذ أسهمت مجلة «روضة المدارس» -طوال سنوات صدورها (١٨٧٠ - ١٨٧٧)- في مسيرة التحديث سواء بتقديم العلوم الجديدة التي كان المجتمع المصري يحتاجها، أو تقديم المعارف الجديدة التي ترتبط بمجالات التاريخ والفلسفة والاجتماع، أو بالإسهام في إعادة تشكيل بعض الأشكال الأدبية القديمة كالمقامة، أو بتشجيع الأشكال الأدبية الجديدة، ثم بمحاولة تطويع اللغة العربية لتصبح قادرة على الوفاء بالتعبير عن الأفكار والصيغ الفنية الجديدة^(١).

وقد كان نشر «نهاية الإيجاز» في «روضة المدارس» وسيلة لنقل الرسالة الإصلاحية التعليمية التي يتضمنها إلى فئات واسعة من المتلقين، وهذا ما تؤكد طريقة توزيع «روضة المدارس»؛ إذ (كان ديوان المدارس يُرسل إلى المدارس بعض أعدادها ليشتريها المدرسون منبهاً إلى الحذر من عدم ارتداد أي نسخة من الروضة، ثم قرر الديوان أن يشتريها جميع الموظفين في المدارس، والمكاتب الأهلية ممن يزيد مرتبهم على ٢٥٠ قرشاً في الشهر، وكان ديوان المدارس أيضاً يرسل أعداداً من روضة المدارس إلى أعيان البلاد ليقوموا بتوزيعها)^(٢).

وأما الدائرة الثانية التي توجه إليها الطهطاوي بكتابه «نهاية الإيجاز» -بما تنطوي عليه من تقديم شخصية الرسول ﷺ بوصفه النموذج البطولي العربي الإسلامي- فهي دائرة السلطة والحاكم، وهذا ما يحتاج إلى إضاءة موسعة تكشف عن تحولات علاقة الطهطاوي المثقف بالسلطة وتأثيرها في تحولات أفكاره.

(١) حول دور مجلة روضة المدارس في النهضة الحديثة يمكن مراجعة الدراسة التالية: عبد العزيز الدسوقي ومحمد عبد الغني حسن: روضة المدارس: نشأتها واتجاهاتها الأدبية والعلمية، دراسة نقدية تحليلية، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٥.

(٢) ميرفت الطرايشي: رفاة الطهطاوي رائد الصحافة العربية، ضمن كتاب رفاة الطهطاوي رائد التنوير، طبع الهيئة العامة لقصور الثقافة ١٩٩٣، ص ٢٩٥.

إن الطهطاوي - كما وضعه غالي شكري في إطار تصنيفه للمثقفين المصريين في القرن التاسع عشر من منظور علاقة المثقف بالسلطة - يمثل نموذج «المثقف الشامل» أي المثقف ذي الرؤية الشاملة الواعية بجوانب النهضة ووسائلها وغاياتها، وذلك في مقابل المثقف الداعية السياسي كعمر مكرم، والمثقف الخبير كعلي مبارك. وإذا كانت هذه الأنماط الثلاثة قد وُلدت في رحم السلطة فإن الطهطاوي المثقف الشامل كان - في صياغته «مشروع» (تحديث القوة الاجتماعية والفكرية القادرة على إقامة مجتمع النهضة المتصل والمشارك في الحضارة الحديثة ...) ينطلق أو ينكفي داخل مؤسسة الدولة، يتقاطع مشروعه ومشروعها ويتوازن، ولكنه لا يخرج عن المؤسسة^(١).

وإذا كانت كتابات الطهطاوي التجديدية قد واكبت مساعي محمد علي لتحديث المجتمع المصري، فإن نفيه إلى السودان لمدة خمس سنوات (١٨٥٠ - ١٨٥٤) في عهد عباس الأول - الذي امتد ست سنوات فقط (١٨٤٩ - ١٨٥٤) - قد جعل سلبيات الحكم المطلق والمستبد تتجسد بقوة في وعيه. فبعد أن كان الطهطاوي يستمد معرفته بتلك السلبيات من اتصاله بالفكر السياسي الأوروبي، أصبحت تجربة منفاه تجربة عيانية جسدت له تلك السلبيات. واللافت أن استبداد عباس الأول قد ارتبط بقضائه على كثير من المشروعات الإصلاحية - في مجال التعليم خاصة - التي أسسها محمد علي. وذلك ما كشف لرفاعة عن السلبيات الاجتماعية التي تتولد عن الاستبداد.

وإذا كانت هناك أسباب مختلفة حول أسباب نفي رفاعة - أو على الأقل إبعاده - إلى السودان^(٢) فإن واحدًا من أقواها يتمثل في (احتواء الطبعة الثانية من تخلص الإبريز

(١) غالي شكري: المثقفون والسلطة في مصر، الطبعة الأولى، أخبار اليوم، ١٩٩١ ص ٦٣، وانظر ص - ص ٤٥ - ٧٢، حيث يحدد أنماط هؤلاء المثقفين.

(٢) انظر: محمود متولي: عصر رفاعة، ضمن كتاب: رفاعة الطهطاوي رائد التنوير، مرجع سابق، ص - ص ٢٤، ٢٥، حيث يعرض الأسباب المختلفة وراء نفي رفاعة إلى السودان، وإن كان يرجح أن سبب النفي (هو أن رفاعة كان يؤيد المصرية الكاملة بينما كان عباس ومن حوله يؤيد تبعية مصر للعثمانيين).

عام ١٨٤٩ على فقرات تنقد مبدأ الحكم المطلق^(١).

ولقد كان ذلك التحول في علاقة الطهطاوي بالسلطة الممثلة في الحاكم، وبروز سلبيات الحكم المطلق أمامه دافعاً إلى ترجمته «وقائع تليماك»؛ إذ كانت هذه الترجمة وسيلة لنقد ذلك الحكم، وذلك بما تضمنته هذه الرواية من حواريات كثيرة يقوم فيها الحكيم منظور بتعليم تليماك طريقة تسيير الحكم على أساس من الحرية، ويكشف له عن خطورة الاستبداد وعواقبه الوخيمة.

وعلى الرغم من أن علاقة الطهطاوي بإسماعيل -الذي تولى الحكم في الفترة من ١٨٦٣ - ١٨٧٩- كانت «جيدة» فليس من المستبعد أن تكون كتابته «نهاية الإيجاز» بمثابة رسالة ضمنية إلى الحاكم، تقوم على تقديم صورة الرسول ﷺ بوصفه نموذجاً يجمع بين البطولة، من ناحية، والإصلاح من ناحية ثانية، والخلق المثالي من ناحية ثالثة... وتعضد هذا «التأويل» مجموعة من الدوال التي تتبدى في كتابات الطهطاوي بعد المنفى بصفة خاصة.

ويتصل أول هذه الدوال بما تكشف عنه قراءة «مناهج الألباب» (١٨٦٩) مقارنة بتخليص الإبريز (١٨٣٤) من بروز قيمة العدالة في الأول، بينما كانت قيمة الحرية هي السائدة والمسيطرة على خطاب الطهطاوي في الكتاب الثاني^(٢). ويبدو حرص الطهطاوي على تقديم قيمة العدالة في «مناهج الألباب» قرين الكشف عن تعدد جوانبها؛ فهي -من ناحية- أسس قيام المجتمع وبقائه واستمراره، أو هي -حسب وصف الطهطاوي- أساس التمدن، فالعدل هو (الأصل في سعادة الممالك)^(٣)، وهي -من ناحية ثانية- الأساس الذي في ضوئه تقام قوانين توزيع السلطة داخل مؤسسة

(١) جاك كرابس جونيور: كتابة التاريخ في مصر في القرن التاسع عشر، مرجع سابق، ص ١٠٣.

(٢) حول ما طرحه الطهطاوي عن الحرية في تخليص الإبريز، انظر دراسة عزت قرني: العدالة والحرية في فجر النهضة العربية الحديثة، سلسلة عالم المعرفة العدد ٣٠، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، يونيو ١٩٨٠، ص -ص ٣٦- ٥٩.

(٣) رفاة الطهطاوي: مناهج الألباب المصرية ص ١٨٠.

الحكم؛ إذ (لما كانت السياسة جسيمةً لا يقوم بها واحدٌ اختص الملك بمعالى الأحكام وكرلياتها وخلق بعض نفوذه في جزئيات الأحكام على المحاكم والمجالس وجعل لهم لوائح وقوانين خصوصية تُرشد أفعالهم ولا يتعدونها. قال بعضهم: ليست في الدنيا جمعية منتظمة ولا مملكة معتدلة الأحكام إلا وتكون القوة فيها بالأصول العدلية، فالأصول العادلة تصون ناموس الدولة عن الملامة)^(١). بينما يجعل الطهطاوي العدالة -من ناحية ثالثة- حقاً تاماً من حقوق الرعية إذ إن (مأمورية العدل أول واجبات ولاية الأمور وهو وضع الأشياء في مواضعها، وإعطاء كل ذي حق حقه والإنصاف بميزان القوانين)^(٢).

وبقدر ما كان ذلك الدال الأول يقترن بسعي الطهطاوي إلى التأكيد على ترسيخ العدالة قيمة شاملة في تنظيمها المجتمع وتحديد توزيع السلطة وكونها السمة التي ينبغي أن تحكم علاقة الحاكم برعيته -فإن الدال الثاني يتصل بالتصور الذي يطرّحه الطهطاوي للعلاقة بين الكاتب أو المفكر والحاكم، ويكشف هذا الدال -عبر مجموعة من النصوص المنقولة التي «يجيد» الطهطاوي انتقاءها وتقديمها -عن إعلاء الطهطاوي لشأن الكاتب والمفكر على الحاكم، وهذا ما يتجلى في تكرار نقوله على شدة احتياج الحاكم إلى الكاتب والمفكر؛ فإذا كان (الكاتب مالك الملك يصرفه بقلم الإنشاء كيف يشاء)^(٣) فإن الكتاب هم (سياسة الملك وعماده وأركان السلطان وأطواره، بأقلامهم تُبسط الأرزاق وتبيض الآمال، وبها تُصان المعامل إذا عجزت عن صونها الرجال)^(٤). ويقرن الطهطاوي فعل الكتاب بالحكمة ورجاحة العقل؛ فبالكتابة (والكتاب قامت الرياسة والسياسة وإليهم أُلقي تدبير الأعنة والأزمة)^(٥).

(١) رفاة الطهطاوي: مناهج الأبواب ص ٣٥٣.

(٢) رفاة الطهطاوي: مناهج الأبواب ص ٣٥٦.

(٣) رفاة الطهطاوي: مناهج الأبواب ص ١٦٧.

(٤) المرجع السابق، ص ١٦٧.

(٥) نفس المرجع والصفحة.

ومن هذا المنظور الذي يعلي من فعل الكتابة كاشفًا عن المهام الاجتماعية والسياسية التي يستطيع ذلك الفعل تحقيقها -احتفى الطهطاوي بمقولة ابن المقفع إن (الملوك أحوج إلى الكُتّاب من الكُتّاب إلى الملوك، ومن فضل الكتابة أن صاحب السيف يزاحم الكاتب في قلمه ولا يزاحمه الكاتب في سيفه)^(١).

وإذا كان الطهطاوي قد قرن العدل بالتمدن، من ناحية، وجعل من الكاتب والحكيم مرشدًا للحاكم وسائسًا له من ناحية ثانية، فإن الدال الثالث الذي يتولد عن الدالين السابقين قد تبدى في سعي الطهطاوي -على ما يبدو بوضوح في «مناهج الأبواب» -إلى تقديم أمثلة مختلفة من تاريخ مصر القديمة وغيرها من الدول تكشف عن انصياع الملك الحاكم للحكام وللحكام وعمله بنصائحهم ضمانًا لبقاء الدولة وترسيخًا للعدل^(٢).

وقد أسس ذلك الدال الثالث لدال رابع أنشأه الطهطاوي بقران وصل فيه بين عدالة الحاكم/ الملك من ناحية، ودور الرأي العام، من ناحية ثانية، ووظيفة التاريخ من ناحية ثالثة، فكشف ذلك القران عن صورة من الجدل بين عدالة الحاكم التي تتجلى في أفعاله، وتأثيرها في الرأي العام بوصفه متلقيًا لهذه الأفعال، ودور التاريخ بوصفه وسيلة سردية تُبقي ذكر الحاكم أو تُخمله؛ فمما يحمل الملوك على العدل (ويحاسبهم محاسبة معنوية الرأي العمومي أي رأي عموم أهل مملكتهم أو ممالك غيرهم ممن جاورهم من الممالك ...) ومما يحاسب الملوك أيضًا على العدل والإحسان التاريخ، أي حكاية وقائعهم لمن بعدهم من ذرائعهم وخلفهم من الأجيال التالية، فإن المؤرخ يذكر للأمة أخبار ملوكها فينتقل من العين إلى الأثر ومن البيان إلى الخبر

(١) رفاعه الطهطاوي: مناهج الأبواب ص ١٦٨.

(٢) رفاعه الطهطاوي: مناهج الأبواب ص ١٧٨ حيث يقول (كانت حكماء مصر تذكر الملوك دائمًا بالحقوق والواجبات وتحثهم على التمسك بالفضائل الملوكية وتلعن من يصرفهم عنها من بطانة السوء وأهل النفاق، وكانت الملوك في تلك الأوقات يشتغلون بمطالعة الحكم والآداب والمواعظ والتواريخ وكل ما يرشد إلى العدل والاستقامة). وانظر أيضًا ص -ص ١٩٧- ١٩٨ حيث يكشف عن تأثير قصص التاريخ على الإسكندر الأكبر.

فيثبت محاسن الملوك ومثالبهم لأعقابهم ليعتبروا^(١).

ويتضام مع الدوال الأربعة السابقة دال خامس يتمثل -فيما لاحظناه من قبل- من تأكيد الطهطاوي إمكانية تعدد مستويات الدلالة في النص السردي، وما لاحظته بعض دارسيه من لجوئه إلى بعض طرائق التحفظ والتخفي لتقديم أفكاره الإصلاحية والنقدية^(٢).

إن تلك الدوال الخمسة السابقة تشير إلى أن «نهاية الإيجاز» بتقديمه صورة النبي ﷺ بوصفه نموذجاً للبطل العربي في صفاته المثالية أخلاقياً وإنسانياً وسلوكياً -إنما كان يمثل رسالة ضمنية إلى الحاكم، وهذا ما يكشف عن المستوى من مستويات تلقي نص الطهطاوي، أو إمكانات إرساله التي تتحقق على نحو رمزي.



(١) الطهطاوي: مناهج الألباب ص -ص ٣٥٥-٣٥٦.

(٢) انظر: العدالة والحرية -مرجع سابق، ص ٢٦، حيث يشير عزت قرني إلى اتخاذ الطهطاوي أساليب التحفظ في «تلخيص الإبريز» وهو بصدد الحديث عن الإفادة من الأفكار الأوروبية. وانظر أيضاً: جاك كرابس جونيور، كتابة التاريخ في مصر في القرن التاسع عشر، مرجع سابق، ص ١٠٧ حيث يصف الفصل الأول من «مناهج الألباب» باللا ترابط بسبب انتقال الطهطاوي في حديثه من (التفسير إلى الحديث إلى الشعر)، ويصف هذا بأنه (محاولة معتدلة عارضة لتقديم تبرير ديني لبعض الأفكار الجديدة التي يقترحها أو يقدمها فيما بعد في الكتاب)، ثم يعود جونيور في هامش رقم ٤٦، ص ١٢٠ إلى القول إنه (يُحتمل أن الفصل الأول استخدم كستارة دخان لتجنب اعتراضات المتحفظين الدينيين).

ترجمة المؤلف

هو السيد رفاعة بن بدوي بن علي بن محمد بن علي بن رافع، وهو شريف حُسَيْنِي يتصل نسبه بالرسول عليه الصلاة والسلام عن طريق محمد الباقر بن علي زين العابدين ابن الحسين بن فاطمة الزهراء، أما أخواله فمن الأنصار.

وُلد رفاعة الطهطاوي سنة (١٢١٦هـ / ١٨٠١م) وهي السنة التي غادرت فيها حملة «نابليون بوناپرت» مصر. ولد في بلدة طهطا، إحدى قرى مديرية سوهاج في صعيد مصر.

وُلد رفاعة لأبوين كانا على قدرٍ من اليسار لم يلبث أن زال بسبب سَحْب والي مصر محمد علي باشا ما كان بأيدي العلماء والأشراف من الالتزامات.

وقد دفعت الضائقة المالية أباه إلى ترك بلدته بحثاً عن الرزق، وصاحب رفاعةُ أباه في هذه الجولة من قنا إلى جرجا، ثم عاد إلى طهطا بعد وفاة والده.

وهناك تعهده أخواله، فحفظ القرآن الكريم، وكتب المتون العلمية التي كانت معروفة يومئذ على يد نفر من أقاربه العلماء.

وفي سنة ١٢٣٢هـ / ١٨١٧م وفد رفاعةُ إلى الأزهر يطلب العلم، وسُنَّه إذ ذاك تناهز السادسة عشرة سنة، واتصل منذ دخل الزهر بشيخه الشيخ حسن العطار الذي احتضن تلميذه واختصه بمزيد من الرعاية لما آنسَه فيه من الذكاء وحب العلم.

ولم تَطُل المدة بالفتى رفاعة في طلب العلم حتى تخرَّج في الأزهر (في مدة لا تتجاوز الستة أعوام)، ثم عمل سنتين بعد التخرج مدرساً في الأزهر، قام خلالها

بتدريس كتب كثيرة في بعض العلوم الأزهرية، مثل الحديث، والمنطق، والبيان، والبدیع، والعروض، وغيرها. وكان شيخاً سلس الحديث، واضح العبارة، يفهم دروسه الكبير والصغير بلا مشقة.

وفي عام ١٢٤٠ / ١٨٢٤م عُين الشيخ رفاعه الطهطاوي واعظاً وإماماً لإحدى فرق الجيش المصري النظامي، الذي كونه والي مصر «محمد علي باشا»، فأدى مهمته على أكمل وجه.

لكن الشيخ رفاعه لم يمكث في الجيش إلا فترة قصيرة، إذ عندما قرر محمد علي أن يوفد عدداً من شباب مصر إلى باريس سنة ١٢٤١هـ / ١٨٢٦م زين الشيخ حسن العطار للوالي أن يجعل لهؤلاء المبعوثين إماماً يذكّرهم بالدين ويعظهم ويرشدهم، ويؤمهم في الصلاة، وأن يكون هذا الإمام هو الشيخ رفاعه الطهطاوي.

سافر الشيخ رفاعه إلى باريس إماماً للبعثة، وبدأ في تعلم اللغة الفرنسية، وأقبل على دراسة العلوم المقررة على طلاب البعثة بأكثر مما أقبل عليها طلاب البعثة أنفسهم. وكان تعمق الشيخ رفاعه في دراسة اللغة العربية وإتقانها بالأزهر سبباً في أن وجهه المشرفون على البعثة لإتقان اللغة الفرنسية ودراسة فن الترجمة، حتى يستطيع أن يؤدي نصيبه في النهضة العلمية والحركة الفكرية متى عاد إلى مصر، وذلك بترجمة العلوم المختلفة التي كان الوطن في أشد الحاجة إلى ترجمتها.

ولما كان فن الترجمة يحتاج من المترجم إلى معرفة بالعلوم التي سترجمها من لغة إلى أخرى، نُظمت للشيخ رفاعه دراسات في مختلف الفنون والعلوم، فقرأ كثيراً من كتب الهندسة، والرياضة، والعلوم، والتاريخ، والجغرافيا، والاجتماع، والعلوم العسكرية، والقانون وغيرها، وتمرن على الترجمة، فقام بترجمة بعض الكتب الصغيرة، وبعض الفصول من الكتب الكبيرة التي أتم ترجمتها بعد عودته إلى مصر.

انتهاز الشيخ فرصة وجوده في باريس، فأمعن النظر في كل ما رآه، وتغلغل في

الحياة الفرنسية من جميع نواحيها، فعرف ما هو الدستور، وما هي الانتخابات، وعرف المدارس الفرنسية، ومجامع العلماء في باريس وأثرها في الحياة الفكرية.

وتكلم عن المكتبات وأثرها في هذه الحياة، كما انتقد الفرنسيين في كثير من أخلاقهم، وعوائدهم، وعقائدهم التي لم يكن يُقرها.

وبعد خمس سنوات قضاهما الشيخ رفاعة في باريس عاد إلى مصر سنة ١٢٤٦هـ ١٨٣١م حيث استقبله المصريون أحسن استقبال.

عُين الشيخ رفاعة بعد عودته إلى مصر مترجماً بمدرسة الطب، وكان أول مصري يُعين مترجماً بهذه المدرسة، وقام خلال هذه الفترة بمراجعة كتاب «التوضيح لألفاظ التشريح» في الطب البيطري.

ثم نُقل رفاعة الطهطاوي سنة ١٢٤٩هـ ١٨٣٣م مترجماً بمدرسة الطبوجية (المدفعية) بطرة، وفيها قام بترجمة بعض الكتب الهندسية والجغرافية اللازمة للمدرسة وغيرها من المدارس الحربية، فأتمَّ ترجمة كتاب «مبادئ الهندسة» الذي طُبِع في بولاق سنة ١٨٣٣م.

ولما كان رفاعة الطهطاوي يعشق علمي: الجغرافيا والتاريخ، منذ كان يتلقى العلم في باريس، فقد بدأ بترجمة كتاب خاص أسماه «التعريفات الشافية لمريد الجغرافية» وطبعه عام ١٨٣٤م، كما طبع كتابين ترجمهما في باريس هما «المعادن النافعة» و«قلائد المفاهر في غريب عوائد الأوائل والأواخر».

وفي أواخر سنة ١٢٥٠هـ / ١٨٣٤م تقدم رفاعة لأولي الأمر باقتراح يتلخص في أن يؤذن له بافتتاح مدرسة للترجمة تُعلَّم فيها الألسن الشرقية والغربية وبعض المواد المساعدة كالتاريخ والجغرافيا، والرياضة، ليقوم خريجوها بترجمة الكتب في العلوم المختلفة. وأنشئت المدرسة سنة ١٨٣٤، وكان مقرها «سراي الدفتر دار» بحي الأزبكية، وكانت تُسمى أول الأمر «مدرسة الترجمة» ثم صارت «مدرسة الألسن».

وكان الغرض من إنشائها تخريج مترجمين لمصالح الحكومة. ثم اتجهت إلى أن يكون من خريجها قلمٌ يعرف «بقلم الترجمة»، ثم استقر على أن يكون هدفها إعداد المترجمين والمدرسين، وإمداد المدارس الخصوصية (العالية) بتلاميذ يعرفون اللغة الفرنسية، وكان رفاة مديرًا لهذه المدرسة، ويقوم بالتدريس فيها.

أما في مجال الصحافة فكان لرفاعة الطهطاوي دور بارز؛ ففي عام ١٨٤٢م صدر قرار رسمي عن ديوان المدارس، بتعيين رفاة الطهطاوي رئيسًا لتحرير صحيفة «الوقائع المصرية» وتضمن هذا القرار دستورًا جديدًا لهذه الصحيفة، من المحقق أن رفاة الطهطاوي اشترك بنفسه في وضع مواده، ثم تولى تنفيذ ذلك بطريقة كان لها الفضل كل الفضل في تنظيم الوقائع تنظيمًا جديدًا، والدخول بها في طور آخر من أطوار حياتها الطويلة المجيدة.

وخليق بنا أن نشير إلى بعض الإصلاحات التي أدخلها الطهطاوي، ومنها:

- ١ - لاحظ أن هذه الصحيفة تكتب باللغتين العربية والتركية، غير أن التركية كانت تحتل اليمين من الصحيفة، بينما العربية تحتل الناحية اليسرى، وحين أشرف على الوقائع أصر على أن تكون العربية ناحية اليمين والتركية ناحية اليسار.
- ٢ - لاحظ الطهطاوي أن مواد الصحيفة تكتب أولاً بالتركية ثم تترجم بعد ذلك إلى العربية، فإذا كان الأصل التركي سقيمًا في ذاته فأُخْلِقَ بالترجمة العربية أن تكون ركيكة سقيمة كذلك. ولذلك وجدنا الطهطاوي يحتم على الصحيفة أن تقدم المواد كلها بالعربية أولاً، ثم لا بأس من أن تترجم هذه المواد إلى التركية بعد ذلك.
- ٣ - عني الطهطاوي في صحيفة الوقائع عناية خاصة بالأخبار المصرية مقدمًا إياها على الأخبار الخارجية.



وفي سنة ١٨٤٩ تولى عباس الأول حكم مصر، وكان رجعيًا ضيق الأفق، فأصدر أوامره بإغلاق المدارس الخصوصية، وكانت مدرسة الألسن أول مدرسة أُلغيت. ولم

يقنع عباس بذلك، بل أمر بإنشاء مدرسة ابتدائية بالخرطوم، وأن يتولى تأسيسها رفاة الطهطاوي. ورغم شعور رفاة بالأسى لإحساسه بأنه منفي، رغم ذلك قام بواجبه في مدرسة الخرطوم خير قيام، وشغل وقته بترجمة قصة «تليماك» لمؤلفها «فنون»، وقد طُبعت هذه الترجمة بعد ذلك في بيروت، بعنوان «مواقع الأفلاك في وقائع تليماك» كما عُنِيَ بتكوين جيل من مثقفي السودان بثَّ فيهم روح العلم والمعرفة، وكانوا نواة نهضة علمية مماثلة لتلك التي عرفتها مصر على يديه.

وفي عهد سعيد عاد السيد رفاة إلى مصر، وكانت له جهود علمية في ميادين أخرى في عهدَي سعيد وإسماعيل، أهمها تعيينه وكيلاً للمدرسة الحربية تحت نظارة سليمان باشا الفرنساوي، إذ اتجه الرأي يومئذ إلى أن تكون هذه المدرسة نواة لمدرسة جديدة تحتفظ من المدرسة الأولى بصفاتها العسكرية، ويتجه التعليم فيها وجهةً مدنية بالإكثار من دراسة اللغات والعلوم الأدبية والرياضيات، إلى جانب التعليم العسكري. أنشئت المدرسة بالقلعة سنة ١٨٥٦، وعُيِّن رفاة رئيساً لها، فأقبل على عمله الجديد بهمة قوية، يريد أن يجدد بذلك عهد مدرسته القديمة (مدرسة الألسن).

كما أشرف رفاة على قلم الترجمة الذي أنشئ في عهد إسماعيل، وقام بترجمة مجموعة من القوانين الفرنسية - بالاشتراك مع نفر من تلاميذه - غير أن نشاط رفاة توقف مرة أخرى بإلغاء المدرسة الحربية بالقلعة سنة ١٨٦١ م.

واستدعي رفاة في عهد إسماعيل ليتولى إصدار صحيفة جديدة يُنفق عليها ديوان المدارس، وأطلق على هذه الصحيفة «روضة المدارس». وصدر العدد الأول منها في شهر أبريل سنة ١٨٧٠، وكانت تصدر مرتين كل شهر، وكانت هذه المجلة تقصر عنايتها على أخبار الطلبة والامتحانات، ومن أهدافها النهوض باللغة العربية، ونشر المعارف الإنسانية، فلم تكن روضة المدارس مجلة سياسية، بل كانت مجلة علمية وأدبية.

وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وضع رفاة جُلَّ مؤلفاته، ومنها «مباهج

الألباب المصرية ومناهج الألباب العصرية»، و«المرشد الأمين في تربية البنات والبنين» و«التحفة المكتبية لتقريب اللغة العربية» وغيرها.

* * *

وإذا كانت جهود رفاة الطهطاوي في النصف الأول من القرن التاسع عشر موجّهة لترجمة الكتب التاريخية لتزويد المكتبة العربية بمجموعة من الكتب المعرّبة، تغطي تاريخ العالم بقدر الإمكان، إلا أننا نجده في النصف الثاني من القرن التاسع عشر خطاً خطوة جديدة، وبدأ يؤلف في التاريخ، وفي تاريخ مصر بوجه خاص.

ورغم أن الشيخ رفاة لم يُدرِك ثورات المصريين ضد الحملة الفرنسية، إذ وُلِدَ في نفس السنة التي غادرت فيها الحملة مصر، لكنه سمع عنها الكثير، وقرأ عنها في كتاب الجبرتي «عجائب الآثار»، وكذلك قرأ الكثير عن الثورة الفرنسية أثناء دراسته في باريس، وقرأ كثيراً من مؤلفات الكتّاب الفرنسيين الذين مهدوا لقيام الثورة الفرنسية، أمثال «روسو» و«فولتير» و«مونتسكيو»، وشهد ثورة فرنسا سنة ١٨٣٠م، وترجم الدستور الفرنسي الذي وضعه لويس التاسع عشر.

لذلك كله اتجه رفاة - عندما بدأ التأليف في التاريخ - اتجاهاً قومياً، ووضع لنفسه خطة ترمي إلى وضع مؤلّف ضخم في تاريخ مصر، منذ عهد الفراعنة إلى العصر الحديث.

وكان للجهود الذي بذلها علماء الحملة الفرنسية في مصر أثر كبير في لفت الأنظار إلى الآثار المصرية، وكان لعثور رجال الحملة على حجر رشيد، وعكوف علماء فرنسا على قراءة ما عليه من نصوص، وتوفيق العالم الفرنسي «شمبليون» في فك رموز الكتابة الهيروغليفية، مما مكن من قراءة النصوص المنقوشة على جدران المقابر والمعابد، والمكتوبة على أوراق البردي وغيرها، وتمكين المؤرخين من التعرف على أسرار الحضارة المصرية القديمة، بعد أن ظلت مجهولة قروناً طويلة.

ثم أقبل الباحثون والمنتقون الأوروبيون على الحفر، وكشفوا كثيرًا من الآثار المصرية القديمة، وبدأ الأثريون والمؤرخون الأوروبيون يكتبون تاريخ مصر القديم كتابة صحيحة إلى حد كبير. واستفاد رفاة الطهطاوي من هذه الحركة، وبدأ يؤلف كتابًا في تاريخ مصر منذ القدم، وخصص الجزء الأول لتاريخ مصر في عصور الفراعنة، والبطالمة، والرومان، وسمّاه «أنوار توفيق الجليل في أخبار مصر، وتوثيق بني إسماعيل» وقد طُبع هذا الجزء في بولاق سنة ١٢٨٥ هـ.

ثم قرر رفاة أن يؤرخ لمصر في العصر الإسلامي، ولكنه رأى أن يؤرخ أولاً للرسول عليه الصلاة والسلام بصورة يلتزم فيها بالمنهج العلمي، وجعل هذه السيرة الجزء الثاني من كتابه، وسمّاه «نهاية الإيجاز في سيرة ساكن الحجاز». وقد بدأ نشره على حلقات، في مجلة «روضة المدارس» وهو كتابنا هذا الذي نقدم له.

في هذا الكتاب تتبّع رفاة حياة الرسول ﷺ منذ مولده إلى وفاته، وأفرد الفصل الأخير للتحديث عن نظام الحكومة في عصر النبي ﷺ، وعند هذا الجزء وقف قلم الشيخ رفاة؛ إذ وافته المنية سنة ١٢٩٠ هـ - ١٨٧٣ م.

توفي ذلك العالم الجليل الذي كان بحق زعيم الحركة العلمية والأدبية في عصر محمد علي، وحتى عصر إسماعيل، وقد بلغت مؤلفاته المعروفة حتى الآن نحو الثلاثين مؤلفاً في شتى العلوم.



مؤلفاته ومترجماته

جاء في كتابه «اكتفاء القنوع بما هو مطبوع» في الستة الشهيرين من زمن اليقظة والذي يسميه البعض بدور الاختلاط (أي اختلاط الغرب بالشرق): ص ٤٠٧:

«رفاعة بن رافع الطهطاوي المتوفى سنة ١٢٩٠هـ، له عدة مصنفات منها:

(١) رحلته إلى فرنسا: سماها «خلاصة الإبريز والديوان النفيس» طبعة ١٢٣٠ في بولاق في عهد محمد علي باشا.

(٢) «نهاية الإيجاز في سيرة ساكن الحجاز» طبعت بالقاهرة ١٢٩١هـ، وهي من أحسن المختصرات في سيرة الرسول ﷺ.

(٣) (مطلع شمس السير في وقائع كرلوس الثاني عشر) طبعت في بولاق ١٢٥٧هـ وهي مترجمة من اللغة الفرنسية عن كتاب الفيلسوف فولتير في سيرة Charles 12 من ملوك فرنسا.

(٤) (التعريفات الشافية لمريد الجغرافية) طبعت في بولاق ١٢٥٠هـ، وأيضاً ١٢٥٤هـ، وهي مطوّلة في الجغرافيا مأخوذة عن ٤ أجزاء من جغرافية مالط برون الفرنسية.

(٥) (أنوار توفيق الجليل في أخبار مصر وتوثيق بني إسماعيل) طبعت في القاهرة ١٢٨٥هـ في ٥٥٤ صفحة وهي مفيدة في تاريخ مصر القديم.

(٦) (نظم العقود في كسر العود) قصيدة طبعت في باريس ١٨٢٧م وهي معربة عن شعر نظمه العلامة آغوب أي يعقوب.

(٧) (المرشد الأمين في تربية البنات والبنين) طُبع في بولاق وهو مطوّل في البيداغوجيا (التربية).

(٨) «مواقع الأفلاك في أخبار تليماك» ترجمها من الفرنسية، وهي قصة تليماك الأدبية الشهيرة، وطبعت في بيروت.

(٩) (مباهج الألباب المصرية في مناهج الألباب العصرية) طُبعت في ٢٩١ صفحة في بولاق سنة ١٢٨٦ هـ، وهي مباحث عن حالة الآداب المصرية في عصره وسياساتها وصنائعها وعلومها.

(١٠) (تعريب القانون المدني الفرنسي) طبعت في جزئين في بولاق سنة ١٢٩٣ هـ.

(١١) (هندسة ساسير) ترجمها من الفرنسية. طبعت في بولاق.

(١٢) (جمال الآجرومية) وهي منظومة سهلة المأخذ مبنية على الآجرومية الشهيرة.

(١٣) «قلائد المفاهر في غريب عوائد الأوائل والأواخر» جعله على قسمين: الأول في أخلاق أهل بلاد أوروبا، ترجمها عن كتاب العلامة دبينغ في عوائد الأمم وأخلاقها، والثاني معجم الاصطلاحات الجغرافية والتاريخية أخذه عن الفرنسية طبعت في جزئين في بولاق ١٢٤٩ هـ.

(١٤) (قدماء الفلاسفة) عن الفرنسية، طبعت في بولاق ١٢٥٢ هـ.

(١٥) (تاريخ قدماء المصريين) طبعت في بولاق ١٢٥٤ هـ.

(١٦) «جغرافية صغيرة» ترجمها من الفرنسية طبعت سنة ١٢٣٠ هـ في بولاق.

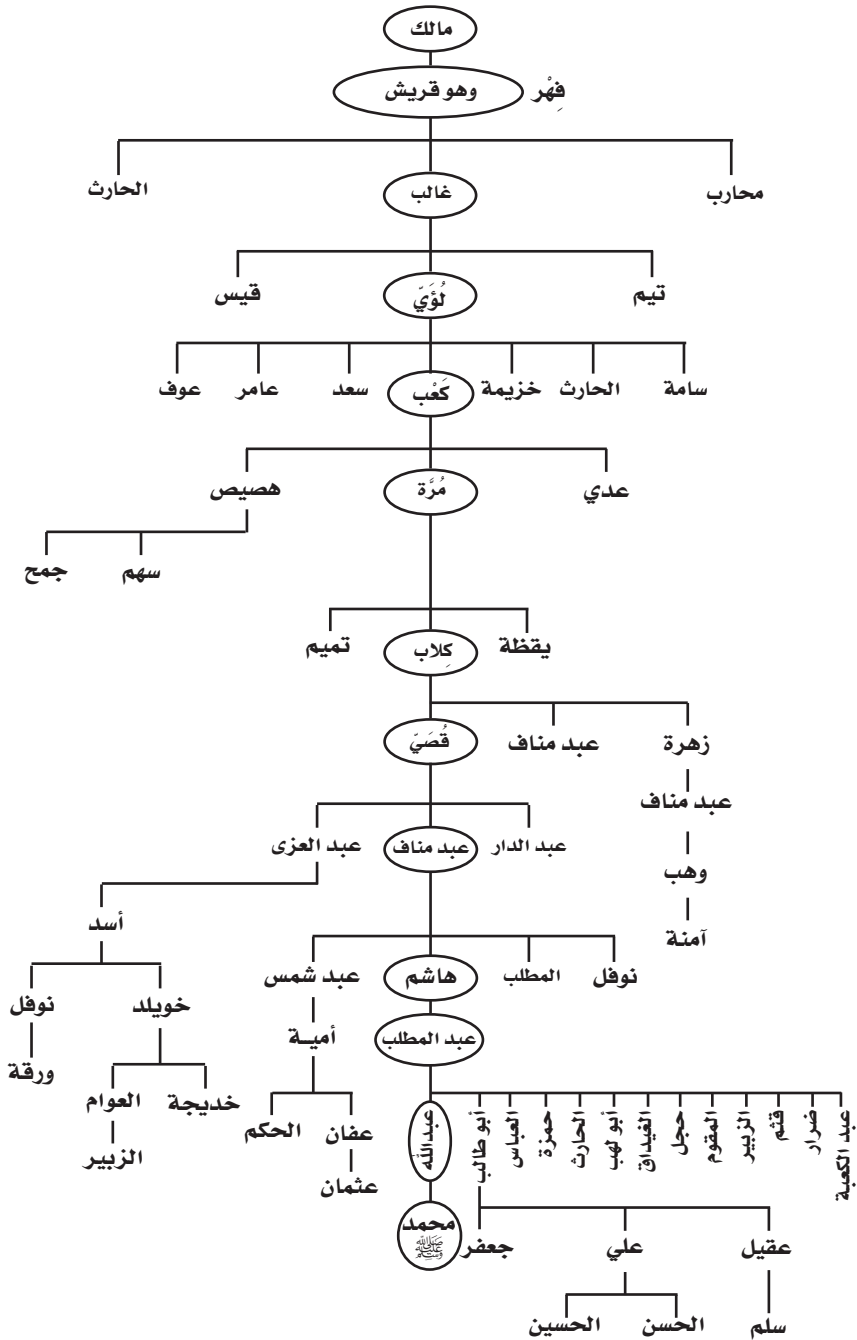
(١٧) «جغرافية عمومية في كيفية الأرض» ترجمها عن الفرنسية، طبعت في بولاق سنة ١٢٣٩ هـ.

(١٨) (تخليص الإبريز في تلخيص باريز) وهو وصف مدينة باريس، طبعت في بولاق سنة ١٢٥٠ هـ.

- (١٩) (رسالة المعادن) ترجمها عن الفرنسية، طبعت في بولاق سنة ١٢٤٨هـ.
- (٢٠) «بداية القدماء وهداية الحكماء» أوجز فيه التاريخ القديم وأسهب في تاريخ اليونان القديم ومعبوداتهم وحرب ترواس، وهو كتاب مأخوذ عن مصادر عربية وأفريقية، طبعت في ٢٨١ ص في بولاق سنة ١٢٨٢هـ.
- (٢١) (كتاب المنطق) طبع في بولاق سنة ١٢٥٤هـ، وهو معرّب عن كتاب فرنساوي في المنطق للعلامة دومارسييس.
- (٢٣) (قانون التجارة) ترجمه عن المجلة الفرنسية. طبعت في بولاق سنة ١٢٨٥هـ.



نَسَبُ الرَّسُولِ ﷺ



الباب الأول

في مولده الشريف إلى بعثته ﷺ

الفصل الأول

في مولده الشريف. ونسبه المُنِيف^(١)، ورضاعه، وكفالتة

أَبَاؤُهُ: هو أَبُو الْقَاسِمِ: مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ بْنِ هَاشِمِ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ بْنِ قُصَيِّ بْنِ كِلَابٍ بْنِ مَرَّةٍ بْنِ كَعْبٍ بْنِ لُؤَيٍّ بْنِ غَالِبٍ بْنِ فِهْرِ بْنِ مَالِكِ بْنِ النَّضْرِ بْنِ كِنَانَةَ ابْنِ خُزَيْمَةَ بْنِ مُدْرِكَةَ بْنِ إِيَّاسٍ بْنِ مُضَرَ بْنِ نَزَارٍ^(٢) بْنِ مَعَدٍ بْنِ عَدْنَانَ، الَّذِي قِيلَ فِيهِ: وَكُمُ أَبٍ قَدْ عَلَا بِابْنٍ لَهُ شَرَفٌ كَمَا عَلَا بِرَسُولِ اللَّهِ عَدْنَانٌ وَهَذَا مِمَّا لَا اخْتِلَافَ فِيهِ مِنَ الْآبَاءِ، وَمَا فَوْقَ ذَلِكَ مُخْتَلَفٌ فِيهِ.

وَلَا خِلَافَ فِي أَنَّ عَدْنَانَ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَإِنَّمَا الْخِلَافُ فِي عِدَدٍ مِنْ بَيْنِ عَدْنَانَ وَإِسْمَاعِيلَ مِنَ الْآبَاءِ، فَمِنْ مُقِلٍّ وَمَكْثَرٍ، وَكَذَلِكَ مِنْ إِبْرَاهِيمَ إِلَى آدَمَ عَلَيْهِمَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَلَا يَعْلَمُ ذَلِكَ عَلَى حَقِيقَتِهِ إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى.

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا انْتَهَى فِي النِّسْبِ

(١) المُنِيف: المشرف على غيره.

(٢) وَقَالَ ﷺ: أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ بْنِ هَاشِمِ بْنِ مَنَافٍ بْنِ قُصَيِّ بْنِ كِلَابٍ بْنِ مَرَّةٍ بْنِ كَعْبٍ بْنِ لُؤَيٍّ بْنِ غَالِبٍ بْنِ فِهْرِ بْنِ مَالِكِ بْنِ النَّضْرِ بْنِ كِنَانَةَ بْنِ خُزَيْمَةَ بْنِ مُدْرِكَةَ بْنِ إِيَّاسٍ بْنِ مُضَرَ بْنِ نَزَارٍ، وَمَا افْتَرَقَ النَّاسُ فَرَقَتَيْنِ إِلَّا جَعَلَنِي اللَّهُ فِي خَيْرِهِمَا؛ فَأَخْرَجْتُ مِنْ بَيْنِ أَبِيي، فَلَمْ يَصْبِنِي شَيْءٌ مِنْ عُهْرِ الْجَاهِلِيَّةِ، وَخَرَجْتُ مِنْ نِكَاحٍ وَلَمْ أَخْرَجْ مِنْ سَفَاحٍ مِنْ لَدُنِ آدَمَ حَتَّى وَلَدَنِي أَبِي وَأُمِّي، فَأَنَا خَيْرُكُمْ نَفْسًا وَخَيْرُكُمْ أَبًا. رَوَاهُ الْبَيْهَقِيُّ (فِي دَلَائِلِ النُّبُوَّةِ) وَرَوَاهُ الْحَاكِمُ فِي تَارِيخِهِ، وَالدِّلِمِيُّ، وَابْنُ عَسَاكِرَ عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

إلى معد بن عدنان أمسك وقال: «كذب النسابون؛ قال الله تعالى: ﴿وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا﴾»^(١).

وقد أجمع النسابون (العدنانية والقحطانية والأعاجم) على أن إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام من ولد سام بن نوح، وأن عدنان من ولد إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام؛ فانتفاء النسب إلى إسماعيل كثير النسل العديد، وذي النبوة العظمى والملك الشديد، متفق عليه كمال الاتفاق.

وأما أمه ﷺ فهي: آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة بن كعب ابن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس ابن مضر بن نزار بن معد بن عدنان، فتجتمع آمنة بنت وهب مع زوجها عبد الله بن عبد المطلب في كلاب بن مرة، ويفترقان من ولده؛ فعبد الله من ولد قصي بن كلاب ابن مرة: هاشمي، وآمنة بنت وهب من ولد زهرة بن كلاب بن مرة، فهي قرشية زهرية.

طهارة نسبه ﷺ:

وهو ﷺ مصباح الكون وضياؤه، وخير بني آدم؛ لأنه من نور الله^(٢) فإن الله عز وجل حين خلق آدم عليه السلام وأكمل نشأته واستخرج في عالم الدر من ظهره ذريته، وأشهدهم على أنفسهم^(٣) لاحت أنوار الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فكان نور نبينا محمد ﷺ أشرقها صباحًا، وأنورها مصباحًا، فلم يزل نوره ﷺ رأي العيان في كل الأزمان، ينتقل باهر الضياء من خير الآباء إلى خير الأبناء، حتى انتهى إلى كبير مكة وقريش في الجاهلية: عبد المطلب بن هاشم، ثم إلى أبيه عبد الله الذبيح الثاني والد

(١) رواه سعد وابن عساكر عن ابن عباس. قال تعالى: ﴿وَقَوْمٌ نُّوحٌ لَمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (٣٧) وَعَادًا وَثَمُودًا وَأَصْحَابَ الرِّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا [الفرقان: ٣٧-٣٨].

(٢) نسبة الخلق إلى الخالق، لا أن الله نور هو جزء منه، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

(٣) اقرأ الآية: ١٧٢ من سورة الأعراف: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾.



نبينا محمد أبي القاسم أشرف الناس نسبًا، عجمًا وعربًا، ذي القدر العليّ والفضل الجليّ، ابن الذبيحين^(١) وصاحب النسبتين من الأبوين: بني هاشم وبني زهرة، الذي نقله الله من الأصلاب الشريفة إلى الأرحام الطاهرة العفيفة، كما جاء عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «ما ولدني بغيٌّ قط منذ كنت في صلب آدم، فلم تزل تنازعني الأمم (أي تتنازعني) كابرًا عن كابر، حتى خرجتُ في أفضل حي في العرب: هاشم وزهرة»^(٢) فأبوه من بني هاشم، وأمه من بني زهرة.

ما زال نور محمدٍ متنقلًا في الطيين الطاهرين ذوي العُلا
حتى لعبد الله جاء مكملاً ولبنت وهبٍ قد علا متهللاً

وهو ﷺ ذو نسب: إبراهيم خليل الله دعأمه، وإسماعيل سنأمه، وكنانة زمأمه، وقريش نظامه، وهاشم تمامه، قال ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى مِنْ وَلَدِ إِبْرَاهِيمَ إِسْمَاعِيلَ، وَاصْطَفَى مِنْ إِسْمَاعِيلَ كِنَانَةَ، وَاصْطَفَى مِنْ كِنَانَةَ قُرَيْشًا، وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشِ بَنِي هَاشِمٍ، وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ، فَأَنَا خِيَارٌ مِنْ خِيَارِ مَنْ خِيَارٌ»^(٣) وقال الشاعر:

نسبٌ أضاءَ وشمسه من هاشم وسماؤه من يعربٍ ونزار
من معشرٍ ورثوا السيادة كابرًا عن كابر فهم كبار كبار
ومن كلام عمه أبي طالب:

إذا اجتمعت يومًا قريش لمفخرٍ فعبد منافٍ سرها وصميمها

(١) رواه ابن مردويه والنعلبي في تفسيريهما، والخلعي في الفوائد، وذكره الزمخشري في الكشاف.
(٢) رواه ابن عساكر عن أبي هريرة ولفظه كما في الجامع الكبير للسيوطي: «ما ولدني بغي قط منذ خرجت من صلب آدم، ولم تزل تنازعني الأمم كابرًا عن كابر حتى خرجت من أفضل حيين من العرب: هاشم وزهرة». وقال عليه الصلاة والسلام: «ما ولدني من سفاح أهل الجاهلية شيء: ما ولدني إلا نكاح كنعان الإسلام»، متفق عليه، ورواه الطبراني وابن عساكر عن ابن عباس.
(٣) ولفظ الترمذي عن وائلة بن الأسقع قال: قال عليه الصلاة والسلام: «إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى مِنْ وَلَدِ إِبْرَاهِيمَ إِسْمَاعِيلَ، وَاصْطَفَى مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ بَنِي كِنَانَةَ، وَاصْطَفَى مِنْ بَنِي كِنَانَةَ قُرَيْشًا، وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشِ بَنِي هَاشِمٍ، وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ».

وإن حصلت أنساب عبد منافها ففي هاشم أشرافها وقديمها
وإن فخرت يوماً فإن محمداً هو المصطفى من سرها وكريمها

مولده:

وُلد ﷺ يوم الإثنين^(١) حين طلع الفجر، وهو وقت البركة كما قال ﷺ: «بورك لأمتي في بكورها»^(٢) لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول على المشهور. واختُلف في عام ولادته ﷺ؛ فالأكثر على أنه عام الفيل، وبه قال ابن عباس، وحكي الاتفاق عليه، قيل: وكل قول يخالفه وهم، والمشهور أنه بعد الفيل بخمسين يوماً، وإليه ذهب السهيلي في جماعة، وقيل غير ذلك. ويوم الإثنين كانت هجرته ووفاته، وكذا الإسراء^(٣) به، قيل: وابتداء نبوته، فلهذا صارت أيامه مبتسمة الثغور ولياليه مشرقة بالنور. وكان ﷺ معتدل الخلق والخلق كما هو مشهور، وكانت ولادته في زمن الملك العادل كسرى أنوشروان، وهو لقب لكل من ملك الفرس. وموضوعية(*) حديث «أنا وُلدت في زمن الملك العادل كسرى أنوشروان» لا تمنع من وصف كسرى بالعدل، فقد ذكر الغزالي رحمه الله تعالى في كتاب «السير والسلوك إلى مالك الملوك» أن الخالق جلت قدرته أرسل نبيّه في أسعد وقت وأوان، فيه خير الملوك؛ فكان الملك

(١) وقال الخوارزمي: «ولد رسول الله ﷺ يوم الإثنين ٨ من ربيع الأول عام ١ من الفيل - وبعث ﷺ يوم الإثنين من ربيع الأول عام ٤٠ من الفيل - من مولده إلى مبعثه أربعون عاماً ويوم واحد - من مبعثه إلى أول المحرم من السنة التي هاجر فيها ١٢ عاماً وتسعة أشهر وعشرون يوماً (وثلاث وخمسون سنة تامة من أول عام الفيل) - خرج من مكة يوم الإثنين ودخل المدينة يوم الإثنين ٨ من ربيع الأول عام ٥٤ من الفيل - انتقل إلى الرقيق الأعلى يوم الإثنين أول ربيع الأول سنة ١٠ هجرية» اهـ. ما قاله الخوارزمي ملخصاً. انظر الاستيعاب لابن عبد البر - وعن ابن عباس: «ولد نبيكم ﷺ يوم الإثنين، وخرج من مكة يوم الإثنين، ودخل المدينة يوم الإثنين، وكانت وقعة بدر يوم الإثنين. هذا ما روي عن ابن عباس، والمعروف المشهور أن وقعة بدر كانت يوم الجمعة والله أعلم.

(٢) رواه الطبراني في الأوسط عن أبي هريرة، وعبد الغني في الإيضاح عن ابن عمر.

(٣) أُسري به ﷺ يوم الإثنين، وقال الزهري: كانت الإسراء قبل الهجرة بسنة، وكذا قال عروة بن الزبير، وقال السدي: بستة عشر شهراً.

(*) أي كونه حديثاً موضوعاً.

في ذلك الزمان كسرى أنوشروان، وأنه فاق جميع الملوك بعدله وسياسته، وذلك كله ببركة قدوم سيد الكائنات وأشرف الموجودات؛ فوصف كسرى بالعدل، وإطلاق العدل عليه لتعريفه بالاسم الذي كان يدعى به في زمنه، لا لوصفه بالعدل والشهادة له بذلك؛ فإنه كان يحكم بغير حكم الله، أو وصفه بذلك بناء على اعتقاد الفرس فيه أنه كان عادلاً كما قال تعالى: ﴿فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمْ﴾ [هود: ١٠١] أي ما كان عندهم آلهة، ولا يجوز أن يسمي رسول الله ﷺ من يحكم بغير حكم الله عادلاً، وهذا على فرض صحة الحديث، والحق أنه كذب لا أصل له كما نقله الحفاظ من المتقدمين والمتأخرين.

وكان مولده ﷺ بالشعب؛ وهو شعب بني هاشم (مكان معروف عند أهل مكة يخرجون إليه في كل عام يحتفلون بذلك أكثر من احتفالهم يوم العيد إلى يومنا هذا، في الدار التي كانت لمحمد بن يوسف أخي الحجاج)^(١).

أسماءه ﷺ:

وهو ﷺ دعوة إبراهيم عليه السلام حين بنى الكعبة دعا لأهل مكة فقال: ﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٩]، وبشرى عيسى عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَمُبَشِّرًا رَسُولًا يُاتِي مِنْ بَعْدِي أَسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦] وأخرج من حديث عمرو بن مرة قال: خمسة تسموا قبل أن يكونوا: محمد بقوله: ﴿وَمُبَشِّرًا رَسُولًا يُاتِي مِنْ بَعْدِي أَسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦]، ويحيى بقوله: ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ أَسْمُهُ يَحْيَى﴾ [مريم: ٧]، وعيسى بقوله: ﴿يَمْرِيئُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ أَسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [آل عمران: ٤٥]

(١) ذكر محب الدين الطبري المكي في كتابه «القرى لقاصد أم القرى»، في ص ٦٦٤ قال: «كان عقيل بن أبي طالب قد استولى على بيت النبي ﷺ زمن الهجرة، فلم يزل بيده ويد ولده حتى باعوه لمحمد بن يوسف (أخي الحجاج الثقفي) فأدخله في داره التي يقال لها البيضاء، ثم تعرفت بدار ابن يوسف، ولم يزل ذلك كذلك حتى حجت الخيزران (جارية المهدي) فجعلته مسجداً يصلّي فيه، وأخرجته من الدار إلى الزقاق الذي يقال له «زقاق المولد»، اهـ... وهو الآن مكتبة عامة.

وإسحاق ويعقوب بقوله: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١].
 وإنما سُمِّي في بشارة عيسى باسم أحمد مع أن اسمه الذي سماه به جده عبد المطلب
 محمد؛ رجاء أن يُحمد في السموات والأرض، وقد حقق الله رجاءه، كما سبق في
 علمه، لأن أحمد في الحقيقة أبلغ من محمد، كما أن أحمر وأصفر أبلغ من مُحَمَّر
 ومصفر، قال ﷺ: «لي خمسة أسماء؛ أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي يمحو
 الله بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب الذي ليس بعدي
 نبي»^(١) وقد سماه الله رءوفاً رحيماً^(٢). وقد ذكر الحافظ ابن سيد الناس اليعمري فيما
 وافق من أسماء الله الحسنی لأسماء رسول الله ﷺ من قصيدة له فقال:

وحلَّاهُ من حُسْنَى أساميه جملةً أنى ذكرها في الذكر: ليس يبيدُ
 وفي كُتُبِ الله المقدس ذكرها وفي سُنَّةٍ تأتي بها وتُفيدُ
 رءوفٌ رحيماً فاتحٌ ومقدَّس أمينٌ قويٌّ: عالمٌ وشهيدُ
 ولِي شُكُورٌ صادقٌ في مقالِه عَفُوٌّ كريمٌ بالنَّوَالِ يعودُ
 ونورٌ وجبارٌ وهادٍ من اهتدى وموَلَى عزيزٌ ليس عنه مَحِيدُ
 بشيرٌ نذيرٌ، مؤمنٌ ومهيمن خيرٌ عظيمٌ: بالعظيمِ وجودُ
 وحقٌّ مبينٌ آخرٌ أوَّلُ سَمَا إلى ذروة العُلَياء وهو وليدُ
 فأخِرُ أعني آخرَ الرسل بعثةً وأوَّلُ من ينشقُّ عنه صعيدُ
 أسامٍ يلذَّ السَّمْعَ إذ هي عُدَّتْ نعوْتُ ثناءً والثناء عديدُ

(١) وللحديث ألفاظ وروايات مختلفة ذكرها السيوطي في جامعه ص ٣٣١ ج١ مخطوط، ومن رواها البغوي في
 الجعديات، والباوردي والحاكم والطبراني عن نافع بن جبير بن مطعم عن أبيه، والترمذي في الشمائل، وابن سعد
 عن مجاهد مرسلًا: كلُّ بروايته وسنده. وكثرة الروايات دليل صحة الحديث، والحمد لله رب العالمين.
 (٢) في آخر سورة التوبة [آية: ١٢٨]: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ
 عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾.

ومن أسمائه ﷺ: طه، يس، والمزمل، والمدثر^(١) وعبد الله، في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ﴾ [الجن: ١٩]، ونبى التوبة ونبى الرحمة^(٢)، ومُذَكَّرٌ في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكَّرٌ﴾ [الغاشية: ٢١]، إلى غير ذلك من الأسماء.

روى الترمذى عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: جلس ناس من أصحاب رسول الله ﷺ وهم ينتظرون خروجه، قال: فخرج حتى إذا دنا منهم سمعهم يتذاكرون، فسمع حديثهم، فقال بعضهم: عجباً، إن الله تبارك وتعالى اتخذ من خلقه خليلاً؛ اتخذ إبراهيم خليلاً، وقال آخر: ماذا بأعجب من كلام موسى: كلمه تكليماً، وقال آخر: ماذا بأعجب من جعله عيسى كلمة الله وروحاً، وقال آخر: ماذا بأعجب من آدم اصطفاه الله عليهم وخلقهم بيده ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته، فسلم رسول الله ﷺ على أصحابه، وقال: قد سمعتُ كلامكم وعجبكم؛ إن إبراهيم خليل الله، وهو كذلك، وإن موسى نبيُّ الله، وإن عيسى روح الله وكلمته، وإن آدم اصطفاه الله، وهو كذلك، ألا وأنا حبيب الله ولا فخر، وأنا حاملُ لواء الحمد يوم القيامة ولا فخر، وأنا سيد الأولين والآخرين ولا فخر، وأنا أول شافع وأول مُشَفَّع يوم القيامة ولا فخر، وأنا أول من يحرك حلق الجنة فيفتح الله لي فيدخلنيها ومعى فقراء المؤمنين ولا فخر^(٣)، انتهى، فقوله ﷺ «ألا وأنا حبيب الله» أراد ﷺ المحبة العامة التي منها توحيد المحبة، وهي الخلَّة الخاصة؛ فهو ﷺ حبيب و خليل، حيث تخللت المحبة الموجدة في جميع أجزاء روحه ﷺ كما قيل:

قَدْ تَخَلَّلَتْ مَوْضِعَ الرُّوحِ مِنِّي وَبَذَا سُمِّيَ الْخَلِيلُ خَلِيلاً

لا سيما وأنه قد صحَّ أن الله اتخذ نبينا خليلاً، فحصل له من الإنعام الحبُّ العام

(١) في قوله تعالى: ﴿طه﴾ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشَفَّعَ ﴿١﴾ - ﴿يَس﴾ ﴿١﴾ وَالْقُرْآنَ الْحَكِيمَ ﴿٢﴾ - ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ﴾ ﴿٣﴾ - ﴿يَا أَيُّهَا الْمَدِينَةُ﴾.

(٢) من قوله ﷺ: «أنا محمد، وأحمد، والمقفي، والحاشر، ونبى التوبة، ونبى الرحمة» رواه الإمام أحمد والإمام مسلم عن أبي موسى الأشعري، زاد الطبراني: «ونبي الملحمة».

(٣) وقد ذكره السيوطي في جامعه ص ٦٠٣ ج ١ من رواية الترمذى عن ابن عباس.

على الخاص والعام، كما قيل:

خُلِّتَ بهذا خَلَّةً بعد خَلَّةٍ بذلك طابَ الواديان كلاهما

فلا نظر لزعم من لا علم عنده أن الحبيب أفضل من الخليل؛ محتجاً بأن محمداً حبيب الله وإبراهيم خليل الله، وقد علمت ما يفيد خلاف ذلك، لما صحَّ عنه ﷺ أنه قال: «إن الله اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً» وفي الحديث: «لو كنت متخذاً خليلاً غير ربي لاتخذتُ أبا بكر خليلاً»^(١) فلم يتخذ أبا بكر إلا حبيباً، على أن المحبة في ذاتها أفضل من الخلقة كما هو التحقيق؛ لما أن الحبيب من يُحب بلا امتحان، والخليل من يمتحن ليحب، ولأنه ﷺ يوصف بالحبيب وإن كان خليلاً، وإبراهيم عليه السلام يوصف بالخلَّة وهو حبيب، لصِدْق تعريف الحبيب عليه. ولأهل الإشارة(*) مَشَرَّبٌ آخر حسن في مغايرة المحبة والخلقة وتفضيل الأولى على الثانية، حيث قالوا: إنما اتصل الخليل بواسطة: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِىْ إِبْرَاهِيْمَ مَلَكُوْتِ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ﴾ [الأنعام: ٧٥]، والحبيب بدونها: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنٰى﴾ [النجم: ٩] وقد علمت أنه لا حاجة إلى ذلك لعموم المحبة ودخوله فيها، وأن هذه الإشارة الصوفية مطمح النظر فيها سيدنا محمد وسيدنا إبراهيم عليهما الصلاة والسلام.

وقد خص الله تعالى كلَّ واحد من أنبيائه بكرامة؛ فأكرم آدم عليه السلام بسجود الملائكة له ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلٰٓئِكَةِ اسْجُدُوْا لِآدَمَ﴾ [البقرة: ٣٤]، ونوحاً عليه السلام بإجابة الدعوة: ﴿لَا نَذَرُ عَلَى الْاَرْضِ مِنَ الْكَافِرِيْنَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦]، وموسى عليه السلام بالكلام: ﴿وَكَلَّمَ اللّٰهُ مُوسٰى تَكْلِيْمًا﴾ [النساء: ١٦٤]، وإبراهيم عليه السلام بالخلقة ﴿وَاتَّخَذَ

(١) ولفظ الحديث بتمامه: «إن الله اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً، فمنزلي ومنزل إبراهيم في الجنة يوم القيامة تجاهين، والعباس بيننا؛ مؤمن بين خليلين» رواه ابن ماجة عن عبد الله بن عمرو. وروى الطبراني: «إن الله اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً، وإن خليلي أبو بكر»، قال المناوي في شرح هذا الحديث في «فيض القدير»: وأما خير: «لو كنت متخذاً خليلاً لاتخذتُ أبا بكر خليلاً» فقال له قبل العلم. اهـ. وبهذا يكون هذا الحديث ناسخاً لما قبله، والله أعلم.

(*) المتصوفون.

اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴿النساء: ١٢٥﴾، وَنَبِيْنَا مُحَمَّدًا ﷺ بِالصَّلَاةِ عَلَيْهِ بِالْآيَةِ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

وقوله: «أنا سيد الأولين والآخرين» إخبارٌ عمّا أكرمه الله به من الفضل والسؤدد، وتحدثٌ بنعمة الله تعالى عليه، وإعلامٌ لأمته، ليكون إيمانهم به على حسب موجهه، ولذا أتبعه بقوله: «ولا فخر» والمعنى: هذه الفضيلة التي نلتها كرامةً من الله لم أنلها من قبل نفسي ولا بلغتُها بقوّتي، فليس لي أن أفخر بها، ولا يعارض هذا ما في الحديث «أنه جاءه رجل فقال له: أنت سيد قريش، فقال: السيد الله»^(١) أي هو الله الذي يحق له السيادة، إذ هو محمول على أنه كره أن يُحمد في وجهه، وأحبّ التواضع، وكذلك ما روي عنه عليه الصلاة والسلام: «لا تُفضّلوني على يونس بن متى»^(٢) أي تفضيلاً يؤدي إلى تنقيصه، وإلا فهو ﷺ سيد ولد آدم على الإطلاق، وقد روي عن علي رضي الله عنه قال: «سمعتُ حبيبي رسولَ الله ﷺ يقول: هبط عليّ جبريل عليه السلام فقال: يا محمد إن لكل شيء سيّداً، فسيّد البشر آدم، وسيّد ولد آدم أنت، وسيّد الروم صهيب، وسيّد فارس سلمان، وسيّد الحبش بلال، وسيّد الشجر السّدر، وسيّد الطير النسر، وسيّد الشهور رمضان، وسيّد الأيام يوم الجمعة، وسيّد الكلام العربية، وسيّد العربية القرآن، وسيّد القرآن سورة البقرة»^(٣).

(١) رواه الإمام أحمد وأبو داود عن عبد الله بن الشخير.

(٢) وروى البخاري عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: «لا يقولن أحدكم إني خير من يونس بن متى» ويؤيد ما يقوله الشيخ من عدم المفاضلة المؤدية إلى التنقيص ما ورد في حديث صحيح، فيه طول «لا تفضلوا بين أنبياء الله...».

(٣) ورواه الديلمي بلفظ «سيد الناس آدم، وسيّد العرب محمد، وسيّد الروم صهيب، وسيّد الفرس سلمان، وسيّد الحيشة بلال، وسيّد الجبال طور سيناء، وسيّد الشجر السّدر، وسيّد الأشهر المحرم، وسيّد الأيام يوم الجمعة، وسيّد الكلام القرآن، وسيّد القرآن سورة البقرة، وسيّد البقرة آية الكرسي: أما إن فيها خمس كلمات في كل كلمة خمسون بركة».

طهارة مولده وشرفه :

وقد اختصه الله سبحانه وتعالى من أطيب العشائر نكاحاً، وحماه من دنس الفواحش والسفاح^(١)، ونقله من أصلاب طاهرة إلى أرحام مُنزَّهة بشهادة: ﴿وَتَقَبَّلَكَ فِي السَّجِدِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٩] فكان نور النبوة ظاهراً في آبائه لم يشركه في ولادته من أبويه أخ ولا أخت؛ لانتفاء صفوتهما إليه، وقَصُرِ سرِّهما عليه، ليكون مختصاً بنسب جعله الله للنبوة غايةً، ولتفرُّده نهايةً، فلا يشارك فيه ولا يماثل، فلذلك مات أبواه في صغره، فهو سلالة آباء كرام، ليس فيهم مسترذل ولا مستبذل، بل كلهم سادة قادة، وشرفُ النسب وطهارة المولد من شروط النبوة، ولبعضهم:

تَنَقَّلَ أَحْمَدُ نُورًا مَبِينًا تَلَأُلاً فِي وَجْهِهِ السَّاجِدِينَ

تَقَلَّبَ فِيهِمْ قَرْنًا فَقَرْنَا إِلَى أَنْ جَاءَ خَيْرُ الْمُرْسَلِينَ

رُوي عن هشام بن محمد السائب الكلبى عن أبيه قال: «كُتِبَ لِلنَّبِيِّ ﷺ خَمْسَمِائَةِ أُمٍّ، فَمَا وَجَدْتُ فِيهِنَ سِفَاحًا وَلَا شَيْئًا مِمَّا كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ». انتهى.

ولعل هؤلاء الأمهات من جهة الأصلين، أي أمهات أبيه وأمه، وأمهات آبائهم وأمهاتهم؛ لإمكان السنين التي تحسب فيها الأجيال.

وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «خَرَجْتُ مِنْ نِكَاحٍ وَلَمْ أَخْرَجْ مِنْ سِفَاحٍ مِنْ لَدُنْ آدَمَ إِلَى أَنْ وَلَدَنِي أَبِي وَأُمِّي، لَمْ يَصْبَنِي مِنْ سِفَاحِ الْجَاهِلِيَّةِ شَيْءٌ»^(٢) ومن ثمَّ ورد عن ابن عباس مرفوعاً: «لَمْ يَلْتَقِ أَبَوَايَ قَطَّ عَلَى سِفَاحٍ، وَلَمْ يَزَلِ اللَّهُ يَنْقُلْنِي مِنَ الْأَصْلَابِ الطَّيِّبَةِ إِلَى الْأَرْحَامِ الطَّاهِرَةِ مُصَفِّئًا مَهْذَبًا؛ لَا تَتَشَعَّبُ شَعْبَتَانِ

(١) روى ابن مردويه قوله ﷺ: «أَنَا أَنْفَسُكُمْ نَسَبًا وَصَهْرًا وَحَسَبًا» وروى ابن عساکر عنه ﷺ أنه قال: «مَا وَلَدَتْنِي بَغْيٌ قَطَّ مِنْذُ خَرَجْتُ مِنْ صُلْبِ آدَمَ، وَلَمْ تَزَلْ تَتَنَازَعُنِي الْأُمَمُ كَابِرًا عَنْ كَابِرٍ حَتَّى خَرَجْتُ مِنْ أَفْضَلِ حَيِّينَ فِي الْعَرَبِ: هَاشِمٌ وَزُهْرَةٌ». وقد وردت أحاديث كثيرة في هذا المعنى اكتفينا منها بهذا، والله ولي التوفيق، وهو حسينا ونعم الوكيل.

(٢) رواه العدني، وابن عدي، والطبراني في الأوسط عن علي كرم الله وجهه. وقال: «خَرَجْتُ مِنْ نِكَاحٍ وَلَمْ أَخْرَجْ مِنْ سِفَاحٍ» رواه ابن سعد عن السيدة عائشة رضي الله عنها، وقالت: «نِكَاحُ كُنْكَاحِ الْإِسْلَامِ».

إلا كنت في خيرهما»^(١). وبالجمله فكان نكاح النبي ﷺ كنكاح الإسلام في أنه بإيجاب وقبول، وإن لم يكن مستجمعاً للشروط التي اعتبرت فيما بعد في نكاح الإسلام؛ لأن استيفاء شروطه الإسلامية كان على سبيل الاتفاق دون القصد، أو المراد كنكاح الإسلام في الجملة؛ لأن إسلام الولي أو عدالته أمر متعذر قبل الإسلام، خصوصاً أيام الجاهلية، فنكاح أصوله ﷺ منزّه عن السفاح، أي عن الزنا واتخاذ الأخدان، وما كانوا عليه في الجاهلية من نحو نكاح زوجة الأب، حيث إنهم كانوا في الجاهلية إذا مات الرجل منهم وخلف أولاداً كباراً وصغاراً، فالكبار يتزوجون بزوجة أبيهم. وبالجمله فهو ﷺ مبرراً عما كانت تستعمله العرب في الجاهلية من أنواع السفاح التي لا تعدّ في الإسلام نكاحاً.

فقد كان النكاح في الجاهلية على أربعة أنحاء:

الأول: نكاح كنكاح الناس اليوم، أي إيجاب وقبول.

الثاني: نكاح البغايا، وهو أن يطأ البغي جماعة متفرقون، واحداً بعد واحد، فإذا حملت وولدت ألحقت الولد بمن غلب عليه شبهه منهم.

الثالث: نكاح الاستبضاع، وذلك أن المرأة كانت في الجاهلية إذا طهرت من حيضها يقول لها زوجها: «أرسلني إلى فلان استبضعي منه» ويعتزلها زوجها، ولا يمسه أبداً حتى يتبين حملها، فإذا حملت أصابها زوجها إذا أحب.

الرابع: نكاح الجَمْع وهو أن تجمع جماعة دون العشرة، ويدخلون على امرأة من البغايا ذوات الرايات، كلهم يطئونها فإذا حملت ووضعت ومرّ عليها ليالٍ بعد أن تضع

(١) رواه أبو نعيم ولفظه: «.. لم يلتق أبواي قط على سفاح؛ لم يزل ينقلني من الأصلاب الطبية إلى الأرحام الطاهرة مصفى مهذباً، لا تشعب بي شعبتان إلا كنت في خيرهما، قد أخذ الله بالنبوة ميثاقاً» اهـ. من مواكب ربيع للحلواني ص ١٤٤، وهو المعنى بقوله تعالى ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَضُكُمْ وَأَخَذْتُم عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَضْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١].

وروى البيهقي في سننه قوله ﷺ: «ما ولدني من نكاح الجاهلية شيء، ما ولدني إلا نكاح الإسلام».

حملها أرسلت إليهم فلم يستطع رجل أن يمتنع حتى يجتمعوا عندها، فتقول لهم: «قد عرفتم الذي كان من أمركم، وقد ولدتُ، فهو ابنك يا فلان»، تسمي من أحبّت منهم فيلحق به ولدها، فلا يستطيع أن يمتنع منه الرجل، وإن لم يكن شبّه عليه.

فنكاح آباء النبي ﷺ وأمهاته كان من قبيل القسم الأول، ومنزّها عما عداها، فقد طهره الله من أدناس الجاهلية، ومنحه الأخلاق الجميلة العلية، حتى إنه ما كان يُدعى في قومه إلا بالأمين، وكيف لا وهو حبيب الله وخليفته المختار من العالمين المسدّد المعصوم في البداية والنهاية، وكم قد ذكر له في الصغر وقبل النبوة وبعدها من آية، وهذا من أعظم العناية به ﷺ، حيث أجرى الله سبحانه وتعالى نكاح آبائه عليه الصلاة والسلام إلى أن أخرجه ﷺ من بين أبويه على نمط واحد وفق شريعته، ولذلك قال الإمام السبكي: «إن الأنكحة الواقعة في نسبه ﷺ كلها مستجمعة لشروط الصحة كأنكحة الإسلام، قال: فاعتقد هذا بقلبك وتمسك به، ولا تزل عنه فتخسر».

وما نُقل عن أبي المنذر أنه قال: بلغنا أن رسول الله ﷺ ذكر العزى يوماً فقال: لقد أهديت للعزى شاة عفراء، وأنا علي دين قومي» فكذب على رسول الله ﷺ وافترأ عليه؛ حيث قد أطبق الإجماع على أنه ﷺ لم يتدنس هو ولا آباؤه مما كانت عليه الجاهلية، وما أقبح من يروم التصنيف ويجعل في مصنفه مثل هذا الكذب القبيح، فإنه ينادي على نفسه بعدم المعرفة والاتصاف بالجهالة والسفه، ولم يكن شيء مثل ذلك إلا لكفار قريش، حيث كانوا يطوفون بالكعبة ويقولون: والللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى، فإنهن الغرائق العلى وإن شفاعتهن لتُرتجى، ولم يثبت شيء من ذلك في حق أحد من آبائه ﷺ على عمود النسب. وقد فسر العلماء قوله تعالى: ﴿الَّذِي يَرَبُّكَ﴾ حين تقوم ﴿٢٨﴾ وَتَقْلُبُكَ فِي السَّجْدَيْنِ ﴿الشعراء: ٢١٨-٢١٩﴾ أي يرى تقلبك وأنت نور في أظهر الساجدين، بمعنى في أصلاب وأرحام المؤمنين من لدن آدم وحواء إلى عبد الله وآمنه، فعلى هذا جميع أصوله - رجالاً ونساء - مؤمنون.

ثم أورد على هذا آزرُ أبو إبراهيم فإنه على دين قومه بمقتضى الآيات؟! وأجابوا عنه بجوابين:

أحدهما: أنه كان عم إبراهيم لا أباه، وتسميته أباً على عادة العرب من تسمية العم أباً.

وثانيهما: أن آباءه ﷺ لم يدخلهم الشرك ذكوراً وإنثاءً ما دام النور المحمدي في الذكر والأنثى، فإذا انتقل منه لمن بعده أمكن أن يعبد الله وغيره، وآزرُ ما عبد الأصنام إلا بعد انتقال النور منه لإبراهيم عليه السلام، وأما قبل فلم يعبد غير الله، وهذا الجواب الثاني المفيد لتنزه النور المحمدي عن أن يكون قد حلَّ في أصل غير طاهر ما دام ساكناً فيه، فهو وإن استحسنته بعض العلماء إلا أنه لا يخلو من إخلال بالنسب؛ إذ كيف يسكن النور المحمدي في صلب طاهر ورحم نقي، ثم يخبث الأصل بانتقال النور، فهذا مما لا يليق بلفظ «الساجدين» الذي عبَّر به عن المؤمنين بكمال البلاغة في التجوُّز عن (المؤمنين) إلى (المصلين)، ثم إلى (الساجدين)، ولو فسَّر قوله: ﴿وَقَلْبُكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾ بما مشى عليه بعض المفسرين بقوله: إنه أراد تعالى قلبك في أصلاب الأنبياء من نبي إلى نبي حتى أخرجك في هذه الأمة، لما ورد على هذا القول كفر آزر، وإنما يكون المراد بالساجدين آباؤه من الأنبياء فقط، مع أن القصد التعميم، ولكن لا مانع من أن يكون المراد بالآباء الساجدين الذين أولهم إبراهيم عليه السلام صاحب الملة الحنيفية، ويؤيده ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّكُمُ الْمُسْلِمِينَ﴾^(١) مِنْ قَبْلُ ﴿[الحج: ٧٨] وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥] وقوله تعالى: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾

(١) وكثير من الناس يعتقد أن المسمَّى لنا «المسلمين» هو سيدنا إبراهيم عليه السلام، وواقع الآية - والله أعلم - لا يفيد ذلك؛ فإن الضمير «هو» يعود إلى الله تعالى، يتضح هذا من قوله تبارك وتعالى بعدها: ﴿وَفِي هَذَا لَيَكُونَنَّ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ﴾ فحرف الإشارة «هذا» هنا يعود إلى القرآن الكريم، وقوله تعالى «من قبل» يفيد ما نزل قبل القرآن، وهما التوراة الصحيحة والإنجيل الصحيح. فالله هو الذي سمانا مسلمين في التوراة والإنجيل والقرآن، وليس خليل الله إبراهيم عليه الصلاة والسلام، فافهم ترشد (انظر تفسير ابن كثير ٥/ ٤٥٢).

[إبراهيم: ٤٠] فلن يزال من ذرية إبراهيم ناس على الفطرة يعبدون الله. وورد عن ابن عباس ومجاهد وقتادة في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾ [الزخرف: ٢٨] قال: الإخلاص والتوحيد، لا يزال في ذريته من يوحد الله ويعبده، انتهى.

وهذا كله إذا فسرنا الآية بهذا التفسير المعقول المعنى، الذي نسبه الفخر الرازي عنّا للشيعة، مع أنه منقول عن أهل السنة، كما يعلم ذلك من اطلع على التفاسير الأخرى القرآنية، ويا ليت ذلك الإمام عضد تفسير الآية بخبر: «لم أزل أُنقل من أصلاب الطاهرين إلى أرحام الطاهرات» بل قال: إنه خبر آحاد، فلا يعارض القرآن، فالذي يجب اعتقاده: طهارة نسبه ﷺ.

ولا يرد على ذلك قوله ﷺ لعمة أبي طالب الذي نزل فيه قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦] الآية: «يا عمّ قل لا إله إلا الله: كلمة أحاج لك بها عند الله تعالى، فقال: يا ابن أخي قد علمت أنك لصادق، ولكن أكره أن يقال: جزع عند الموت، ولولا أن يكون عليك وعلى بني أبيك غضاضةٌ بعدي لقلْتُها، ولأقررتُ بها عينيك عند الفراق، لما أرى من شدة وجْدك ونصيحتك، ثم أنشد:

ولقد علمتُ بأنَّ دينَ مُحَمَّدٍ منْ خَيْرِ أديانِ البريةِ دينا
لولا الملامةُ أو حذارِ مسبَّةٍ لو جدتني سمحاً بِذاك مُبيناً
ودعوتني وعرفتُ أنك ناصحي ولقد صدقتُ وكنْتَ فيه أُمِيناً

لكن سوف أموت على ملة أشياخ عبد المطلب وهاشم وعبد مناف». انتهى.

لأنه لا يبعد أن تكون ملة عبد المطلب وهاشم وعبد مناف هي ملة إبراهيم، حيث هم من أصوله.

وحكي عن هشام بن الكلبي أنه قال: «لما احتضر أبو طالب جمع إليه وجوه قريش فأوصاهم فقال: يا معشر قريش أنتم صفوة الله من خلقه» إلى أن قال: «وإني أوصيكم بمحمد خيراً؛ فإنه الأمين في قريش، والصديق في العرب، وهو الجامع لكل

ما أوصيكم به، وقد جاء بأمرٍ قبله الجَنَانُ وأنكره اللسان، مخافة الشنآن، وأيم الله كأني أنظر إلى صعاليك العرب وأهل الوبر والأطراف والمستضعفين من الناس قد أجابوا دعوته، وصدّقوا كلمته، وأعظموا أمره، فخاض بهم غمرات الموت، وصارت رؤساء قريش وصناديدها أذناباً، ودُورُها خراباً، وضعفاؤها أرباباً، وإذا أعظمهم عليه أحوجهم إليه، وأبعدهم منه أحظاهم عنده، قد محَضَّتْهُ العربُ ودادها، وأصفت له فؤادها، وأعطته قيادها.

يا معشر قريش: كونوا له ولايةً، ولحزبه حماءً، والله لا يسلك أحد سبيله إلا رَشَدٌ، ولا يأخذ أحدٌ بهديه إلا سعد، ولو كان لنفسي هذه مدّة، ولأجلي تأخّرُ لكففتُ عنه الهزاهز، ولدفعت عنه الدواهي، ثم مات.

وكان موته قبل الهجرة بثلاث سنين وأربعة أشهر، قبل موت خديجة رضي الله عنها بثلاثة أيام، وله من الولد: طالب، ومات على دين قومه، وعقيل، وجعفر، وعليّ، ومن الإناث ثنتان: أم هانئ (واسم هانئ فاختة وقيل هند وقيل فاطمة)، وجمانة، أسلموا ولهم صحبة، وأمهم جميعاً: فاطمة بنت أسد بن هاشم، والعقب من أبي طالب في ثلاثة أبطن، وهم: العلويون أولاد علي، والجعفريون أولاد جعفر، والعقيليون أولاد عقيل.

وعلى كل حال فالحذر كل الحذر من ذكر أبي النبي ﷺ بما فيه نقص؛ فإن ذلك قد يؤذي النبي ﷺ؛ لأن العرف جارٍ بأنه إذا ذُكر أبو الشخص بما يُنقصه تأذى ولده بذلك عند المخاطبة، كيف وقد روى ابن منده وغيره عن أبي هريرة قال: «جاءت سُبَيْعةُ بنت أبي لهب إلى النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله إن الناس يقولون: أنتِ بنتُ حطب النار. فقام رسول الله ﷺ وهو مغضب، فقال: ما بال أقوام يؤذونني في قرابتي، ومن آذاني فقد آذى الله!» وقد قال عليه الصلاة والسلام: «لا تؤذوا الأحياء بِسَبِّ الأموات»^(١) ولا ريب أن إيذاءه كفر، يُقتل فاعله إن لم يتب، خصوصاً وأن أبويه ﷺ

(١) وقال عليه الصلاة والسلام: «لا تسبوا الأموات فتؤذوا الأحياء؛ إن البذاء لؤمٌ» (رواه الخرائطي في «مساوئ الأخلاق» عن أم سلمة).

ناجيان^(١) لأنهما من أهل الفترة، وأهل الفترة ناجون ولو عبدوا الأصنام، إلا أفراداً علم الله فيهم أمراً فحكم عليهم بالكفر كحاتم الطائي^(٢) وامرئ القيس. (والفترة ما بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام)، وقد دلت القواطع على أنه لا تعذيب حتى تقوم الحجة لقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥] أو بإحيائهما له عام حجة الوداع حتى آمنّا بالله ورسوله. ونفع الإيمان بعد الموت من خصائصه ﷺ، وليس بممتنع عقلاً وشرعاً؛ فقد ورد في الكتاب العزيز إحياء قتيل بني إسرائيل، وإخباره عن قاتله، وقصته مشهورة وفي الكتب مسطورة. وكان عيسى عليه السلام يُحيي الموتى بنص القرآن، فأحيا عازر بعد موته بثلاثة أيام، وابن العجوز وهو محمول على نعشه، وابنة العاشر، فعاشوا مدةً وُولدَ لهم. وكذلك نبينا ﷺ أحيا الله على يديه جماعةً من الموتى^(٣)، ولا غرور فهو أحق بذلك، والظن بالله جميل، وليس تعجز قدرته عن ذلك، فإذا ثبت هذا فما يمتنع المدعي - أي إيمانهما بعد إحيائهما،

(١) وقد نظرت أمه إليه عند موتها وهو عند رأسها. ثم قالت:

بارك الله فيك من غلام	يا ابن الذي من حومة الحمام
نجا بعون الملك العلّام	فودي غداة الضرب بالسهام
بمائة من إبل سـوام	إن صَحَّ ما أبصرتُ في المنام
فأنت مبعوثٌ إلى الأنعام	من عند ذي الجلال والإكرام
تُبْعُ في الحِلِّ وفي الحرام	تُبْعُ بالتوحيد والإسلام
دين أبيك البرِّ إبراهيم	فالله أنهاك عن الأصنام

أن لا تواليها مع الأقوام

ثم قالت: «كل حي ميت، وكل جديد إلي بلى، وكل كبير يُقْنَى، وأنا ميتةٌ وذكرى باق، وقد تركتُ خيراً، وولدتُ طهراً، ثم ماتت. رواه أبو نعيم اهـ. من (موكب ربيع للحلواني ص ١٥٤) وهذا خبر ثابت في كل كتب السير. أليس هذا هو الإسلام بعينه؟

(٢) لا نعرف للمؤلف مصدراً في ذلك.

(٣) من ذلك أن زيد بن خارجة خَرَّ ميتاً في بعض أزقة المدينة، فَرُفِعَ وَسُجِّيَ، إذ سمعوه بين العشائين - والنساء يصرخن حوله - يقول: أنصتوا، أنصتوا، فحسر عن وجهه، فقال: «محمد رسول الله، النبي الأمي، وخاتم النبيين، كان ذلك في الكتاب الأول»، ثم قال: «صدق، صدق»، وذكر أبا بكر وعمر وعثمان، ثم قال: السلام عليك يا رسول الله ورحمة اله وبركاته، ثم عاد ميتاً كما كان. (راجع الشفاء للقاضي عياض وغيره تجد من ذلك كثيراً).

وبكون ذلك زيادة في كرامته وفضله - فقول من قال: «إنهما ماتا كذا لأن الإيمان بعد الموت غير نافع» مردود بما روي في الخبر أن الله تعالى ردَّ الشمس على نبيه ﷺ بعد مغيبها، فلو لم يكن رجوع الشمس نافعاً، وأنه لا يتجدد الوقت لما ردّها عليه، فكذلك يكون إحياء أبويه نافعاً لإيمانهما وتصديقهما بالنبي ﷺ، ولا بدّع أن يكون الله كتب لأبوي النبي ﷺ عمراً، ثم قبضهما قبل استيفائهما، ثم أعادهما - أي أحياهما - لاستيفاء تلك اللحظة الباقية بالمدة الفاصلة بينهما؛ لاستدراك الإيمان من جملة ما أكرم الله به نبيه عليه الصلاة والسلام.

وقال بعض الأفاضل في حل هذه المسألة ما ملخصه: إن أهل الفترة ثلاثة أقسام: الأول: من أدرك التوحيد ببصيرته، ومن هؤلاء من لم يدخل في شريعة كُفِّسَ بن ساعدة، وزيد بن عمرو بن نفيل، ومنهم من دخل في شريعة حق قائمة الرسم كُتِبَ وقومه من حمير، وأهل نجران، وورقة بن نوفل، وعمه عثمان بن الحويرث.

القسم الثاني من أهل الفترة: من بدّل وغير فأشرك ولم يؤخّد، وشرّع لنفسه، فحلّل وحرّم، وهم الأكثر كعمرو بن لحي، وهو أول من سنّ للعرب عبادة الأصنام وشرّع الأحكام فبحر البحيرة وسيب السائب ووصل الوصيلة وحمى الحام، وتبعته العرب في ذلك.

القسم الثالث من أهل الفترة: وهم من لم يشرك ولم يؤخّد، ولا دخل في شريعة نبي ولا ابتكر لنفسه شريعة ولا اخترع ديناً، بل بقي طول عمره على حال غفلة من هذا كله، وفي الجاهلية من كان على ذلك.

وحيث انقسم أهل الفترة إلى ثلاثة أقسام، وقد ورد في الأحاديث الصحيحة ما يدل على تعذيب أهل الفترة، كحديث «رأيت عمرو بن لحي يجر قصبه في النار»^(١) ونحو

(١) ورواية مسلم: «رأيت عمرو بن لحي بن قمعة بن خندف بن كعب وهو يجر قصبه في النار» ورواه الدارقطني في الأفراد.

ذلك، فيُحمل على القسم الثاني من أهل الفترة لكفرهم بما تعدّوا به من الخبائث؛ حيث إن الله سبحانه وتعالى سمى جميع هؤلاء من هذا القسم كفارًا ومشركين، فإنّا نجد القرآن كلما حكى حال أحد منهم سجّل عليهم بالكفر والشرك، كقوله تعالى ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ﴾ [المائدة: ١٠٣] ثم قال: ﴿وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَقْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ [المائدة: ١٠٣].

وأما أهل القسم الأول كقُس بن ساعدة وزيد بن عمرو بن نفيل، فقد قال عليه الصلاة والسلام في كل منهما: «إنه يُبْعَث أُمَّةً وحده».

وأما عثمان بن الحويرث وتبع وقومه وأهل نجران: فحكمهم كحكم أهل الدين الذي دخلوا فيه، ما لم يلحق أحد منهم بالإسلام الناسخ لكل دين.

وأما أهل القسم الثالث الذين هم أهل الفترة حقيقةً، فهم غير معذبين، وقال الجلال السيوطي^(١): «إن أبوي النبي ﷺ كانا على التوحيد ودين إبراهيم، كما كان كذلك طائفة من العرب، كزيد بن عمرو بن نفيل، كما يدل عليه قوله:

أَرْبًا وَاحِدًا أَمْ أَلْفَ رَبٍّ أَدِينُ إِذَا تَقَسَّمَتِ الْأُمُورُ
تَرَكْتُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى جَمِيعًا كَذَلِكَ يَفْعَلُ الرَّجُلُ الْبَصِيرُ

وقُس بن ساعدة، وورقة بن نوفل، وعمير بن حبيب الجهني، وعمرو بن عبسة وجماعة آخرين.

وهذه طريقة الفخر الرازي، وزاد: «إن آباء النبي ﷺ كلهم إلى آدم على التوحيد، لم يكن فيهم شرك»، وقال الجلال السيوطي أيضًا: «إني لم أدع المسألة إجماعية، بل هي مسألة ذات خلاف، فحكمها كحكم سائر المسائل المختلف فيها، غير أنني اخترت أقوال القائلين بالنجاة لأنه أنسب بهذا المقام».

(١) له في ذلك رسالة خاصة اسمها «الفوائد الكامنة في إيمان السيدة آمنة»، وله كذلك «التعظيم والمنة في أن أبوي النبي ﷺ في الجنة».

حديث إحياء الله أبويه : وما أحسنَ كلام الحافظ شمس الدين محمد بن ناصر الدين ابن عبد الله بن محمد الدمشقي المولود سنة سبع وسبعمائة ٧٠٧ هـ، حيث قال في كتابه «مورد الصادي بمولد الهادي» بعد أن أخرج الحديث في إحياء أمه من طريق الخطيب، فصّرَح بضعف الحديث، ولم يلتفت لزعم وضّعه، وكفى به حجة:

حبا لله النبيّ مزيدَ فضلٍ على فضل، وكان به رؤوفا
فأخيا أمّه وكذا أباه لايمان به فضلاً منيفاً
فسلّم فالقديمٌ بذّا قديرٌ وإن كان الحديث به ضعيفاً

وقد ردّ بعضهم على هذه الأبيات بقوله:

أيقنّت أنّ أبا النبيّ وأمّه أحياهما المولي الكريم الباري
حتى له شَهدا بصدق رساله سلّم فتلك كرامة المختار
هذا الحديث ومَن يقول بضعفه فهو الضعيف عن الحقيقة عاري

ولئن سلّم أنه من قِسم الضعيف، فهو الذي تجوز روايته في الفضائل والمناقب، لا بمعنى الموضوع، وقال أبو القاسم السهيلي في أوائل كتابه «الروض الأُنْف» بعد إيراد حديث أنه ﷺ سأل ربه أن يحيي أبويه فأحياهما له فأما به ثم أماتهما: «والله تعالى قادر على كل شيء، ونبيه ﷺ أهلٌ لأن يخصه بما شاء من إكرامه». انتهى.

وقد أيّد بعضهم هذا الحديث بالقاعدة التي اتفق عليها الأئمة: أنه ما أوتي نبيٌّ معجزة إلا أوتي نبينا ﷺ مثلها.

ولا يبعد على من أنجى به الثقلين^(١) أن يُنجي به الأبوين، ولا عبرة باحتجاج المنكر في هذا المقام العظيم، بأنه نزل فيهما: ﴿وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾ [البقرة: ١١٩] فقد تقرر في علوم الحديث أن سبب النزول حكمه حكم الحديث المرفوع، لا يُقبل

(١) الإنس والجن.

منه إلا الصحيح المتصل الإسناد، لا الضعيف ولا المقطوع، وسبب النزول لا يُعرف له (كما قال السيوطي) إسناد صحيح متصل، ولا ينكر ذلك أحد من المحدثين، مع ما ينضم إلى ذلك من بلاغة الخطاب، وأن الآيات من قبلُ ومن بعد كلها في أهل الكتاب، فدلّت الآية على أن المراد بأصحاب الجحيم كفارُ أهل الكتاب، ويؤيد ذلك أن السورة مدنية، خوطب فيها من بني إسرائيل الذرية، وأكثرُ ما خوطب فيها اليهود الناقضون ما في التوراة من العهود، على أنه قد قيل بصحة الأحاديث الدالة على أن العرب لم يكفر منهم أحد من عهد إبراهيم إلى عهد عمرو بن لحي الخزاعي، فهو أول من عبد الأصنام وغير دين إبراهيم عليه السلام، ورآه النبي ﷺ بسبب ذلك يَجُرُّ قُصْبَهُ في النار، أي أمعاه. وقد أخرج ابن حبيب في تاريخه عن ابن عباس قال: «كان عدنان ومعدُ وربيعه ومُضر وخزيمة وأسد على ملة إبراهيم؛ فلا تذكرهم إلا بخير». وفي الروض الأنف «لا تَسُبُّوا إلياس فإنه كان مؤمناً» وفي دلائل النبوة لأبي نعيم أن كعب بن لؤي أوصى ولده بالإيمان بالنبي ﷺ، قاله السيوطي، وقال أيضاً: «وأما كلاب وقصي وعبد مناف وهاشم فلم أظفر فيهم بنقل جازم».

وأما عبد المطلب ففيه خلاف^(١) والأشبه أنه من أهل الفترة، وممن لم تبلغه الدعوة، وقد استشهد القبيلُ القائل بإيمانه بقوله في قصة أصحاب الفيل:

لَاهُمْ إِنْ الْمَرْءَ يَمْنَعُ حَلَهُ فَاْمَنْعَ حِلَالِك
لَا يَغْلِبَنَّ صُلَيْبُهُمْ وَمِحْـالْهُمُ غَدَوْا مُحَالِك
جَرُّوا جَمُوعَ بِلَادِهِمْ وَالْفِيلَ كَيْ يَسْبُوا عِيَالِك
عَمَدُوا حِمَاكَ بِكَيْدِهِمْ جَهْلًا وَمَا رَقَبُوا جَلَالِكَ
إِنْ كُنْتَ تَارِكَهُمْ وَكَعْفَ سَبْتَنَا فَاْمُرْ مَا بَدَا لَكَ

(١) جاء عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: «يُبعث جدي عبد المطلب في زي الملوك وأبهة الأشراف» كذا من السيرة الحلبية.

وقوله «حلالك» قال الخشني: بكسر الحاء المهملة جمع حلة وهي جماعة البيوت، والذي في النهاية «الحلال» بالكسر: القوم المقيمون المتجاورون، يريد بهم سكان الحرم، وقوله «ومحالمهم» بكسر الميم: القوة والشدة، وقوله «غدواً» بالغين المعجمة: هو أصل الغد، وهو اليوم الذي يأتي بعد يومك، فحذفت لامه، ولم يستعمل تاماً إلا في الشعر، ولم يُردَّ عبد المطلب الغد بعينه، وإنما أراد القريب من الزمان.

ولا يُشكَلُ على ذلك قصة الذبيح؛ فإنَّ النذر لا يقتضي عدمَ الإيمان، ولا عدم نجاة أهل الفترة، وكذلك إرادة الذبيح عند الأصنام الموجودة في الكعبة، فإنَّ هذه محض عوائد لا عقائد، كما سيأتي ذكره.

وبيانها أن عبد المطلب لما أراد حفر زمزم منعه قريش منه، وآذاه بعض سفهائهم، ولم يكن له ولدٌ إلا الحارث، فنذر لئن جاء له عشرة بنين وصاروا له أعواناً ليدبحن أحدهم قرباناً لله تعالى عند الكعبة.

وقيل: سبب ذلك إنَّ عدي بن نوفل بن عبد مناف (أبو المطعم) قال: يا عبد المطلب أتستطيل علينا وأنت فذٌّ لا ولد لك؟! فقال عبد المطلب: أتقول هذا، وإنما كان نوفل أبوك في حجر هاشم! فقال عدي: فأنت أيضاً كنتَ عند أخوالك من بني النجار حتى ردَّك عمك المطلب، قال: أبالقلة تُعيرني؟! فوالله لئن آتاني الله عشرة من الولد... إلى آخره.

واحتر عبد المطلب زمزم هو والحارث، فكانت له فخراً وعزاً، وكثر أولاده. واختلف في عدد أولاد عبد المطلب؛ فقليل: ثلاثة عشر، وقيل اثنا عشر، وقيل عشرة، وقيل تسعة. فمن قال ثلاثة عشر، قال هم: الحارث، وأبو طالب، والزبير، وعبد الكعبة، وحمزة، والعباس، والمقوم، وحجل، وضرار، وقُثم، وأبو لهب، والغيداق، فهؤلاء اثنا عشر، وعبد الله أبو النبي ﷺ الثالث عشر.

ومن جعلهم عشرة: أسقط عبد الكعبة وقال: هو المقوم، وجعل الغيداق وحجلاً

وضرارًا واحدًا، ومن جعلهم تسعة أسقط قثم أيضًا، وقد أسلم حمزة والعباس، وإن أبا لهب وأبا طالب أدركا النبوة فمات أبو لهب على دين قومه، وذهب الأكثرون إلى أن أبا طالب مات أيضًا على دين قومه.

ولما حفر عبد المطلب زمزم ودلّه الله عليها وخصّه بما زاده بها خطرًا وشرًا في قومه، وعُطِلَتْ كُلُّ سقاية كانت بمكة حين ظهرت، وأقبل الناس عليها لالتماس بركتها، ومعرفة فضلها لمكانها من البيت، وأنها سقاية الله عز وجل لإسماعيل عليه السلام، وتكامل بنوه عشرة، وقرّت عينه بهم، نام ليلة عند الكعبة فرأى في المنام قائلاً يقول: يا عبد المطلب أوف بنذك لرب هذا البيت. فاستيقظ فزعًا، وأمر بذبح كبش وأطعمه للفقراء والمساكين، ثم نام فرأى: أن قرّب ما هو أكبر من ذلك. فانتبه وقرّب جملاً وأطعمه للمساكين، ثم نام فنودي أن قرّب ما هو أكبر من ذلك، فقال: وما هو أكبر من ذلك؟ ف قيل له: أحد أولادك الذي نذرتَه. فاغتمّ غمًا شديدًا، وجمع أولاده وأخبرهم بذلك، وطلب منهم الوفاء بالنذر، فأطاعوه، وقالوا: كيف نصنع؟ قال: ليأخذ كل واحد منكم قدحًا (بكسر القاف أي سَهْمًا بغير نصل) وليكتب اسمه عليه ثم ليأتني به، ففعلوا، ثم أتوه فدخل بهم على هُبَل، فدفع عبد المطلب القداح إلى القيم، فلما أخذ ليضرب قام عبد المطلب عند الكعبة يدعو الله، ويقول: اللهم إني نذرت لك نحر أحدهم، وإني أقرع بينهم، فأصِبْ بذلك مَنْ شئت. ثم ضرب السادن القدح فخرج القدح على عبد الله، وكان أَحَبَّ ولده إليه، فقبض عبد المطلب يده عليه وأخذ الشفرة وأقبل به إلى إساف ونائلة (صنمين عند الكعبة تُذبح عندهم الهدايا) فقام إليه سادة قريش من أُنديتها، وقالوا له: ما تريد أن تصنع؟ قال: أوفي بنذري، فقالوا: لا ندعك تذبحه حتى تُعذر فيه إلى ربك، ولئن فعلت هذا لا يزال الرجل يأتي بابنه فيذبحه ويكون سُنَّةً، ولكن انطلق به إلى قطية الكاهنة (والكاهنة التي تخبر عن الكائنات في مستقبل الزمان وتدعي معرفة الأسرار) وقيل: اسمها سجاح (على ما ذكر ابن إسحاق)، فلعلها أن تأمر بك بأمر فيه فرج لك. فانطلقوا حتى أتوها بخير، وقصّ عبد المطلب عليها

القصة، فقالت لهم: كم الدية فيكم؟ فقالوا: عشرة من الإبل، فقالت: فارجعوا إلى بلادكم، ثم قربوا صاحبكم، وقربوا عشرة من الإبل، ثم اضربوا عليه وعليها القداح، فإن خرجت القداح على صاحبكم فزيدوا في الإبل عشرةً أخرى، وهكذا حتى يرضى ربكم ويخلص صاحبكم، فإذا خرجت على الإبل فانحروها، فقد رضي ربكم ونجا صاحبكم. فرجع القوم إلى مكة وقربوا عبد الله وعشرة من الإبل، وقام عبد المطلب يدعو فقال: اللهم أهو أحب إليك أم مائة من الإبل؟ والذي في «الإمتاع»: اللهم أهو أحب إليك أم مائة من تلاد إبلي؟ - (وتلاد المال وتلاده: قديمه ونفيسه) فخرجت القداح على عبد الله، ولم يزل يزيد عشرًا عشرًا حتى بلغت الإبل مائة، فخرجت القداح على الإبل، ففداه بمائة من الإبل، ولذلك صارت الدية مائة من الإبل، فنحرت المائة كلها، وتركته لا يصد عنها إنسان ولا طائر ولا سبع، وأول من سنَّ الدية مائة من الإبل عبد المطلب، ولهذا قال ﷺ: «أنا ابن الذبيحين»^(١) ويعني بهما والده عبد الله وجدّه إسماعيل بن إبراهيم عليهما الصلاة والسلام، وروى الحاكم أن أعرابيًا قال للنبي ﷺ: «يا ابن الذبيحين» فتبسم ولم ينكر عليه^(٢).

فدخل عبد المطلب بالقداح على هبل ودفعها إلى القيم، وإقباله على إساف ونائلة قصدًا للتذكية والذبح، كل هذا لا يقدر في تبرئته من عبادة الأصنام، فهذه الحركات الصادرة من قبيل العوائد لا العقائد، بدليل قوله: «اللهم إني نذرت لك نحر أحدهم، وإني أقرع بينهم فأصب بذلك من شئت» فإن هذا أدل دليل على اعترافه بالألوهية مع ما ينقل عنه أنه كان مجاب الدعوة، محرّم الخمر على نفسه، وأنه أول

(١) أورده الزمخشري في الكشاف في تفسير قوله تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنِّي أَرَى فِي السَّمَاءِ آتٍ أَذْبَحُكَ﴾ [الصافات: ١٠٢].

(٢) انظر المقاصد الحسنة للسخاوي ص ١٤ حديث رقم ١٣، والسيرة الحلبية. ومما يؤيد أن الذبيح إسماعيل قوله تعالى في سورة الصافات بعد سرد قصة الذبيح ﴿وَكَبَّرْتَهُ إِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الصافات: ١١٢] فالواو تفيد المغايرة، أي تفيد أن الذي حدث له قصة الذبيح أحد اثنين، والمبشر بنبوته وصلاحه هو الآخر. وكلام بعض المفسرين الذين ذهبوا إلى أن الذبيح إسحق يخالف اللغة التي هي أصل من أصول التفسير، والله تعالى أعلم.

من تحنَّت بحراء، وكان إذا استهل رمضان صعدته وأطعم المساكين، وكان يرفع من مائدته للطير والوحوش في رؤوس الجبال. وذكر ابن إسحق أن عبد المطلب وجد في زمزم غزالين من ذهب، وهما الغزالان اللذان دفتتهما جُرهُم حين خرجت، ووجد فيها أسيافاً قلعية^(١) وأدراعاً، فقالت له قريش: يا عبد المطلب لنا معك في هذا شركٌ وحق، قال: لا، ولكن هلموا إلى أمرٍ نصِّفُ بيني وبينكم، يضرب عليها القداح، قالوا: وكيف تصنع؟ قال: أجعل للكعبة قدحين، ولي قدحين، ولكم قدحين، فمن خرج قدحاه على شيء كان له، ومن تخلف قدحاه فلا شيء له. فقالوا: أنصفت. فجعل قدحين أصفرين للكعبة، وقدحين أسودين لعبد المطلب، وقدحين أبيضين لقريش، ثم أعطوها صاحب القداح الذي يضرب بها عند هبل، وقام عبد المطلب يدعو وصاحب القداح يضرب بها، فخرج الأصفران على الغزالين، وخرج الأسودان على الأسياف والأدراع، وتخلف قدحا قريش، فضرب عبد المطلب الأسياف باباً للكعبة، وضرب في الباب الغزالين، فكان أول ذهب حُلِّيَتْه الكعبة.

و«هبل» بضم الهاء وفتح الباء: صنم اتخذته قريش على بئر في جوف الكعبة، وكانت تلك البئر هي التي تُجمع فيها ما يُهدى للكعبة، وكان عنده قداحٌ سبعة، كل قدح منها فيه كتاب: قدح فيه العُقل^(٢) إذا اختلفوا في العقل من يحمله منهم، ضربوا بالقداح السبعة، فإن خرج العقل، فعلى من خرج حمله. وقدحٌ فيه: «نعم» للأمر، إذا أرادوه، يُضرب به في القداح، فإن خرج قدح: نعم، عملوا به. وقدح فيه «لا» إذا أرادوا الأمر ضربوا فيه القداح؛ فإذا خرج ذلك القدح لم يفعلوا ذلك الأمر، وقدحٌ فيه «منكم»، وقدحٌ فيه «مُلصق»، وقدحٌ فيه «من غيركم»، وقدحٌ فيه المياه، إذا أرادوا أن يحفروا للماء ضربوا بالقداح وفيها ذلك القدح فحيثما خرج عملوا به، وكانوا إذا أرادوا أن

(١) القلعية نسبة للقلعة، وهي بلد بالهند ينسب إليها الرصاص والسيوف (هامش الأصل).

(٢) هو ما تدفعه قبيلة القاتل ديةً للمقتول، وسمي عقلاً لأنه يعقل أي يمنع القبائل عن أن يعتدي بعضها على بعض، والقبيلة تسمَّى عاقلة لذلك.

يختنوا غلامًا أو ينكحوا منكحًا أو يدفنوا ميتًا أو شكّوا في نسب أحدهم، ذهبوا به إلى هُبَل وبمائة درهم وجَزورٍ، فأعطوها صاحب القداح الذي يضرب بها، ثم قَرَّبوا صاحبهم الذي يريدون به ما يريدون، ثم قالوا: يا إلهنا، هذا فلان ابن فلان قد أردنا به كذا وكذا فأخرج لنا الحقَّ فيه، ثم يقولون لصاحب القداح: اضرب، فإن خرج عليه «منكم» كان منهم وسيطًا، وإن خرج عليه «من غيركم» كان حليفًا، وإن خرج عليه «ملصق» كان على منزلته فيهم؛ لا نسب له ولا حلف، وإن خرج في شيء مما سوى هذا ممّا يعملون به «نعم» عملوا به. وإن خرج «لا» أخروه عامه ذلك، حتى يأتوا به مرة أخرى، ينتهون في أمورهم إلى ذلك مما خرجت به القداح. هذا ما ذكره ابن هشام.

والذي ذكره غيرهم، أنهم كانوا إذا قصدوا فعلًا ضربوا ثلاثة أقداح مكتوب على أحدها «أمرني ربي»، وعلى الآخر «نهاني ربي» والثالث غُفْلٌ؛ فإن خرج الأمر مضوا على ذلك، وإن خرج الناهي تجنبوا عنه، وإن خرج الغفل أجالوها ثانيًا اهـ.

والقداح جمع قَدَح (بكسر القاف وسكون الدال) هو السهم الذي كانوا يستقسمون به، يقال للسهم أوَّل ما يُقَطَّع: قِطْع (بكسر القاف وسكون الطاء)، ثم ينحت ويبرى فيسمّى برِيًّا، ثم يقوم قدحًا، ثم يراش ويُرَكَّب نَصْلُهُ فيسمى سهمًا، والقدّاح: صانعها، وهي الأزالام المذكورة في قوله عز وجل: ﴿وَأَن تَسْقِسُوا بِالْأَزْلَمِ﴾ [المائدة: ٣] جمع (زَلَمَ كَجَمَل)، و(زَلَمَ) كَصَرَد. اهـ.

وأما عبد الله فكان أيضًا صاحب أمانة وصيانة، كما يفهم ذلك من واقعه مع الخثعمية؛ وذلك أنه مرَّ بامرأة من خثعم - بعد انصرافه مع أبيه عبد المطلب من نحر الإبل - يقال لها فاطمة بنت مُرَّة، وكانت من أجمل النساء وأعفهن، وكانت كاهنة قد قرأت الكتب، فرأت نور النبوة في وجه عبد الله، فقالت له - حين نظرت إلى وجهه - وكان أحسن رجل رأي في قریش - «لك مثل الإبل التي نُحِرت عنك وَقَع عليّ الآن» لما رأت في وجهه من نور النبوة، ورجت أن تحمل بهذا النبي الكريم ﷺ، فأجابها بقوله:

أَمَّا الْحَرَامُ فَالْمَمَاتُ دُونَهُ وَالْحِلُّ لَا حِلَّ فَاسْتَبَيْنَهُ

فكيف بالأمر الذي تَبَغَيْنَهُ يَحْمِي الكَرِيمُ عِرْضَهُ وَدِينَهُ

وفي لفظ: «فالحِمام دونه» بكسر الحاء المهملة بمعناه، وقيل: هو قَدَر الموت وقضاؤه، من قولهم: حُمَّ كذا أي: قُدِّرَ بالبناء للمفعول، والمعنى: الموت أيسر من فعل المحرم. وقوله: أما الحرام، سماه حراماً وإن لم يكونوا أهل شرع؛ لأن الزنا مما علموا حرمة من بقايا دين إبراهيم عليه السلام، إذ يحتمل أن حرمة الزنا وحل النكاح من الأحكام التي كانت باقية من شريعة إبراهيم عليه السلام ولم تُغَيَّر، وقد صرَّح بذلك السهيلي. وقوله: «يحمي الكريم» إلى آخره، أي لو لم يكن في هذا الفعل مؤاخذه، فالمروءة تمنع منه، وكرم الكريم وعرضه يمنعانه من مثل ذلك.

ويقال: إن التي عرضت عليه من بني أسد بن عبد العزى، واسمها قتيلة (بضم القاف وفتح المُثَنَّاة الفوقية)، وقيل «رقيقة» (بضم الراء وفتح القاف بعدها مشاة تحتية ثم قاف أخرى بعدها تاء تأنيث تقلب في الوقف هاء) تكنى: أم قتال، وهي أخت ورقة بن نوفل رضي الله عنه، ويقال: إن التي عرضت عليه «ليلي العدوية». والجمع ممكن لاحتمال أن يكون مرَّ عليهن كلهن ودعونه؛ لما رأين من النور في وجهه، كما لا يخفى. والجمهور على أنها قتيلة.

زواج أبيه بأمه:

ولما أراد الله إظهار السر المصون الساري في الظهور والبطون من عالم الخفاء إلى عالم الظهور، لِيَتِمَّ بذلك كمال الصفا ومزيد السرور، ألهم عبد المطلب أن يذهب إلى وهب بن عبد مناف، وهو سيد بني زهرة يومئذ نسباً وشرفاً، فخطب منه ابنته آمنة أفضل امرأة في قريش حسباً ونسباً وجمالاً لولده عبد الله، فزوجه إياها ودخل بها مكانه، فحملت برسول الله ﷺ من ليلتها، ثم ذكر فاطمة الخثعمية وجمالها وما عرضت عليه ودعته نفسه؛ فأتاها فقال لها: هل لك فيما كنت عرضت عليّ وليس المراد أنها دعته إلى طلب الزنا والميل ألبة، فقد علم انتفاء ذلك من قوله: «يحمي الكريم عرضه»،

وإنما المراد أن نفسه دعت ليختبر السبب الحامل لها على أن طلبت منه ما طلبت؛ مع جعل المائة من الإبل في ذلك الطلب. فقالت:

لا تطلبنَّ الأمر إلا مُقبلاً قد كان ذاك مرةً؛ فاليوم لا

فذهبت (أي الجملة) مثلاً، أي سارت مثلاً؛ وهو كلام شُبّه مَضْرُبه بمورده؛ ويقال لكل من أذن له في شيءٍ لنيل غرض منه، ففَوّت المأذون له الغرض؛ فامتنع الأذن من تمكين المأذون له من فعل المأذون فيه. وقالت: أي شيء صنعت بعدي؟ قال: وقعت على زوجتي آمنة، فقالت: والله لستُ بصاحبة ريبة، ولكني رأيت نور النبوة في وجهك فأردتُ أن يكون ذلك فيّ، فأبى الله إلا أن يجعله حيث جعله.

فكان يُرضي الخلاق، ويتمسك بمكارم الأخلاق، ويدل على ذلك كله، واستمرار التوحيد في ذرية إبراهيم ﴿وَأَجْنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥] فقد تحققت دعوته لا سيما في آباء النبي ﷺ:

حَفِظَ إِلَهُهُ كَرَامَةً لِمُحَمَّدٍ أَبَاءَهُ الْأَمْجَادَ صَوْنًا لِاسْمِهِ

تركوا السفاح فلم يُصبهم عارُهُ مِنْ آدَمَ وَإِلَى أَبِيهِ وَأُمِّهِ

ومات أبوه ﷺ وله سنتان، وقيل غير ذلك، ودُفن بالأبواء على الراجح.

وكفلته أمه آمنة، وماتت بالأبواء (محل بين مكة والمدينة) وتقدم نسبها من جهة الأب في أول الفصل. وأما نسبها من جهة الأم فهي بنت برة بنت عبد العزى بن عثمان ابن عبد الدار بن قصي بن كلاب، فتلتقي هي وزوجها وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب: في كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر، ويفترقان في ولد كلاب، فبرة من ولد قصي بن كلاب، ثم من ولد عبد الدار، فهي قرشية عبدرية، وزوجها من ولد زهرة بن كلاب، فهو قرشي زهري.

ولما وُلِدَتِ السوداءُ بنت زهرة بن كلاب، وهي عمة وهب أبي آمنة، أرسل بها أبوها من يثدّها، فخرج الوائد حتى أتى بها الحجون، فحفر لها ووضعها في حفرتها،

فصاح صائح من الجبل: «يا وائد الصبية: رُبَّ فرس ردود، ومطعم يجود، في السنة الجلمود، من الصبية الوئيد» فرفع رأسه فلم ير أحداً، فعاد لأن يئدها، فصاح به «يا وائد الصبية، امض ودعها عنك في البرية؛ إنَّ لها علماً في الأنسية».

فرجع بها إلى أبيها فأخبره الخبر، فقال: دعها فإن لها شأنًا. فعمرت. وكانت تقول: يا بني زهرة: إن فيكم لَنذيرة، أو والدة نذير، فاعرضوا عليّ نساءكم. فَعَرَضَ عليها حتى مرت بها الشفاء أم عبد الرحمن بن عوف، فقالت: ليست بها، ولتلدن، فولدت عبد الرحمن. وعُرِضَتْ عليها بنت عبد الحارث، أم عبد الله بن مسعود، فقالت: ليست بها، ولتلدن، فولدت عبد الله بن مسعود، وعُرِضَتْ عليها هالة بنت أهيب بن عبد مناف بن زهرة، فقالت: ليست بها، ولتلدن، فولدت حمزة وصفية والمقوم بني عبد المطلب، وعُرِضَتْ عليها آمنة بنت وهب، فقالت: إنها لنذيرة، ولتلدن نذيرًا، فولدت رسولَ الله ﷺ.

ولم يتزوج عبدُ الله غيرَ آمنة لا قبلها ولا بعدها، كما أنها لم تتزوج بغير عبد الله لا قبله ولا بعده، ولم تلد غيرَ النبي، فهو بكرُ أبويه ﷺ.

ولما مات أبوه لم يترك له ﷺ سوى جاريته أم أيمن (بركة الحبشية) مع أمه؛ وبعد أمه زوّجها لحبه زيد بن حارثة، فولدت لزيد أسامة الذي قال فيه ﷺ: «أسامة أحبُّ الناس إليّ».

وكفله جده عبد المطلب وأكرمه غاية الإكرام وأجلّه لعلمه أنه سيصير له إقبال عظيم يحقق.

ثم كفله عمه أبو طالب، وكان موظفًا بوظيفة الرفادة؛ وهي إطعام الطعام لسائر الحجاج أيام الموسم، فكانت تمد لهم الأسمطة حيث هم ضيوف بيت الله الحرام، وكان أبو طالب يحبه حبًّا شديدًا زائدًا على أولاده، وكان لا ينام إلا إلى جنبه، ويخرج معه متى خرج، وجاءت قريشًا سنةً شديدة القحط، فخرج أبو طالب ومعه النبي ﷺ

يستسقي به، فأخذه أبو طالب فألصق ظهره بالكعبة ولاذ بأصبعه ﷺ، فأقبل السحاب مترامكماً، ونزل المطر كأفواه القرب، فأخصب الوادي والنادي، وفي ذلك يقول أبو طالب:

وأبيضُ يَسْتَسْقِي الغمامُ بوجهه ثمالُ اليتامى عصمةً للأرامل
وهي أكثر من ثمانين بيتاً ذكرها ابن إسحاق، والشمال (بكسر المثلثة: الملجأ)، وعصمة الأرمال: أي يمنعهم من الضياع والحاجة، والأرامل: المساكين من الرجال والنساء، ويقال لكل واحد من الفريقين على انفراده: أرمل، وهو بالنساء أخص وأكثر استعمالاً، والواحد أرمل وأرملة، وأنشأ أبو طالب في مدح النبي ﷺ أبياتاً منها هذا البيت:

وشقَّ له من اسمه ليُجِلَّه فذو العرش محمودٌ وهذا محمد
وحسان بن ثابت ضمَّن شعره هذا البيت فقال:

ألم تر أن أرسل عبده بآياته، والله أعلى وأمجـد
أغرَّ عليه للنبوَّة خاتم من الله مشهود يلوح ويشهد
وضمَّ إليه اسم النبي إلى اسمه إذ قال في الخمس المؤذن أشهد
وشقَّ له من اسمه ليُجِلَّه فذو العرش محمودٌ وهذا محمد
نبيُّ أتانا بعد يأس وفترة من الدين والأوثان في الأرض تُعبـد
وأرسله ضوءاً منيراً وهادياً يلوح كما لاح الصقيـل المهند

تعبده ﷺ قبل البعثة:

وكان رسول الله ﷺ يبغيض حضور الأصنام مع قومه، ولم يأكل مما ذبح على النُّصب، وما عبد غير الله، وما شرب خمرًا، وكذلك الأنبياء لم يعبدوا سوى الله قبل أن يُوحى إليهم؛ فإنهم معصومون عن الكبائر والصغائر، وعن الكفر قبل البعثة

بالاتفاق. واختلف في تعبدہ ﷺ: هل كان بشريعة من قبله أو لا؟ فقل: إنه كان متعبداً بشريعة موسى، وقيل بشريعة عيسى، وقيل بشريعة إبراهيم، وقيل بشريعة نوح عليهم السلام، وقيل إنه لم يكن متعبداً، والمختار أنه كان متعبداً قبل البعث؛ لأنه ثبت أنه كان متعبداً في غار حراء، والتعبد لا يكون إلا بشريعة؛ لأن الحاكم هو الشرع عند أهل الحق، وعلى مذهب المعتزلة (القائلين بحكم العقل) الأمرُ أظهر؛ إذ العبادة لا تتوقف على هذا التقدير على شريعة.

رضاعه :

وأرضعته أمه سبعة أيام، ثم أرضعته ثوية الأسلمية بلبن ابنها مسروح، وكانت أرضعت قبله حمزة بن عبد المطلب، وكان أسنَّ من النبي ﷺ بأربع سنين على الصحيح، وقيل بستين، فهو عمه من النسب، وأخوه من الرضاع، وأمّه بنت عم أمه؛ لأن حمزة أمه هالة بنت أهيب بن عبد مناف بن زهرة، وآمنة هي بنت وهب بن عبد مناف، وكان عبد المطلب تزوج هالة أم حمزة بعد نحر الإبل فداءً لعبد الله قبل عام الفيل بخمس سنين، فلم يكن حمزة داخلاً في القرعة، فلا يبعد كون حمزة أسن من النبي ﷺ بأربع سنين وأنه أرضعته ثوية قبله لجواز أن تكون أرضعت النبي ﷺ في آخر رضاع ابنها، وأرضعت حمزة في أوله، وأما على القول بأن حمزة رضي الله تعالى عنه أسن من النبي ﷺ بستين، فلا إشكال في الرضاع. وكان النبي ﷺ يبعث إلى ثوية من المدينة بصلة وكسوة. واختلف في إسلامها، وأثبت ابن منده.

وكذلك أرضعته ثوية مع أبي سلمة عبد الله بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله ابن عمرو بن مخزوم بن يقظة بن مرة بن كعب بن لؤي القرشي المخزومي زوج أم سلمة، أسلم بعد عشرة أنفس، وهاجر مع امرأته أم سلمة إلى أرض الحبشة، وهو أول من هاجر إليها وشهد بدرًا واستخلفه رسول الله ﷺ على المدينة في غزوة العشرة، وتوفي سنة ثلاث من الهجرة، وقال لما احتضر: «اللهم اخلفني في أهلي بخير»، فخلفه

رسول الله ﷺ على زوجته أم سلمة رض الله عنها، وله من الولد: سلمة، وعمرو، ودرة، وزينب أمهم أم سلمة، وكانت ثوية جارية أبي لهب، فأعتقها حين بشرته بولادته ﷺ عتقاً منجزاً، ثم جعلها ترضعه بعد ولادته أياماً.

وذكر عروة بن الزبير أن أبا لهب رُوي في النوم بِشَرِّ حَبِيبَةٍ^(١) فقيل له: ماذا لقيت؟ فقال له: لم ألق بعدكم رخاءً، غير أنني سُقيت في هذه مني بعتاقتي ثوية، (وأشار إلى النقرة التي بين الإبهام والتي تليها من الأصابع). وفي رواية أن الرائي كان من أهله، وأنه أخوه العباس بن عبد المطلب، قال: مكثت حولاً بعد موت أبي لهب لا أراه في نوم، ثم رأيته في شَرِّ حال، فقال: «ما لقيتُ بعدكم راحة، إلا أن العذاب يُخَفَّف عني كل يومِ إثنين» وذلك أن رسول الله ﷺ وُلِد يوم الإثنين^(٢)، وكانت ثوية مولاته قد بشرته بمولده، وقوله: (بعتاقتي)، بفتح العين أحد مصادر عتق العبد الذي هو فعل لازم) فالحكمة في التعبير به دون التعبير بالإعتاق، وإن كان هو الأنسب؛ لأن العتاقة أثر الإعتاق، فلذلك أضافها لنفسه. قال ابن بطال: ومعنى قوله (سُقيت في هذه إلخ): أن الله سقاه ماءً في مقدار نقرة إبهامه، لأجل عتقه ثوية. قال ابن حجر: واستدل به على أن الكافر قد ينفعه العمل الصالح في الآخرة، وهو مردود بظاهر قوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾^(٣) [الفرقان: ٢٣] لا سيما والخبر مرسل، أرسله عروة، ولم يذكر من حدّثه به، وعلى تقدير أن يكون موصلاً فلا يُحتجُّ به؛ إذ هو رؤيا منام لا يثبت به حكم شرعي. لكن يحتمل أن يكون ما يتعلق بالنبى ﷺ مخصوصاً بذلك، بدليل التخفيف عن أبي طالب^(٤) المروي في الصحيح. وعلى هذا جرى جمع؛ قال

(١) الحبيبة: الحالة. اهـ (من هامش الأصل).

(٢) هذا خبر مشهور جداً، وقد كان يصومه ﷺ.

(٣) ويقول تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَدْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ يُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَيَا كُنتُمْ نَفْسُوتُمْ﴾ [الأحقاف: ٢٠].

(٤) حديث عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «أهون أهل النار عذاباً أبو طالب، وهو متعل بنعلين يغلي منهما دماغه»، صحيح مسلم ١٩٦/١ كتاب الإيمان.

البيهقي: ما ورد من بطلان الخير للكفار معناه أنهم لا يكون لهم التخلص من النار، ولا دخول الجنة، ويجوز أن يخفف عنهم من العذاب الذي يستوجبونه على ما ارتكبوه من الجرائم ثم سَوَى الكفر، بما عملوه من الخيرات. والذي قاله القاضي عياض: [انعقد الإجماع على أن الكفار لا تنفعهم أعمالهم، ولا يثابون عليها بنعيم ولا تخفيف عذاب، وإن كان بعضهم أشد عذاباً من بعض. قال الحافظ: وهذا لا يردُّ الاحتمال الذي ذكره البيهقي؛ فإن جميع ما ورد من ذلك فيما يتعلق بذنب الكفر، وأما ذنب غير الكفر، فما المانع من تخفيفه؟] وقال القرطبي: [هذا التخفيف خاصٌّ بهذا، وبمن ورد النص فيه]، وقال ابن المنير: [هما فضيلتان إحداهما مُحال، وهي اعتبار طاعة الكافر مع كفره؛ لأن شرط الطاعة أن تقع بقصدٍ صحيح، وهذا مفقود من الكافر، وإثبات ثوابٍ على بعض الأعمال: تفضل من الله تعالى، وهذا لا يحيله العقل، فإذا تقرر ذلك لم يكن عتقُ أبي لهب لثوبية قربةً معتبرة، ويجوز أن يتفضل الله عليه بما شاء كما تفضل على أبي طالب، والمتَّبِع في ذلك التوقيف نفياً وإثباتاً، قال الحافظ: فوقعُ التفضيل المذكور إنما هو إكرام لمن وقع البرُّ من الكافر لأجله، وهو النبي ﷺ] انتهى.

قال ابن الجوزي: فإذا كان هذا حال أبي لهب الذي مات على دين قومه، ونزل القرآن بذمه: جوزيَ بعد موته جزاءً بفرحه بمولد محمد ﷺ؛ فما حال المسلم الموحد من أمته يفرح ويُسرُّ بمولده ﷺ، ويبذل ما تصل إليه قدرته في محبته ﷺ من الصدقات لعمرى إنما يكون جزاؤه من المولى الكريم أن يدخله بفضله وكرمه جنات النعيم.

ولله دُرُّ حافظ الشام: شمس الدين محمد بن ناصر الدمشقي، حيث قال:

إذا كانَ هذا كافرًا جاء ذمُّه وتَبَّتْ يداه في الجحيم مُخلداً
أتى أنه في يوم الإثنين دائماً يُخَفَّفُ عنه لِلسُرور بأحمداً
فما الظنُّ بالعبد الذي كان عُمره بأحمدَ مسروراً؛ ومات مُوحداً

مات أبو لهب بداء «العدسة» في مكة على دين قومه بعد بدر بسبعة أيام، وكان قد

بلغه خبر بدر ولم يشهدا.

والعدسة: بئرٌ كانت تخرج على الناس، تزعم العرب أنها تعدي، شبيهة بالطاعون. وعلى ذكر الطاعون؛ فقد ورد النهي عن دخول بلد فيها الطاعون؛ لأن الدخول إلى موضع النَّقْم تعرّض للهلكة، فالمقام بالموضع الذي لا طاعون فيه أسكن للقلب، فليتأدب الشخص بأدب الحكمة، وهي الفرار من الهلاك ولا يعارضها بالقدر الذي تضمنته آية: ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾ [التوبة: ٥١].

ولهذا قال عمر لأبي عبيدة رضي الله عنهما حين قال: أتفرّ من قدر الله؟! يا أبا عبيدة، لو غيرك قالها؟! جواب الشرط محذوف يدل عليه السياق^(١): ... نعم نفرّ من قدر الله إلى قدر الله.

ولما رمي أبو لهب بالعدسة تباعد عنه بنوه، فبقي ثلاثاً لا تُقرب جنازته ولا يُدفن، فلما خافوا السُّبَّة دفعوه بعود في حفرتة، ثم قذفوه بالحجارة من بُعد حتى واروه. وذكر أن عائشة كانت إذا مرت بموضعه غطت وجهها.

وله من الولد ثلاثة: عتبة، وعتيبة، ومعتب، ومن الإناث، درة، وسبيعة، أسلم منهم اثنان يوم فتح مكة ولم يهاجروا من مكة حتى ماتا ولهما بها عقب. ودرة وسبيعة أسلمتا، وكان عتبة ومعتب قد هربا من الإسلام، فأرسل إليهما عمهما العباس، فقدموا وأسلما، فسُرّ بذلك عليه السلام، وشهدا معه حنيناً والطائف. وأما عتيبة فإنه لما أسلمت أم كلثوم ابنة رسول الله ﷺ فارّقها، وقال: يا محمد فارقتُ ابنتك وتركتُ دينك، فلا تحب لي خيراً أبداً. فدعا عليه رسول الله ﷺ أن يسلم الله عليه كلباً من كلابه، فخرج إلى الشام تاجراً، فلما كان في بعض الطريق جاءه الأسد ففزع وقال: أترى ابن أبي كبشة^(٢) قاتلي وهو بمكة وأنا بالشام! فأدخله أصحابه بينهم وتوسّطوا به جميعهم،

(١) السياق يقتضي «لقلته منه» أو «لعاقبته».

(٢) اسم كان يطلقه مشركو مكة على الرسول ﷺ، أصله أن أبا كبشة رجلٌ من خزاعة خالف قريشاً في عبادة الأوثان وعبد كوكباً يدعي الشعري. فسمى المشركون النبي ﷺ بهذا الاسم تشبيهاً به. انظر اللسان (٥: ١٨١٢).

فلما كان في بعض الليل أتاها الأسد فتعدّاهم رجلاً رجلاً، حتى أتى إليه فشده من بينهم، وفيه قال حسان:

من يرجع العام إلى أهله فما أكيل السبع بالراجع

وأما أبوهما أبو لهب، وأمهما أم جميل، حمالة الحطب، فيكفيهما ما أنزل الله فيهما من قوله: ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۚ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۚ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۚ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۚ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۚ ﴾ [المسد] ، وقال بعض العلماء في أولاد أبي لهب:

كرهت عتية إذ أجزمت وأحببت عتية إذ أسلمت

كذلك معتب أسلم فاحم ترز أن تسب فتى مسلما

ومثل عتية وعتية في الصلاة والفحش: عبد الله وعبيد الله ابنا جحش؛ فإن عبد الله تبين وتبصر فأسلم، وعبيد الله افتتن وتنصر فأجرم، وإن الأكبر هو الأفضل والأصغر هو الأرذل.

ثم أرضعت النبي ﷺ حليلة السعدية بنت أبي ذؤيب (تصغير ذئب) واسمه عبد الله بن الحارث، ومن سعادتها توفيقها للإسلام^(١) هي وزوجها الحارث بن العزى بن رفاعة السعدي وبنوها: عبد الله، والشيما، وأنيسة، وقد ألّف الحافظ أبو سعيد علاء الدين بن مغلطي في إسلامها جزءاً وسماه (التحفة الجسيمة في إسلام السيدة حليلة) وقال في سيرته: «وبقيت حليلة حتى قدمت على رسول الله ﷺ بمكة، وقد تزوج خديجة، فشكت إليه جذب البلاد، وهلاك الماشية، فكلم لها خديجة فأعطتها أربعين شاة وبعيراً، وانصرفت إلى أهلها. وقدمت عليه أيضاً في يوم حنين، فقام لها وبسط لها رداءه، فجلست عليه وقضى حاجتها، فلما توفي ﷺ قدمت على أبي بكر الصديق

(١) حديث إرضاع السيدة حليلة رضي الله عنها للنبي ﷺ رواه عنها عبد الله بن جعفر، وأخرجه ابن حبان في صحيحه، وصرّح فيه بالتحديث بين عبد الله بن جعفر وحليمة.

فصنع لها مثل ذلك، ثم عمر، ففعل ذلك. وأنشد في آخر الجزء المذكور:

أضحت حليلةٌ تزدهي بمفاخر ما نالها في عصرها ذو شان
منها الكفالة والرضاع وصحبة والغاية القصوى: رضى المنان

ومضمون قصتها مع اختصار: أنها قدمت مكة من البادية في سنة قحط شديدة لم تبق لهم شيئاً صحبة عشر نسوة من قومها يلتمسن الرضعاء، ومعها ابن لها رضيع مجهود، وزوجها أبو أولادها الحارث، وكلاهما من بني سعد بن بكر بن هوازن، فلم يبق منهن امرأة إلا وقد عرض المبارك عليها فتأباه إذا قيل لها: إنه يتيم، ثم أخذته هي^(١) إذ لم تجد غيره، فرأته مدرجاً في ثوب صوف أبيض يفوح منه المسك، وكان راقداً على قفاه، فهابت أن توقفه، فوضعت يدها على صدره فتبسم ضاحكاً، وفتح عينيه فقبلته وأعطته ثديها الأيمن فقبله، وحولته إلى الأيسر فأبى؛ لأن الله ألهمه العدل وأعلمه أن له شريكاً هو ابنها فترك له ثديها الأيسر، وكانت هي وناقتهما في أشد الجوع والهزال وعدم اللبن، فبمجرد أن وضعت في حجرها أقبل (أي درّ عليه) ثديها فروى وروى أخوه، ودرت ناقتهما فأشبعتهما تلك الليلة لبناً، فلما أصبحت ودّعت أمه آمنة وركبت أتانها، فلما خرجت مع قومها سبقت أتانها الكلّ بعد أن كانت لا تنهض بها، فأنكر صويحباتها أنها هي، فلما علمنها قلن: إن لها شأنًا عظيمًا. ولما وصلوا منازلهم كانت أجذب أرض الله، فكانت غنم حليلة ترجع ملأى، بخلاف غنمهم، مع أنها كلها بمحل واحد، فلله درّها من بركة كثرت بها مواشي حليلة ونمت وارتفع قدرها به وسمت، ولم تزل حليلة تتعرف الخير والسعادة، وتفوز منه بالحسنى وزيادة، وقيل:

لقد بلغت بالهاشمي حليلةً مقاماً علا في ذروة العز والمجد

وزادت مواشيها وأخصب ريعها وقد عمّ هذا السعد كل بني سعد

ولا يخفى أن قدوم نساء بني سعد للرضعاء إنما كان لطلب الأجر على الرضاع.

(١) حديث الرضاعة حديث مشهور، روته أغلب كتب السنة، منها أبو يعلى، وابن حبان في صحيحه.

قال السهيلي رحمه الله تعالى: والتماس الأجر على الرضاع لم يكن محموداً عند أكثر العرب، حتى جرى المثل «تجوع الحرة ولا تأكل بثدييها»^(١) أي: ولا تهتك نفسها وتبدي منها ما لا ينبغي أن تبدي. وتعقبه في «الزهر» أن المثل غير مسوق لذلك، وكان^(٢) عند بعضهم لا بأس به. فقد كانت وسيطةً في بني سعد، كريمة من كرائم قومها، بدليل اجتهاء الله تعالى إياها برضاع نبيه ﷺ، كما اختار له أشرف البطون والأصلاّب. والرضاع كالنسب، ويحتمل أن تكون حليلة ونساء قومها طلبن الرضاع اضطراراً للأزمة التي أصابتهم، والسنة الشهباء التي أفحمتهم؛ فلما تم له ﷺ عند حليلة سستان عادت به إلى أمه، ثم فطمته.

قال بعضهم: وتجوز الزيادة على الحولين والنقص عنهما. لكن قال الحناطي في فتاويه: يستحب قطع الرضاعة عند الحولين إلا لحاجة، وقال ابن كثير في تفسيره: ذُكر أن الرضاعة بعد الحولين ربما ضرّت الولد في بدنه وعقله.

ومما يُنسب إلى حليلة مما كانت تُرَقِّص به النبي ﷺ:

يا ربّ إذ أعطيتَه فأبقيته

واعله إلى العُلَى ورَقِّيه

وادحضْ أباطيل العدا بحقه

ويظهر أنه مفتعل، وإن كان معناه جيداً.

ورُوي أنه أَرْضَعَ النبي ﷺ ثمانِي نِسوة غير آمنَةٍ: ثوبية، وحليمة، وخولة بنت المنذر،

(١) قال الميداني في مجمع الأمثال بعد كلام وقصة طويلة: «... ثم ارتحل بها (أي بالزباء بنت علقمة بن خصفه الطائي)، وهي من أجمل بنات العرب آنذاك - إلى قومه؛ فبينما هو ذات يوم جالس - أي زوجها الحارث بن سليل؛ وكانوا قد زوّجوها له وهي كارهة؛ لأنه رجل مسنّ - وهي إلى جانبه، إذ أقبل إليه شباب يعتلجون؛ فتنفست صُعداء، ثم أرخت عينها بالبكاء، فقال لها: ما يبكيك؟ قالت: ما لي وللشيوخ الناهضين كالفرخ! فقال لها: تكلتك أمك «تجوع الحرة ولا تأكل بثدييها». فذهبت مثلاً اهـ. ملخصاً من مجمع الأمثال.

(٢) أي الإرضاع.

وأم أيمن، (والمعروف أنها من الحواضن)، وامرأةٌ سعدية غير حليلة، وثلاث نسوة اسم كل واحدة منهن عاتكة، في قوله ﷺ يوم حنين: «أنا ابن العواتك من سليم»^(١) والعواتك ثلاث نسوة كن أمهات النبي ﷺ^(٢):

إحدهن: عاتكة بنت هلال، وهي أم عبد مناف بن قصي.

والثانية: عاتكة بن مرة بن هلال، وهي أم هاشم بن عبد مناف.

والثالثة: عاتكة بنت الأوقص بن مرة بن هلال، وهي أم وهب أبي آمنة أم النبي ﷺ.

فالأولى من العواتك عمة الثانية، والثانية عمة الثالثة، وبنو سليم تفتخر بهذه الولادة، ولم يُردُ ﷺ بقول «أنا ابن العواتك» الفخر، وإنما أراد به تعريف منازل المذكورات ومراتبهن، كرجل يقول: كان أبي فقيهاً، ولا يريد الفخر، وإنما يريد به تعريف حاله دون ما عداه، وقد يكون أراد به التحدث بنعمة الله تعالى في نفسه وآبائه وأمّهاته على وجه الشكر، وليس ذلك من الاستطالة والفخر في شيء. ولبنو سليم مفاخر أخرى منها: أنها ألفت معه يوم فتح مكة، أي شهدته منهم ألف، وأن رسول الله ﷺ قدّم لواءهم يومئذ على الألوية، وكان أحمر، ومنها أن عمر كتب إلى أهل الكوفة والبصرة ومصر والشام أن ابعثوا إليّ من كل بلد أفضله رجلاً. فبعث أهل الكوفة عتبة بن فرقد السلمي، وبعث أهل البصرة مجاشع بن مسعود السلمي، وبعث أهل مصر معن بن يزيد السلمي، وبعث أهل الشام الأعور السلمي.

وسبب دفع أمه إياه لمن ترضعه أن هذا كان عادة قريش وأشراف العرب في أولادهم، ولو كانت الأم حيّة ولها لبن؛ لأن نساءهم كنّ يرين إرضاع أولادهن عاراً^(٣) عليهن، وأيضاً إذا نشأ الرضيع غريباً كان أنجب له، مع ما يضاف إلى ذلك من تفرغ النساء

(١) رواه الطبراني، وسعد بن منصور عن شبابة بن عاصم.

(٢) هنا بمعنى جدّاته.

(٣) بل لأن أهل مكة بالذات كانوا حريصين على إرضاع أولادهم في البادية حفاظاً على اللغة الفصحى من أن تختلط في لسان الولد، وذلك لأن مكة مركز تجاري يأتي إليها العربي وغير العربي.

للأزواج، وإن كان هذا منتفياً هنا؛ لأن أباه ﷺ توفي وهو حملٌ على الصحيح. والأولى في التعليل أن ينشأ غريباً، على أن هذه العادة عادة أشراف الدنيا قديماً وحديثاً، لا سيما بالأقطار الحجازية بالنسبة للحواضر؛ فإنهم يبعثون بأبنائهم إلى البوادي للتربية بها مع ما ينضم إلى ذلك من خاصية فصاحة العربية العريقة بالبادية القليلة المخالطة بما يفسد اللغات، فهذه هي حالته ﷺ حيث منّ الله على حليلة السعدية فأرضعته مع ابنها الذي شرب النبي ﷺ من لبنه، وهو عبد الله بن الحارث.

وكان له ﷺ أختان: أنيسة والشيما بنتا الحارث، الشيما واسمها حذاقة، وإنما غلب لقبها فلا تُعرف في قومها إلا به، وسُبيت يوم حنين، فقالت: «يا قوم اعلموا أنني أخت نبيكم» فلما أتوا بها النبي ﷺ قالت له: «إني أختك، وكنت عضضتني وأنا أحضنك مع أُمي». فعرف ذلك وبسط لها رداءه وأجلسها عليه، ودمعت عيناه، وقال لها: «إن أحببت فأقيم عندي مكرمة محببة، وإن أحببت أن ترجعي إلى قومك وصلّتك». قالت: بل أرجع إلى قومي. فأسلمت^(١)، وأعطاه النبي ﷺ جارية وغلماً اسمه مكحول، فزوجت الجارية من الغلام. وكانت تحضنه ﷺ وترقصه وتقول:

هذا أخٌ لي لم تلده أُمي

فَدَيْتُهُ مِنْ مُخَوِّلٍ مُعَمٍّ

فَأَنِمَهُ اللَّهُمَّ فِيمَا تُنِمِي

ولعل هذا الرجز مصطنع بعد، أو كان مما يرقّص به الأطفال في ذلك الزمن. وكان رسول الله ﷺ عُرِضَ على كثير من النساء فلم يرضين رضاعه لِيُتِمَّه وفقره؛ ويقلن:

(١) انظر ترجمتها في «الإصابة في تمييز الصحابة» لابن حجر؛ قال: وذكر محمد بن المعطي الأزد في كتاب الترقيص قال: وقالت الشيما ترقيص النبي ﷺ وهو صغير:

يا ربنا أُنِّي لنا محمداً حتى أراه يافعاً وأمرداً

ثم أراه سيّداً مسوداً وأكبت أعاديته معاً والحسداً

وأعطيه عزّاً يدوم أبداً

قال: فكان أبو عروة الأزد إذا أنشد هذا البيت يقول: «ما أحسن ما أجاب الله دعاءها» اهـ. من الإصابة.

ماذا عسى أن يكون من أمه وجدّه إلينا، إنما يكون الإحسان من الأب. فأخذته حليلة السعدية، وقالت: لعل الله يجعل لنا فيه البركة. فحقق الله رجاءها. واليتم والفقير نقص في حق الخلق؛ فلما صار محمدٌ عليه الصلاة والسلام مع هذين الوصفين أكرم الخلق، كان ذلك قلباً للعادة، فكان من جنس المعجزات، وقد قيل لجعفر الصادق: لم يُتمَّ ﷺ من أبويه؟؟ قال: لثلاث يكون عليه حق لمخلوق، وأيضاً لينظر ﷺ، إذا وصل إلى مدارع^(١) عزه لأوائل أمره، ليعلم أن العزيز من أعزّه الله تعالى، وأنّ قوّته ليست من الآباء والأمهات، ولا من المال، بل قوّته من الله تعالى، وأيضاً ليرحم الفقراء والأيتام، وقد قال ﷺ: «ارحموا اليتامي، وأكرموا الغرباء؛ فإني كنت في الصغر يتيماً وفي الكبر غريباً»^(٢).

وبعد ذلك مضت حليلة^(٣) به إلى بلادها عند سعد بن بكر، فأثاءه الملكان هناك وشقاً صدره الشريف وأخرجوا قلبه فغسلاه بماء الثلج في طست من ذهب، وملاه حكمة وإيماناً، واستخرجوا حظ الشيطان منه (وهي مضغة سوداء) وفي رواية علقه، فلما علمت حليلة بذلك رجعت به إلى مكة لأهله بعد أن أقام نحو أربعة أعوام، فردّته إلى أمه. وشقّ صدره الشريف أيضاً وهو ابن عشر سنين، ثم عند مبعثه، ثم عند الإسراء، والشق الأول الذي عند حليلة كان في السنة الثالثة من مولده ﷺ، وقيل: كان في الرابعة. ولكلٍّ من الثلاث حكمة، فالأولى التي كانت في زمن الطفولية؛ لتطهيره عن حالات الصبا حتى يتصف في سن الصبا بأوصاف الرجولية، ولذلك نشأ عليه السلام على أكمل الأحوال من العصمة من الشيطان. والتي عند المبعث زيادة في

(١) مدارع عزه: منتهاه.

(٢) قال ابن حجر الهيتمي المكي المتوفى سنة ٩٧٤هـ بعد ذكر جملة من الأحاديث منها هذا الحديث: «ارحموا اليتامي...» إلخ قال: «هذه الأحاديث كلها كذب موضوعة، لا يحل رواية شيء منها إلا لبيان أنها كذب مفترى على النبي ﷺ، كما أفاد ذلك الحافظ السيوطي شكر الله سعيه، انتهى. من الفتاوى الحديثية ص ١٧٤ طبع الحلبي.

(٣) وكان النبي ﷺ يكرمها، فقد روى أبو داود، وأبو يعلى «أن النبي ﷺ كان بالجرعانة يقسم لحمًا فأقبلت امرأة بدوية؛ فلما دنت من النبي ﷺ بسط له رداءه فجلست عليه، قال الطفيل راوي الحديث: فقلت: من هذه؟ قالوا: هذه أمه التي أرضعته، يعني حليلة.

الكرامة؛ ليتلقى ما يوحى إليه بقلب قوي في أكمل الأحوال من التطهير. والتي عند إرادة العروج إلى السماء؛ ليتأهب للمناجاة. وسكت عن حكمة شق صدره وهو ابن عشر سنين، فيحتمل أن يقال: لما كان العشر قريباً من سن التكليف شق صدره عليه السلام وقدس حتى لا يتلبس بشيء مما يعاب على الرجال، وقد نظم بعضهم المواطن التي شق صدره فيها ﷺ، فقال:

أيا طالباً نظّم الفرائد في عقد	مواطن فيها شق صدرٌ لذي رشد
لقد شق صدرٌ للنبي محمد	مراراً لتشريفٍ، وذا غاية المجد
فأولى له التشريف فيها مؤثّل	لتطهيره من مضغة في بني سعد
وثانية كانت له وهو يافع	وثالثة للمبعث الطيب النّد
ورابعة عند العروج لرّبّه	وذا باتفاق، فاستمع يا أخا الرشد
وخامسة فيها خلاف تركتها	لفقدان صحيحٍ لما عند ذي النقد

والحكمة في غسله بماء الثلج والبرد هي مع ما فيهما من الصفاء وعدم التكدّر بالأجزاء الترابية التي هي محل الأرجاس وعنصر الأكدار: الإيماء إلى أن الوقت يصفو له ولأمته، ويروق لشريعته الغراء وسنته، والإشارة إلى ثلوج صدره، أي انشراحه بالنصر على أعدائه والظفر بهم، والإيذان ببرودة قلبه (أي طمأنينته على أمته بالمغفرة لهم والتجاوز عن سيئاتهم). وقال ابن دحية: «إنما غُسل قلبه بالثلج؛ لما يُشعر به الثلج من ثلج اليقين إلى قلبه». وقد كان ﷺ يقول بين التكبير والقراءة: «اللهم اغسلني من خطاياي بالثلج والبرد»^(١) خصّهما بالذكر تأكيداً للطهارة ومبالغة فيها، لأنهما ماءان مفطوران على خلقتهما لم يُستعملا ولم تنلهما الأيدي، ولم تخضهما الأرجل كسائر المياه التي خالطت التراب وجرت في الأنهار وجمعت في الحياض، فكانا أحقّ بكمال الطهارة. وأراد تعالى أن يُغسل قلبه بماء حِمْل من الجنة، وطست ملى حكمة وإيماناً؛

(١) جزء من حديث طويل رواه الترمذي، والنسائي وابن ماجه.

ليعرف قلبه طيبَ الجنة ويجد حلاوتها؛ فيكون في الدنيا أزهد، وعلى دعوة الخلق إلى الجنة أحرص، ولأنه كان له أعداء يتقوّلون عليه، فأراد الله تعالى أن ينفي عنه طبع البشرية من ضيق الصدر وسوء مقالات الأعداء، فغسل قلبه ليورث ذلك صدره سعةً ويُفارق الضيق كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعَّمْنَاكَ بِضَيِّقٍ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ [الحجر: ٩٧]؛ فغسل قلبه غير مرة، فصار بحيث إذا ضُرب أو سُجَّ رأسه وشظيت رباعيته كما في يوم أحد يقول: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»^(١).

ولما أكمل ست سنين توجّهت أمه مع أم أيمن حاضنته عليه الصلاة والسلام لزيارة أحوال أبيه بني النجار، وأقاموا شهراً ورجعوا ذاهبين إلى مكة، فلما نزلوا بالأبواء (محل بين مكة والمدينة، وهو إلى المدينة أقرب) ماتت أمه، فدخلت به أم أيمن مكة، وكان يقول لها: «أنت أمي بعد أمي» أي في الاحترام؛ لأنها قامت مقام أمه في تربيته. فضمّه جده عبد المطلب، وكان يرقّ عليه ويُعلي منزلته ويقول: إن لولدي هذا شأنًا عظيمًا. وكان أبوه عبد الله مات وله سنتان، وقيل وهو حمل، لأن عبد المطلب كان يبعثه إلى غزة من الشام يمتار لهم طعامًا مع تجار من قريش، فلما رجعوا مرض عبد الله، فلما دخلوا إلى المدينة تخلف بها عند أخواله بني النجار، ثم مات بها، وله ثلاثون سنة. ولما بلغت وفاته عبد المطلب وجد عليه وجدًا شديدًا، والصحيح أن النبي ﷺ كانت وفاة أبيه بعد شهرين من حمل أمه به، وخلف عبد الله جاريته أم أيمن وخمسة أجمال، وقطعة غنم، فورث ذلك رسول الله ﷺ من أبويه، وكفله جده عبد المطلب حتى مات والمصطفى ﷺ ابن ثمانين سنين، ولا خلاف أن جده المذكور وأبويه ماتوا في الجاهلية؛ فإنه ما جاء الإسلام ونُبئ حتى بلغ الأربعين وكان الناس قبل بعثته كما قال تعالى: ﴿لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾^(٢) [آل عمران: ١٦٤] وقد أشار إلى ذلك العراقي صاحب السيرة بقوله:

(١) رواه الطبراني في الكبير عن سهيل بن سعد.

(٢) ﴿... وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾. [آل عمران: ١٦٤].

مات أبوه وله عامان	وثلاث، وقيل بالنقصان
عن قدر ذا، بل صحَّ كان حملاً	وأرضعته حين كان طفلاً
مع عمه حمزة ليث القوم	ومع أبي سلمة المخزومي
ثوية، وهي إلى أبي لهب	أعتقها وأنه حين انقلب
هلكا: رأي يوماً بشرَّ حبه	لكن سقي بعقيقه ثوبيه
وبعدها حليلة السعديه	فظفرت بالدرّة السنيّه
نالت به خيراً وأيّ خير	من سعة ورغدٍ ومير
أقام في سعد بن بكر عندها	أربعة الأعوام تجني سعدها
وحين شق صدره جبريلُ	خافت عليه حدثاً يؤول
ردته سالمًا إلى آمنه	وخرجت به إلى المدينة
تزور أخوالاً له فمرضت	راجعةً فقُبِضَتْ وتوفيت
هناك بالأبواء وهو عمره	ست سنين مع شيءٍ يقدره
ضابطه بمائة أياماً	وقيل: بل أربعة أعواماً
وحين ماتت حملته بركه	لجده بمكة المباركه
كفله إلى تمام عمره	ثمانياً ثم مضى لقبره



الفصل الثاني

في ذكر عمل مولده الشريف ، وإشهاره كل سنة

وفيما جرى في مولده وفيما بعده من الوقائع

في الأخبار المشهورة أن الليلة التي وُلد فيها رسول الله ﷺ ارتجَّ إيوان^(١) كسرى وسقطت منه أربع عشرة شِرافة إشارةً إلى أنه لم يبق من ملوكهم المستبدين بالملك إلا أربعة عشر ملكاً؛ فهلك عشرة في أربع سنين، وهلك أربعة إلى زمن عثمان رضي الله عنه، وزال ملكهم بالكلية. ورأى في تلك الليلة أنوشروان رؤيا أفزعته، فجمع الكهنة والسَّحرة والمنجمين فقصها عليهم، فدلّوه على (سطيح) الكاهن ليعبّرها له، وكان مشهوراً بالكهانة، فأرسل كسرى إليه وزيره، وكان سطيحٌ يُخرجه قومه على رأس كل سنة مستلقياً، فيتكلم بأحكام السَّنة الآتية، فلمّا خرج بدأ الكلام بالرؤيا قبل القصّ عليه، فقال: «إن كسرى رأى رؤيا هالته، رأى خيولاً عربية ملأت مدينته، تسوق إبل العراق وتُخرجها من البلاد؛ فالخيول العربية أصحاب النبي القرشي الهاشمي المكي المدني الخاتم، الذي يختم الله به الأنبياء، ويأتيه الوحي من الملك الواحد الأحد الفرد الصمد، وسيفتح له البلاد والمدائن بالعراقيين وغيرهما، على عدد شُرَافات بَقِينَ من الإيوان حين سقوطه ليلة ميلاده، الحذر الحذر من مخالفته، من كل مَنْ وصل إلى زمن

(١) الإيوان: مجلس كبير على هيئة صَفّة واسعة، لها سقف محمول من الأمام على عَقْد يجلس فيها كبار القوم.

دعوته! ثم بكى سطيح وقال: «ما بقي من عمري إلا قليل، لا أدرك بعثة النبي الجليل» قال: فرجع وزير كسرى القَهْقَرَى، فأخبر الملك بما أخبر به سطيح، فوقع ما قال مما قدره القادر المتعال.

الاحتفال بالمولد:

وقد سبق لنا في الفصل الأول من الباب الأول: أن (ثوية) جارية أبي لهب لَمَّا بَشَّرته بولادته ﷺ أعتقها عتقاً منجراً، ثم جعلها ترضعه بعد ولادته أياماً، فخفف الله عنه العذاب كل يوم إثنين الذي هو يوم مولده، ولعل تخفيف عذابه بالنظر لذنب غير الكفر، حيث لا مانع من تخفيفه، أو هذا التخفيف خاص به وبمن ورد فيه النص، وهذا إكرام لمن وقع البرُّ لأجله، وهو النبي ﷺ، فلا غرابة في أن مولده الشريف على تداول الأيام صار متبعا من جميع الناس، أكابر وأصاغر، وإن كان بدعة فهو من البدع المحمودة، وابتداعه مبني على قاعدة الشكر للمولى في إيجادها، والواقع أن الأصل في حسن البدعة وقبحها أن تُعرض على قواعد الشريعة: فما تدخل في قواعده من الأحكام الخمسة^(١) تُنسب إليه، وكم من سنن ابتدعت على طريق القرب إلى الله تعالى وصارت ملحقة بالسنة الشريفة، والمولد النبوي منها، إذ لا ضرر ولا ضرار في فعله لمن أراد ذلك في ربيع الأول أو غيره، بل نصَّ ابنُ الجوزي أنه ممَّا جُرِّبَ أن فعله يورث الأمان التام في ذلك العام، كما سيأتي، وإن قال ما قال فيه تاج الدين الفاكهاني المالكي من الإنكار، وتعقُّبه الجلال السيوطي وردَّ عليه الردَّ التام بسلوك طريق الاستدلال والاستظهار، وحَكَمَ بينهما^(٢) العلامة الشيخ عبد السلام اللقاني المالكي، وقضى بينهما بقول فصل وحكم عدل يشهد له بالفضل، أشبع في مقاله بالنصوص القاطعة والحجج الداحضة بما يُقنع من الدليل ويشفي الغليل، ويكشف عن وجوه البدع قناع التأويل، فلنذكر كلامه في هذا المعنى برُمَّته مع بعض تصرف في العبارة،

(١) أي الوجوب، والندب، والإباحة، والكراهية، والتحريم.

(٢) أي بين الفاكهاني والسيوطي.

وإن كان فيه تكرار شيءٍ مما سبق، حيث هو مؤكّد له ومزيل الغطاء عن غمته.

ونصّ عبارة الشيخ عبد السلام اللقاني: المنقولة من مسوّد حاشية له على بعض السير النبوية:

«وقد أردتُ إيرادَ بعض فوائد تتعلق بالمولد الشريف مما ذكره النجم^(١) وغيره فأقول مستعيناً به سبحانه:

اعلم أن الناس اختلفوا في عمل المولد واجتماع الناس له، والذي صرّح به العلامة تاج الدّين الفاكهاني المالكي -رحمه الله- أنه بدعة مذمومة، وألّف في ذلك كتاباً صدرّ ديباجته بقوله بعد البسملة والحمدلة وما يُطلب له الإتيان به:

«أما بعد: فقد تكرر سؤال جماعة عن الاجتماع الذي يعمل به بعض الناس في شهر ربيع الأول ويسمّونه المولد، هل له أصل في الشرع؟ أو هو بدعة حدثت في الدين؟ وقصته والجواب عن ذلك مبيناً، والإيضاح عنه معيناً:

«قلت، وبالله التوفيق: لا أعلم لهذا المولد أصلاً في كتاب ولا سنة، ولم ينقل عمله عن أحد من علماء الأمة، الذين هم القدوة في الدّين، المستمسكون بآثار المتقدمين، بل هو بدعة أحدثها البطّالون، وشهرة اعتنى بها الأكّالون، بدليل أنّا أدركنا عليه الأحكام الخمسة قلنا: إما أن يكون واجباً، أو مندوباً، أو مباحاً، أو مكروهاً، أو محرّماً. وليس بواجب إجماعاً، ولا مندوباً؛ لأن حقيقة المندوب ما طلبه الشارع من غير ذم على تركه، وهذا لم يأذن فيه الشرع ولا فعله الصحابة، ولا التابعون المتدينون فيما علمتُ، وهذا جوابي عنه بين يدي الله إن سئلت عنه، ولا جائز أن يكون مباحاً؛ لأن الابتداع في الدين ليس مباحاً بإجماع المسلمين، فلم يبق إلا أن يكون مكروهاً أو حراماً، وحينئذ يكون الكلام فيه في فصلين، والفرقة بين حالين، أحدهما أن يعمل به رجل من عين ماله لأهله وأصحابه وعياله، لا يجاوزن في ذلك الاجتماع على أكل

(١) هو النجم الغيطي -كما سيأتي.

الطعام، ولا يقتربون شيئاً من الآثام، وهذا الذي وصفناه بأنه بدعة مكروهة وشناعة، إذ لم يفعله أحدٌ من متقدمي أهل الطاعة الذين هم فقهاء الإسلام وعلماء الأنام، سُرج الأزمنة وزين الأمكنة، والثاني أن تدخله الجناية وتقوى به العناية حتى يعطي أحدهم الشيء ونفسه تتبعه وقلبه يؤلمه ويؤجعه، لما يجد من ألم الحيف، وقد قال العلماء: آخذُ المال بالحياء كآخذهِ بالسيف، لا سيما إن انضاف إلى ذلك الغناء من البطون المملأى بآلات الباطل كالدفوف والشبابات، واجتماع الرجال مع الأحداث والنساء الفاتنات، والرقص بالتثني والانعطاف، والاستغراق في اللهو ونسيان يوم المخاف، وكذلك النساء إذا اجتمعن على انفرادهن رافعات أصواتهن بالتهتُّ والتطريب في الإنشاد، والخروج في التلاوة والذكر المشروع والأمر المعتاد، غافلات عن قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ١٤]، وهذا هو الذي لا يختلف في تحريمه إنسان، ولا يستحسنه ذوو المروءة والفتيان، وإنما يحلو ذلك بنفوس موتى القلوب وغير المستقلين من الآثام والذنوب، وأزيدك أنهم يرونه من العبادات، لا من الأمور المنكرات المحرمات، فإنَّا لله وإنا إليه راجعون «بدأ الإسلام غريباً وسيعود كما بدأ»، ولقد أحسن الإمام أبو عمرو بن العلاء حيث يقول: «لا يزال الناس بخير ما تُعْجَبَ مِنْ العجب»، هذا مع أن الشهر الذي وُلِدَ فيه ﷺ، وهو ربيع الأول هو بعينه الشهر الذي توفي فيه، فليس الفرح فيه بأولى من الحزن فيه، وهذا ما علينا أن نقول، ومن الله تعالى حُسْنُ القبول.

وتعقبه العلامة الجلال السيوطي مؤلف هذا الكتاب في فتاويه، فقال: أما قوله: لا أعلم لهذا المولد أصلاً في كتابٍ ولا سنة؛ فيقال عليه: نفْيُ العلم لا يلزم منه نفْيُ الوجود، وقد استخرج له العلامة ابن حجر العسقلاني رحمه الله أصلاً من السنة، وهو ما ثبت في الصحيحين من «أن النبي ﷺ قدم المدينة فوجد اليهود يصومون يوم عاشوراء فسألهم، فقالوا: هذا يوم أغرق الله فيه فرعون ونجَّى موسى، فنحن نصومه

شكرًا لله تعالى، فقال: أنا أحق بموسى منكم»^(١) فصامه وأمر بصيامه، قال: فيستفاد منه فعل الشكر لله تعالى على ما من به في يوم معين من إسداء نعمة أو دفع نقمة، ويعاد ذلك في نظير ذلك اليوم من كل سنة، والشكر لله تعالى يحصل بأنواع العبادات، كالسجود والصيام والتلاوة، وأي نعمة أعظم من النعمة ببروز هذا النبي نبي الرحمة ﷺ في ذلك اليوم، وعلى هذا فينبغي أن يتحرى الوقت بعينه، فإن كان وُلد ليلاً فليقع الشكر بما يناسب الليل كالإطعام، وإن كان وُلد نهاراً (وهو الأصح) فما يناسبه كالصيام والصدقة، ولا بد أن يكون ذلك اليوم بعينه من عدد أيام ذلك الشهر بعينه حتى يطابق قصة موسى عليه الصلاة والسلام في يوم عاشوراء. ومن لم يلاحظ ذلك لا يبالي بعمل المولد في أي يوم من الشهر، بل توسّع قومٌ فنقلوه إلى يوم من السنة، وفيه ما فيه، وينبغي أن يقتصر فيه على ما يُفهم الشكر لله تعالى من نحو ما ذكروا، أما السماع واللهو وغيرهما، فما كان مباحاً لعين السرور بذلك اليوم، فلا بأس به، وما كان حراماً أو مكروهاً فيُمنع، وكذا ما كان خلاف الأولى. اهـ.

فُيْفهم من ذلك: أن أصل ابتداء عمل المولد الشريف مبني على قاعدة الشكر، وعلى النعمة بإيجاد الذات المحمدية، الواسطة في خيري الدنيا والآخرة، فلهذا خالفت هذه السُّنة الحسنة اتخاذ يوم عاشوراء مأتماً ومظهراً للحزن كما يفعله بعض الأعاجم، لأجل قتل الحسين بن الإمام علي رضي الله تعالى عنهما، فكانت هذه من البدع السيئة، ومن عمل - ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٤]؛ إذ لم يأمر الله سبحانه ولا رسوله ﷺ باتخاذ أيام مصائب الأنبياء وموتهم مأتماً، فكيف بمن دونهم؟! والقاص الذي يذكر للناس قصة القتل يوم عاشوراء، ويخرق ثوبه ويكشف رأسه ويأمرهم بالقيام والتشيع تأسفاً على المصيبة يجب أن يُمنع، والمستمعون له لا يُعذرون في الاستماع.

(١) وفي رواية لأحمد وابن ماجة والبخاري ومسلم: «نحن أحق بموسى منكم».

قال الإمام الغزالي وغيره: «يحرم على الواعظ وغيره رواية مقتل الحسين رضي الله عنه، وحكاية ما جرى بين الصحابة من التشاجر والتخاصم، فإنه يهيج على بغض الصحابة والظعن فيهم، وهم أعلام الدين الذين تلقى عنهم أئمة الدين، وتلقينا عنهم، والطاعن فيهم طاعن في نسبه ودينه».

وقال الإمام الشافعي وجماعة من السلف: «تلك دماء طهر الله منها أيدينا، فلنطهر منها ألسنتنا»^(١). انتهى.

فليس لاتخاذ يوم عاشوراء مأتماً مستنداً يتخرج عليه، بخلاف المولد الشريف، فقد فهمت مستنده، بل هو متعدد، فقد قال الحافظ الجلال السيوطي رحمه الله: «وقد ظهر لي تخريجه (يعني عمل المولد) على أصل آخر (يعني غير ما ذكره الحافظ ابن حجر) وهو ما أخرجه البيهقي عن أنس أن النبي ﷺ عَقَّ عن نفسه بعد النبوة مع أنه قد ورد أن جده عبد المطلب عَقَّ عنه في سابع ولادته، والعقيقة لا تعاد مرة ثانية، فيحمل ذلك على أن هذا الذي فعله النبي ﷺ إظهار للشكر على إيجاد الله إياه رحمةً للعالمين، وتشريعاً لأئمة، كما كان يصلي على نفسه لذلك، فيستحب لنا أيضاً إظهار الشكر بمولده بالاجتماع وإطعام الطعام ونحو ذلك من وجوه القربات وإظهار المسرات». انتهى.

قال شيخ مشايخنا النجم الغيطي رحمه الله: «وما ذكره الحافظ ابن حجر من التخريج أنسب وأظهر مما ذكره الحافظ الجلال، كما هو الظاهر؛ لأن فعل صوم عاشوراء يتكرر كل عام، وهو في وقت معين، فكان عمل المولد المذكور مثله، بخلاف العقيقة فإنها لا تتكرر، وليست مختصة بوقت معين، ولا تتقدم عليه ولا تتأخر، ولأن ما فعله جده عبد المطلب من العقيقة لم يقع عنه؛ لأن ذلك كان قبل الشرع، فلا يتعلق به حكم، والعقيقة التي فعلها النبي ﷺ عنه بعد النبوة (على تقدير صحتها) كانت

(١) وقال ذلك عمر بن عبد العزيز رحمه الله.

بعد الشرع، فهي المشروعة والواقعة عنه؛ لأنه بعد ولادته لم يقع عنه عقيقة مشروعة، وقد قال أئمتنا: إن من بلغ ولم يُعَقَّ عنه فَحَسُنَ أَنْ يُعَقَّ عن نفسه، على أن ما ورد من أنه ﷺ عَقَّ عن نفسه بعد النبوة حديث منكر، كما قاله ابن حجر وغيره، بل قال النووي في شرحه المذهب: إنه حديث باطل، فعليه يسقط التخريج المذكور أيضًا بالأولى، والله سبحانه وتعالى أعلم.

قلت: وما ذكره النجم من أن العقيقة لا تتكرر، إنما هو للمولود الواحد، أما إذا تعدد فإنها تتعدد أيضًا كما هو مذهبنا، وما ذكره أيضًا من أنها ليست مختصة بوقت معين، فليس مذهبنا، بل المذهب أنها مختصة به، فتكون في سابع الولادة لا قبله اتفاقًا، ولا بعده، فإن فات فاتت على المشهور، كما علمته آنفًا.

قال الجلال: وأما قول الفاكهاني «بل هو بدعة أحدثها البطالون إلخ» يقال عليه: إنه أُحْدِثَ مِنْ غير نكيرٍ منهم، وارتضاه ابن دحية، وصنَّفَ من أجله كتابًا، فهو لاء علماء متدينون رضوه وأقرّوه، ولم يُنكروه.

وقوله «ولا مندوبًا لأن حقيقة المندوب ما طلبه الشرع» يقال عليه: إن الطلب في المندوب تارة يكون بالنص، وتارة يكون بالقياس، وهذا وإن لم يرد فيه نص ففيه القياس على الأصلين، يعني السابقين في التخريج، وقد علمتهما، وقوله «ولا جائز أن يكون مباحًا؛ لأن الابتداع في الدين ليس مباحًا بإجماع المسلمين» كلام غير مستقيم؛ لأن البدعة لم تنحصر في الحرام والمكروه، بل قد تكون أيضًا مباحة ومندوبة وواجبة اهـ.

وحاصل القول في البدعة أنها لغة: ما كان مخترعًا على غير مثال سابق، وشرعًا: ما أُحْدِثَ على خلاف أمر الشارع ودليله الخاص أو العام، بل يكون الحامل عليه مجرد الشهوة والإرادة، أما ما أُحْدِثَ مما له أصل في الشرع إما بحمل النظر على النظر، أو بغير ذلك، فإنه حَسَنٌ؛ إذ هو سنة الخلفاء الراشدين والأئمة المهتدين، ومن ثمَّ قال

عمر - رضي الله عنه - في التراويح: «نِعِمَّت البدعةُ هي»^(١) وليس ذلك مذموماً بمجرد لفظ محدث أو بدعة؛ فإن القرآن باعتبار لفظه وإنزاله وُصِفَ بالمحدث أول سورة الأنبياء^(٢)، وإنما منشأ الذم ما اقترن به من مخالفة السُّنة ودعايته إلى الضلالة.

والبدعة من حيث هي منقسمة إلى خمسة أقسام:

واجب: وهو ما تناولته قواعدُ الوجوب وأدلته من الشرع، كتدوين القرآن والشرائع إذا خيف عليها الضياع؛ فإن التبليغ لمن بعدنا من القرون واجب إجماعاً، وإهمال ذلك حرام إجماعاً، زاد بعض المتأخرين: ومن البدع الواجبة على الكفاية الاشتغال بالعلوم العربية المتوقف عليها فهمُ الكتاب والسنة، كالنحو والصرف والمعاني والبيان واللغة، بخلاف العروض والقوافي ونحوهما، وكالجرح والتعديل، وتمييز صحيح الأحاديث من سقيمها، وتدوين نحو الفقه وأصوله وآلاته، والرد على نحو القدريّة والجبرية والمرجئة والمجسّمة؛ لأن حفظ الشريعة فرض كفاية فيما زاد على المتعين، كما دلّت عليه القواعد الشرعية، ولا يتأتّى حفظها إلا بذلك، وما لا يتم الواجب المطلق إلا به فهو واجب.

وحرام: وهو كل بدعة تناولتها قواعد التحريم وأدلته من الشريعة، كالمحدثات من المظالم التي اخترعتها الأهواء بغياً، ولا ينبغي أن تلبس هذه البدع بالحقوق التي تقرّرها الحكام على الرعايا بمقتضيات الأحوال عند تعطيل أموال الزكاة لإقامة شعائر الممالك. زاد بعضهم من البدع المحرمة: الاشتغال بمذاهب سائر أهل البدع المخالفة لما عليه أهل السنة والجماعة.

ومندوب إليه: وهو ما تناولته قواعد النّدب وأدلته كصلاة التراويح، وإقامة أبهة الأئمة والقضاة والحكام، على خلاف ما كان عليه الصحابة رضوان الله عليهم، بسبب أن

(١) كان الصحابة يُصلّون التراويح متفرقين، كل جماعة اتخذوا لهم إماماً يُصلّي بهم، فقال: «أراهم اتخذوا القرآن مغاني، والله لأجمعنهم على إمام واحد»، فلما جمعهم ورأهم قال ذلك.

(٢) قوله تعالى: ﴿ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ تُحَدِّثُ إِلَّا أَسْتَمِعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢].

المصالح والمقاصد الشرعية لا تحصل إلا بعظمة الولاية في نفوس الناس، وكان تعظيم الناس في زمن الصحابة رضوان الله عليهم إنما هو بالدين وسابق الهجرة، ثم اختل النظام وذهب ذلك القرن، وحدثت قرون أُخر، لا يعظمون إلا بالصور، فتعَيَّن تفخيمُ الصور حتى تحصل المصالح، وقد كان عمر رضي الله عنه يأكل خبز الشعير والملح، ويفرض لعامله نصف شاة في كل يوم، لعلمه بأن الحالة التي هو عليها لو عملها غيره لهان في نفوس الناس، ولم يحترموه، وتجاسروا عليه بالمخالفة؛ فاحتاج إلى أن يضع غيره في صورة أخرى لحفظ النظام، ولذلك لما قدم الشام ووجد معاوية بن أبي سفيان قد اتخذ الحجاب وأرخي الحجاب، واتخذ المراكب النفيسة والثياب الهائلة العلية، وسلك ما يسلكه الملوك، سأله عن ذلك، فقال له: إنا بأرض نحن فيها محتاجون لهذا، فقال له: «لا أمرك ولا أنهاك»، ومعناه أنت أعلم بحالك، هل أنت محتاج إلى هذا، فيكون حسنًا أو غير محتاج إليه فلا يسوغ لك التخلُّق به. فدلَّ ذلك من عمر رضي الله عنه وغيره على أن أحوال الأئمة وولاية الأمور تختلف باختلاف الأمصار والأعصار والقرون والأحوال، فكذاك يحتاجون إلى تجديد زخارف وسياسات لم تكن قديمًا، وربما وجبت في بعض الأحوال. زاد بعض المتأخرين: ومن البدع المندوبة إحداثُ نحو الرُّبَط والمدارس، وكل إحسان لم يُعْهَد في العصر الأول، والكلام على دقائق التصوُّف والجدل، وجمع المحافل، والاستدلال في المسائل العلمية إن قصد بذلك وجه الله تعالى.

ومكروه: وهو ما تناولته أدلة الكراهة من الشريعة وقواعدها، كتخصيص الأيام الفاضلة أو غيرها بنوعٍ من العبادة، وكذلك في الصحيح^(*) خرَّجه مسلم وغيره أن رسول الله ﷺ نهى عن تخصيص يوم الجمعة بصيام أو ليلتها بقيام، ومن هذا الباب الزيادة في المندوبات المحدودات، كما ورد في التسبيح عقب الفريضة ثلاثاً وثلاثين،

(*) أي الحديث صحيح.

فيفعل مائة، وورد صاع في زكاة الفطر فيجعله عشرة أضوْع، بسبب أن الزيادة فيها إظهار الاستظهار على الشارع، وقلة أدب معه^(١)، بل شأن العظماء إذا حدّوا شيئاً وقّف عنده وعُدَّ الخروج عنه قلة أدب، والزيادة في الواجب أو عليه أشد في المنع؛ لأنه يؤدي إلى أن يُعتقد أن الواجب هو الأصل والمزيد عليه، ولذلك نهى مالك رحمه الله عن اتصال صيام ستة أيام من شوال برمضان، لئلا يُعتقد أنها من رمضان^(٢).

وخرَجَ أبو داود أنَّ رجلاً دخل إلى مسجد رسول الله ﷺ فصلّى الفرض، وقام ليصلي ركعتين، فقال له عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «اجلس حتى تفصل بين فرضك ونفلك؛ فبذا هلك من كان قبلنا» فقال له رسول الله ﷺ: «أصاب الله بك يا ابن الخطاب»^(٣). يريد عمر أنَّ مَنْ قبلنا وصلوا النوافل بالفرائض فاعتقدوا الجميع واجباً، وذلك تغيير للشرائع، وهو حرامٌ إجماعاً. زاد بعضهم: ومن البدع المكروهة زخرفة المساجد وتزويق المصاحف. انتهى^(٤).

ولكن قياساً على ما ذكره القليوبي من أن الاحتفال بالجنائز كان بدعة، ثم بعد أن دل على التعظيم صار مقبولاً، فلا مانع أن يقاس عليه زخرفة المساجد والمصاحف،

(١) لأن الشارع كريم ورحيم، فكأن الفاعل لذلك يقول بلسان حاله: أنا أكرم من الله. تعالى الله عن ذلك، وكذلك في كل ما حدّده الشارع: لا تجوز الزيادة فيه ولا النقصان عنه، لأنه ورد بنص صريح، والله تعالى أرحم عباده من أنفسهم.

(٢) وفي الحديث: «باب المناهي من الفتح الكبير في ضم الزيادة إلى الجامع الصغير» نهى - أي رسول الله ﷺ - عن صيام يوم قبل رمضان؛ والأضحى؛ والفطر؛ وأيام التشريق» رواه البيهقي عن أبي هريرة، وفي حديث آخر: «نهى عن صوم يوم الفطر والنحر» رواه البخاري ومسلم عن عمر، وأبي سعيد. وروى الأربعة «إذا كان النصف من شعبان فلا صوم حتى رمضان، ومن مثل هذا نعرف أن أصحاب المذاهب لم يأتوا من عندهم بشيء، وإنما كله مأخوذ من السنة الشريفة، وأنه لا رأي لأحد منهم في دين الله، وإنما علينا نحن أن ننقب ونبحث، ولا نتهم أحداً منهم بريئة، كيف وهم السادة الذين شرفهم الله بحفظ دينه ورسالة نبيه ﷺ؟!»

(٣) رواه أبو داود، والطبراني، والحاكم عن أبي رمة.

(٤) بل هي من علامات الساعة إذا كانت للمباهاة، كما قال عليه الصلاة والسلام: «لا تقوم الساعة حتى يتباهى الناس في المساجد» رواه الإمام أحمد، وأبو داود، وابن ماجه، والدارمي، وأبو يعلى، وابن حبان، والطبراني، والضياء المقدسي والبيهقي.

والمَدَار على النية وتحكيم الأحوال.

واعلم أنَّ حكمنا على الزائد على التسبيح بالكراهة إنما هو من حيث زيادته، فلا ينافي قول النووي وغيره إنه يثاب عليه، يعني من حيث أنه ذكر، والله أعلم.

ومباح: وهو ما تناولته الإباحة وقواعدها من الشريعة؛ كاتخاذ المناخل للدقيق، ففي الآثار «أول شيء أحدثه الناس بعد رسول الله ﷺ اتخاذ المناخل» لأن لين العيش وإصلاحه من المباحات، فوسائله مباحة، زاد بعضهم: ومن البدع المباحة التوسع في لذيذ المآكل والمشارب والملابس وتوسيع الأكمام، وبما تقرر علم أن قوله ﷺ «إياكم ومحدثات الأمور» عامٌ أريد به خاص؛ إذ سُنَّة الخلفاء الراشدين منها، مع أننا أمرنا باتباعها لرجوعها إلى أصل شرعي^(١).

قال بعض المتأخرين: وكذلك سنتهم عامٌ أريد به خاص، إذ لو فرض خليفة راشد في عامة أمره سنَّ سُنَّة لا يعضدها دليل شرعي، امتنع اتباعها، ولا ينافي ذلك رشده؛ لأنه قد يخطئ المصيب ويزيغ المستقيم^(٢) يوماً ما، ففي الحديث: «لا حليم إلا ذو عشرة ولا حكيم إلا ذو تجربة»^(٣).

ولنا قاعدة، وهي: كل حكم أجازه الشارع أو منعه وأمكن ردُّه إلى أحدهما فهو واضح، فإن أجازه مرةً ومنعه أخرى: فالثاني ناسخ للأول، وإن لم يرد عنه إجازته ولا منعه ولا أمكن ردُّهما إليه بوجه: ففيه الخلاف قبل ورود الشرع، والأصح أن لا حكم فلا تكليف فيه بشيء، وقيل: يُرجع فيه إلى المصلحة والسياسة، فما وافقهما منه: أخذ به، وما لا: ترك، كذا قال بعض المتأخرين، ولا شك في حسنه.

(١) قال عليه الصلاة والسلام: «الزموا سنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي» رواه ابن عبد البر في كتابه: جامع بيان العلم وفضله ص ٤٨٤، فأنت بهذا مأمور بما فعله أصحاب رسول الله ﷺ، لا خيار لك في تركه.

(٢) لكنهم لم يستنوا شيئاً يخالف رسول الله ﷺ، وكيف وقد وصفهم الله تبارك وتعالى بقوله: ﴿قَالُوا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ وَتَأْتِي السُّحُبُ مُجْذُوِبَةً وَأَصْحَابُ الْآيَاتِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، وعلى هذا فكلام بعض المتأخرين هذا ساقط ونسأل الله السلامة والعافية.

(٣) رواه الإمام أحمد والترمذي وابن حبان والحاكم عن أبي سعيد.

وقد تكلم الإمام أبو عبد الله بن الحاج في كتابه «المدخل» على عمل المولد، فأتقن الكلام فيه جداً، وحاصله: مدح ما كان فيه من إظهار شعار وشكر، وذم ما احتوى عليه من محرمات ومنكرات.

وقال الحافظ: «أصل عمل المولد بدعة، لم ينقل عن أحد السلف الصالح من القرون الثلاثة، ولكنها مع ذلك قد اشتملت على محاسن وضدّها، فمن تحرّى في عمله المحاسن وتجنب ضدّها كان بدعة حسنة، ومن لا فلا».

وقال العلامة صدر الدين موهوب بن عمر الجزري الشافعي: «هذه بدعة لا بأس بها، ولا تُكره البدع إلا إذا راغمت^(١) السنة، وأما إذا لم تراغمها فلا تُكره، ويثاب الإنسان بحسب قصده في إظهار السرور والفرح بمولد النبي ﷺ». وقال في موضع آخر: «هذه بدعة لا بأس بها، ولكن لا يجوز له أن يسأل الناس، بل إن كان يعلم أو يغلب على ظنه أن نفس المسؤول تطيب بما يعطيه فالسؤال لذلك مباح، أرجو ألاّ ينتهي إلى حد الكراهة».

وقال العلامة نصير الدين المبارك الشهير بابن الطَّبَّاح: «ليس هذا من السنن، ولكن إذا أنفق المنفق في هذا اليوم أو تلك الليلة، وأظهر السرور فرحاً بمولده ﷺ ودخوله في الوجود، وجمع جمعاً أطعمهم ما يجوز، واتخذ السماع الخالي عن اجتماع الأحداث، وإنشاد ما يثير نار الشهوة من العشقيات والمشوّقات للشهوات الدنيوية، كالقد والخد والعين والحاجب، وأنشد ما يشوق إلى الآخرة ويزهد في الدنيا، ودفع للمُسمّع ملبوساً، فهذا اجتماع حسنٌ جائز يثاب قاصد ذلك وفاعله عليه إذا أحسن القصد، ولا يختص ذلك بالفقراء دون الأغنياء إلا أن يُقصد مواساة الأحوج، فالفقراء أكثر ثواباً، إلا أن سؤال الناس ما في أيديهم لذلك فقط بدون ضرورة وحاجة مكروه، واجتماع الصلحاء فقط ليأكلوا ذلك الطعام، ويذكروا الله تعالى، ويصلّوا على رسوله ﷺ يضاعف القُرْبَات

(١) راغم فلاناً: أي هجره وعاداه.

والمشوبات، أما إذا كان الاجتماع مما يُنهي عنه شرعاً فإنه مجمع آثام».

وقال الحافظ أبو الخير في فتاويه: «عَمَلُ المولد الشريف لم ينقل عن أحد من السلف الصالح في القرون الثلاثة الفاضلة، وإنما حدث بعد، ثم لا زال أهل الإسلام في سائر الأقطار والمدن الكبار يحتفلون في شهر مولده ﷺ بعمل الولائم البديعة المشتملة على الأمور البهيجة الرفيعة، ويتصدقون في ليلته بأنواع الصدقات، ويظهرون السرور ويزيدون في المبرات، ويعتنون بقراءة مولده الكريم، ويظهر عليهم من بركاته كل فضل عظيم. اهـ.

وقال العلامة أبو الخير ابن الجزري المقرئ: «من خواصه أنه أمان في ذلك العام، وبشرى عاجلة بنيل البُغية والمرام، ولو لم يكن في ذلك إلا إرغام الشيطان وسرور أهل الإيمان لكفى، وإذا كان قوم عيسى اتخذوا ليلة مولده عيداً أكبر؛ فكذلك أهل الإسلام أولى بالتكريم وأجدر. وأكثر الناس عنايةً بذلك أهل مكة المشرفة، ثم أهل المدينة المنورة، ثم أهل مصر في السنين المتقدمة والمتأخرة، ثم غيرهم، تقبّل الله عملهم.

وأول من فعل ذلك بالموصل الشيخ عمر بن محمد الملا أحد الصالحين المشهورين به، وبه اقتدى في ذلك السلطان الملك المظفر صاحب «إربل» في الجامع المظفري الذي للحنابلة بصالحية دمشق («وإربل» مدينة بقلعة على مرحلتين من الموصل)، فكان يعمل المولد الشريف في ربيع الأول، ويحتفل به احتفالاً هائلاً. يكثر فيه من الصدقات والمعروف وإظهار الزينة والسرور، مما يجلب عن الوصف، وإنفاقه بسببه ألوفاً من المال الطيب الحلال، وكان يحضر عنده في المولد أعيان العلماء والصوفية، فيخلع عليهم ويطلق لهم (يعني الأعطية) وكان يصرف على المولد في كل سنة ثلاثمائة ألف دينار.

ولما اجتاز الحافظ ابن دحية بإربل، ووجد ملكها المظفر يعتني بالمولد الشريف عمل له كتاب «التنوير في مولد البشير النذير» وقرأه عليه بنفسه، فأجازه على ذلك بألف دينار».

وقال الشيخ جلال الدين المعروف بالمخلص: «مولده ﷺ مجمل مكرم، قدس يوم ولادته وشرف وعظم، وكان وجوده مبدأ سبب النجاة لمن اتبعه، وتقليل حظ جهنم ممن أعد لها لفرحه بولادته ﷺ. وتمت بركاته على من اهتدى به، فشابه هذا اليوم الجمعة من حيث إن يوم الجمعة لا تُسعر فيه جهنم^(١) هكذا ورد عنه ﷺ، فمن المناسب إظهار السرور، وإنفاق الميسور.

قال العلامة الشمس ابن الجوزي في آخر كتابه «التعريف بالمولد الشريف»: «إن قيل: فلم لم تتخذ أمته ﷺ مولده عيداً كما اتخذت أمة عيسى عليه السلام ليلة مولده عيداً؟ فالجواب أنه لما كان يوم مولده ﷺ هو يوم وفاته، تكافأ السرور بالعزاء، وهذا أحسن ما خطر لي في ذلك، وقد يقال: إنه لما اختلف فيه لم يتعين، أو يقال الأعياد توقيفية، ولم يشرع غير هذين اليومين^(٢)، أو يقال سداً للذريعة، وما أشرت إليه أولاً لطف، وإلا ففي الحقيقة مولده ﷺ عيد وأي عيد، يشمل القريب من أمته والبعيد.

وبالجملة فالاعتناء بوقت مولده الشريف ﷺ، والإنشاد للمدائح النبوية والزهدية والعرفانية، وإطعام الطعام والصدقات السنية أمر حسن منيف، يثاب فاعله الثواب الجزيل، بقصده الجميل، وإن كان عمله لم يُنقل عن أحد من السلف الصالح والقرون الثلاثة الفاضلة، وإنما حدث بعدها، فلذلك كان بدعة حسنة عند من تحقق العلم وأتقنه، ثم لا زال أهل الإسلام في سائر الأقطار والمدن العظام يحتفلون في شهر مولده خصوصاً في ليلته، بعمل المولد بما ذكر، وإظهار السرور بذلك والحبور بتلك المسالك، وبعضهم يزيد على ذلك بقراءة ما صُنّف في المولد الشريف وما ورد فيه من الخير الثابت المنيف، على أنه ليس قيّداً في استحباب عمل المولد المذكور، وإنما هو لزيادة الأجور.

(١) ولفظه كما جاء في الإحياء: «إن الجحيم تسعر في كل يوم قبل الزوال عند استواء الشمس في كبد السماء، فلا تصلوا في هذه الساعة، إلا يوم الجمعة فإنه صلاة كله وإن جهنم لا تسعر فيه». رواه أبو داود.
وروى أبو داود أيضاً عن قتادة: «إن جهنم تُسجّر، إلا يوم الجمعة».

(٢) عيد الأضحى وعيد الفطر.

وقد جرت العادة أنه إذا ساق الوعّاظ والمدّاح مولده ﷺ وذكروا وضع أمّه له ﷺ: قام أكثر الناس عند ذلك تعظيمًا له ﷺ، وهذا القيام بدعة لا أصل لها، لكن لا بأس به لأجل التعظيم، بل هو فعل حسن ممن غلب عليه الحب والإجلال لذلك النبي الكريم عليه أفضل الصلاة والتسليم، وما أحسن قول الإمام أبي زكريا يحيى الصرصري الحنبلي في بعض قصائده النبوية:

قليلٌ لمدحِ المصطفى الخطُّ بالذهب على فضةٍ من خطِّ أحسن من كتب
وأن ينهض الأشرافُ عند سماعه قيامًا صفوفًا أو جثيًا على الركب
أما الله تعظيمًا له كتبَ اسمُهُ على عرشه يا رتبةً سمتِ الرتب

وقد اتفق أن منشداً أنشد هذه القصيدة في ختم درس شيخ الإسلام تقي الدين أبي الحسن عليّ بن السبكي رحمه الله، وكان القضاة والأعيان مجتمعين عنده، فلما وصل المنشد في قوله:

وأن ينهضَ الأشرافُ عند سماعه

إلى آخر البيت، قام الشيخ في الحال على قدميه امتثالاً لما ذكره الصرصري، وقام الناس كلهم وحصلت ساعة طيبة. ذكر ذلك ولده التاج السبكي في ترجمته من طبقاته. قال أبو أمانة ابن النقاش رحمه الله: ليلة مولده ﷺ أفضل من ليلة القدر من وجوه ثلاثة:

أحدها: أن ليلة المولد ليلة ظهوره ﷺ، وليلة القدر معطاة له، وما شرفَ بظهور ذات المشرف من أجله أشرف مما شرفَ بسبب ما أعطيه، ولا نزاع في ذلك، فكانت ليلة المولد بهذا الاعتبار أفضل.

الثاني: أن ليلة القدر شرفت بنزول الملائكة فيها، وليلة المولد شرفت بظهوره ﷺ فيها، ومن شرفت به ليلة المولد أفضل ممن شرفت بهم ليلة القدر على الأصح المرتضى من تفضيل الأنبياء على الملائكة، فتكون ليلة المولد أفضل.

الثالث: أن ليلة القدر وقع التفضيل فيها على أمة محمد ﷺ، وليلة المولد الشريف وقع التفضيل فيها على سائر الموجودات، فهو الذي بعثه الله رحمة للعالمين، فعمّت به النعمة على جميع الخلائق، فكانت ليلة المولد أعم نفعاً، فكانت أفضل، كذا قيل. وقوله في الوجه الأول: «ولا نزاع في ذلك» يوهم أن ما ذكر قاعدة متفق عليها، قال أستاذنا: ولا أعلم من قالها، ويمكن دفع الفساد عنها بأن المراد ما كان شرفه لإعطائه، أعني فقط، فلا يرد القرآن والنبوة والإيمان والإسلام مثلاً؛ لأن شرفها لذاتها لا لإعطائها فقط، والمراد ما كانت جهة شرفه محصورة في الإعطاء.

وقوله في الوجه الثالث: «وقع التفضيل فيها على سائر الموجودات»، أي فسأوتها وزادت عليها، والأزيد بالتفضيل فيه أزيد فضلاً من غيره. وقد يقال: إن المراد أمة الدعوة لا أمة الإجابة، وغير المكلفين لا نظر إليهم لا إعطاءً ولا منعاً لتعذر ظهور الثمرة فيهم.

واعلم أن المراد من ليلة المولد خصوص تلك الليلة مع خصوص ليلة القدر التي نزل فيها القرآن.

وأما النظائر فينبغي أن نظائر ليلة القدر أفضل من نظائر ليلة الولادة من جميع الأعوام، ويبقى النظر في ليلة الولادة وليلة الإسراء، وينبغي على القول بأن ليلة القدر أفضل منها أن تكون ليلة المولد أفضل منها، وانظر على القول بأنها أفضل من ليلة القدر وحرّره؛ فإنني لا أعلم من سبقني إلى هذا المبحث بالخوض والتحرير: (يكفي في تفضيل ليلة المولد على ليلة الإسراء أنه لم يقع مفاضلة بينها وبين ليلة الإسراء، وإنما وقع التفضيل بين ليلة الإسراء وليلة القدر، وبين ليلة المولد وليلة القدر، حتى لو قيل بتفضيل ليلة الإسراء على ليلة القدر، لا ينتج منه فضل ليلة الإسراء على ليلة الولادة، وسيأتي في كلامه ما يؤيد ذلك في الكلام على تفضيل الليل على النهار. وسيأتي أيضاً في كلام الشيخ ما يؤيده، ثم ها هنا تنبيه وهو أنهم لم يتكلموا على ليلة حملة ﷺ بحسب

المفاضلة، مع أنها أول زمان ظهوره الخارجي، وتنبيه آخر: وهو أنهم لم يخصصوا ذلك باللحظة التي خرج فيها من الرحم، مع أنه ينبغي أن يقصر عليها لأنها لحظة الظهور، وباقي الليلة خال عنه، فحكمه حكم باقي أيام وجوده، وأما ليلة القدر فجميعها ظرفٌ لنزول القرآن وقسم الأرزاق ونزول الملائكة ومحو الذنوب وإعطاء المطلوب. وانظر على القول بأنه وُلِدَ نهاريًا، وينبغي أن تلك اللحظة أو جميع اليوم أفضل من ليلة القدر، ومن يوم ليلة القدر، وإن كان العمل في يومها كالعمل في ليلتها، فإن قلت: فما معنى أفضلية ما ذكر من الليل وغيره لكونه خُصَّ بما وجد فيه دون غيره أو في نفسه؟ وما معنى أفضليته في نفسه، والزمان لا يُفَضَّلُ بعضه على بعض؟ فقد قال إمام العلماء العز بن عبد السلام: «إن الأزمنة والأمكنة كلها متساوية، ويُفضلان بما يقع فيهما، لا بصفات قائمة بهما ويرجع تفضليهما إلى ما ينيل الله العبادَ فيهما، وإن التفضيل الذي فيهما أن الله وجود على عباده بتفضيل أجر العاملين فيهما» قلت: بل الأزمنة والأمكنة يفضل بعضها على بعض بتفضيل الله تعالى، ولا مانع أن يخص الله تعالى بعض مخلوقاته من زمان أو مكان بفضل ليس في الآخر، كما خصَّ الله بعض الآدميين والملائكة.

وقال الإمام تقي الدين السبكي عقب حكايته لكلام ابن عبد السلام:

«وأنا أقول: قد يكون التفضيل لذلك، وقد يكون لأمر آخر فيهما، وإن لم يكن عملاً؛ فإن القبر الشريف ينزل عليه من الرحمة والرضوان والملائكة، وله عند الله من المحبة ولساكنه ما تقصر العقول عن إدراكه، وليس ذلك لِمكان غيره، فكيف لا يكون أفضل الأمكنة؟ وليس محل عمل لنا، فهذا معنى غيرُ تضعيفِ الأعمال فيه. انتهى.

ولكن تفضيل الزمان والمكان إنما يظهر أثره غالبًا باعتبار ما يقع فيه، ذكره النجم الغيطي في بعض تعاليقه. انتهى.

قال الشيخ الرحماني في حاشيته على التحرير: «أفضلُ الليالي ليلة المولد، ثم ليلة القدر، ثم ليلة الإسراء، فعرفة، فالجمعة، فنصف شعبان، فالعيد. وأفضل الأيام يوم عرفة، ثم يوم نصف شعبان، ثم الجمعة، والليلُ أفضلُ من النهار».

وعلى ذكر المولد الشريف فقد ذكر الإمام العلامة عبد العزيز الزمزمي في همزته المفتوحة، التي عارض بها همزية البوصيري المضمومة التي أولها:

كيف تَرْقَى رَقِيكَ الأنبياء يا سماء ما طاولتها سماء

وهمزية القيراطي المكسورة، التي أولها:

ذكر الملتقى على الصفراء فبكاه بدمعة حمراء

ذكر الزمزمي المولد الشريف، فناسب أن نذكر من هذه القصيدة طرفاً، قال في المطلع:

أثغورُ منها الصباحُ أضاء أم بروقٌ على النقا تتراءى
إلى أن قال:

يوم ميلاده وليلة مسرا	ه ا زدهى الليل والنهار ازدهاء
وسما القدرُ منهما بفخارٍ	طبَّق الأرض سودداً والسماء
مُلِئتُ مكةً سروراً ولم	لا يملأ البشرُ قَطرَها سـراء
وهي أرضٌ بها الولادة والمَو	لودُ فيها منها ابتداء الإسـراء
كان ترداده ومرباهُ فيها	فجلا نورُ شمسهِ البطحاء
وعلا الأنسُ والوقارُ جبلاً	راسياتٍ بها خصوصاً حراء
كان مبدا ظهوره من حراءٍ	حين أنهى الخلو فيه خفاء
شُقَّ صدرٌ له هناك وشُقَّ	البدرُ، فالشرطُ كان ثم جزاء
أرضعته حليلة بلباها	فغدا الحلم وصفها والحياء
وعلا جدُّها وأُسعدَ سعدٌ	إذ سقتُ بنته النبي الغذاء
فتعجَّب لجدها ولها، كيـ	ف حكى الوصفُ منهما الأسماء
تعاطى رضاعه وهو في	كلِّ قليلٍ ينمو بذاك نماء

ما حَيَّرَ مَبْدَاهُ عُرْبَهَا الْعُرْبَاءَ
رَفَعَ اللَّفْظَ رَتْبَةً عَلِيَاءَ
أَنْ يَجَارِيَ مِنْ نَطْقِهَا الْفَصْحَاءَ

خُلُوبًا مِنْ جَزَالَةِ الْبُدُو
فَبَنَى قَوْلَهُ عَلَى حُسْنٍ وَضَعِ
أَفْصَحُ النَّاطِقِينَ بِالضَّادِ لَمَّا
إِلَى أَنْ قَالَ:

بَالُغٌ فِيهِ: أَخْرَسَ الْبَلْغَاءَ
«فَاتِحَةً» الْأَمْرَ فَامْتَلَتْ شَحْنَاءَ
«آلِ عَمْرَانَ»، قَوْمَهُمْ وَ«النِّسَاءَ»
أَسَّ تَحَاكِي «أَنْعَامَهُمْ» وَالشَّاءَ
السَّيْفُ «أَنْفَالَهُمْ» لَهُ وَالدِّمَاءَ
رَبَهَا «يُونُسُ» الْغَرِيقَ النَّجَاءَ
تَحْكِيهِ مَعَ الشَّيْبِ مَنْظَرًا وَبِهَاءَ
فَرَقًا مِنْهُ، فَانْتَنُوا أَصْدُقَاءَ
أَهِيمَ فِي «الْحَجَرِ» وَالْمَقَامَ الدَّعَاءَ
لَمْ يَضِرْ مَنْ أَرَادَ مِنْهُ اجْتِنَاءَ
صَرَفَ السُّوءَ عَنْهُ وَالْفَحْشَاءَ
نَعَمَ «كَهْفًا» مِنْهُ لَنَا وَإِوَاءَ
سَادَ عَيْسَى وَالرَّسْلَ وَ«الْأَنْبِيَاءَ»
«النُّورُ» إِذْ تَمَّ نَوْرُهُم وَالضِّيَاءَ
جَمَعَهُ اللَّفْظَ حَيَّرَ «الشَّعْرَاءَ»
«قَصَصُ» فِيهِ أَسَكَّتِ الْخُطْبَاءَ
نَسَجَهَا «الْعَنْكَبُوتُ» مِنْهُمْ وَقَاءَ

جَاءَ فِي مُحْكَمِ الْكِتَابِ مَدِيحُ
حَسَدَتِهِ أَهْلُ الْكِتَابِينَ مِنْ
«بَقَرَتُ» عَنْ جُحُودٍ مِنْ سَادَ قَدَمًا
فَعَدْتُ بِالضُّلَالِ «مَائِدَةً» الرِّ
أَنْكَرْتَهُ «أَعْرَأْفُهُمْ» فَأَبَاحَ
مِنْهُ نَلْنَا «بِرَاءَةً» مِنْ لَطَى النَّا
شَيْبَتِهِ «هُودُ» وَ«يُوسُفُ»
خَفَقَ «الرَّعْدُ» فِي قُلُوبِ الْأَعَادِي
أَظْهَرَ الْمُصْطَفَى إِلَى دِينِ «إِبْرَ
إِنْ يَلَاقِي أَدَى «فَلِلنَّحْلِ» لَسْعُ
هَمَّ قَوْمٌ بِهِ «فَسَبْحَانُ» مَوْلَى
لَمْ نَخَفْ قَطُّ إِذْ أُوَيْنَا إِلَيْهِ
إِنْ تَسُدُّ «مَرْيَمُ» بَعِيسَى، «فَطَهَ»
شَرَعَ «الْحَجَّ» فَاجْتَلَى «الْمُؤْمِنُونَ»
قَامَ يَتْلُو «الْفِرْقَانُ» فِي حُسْنِ نَظْمٍ
نَطَقَ «النَّمْلُ» مُفْصِحًا عَنْ مَعَانِي
قَصَدَ الْمُصْطَفَى الْعِدَا فَكَسَتْهُ

غلب «الروم» فارسًا مثل ما قا
 حَكَمَ تَـهَاهَ فَهَمُ «لقمن» عنها
 أوجب الشكر «سجدة» في المصلى
 صَيَّرَتهُم أَيْـدي «سبأ» نفخةً من
 حاط «يـسس» بالملائكة «الصا
 صادهم «نصره» وأهلك منهم
 أفسدت ذات بينهم حيلة المؤ
 أجملَ المخبرُ القضية لكن
 حيلة بُيِّتَتْ من الليل «شورى»
 أضمرت نـارها بغير «دخان»
 أكفأت في القدور «جاثية»
 فكفاهُ القتـالَ رَبُّ البرايا
 لَيْتَ شعري أرى له «حجرات»
 كل «قاف» سبيله ليس يخشى
 «طور» مرقاه قاب قوسين يهوي
 طاعةً في السماء له «القمر» انشقَّ
 قد حباه «الرحمن» في هذه «الوا
 «بالحديد» اقتضت «مجادلة» القو
 أحكم الرعب «حشرهم» في حصون
 يَفْـدُمُ «الصف» إن أتى الرجف
 خادعته «المنافقون» فصاروا

ل وحاشاه أن يقول الخطاء
 عندما فات سِرُّها الحكماء
 حين سَيِّلُ «الأحزاب» صار جفاء
 «فاطر» العالمين جلَّ ثناء
 فات» ممن أَرادَه الأسواء
 «زمرًا» أظهرُوا له البغضاء
 من فيهم فخالفُوا الخلفاء
 «فُصِّلَتْ» حين أظهروا الأنبياء
 زادها زخرف» الحديث انطلاء
 زَعَزَعَ تملأ المَعَى أقذاء
 الأحقاف» ريح تكافئ الأكفاء
 ثم «بالفتح» بعد ذلك جاء
 خلفها حرَّم الإله النداء
 «ذاريات» الضلال والأهواء
 دونه «النجم» لو أراد ارتقاء
 لنصفين ثم عـاد سـواء
 قعة» السؤل منه والإرضاء
 ل له أن يجالـد الأعـداء
 حُكْمُ الامتـحان فيه الجلاء
 و«الجمعة» ثَبَّتَا أعْظَمَ به إتياء
 في نهار «التغابن» الأشقياء

حين بَتَّ «الطلاق» من زهرة الد
ما ارتضى «الملك» بل تواضع حتى
ترفع «الحافة» المعارج إذ نو
آمن الجن بالنبي وألقوا
سوف يأتي مدثرًا بالمزايا
نال هذا الإنسان كلَّ كمال
نبأ جاءه عظيم، رمى الأعـ
عبس المقتفى العمى منه لما
كُتِبَتْ عَصَبَةُ النَّفْسِ اق به
طففوا كيلهم له فغدا الويل
فرعوا لانشقاق إيوان كسرى
استعذ بالنبي من طارق الليل
هديه كم أزال غاشيةً عن
كسيت منه هذه البلد الأنـ
للحبيب: الإله بالليل آلى
رفع الله ذكره في ألم نشرح
فتمنى مناله جبل التين
علق منه برفع القدر ممن
زلزلت من خيوله الأرض لما
كم بدت من سطاه قارعة في
طيب العصر ذكره والعدا كم

نيا بتحريمها استتمّ التقاء
خال ذا النون قد حكاه اعتلاء
ح ينادي نفسي ويغدو «براء»
لاستماع «المزمّل» الإصغاء
وتميز القيامة الإيتاء
نشرت مرسلاته الآلاء
دءاء في النَّازِعَات والبغضاء
كوّرت شمس نوره إطفاء
وانفطرت وانتكت أشد انتكاء
غدا للطامعين جزاء
والبروج التي أشيدت بناء
وسبّح لربك الأسماء
ذي ضلال والفجرُ يجلو الغشاء
ار والشمس توضّح البطحاء
والضحى، ما نوى له بغضاء
وأعلى به مكان حراء
وطور الكليم من سيناء
لم يكن قط يعرف استعلاء
مِلّت عادياتها الأرجاء
من حباه التكاثر الإلهاء
هُمَزَة باغتيالهم مشاء

رَدَّت الطيرُ عن أقاربه الفيلَ
أودع الله سرَّه في قريش
أرأيت الذي يكذب في تفضليهم
كوثر المصطفى غدا وردهم إذ
جاءه النصر والفتوح فتبت
نور إخلاصنا بخير البرايا
بك صرنا يا خاتم الرسل
إلى أن قال:

فاز بالرفع مفلق لك وشي
وبخفض الجانب جُوزي منشي
جئت من بعد ذا وذاك أخيرًا
ركضت حلبة السباق فكانا
لهمما تاليًا أتيت وإن لم
وبفكري في بحر شعرهما غص
بهما قد شرفت إذ صرت اسمًا
أمنّا أن يعززا منذ حين
فهما النيران ما خال طرف
بعدد لونيتهما رميت بدلوي
وبزعمي زاحمت هذين أبغي
سعدا فارتجيت أسعد لما
حركات الهجاء عكس لسعدي

(كيف ترقى) وأفحم الشعراء
(ذكر الملتقي) جزاء وفاء
فلهذا نظمي على الفتح جاء
سابقها وخلفا الأكفاء
أك مَمَّن يرى لذاك كفاء
ت وإن كان الغوص ليس سواء
ثالث اثنين أعجز النظرَاء
بمثيل تفردًا واعتلاء
لهمما ثالثًا يحل السماء
عل لي حمأة تجيء وماء
بهما اليمن، لا الريا والمرء
سرت في الأثر أفتفي السعداء
فغدا الفتح مبتدأها انتهاء

فلعلي أجازُ منك بفتحٍ
فأنلني مُناي واشمل قريضي
وأجزني على الصراطِ إذا ما
يا ملاذي إذا الموازينُ رازتُ
يا عيادي إذا تطايرتِ الصُحفُ
وبدت لي يوم الحسابِ أمورٌ
وتلوت قوائمي عندما الأو
يا أمني من خيفتي هدّ روعي
يا غيائي إذا دنا لهبُ الشمسِ
أنت لي جنةٌ هناك ودرعُ
يا عزيزَ الجنبِ دعوه عبداً
كيف عبداً العزيز عبداً يلقى
أو يخاف الظما غداً وهو منسو
إنه قارفَ الذنوبَ وأخطا
فيكَ ظني أن لا تُخيّبَ ظني
فسلامٌ عليك ثم صلاةٌ
وسلامٌ عليك ثم صلاةٌ
وعلى آلك الذين ولاهم
عُدتي عند شدتي وملاذي

حين أنهي الإنشادَ والإنشاء
بقبولٍ يكسو القريضَ السناء
صاح هو الجواز: أن لا نجا
عملي، وهو لا يوازي الهباء
يميناً ويسرةً ووراء
ضلّ عني حسابها وتناءى
صال صارث من رعدتي أشلاء
إن روعي أغرى بها العرواء^(١)
وأذكي لعابها الرمضاء
سابغٌ تنقي به اللأواء
لك في الرقّ يستحق الولاء
ذلةً أو إضاعةً أو شقاء
بّ لسقياً أليك نعمت سقاء
وبك الله عنه يمحو الخطاء
وبهذا اكتفيتِ نعمَ اكتفاء
بقضاء الفروض قامت أداء
تمنح النفس من رضاك الرضاء
من يد الكرب ينقذ الأولياء
عندما ترسل الخطوبُ البلاء

(١) العرواء بضم ففتح: قوة الحمى ومسها في أول رعدتها اهـ. (من هامش الأصل)

عقدُ ديني ودأدُهُم وهـواهُم
هم إلى جودِكَ الوسيلةُ إن رَدَّ
وعلى صحبك الجميع خصوصًا
الذي جيشَ الجيوش وقوى
الصديقُ الصديقُ أفضل من آ
ثم من بعده على مُقْتَفِيهِ^(١)
ترُجْمَانُ المحدثينَ فكم فَا
ثم مَنْ طال في بناءِ المعالي^(٢)
الحييُّ الذي استحثَّ منه أملا
وعلى المرتضى وليك وابنُ العمِّ
خيرُ صهرٍ وعاصِبٍ زَوْجَتَهُ
أصلُ رِيحَانَتِكَ^(٣) بورك أصلًا
أي سبطين قد علا بك جدًّا
خير نجليين يُنمِيَانِ لأمِّ
سادت الأمُّ في الجنان وسادا
وسلامٌ عليك ثم عليهم
وعلى عمِّك^(٤) الذي طَيَّبَ الله

منه قلبي امتلأ أتم امتلاء
ني الذنبُ دونهُ إقصاء
من حوى السبقَ وابتدا الخلفاء
عزمه يوم أمر الأمراء
من بالله ما عدا الأنبياء
سننًا ينتهي إليكَ انتماء
هـ بكشفِ فوافق الإيحاء
عندما شاد بابتنيك البناء
لُك السما مُد سماء وزاد حياء
من حاز بالخصوص الإخاء
خيرة الله: بنتك الزهراء
طابَ فرعاهُ مغرَّسًا ونماء
لهما طيب النِّماء والزكاء
أنجبتَ من كليهما الشرفاء
فأعزوا شبَّانَهَا والنساء
وعلى كل من تسجَّى الكساء^(٤)
بأنفاس رُوحه الشَّهَدَاء

(١) عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٢) عثمان بن رضي الله عنه.

(٣) هم «علي، وفاطمة، والحسن، والحسين» رضي الله عنهم أجمعين، جمعهم رسول الله ﷺ في كساء واحد، ثم قال: «اللهم إن هؤلاء أهل بيتي فطهرهم تطهيرًا». وهو حديث مشهور جدًا.

(٤) الحسن والحسين ابنا علي رضي الله عنهم.

(٥) حمزة بن عبد المطلب.

وعلى صنّوه^(١) الذي بك أَبْقَى
ولبنيه الخلافة القَعْسَاء
وسلامٌ عليكِ ثُمَّ على أَرْ
وسلامٌ عليكِ ثم صلاةٌ
بَشْدَا الْمِسْكِ يَخْتَمَانِ الثَّنَاء
ما ابْتَدَأَ مَدْحَكَ امْرُؤٌ عِنْدَ كَرْبٍ
فَأَنْجَلَى حِينَ وَافَقَ الْإِنْتِهَاء

ولما بلغ ﷺ اثنتي عشرة سنة عرض لأبي طالب شخوصٌ إلى الشام في تجارة، وكان النبي ﷺ يألفه، فسأله إخراجَه معه، فأبى عليه صيانةً له، فاغتم وبكى، فأخرجه، فرآه راهبٌ من الأبحار يقال له «بحيرا» وقد أظلمت غمامة، فقال لأبي طالب: من هذا منك؟ قال: ابن أخي، قال: «أما ترى هذه الغمامة كيف تظله وتنتقل معه؟ والله إنه لنبي كريم، وإني لأحسبه الذي بشر به عيسى عليه السلام، فإنَّ زمانه قد قرب، وينبغي أن تتحفظ به خشية أن تقتله اليهود» فردّه أبو طالب إلى مكة.

ولما جاوز سنُّ رسول الله ﷺ العشرين قال له أبو طالب: يا ابن أخي إن خديجة بنت خويلد امرأةٌ موسرة ذات تجارة عريضة، وهي محتاجةٌ إلى مثلك في أمانتك وطهارتك ووفائك، فلو كَلَّمْنَاهَا فِيك فوكلتك ببعض أمرها وتجارتهَا. فقال رسول الله ﷺ: افعل يا عَمِّ ما رأيت. فسعى أبو طالب إليها فكلَّمَهَا في توكيل النبي ﷺ ببعض تجارتها، فسارعت إلى ذلك ورغبت فيه، ووجهته إلى الشام ومعه غلام لها قيّم يقال له «ميسرة»، فلما فرغ مما توجه إليه، وقدم مكة أخبرها بميسرة بأمانته وطهارته ويمن طائره، وما يقول أهل الكتاب فيه، وما ظهر له من البركة وكثرة الأرباح وسهولة الأمور، وكانت خديجة امرأةً حازمةً عاقلةً بَرَزَةً^(٢) مرغوباً فيها لشرفها ويسارها، فدرست إلى رسول الله ﷺ من عَرَضَ عليه أن يتزوجها، فرغب في ذلك.

(١) العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه.

(٢) في القاموس: امرأةٌ بَرَزَةٌ: بارزة المحاسن، أو متجاهرة، كهلة جليلة، تبرز للقوم بجلوسن إليها ويتحدثون وهي عفيفة. اهـ. (من هامش الأصل).

الفصل الثالث

في زواجه بخديجة بنت خويلد رضي الله عنها وما رزقه الله من الذرية منها

ولما كانت خديجة رضي الله تعالى عنها رئيسة شريفة، وهي يومئذ من أزكى قریش نسباً وأعظمهم شرفاً وأكثرهم مالاً، كان كلُّ من قومها حريصاً على الزواج بها لو يقدر عليه، إلا أنها اجتمعت به ﷺ وقالت له: «يا ابن العم، إني قد رغبت فيك لقرابتي منك وشرفك في قومك وأمانتك فيهم وحسن خُلُقك وصدق حديثك، فاخطبني من عمي عمرو بن أسد (وكان شيخاً كبيراً). فذكر ﷺ ذلك لأعمامه، فخرج معه حمزة بن عبد المطلب حتى دخل على عمرو بن أسد فخطبها إليه، فقبل، فأمرت بشاة فذبحت واتخذت طعاماً ودعت عمَّها عمرًا، وبعثت إلى رسول الله ﷺ فأتى ومعه حمزة بن عبد المطلب وأبو طالب، ورؤساء مضر، فأكلوا، فخطب أبو طالب فقال: «الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم، وزرع إسماعيل، وضئضئ (أي أصل) معد، وعنصر مضر، وجعلنا حصنة بيته وشوكة حرمة، وجعل لنا بيتاً محفوظاً وحرماً آمناً، وجعلنا الحكام على الناس، ثم إن ابن أخي هذا محمد بن عبد الله لا يوزن به رجل إلا رَجَحَ، وإن كان في المال قلٌّ، فالمال ظلٌّ زائل وأمر حائل، ومحمد ممن قد عرفتم قرابته، وقد خطب خديجة بنت خويلد، وبذل لها من الصداق ما آجله وعاجله كذا من مالي، وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم وخطر جليل جسيم». فتزوجها رسول الله ﷺ.

وقال في المنتقى: «فلما أتم أبو طالب خطبته تكلم ورقة بن نوفل^(١) فقال: «الحمد لله الذي جعلنا كما ذكرت، وفضلنا على ما عدت، فنحن سادة العرب وقادتها، وأنتم أهل ذلك كله، لا تنكر العشيرة فضلكم، ولا يُرَدُّ أحدٌ من الناس فخركم وشرفكم، وقد رغبت في الاتصال بحبلكم وشرفكم فاشهدوا عليّ معاشر قريش، بأنّي قد زوجتُ خديجة بنت خويلد من محمد بن عبد الله على أربعمئة دينار».

ثم سكت ورقة وتكلّم أبو طالب، وقال: قد أحببتُ أن يشارك عمها. فقال عمها: اشهدوا عليّ يا معشر قريش أني قد أنكحتُ محمد بن عبد الله خديجة بنت خويلد، وشهد على ذلك صناديد قريش».

وقال في السمط الثمين: «وأصدقها رسولُ الله ﷺ عشرين بكرة، ويمكن الجمع بتقديم الثمن بذلك، أو أنّ أحد الشيئين مهرٌ والآخر هدية من عمه لخديجة رضي الله تعالى عنها، أو أنه ﷺ زاد ذلك في صداقها على صداق أبي طالب، فكان الكل صداقاً اهـ.

وهذه الخطب بهذه المثابة تدل على أن قريشاً في ذلك الزمن كانت على حظ وافر من التأنس، ولها نصيب جسيم من المهابة.

ولما تزوج خديجة رسولُ الله ﷺ نحر جزوراً أو جزورين وأطعم الناس، وهي أول وليمة أولمها ﷺ.

وقال في المنتقى: «فأمرتُ خديجة جواريتها أن يَرْقُصْنَ ويضربن بالدفوف. وعاشت خديجة بعد النكاح أربعاً وعشرين سنةً وخمسة أشهر وثمانية أيام؛ خمس عشرة سنة قبل الوحي، والبقية بعده، وكانت وفاتها في السنة العاشرة من النبوة، وكان تزوّجه بها بعد قدومه من الشام بشهرين وأيام، وكان سنُّه ﷺ يومئذ نحو خمس وعشرين سنة،

(١) ورقة هذا هو الذي قال فيه رسول الله ﷺ: «لا تسبوا ورقة بن نوفل فإنني قد رأيت له جنة (أو جنتين)» رواه الحاكم وابن عساكر عن عائشة رضي الله عنها.

وسنها أربعون سنة، فكان زواجها بأشرف العرب على الإطلاق، زواج كفاءة جليلة وحُسن تراضٍ ووفاق، وولدت له ﷺ، وبقي الخلف منهما ما تكوّن منه المجد في الآفاق.

أولاده من خديجة:

ولما تزوج رسول الله ﷺ خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي قبل الإسلام، ولدت منه القاسم ابن رسول الله ﷺ، وبه كان يُكنى، وقد مشى وهو ابن ستين.

وهل يجوز أن يكنى غيره ﷺ بأبي القاسم أو لا؟ خلاف. وإليه أشار بعضهم بقوله:

في كنيةٍ بقاسمٍ خُلفٌ وقَعُ فالشافعي مطلقاً لها منعُ
ومالكٌ جوَزَ، والنَّهْيُ حُمِلُ على الحياة، والنواوي جَعَلَ
هذا هو الأقرب، أما الرافي منعٌ مَنْ سُمِّيَ محمداً، فعِ

وقد روى الشيخان عن أنس رضي الله عنه: كان رسول الله ﷺ يمشى بالبقيع، فسمع قائلاً يقول: يا أبا القاسم، فردّ رأسه^(١) إليه، فقال الرجل: يا رسول الله إني لم أعنك إنما دعوتُ فلاناً. فقال رسول الله ﷺ: «تسمُّوا باسمي ولا تكونوا بكنيتي، فإني جُعِلْتُ قاسماً أقسم بينكم»^(٢) ويكنى أيضاً بأبي إبراهيم، وأبي الأرامل، ذكره ابن

(١) في الأدب المفرد للبخاري رضي الله عنه: «عن أبي هريرة يصف رسول الله ﷺ: كَانَ رَبْعَةً، وَهُوَ إِلَى الطُّوْلِ أَقْرَبُ، شَدِيدُ الْبَيَاضِ، أَسْوَدُ شَعْرِ اللَّحْيَةِ، حَسَنُ الثَّغْرِ، أَهْدَبُ أَشْفَارِ الْعَيْنَيْنِ، بَعِيدٌ مَا بَيْنَ الْمُنْكَبَيْنِ، مُفَاضُ الْجَبِينِ، يَطَأُ بِقَدَمِهِ جَمِيعًا، لَيْسَ لَهَا أَخْمَصُ، يُقْبَلُ جَمِيعًا، وَيُذَبَّرُ جَمِيعًا، لَمْ أَرِ مِثْلَهُ قَبْلُ وَلَا بَعْدُ». فمسألة رد الرأس هذه خطأ، وإنما يلتفت بجسمه الشريف كله، وهذه معروفة عنه ﷺ.

(٢) في الأدب المفرد عن أنس بن مالك «كان النبي ﷺ في السوق، فقال رجل: يا أبا القاسم، فالتفت إليه النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله إنما دعوت هذا، فقال النبي ﷺ: «تسموا باسمي ولا تكونوا بكنيتي». وفي حديث آخر: «تسموا ولا تكونوا بكنيتي، فإنما أنا قاسم» وفي ثالث: «... والله يعطي وأنا أقسم». وقد ذكر جماعة من أهل العلم أن عدم التسمية تحرم في حياته فقط، لئلا يلتبس به أحد، أما بعده فقد أمن اللبس، فلذلك لا يحرم. والله تعالى أعلم.

دحية، وأبي المؤمنين من قراءة أبي بن كعب ﴿الَّتِي أُولَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجَهُنَّ أُمَّهُنَّ﴾ [وهو أب لهم] ^(١) ﴿[الأحزاب: ٦].

ولدت له أيضاً زينب، وهي أكبر بناته ﷺ، تزوجها أبو العاص بن الربيع، واسمه لقيط بن الربيع، وهو ابن خالتها، وأمّه هالة بنت خويلد بن أسد، وكان تزويجه إياها قبل الإسلام، فلما أكرم الله رسوله ﷺ بالرسالة أسلمت خديجة ^(٢) كما سيأتي وبناته، وصدّفته زينب، وثبت أبو العاص على دين قريش، وكان من معدودي قريش ورجال مكة مألأ وأمانة وتجارة، فمشت إليه وجوه قريش، فقالوا: ارُدْ على محمد بنته، ونحن نزوّجك أية امرأة أحببت من قريش، فقال: لا، والله إذن لا أفارق صاحبتني فإنها خير صاحبة. وكانت هاجرت قبله وتركته على شركه. وقد أسلم أبو العاص بعد أمور طويلة، فردّ رسول الله ﷺ زينب عليه بنكاح جديد، ويقال بل ردّها بالنكاح الأول بعد سنتين، وقيل قبل انقضاء العدة، وكان ذلك في المحرم سنة سبع من الهجرة.

ولما أسلم أبو العاص أتى مكة ثم رجع إلى المدينة، فكان بها، فلما فتحت مكة أقام بها ولم يقاتل مع النبي ﷺ، وتوفي سنة اثنتي عشرة، وأوصى إلى الزبير بن العوام وهو ابن خاله. وكان لأبي العاص بن الربيع من زينب: عليّ وأمامة؛ فأما عليّ فمات وهو غلام، ولم يعقب، وأما أمامة فتزوجها علي بن أبي طالب بعد وفاة فاطمة رضي الله تعالى عنها فولدت له محمداً الأوسط ^(٣)، وقُتِل رضي الله عنه وهي عنده، فحملها ابن عمها عبد الرحمن بن محمد إلى المدينة، وكتب معاوية رضي الله عنه إلى مروان بن الحكم يأمره أن يخطبها عليه، ففعل، فجعلت أمرها إلى المغيرة بن نوفل بن الحارث ابن عبد المطلب، وهو الذي كان الحسين بن علي استخلفه على الكوفة حين سار

(١) نسخ هذا اللفظ فيما نسخ من القرآن في حياة النبي ﷺ.

(٢) في الأصل (هاجرت خديجة) وهو خطأ طباعي واضح.

(٣) في الأصل «محمد بن الحنفية» وهو خطأ واضح؛ قال المسعودي في مروج الذهب: محمد بن الحنفية، هو: محمد ابن علي بن أبي طالب، وأمّه خولة بنت إياس (من بني حنيفة) وقيل ابنة جعفر بن قيس بن مسلمة الحنفي. اهـ. ملخصاً والله تعالى أعلم.

إلى المدائن، فأشهد المغيرة عليها برضاها بكل ما يصنع، فلما استوثق منها قال: «قد تزوجتها وأصدقته أربعمائة دينار» فكتب مروان بذلك إلى معاوية، فكتب إليه: هي أملك بنفسها فدعها وما اختارت^(١). ثم إنه بعد ذلك سیر المغيرة إلى الصفراء فمات وماتت بالصفراء، وولدت للمغيرة ولدًا اسمه يحيى كان يكنى به ولم يعقب، وتوفيت زينب بنت رسول الله ﷺ سنة ثمان من الهجرة بالمدينة، وصلى عليها رسول الله ﷺ، ونزل في قبرها ومعه أبو العاص، وجعل لها نعشًا، فكانت أول من اتُخذ لها النعش، والتي أشارت باتخاذها أسماء بنت عميس، رآته بالحبشة وهي مع زوجها جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه.

وولدت خديجة لرسول الله ﷺ رُقَيَّة (وهي أكبر بناته بعد زينب)، تزوجها عتبة ابن أبي لهب، فلما نزلت ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾ ﴿أَمْ جَمِيلٍ﴾ ﴿حَمَالَةَ الْحَطَبِ﴾: «هجانا محمد»، وعزمت على ابنها عتبة أن يطلق رقية، وعزم عليه أبوه أيضًا، ففعل. فزوّجها رسول الله ﷺ من عثمان بن عفان بمكة، فولدت له بأرض الحبشة عبد الله، وبه كان يُكنى، مات عبد الله سنة أربع في جمادي الأولى وهو ابن ست سنين، نقر عينه ديك فورم وجهه، فمرض من ذلك ومات، وصلى عليه النبي ﷺ وقبره أبوه، ولما مات عبد الله ابن عثمان وضعه رسول الله ﷺ في حجره ودمعت عليه عيناه، وقال: «إنما يرحم الله من عباده الرحماء»^(٢)، وتوفيت رقية في أيام بدر، وهي عند عثمان، ودفنت بالبقيع، وصلى عليها عثمان وغسلتها أم أيمن، ولم يحضرها رسول الله ﷺ لكونه كان غائبًا ببدر، ولما عَزِي بها قال: «الحمد لله، دَفَنُ البَنَاتِ مِنَ الْمَكْرُمَاتِ».

وولدت خديجة رضي الله تعالى عنها لرسول الله ﷺ: أم كلثوم، ولا يُعرف لها اسم، وإنما تعرف بكنيتها، تزوجها عتبية بن أبي لهب، فلما نزلت ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي

(١) رواه الطبراني عن جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه.

(٢) رواه الخطيب عن عبد الله بن عمر.

لَهَبٍ ﴿ أمر ابنه بفراقها ففعل، فلما توفيت رقية زوج رسول الله ﷺ أم كلثوم من عثمان أيضاً، فلم نزل عنده حتى توفيت في سنة تسع، وصلى عليها أبوها ﷺ، ولم تلد من عثمان، فبكى عثمان، فقال رسول الله ﷺ: ما يبكيك؟ قال: انقطاع صهري منك يا رسول الله، فقال: «كلا إنه لا يقطع الصهر الموت إنما يقطعه الطلاق، ولو كانت عندنا ثالثة لزوجناك»^(١).

وولدت خديجة لرسول الله ﷺ: فاطمة، وهي أصغر بناته، وُلدت قبل النبوة بخمس سنين^(٢) أيام بناء البيت، وتوفيت بعده عليه السلام بستة أشهر، وتلقب بالبتل من البتل: وهو القطع لانقطاعها عن نساء الأمة، فضلاً ودينًا وحسبًا ونسبًا، وتلقب أيضاً بالزهراء^(٣)، وسماها رسول الله ﷺ فاطمة بإلهام من الله تعالى؛ لأن الله تعالى «فطمها وذريتها من النار»^(٤) وكانت أحب أولاده ﷺ، فكانت إذا دخلت عليه ﷺ قام لها إجلالاً، والأحاديث في فضلها كثيرة، ولما بلغت خمس عشرة سنة تزوجها علي بن أبي طالب بالمدينة، فولدت له: الحسن والحسين رضي الله عنهما ومُحسن، درج^(٥) صغيراً، وولدت له من البنات: زينب، وأم كلثوم، ورقية. وسيأتي الكلام عليهن.

وقد اختص ولداها السبطان بمزايا لا توجد في غيرهما، فُنُسبوا إليه ﷺ خصوصية لهم، فلم تكن الأشرافية المطلقة إلا لعقب الحسن والحسين فقط؛ لاختصاص ذريتهما بشرف النسب، وقد انقرض نسبه ﷺ إلا من فاطمة رضي الله عنها، طاب أصلها أمًّا وأبًا، وانتشر نسله الشريف منها من جهة السبطين، ويقال لأولهما حسني، وللثاني

(١) وفي أسد الغابة: «لو كان لنا ثالثة لزوجناك». وعن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لو أن لي أربعين بنتاً لزوجت عثمان واحدة بعد أخرى، حتى لا تبقى منهن واحدة».

(٢) وفي الإصابة لابن حجر أنها وُلدت عام ٤١ من ميلاد النبي ﷺ.

(٣) البيضاء المشرقة الوجه. وقيل: لأنها لم تحض كما تحيض النساء. والله أعلم.

(٤) يقول رسول الله ﷺ: «إن فاطمة أحصنت فرجها فحرّمها الله وذريتها على النار» ورواه البزار وأبو يعلي، والطبراني، والحاكم عن ابن مسعود.

(٥) درج: مات.

حسيني، وانعقد الإجماع بأن المراد بآل البيت في الآية الشريفة: علي وفاطمة والحسن والحسين وذريتهما، وهم أهل العباءة.

وعن عائشة رضي الله تعالى عنها: خرج رسول الله ﷺ ذات غداة وعليه مرطٌ مُرَجَّلٌ من شعر أسود (المرط بكسر كساء من صوف أو خز والجمع مروط وربما أطلق على ما نسج من الشعر، قال بعضهم وهو خاص بالإزار والخمار) فجاء الحسن، فأدخله، ثم جاء الحسين فأدخله، ثم فاطمة، ثم علي، ثم قال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣] وقال: «اللهم هؤلاء أهل بيتي وخاصتي أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً»^(١) ثم قال: أنا حربٌ لمن حاربهم وسلم لمن سالمهم، وعدوٌّ لمن عاداهم»^(٢).

وهذه الآية دلّت على منبع فضائل أهل البيت النبوي؛ لاشتمالها على غُررٍ من مآثرهم والاعتناء بشأنهم، حيث ابتدئت بإنما المفيدة لحصر إرادته تعالى في إذهاب الرجس أي الإثم عنهم، وتطهيرهم من سائر الأخلاق والأحوال المذمومة، وتحريمهم على النار الذي هو فائدة ذلك التطهير وغايته؛ إذ منه الإلهام والإنابة إلى الله وإدامة الأعمال الصالحة، ومن ثمّ لما ذهبت عنهم الخلافة الظاهرة لكونها صارت مُلكاً عضوياً ولم تتم للحسن، عوّضوا عنها الخلافة الباطنة، وهي القطبية، فلم يكن قطب إلا منهم في كل زمان، وهو المختار خلافاً للمرسي.

ومن تطهيرهم أيضاً تحريم الصدقة عليهم فرضاً بالإجماع. ونفلاً على قول للإمام

(١) وأخرج الترمذي والحاكم في المستدرک وقال صحيح على شرط مسلم. قالت أم سلمة لما نزلت: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣] فأرسل رسول الله ﷺ إلى فاطمة وعليّ والحسن والحسين فقال: هؤلاء أهل بيتي. وقال يزيد بن زريع عن روح بن القاسم عن عمرو بن دينار: قالت عائشة: «ما رأيت قط أحداً أفضل من فاطمة غير أبيها» أخرجه الطبراني في ترجمة إبراهيم بن هاشم (من المعجم الأوسط وسنده صحيح على شرط الشيخين إلى عمرو).

(٢) وأخرج الترمذي من حديث زيد بن أرقم أن رسول الله ﷺ قال: «عليّ وفاطمة والحسن والحسين أنا حرب لمن حاربهم وسلم لمن سالمهم».

مالك؛ لأنها أوساخ الناس، مع كونها تنبئ عن ذل الآخذ وعز المأخوذ منه، وعوضوا عليها خُمس الخمس من الفَيء والغنيمة المنبئ عن عز الآخذ وذل المأخوذ منه، فاختصوا بمشاركته ﷺ في تحريم الصدقات، ولما أخذ الحسن بن علي رضي الله عنهما تمرّة من تمر الصدقة ووضعه في فيه قال له النبي ﷺ: «كخّ كخ ارم بها أما علمت أنا لا نأكل الصدقة»^(١) وفي رواية «إنّ آل محمد لا يأكلون الصدقة» وحكمة ختم الآية^(٢) به المبالغة في وصولهم لأعلاه، ودلّت هذه الآية أيضًا على نبوته ﷺ، وعلى فضل أهل الكساء رضي الله تعالى عنهم.

وقد قيل في ذلك:

إنّ النبيّ محمدًا ووَصِيَّه
أهلُ العبادة إنَّني بولائهم
وابنيه وابنته البتول الطاهره
أرجو السلامة والنَّجاة في الآخره

وقال غيره:

هم القومُ من أضفاهُم الودَّ مخلصًا تمسّك في أخراه بالسبب الأقوى
هم القومُ فاقوا العالمين مناقبًا محاسنها تحكّى وآياتها تُروى
موالاتهم فرضٌ، وحُبُّهم هُدى وطاعتهم حَزْمٌ، وودُّهم تقوى
فلا خفاء أن من انتسب إلى رسول الله ﷺ بأم أو أب ففيه سريان لحمه ودمه الكريمين، فالمنتمي إليه هو بعضه في وجوب الإجلال والتعظيم والتعزيز والتوقير والبر والنصيحة؛ فبعضه ﷺ كجميعه، كما قيل في مدح شريف:

هو بعضُ النبي والله قد صا غَ جميع النبي والبعض طهرا
وتوضيح ذلك أن فاطمة رضي الله عنها بضعة ﷺ، وأولادها بضعة منها، فهم بضعة من تلك البضعة، فيكونون بضعةً بواسطة تلك البضعة، وهكذا بنوهم وبنو بنوهم

(١) متفق عليه عن أبي هريرة، وفي الفتح الكبير «أما شعرت» بدل «أما علمت».

(٢) بقوله: ﴿يُطَهَّرُونَ تَطْهِيرًا﴾.

وهلم جرا، فكل من يوجد منهم في كل زمان بضعة منه بالواسطة؛ فأقيم وجودهم مقام وجوده ﷺ، وفي هذا من مزيد الكرامة والتشريف ما لا يخفى، وحرمة ﷺ ميتاً كحرمة حيّاً، وقد قال تعالى: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣] أي أن تودوا قرابتي.

ويطلق أهل البيت إطلاقاً آخر على كل حَسَنِي وحَسِينِي، وَعَلَوِيٍّ من ذرية محمد ابن الحنفية أو غيره من أولاده علي بن أبي طالب أو جعفر، أو عقيلي أو عباسي فيطلق عليه اسم الشريف، ولذلك تجد تاريخ الحافظ الذهبي مشحوناً في التراجم بذلك، يقول: الشريف العباسي، الشريف العقيلي، الشريف الجعفري، الشريف الزيني، فلما ولي الخلافة الفاطميون بمصر قصرُوا اسم الشريف على ذرية الحسن والحسين فقط؛ لكونهم علويين، فاستمر بذلك إلى الآن.

قال الحافظ ابن حجر في كتاب «الألقاب»: «الشريف ببغداد لقبٌ لكل عباسي، وبمصر لقب لكل علوي». اهـ.

قال العلامة الصبَّان: «ولا شك أن المصطلح القديم أولى؛ وهو إطلاقه على كل علوي وجعفري وعقيلي وعباسي كما صنعه الذهبي، وكما أشار إليه الماوردي، ومثله قول ابن مالك في الألفية:

﴿وآله المستكملين الشَّرَفَا﴾

وقد يقال على اصطلاح أهل مصر: الشرف أنواع: عام: لجميع أهل البيت، وخاص: بالذرية فيدخل فيه الزينيون وجميع أولاد بناته، وأخص منه: وهو شرف النسبة، وهذا مختص بذرية الحسن والحسين». انتهى.

وبالجملة فيجب تعظيم الجميع؛ لأنهم جميعاً قُرْبَى وأشرافٌ بالمصطلح العام. وقد أراد بعض العلماء أن يقبل يد بعض كبار الأشراف، فمنعه من ذلك، فأنشده:

أَتَمْنَعُنِي اللَّثْمَ مِنْ رَاحَةٍ نَمَاهَا إِلَى الْهَاشِمِيِّ الْكَرَامِ

كَأَنِّي إِذَا أَنَا قَبِلْتُهُمَا لَثَمْتُ يَدَيْهِ عَلَيْهِ السَّلَام

وحسبُ أهل البيت من الكرامة قوله عليه السلام: «وعدني ربي في أهل بيتي: مَنْ أقرَّ منهم بالوحدانية، ولي بالبلاغ: أَنْ لَا يَعَذِّبَهُ»^(١).

ومن الآثار الواردة عن سيدنا الحسين بن علي رضي الله عنهما أنه قال: «الزموا مودتنا أهل البيت؛ فَإِنَّ من لقي الله عز وجل وهو يودُّنا دخل الجنة بشفاعتنا».

ولنا أبيات في ذلك وهي:

يا آل بيت الزهراء أزهى صفاتي	انتمائي لكم بصفو صفاتي
أنجم زهر غير منكسفات	جدكم في الوجود شمس وأنتم
عن صفي من بضعة مصطفاة	أنتم بضعة النبي نشأتكم
في شعاب علي العلى مشرفات	سيد الكونين أصلاً وفرعاً
حكة عرف التعريف في عرفات	أبطحي، لولاه ما فاح من مـ
يتبأن في على الغرفات	لا ولا كان أهل بدر بدورا
وإليكم صرفت كل التفاتي	لسواكم ما رمت قط التفاتاً
ملجاً اللائذين كهف العفاة	حاش لله أن أضام وأنتم
من عظيم الأهوال والآفات	ويقيني أرجو به أن يقيني
وأغاث الملهوف بالمرهفات	كم مجير منكم حمى مستجيراً
من أياد على الورى عاطفات	كم لكم بالنوال دنيا وأخرى
من مساوي أيامي السالفات	بخلوص المديح أرجو خلاصي
حاز أمناً من سطوة المرجفات	إن نظمتم رفاعة في ولاكم
انتمائي لكم بصفو صفاتي	فأماني من حادثات زمانـي

(١) رواه الحاكم عن أنس.

ومن خصوصيات السيد فاطمة رضي الله تعالى عنها أنه يحرم الزوج عليها؛ مخافة إيدائها بالغيرة التي هي من طبع النساء، للأحاديث الدالة على تحريم النكاح عليها حتى تأذن، ولقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٥٣] وليس ذلك شاملاً لجميع بناته ﷺ بل هو خاص كما استصوبه الحافظ ابن حجر بفاطمة الزهراء؛ لأنها أصيبت بأمها وأخواتها واحدةً واحدةً، ولم يَبَقَ لها من تستأنس به ممن يخفف عنها ألم الغيرة^(١). وتوفيت رضي الله عنها في ثالث رمضان ولها من العمر تسع وعشرون سنة، بعد وفاته ﷺ بستة أشهر، وصلى عليها العباس رضي الله عنه^(٢). وولدت السيدة فاطمة رضي الله عنها زينب وأم كلثوم ورقية.

فأما زينب فقد تزوجها ابن عمها عبد الله بن جعفر بن أبي طالب فولدت له علياً وعوناً الأكبر وعباساً ومحمداً، وأم كلثوم.

وأما أم كلثوم فإنه تزوجها عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فولدت له زيدا ورقية، ولم يُعقب، وقُتِلَ عمر بن الخطاب عنها، ثم تزوجها بعده ابن عمها عون بن جعفر بن أبي طالب فمات عنها، ثم تزوجها بعده أخوه محمد فمات عنها، ثم تزوجها بعده أخوه عبد الله فماتت عنده، ولم تلد لأحد من الثلاثة شيئاً، وتوفيت أم كلثوم وابنها زيد في يوم واحد^(٣) وصلى عليهما عبد الله ابن عمر رضي الله عنهما.

(١) روى النسائي في كتابه (خصائص أمير المؤمنين علي بن أبي طالب) عن المسور بن مخرمة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن بني هشام بن المغيرة استأذنوني أن ينكحوا ابنتهم علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) فلا آذن، ثم لا آذن، ثم لا آذن، إلا أن يريد ابن أبي طالب أن يطلق ابنتي وينكح ابنتهم؛ فإنما هي بضعة مني، يربيني ما رابها، ويؤذيها ما آذاها» ومن آذى رسول الله ﷺ فقد حبط عمله، وذلك أنهم أرادوا أن يزوجه بنت أبي جهل لعنه الله، وكان أعدى أعداء رسول الله ﷺ.

ومن هنا نعرف أن عدم إباحة الرسول ﷺ الزواج لعلي، إنما كان لئلا يجتمع تحت سقف واحد بنت رسول الله وبنت عدو الله. والمسألة دينية بحته لا دخل لها في الغيرة وغيرها من أمور الدنيا. غفر الله لنا وله. (والحديث متفق عليه، ورواه أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه) بلفظ النسائي تقريباً.

(٢) وروى الواقدي من طريق الشعبي قال: «صلى أبو بكر رضي الله عنه على فاطمة رضي الله عنها».

(٣) ولم يُعرف من السابق منهما في الوفاة حتى يرث الآخر.

وأما رقية فماتت قبل البلوغ.

وولدت السيدة خديجة لرسول الله ﷺ: عبد الله، وهو الملقب بالطيب والطاهر، سمي بهذين الاسمين لأنه ولد بعد المبعث وتوفي بمكة؛ فقال العاص بن وائل: قد انقطع ولد محمد فهو أبت، فأنزل الله عز وجل: ﴿إِنَّكَ شَانِئُكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ [الكوثر: ٣] وانكسفت الشمس (*) يوم موته، فقالوا: كسفت لموته، فقال عليه الصلاة والسلام: «إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته، فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى الصلاة»^(١) وسبب ذلك أنه إذا أراد الله أن يُري عباده آيةً يخوفهم بها أظهر لهم شيئاً من عظمته وسلطانه. ولما مات بكى عليه ﷺ، وقال: «البكاء من الرحمة والصراخ من الشيطان»^(٢)، وقال: «من لا يرحم لا يُرحم»^(٣). ورأى ﷺ خلاً في قبر إبراهيم فقال: «إن الله يحب من العبد إذا عمل عملاً أن يتقنه»^(٤).

فهؤلاء أولاده ﷺ، كلهم من خديجة الكبرى أم المؤمنين رضي الله عنها. وأما ابنه إبراهيم فمن مارية بنت شمعون القبطية^(٥). ومات جميع أولاده ﷺ في حياته إلا فاطمة

(*) المعروف أن حادثة كسوف الشمس كانت في وفاة إبراهيم ابن رسول الله ﷺ من مارية القبطية.

(١) رواه الطبراني عن عقبة بن عامر، والإمام أحمد عن محمود بن لبيد، والبخاري وأحمد والنسائي عن جرير، وابن حبان عن أبي بكرة، وأحمد والبخاري ومسلم والنسائي وابن ماجة عن عبد الله بن مسعود الأنصاري، وأحمد والبخاري ومسلم والنسائي عن ابن عمر، وأحمد، والبخاري ومسلم عن المغيرة بن شعبة، وأبو داود عن جابر، والنسائي عن أبي هريرة، والنسائي وابن ماجة عن عائشة، والطبراني عن ابن مسعود، ولفظ الفتح الكبير: «إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته، فإذا رأيتم ذلك فادعوا الله وكبروا وصلوا وتصدقوا، يا أمة محمد والله ما من أحد أغير من الله أن يزني عبده أو تزني أمته، يا أمة محمد والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً، اللهم هل بلغت».

(رواه مالك وأحمد وأبو داود والنسائي عن عائشة، وهو حديث متفق عليه).

(٢) رواه ابن عساکر عن بكير بن عبد الله الأشج: مرسلاً.

(٣) متفق عليه، ورواه الإمام أحمد وأبو داود والترمذي عن أبي هريرة، والبخاري ومسلم عن جرير. وروى الإمام أحمد قوله ﷺ: «مَنْ لَا يَرْحَمُ لَا يُرْحَمُ وَمَنْ لَا يُغْفَرُ لَا يُغْفَرُ لَهُ» وروى الطبراني عن جرير: «مَنْ لَا يَرْحَمُ لَا يُرْحَمُ وَمَنْ لَا يُغْفَرُ لَا يُغْفَرُ لَهُ، وَمَنْ لَا يُتَّبَعُ لَا يُتَابَعُ عَلَيْهِ».

(٤) وروى عنه ﷺ أنه قال: «إن الله يحب من العامل إذا عمل أن يحسن» (رواه البيهقي في شعب الإيمان).

(٥) القبط: قومية لا ديانة.

فَبَعْدَهُ بَسْتَةٌ أَشْهَرُ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَعَلَيْهِ السَّلَامُ أَوْلَادٌ مِنْ غَيْرِهِمَا، وَقِيلَ: إِنْ عَائِشَةُ أَسْقَطَتْ سَقَطًا وَلَمْ يَثْبُتْ. تَوَفَّى إِبْرَاهِيمَ صَغِيرًا مَرْضَعًا، وَكَانَ مَوْلَدُهُ فِي ذِي الْحِجَّةِ سَنَةَ ثَمَانٍ مِنَ الْهَجْرَةِ بِالْعَالِيَةِ، وَهِيَ مَالٌ مِنْ أَمْوَالِ بَنِي النَّضِيرِ كَانَ لِرَسُولِ اللَّهِ وَعَلَيْهِ السَّلَامُ. وَعَقَّ عَنْهُ رَسُولُ اللَّهِ وَعَلَيْهِ السَّلَامُ بِشَاةً، وَفِي رِوَايَةٍ بِكَبْشَيْنِ يَوْمَ سَابِعِهِ، وَحَلَقَ رَأْسَهُ وَتَصَدَّقَ بِزَنَةِ شَعْرِهِ فَضَّةً عَلَى الْمَسَاكِينِ، وَأَمَرَ بِشَعْرِهِ فَدُفِنَ فِي الْأَرْضِ، وَسَمَّاهُ يَوْمئِذٍ، وَدَفَعَهُ رَسُولُ اللَّهِ وَعَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى أُمِّ بَرْدَةَ خَوْلَةَ بِنْتِ الْمُنْذَرِ زَوْجِ الْبَرَاءِ بْنِ أَوْسٍ أَحَدِ بَنِي النَّجَارِ، فَكَانَتْ تَرْضَعُهُ. وَالْعَقِيقَةُ هَذِهِ إِحْدَى الْوَلَاتِمِ. الثَّانِيَةِ: وَلِيْمَةُ الْعَرَسِ. الثَّالِثَةِ: الْخُرْسُ (بِضْمِ الْخَاءِ الْمَعْجَمَةِ وَيُقَالُ بِالْصَادِ الْمَهْمَلَةِ) طَعَامُ الْوِلَادَةِ وَهِيَ غَيْرُ الْعَقِيقَةِ. الرَّابِعَةِ: الْإِعْذَارُ (بِكَسْرِ الْهَمْزَةِ وَبِالْعَيْنِ الْمَهْمَلَةِ وَالذَّالِ الْمَعْجَمَةِ) لِلْخِتَانِ. الْخَامِسَةِ: الْوَكِيرَةُ^(١) لِبْنَاءِ دَارٍ. السَّادِسَةِ: النَّقِيعَةُ لِلْمَسَافِرِ^(٢) مِنَ النَّقْعِ، وَهُوَ الْغُبَارُ، وَقِيلَ: إِنْ الْمَسَافِرُ يَصْنَعُ الطَّعَامَ، وَقِيلَ يَصْنَعُهُ لَهُ غَيْرُهُ، السَّابِعَةُ «الْوَضِيمَةُ»^(٣) بَفَتْحِ الْوَاوِ وَكَسْرِ الضَّادِ الْمَعْجَمَةِ: طَعَامٌ عِنْدَ الْمَأْتَمِ. الثَّامِنَةُ الْمَأْدُبَةُ بِضِمِّ الدَّالِ وَفَتْحِهَا (طَعَامٌ يَتَّخَذُ ضِيَافَةً بِلَا سَبَبٍ) وَنَظْمُهَا الْعَلَامَةُ بِهَرَامِ الْمَالِكِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ فَقَالَ:

ثَمَانِيَةُ أَسْمَاءٍ أَطْعَمْتُهُ أَتَتْ	عَنِ الْعُرْبِ نَقْلًا لَا تُرَى بِقِيَاسِ
وَلِيْمَةُ عُرْسٍ، ثُمَّ إِعْذَارُ خَاتَنِ،	نَقِيعَةُ سَفَرٍ، ثُمَّ خُرْسُ نَفَاسِ
وَمَأْدُبَةٌ فِي دَعْوَةٍ، وَوَكِيرَةٌ	لَأَجْلِ بِنَاءٍ مُحْكَمٍ بِأَسَاسِ
عَقِيقَةُ مَوْلُودٍ، كَذَاكَ حَذَاقُهُ ^(٤)	إِذَا حَذَقَهُ حَاذِي وَقِيَتْ مِنَ الْبَاسِ

لَكِنَّهُ جَعَلَ الْحَذَاقَ بَدَلَ الْوَضِيمَةِ، فَهِيَ حِينَئِذٍ تَسْعَةُ، وَزَيْدٌ أَيْضًا الْإِمْلَاكُ: لِلْعَقْدِ،

(١) الْوَكِيرَةُ: طَعَامٌ يُعْمَلُ لِفَرَاغِ الْبَنِيَانِ.

(٢) النَّقِيعَةُ: طَعَامُ الرَّجُلِ لَيْلَةً يَمْلِكُ، وَالنَّقِيعُ أَيْضًا: مَا يَنْقَعُ فِي الْمَاءِ مِنَ الدَّوَاءِ وَالنَّبِيذِ، وَالنَّقِيعُ: الْبَثْرُ الْكَثِيرَةُ الْمَاءِ.

(٣) الْوَضِيمَةُ: جَمَاعَةٌ مِنَ النَّاسِ فِيهِمْ مَائَتَا إِنْسَانٍ أَوْ ثَلَاثُمِائَةٍ، وَالْقَوْمُ الْقَلِيلُ يَنْزِلُونَ عَلَى قَوْمٍ، وَطَعَامُ الْمَأْتَمِ.

(٤) الْحَذَاقَةُ: حَذَقَ الصَّبِيُّ الْقُرْآنَ: تَعَلَّمَ كُلَّهُ وَمَهَرَ فِيهِ، وَحَذَقَ الشَّيْءَ يَحْذُقُهُ حَذَقًا: قَطَعَهُ أَوْ مَدَّهُ لِيَقْطَعَهُ بِمَنْجَلٍ وَنَحْوِهِ.

والعتيرة: ذبيحة لأول شهر رجب، وعلى هذا فأسماء الأطعمة أحد عشر.

وذَيْلُ الشَّمْسِ التَّنَائِي بالثلاثة:

وتاسعة الإملاك للعقد قد أَتَتْ عتيرة ذبح للأصبّ مواسي

وحادية للعشر فعلٌ وضميمة بميت حماك الله شرًّا أناس

وقد ورد في حديث أنس عن البيهقي: أنه ﷺ عَقَّ عن نفسه بعد النبوة، فلو كان ما ذبحه جده في سابع ولاده ﷺ عقيقة، لِمَ يعيدها النبي ﷺ ويعق عن نفسه؟ وأجيب عنه بأن ما فعله النبي ﷺ بعد النبوة ليس إعادة للعقيقة، وإنما هو إظهار للشكر على إيجاد الله إياه رحمة للعالمين، وتشريع لأمته كما كان ﷺ يصلي على نفسه كذلك. والجواب المشهور أن ما فعله جده عبد المطلب من العقيقة لم يقع عنه؛ لأن ذلك كان قبل الشرع، فلا يتعلق به حكم، والعقيقة التي فعلها ﷺ عنه بعد النبوة - على تقدير صحتها - كانت بعد الشرع؛ فهي المشروعة والواقعة عنه؛ لأنه بعد ولادته لم يقع عنه عقيقة مشروعة، على أن ما ورد من أنه ﷺ عَقَّ عن نفسه بعد النبوة إنما هو حديث منكر كما قاله بعضهم.

وقد نظم بعضهم عدة أولاد النبي ﷺ بقوله:

فأولُ وُلْدِ المصطفي القاسمُ الذي به كنية المختار فافهم وحصّلا

وزينبُ تتلوه، رُقِيَّةٌ بَعْدَهَا وفاطمةُ الزهراءُ جاءت على الولا

كذا أم كلثوم تُعَدُّ، وبعدها في الإسلام عبدُ الله جاء مكمّلا

وكلّهم كانوا أتوا من خديجة وقد جاء إبراهيم في طيبة تلا

وتوفيت السيدة خديجة رضي الله تعالى عنها في سنة عشر من المبعث^(١) قبل الهجرة بثلاث سنين، وبعد مضي عشر سنين من مبعثه ﷺ، ودفنت بالحجون، وهي ابنة خمس وستين سنة وستة أشهر، وللنبي ﷺ عند وفاتها تسع وأربعون سنة وثمانية أشهر وأربعة عشر يومًا، وذلك قبل موت أبي طالب بثلاثة أيام، فعظمت المصيبة على رسول الله ﷺ

(١) في رمضان.

بموتهما، وقال: «ما نالتني قريش بشيء أكرهه حتى مات أبو طالب»^(١) وذلك أن قريشاً وصلوا من إيذائه بعد موت أبي طالب إلى ما لم يكونوا يصلون إليه في حياته. وكان عليه الصلاة والسلام يسمي ذلك العام عام الحزن. ونزل رسول الله ﷺ في قبر السيدة خديجة. وكانت خديجة قبل رسول الله ﷺ عند أبي هالة هند بن زرارة بن النباش فولدت له هند بن أبي هالة، سُمي باسم أبيه، ثم خلف عليها بعده عتيق بن عائذ بن عبد الله، فطلقها، فتزوجها النبي ﷺ كما تقدّم^(٢)، وكانت مسمّاة لورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي وهو ابن عم خديجة لأنها بنت خويلد بن أسد، فأثر الله عز وجل بها نبّيه ﷺ، وكانت خديجة ولدت لعتيق السابق ذكره جاريةً فتزوجها صيفي بن أمية، فولدت له محمداً؛ فيقال لبني محمد بن صيفي بالمدينة بنو الطاهرة. قالت عائشة رضي الله عنها: «إنّ لأغار على خديجة وإن كنت بعدها؛ لما كنت أسمع من ذكر رسول الله ﷺ لها، ولقد سمعته يقول «كانت خديجةُ خيرَ نساء العالمين»^(٣) وقال «إن لخديجة بيتاً في الجنة من قصب (أي قصب اللؤلؤ) لا صخب فيه ولا نصب (الصخب: الضجة واضطراب الأصوات للخصوم، ولا نصب: أي لا تعب) وإني لأعرف فضلها رحمها الله»^(٤).

* قال بعض الصوفية: إن أربعة من النساء أحبين أربعاً من الأنبياء عليهم السلام

(١) السيرة الحلبية ج ١ ص ٣٩١ طبع التجارية. وفي سيرة ابن هشام: قال ابن إسحاق: فحدثني هشام بن عروة عن أبيه عروة بن الزبير قال: لما نثر ذلك السفه على رأس رسول الله ﷺ التراب، دخل رسول الله ﷺ بيته والتراب على رأسه، فقامت إليه إحدى بناته فجعلت تغسل عنه التراب وهي تبكي ورسول الله ﷺ يقول لها: لا تبكي يا بنية؛ فإن الله مانع أباك، قال: ويقول بين ذلك: ما نالت مني قريش شيئاً أكرهه حتى مات أبو طالب.

(٢) ويقال: أول من تزوجها عتيق ثم أبو هالة. انظر ترجمتها في الإصابة لابن حجر.

(٣) ولهذا قال العلماء - توفيقاً بين هذا الحديث وحديث تفضيل السيدة فاطمة رضي الله عنها: «إن فاطمة أفضل من أمها من ناحية أنها بضعة من رسول الله ﷺ، والسيدة خديجة أفضل من جهة الأمومة... والله تعالى أعلم.

(٤) وقال ﷺ: «أمرتُ أن أبشر خديجة ببيت في الجنة لا صخب فيه ولا نصب». (رواه الإمام أحمد وابن حبان والحاكم عن عبد الله بن جعفر. والحديث متفق عليه عن عبد الله بن أبي أوفى وعن عائشة رضي الله عنها). وورد فيها أيضاً قوله ﷺ: «خديجة خير نساء عالمها، وفاطمة خير نساء عالمها». رواه الحارث عن عروة: مراسلاً.

فوجدن بذلك المغفرة.

أولاهنّ خديجة بنت خويلد: أحبت رسول الله ﷺ فوجدت بذلك المغفرة والقربة والإسلام والنجاة من عبادة الأصنام، وكانت أول امرأة أسلمت من نساء عصرها، وبشرها جبريل بقصرها.

والثانية آسية بنت مزاحم: أحبت موسى الكليم فأوردّها حبّه جنة النعيم، وبني الله لها بيتاً في الجنة وأعظم لها المنّة.

والثالثة بلقيس: أحبت سليمان بن داود عليهما السلام، فكان حبها إياه سبباً لدخولها في الإسلام، وكانت تعبد الشمس من دون الخالق، حتى بانّت لها الحقائق، ووصل إليها كتاب كريم ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ (٣٠) ﴿أَلَا تَعْلَمُونَ عَلَىٰ وَأَتُوفِّي مُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٣٠، ٣١] ولما صَحَّ عندها ما يدعو إليه سليمان من الإيمان خالفت رأي قومها الظالمين، وقالت: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [النمل: ٤٤].

والرابعة: زليخا، أحبت يوسف الصديق، فبانّت لها أبواب التحقيق، وآل أمرها أن دعاها إلى الإسلام فأسلمت بين يديه، ودخلت في حظيرة أنسه، فكان دخولها في الملة سبباً للدنو والوصلة.

وكان ﷺ محترماً في قومه، معظماً في عشيرته، رئيس قبيلته، وأرادوا تجديد بناء الكعبة؛ لكونها كانت قصيرة البناء، فأرادوا رفعها وسقفها، فهدمتها قريش ثم بنوها، فلمّا وصلوا في البناء إلى الموضع الذي يوضع فيه الحجر الأسود اختلفوا في وضعه، وقالت كل قبيلة: نحن أحق بوضعه، حتى هموا بالقتال، ومكثت قريش على ذلك أربع ليالٍ أو خمساً انقطع الخلاف بينهم برضا قريش بحكمه، وكان قد بلغ خمساً وثلاثين سنة، وذلك أنهم اجتمعوا وتشاوروا، فقال أبو أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم، وكان يومئذ أسنّ قريش: يا معشر قريش اجعلوا بينكم حكماً فيما

تختلفون فيه أول من يدخل من باب الحرم ليقضي بينكم. ففعلوا، فكان أول داخل رسول الله ﷺ، فلما رأوه قالوا: هذا الأمين، هذا محمد، رضيناه، فلما انتهى إليهم وأخبروه الخبر، قال ﷺ: «هلموا إلي ثوباً، فأُتي به، فأخذ الحجر فوضعه فيه بيده، ثم قال: «لتأخذ كل قبيلة بطرف من الثوب، ثم ارفعوه جميعاً، ففعلوا ذلك، فلما بلغوا به موضعه وضعه النبي ﷺ بيده الشريفة، ثم بنى عليه حتى أتموا بناء الكعبة، فأرضى الكل صلوات الله عليه. وكانت قريش تسمي رسول الله ﷺ قبل أن ينزل عليه الوحي «الأمين»، وفي الجامع الصغير عن الطبراني عن أبي رافع أن النبي ﷺ قال: «أما والله إنني لأمين في السماء وأمين في الأرض».

وكان بناء الكعبة قبل الهجرة بثمانى عشرة سنة، وفي قضية التحكيم قال هبيرة بن وهب المخزومي:

تساجرت الأحياء في فصل خطّة	جرت بينهم بالنّحس من بعد أسعد
تلاقوا بها بالبغض بعد مودة	وأوقد ناراً بينهم شرّ موقد
فلما رأينا الأمر قد جدّ جدّه	ولم يبق شيء غير سأل المهند
رضينا وقلنا العدل أول طالع	يجيء من البطحاء من غير موعد
ففاجأنا هذا الأمين محمد	فقلنا رضينا بالأمين محمد
بخير قريش كلّها أمس شيمه	وفي اليوم مع ما يحدث الله في غد
فجاء بأمر لم ير الناس مثله	أعم وأرضى في العواقب والبد
أخذنا بأطراف الرداء وكلنا	له حصّة من رفعها قبضة اليد
فقال ارفعوا حتى إذا ما علّت به	أكفهم وأنى به غير مسند
وكلّ رضينا فعله وصنيعه	فأعظم به من رأي هاد ومهتدي
وتلك يد منه علينا عظيمه	يروح بها هذا الزمان ويغتدي

وكانت كسوة الكعبة في زمن الجاهلية المسوح والأنطاع؛ فإن أول من كساها الأنطاع تَبَعَ الحميري؛ ثم كساها الثياب الحَبَرَة، وفي رواية: كساها الوصائل، وهي برود حمر فيها خطوط خضر تُعمل باليمن، وكانت قريش تشترك في كسوة الكعبة، حتى نشأ أبو ربيعة بن المغيرة، فقال لقريش: أنا أكسو الكعبة سنةً وحدي، وجميع قريش سنة، واستمر يفعل ذلك إلى أن مات، فسَمَّتْه قريش العَدْل^(١) لأنه عدل قريشاً وحده في كسوة الكعبة، ويقال لبنيه بنو العَدْل. وكانت كسوتها لا تُنزع، فكان كلما تُجَدَّد كسوة تجعل فوق، فاستمر ذلك إلى زمنه ﷺ، ثم كساها النبي ﷺ الثياب اليمانية، وكساها أبو بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم القَبَاطِي^(٢)، وكساها معاوية رضي الله عنه الديباج يوم عاشوراء، والقَبَاطِي في آخر رمضان، وكساها المأمون الديباج الأحمر والديباج الأبيض والقَبَاطِي أيضاً، فكانت تُكسَى الديباج الأحمر يوم التروية، والقَبَاطِي يوم هلال رجب، والديباج الأبيض يوم سبع وعشرين من رمضان.

قال بعضهم: وهكذا كانت تُكسَى في زمن المتوكل العباسي، ثم في زمن الناصر العباسي، كُسِيت السواد من الحرير، واستمر ذلك إلى الآن في كل سنة، وكانت كسوتها من غلة قريتين^(٣) يقال لهما «بسوس» و«سندبيس»^(٤) من قرى القاهرة بإرصاد الملك الصالح بن الناصر محمد بن قلاوون في سنة سبعمئة وإحدى وخمسين، إلى أن صارت الكسوة من القاهرة المعزية، على طرف الخزينة المصرية الخديوية. وقد سُئِلَ الإمام البلقيني: هل يجوز كسوة الكعبة بالحرير المنسوج بالذهب؟ ويجوز دورانها في المحمل الشريف؟ فأجاب بجواز ذلك، قال: لما فيه من التعظيم لكسوتها الفاخرة، التي يُرْجى لمن يكسوها الخلع السنية في الدنيا والآخرة، ويجوز إظهارها في

(١) العدل: النظر، ومنه قوله تعالى: ﴿أَوْ عَدَلْ ذَلِكَ صِيَامًا﴾ [المائدة: ٩٥].

(٢) القَبَاطِي: ثياب كانت تصنع في مصر.

(٣) وقَفُ كسوة الحرمين الشريفين.

(٤) وهي وقف على خدام الحجرة الشريفة. وهذه القرية وما قبلها من أعمال محافظة القليوبية. اهـ. من «التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية».

دوران المحمل الشريف؛ فإن في ذلك من التفخيم المناسب للحمل المنيف ما يليق بالحال. هذا كلامه.

وأول من حلّى بابها بالذهب جدّه ﷺ: عبد الطلب؛ فإنه لما حفر بئر زمزم وجد فيها الأسياف والغزّالين من الذهب، فضرب الأسياف باباً، وجعل في ذلك الباب الغزّالين، فكان أول ذهب حُلّيَتْ به الكعبة، وقد سبق ذلك في حفر زمزم في الفصل الأول من الباب الأول.

وأول من ذهب الكعبة في الإسلام عبد الملك بن مروان، وقيل عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما، جعل على أساطينها صفائح الذهب، وجعل مفاتيحها من الذهب، وجعل الوليد بن عبد الملك الذهب على الميزاب، يقال إنه أرسل لعامله على مكة ستة وثلاثين ألف دينار، يضرب منها على باب الكعبة وعلى الميزاب، وعلى الأساطين التي داخلها، وعلى أركانها من داخل.

وذكر أن الأمين بن هارون بن الرشيد أرسل إلى عامله بمكة ثمانية عشر ألف دينار، ليضربها صفائح الذهب على باب الكعبة، فقلع منها ما كان على الباب من الصفائح، وزاد عليها ذلك، وجعل مساميرها وحلقتي الباب والعتبة من الذهب، وأن أم المقتدر (الخليفة العباسي) أمرت غلامها لؤلؤاً أن يلبس جميع أسطوانات البيت ذهباً، ففعل، وقد سبق التنويه إلى ذلك في الفصل الثاني من الباب الثالث من المقالة الرابعة من كتابنا «أنوار توفيق الجليل»^(١).

* * *

ولما بلغ ﷺ الأربعين وأرسل بخصوصه إلى الإنس والجن أجمعين أتاه جبريل من الله بالوحي، وهو بغار حراء (الجبل المشهور بأعلى مكة على ثلاثة أميال منها) الذي كان يخلو فيه للمجاورة والعبادة، وخاطبه بالرسالة الآتية بالشرعية المطهرة

(١) هو كتاب في تاريخ مصر القديمة طبع عام ١٢٨٥ هـ.

والحنيفية السمحة إلى كافة الخلق، فكان ذلك سبباً لإسعادهم، وموجباً لصلاح معاشهم ومعادهم، وكان ذلك على فترة من الرسل؛ ليس للناس شرائع ولا أحكام، ولا علمٌ بالتوحيد، ولا أمر شرعي يحفظ دماءهم وأموالهم، فجاءت شريعته جامعة للأحكام والحكم التي لا تُحصى، والنعم التي لا تستقصى، فإيا له من بعثٍ محا الضلالة والوعث^(١).



(١) الوعث: كل أمر شاقٍ من تعبٍ وغيره.

الباب الثاني

**في مبعثه ﷺ، ودعائه الناس إلى الدين الحق،
وهجرة المسلمين(*) إلى الحبشة
وخروجه إلى الطائف**

(*) في الأصل «وهجرته إلى الحبشة وإلى الطائف» وهذا خطأ مطبعي واضح لأنه عليه الصلاة والسلام لم يهاجر إلى الحبشة.

الفصل الأول

في رسالته ﷺ على رأس الأربعين إلى كافة الناس بشيراً ونذيراً

كان ﷺ له الرياسة المؤتلة على قومه الذين أصابوا الملك وأطاعتهم العرب واجتمع لهم ما لم يجتمع لغيرهم من مناصب الشرف في ذلك الوقت، وهي: الحجابة، والسقاية، والرفادة، والندوة، واللواء، والقيادة. فالحجابة هي: سدانة البيت الشريف، أي تولية مفتاح بيت الله تعالى. والسقاية: إسقاء الحجيج كلهم الماء العذب، وكان نادراً بمكة يجلب إليها من الخارج لِيُسْقَى الحجاج منه، بل ويتبذ لهم التمر والزبيب للشراب أيضاً. والرفادة هي: إطعام الطعام لسائر الحجاج، فكانت تُمدُّ لهم الأسمطة في أيام الحج. والندوة هي: المشورة، وكان يجتمع فيها من قريش ومن غيرهم مَنْ سُنَّه أربعون سنة فلا يعقد عقد نكاح الرجل من قريش إلا فيها. وأما اللواء: فراية معقودة على رُمح ينصبونه علامةً لاجتماع الجيش لحرب الأعداء، فيجتمعون تحت هذه الراية ويقاتلون عندها. والقيادة: إمارة الجيش ورياسة الحرب.

فكان ﷺ شهير الاسم شريف النعت في مكة المشرفة التي هي أم القرى^(١)، وكان له ﷺ محاسن سنية؛ كقضائه حين حكموه في بناء الكعبة، وكإعانتة ﷺ على إبطال ما كان نواه عثمان بن حويرث لما تنصّر وأراد أن يجعل الكعبة تحت ولاء الروم؛ فبركته ﷺ وبتوسطه في المنع خاب سعي الحويرث.

ومن محاسنه أيضاً ومكارم أخلاقه كفالته ابن عمه علي بن أبي طالب.

(١) سماها القرآن: «أم القرى» فقال: ﴿وَلَنُنَزِّلَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الأنعام: ٩٢]، وأم الشيء: أصله ومادته.

ومنها فديته زيداً القضاعي بن حارثة بن شرحبيل الذي وقع أسيراً عند أعدائه، فاشتراه ﷺ وأعتقه، فظهر لقريش حكمه وكرمه، وأنه فاق في ذلك آباءه وأجداده.

قريشُ خيارُ بني آدم وخيرُ قريشٍ بنو هاشم

وخيرُ بني هاشم كلهم نبيُّ الإله أبو القاسم

وكان ﷺ أمياً لا يكتب ولا يقرأ، وفي وجوده بهذه الصفة تنبيه على أن كمال علمه مع حالة الأمية من معجزاته، ونسبته إلى الأم كأنه على حاله التي وُلد عليها، لا يعرف كتابة ولا قراءة، وفي الحديث: «إِنَّا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ لَا نَحْسِبُ وَلَا نَكْتُبُ»^(١).

وكانت الأمية في حقه ﷺ معجزة، وإن كانت في حق غيره غير ممدوحة، قال القاضي عياض: «لأن معجزته العظمى القرآن العظيم، إنما هي متعلقة بطريقة المعارف والعلوم، مع ما مُنح ﷺ وفضل به من ذلك، ووجود مثل ذلك ممن لم يقرأ ولم يكتب ولم يدرس ولم يُلقن مقتضى العجب ومنتهى العبر ومعجز للبشر؛ فليس فيه إذ ذاك نقیصة؛ إذ المطلوب من القراءة والكتابة المعرفة، وإنما هي آلة وواسطة موصلة إليها، غير مرادة في نفسها، فإذا حصلت الثمرة والمطلوب استغنى عن الوسطة.

وقال أيضاً: «إِنَّ مَنْ وصفه ﷺ بالأمية أو نحوها من اليتيم وما جرى عليه من الأذى؛ فإن قصد بذلك مقصده من التعظيم والدلالة على نبوته ونحو ذلك كان حسناً، ومن أراد ذلك على غير وجهه، وعلم منه سوء مقصده لحق بالسَّابِّ، فيُقْتَل أو يؤدَّب بحسب حاله». انتهى.

وكان ﷺ يختلي في كل سنة شهراً عن^(*) أهل بيته في غار حراء^(٢) بقرب مكة،

(١) متفق عليه ورواه أبو داود والنسائي عن ابن عمر.

(*) في الأصل «مع أهل بيته» وهو خطأ ظاهر.

(٢) «حراء» المقيم فيه تجتمع له ثلاث عبادات: الخلوة، والتعب، والنظر إلى البيت. وقيل كانت قريش تفعله. وأول من فعل ذلك من قريش: عبد المطلب، وتبعه على ذلك من كان يتأله (أي يعبد الله تعالى) وكان ﷺ يخلو بمكان جده. (العمدة) جـ ٢٠ ص ٥.

فيتعبد فيه الليالي ذوات العدد، غريقاً في بحار الأفكار ملازماً للصمت آناء الليل وأطراف النهار، حتى أتاه الوحي على رأس الأربعين سنة في محل العبادة بالنبوة، فأوّل ما بُدئ به من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم؛ فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، فكانت تلك المنامات الصادقة مُقَدِّمات للوحي، قيل مدتها ستة أشهر، ابتداءً من شهر ربيع الأول، ثم فجّاه جبريل وهو بالغار المذكور في شهر رمضان، فقال له: اقرأ، فقال: ما أنا بقارئ، فغطّه^(١) حتى بلغ منه الجهد، ثم قال له: اقرأ^(٢)، فقال: ما أنا بقارئ، فغطّه كذلك، ثم أعاد جبريل فقال له: اقرأ، وأعاد محمد ﷺ فقال: ما أنا بقارئ، فقال له جبريل بعد المرة الثالثة: ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١] حتى بلغ ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ٥] فقرأها. و«ما» في قوله «ما أنا بقارئ» نافية في الكل، أو الأولى للامتناع، والثانية للإخبار بالنفي المحض، والثالثة استفهامية، وكرر عليه الغَطَّ لِيُقْبَلَ بكلّيته ويتم توجهه لما سيُلْقَى عليه. ولما عاد إلى خديجة وأخبرها الخبر^(٣) قالت: «والله لا يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرَّحِمَ وتقرّي الضيف وتحمل الكَلَّ وتعين على نوائب الدهر» ثم انطلقت به حتى أتت ابن عمها ورقة بن نوفل فأخبرته خبر ما رأى، فقال له ورقة: هذا الناموس الذي أنزله الله على موسى، يا ليتني فيها جذعاً، ليتني أكون حياً إذ يُخْرَجُك قومك، فقال رسول الله ﷺ: أو مخرجي هم؟ قال: نعم، لم يأت رجل بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزراً. ثم لم يلبث ورقة أن توفي.

وفتر الوحي نحو ثلاث سنين^(٤).

(١) غطّه: أي عصره عصرًا شديداً (المعجم الوسيط: ٦٨٠).

(٢) وما الذي أراد بقوله «اقرأ»؟ قلت: هو المكتوب الذي في النمط، (كما في رواية ابن إسحاق) فلذلك قال: ما أنا بقارئ، يعني أنا أمي لا أحسن قراءة الكتب. انتهى. ما قاله العيني ج ٢٠ ص ٦ من العمدة طبع الحلبي.

(٣) وفي السيرة الحلبية ما نصه: «... فما زلت واقفاً، ما أتقدم أمامي وما أرجع ورائي حتى بعثت خديجة رسلها في طليي، فبلغوا مكة ورجعوا إليها، وأنا واقف في مكاني، ثم انصرف عني، وانصرفت راجعاً إلى أهلي، حتى أتيت خديجة فجلست إلى فخذه، مضيقاً إليها...» إلخ.

(٤) هذا هو الرأي السائد بين المؤرخين، وهو الأقرب إلى الصواب.

وإنما كان بدء الوحي بالرؤيا الصادقة لئلا يفجأه الملك ويأتيه بصريح النبوة بغتة فلا تقبلها القوى البشرية، فبدأ بأول تبشير النبوة وخصال الكرامة تأنيساً وتمريناً له. فلما تمرن على ذلك في المنام جاءه الملك في اليقظة بصريح النبوة والكلام، ثم بعد ذلك فتر الوحي نحو ثلاث سنين فيما جزم به ابن إسحق، وقيل سنتين ونصفاً^(١) ليذهب عنه ما وجده من الرُّوع ويزيد تشوّقه إلى العود، ومن ثم حزن لذلك حزناً شديداً.

ثم نزل عليه جبريل بعد ذلك بقوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ...﴾ [المدثر: ١-٢] وتتابع الوحي، فهي أول ما نزل عليه بعد فترة الوحي^(٢)، ونزولها ابتداء رسالته ﷺ، فهي متأخرة عن نبوته بثلاث سنين، وقيل مقارنة لنبوته، وأما ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ﴾ فهي أول ما نزل مطلقاً، والقول بأن أول ما نزل مطلقاً ﴿يَأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ باطل كما قاله النووي. وظهر من نزول ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ﴾ أولاً ونزول ﴿يَأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ بعد فترة الوحي أن نبوته ﷺ كانت متقدمة على رسالته، كما صرح به أبو عمر وغيره^(٣)، وعلى ذلك يُحمل قول صاحب جامع الأصول: الصحيح عند أهل العلم بالأثر أنه بُعث على رأس ثلاث وأربعين سنة، فكان في ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ﴾ نبوته، وفي ﴿يَأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ رسالته بالندارة والبشارة والتشريع، والاقتصار على الإنذار في هذه السورة مع أنه ﷺ بُعث

(١) ذكره الحافظ أبو القاسم السهيلي، قال: وقد جاء في بعض الأحاديث المسندة أن مدة هذه الفترة كانت سنتين ونصفاً، وجاء عن ابن عباس أنها كانت أياماً.

(٢) قال صاحب السيرة الحلبية: «... ثم رأيت في فتح الباري: ليس المراد بفترة الوحي المقدرة بثلاث سنين بين ﴿أَقْرَأْ﴾ و﴿يَأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ عدم مجيء جبريل عليه السلام إليه، بل تأخر نزول القرآن عليه فقط...» ثم قال صاحب السيرة: فكان جبريل يأتي إليه بغير قرآن بعد مجيئه إليه باقراً، ولم يجر إليه بالقرآن الذي هو ﴿يَأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ إلا بعد الثلاث سنين.

(٣) وفي الحديث المتفق عليه: لما علّمهم الرسول ﷺ الدعاء بقوله: «اللهم أسلمت نفسي إليك ووجهت وجهي إليك وألجأت ظهري إليك؛ رغبةً ورهبةً إليك، لا ملجأ ولا منجأ منك إلا إليك، آمَنْتُ بكتابك الذي أنزلت ونيك الذي أرسلت» قال رجل من الحاضرين: «ورسولك الذي أرسلت، فضرب النبي ﷺ على صدره وقال: «كنت نبياً قبل أن أكون رسلاً».

مبشراً أيضاً؛ لأن ذلك كان في أول الإسلام؛ فتعلق الإنذار محقق، فلما أطاع من أطاع أنزل الله قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الفتح: ٨] فانقطعت الفترة بدعوته ﷺ عموم الناس للإيمان^(١).

ثم أوّل شيء فرض الله عليه من شرائع الإسلام بعد الإنذار بالتوحيد والبراءة من الأوثان: الصلاة. أتاه جبريل فعلمه الوضوء والصلاة ركعتين، ثم فارقه.

وعاد النبي ﷺ إلى خديجة فأخبرها، فغشيت عليها من الفرح، ثم أخذ بيدها وعلمها الوضوء فتوضأت، ثم قام فصلّى ركعتين وصلّت معه، فكان ذلك أول فرضها ركعتين، ثم إن الله تعالى أقرّها في السفر وأتمّها في الحضر، قال النووي: أول ما وجب الإنذار والدعاء إلى التوحيد، ثم فرض الله من قيام الليل ما ذكر في أول سورة المزمل بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَزْمِلُ ۖ قِرْ آلِيلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [المزمل: ١-٢] ثم نسخه بما في آخرها بقوله ﴿فَاقْرَأْ وَما يَسَّرَ مِنْهُ﴾ [المزمل: ٢٠] إذ المراد صلّوا ما تيسر لكم، وفرض عليه ركعتين بالغداة^(*) وركعتين بالعشي، ثم نسخ ذلك بإيجاب الصلوات الخمس ليلة الإسراء بمكة. انتهى.

وقد اختلف العلماء في أول من أسلم: والصحيح: خديجة، ثم أبو بكر، ثم علي وكان عمره إحدى عشرة سنة، ثم زيد بن حارثة. قال الثعلبي: إجماع العلماء أن أول من أسلم من الرجال أبو بكر، ومن الصبيان علي، ومن النساء خديجة، ومن الموالي زيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ، وكان قد تبناه وصار يقال له: زيد بن محمد، ولم يُذكر في القرآن أحد من الصحابة باسمه إلا هو، كما أنه لم يُذكر امرأة باسمها

(١) وأشهر ما قيل في يوم البعثة حين فجأه جبريل ﷺ بالوحي:

- كان يوم الإثنين نهار سبعة عشر من رمضان وهو الأشهر.

- كان يوم الإثنين نهار أربعة عشرة منه.

- كان يوم الإثنين نهار سبعة عشر من شهر رجب.

- كان يوم الإثنين نهار أول شهر ربيع الأول.

- كان يوم الإثنين نهار يوم الثامن من ربيع الأول.

(*) الغداة: ما بين الفجر وطلوع الشمس.

والعشي: الوقت من زوال الشمس إلى المغرب أو من صلاة المغرب إلى العتمة (المعجم الوسيط: ٦٢٥).

في القرآن إلا مريم. وأول من أسلم من العبيد الباقيين على الرق: بلال المؤذن، فأول فائز بالإسلام من الرجال الصديق على التحقيق، وإن قال شيخ الإسلام السراج عمر البلقيني وتبعه الحافظ العراقي: إن أول من آمن به من الرجال ورقة بن نوفل، لنزول الوحي على النبي ﷺ في حياته، وإيمانه بالنبي ﷺ وتصديقه برسالته صريحاً^(١) أي بعدها بناء على أنهما متقارنان، أو قبلها لعلمه من الكتب القديمة كما جاء في أحاديث قصة بدء الوحي وغيرها في الصحيح وغيره، وإن مشى على ذلك أيضاً جماعة من الأئمة، وعدوه في الصحابة.

واتسع الإسلام بعد أن أسلم أبو بكر: فأسلم عثمان بن عفان، وطلحة، والزبير، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، فهؤلاء الخمسة دعاهم أبو بكر فأجابوا، ثم أسلم أبو عبيدة (عامر بن الجراح)، وعبيدة بن الحارث، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل بن عبد العزي، وهو ابن عم عمر بن الخطاب، وعبد الله بن مسعود، وعمر بن ياسر، فهؤلاء هم الذين سبقوا الناس إلى الإسلام.

وأول ما وجب الإنذار والدعاء إلى الله بالتوحيد بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَدَنِيُّ قُرْ فَأَنذِرْ﴾، أقام ﷺ بعد ذلك ثلاث سنين يدعو إلى الله سرّاً - لعدم الأمر بالإعلان، وكان لا يظهر دعوته إلا لمن يثق به، وتبعه ناسٌ عامّةٌ ضعفاء من الرجال والنساء، كما يشير إلى ذلك حديث: «إن هذا الدين بدأ غريباً وسيعود غريباً كما بدأ»^(٢) حتى إنه ﷺ كان إذا حضرت الصلاة خرج إلى شعاب مكة، وخرج معه علي بن أبي طالب مستخفياً من عمه أبي طالب، ومن جميع أعمامه وسائر قومه، فيصلّيان الصلوات، فإذا أمسيا رجعا، فمكثا كذلك ما شاء الله أن يمكثا، ثم إن أبا طالب عثر عليهما يوماً وهما يصلّيان، فقال لرسول الله ﷺ: يا ابن أخي ما هذا الدين الذي أراك تدين به؟ قال «أَيُّ عَمِّ هَذَا

(١) قال رسول الله ﷺ: «رأيت القس في الجنة عليه ثياب حرير» يعني ورقة. رواه الديلمي في مسند الفردوس.

(٢) رواه ابن عساکر بلفظ: «بدأ الإسلام غريباً ثم يعود غريباً كما بدأ؛ فطوبى للغرباء الذين يصلحون عند فساد الناس...» إلخ الحديث، وهو حديث طويل.

دين الله وملائكته ودين رسله ودين أبينا إبراهيم، بعثني الله رسولاً إلى العباد، وأنت أي عمّ أحمق من بذلت له النصيحة ودعوته إلى الهدى، وأحمق من أجابني إليه وأعانني عليه»، فقال أبو طالب: «أي ابن أخي، إني لا أستطيع أن أفارق دين آبائي وما كانوا عليه، ولكن والله لا يُخَلِّصُ إليك بشيء تكرهه ما بقيت».

كفالتة علياً :

وكان مما أنعم الله به على عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه وأراده من الخير أن قريشاً أصابتهم أزمة شديدة، وكان أبو طالب ذا عيال كثيرة، فقال رسول الله ﷺ للعباس، وكان من أيسر بني هاشم: يا عباس إن أخاك أبا طالب كثير العيال، وقد أصاب الناس ما ترى من هذه الأزمة، فانطلق بنا إليه فلنخفف من عياله؛ أخذ من بنيهِ رجلاً وتأخذ رجلاً فنكفيهما عنه»، قال العباس: نعم. فانطلقا حتى أتيا أبا طالب فقالا له: إنا نريد أن نخفف عنك من عيالك حتى ينكشف عن الناس ما هم فيه، فقال لهما أبو طالب: إذا تركتما لي عقيلاً فاصنعا ما شئتما، ويقال: «عقيلاً وطالباً»، وكان لأبي طالب: عليّ، وجعفر، وعقيل، وطالب، وكان عليّ أصغر من جعفر بعشر سنين، وجعفر أصغر من عقيل بعشر سنين، وعقيل أصغر من طالب بعشر سنين. أسلم منهم عليّ وجعفر وعقيل، ومات طالب على دين قومه. فأخذ رسول الله ﷺ علياً فضمه إليه، وأخذ العباس جعفرًا فضمه إليه، فلم يزل عليّ مع رسول الله ﷺ حتى بعثه الله نبياً فاتبعه وآمن به وصدقته، ولم يزل جعفر عند العباس حتى أسلم واستغنى عنه.

واختلف العلماء في مقامه بمكة بعد أن أوحى إليه؛ فقول عشرة سنين، وقيل ثلاث عشرة سنة وهو الصحيح، ولعل الذي قال عشرة سنين أراد بعد إظهار الدعوة؛ فإنه بقي ثلاث سنين يسرها، ثم نزل عليه ﷺ بعد ذلك الأمر بالإعلان، وذلك في قوله تعالى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الحجر: ٩٤] فأعلن ﷺ بالدعوة، وجاهره قومه بالعداوة واشتد الأذى عليه وعلى المسلمين حتى أذن لهم في الهجرة إلى الحبشة كما سيأتي.

ولما نزل قوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] دعا عليًا فقال: اصنع لنا صاعًا من طعام، واجعل لنا عليه رجلًا شاة، واملأ لنا عُسًا (أي قدحًا عظيمًا) من لبن، واجمع لي بني المطلب حتى أَكْلَمَهُمْ وأبلغهم ما أمرت به» ففعل، ودعاهم، وهم أربعون رجلًا يزيدون رجلًا أو ينقصون، فيهم أعمامه أبو طالب وحمزة والعباس، وأحضر عليّ الطعام فأكلوا حتى شبعوا، قال عليّ: لقد كان الرجل الواحد منهم ليأكل جميع ما شبعوا كلهم منه^(١)، فلما فرغوا من الأكل وأراد النبي ﷺ أن يتكلم بَدَرَهُ أبو لهب إلى الكلام فقال: «سَحَرَكُم مُحَمَّدٌ صاحبكم»، ففترَّق القوم ولم يكلمهم رسول الله ﷺ. ثم قال: يا عليّ قد رأيت كيف سبقني هذا الرجل إلى الكلام فاصنع لنا في غد كما صنعتَ اليوم واجمعهم ثانيًا. فصنع عليّ في الغد كذلك، فلما أكلوا وشربوا اللبن، قال لهم ﷺ: «ما أعلم إنسانًا في العرب جاء قومه بأفضل مما جئتم به، قد جئتم بخير الدنيا والآخرة، وقد أمرني الله أن أدعوكم إليه، فأياكم يؤازرنى على هذا الأمر ويكون أخي ووصيّي وخليفتي فيكم؟ فأحجم القوم عنها جميعًا، قال عليّ: فقلت وإني أحدثهم سنًا، وأرمرضهم عينًا وأعظمهم بطنًا وأحמשهم^(٢) ساقًا: أنا يا نبي الله أكون وزيرك عليهم، قال: فأخذ برقبتي ثم قال: «إن هذا أخي ووصيّي وخليفتي فيكم فاسمعوا وأطيعوا»، فقام القوم يضحكون ويقولون لأبي طالب: قد أمرك أن تسمعَ لعليّ وتطيع. واستمرّ ﷺ على ما أمره الله تعالى لم يبعد عنه قومه، ولم يردّوا عليه، حتى سَبَّ آلَهم وعابها، ونسبَ قومه وآباءهم إلى الكفر والضلال، فأجمعوا على عداوته إلا من عصمه الله بالإسلام. وذَبَّ عنه عمُّه أبو طالب، فجاء أبا طالب رجلًا من أشرف قريش فقالوا: يا أبا طالب، إن ابن أخيك قد عاب ديننا وسفّه أعلامنا^(٣) وضلَّ^(٤) آباءنا؛ فأنه عنا أو خلَّ بيننا وبينه. فردَّهم أبو طالب ردًّا حثيثًا. واستمرّ ﷺ على ما

(١) هذا من بر كنهه ﷺ بكفاية الطعام القليل العدد الكثير.

(٢) أنحفهم وأدقهم.

(٣) عقولنا.

(٤) وصفهم بالضلال.

هو عليه، فعظم عليهم، وأتوا أبا طالب ثانيًا، وقالوا: إن لم تنهه وإلا نازلناك وإياه حتى يهلك أحد الفريقين. فعظم عليه، وقال لرسول الله ﷺ: يا ابن أخي إن قومك قالوا لي كذا وكذا. فظنَّ ﷺ أن عمَّه خاذله، فقال: «يا عمّ لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي ما تركت هذا الأمر»، ثم استعبر^(١) فبكى، وقام ﷺ، فناداه أبو طالب: أَقْبِلْ يا ابن أخي وَقُلْ ما أَحْبَبْتَ، فوالله لا أُسَلِّمُكَ لِشَيْءٍ أَبَدًا.

فأخذت كل قبيلة تعذب كلَّ مَنْ أسلم منها؛ فَمَنْ لا عشيرة له تمنعه يعذبونه بأنواع التعذيب، ويقال له: «لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى» ومن المسلمين مَنْ مات من تعذيب المشركين، وكان بعضُ المشركين يؤذي رسول الله ﷺ بقولهم: إِنَّ مَا جَاءَ بِهِ مِنَ الْآيَاتِ سِحْرٌ يُوْثِرُ، ومن قول البشر، وأساطير الأولين. ومنع الله رسوله بعمه أبي طالب، ومع ذلك فلا زال أذاهم شديدًا عليه ﷺ حتى أسلم عمُّه حمزة، فقلَّ أذاهم، وكان إسلامه سنة خمس من النبوة، قبل إسلام عمر بن الخطاب بثلاثة أيام. وفي «المواهب اللدنية»^(٢) قال حمزة حين أسلم:

حمدتُ الله حين هدى فؤادي	إلى الإسلام والدين الحنيف
لدين جاء من ربِّ عزيز	خبير بالعباد بهم لطيف
إذا تليت رسائله علينا	تحدر دمع ذي اللب الحصيف
رسائل جاء أحمد من هداها	بآيات مبيّنة الحروف
وأحمد مصطفًى فينا مطاع	فلا تغشوه بالقول العنيف
فلا والله نُسَلِّمه لقوم	ولما نقض فيهم بالسيوف

وفي هذه السنة أعز الله الإسلام أيضًا بإسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه كما سيأتي.

(١) هو استعمل من العبرة، وهي تحلب الدمع.

(٢) للقسطاني.

وسبب إسلام حمزة أن النبي ﷺ كان عند الصفا، فمرّ به أبو جهل بن هشام، فشتّم النبي ﷺ فلم يكلمه، وكان حمزة في القنص^(*)، وكان على دين قومه، فلما حضر أنبأته مولاة لعبد الله بن جدعان بشتّم أبي جهل لابن أخيه ﷺ، فغضب حمزة وقصد البيت ليطوف به وهو متوشح قوسه، فوجد أبا جهل بن هشام قاعدًا مع جماعة، فضربه حمزة بالقوس فشجه، ثم قال: «أتشتّم محمدًا؟! أنا على دينه». فكان إسلامه ببركته ﷺ، فقامت رجال من بني مخزوم لينصروا أبا جهل، فقال أبو جهل: دَعُوهُ فَإِنِّي سَبَبْتُ ابن أخيه سبًّا قبيحًا. ودام حمزة على إسلامه، وعلمت قريش أن النبي ﷺ قد عَزَّزَ وامتنع بإسلام حمزة، فكفّوا عن بعض ما كانوا يتناولون منه، وبقيت عداوتهم له، وكانوا يسمونه صابئًا؛ لكونه خرج عن دين قومه؛ لأن الصابئ عند العرب من مال عن دين قومه إلى غيره.

حكى ابن الجوزي في بعض مجالس وعظه فقال: «ما خلق الله رئيسًا في الخير إلا وله مقابل من أهل الشر: خلق الله آدم وإبليس، والخليل والنمرود^(١)، وموسى وفرعون، ومحمدًا ﷺ وأبا جهل، وهكذا أبدًا».

وكانت كنية أبي جهل أبا الحَكَم، فكانه النبي ﷺ أبا جهل، وهو عمرو بن هشام، وقد قال ﷺ: «إن لكل أمة فرعونًا، وإن فرعون هذه الأمة أبو جهل»^(٢).

ويُحكى بمناسبة ذلك أن السلطان محمود الأول^(٣) الغازي ذهب إلى قطب الأقطاب أبي الحسن الخرقاني^(٤) ليزوره، فقال: حدّثنا حديثًا عن أبي يزيد^(٤) لنسمعه منك، فقال الشيخ: كان أبو يزيد رجلًا من أبصره نجا، ومنَ نظر إليه اهتدى، فقال

(*) رحلة صيد.

(١) الخليل: هو إبراهيم عليه السلام، والنمرود: هو الفرعون الذي حاجَّ إبراهيم في ربه.

(٢) وعن قتادة قال: إن لكل أمة فرعونًا، وفرعون هذه الأمة أبو جهل قتله الله شر قتلة». السيرة الحلبية ص ١٨٤ ج ٢.

(٣) أحد سلاطين العثمانيين، ولد ١١٠٨ هـ، ١٦٩٦ م، وتوفي ١١٦٨ هـ، ١٧٥٤ م حكم ٢٥ سنة واتصف بالعدل وكثرة

الفتوحات، وكان محبًا للعلم.

(٤) كلاهما من أولياء الله الصالحين.

السلطان محمود: هو أعظم من حضرة محمد ﷺ؟! فقد كان أبو جهل وغيره من الكفار يبصرونه وينظرون إليه، كمال النظر، ولم ينجوا، بل ماتوا على الكفر؟! فأجابه الشيخ -قدس سرّه- بأن هؤلاء كانوا لا يبصرون تلك الحضرة، بل كانوا يبصرون محمد بن عبد الله، وينظرون إليه بالنظر إلى أنه رجل من بني آدم، حتى لو كانوا أبصروه بوصف كونه محمداً رسول الله لفازوا بالسعادات ونجوا من الشبهات وتنحوا عن الضلالات، ومصدق ذلك قوله جل ذكره: ﴿وَتَرَدَّهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٨] وتحقيق ذلك أن الجثة الإنسانية والصورة البشرية الجسمانية يشترك فيها الأنبياء والأولياء والعلماء، وتستوي فيها الخاصة والعامة، وإنما الذي يناف به مراتب الرجال ويظهر تفاوت الأقدار هو المعاني والكمالات الحاصلة للإنسان، مع تفاوتها وتكثُرُها المتعلقة بالقرب الإلهي، ولا يعرف صاحب هذه الأوصاف إلا الكاملون، فمن غرق في بحار الضلالات وانغمس في تيه الجهالات كيف يعرف كنه المتصف بصفات الكمالات؟!

كفـيف يدرك في الدنيا حقيقته قوم نيام تسلّوا عنه بالحلم!

[اهـ].

اشتداد الأذى عليه ﷺ:

فغير الاستمرار على الإيذاء لجسمه الشريف تعرضوا دائماً لرميه بالسحر والكهانة والجنون، بعد ما سبق منهم قبل النبوة أنهم كانوا ينظرون إليه نظر كمال وإجلال، حتى سموه بالأمين قبل النبوة، واشتهر عندهم بهذا العنوان، ولم يجربوا عليه بعد إشهارة بذلك خللاً ولا نقصاً؛ فتناقض أمرهم فيه، واختل اعتقادهم بعد النبوة لعمى بصيرتهم، ورجعوا وصفوه بالجنون مثلاً، ولم يكن لهم شبهة في ذلك إلا ما رأوه منه عند نزول الوحي من الاستغراق لتلقيه، ومن حُمرّة الوجه وكثرة الغطيط، فعَمِيَتْ قلوبهم عن إدراك الفرق بين حالة نزول الملك وحالة الجنون، مما لا يخفى على أدنى عاقل،

فكانوا ينظرونه كأنه رجل من بني آدم، ولا يلتفتون إلى أمانته ولا إلى وصف النبوة.
فالمبالغة في أذى قريش للمسلمين هي التي أوجبت الهجرة إلى الحبشة مرتين،
كما أن المبالغة -خصوصاً في إيذائه - ﷺ - هي التي أوجبت الخروج إلى الطائف ثم
الهجرة إلى المدينة.



الفصل الثاني

في الهجرتين إلى الحبشة

الهجرة الأولى إلى الحبشة:

ولما رأى ما يصيب أصحابه من البلاء والتعذيب في الإسلام، والفتنة، ورأى ما هو فيه من العافية من الله تعالى، ثم من عمه أبي طالب، وأنه لا يقدر أن يمنعهم مما هم فيه من البلاء، أذن ﷺ لأصحابه في الهجرة إلى الحبشة في رجب سنة خمس من النبوة، وقال لهم: «إن بها ملكاً لا يُظلم الناس ببلاده، فتحوّزوا^(١) عنده حتى يأتيكم الله بفرج منه». وكانت أرض الحبشة متجرّاً لقريش، فخرجوا متسللين سرّاً وعدّتهم اثنا عشر رجلاً وأربع نسوة، وكان فيهم عثمان بن عفان ومعه زوجته رقية بنت رسول الله ﷺ، فنزلوا بسفيتين للتجارة كانتا مسافرتين لذلك، حتى وصلوا للنجاشي ملك الحبشة، فكانت هذه هي أول هجرة في الإسلام. وكان قد خرج أثر المهاجرين جعفر بن أبي طالب مع أصحابه وزوجته أسماء بنت عميس، فتتابع المسلمون إلى الحبشة؛ فمنهم من هاجر بأهله ومنهم من هاجر بنفسه، ولهذا صحّ للمسلمين قديماً وحديثاً الهجرة من ديار الكفر إلى ديار الإسلام، ومن ديار الفسق إلى ديار الطاعة^(٢)؛ فعلى المسلم أن

(١) يقال: تحوّز الرجل: تمكّث وتلبّث.

(٢) قول غير صحيح على إطلاقه؛ لأن النبي ﷺ قال: «لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهاد ونية» وذلك لأن المسلمين في وقت الدعوة في مكة لم يكن أمامهم إلا الهجرة، أما وقد فتحت مكة، فقد فتحت الأرض بعدها سهولها وجبالها وأوديتها للمسلمين ينشرون فيها الإسلام، وأصبحت بلاد المسلمين واسعة الأطراف، فإذا كان في بلد من بلاد المسلمين بدعة من البدع، فالثبات هو الفرض على كل مسلم لإزالة هذه البدعة، والخروج من هذه البلاد فرار يعاقب عليه. والهجرة نفسها لم تكن هروباً، وإنما كانت بحثاً عن أرض تصلح للدعوة، فلما أمروا بالمدينة رجعوا إليها واستقرت بها الأمور، وكان الفتح المبين، ونصر الله دينه وأعزه، فلا هجرة بعد ذلك ولكن جهاد ونية. والله تعالى أعلم.

ينتقل إلى الأرض التي يخفّ فيها الفسق أو الكفر إذا لم يجد داراً محضّة لأهل الإسلام والتقوى، ويشهد لذلك هجرة المسلمين من مكة، وهي إذ ذاك دار كفر وجاهلية إلى أرض الحبشة، وهي دار كفر وأهل كتاب.

وإنما تجب المهاجرة من أرض البدعة ما لم يتمكن المقيم بها من وظيفة حسنة كالإرشاد والهداية، فالمقام بهذا القصد أولى؛ لأن الخروج سلامة، والمقام كرامة، ولهذا لم يهاجر إلى الحبشة إلا البعض ممن حسنت هجرته، لا سيما المستضعفين^(١).

وفي أثناء مكث المهاجرين بالحبشة في الهجرة الأولى أسلم عمر بن الخطاب رضي الله عنه سنة خمس من النبوة بعد إسلام حمزة رضي الله عنه بثلاثة أيام. قال ابن عباس: لما أسلم عمر بن الخطاب قال جبريل للنبي ﷺ: يا محمد لقد استبشر أهل السماء بإسلام عمر، فإن المشركين قالوا: قد انتصف القوم اليوم منا، وأنزل الله تعالى على المصطفى ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٤] وكان أمر المسلمين قبله على غاية من الخفاء، وبعده على غاية من الظهور.

وسبب إسلامه أنه وجد مع أخته بعض آيات من القرآن من سورة الأنبياء، وكانت خبأتها عنه، فسلمها من يدها غصباً، فقرأها، فحلت في قلبه محل الإعجاب، وأفحمه لفظها ومعناها، فذهب إلى النبي ﷺ وأسلم على يديه، وكان ذلك إجابة لدعوة النبي ﷺ بقوله: «اللهم أعز الإسلام بأحب الرجلين إليك: عمر بن الخطاب أو بعمر بن هشام» (اسم أبي جهل) فكان أحبهما إليه عمر بن الخطاب، فكان عز الإسلام بعمر بن الخطاب. وذكر الدارقطني أن عائشة قالت: إنما قال النبي ﷺ: «اللهم أعز الإسلام» لأن الإسلام يُعز ولا يُعز، وكان دعاؤه ﷺ بذلك يوم الأربعاء، فأسلم عمر يوم الخميس، وكان عمر لا يُرام ما وراء ظهره، فامتنع به وبحمزة الصحابة.

وفي البخاري: «لما أسلم عمرُ اجتمع الناسُ عند داره وقالوا: صبأ عمر، فبينما

(١) هم الذين كانوا يُعذَّبون في مكة.

هو في داره خائفاً إذ جاءه العاص بن وائل، وقال له: ما لك؟ قال: زعم قومي أنهم يقتلونني إن أسلمت، قال: أمنت؟ لا سبيل إليك. فخرج العاص فلقي الناس قد سال بهم الوادي، فقال: أين تريدون؟ قالوا: نريد عمر بن الخطاب الذي صبا، فقال: لا سبيل إليه فأنا له جار، ففكر الناس وتصدعوا عنه^(*).

وكان ابن مسعود يقول: ما كنا نقدر أن نصلّي عند الكعبة حتى أسلم عمر رضى الله عنه. وقال أيضاً: كان إسلامه فتحاً، وهجرته نصراً، وإمامته رحمة. وروى ابن شريح ابن عبيد عنه أنه قال: خرجت أنعرّض رسول الله ﷺ فوجدته قد سبقني إلى المسجد، فقمّت خلفه، فاستفتح سورة «الحاقة» فجعلت أعجب من تأليف القرآن، قال: فقلت هذا والله شاعر كما قالت قريش. قال: فلما قرأ: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُوْمَنُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الحاقة: ٤٠ - ٤١] قال: قلت كاهن، كأنه علم ما في نفسي فقراً: ﴿وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَّا نَذْكُرُونَ ﴿٤٢﴾ نَزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [الحاقة: ٤٢، ٤٣] إلى آخر السورة، فوقع الإسلام في قلبي كل موقع. ولعل واقعة سماع القرآن تعددت قبل إسلامه.

مسألة الغرائيق وما سمّوه الآيات الشيطانية:

ولما قرأ ﷺ سورة «والنجم» (وكان يرتل قراءته) فلما بلغ ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّتَّ وَالْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنُوءَ الثَّلَاثَةِ الْآخِرَىٰ ﴿٢٠﴾﴾ [سورة النجم ١٩: ٢٠] ارتصده الشيطان في سكتة من سكتاته، فألقى عندها: [تلك الغرائيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى] محاكياً نغمته بحيث سمعه من دنا إليه فظنّها من قول النبي ﷺ، وأشاعها، فوقع في قلب كل مشرك بمكة، وذلت منها ألسنتهم وتباشروا بها، وقالوا: إن محمداً قد رجع إلى ديننا. فلما بلغ رسول الله ﷺ آخر سورة النجم^(١) سجد وسجد معه كل مشرك غير الوليد بن المغيرة، كان

(*) انظر فتح الباري باب إسلام عمر: ح ٣٨٦٤ ص ٢٢٤ ج ٧٢. وفي سيرة ابن هشام خبر قريب مع اختلاف القصة وهو أن قتلاً وقع بين عمر وقريش في الكعبة فتكاثروا عليه، فأجاره خاله العاص بن وائل (وانظرها في سيرة ابن هشام) (إسلام عمر بن الخطاب).

(١) الآية ٦٢ من سورة النجم قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ لِلَّهِ وَاعْبُدْهُ﴾.

شيخاً كبيراً لا يقدر على السجود، ملأ كفه تراباً سجد عليه، فعجب الفريقان كلاهما في السجود بسجود النبي ﷺ، وعجب المسلمون بسجود المشركين معهم، ولم يكن المسلمون سمعوا ما ألقى الشيطان، كما قاله موسى بن عقبة، وأما المشركون فاطمأنوا إلى رسول الله ﷺ وأصحابه، وفشت تلك الكلمة في الناس، وأظهرها الشيطان حتى بلغت أرض الحبشة ومن بها من المسلمين، ثم بعد مكثهم هناك دون ثلاثة أشهر رجع كثير منهم عندما بلغهم عن المشركين بسجودهم مع رسول الله ﷺ عند قراءته سورة «والنجم» وظنوا إسلامهم.

ولما بلغ رسول الله ﷺ تلك الكلمة التي فشت في الناس ساء ذلك؛ فأنزل الله عز وجل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى ﴿٥١﴾ أَيُّ قَرَأَ ﴿٥٢﴾ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ [الحج: ٥٢] (أي قراءته) كما قال الفراء. ويؤيده ما رواه ابن جرير: «والقاء الشيطان فيها أن يتكلم بذلك رافعاً صوته، بحيث يظن السامعون أنه من قراءة النبي ﷺ». وعلقه البخاري في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ [الحج: ٥٢] قال: إذا حدث ألقى الشيطان في حديثه^(١) ﴿فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ أَيْتِيَّهُ﴾ [الحج: ٥٢] ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بإلقاء الشيطان ما ذكر، ﴿حَكِيمٌ﴾ في تمكينه منه، يفعل ما يشاء.

ويؤيد ذلك ما سبق في الفصل الأول من هذا الباب من أن كفار قريش لما كانوا يطوفون بالكعبة كانوا يقولون: «واللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى، فإنهن غرائق العلى وإن شفاعتهن لترتجى»، فكانت هذه العبارة مركوزة في أذهانهم، هاجسة في خواطرهم، يخيل لهم سماعها، وأن الشيطان نطق بها عند انقطاع نفس النبي ﷺ في التلاوة، فحاكى بها صوته.

واللات والعزى ومناة: أصنام من حجارة كانت في جوف الكعبة يعبدونها، وقيل

(١) نص ما قاله البخاري كاملاً: «وقال ابن عباس: ﴿فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ إذا حدث ألقى الشيطان في حديثه، فيبطل الله ما يلقي الشيطان، ويحكم آياته». اهـ.

غير ذلك. والغرائق هي في الأصل: الذكور من طير الماء الأبيض الطويل العنق، وقيل أسود كالكركي، وقيل: إنه الكركي، ويتجوَّز به عن الشاب الناعم، والمراد بها الأصنام، حيث كانوا يزعمون أن الأصنام تقربهم من الله وتشفع لهم، فشَبَّهَتْ بالطيور التي تعلق في السماء وترتفع.

والفرق بين الصنم والوثن أن الصنم الصورة بلا جثة، والوثن كل ما له جثة معمولة من جواهر الأرض أو الخشب والحجارة كصورة الآدمي، تُعمل وتُنصب وتُعبَد، ومنهم من لم يفرِّق بينهما وأطلقهما على المعنيين، وقد يطلق الوثن على غير الصورة. وقد اختلف المفسرون في المراد بالنجم على أقوال: أحدها: أنه الجملة من القرآن إذا نزلت، وكلما نزل منه شيء في وقت فهو نجم. ثانيها: أنه عني بالنجم الثُّرَيَّا^(١)، والعرب تطلق اسم النجم على الثريا خاصة، فلا يذكرونه في الإطلاق إلا لها، قائلهم:

طَلَعَ النَّجْمُ عَشِيًّا ابْتَغَى الرَّاعِي كُسِيًّا

وقال أيضًا:

طَلَعَ النَّجْمُ غَدِيَّةً ابْتَغَى الرَّاعِي شُكِيَّةً

يعني الثريا، وهي تطلع العشا في الثلث الأخير من فصل الخريف، قبل الشتاء بشهر، وذلك مبادئ قوة البرد، لأن آخر كل فصلٍ شبيه بالذي بعده، فلهذا طلب الراعي الكساء، وتطلع بالغداة في الصيف وقت أوان اللبن، فلهذا طلب الشُّكِيَّة: تصغير شكوة، وهي جلد الرضيع يتخذ اللبن، أصغر من الوطب، الذي هو جلد الجذع.

وفي الحديث: «ما طلع النجم قطّ وفي الأرض من العاهة شيءٌ إلا ارتفع» رواه الإمام أحمد.

قال ابن دريد: الثريا سبعة أنجم؛ أنجم منها ظاهرة، وواحد خفي، يمتحن الناس به أبصارهم.

(١) الثريا: مجموعة من النجوم في صورة الثور، وكلمة النجم عَلِمَ عليها.

وعلى قول ابن دريد قول الشاعر:

خَلِيلِي إِنِّي لِلثَّرِيَّا لِحَاسٍ — وَإِنِّي عَلَى رِيبِ الزَّمَانِ لَوَاجِدٌ

أَبْقَى جَمِيعًا سَمْلُهَا^(١) وَهِيَ سَبْعَةٌ — وَأَفْقَدُ مِنْ أَحَبِّتُهُ، وَهُوَ وَاحِدٌ

وذكر القاضي عياض في «الشفاء» أنه عليه السلام كان يرى في الثريا أحد عشر نجمًا.

وذكر السهيلي: أنه عليه السلام كان يرى فيها اثني عشر نجمًا، والقول بأن المراد بالنجم

الثريا قاله ابن عباس ومجاهد في رواية عنهما، واختاره ابن جرير والزمخشري، وقال السمين: إنه الصحيح. اهـ.

وهي أشبه شيء بعنقود العنب. ومن شعر سيدي عبد العزيز الديري رحمه الله:

وَصُغَّرْتُ ثَرِيَّةً لِكَثْرَةِ — وَالْخَصْبِ فِي طُلُوعِهَا وَالْيُسْرِ

وقال ابن قتيبة في كتاب «الأنواء»: جاءت، أي الثريا، مصغرة لاجتماعها ولم يتكلم

بها إلا كذلك، وأصلها من الثروة، وهي كثرة العدد، وهي ستة أنجم ظاهرة، في خلالها نجوم كثيرة خفية، ويسمونها نجمًا وأنواء.

ومع ما قيل في هذه الآية وهي قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ

إِلَّا إِذَا تَمَتَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾^(٢) [الحج: ٥٢] وأنه حين قرأ سورة «النجم» وبلغ

(١) السَّمْلُ: القديم.

(٢) كل الذي جرى في هذا الموضوع خبط وهوس من وضع الوضّاعين أصحاب المذاهب الهدّامة، وقع فيه كثير من الناس - رزقنا الله العافية من البلاء.

وقد ذكر البغوي رحمه الله في تفسيره أجوبة منها: أن الشيطان أوقع في مسامع المشركين ذلك، فتوهموا أنه صدر عن رسول الله عليه السلام، وليس كذلك في نفس الأمر، بل إنما كان من صنيع الشيطان، لا عن رسول الرحمن عليه السلام. وقال القاضي عياض رحمه الله: «اعلم أكرمك الله أن لنا في الكلام على مشكل هذا الحديث مأخذين: أحدهما: في توهين أصله.

والثاني: على تسليمه.

أما المأخذ الأول: فيكفيك أن هذه حديث لم يخرجّه أحد من الصحاح، ولا روي بسند سليم متصل ثقة، وإنما أُولع به وبمثله المفسرون والمؤرخون المولعون بكل غريب المتلقفون من الصحف كل صحيح وسقيم. وقال أبو بكر البزار: «وهذا الحديث لا نعلمه يُروى عن النبي عليه السلام بإسناد متصل يجوز ذكره».

فيها ﴿ وَمَنْزِلَةُ الثَّالِثَةِ الْآخِرَى ﴾ ارتصده الشيطان في سكتة من سكتاته فألقى عندها [تلك الغرائق العلي، وإن شفاعتهن لترتجى] محاكياً نغمته إلى آخره، فقد ردَّ بعضهم هذا كله وقال: إنه موضوعٌ وضعه الزنادقة، ولا أصل له؛ لأن الشيطان لا يلقي على الرسل والأنبياء عليهم الصلاة السلام شيئاً؛ حيث هم معصومون. وحلَّ هذه المسألة يُفهم مما كتبه البيضاوي والشهاب الخفاجي والشيخ زادة في هذا المحل، يعني قوله تعالى: ﴿إِلَّا إِذَا مَنَّكَ أَلْفَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾؛ فإنه يُفهم من كلام البيضاوي أنه هياً في نفسه ما يهواه ﴿أَلْفَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ أي في تشهيه ما يوجب اشتغاله بالدنيا، كما قال عليه الصلاة السلام: «إنه ليغان على قلبي فأستغفر الله سبعين مرة»^(١) قال الشهاب: حديث صحيح، والغين قريبٌ من الغيم لفظاً، والمعنى أنه يعرض لقلبي أن يغشاه

= (انظر القرطبي ص ٨٢ ج ١٢ طبع دار الكتب).

ثم قال القرطبي رحمه الله:

الثالث: «الأحاديث المروية في نزول هذه الآية: ليس منها شيء يصح».. إلى أن قال: قال النحاس: «وهذا الحديث منقطع، وفيه الأمر العظيم». اهـ.

والذي يميل إليه القلب ويسكن من الفزع هو: أن أيَّ نبيٍّ من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين إنما يتمنى أن يؤمن قومه جميعاً، فيلقي الشيطان في هذه الأمانة ويدعثر قوماً من قومه، ويلقي في أدمغتهم وقلوبهم الخيال، ويشنون على النبي ﷺ الحرب حتى لا يؤمن قومه. ولو أن الشيطان تمكن من أن يلقي على لسان نبي من الأنبياء لضاعت رسالته من أولها إلى آخرها، ويكفي شاهداً ودليلاً وضاحاً قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الحجر: ٤٢]. والأنبياء أخص الخاصة من عباد الله تعالى.

(١) أغان الغينُ السماء: ألها. والحديث رواه مسلم وأبو داود والنسائي وأحمد عن الأغر المزني رضي الله عنه بلفظ: «إنه ليغان على قلبي، وإني لأستغفر في اليوم مائة مرة». ويروى أن الإمام أبا الحسن الشاذلي رضي الله عنه رأى حضرة النبي ﷺ في المنام فسأله عن الحديث. فقال له: «غينُ أنوار لا غينُ أغيار يا مبارك». وقال الإمام العيني رحمه الله: وإنما كان يستغفر هذا المقدار مع أنه معصوم ومغفور له لأن الاستغفار عبادة، أو هو تعليم لأتمته، أو استغفاراً من ترك الأولى.. إلى أن قال: اشتغاله بالنظر في مصالح الأمة ومحاربة الأعداء وتأليف المؤلفات لقلوبهم ونحو ذلك شاغل عن عظيم مقامه، من حضوره مع الله عز وجل، وفراغه مما سواه، فيراه ذنباً بالنسبة إليه، وإن كانت هذه الأمور من أعظم الطاعات وأفضل الأعمال، فهو نزول عن عالي درجته، فيستغفر لذلك. وقيل: كان دائماً في الترقى في الأحوال، فإذا رأى ما قبلها دونه استغفر منه، كما قيل: حسنات الأبرار سيئات المقربين.

بعض أمور من أمور الدنيا والخواطر البشرية مما يلزم للتبليغ، لكنها لإشغالها عن ذكر الله يعدّها كذنوب، فيفزع إلى الاستغفار منها، و (سبعين) للتكثير لا للتخصيص. (انتهى كلام الشهاب).

قال البيضاوي في قوله تعالى: ﴿فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ﴾ [الحج: ٥٢]: «فيطله ويذهب به، بعصمته عن الركون إليه، والإرشاد إلى ما يريحه». (انتهى كلام البيضاوي).

فقوله (بعصمته عن الركون إليه) إلى آخره هو محل الإشارة إلى الجواب كما يفهم بالتأمل ﴿ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ أَيْمَتَهُ﴾ [الحج: ٥٢] قال البيضاوي: ثم يثبت آياته الداعية إلى الاستغراق في أمر الآخرة ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بأحوال الناس ﴿حَكِيمٌ﴾ بما يفعله بهم، قال البيضاوي: «حدث نفسه بزوال المسكنة فنزلت، وقيل تمنى لحرصه على إيمان قومه أن ينزل عليه ما يقربهم إليه، واستمر به ذلك حتى كان في ناديهم، ونزلت عليه سورة «والنجم» فأخذ يقرأها فلما بلغ ﴿وَمَنْوَةَ الثَّالِثَةِ الْآخِرَى﴾ [النجم: ٢٠] وسوس إليه الشيطان حتى سبق لسانه سهواً إلى أن قال: «تلك الغرائق العلى وإن شفاعتهن لترتجى»، ففرح به المشركون حتى تابعوه بالسجود لما سجد في آخرها أي آخر سورة النجم، بحيث لم يبق في المسجد مؤمن ولا مشرك إلا سجد، ثم نبأ جبريل عليه السلام، فاغتم لذلك، فعزاه أي سلاه الله بهذه الآية. وهو (أي ما ذكر من قوله سبق لسانه سهواً وقوله تلك الغرائق.. إلخ) مردود عند سائر المحققين^(١). وإن صح فابتلاء يتميز به الثابت على الإيمان عن المتزلزل فيه، وقيل: ﴿تَمَنَّى﴾ أي قرأ؛ كقول حسان رضي الله عنه:

تَمَنَّى كِتَابَ اللَّهِ أَوَّلَ لَيْلَةٍ تَمَنَّى دَاوُدَ الزَّبُورَ عَلَى رَسَلٍ

[الرَّسُلُ: الترتيل في القراءة بتؤدة وسكينة من غير سرعة، وضمير «تمنى» في البيت

(١) وهذا هو الصحيح، وما قيل فهو كذب وزور وبهتان على رسول الله ﷺ لأنه مرسلٌ لهدم هذه الغرائق والأصنام، وهو من ضلال المضللين وافتراء الكذابين كما سبق أن قلنا.

لعثمان رضي الله عنه، وأمنيته: قراءته].

وإلقاء الشيطان فيها أن يتكلم بذلك رافعاً صوته بحيث يظن السامعون أنه من قراءة النبي ﷺ.

وقد ردّ أيضاً بأنه يُخلّ بالوقوف على القرآن، ولا يندفع بقوله: ﴿فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ﴾ [الحج: ٥٢] لأنه أيضاً يحتمله، وبأن الآية على هذا التفسير تدل على جواز السهو على الأنبياء وتطرق الوسوسة إليهم سيأتي رده في عبارة الشهاب ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ﴾ [الحج: ٥٣] علة لتمكين الشيطان منه، وذلك يدل على أن الملقى أمر ظاهر عرفه المحق والمبطل ﴿فَتَنَّةٌ لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ شك ونفاق ﴿وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ المشركين ﴿وَالظَّالِمِينَ﴾ يعني الفريقين، فوضع الظاهر موضع ضميرهم، قضاء عليهم بالظلم ﴿لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ عن الحق، أو عن الرسول والمؤمنين. (انتهى كلام البيضاوي).

قال الشهاب: قوله «سبق لسانه سهواً» هذا غير صحيح؛ لأنه ﷺ محفوظ عن السهو بما يخالف الدين والشرع؛ لأن التكلم بما هو كفر سهواً أو نسياناً لا يجوز على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام؛ وإذا سهوا ﷺ في صلاة ونحوها كان تشرعاً، حتى قال بعض العلماء: إن سجدة السهو في حقه ﷺ سجدة شكر، وقول البيضاوي في عبارته المتقدمة: «وهو مردود عند المحققين»، قال الشيخ زادة: يعني أن جماعة من المفسرين وإن قالوا إن هذه الآيات نزلت تسلياً له عليه الصلاة والسلام في اغتمامه بما سبق لسانه سهواً من حديث الغرائق، إلا أن رؤساء أهل السنة والجماعة ردوا هذا القول، وقالوا: هذه الرواية باطلة موضوعة، واحتجوا عليه بالقرآن العظيم والسنة والمعقول:

أما القرآن فمنه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَقُولُ﴾ [الحاقة: ٤٤] أي النبي ﷺ بأن كلف نفسه أن يقول مرة في الدهر كذباً ﴿عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ﴾ أي التي لم نقلها، أو قلناها ولم نأذن له فيه، ﴿لَاخْذًا مِنْهُ بِالْيَمِينِ﴾ [الحاقة: ٤٥] أي: بالقوة والقدرة، ﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾ [الحاقة: ٤٦] أي نياط القلب، وهو يتصل من الرأس، إذا انقطع مات صاحبه.

ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبْدِلَهُ مِنْ تَلْقَائِي نَفْسًا إِنْ أَتَيْعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ [يونس: ١٥].

ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣، ٤]. فلو أنه عليه الصلاة والسلام قرأ عقيب هذه الآية قوله: [تلك الغرائق العلى] لما ظهر صدق الله تعالى في جميع ذلك، وذلك لا يقول به مسلم.

وأما السنة: فهو أنه روي عن محمد بن خزيمة أنه سئل عن هذه القصة فقال: هذا من وضع الزنادقة، وصنّف فيه كتاباً.

وقال الإمام أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي: «هذه القصة غير ثابتة من جهة النقل، وإن رواة هذه القصة مطعونون، وأيضاً فقد روى البخاري في صحيحه «أنه ﷺ قرأ سورة النجم وسجد المسلمون والمشركون والإنس والجن» وليس فيه حديث الغرائق.

وأما المعقول: فما ذكره الإمام النسفي في تفسيره بقوله: «والصحيح المعتمد عليه أن النبي ﷺ لم يتكلم بها، فلا يخلو الأمر من أحد ثلاثة أوجه:

إما أن يجري ذلك على لسانه عمداً باختياره، وهذا لا يجوز؛ لأنه كُفرٌ، وهو ﷺ جاء داعياً إلى الإيمان ناهياً عن الكفر طاعناً في الأصنام، فكيف يمدحها ويعظمها باختياره؟!.

وإما أن يجري الشيطان ذلك على لسانه ﷺ جبراً بحيث لم يقدر على الامتناع عنه، وهذا أيضاً لا يجوز؛ لأن الشيطان لا يقدر على ذلك في حق غيره ﷺ لقوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الحجر: ٤٢] وقوله تعالى حكايةً عن الشيطان ﴿وَمَا كَانَ لِي عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُهُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ [إبراهيم: ٢٢] فكيف يَقْدِرُ على ذلك في حقه ﷺ؟!.

وإما أن يقع ذلك على لسانه ﷺ سهواً وغفلة من غير قصد، وهو أيضاً مردود؛

لأنه ﷺ كان أعقل الخلق وأعلمهم، فكيف تجوز عليه هذه الغفلة؟! خصوصاً في حالة تبليغ الوحي، ولو جاز ذلك لبطل الاعتماد على قوله والثقة به، لقيام احتمال الغلط والخطأ في كل واحد من الأحكام والشرائع، فلما بطلت هذه الوجوه كلها لم يبق إلا احتمال واحد، وهو أنه عليه الصلاة والسلام وقف وسكت عند قوله: ﴿وَمَنْزُةَ النَّائِثَةِ الْآخَرَى﴾ [النجم: ٢٠] والشيطان حاضر عنده، فتكلم الشيطان بهذه الكلمات متصلاً بقراءته ﷺ، ووقع عند بعضهم أنه ﷺ هو الذي تكلم بهذا، وتكون هذه إلقاء في قراءة النبي ﷺ، وكان الشيطان يتكلم في زمن الوحي، كما ذكر أنه ظهر في صورة شيخ نجدى على المشركين الذين اجتمعوا في دار الندوة على قضية المكر بالنبي ﷺ، وتكلم في شؤارهم^(١)، واستصوب رأي بعضهم وخطأ آخرين، وذكر أيضاً أنه نادى يوم أحد أن محمداً قد قتل، وقال يوم بدر ﴿لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنَّ جَارَكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٨]. وهذا الاحتمال غير مستحيل عقلاً وشرعاً، فتنه من الله وابتلاء لعباده، لكنه إنما يجوز في غير مقام تبليغ الوحي وأداء الرسالة له، لأننا لو جَوَزْنَا ذلك لارتفع الأمان عن شرعه، ولجَوَزْنَا في كل ما بلغه إلينا عن الله تعالى أن ينضم إليه غيره بخلط الشيطان، فظهر مما ذكرنا أن هذه القصة موضوعة، غاية ما في الباب أن جمعاً من المفسرين رحمهم الله ذكروها، لكنهم ما بلغوا في الكثرة حَدَّ التواتر، وخبر الواحد لا يعارض الدلائل العقلية والنقلية والمتواترة، فلذلك قال البيضاوي في تفسير الآية: «ألقى الشيطان في تشهيه ما يوجب اشتغاله في الدنيا، ولم يقل ما يوافق تشهيه من الكلام».

ثم قال البيضاوي: «وإنَّ صَحَّ فالظاهر أن مبنى الصحة أن يتكلم به الشيطان عند سكوته عليه الصلاة والسلام عند قوله تعالى ﴿وَمَنْزُةَ النَّائِثَةِ الْآخَرَى﴾. فإنه أقرب الاحتمالات المذكورة إلى الصحة؛ فيكون المعنى: ما من رسول ولا نبي قبلك إلا مكنا الشيطان أن يُلقِي في قراءتهم مثل ما ألقى في قراءتك عندما تمنيت، فلا تهتم

(١) مشيروهم بالرأي.

بذلك؛ فإننا نجعل ذلك لإضلال قوم وهداية آخرين، والتمييز بين الثابت على الإيمان والمتزلزل عنه» انتهى كلام البيضاوي.

وعبارة العلامة الشهاب الخفاجي في قوله «وهو مردود عند المحققين وإن صحَّ...» قد ذكرنا فيها ما قاله الشيخ زادة، وقال الشهاب الخفاجي فيها قوله: «وهو مردود عند المحققين، وإن صحَّ...» إشارة إلى عدم صحته: روايةً ودرايةً:

أما الأول (عدم صحته درايةً)؛ فلما قاله القاضي عياض: إنه لم يوجد في شيء من كتب الحديث المعتمدة بسند صحيح معتمد عليه. وبالغ بعضهم فقال: إنه من وضع الزنادقة، وأكثرُ المحدثين على عدم صحته.

وأما الثاني (عدم صحته روايةً) فلما مرَّ، فعلى تقدير صحته يكون خرج مخرج الكلام الوارد على زعمهم أو على الإنكار لا غير، أو المراد بالغرانيق: الملائكة، وإجماله للابتلاء به.

وأما كونه ابتلاءً من الله ليختبر به الناس، كما ذكره البيضاوي رحمه الله تعالى، فلا يليق به؛ لأنه إن كان بسهوه منه فقد علمت أنه محفوظ عن مثله، وإن كان بتكلم الشيطان وإسماعه لهم، فكذلك لما يلزمه من عدم الوثوق بالوحي، انتهى كلام الشهاب.

قال الشيخ زاده عند قوله فيما تقدم «وقيل ﴿تَمَنَّى﴾ قرأ، كقول حسان..» إلخ.

«إن التمني في اللغة بمعنيين: تمنى القلب، والقراءة، قال الله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانٍ﴾ [البقرة: ٧٨]، أي إلا قراءة، لأن الأمي لا يعلم القرآن من المصحف، وإنما يعلمه قراءةً، وقال رواة اللغة: الأمنية القراءة، واحتجوا عليه بيت حسان رضي الله عنه: *تمنى كتاب الله أول ليلة*

وقيل: الأولى في تأويل الآية أن يقال: التمني بمعنى القراءة، فقوله تعالى: ﴿أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ [الحج: ٥٢] أي عند تلاوته القرآن في قلوب المشركين ما يجادلون به الرسول ﷺ، ويحاجون به ويوقعون به شبهةً في قلوب أتباعه ليمنعوهم

عن أتباعه كقولهم عند سماع قول الرسول ﷺ: «حرّم عليكم الميتة» إنه يحل ذبيحة نفسه ويحرّم ذبيحة الله تعالى. ﴿فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ﴾ في قلوب المشركين بإنزال قوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكُرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ [الأنعام: ١٢١] وقوله: ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذَكَرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١١٨] فبيّن به أنما أحلّ هذا بذكر اسم الله عليه، وحرّم الآخر بعدم ذكر اسم الله عليه، وكقولهم عند سماع ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]: إن عيسى عليه الصلاة والسلام والملائكة عبدوا من دون الله تعالى مع أنه تعالى لا يخزيهم يوم القيامة، فنسخ قولهم هذا بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١] فبين الله تعالى استثناء عيسى والملائكة من قوله: ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ وذلك لأن «ما» لغير العاقل، وأن المراد الأصنام فقط، انتهى (عبارة الشيخ زادة).

وهذا زبدة ما قيل في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ...﴾ [الحج: ٥٢] إلى آخره.

وقد سبق أن من جملة المنكرين قصة ما في «النجم» القاضي عياض، فإنه قال: [هذا الحديث لم يخرج أحد من أهل الصّحة، ولا رواه ثقة بسند سليم متصل، وإنما أولع به المفسرون والمؤرخون]^(١). انتهى.

ولا يُنظر لرّد ابن حجر على القاضي عياض بأنه لا فائدة فيما قاله، ولا يعوّل على كلامه، لا سيما مع قول البيهقي: «إن رواية هذه القصة كلهم مطعون فيهم»، ومع قول النووي نقلاً عن البيهقي ونصه: «وأما ما يرويه الأخباريون والمفسرون أن سبب سجود المشركين مع رسول الله ﷺ ما جرى على لسانه من الثناء على آلهتهم فباطل لا يصح منه شيء، لا من جهة النقل ولا من جهة العقل؛ لأن مدح إله غير الله كفر، ولا يصح نسبة ذلك إلى رسول الله ﷺ، ولا أن يقوله الشيطان على لسانه ﷺ، ولا يصح تسليط

(١) انظر هامش ٢ ص ١٨٦.

الشیطان على ذلك، ولا يلزم عدم الوثوق بالوحي.

وقال الفخر الرازي: «هذه القصة باطلة موضوعة لا يجوز القول بها، قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣، ٤] والشیطان لا يجترئ أن ينطق بشيء من الوحي.

وفي كتاب «الإبريز» للعارف بالله تعالى سيدي عبد العزيز الدباغ ما يفيد تصحيح^(١) قول القاضي عياض من أن حديث الغرائق لا أصل له، وردّ قول ابن حجر المحتاج للتأويلات في تفسيره الآية، ثم فسرها صاحب الإبريز بتفسير بديع وأقرب للعقول، وعبارته: «إن الله تعالى ما أرسل من رسول ولا بعث نبياً من الأنبياء إلى أمة من الأمم إلا وذلك الرسول يتمنى الإيمان لأمته، ويحبهم لهم ويرغب فيهم، ويحرص عليه غاية الحرص، ويعالجهم عليه أشد المعالجة، ومن جملتهم في ذلك نبينا ﷺ الذي قال له الرب سبحانه: ﴿فَلَعَلَّكَ بَخِيعٌ نَفْسَكَ عَلَىٰ آثَرِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣]. إلى غير ذلك من الآيات المتضمنة لهذا المعنى، ثم الأمة تختلف كما قال تعالى: ﴿وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُمْ مَّنْ كَفَرَ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، فأما من كفر فألقى إليه الشيطان الوسوس القاذحة له في الرسالة الموجبة لكفره، وكذا المؤمن أيضاً لا يخلو من وسوس؛ لأنها لازمة للإيمان بالغيب في الغالب، وإن كانت تختلف في الناس بالقلّة والكثرة، وبحسب المتعلقات، إذ تقرر هذا فمعنى تمنى: أنه يتمنى الإيمان لأمته، ويحب لهم الخير والرشد والصلاح والنجاح، فهذه أمنية كل رسول ونبى، وإلقاء الشيطان فيها يكون بما يلقيه في قلوب أمة الدعوة من الوسوس لكفر بعضهم، ويرحم الله المؤمنين فينسخ ذلك من قلوبهم، ويحكم الآيات الدالة على الوحدانية والرسالة، ويبقى ذلك عز وجل في قلوب المنافقين والكافرين، ليفتنوا به.

(١) أي اعتباره هو الصحيح.

فخرج من هنا أن الوسواس تُلْقَى أَوَّلًا في قلوب الفريقين معًا، غير أنها لا تدوم على المؤمنين وتدوم على الكافرين.

وهذا التفسير من أبدع ما يُسمع؛ لأنه يوفي بثلاثة أمور: «العموم الذي في أولها، والتعليل الذي في آخرها، ويُعطي الرسالة حقها». انتهى كلام صاحب الإبريز^(١).

ومنه يُفهم أن إلقاء الوسوسة إنما هو في المتمنى للأمة من أنبيائهم لهم، وهو إيمانهم وطاعتهم وتوفيقهم مما هو وصفهم، وليست الوسوسة متوجهة على الأنبياء المعصومين، الذين خاتمتهم وأكملهم ﷺ؛ فإنَّ مَنْ عرف ما يجب للرسول وما يستحيل عليهم وما يجوز لهم عَلِمَ وجوب العصمة واستحالة ضدها.

وبيان ذلك: أنه يجب في حقهم الأمانة، والصدق، والتبليغ، والفتانة: فأما الأمانة: فهي عصمة ظواهرهم وبواطنهم من التلبس بمنهية عنه، ولو نهى كراهة أو خلاف الأولى؛ فهم محفوظون من منهيات الظاهر ومن منهيات الباطن، كالحسد والكبر والرياء وغير ذلك، والمراد المنهية عنه ولو صورةً، فيشمل ما قبل النبوة، ولو في حال الصغر حتى أن المباح أو المكروه إذا وقع منهم كان صورةً للتشريع، فيصير واجباً أو مندوباً في حقهم؛ فأفعالهم دائرة بين الواجب والمندوب، بل ومن الأولياء الذين هم أتباعهم من يصل منهم لمقام تصير حر كاته وسكناته طاعات بالنيات، فقد ثبت أنه ﷺ توضاً مرة أو مرتين وشرب قائماً.

وأما المحرم: فلم يقع منهم إجماعاً، وما أوهم المعصية فمؤول من باب (حسنات الأبرار سيئات المقربين)^(٢) ولا يجوز النطق به في غير مورده إلا في مقام البيان. ودليل وجوب الأمانة لهم أنهم لو خانوا بفعل محرم أو مكروه أو خلاف الأولى لكنّا مأمورين به؛ لأن الله تعالى أمرنا باتباعهم في أقوالهم وأفعالهم، وهو تعالى لا يأمر بمحرم ولا مكروه ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ [الأعراف: ٢٨].

(١) وهذا هو الذي ترتاح إليه قلوب المؤمنين.

(٢) لأن مقام المقرّب أعلى من مقام البار، فلا يُقبل منه ما يُقبل من البار. والله أعلم.

وأما الصدق: فهو مطابقة خبرهم للواقع في دعوى الرسالة والأحكام الشرعية والأخبار العادية؛ لأنهم لو لم يصدقوا لما كان معنى لتصديقه تعالى لهم بالمعجزة النازل منزلة قوله تعالى: «صدق عبدي في كل ما يبلغ عني»، وأيضاً صدقهم في الأخبار العادية دليلاً داخل في دليل الأمانة.

وأما التبليغ فهو: تأدية ما أتوا به مما أمروا بتبليغه للخلق بخلاف ما أمروا بكتمانه، وما خيروا فيه. ودليله: أنهم لو كتموا شيئاً مما أمروا بتبليغه للخلق لكننا مأمورين بكتمان العلم؛ لأن الله تعالى أمرنا بالاعتداء بهم، وكاتم العلم ملعون^(١). ولو جاز عليهم الكتمان لكتم رئيسهم الأعظم ﷺ قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَهُ﴾ [الأحزاب: ٣٧]. وأصح محامله ما نقله من يعول عليه في التفسير عن علي بن الحسين من أن الله تعالى كان أعلم نبيه أن زينب ستكون من أزواجه، فلما شكها إليه زيد قال ﷺ: أمسك عليك زوجك واتق الله، وأخفى في نفسه ما أعلمه الله به من أنه سيتزوجها، والله مبد ذلك بطلاق زيد لها وتزويجها ﷺ، ومعنى الخشية: استحياؤه ﷺ من الناس أن يقولوا: تزوج زوجة ابنه، أي من تبناه، فعاتبه الله تعالى على هذا الاستحياء، لعلوا مقامه.

وما قيل من أنه ﷺ تعلق قلبه بها وأخفاها، فلا يلتفت إليه، وإن جُلِّ ناكلوه؛ فإن أدنى الأولياء لا يصدر عنه مثل هذا الأمر، فما بالك به ﷺ^{(٢)؟!}

وأما الفطنة فهي: التيقظ لإلزام الخصوم وإبطال دعاوهم الباطلة، ودليلها الآيات

(١) لقوله ﷺ: «كاتم العلم يلعنه كل شيء، حتى الحوت في البحر، والطير في السماء» رواه ابن الجوزي في العلل عن أبي سعيد.

(٢) ومما قيل أيضاً، وهو مرصّي: إنه كان يخفي في نفسه إبطال عادة التبتّي هذه، فكيف يبطلها؟ وكيف يواجه الناس بإبطال هذه العادة الفاسدة؟

أما ما قيل من غير هذه الأشياء، وما يدور في فلكها من عدم مراعاة مقام النبوة ومكان الرسالة، فهو من قول المستشرقين ومن حذا حذوهم قديماً وحديثاً، وهو باطل ومردود.

كقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنعام: ٨٣]، والإشارة بـ «تلك» عائدة على ما احتج به على قومه من قوله ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ﴾ [الأنعام: ٧٦] إلى قوله ﴿وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢]. وكآية ﴿قَالُوا يَنْتُحُ قَدْ جَدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَلَنَا﴾ [هود: ٣٢]. وكآية ﴿وَجَدَلْتَهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥] أي بطريق تشتمل على نوع من الإرفاق بهم، ومن لم يكن فطنًا لا تمكنه الحجة ولا المجادلة، وما ثبت لبعضهم من الكمال ثبت لغيره؛ فتثبتُ الفطنة لجميعهم.

ويستحيل في حقهم ضدُّ هذه الصفات الأربعة؛ ف ضدُّ الأمانة الخيانة، وضد الصدق الكذب، وضد التبليغ كتمان شيء مما أمروا به، وضد الفطنة الغفلة.

وأما الجائز في حقهم فهو سائر الأعراض البشرية التي لا تؤدي إلى نقص في مراتبهم العلية؛ كالأكل والشرب والنوم، وما يكون من توابع الصحة أو مما لا يُستغنى عنه كالجماع للنساء حلالاً، سواء كان بالنكاح أو بالملك، فيجوز لهم الوطء بالنكاح لما عدا الكتابية والمجوسية، ونحوهما، وما عدا نكاح الأمة ولو مسلمة؛ لأنها إنما تُنكح لخوف العنت، ولعدم المهر، وكلُّ منهما متنف؛ أما الأول فللعصمة، وأما الثاني فلأنه يجوز للنبي ﷺ أن يتزوج بدون مهر. ويُعلم من تقييد النكاح بالحلال أنهم لا يطأون صائمات صوماً مشروعاً، ولا معتكفات كذلك، ولا حائضات ولا نفساء ولا مُحَرِّمات بحج ولا عمرة.

ولا يجوز الاحتلام كما صححه النووي؛ لأنه من الشيطان، وقد ورد: «ما احتلم قط».

وأما جواز وطئهم لملك، فيكون للأمة الكتابية معللاً بأنه ﷺ شريف عن أن يضع نطفته في رحم غير مسلمة، وبأنها تكره صحبتته، وأما الأمة المسلمة بالملك فجائز باتفاق.

ويجوز عليهم المرض غير المنفر، والإغماء غير الطويل، بخلاف الجنون قليله

وكثيره، وأما سحر لبيد بن الأعصم له عليه السلام في مشط سنة سبع من الهجرة بإغراء اليهود لبيد على ذلك بإعطائهم دنائير جعلتها له في مقابلة ذلك، فلم يؤثر هذا السحر إلا في بعض جوارحه عليه السلام لا في عقله، فلم يكن قاذحاً في منصبه النبوي، وأما ما في بعض الروايات من أنه عليه السلام صار يُخيل إليه أن يفعل الشيء ولا يفعله، فقال أبو بكر بن العربي: «لا أصل له»^(١).

وأما السهو فممتنع عليهم في الأخبار البلاغية، كقولهم: الجنة أُعدَّت للمتقين، وعذاب القبر حق، وغير البلاغية: كقام زيد وقعد عمرو، وهكذا، وجائز عليهم السهو في الأفعال البلاغية وغيرها كالسهو في الصلاة للتشريع، لكن لم يكن سهوهم ناشئاً عن اشتغالهم بغير ربهم، ولذلك قال بعض الشعراء:

يا سائلي عن رسول الله كيف سَهَا والسهو عن كل قلب غافل لاهي
قد غاب عن كل شيء سِرُّه فَسَهَا عَمَّا سِوَى الله، فالتعظيم لله

ومن السهو الفعلي حديث ذي اليمين لما قال له: «أقصرَت الصلاة أم نسيتَ يا رسول الله؟» حين سلَّم من ركعتين، فقال: «كُلُّ ذلك لم يكن». فقال ذو اليمين: «بل بعض ذلك كان» فقوله عليه السلام: «كل ذلك لم يكن» لم يخل عن مطابقة الخبر للواقع بحسب اعتقاده عليه السلام، وقول ذي اليمين: «بل بعض ذلك كان» فيه مطابقة الخبر للواقع بحسب ما رآه، وكل ذلك للتشريع وتعريف سجود السهو.

وأما النسيان فهو ممتنع في البلاغيات قبل تبليغها قوليةً كانت أو فعلية؛ فالقولية كالجنة أُعدَّت للمتقين، والفعلية كصلاة الضحى، إذ أمر بها ليقْتَدَى به فيها، فلا يجوز نسيان كل منهما قبل تبليغ الأولى بالقول، والثانية بالفعل، وأما بعد التبليغ فيجوز

(١) الواقع أن هذا الحديث صحيح: رواه أئمة الحديث، وعلى رأسهم الإمام البخاري رضي الله عنه وعنهم، وليس في هذا مطعن فيه عليه السلام؛ فإن الذي حدث خيال وليس بحقيقة، وللحديث شاهد من قصة سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام، في قوله تعالى: ﴿يُخِيلُ إِلَهُهُ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهُ سَمِعَ﴾ [طه: ٦٦] وشتان بين الخيال والواقع، والله تعالى أعلم.

نسيان ما ذكر من الله^(١).

وأما نسيان الشيطان فيستحيل عليهم؛ إذ ليس للشيطان عليهم سبيل، وقول يوشع: ﴿وَمَا أَنَسْنِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ﴾ [الكهف: ٦٣] فكان قبل نبوته وعلمه بحال نفسه، وإلا فهو رحماني.

وبالجملة فيجوز على ظواهر الأنبياء ما يجوز على البشر، مما لا يؤدي إلى نقص، وأما بواطنهم فمنزهة عن ذلك، متعلقة بربهم؛ وهذا تحقيق المقام، فالتأويل اللائق بمقامهم هو الجدير بالقبول والمطابق للحق عند المحققين في فن الكلام من المتكلمين، كالإمام شرف الدين التلمساني، وكالإمام السنوسي المغترف من بحر الله.

وقد سبق الكلام على أن مدح أصنام المشركين لا ذكر له في سورة «والنجم»، وأن هذا إلقاء من الشيطان في قلوبهم ليجادلوا به.

وأما الهجرة الثانية:

فإنه لما تبين للمشركين عدم ذكر آلهتهم، غضبوا ورجعوا إلى العداوة أشد من الأول، فلما بلغ ذلك القادمين حين دُئِبَهم من مكة، وكانوا قد خرجوا في رجب إلى الحبشة، وأقاموا بها شعبان ورمضان، وقدموا في شوال كما سبق، لم يدخل أحد منهم إلا بجوار مجيرٍ أو مستخفيًا، إلا عبد الله بن مسعود، فإنه دخل بدون جوار أحد، ثم خرج وهاجر.

وممن دخل في الجوار عثمان بن مظعون؛ فإنه دخل بجوار الوليد بن المغيرة، وكان قد اشتد الحال على من قدم مكة ولم يدخل في الجوار، حتى أن عشائره تفعل به الأذى الشديد، فلما وجد عثمان بن مظعون ما فيه أصحاب رسول الله ﷺ من البلاء، وهو يغدو ويروح في أمان الوليد بن المغيرة، قال: والله إن غُدُوي ورواحي آمنًا بجوار رجل

(١) يحكم كل ذلك قوله ﷺ في الحديث الصحيح: «إني لا أنسى، ولكني أنسى لأسن».

من أهل الشرك، وأصحابي وأهل ديني يلقون من البلاء والأذى في الله ما لا يصيبني، لنقص كبير في نفسي». فمشى إلى الوليد فقال: يا أبا عبد شمس، وَفَتْ ذِمَّتُكَ، وقد رددتُ إليك جوارك، قال: لِمَ يا ابن أخي، لعله آذاك أحد من قومي وأنت في ذمتي فأكيفيك ذلك؟ قال: لا والله ما اعترض لي أحد، ولا آذاني، ولكني أرضى بجوار الله عز وجل، ولا أريد أن أستجير بغيره. قال: انطلق إلى المسجد فاردد لي جوارى علانيةً كما أجزتكَ علانيةً. فانطلقا حتى أتيا المسجد، فقال الوليد: هذا عثمان قد جاء يرد عليَّ جوارى، فقال عثمان: صدق، قد وجدته وفيًّا كريم الجوار، ولكني لا أستجير بغير الله عز وجل، قد رددتُ عليه جواره. فقال الوليد: أشهدكم أنني بريء من جواره إلا أن يشاء. ثم انصرف عثمان وليد بن ربيعة بن مالك في مجلس من قريش ينشدهم قبل إسلامه، فجلس عثمان معهم، فقال لبيد: *ألا كلُّ شيءٍ ما خلا الله باطلٌ* فقال عثمان: صدقت، فقال لبيد: *وكلُّ نعيمٍ لا محالةً زائلٌ* فقال عثمان: كذبت؛ نعيم الجنة لا يزول. فقال لبيد: يا معشر قريش، والله ما كان يؤذيكُم جليسُكم، فمتى حدث هذا فيكم؟! فقال رجل من القوم: إن هذا سفيه، فمن سفاهته فارق ديننا، فلا تجدنَّ في نفسك من قوله. فردَّ عليه عثمان، فقام ذلك الرجل فلطم عينه، والوليد بن المغيرة قريب يرى ما بلغ من عثمان، فقال: أما والله يا ابن أخي إن كانت عينُك عمَّا أصابها لغنية؛ ولقد كنت في ذمة منيعة فخرجت منها، وكنت عن الذي لقيت غنيًّا. فقال عثمان رضي الله عنه: بل كنتُ إلى الذي لقيتُ فقيرًا، والله إن عيني الصحيحة التي لم تُلطم لفقيرة إلى مثل ما أصاب أختها في الله عز وجل، ولي فيمن هو أحب إليَّ منكم أسوة، وإني لفي جوارٍ من هو أعزُّ منك وأقدر يا أبا عبد شمس. فقال له الوليد: هلم يا ابن أخي إن شئتُ إلى جوارك فعُدّه. فقال: لا.

وصار الأمر يشتد على أصحاب رسول الله ﷺ القادمين لقصد مكة من الهجرة الأولى وغيرهم، وسَطَّتْ بهم عشائِرهم ولَقُوا منهم أذى شديدًا، فأذن لهم رسول الله ﷺ في الهجرة إلى أرض الحبشة مرة ثانية، فخرج ابن مسعود ومعه عدد كثير من الناس،

فكانت خَرَجَتْهُمُ الثانية أعظم مشقة، ولقوا من قريش تعنيفاً شديداً، ونالوهم بالأذى، واشتدَّ على قريش ما بلغهم عن النجاشي من حسن جواره للمهاجرين، فقال عثمان ابن عفان: يا رسول الله فهجرتنا الأولى وهذه الآخرة، ولستَ معنا؟ فقال ﷺ: أنتم مهاجرون إلى الله وإلىي، لكم هاتان الهجرتان جميعاً، قال عثمان: فحسبنا يا رسول الله. وبهذه الهجرة الثانية إلى أرض الحبشة، كانت عدة منْ بأرض الحبشة من المهاجرين مائة نفس وواحدًا، إنْ حُسب عمار بن ياسر فيهم؛ الذكور منهم ثلاثة وثمانون، والإناث ثمانى عشرة.

وخرج أبو بكر رضي الله عنه مهاجرًا إلى الحبشة حتى بلغ موضعًا يقال له: «بَرْك الغماد» (بفتح الباء وكسر ها، والغماد بكسر الغين المعجمة وضمها: محل في أقاصي هَجَرَ أو باليمن، ويقال: هو مدينة الحبشة). ثم رجع أبو بكر في جوار سيد القارة (اسم قبيلة، ومنهم مسعود بن ربيعة القاري) مالك بن الدغنة.

فلما رأت قريش استقرار المهاجرين في الحبشة وأمنَّهم أرسلوا فيهم إلى النجاشي عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة بهدايا وتُحف من بلادهم، والتمسوا منه ردَّ مَنْ هاجر إلى بلاده من المسلمين، فأبى ذلك وردَّهما خائبين. ثم بعد ذلك وقع من الحبشة تعصُّب على أصحاب رسول الله ﷺ، فقالوا له: إنَّ هؤلاء لهم دين غير ديننا. فأرسل وراءهم وقال لهم: ما تقولون في عيسى ابن مريم؟ فقالوا: نؤمن به ونصدِّقه فيما جاء به، فقال للحبشة: ما تقولون في نبيهم؟ فلم يؤمنوا به، فقال النجاشي لهم: هؤلاء يؤمنون بنبيكم وأنتم لا تؤمنون بنبيهم! فأنتم الآن ظلمة، فكلُّ منكم على دينه، ولا أحد منكم يعارض هؤلاء». فاستمروا في بلاده مدةً، وعادوا إلى أوطانهم. وكان إسلامه في سنة سبع من الهجرة، ويدلُّ على صحة إسلامه أنه لما تُوفي في رجب سنة تسع من الهجرة قال النبي ﷺ «مات اليوم رجل صالح، فصلُّوا على أخيكم أَصْحَمَةَ»^(١) فصلَّى

(١) هذا حديث ثابت في الصحيحين وغيرهما، من حديث أبي هريرة وجابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

عليه النبي ﷺ وأصحابه صلاة الغائب، ولما صلى عليه رسول الله ﷺ طعن المنافقون في ذلك، فنزلت هذه الآية ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٩٩] إلى آخرها، قال ابن جريج: وقال آخرون: نزلت في عبد الله بن سلام. وسيأتي بيان ما صنعه النجاشي من كلام المهاجرين وغير ذلك مما يتعلق به في الفصل السابع في ظواهر السنة السابعة من الهجرة، عند ذكر قدوم جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه من الحبشة، وذلك الفصل المذكور من الباب الثالث.

ولما رأت قريش عزة النبي ﷺ بمن معه، وعزة أصحابه بالحبشة، وإسلام عمر ابن الخطاب، وإسلام عمه حمزة رضي الله عنهم، اجتمعوا واثمروا أن يكتبوا كتاباً يتعاقدون فيه على معاداة بني هاشم وبني المطلب: أن لا يناكحوهم ولا يبايعوهم، ويقطعوا عنهم الأسواق، ولا يقبلوا منهم صلحاً ولا تأخذهم بهم رافة حتى يسلموا رسول الله ﷺ للقتل. وكان اجتماعهم وتحالفهم في خيف بني كنانة (بالأبطح) ويسمى محسباً، بأعلى مكة عند المقابر، وكتبوا بذلك صحيفةً بخط منصور بن عكرمة، وقيل بخط بغيض بن عامر، وعلّقوا الصحيفة في جوف الكعبة الشريفة هلال المحرم سنة سبع من مبعثه ﷺ، فانحاز الهاشميون إلى أبي طالب مسلمهم وكافرهم، حتى أنّ كافرهم فعل ذلك حميةً على عادة الجاهلية، فدخلوا معه في شعبه، وخرج من بني هاشم أبو لهب بن عبد العزي بن عبد المطلب إلى قريش مظاهراً إليهم، وكانت امرأته أم جميل بنت حرب (أخت أبي سفيان) على رأيه في عداوة رسول الله ﷺ (كانت تحمل الشوك فتضعه في طريقه ﷺ، فسماها الله تعالى حمالة الحطب). وأقام بنو هاشم في الشعب ومعهم رسول الله ﷺ نحو ثلاث سنين، وكان بنو هاشم محصورين في الشعب لا يخرجون إلا من موسم إلى موسم، حتى جهدوا، وكان لا يصل إليهم ممن أراد صلتهم إلا سراً، هذا، ورسول الله ﷺ مقبل على شأنه من الدعاء إلى الله، والوحي عليه يتتابع.

ثم إن النبي ﷺ أخبر عمه أبا طالب بأن الله سلط الأرضة على الصحيفة فلم تدع فيها

غير اسم الله تعالى الذي كانت قريش تستفتح به كتابها، وهو لفظ: «باسمك اللهم»، ونفت منها الظلم وقطع الرحم. فانطلق أبو طالب في عصابة حتى أتوا المسجد، فلما رأتهم قريش ظنوا أنهم خرجوا من شدة البلاء ليسلموا رسول الله ﷺ، فقال أبو طالب: إنما أتيت في أمرٍ هو نصف^(١) فيما بيننا وبينكم: إن ابن أخي أخبرني بأمر^(٢) فإن كان الحديث كما يقول فلا والله لا نسلمه حتى نموت عن آخرنا، وإن كان الذي يقول باطلاً دفعنا لكم صاحبنا فقتلتم أو استحيتتم. وأخبرهم الخبر، فقالوا: قد رضينا الذي تقول، ففتحوا الصحيفة فوجدوها كما قال، فقالوا: هذا سحر ابن أخيك، وزادهم ذلك بغياً. ثم مشى في نقض الصحيفة قومٌ من قريش، وأخرجوا بني هاشم وبني المطلب من الشعب، وذلك في السنة العاشرة من مبعثه ﷺ.

ثم قدم الطفيل بن عمرو الدوسي^(٣) وكان شريفاً في قومه، فأسلم، ثم استأذن النبي ﷺ ورجع إلى قومه، فأسلم منهم على يده ناس قليل، فرجع إلى النبي ﷺ فشكا ذلك إليه وسأله أن يدعو عليهم، فقال: «اللهم اهدِ دَوْساً» ارجع إلى قومك فادعهم وارفق بهم. قال الطفيل: فلم أزل أدعوهم حتى مضى الخندق، ثم قدمت المدينة بسبعين أو ثمانين بيتاً من دوس بخير، فأسلمهم لنا مع المسلمين.

وقدم عليه ﷺ عشرين رجلاً من نصارى نجران (مدينة بالحجاز، من شق اليمن

(١) النصف: أي: إعطاء الحق.

(٢) أي أكل الأرضة للصحيفة.

(٣) هو الطفيل بن عمرو بن العاص بن ثعلبة بن سليم بن فهم بن غنم بن دوس.

— استشهد رضي الله عنه في وقعة اليمامة. بعثه رسول الله ﷺ إلى ذي الكفين - صنم عمرو بن حممة - فأحرقه بالنار. قدم مع أبي هريرة إلى النبي ﷺ. أسلم بمكة، ثم عاد إلى بلاد قومه، ثم وافى النبي ﷺ في عمرة القضاء وشهد فتح مكة. ولما وفد على النبي ﷺ قال له: اجعل لي آية، فقال النبي ﷺ: «اللهم نور له»: فسقط نور بين عينيه، فقال: يا رب أخاف أن يقول مُثَلَّة، فتحول النور إلى طرف سوطه. فكان يضيء له في الليلة المظلمة، فلذلك سمي ذا النور.

— أسلم أبوه على يديه، وأسلم على يديه أبو هريرة الصحابي الجليل، وجندب بن عمر بن حممة ومعه خمسة وسبعون رجلاً. اهـ. (مختصراً من الإصابة لابن حجر).

معروفة، سميت بنجران بن زيد بن يشجب بن يعرب، وهو أول من نزلها) وقال في النهاية: (موضع معروف بين الحجاز والشام واليمن) حين بلغهم خبر من هاجر من المسلمين إلى الحبشة، فوجدوه ﷺ في المسجد، فجلسوا إليه وسألوه وكلموه، ورجال من قريش في أنديتهم حول الكعبة ينظرون إليهم، فلما فرغوا من مسألة رسول الله ﷺ كما أرادوا، دعاهم رسول الله ﷺ إلى الله تعالى، وتلا عليهم القرآن، فلما سمعوه فاضت أعينهم من الدمع، ثم استجابوا له وآمنوا به، وعرفوا منه ما هو موصوف به في كتابهم. فلما قاموا عنه اعترضهم أبو جهل في نفر من قريش، فقالوا لهم: خيبتكم الله من ركب، بعثكم من وراءكم من أهل دينكم ترتادون (أي تنظرون) الأخبار لهم لتأتوهم بخبر الرجل، فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقت دينكم فصدقتموه بما قال! لا نعلم ركباً أحق منكم. فقالوا لهم: سلام عليكم لا نجاهلكم، لنا ما نحن عليه ولكم ما أنتم عليه. ويقال: نزل فيهم قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ﴾ إلى قوله: ﴿لَا يَنْبَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٢: ٥٥]. ونزل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ [المائدة: ٨٣]. وكان من القادمين على رسول الله ﷺ أميرهم العاقب عبد المسيح (من كندة). ثم خرج ﷺ إلى الطائف.

قال الحافظ ابن عبد البر وغيره: أول موروث في الإسلام عدي بن نضلة، وأول وارث نعمان بن عدي، وكان عدي قد هاجر إلى أرض الحبشة فمات بها، فورثه ابنه نعمان، واستعمله عمر على ميسان، ولم يستعمل من قومه غيره، فراود امرأته على الخروج فأبت، فكتب إليها يقول:

فَمَنْ مُبْلِغُ الْحَسَنَاءِ أَنَّ حَلِيلَهَا بِمِيسَانَ يُسْقَى فِي زَجَاجٍ وَحْتَمِ
إِذَا شَتَّ غَتَّتَنِي دَهَاقِينَ قَرِيَةً وَصَنَاجَةٌ تَحْذُو عَلَى كُلِّ مِيسَمِ
إِذَا كُنْتُ نَدْمَانِي فَبِالْأَكْبَرِ اسْقِنِي وَلَا تَسْقِنِي بِالْأَصْغَرِ الْمُتَثَلِمِ

لعلَّ أمير المؤمنين يَسُووُهُ تَنَادُّمًا بالجوسق المتهدم

[والحنتم واحدة الحناتم: وهو في الأصل جرار مدهونة خضر، كانت تحمل فيها الخمر إلى المدينة، ثم اتسع فيها، فقليل للخزف كله حنتم، والصنّاجة: آلة لهو، وهي الطبل المعروف المذكور، في قول الحريري: *أحسنّت بالعيش يا صنّاجة الجيش*].

فبلغ ذلك^(١) عمر رضي الله عنه فكتب إليه يقول: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿حَمَّ
تَنْزِيلَ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ﴿٣﴾﴾ [غافر: ١-٣]. أما بعد.. فقد بلغني قولك: «لعلَّ أمير المؤمنين يسوؤه..» إلى آخره. وأيم الله لقد ساءني». ثم عزله.

فلما قدم عليه سألته، فقال: ما كان من هذا شيء، وما كان إلا فضل شعر وجدته، وما شربتها قط. فقال عمر: أظن ذلك، ولكن لا تعمل لي عملاً أبداً. فنزل البصرة ولم يزل يغزو مع المسلمين حتى مات، وشعره فصيح تستشهد به أهل اللغة على «ندمان» بمعنى «نديم». وهذه الحادثة مصداق قوله تعالى: ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾﴾ [الشعراء: ٢٢٤]. قال الشاعر:

«يقولون ما لا يفعلون» مذمّة
من الله مذموم بها الشعراء
وما ذاك فيهم وخده بل زيادة
يقولون ما لا يفعل الأمراء



(١) أي الشعر الذي قاله نعمان بن عدي بن نضلة.

الفصل الثالث

في خروجه ﷺ إلى الطائف قبل هجرته إلى المدينة المشرفة

لما توفي عمه أبو طالب في السنة العاشرة من البعثة، بعد ما خرج من الحصار بالشعب بثمانية أشهر وواحد وعشرين يومًا، وله بضع وثمانون سنة، نالت قريش من النبي ﷺ ما لم تكن نالته في حياته، فهاجر إلى الطائف^(١) في شوال سنة عشر من البعثة، وهو مكروب مشوش خاطر مما لقي من قريش، ومن قرابته وعترته، خصوصًا من أبي لهب وزوجته حمالة الحطب من الهجو والسب والتكذيب، فكانت تتجاذبه قريش وتقول له: أنت الذي جعلت الآلهة إلهاً واحداً!!

فخرج إلى الطائف مع مولاه زيد بن حارثة يلتمس من ثقيف الإسلام، رجاء أن يسلموا، وأن يناصروه على الإسلام ويقوموا معه على من خالفه من قومه؛ لأنهم كانوا أخواله، فلم يجد منهم ذلك.

ومن خروجه ﷺ إلى الطائف عند ضيق صدره وتعب خاطره جعل الله الطائف مستأنساً لأهل الإسلام ممن بمكة إلى يوم القيامة.

ولما انتهى ﷺ إلى الطائف عمد إلى سادات ثقيف وأشرافهم، وكانوا إخوة ثلاثة أولاد عمرو بن عمير بن عوف الثقفي، وهم: عبد ياليل واسمه كنانة، وعبد كلال بضم الكاف وتخفيف اللام، ولم يعرف لهما إسلام، وحيب، قال الذهبي: وفي صحبته

(١) في مراصد الاطلاع: «كانت تسمى قديمًا «وَجَا» وسميت بالطائف: لما أطيّف عليها الحائط، ثم قال: «وهي على ظهر جبل غزوان، وبها عقبة مسيرة يوم للطالع من مكة، ونصف يوم للهابط إلى مكة».

نَظَرَ^(١). وجلس ﷺ إليهم وكلمهم فيما جاءهم به من نصرة الإسلام والقيام معه على من خالفه من قومه، فلم يجيبوه إلى شيء من ذلك، فقام ﷺ من عندهم وقد أيس، وقال لهم: اكنموا عليّ، وكره أن يبلغ قومه ذلك فيشتدّ أمرهم عليه، وقالوا له: «اخرج من بلدنا والحق بمنجاتك من الأرض»، وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبّونه ويرمونهم بالحجارة، حتى اجتمع عليه الناس وألجأوه إلى حائط بستان لعتبة وشيبة ابني ربيعة، فلما دخل الحائط رجعوا عنه. فلما رآه ابنا ربيعة تحركت له رَحِمُهُما، فدعوا غلامًا لهما نصرانيًا يقال له «عدّاس» معدود في الصحابة، مات قبل الخروج إلى بدر، فقالا: خذ قطعًا من هذا العنب فضعه في هذا الطبق ثم اذهب به إلى هذا الرجل، فقل له يأكل منه. فأقبل عداس بالطبق حتى وضعه بين يدي رسول الله ﷺ ثم قال له: كُلْ. فلما وضع رسول الله ﷺ فيه يده الشريفة، قال: بسم الله، ثم أكل، فنظر عداس في وجهه، وقال: والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد، فقال له ﷺ: من أيّ البلاد أنت؟ وما دينك يا عداس؟ فقال: نصراني، وأنا من أهل نينوى، فقال ﷺ: أنت من مدينة الرجل الصالح يونس بن متى؟ فقال عداس: وما يدريك ما يونس بن متى؟ فإني خرجت والله من نينوى وما فيها عشرة يعرفون ما متي! فمن أين عرفت ابن متى وأنت أمي وفي أمة أمية؟ فقال رسول الله ﷺ: ذلك أخي، كان نبيًا وأنا نبي أمي. فقام عداس وأكب على رسول الله ﷺ يقبل رأسه ويديه وقدميه، فقال أحد الأخوين عتبة وشيبة للآخر: أما غلامك فقد أفسده عليك. فلما جاءهما عداس قال له أحدهما: ويلك، ما لك تقبل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه؟! فقال: يا سيدي ما في الأرض شيء خير من هذا، لقد أعلمني بأمر لا يعلمه إلا نبي، فقال: ويحك يا عداس، ليصرفك عن دينك وليفتنك عن نصرانيتك؛ فإنه رجل خَدَّاعٌ، ودينك خير من دينه!

فأقام ﷺ بالطائف عشرة أيام وشهرًا، لا يدع أحدًا من أشرافهم (أي زيادة على عبد

(١) أي شك.

ياليل وأخويه) إلا جاء إليه وكلمه، فلم يجبه أحد، ثم ذهب إلى نخلة^(١) وهي موضع على ليلة من مكة، أقام بها أياماً.

وحضر إليه سبعة من جن نصيبين^(٢)، وهي مدينة بالشام بوادي نخلة (موضع على ليلة من مكة) وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر، فلما سمعوا القرآن استمعوا له، فحين رجعوا إلى قومهم قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۖ ۝١﴾ بِهْدَى إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرَكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ۖ﴾ [الجن: ١، ٢] فأوحى الله إلى نبيه ﷺ ما قالوه لقومهم.

وعن ابن مسعود أنه ﷺ قال: أُمِرْتُ أَنْ أَتْلُو الْقُرْآنَ عَلَى الْجَنِّ؛ فَمَنْ يَذْهَبُ؟ فَسَكَتُوا، ثُمَّ قَالَ الثَّانِيَةُ فَسَكَتُوا، ثُمَّ قَالَ الثَّلَاثَةَ، فَقُلْتُ: أَنَا أَذْهَبُ مَعَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: فَانْطَلِقْ حَتَّى إِذَا جَاءَ الْحَجُونَ عِنْدَ شُعْبِ بْنِ أَبِي ذُئْبٍ خَطَّ عَلَيَّ خَطًّا، فَقَالَ: لَا «تَجَاوِزْهُ»، ثُمَّ مَضَى إِلَى الْحَجُونَ، فَانْحَدَرُوا عَلَيْهِ أَمْثَالُ الْحِجْلِ^(٣)، كَأَنَّهُمْ رِجَالُ الزُّطِّ، [قَالَ ابْنُ الْأَثِيرِ فِي النَّهْيَةِ: «وَالزُّطُّ قَوْمٌ مِنَ السُّودَانِ وَالْهِنُودِ، كَأَنَّ وَجُوهَهُمُ الْمَكَامِيُّ، يَقْرَعُونَ فِي دَفُوفِهِمْ كَمَا تَقْرَعُ النَّسُوءُ فِي دَفُوفِهِنَّ] حَتَّى غَشَوْهُ، فَغَابَ عَنْ بَصَرِي، فَقُمْتُ، فَأَوَامًا إِلَيَّ بِيَدِهِ أَنْ اجْلِسْ، ثُمَّ تَلَا الْقُرْآنَ، فَلَمْ يَزَلْ صَوْتُهُ يَرْتَفِعُ وَلِصْقُوا بِالْأَرْضِ حَتَّى صَرْتُ لَا أَرَاهُمْ، فَلَمَّا عَادَ إِلَيَّ قَالَ: أَرَدْتُ أَنْ تَأْتِيَنِي؟ قُلْتُ: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «مَا كَانَ ذَلِكَ لَكَ؛ هَؤُلَاءِ الْجَنُّ أَتَوْا يَسْتَمْعُونَ الْقُرْآنَ ثُمَّ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ، فَسَأَلُونِي الزَّادَ فَزَوَّدْتُهُمُ الْعِظْمَ وَالْبَعَرَ، فَلَا يَسْتَطِيعُونَ أَحَدُكُمْ بَعْظُمَ وَلَا بَعَرَ».

وذكر في كتاب «القرى لقاصد أم القرى» أن بأعلى مكة مسجدًا يقال له مسجد الجن ومسجد البيعة أيضًا يقال: إن الجن بايعوا رسول الله ﷺ هناك.

ولما أراد الدخول إلى مكة قال له زيد بن حارثة: كيف تدخل على قريش وهم

(١) في المراصد: نخلة محمود: موضع بالحجاز قريب من مكة - نخلة اليمانية: بها مسجد للنبي ﷺ - نخلة الشامية، ذات عرق. اهـ. ملخصاً.

(٢) من بلاد الجزيرة على جادة القوافل من موصل إلى الشام، وقرية من قرى حلب، ومدينة على شاطئ الفرات تعرف بنصيبين الروم.

(٣) الحجل: صغار الإبل تسير مندفعة جماعات، أو طيور تندفع كذلك.

السبب في خروجك لتستنصر فلم تُنصر؟! فقال: يا زيد، إن الله جاعل لما ترى فرجاً ومخرجاً، وإن الله ناصر دينه ومظهر نبيه. فسار رسول الله ﷺ إلى حراء^(١) ثم بعث إلى الأحنس بن شريق^(٢) رضي الله عنه ليحيره، وكان ذلك قبل إسلامه، وليدخل مكة في جواره، فقال: أنا حليف، والحليف لا يجير. فبعث ﷺ إلى مطعم بن عدي الذي مات على دين قومه قبل بدر بنحو سبعة أشهر يقول له: «إني داخل مكة في جوارك». فأجابه إلى ذلك، فدخل مكة، ثم تسلم المطعم بن عدي وأهل بيته وخرجوا حتى أتوا المسجد، فقام المطعم بن عدي على راحلته ونادى: يا معشر قريش، إني قد أجرتُ محمداً فلا يؤذيه أحدٌ منكم. ثم بعث إلى رسول الله ﷺ: أن ادخل. فدخل المسجد وطاف بالبيت وصلى عنده، ثم انصرف إلى منزله، والمطعم بن عدي وولده مطيفون به ﷺ، وأقبل أبو سفيان على المطعم فقال: إذن قد أجرنا من أجرت.

ولا بدع في دخوله ﷺ في أمان مشرك؛ لأن حكمة الحكيم القادر قد تخفى، وهذا السياق يدل على أن قريشاً كانوا أزمعوا على عدم دخوله ﷺ لسبب ذهابه إلى الطائف ودعائه أهله.

* * *

ولما بعث الله رسوله ﷺ، وأنزل عليه الوحي وأمره بإظهار دينه وأيده بالمعجزات الظاهرات والآيات الباهرات، أسرى به ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى وهو بيت المقدس من إيلياء^(٣)، وقد فشا الإسلام في قريش وفي القبائل كلها. وكان الإسراء به ﷺ والمعراج ليلة سبع وعشرين من رجب، وقال بعضهم: إنهما كانا يوم

(١) حراء جبل من جبال مكة، على ثلاثة أميال.

(٢) الأحنس بن شريق: في الإصابة: الأحنس بن شريق بن عمرو بن وهب بن علاج بن أبي سلمة بن عبد العزى بن غيرة ابن عوف بن ثقيف الثقفي، أبو ثعلبة، حليف بني زهرة، واسمه «أبي».

— أسلم الأحنس، وكان من المؤلفة قلوبهم. شهد حنيناً ومات في خلافة سيدنا عمر.

(٣) إيلياء: اسم لمدينة بيت المقدس.

الإثنين، فهما موافقان للمولد والمبعث والهجرة والوفاة؛ لأنه ﷺ ولد يوم الإثنين،
وُبعث يوم الإثنين، وهاجر من مكة يوم الإثنين، ودخل المدينة يوم الإثنين، وتوفي يوم
الإثنين.



الفصل الرابع

في الإسراء به ﷺ ليلاً من المسجد الحرام

وعروجه من المسجد الأقصى إلى السموات العلى

ولما بلغ ﷺ إحدى وخمسين سنة وتسعة أشهر (قبل الهجرة بسنة) أُسري به من حجر مكة المعظم ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، وهو أول القبلتين، وثاني المسجدين، وثالث الحرمين، لا تُشدُّ الرحال بعد المسجدين إلا إليه، ولا تُعقد الخناصر^(١) بعد الموطنين إلا عليه؛ فقد روى أبو هريرة رضي الله، عن النبي ﷺ قال: «لا تُشدُّ الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: مسجدي هذا، والمسجد الحرام، والمسجد الأقصى»^(٢) ثم عُرج به من المسجد الأقصى إلى السموات العلى، إلى سدره المنتهى، إلى مستوى سمع فيه صريف الأقلام^(٣).

قال الماوردي: كل موضع ذكر الله فيه المسجد الحرام فالمراد به الحرم، إلا في قوله تعالى: ﴿قَوْلٍ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [البقرة: ١٤٩]، فإنه أراد به الكعبة، ولم يرد في أحاديث المعراج الثابتة أنه ﷺ عُرج به إلى العرش تلك الليلة، بل لم يرد في حديث أنه ﷺ جاوز سدره المنتهى، بل انتهى إليها.

(١) الخنصر: الإصبع الوسطى، وهو كناية عن شدة التمسك.

(٢) الحديث متفق عليه، ووراه الإمام أحمد وأبو داود والنسائي وابن ماجه عن أبي هريرة، والإمام أحمد والترمذي وابن ماجه. وهو متفق عليه عن أبي سعيد.

(٣) صريف الأقلام: صريها. اهـ (من هامش الأصل).

وقد سُئل الشيخ رضي الله القزويني رحمه الله عن وطء النبي ﷺ العرش بنعله، وقول الرب جل جلاله «لقد شرف العرش بنعلك يا محمد» هل ثبت ذلك أم لا؟^(١) فأجاب بما نصه: «أما حديث وطء النبي ﷺ العرش بنعله فليس بصحيح، وليس بثابت، بل وصول النبي ﷺ إلى ذروة العرش لم يثبت في خبر صحيح ولا حسن ولا ثابت أصلاً، وإنما صحَّ في الأخبار انتهاؤه إلى سدرة المنتهى فحسب، وأما إلى ما وراءها فلم يصحَّ، وإنما ورد ذلك في أخبار ضعيفة أو منكرة».

قال النجم الغيبي رحمه الله: «وقد رأيت بخط بعض المحدثين -بعد نقله كلام الشيخ رضي الدين رحمه الله-: هو الصواب، وقد وردت قصة الإسراء والمعراج مطوّلة ومختصرة عن نحو أربعين صحابياً، وليس في حديث أحدٍ منهم أنه ﷺ كان تلك الليلة في رجله نعله، وإنما وقع ذلك في نظم بعض القصّاص الجهلة» إلى أن قال: «وهذا باطل لم يُذكر في شيء من الأحاديث بعد الاستقراء التام، ولم يرد في حديث صحيح ولا حسن ولا ضعيف، أنه رقى العرش، وما وقع في بعض الأحاديث التي افترها بعضهم لا يُلتفت إليه، ولا أعلم خبراً ورد فيه أنه ﷺ رأى العرش إلا ما رواه ابن أبي الدنيا عن ابن أبي المخارق أن النبي ﷺ قال: «مررت ليلة أُسرى بي برجل مغيّب في نور العرش، قلت: من هذا، أملك؟ قيل: لا، قلت: نبي؟ قيل: لا، قلت: من هو؟ قيل: هذا رجل كان في الدنيا لسانه رطباً من ذكر الله وقلبه معلق بالمساجد ولم يستسبّ لوالديه^(٢)، وهو خبر مُرسل لا تقوم به الحجة في هذا الباب، وما ذكر في السؤال (يعني المتقدم من أنه ﷺ رقى العرش بنعله) فقاتل الله مَنْ وضعه؛ ما أعدمَ حياءه وأدبه، وما أجراه على اختلاق الكذب على سيد المتأدبين ورأس العارفين ﷺ».

(١) قوله قبل: «إلى مستوى سمع فيه صريف الأقلام» يردُّ ما قاله القزويني، فليتأمل؛ فإن هذا المستوى أعلى من سدرة المنتهى، وأما صعوده على العرش فالله أعلم بصحته. والله أعلم.

(٢) أي لم يكن سبباً في سبب والديه (هامش الأصل).

شَقُّ صَدْرِهِ:

وَحَدَّثَ ﷺ عَنْ لَيْلَةٍ أُسْرِيَ بِهِ كَمَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ وَغَيْرُهُمَا، فَقَالَ: «بَيْنَمَا أَنَا فِي الْحَظِيمِ^(١) (وَرُبَّمَا قَالَ فِي الْحَجَرِ) مُضْطَجِعٌ، (وَفِي رِوَايَةٍ: بَيْنَ النَّائِمِ وَالْيَقْظَانِ) إِذْ أَتَانِي آتٌ، قَالَ: سَمِعْتَهُ يَقُولُ: فَشَقَّ مَا بَيْنَ هَذِهِ إِلَى هَذِهِ (يَعْنِي مِنْ ثَغْرَةِ نَحْرِهِ إِلَى عَانَتِهِ) فَاسْتَخْرَجَ قَلْبِي، ثُمَّ أُتِيَ بِطَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ مَمْلُوءَةٍ حِكْمَةً وَإِيمَانًا فُغْسِلَ قَلْبِي ثُمَّ حُشِيَ». وَالْحَدِيثُ فِيهِ اخْتِصَارٌ، وَالْأَصْلُ: فَاسْتَخْرَجَ قَلْبَهُ ثُمَّ شَقَّ وَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ عِلْقَةً، وَقِيلَ: «هَذَا حَظُّ الشَّيْطَانِ مِنْكَ». ثُمَّ غُسِلَ بِمَاءٍ زَمْزَمَ، كَمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ حَدِيثٌ آخَرٌ، وَفِي رِوَايَةٍ «عَلَقْتَيْنِ سُودَاوَيْنِ» وَفِي لَفْظٍ: «مَضْغَةٌ».

وَقَدْ اخْتَلَفَ فِي تَفْسِيرِ الْحِكْمَةِ، فَقِيلَ: هِيَ الْعِلْمُ الْمَشْتَمِلُ عَلَى مَعْرِفَةِ اللَّهِ تَعَالَى مَعَ نَقَاءِ الْبَصِيرَةِ وَتَهْذِيبِ النَّفْسِ وَتَحْقِيقِ الْحَقِّ لِلْعَمَلِ بِهِ وَالكِفِّ عَنْ ضَدِّهِ، وَالْحَكِيمُ مَنْ حَازَ ذَلِكَ. قَالَ الْإِمَامُ النَّوَوِيُّ فِي شَرْحِ مُسْلِمٍ: «وَلَيْسَ فِي هَذَا مَا يُوْهِمُ جَوَازَ اسْتِعْمَالِ الذَّهَبِ لَنَا؛ فَإِنْ هَذَا فَعَلَ الْمَلَائِكَةُ وَاسْتِعْمَالُهُمْ، وَلَيْسَ بِإِلْزَامٍ أَنْ يَكُونَ حُكْمُهُمْ حَكْمَنَا، وَلِأَنَّهُ كَانَ قَبْلَ تَحْرِيمِ أَوَانِي الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، وَالتَّحْرِيمِ إِنَّمَا وَقَعَ بِالْمَدِينَةِ، كَمَا نَبِهَ عَلَيْهِ الْحَافِظُ ابْنُ حَبَرٍ».

قَالَ الشَّيْخُ مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي جَمْرَةَ: «الْحِكْمَةُ فِي شَقِّ صَدْرِهِ مَعَ الْقُدْرَةِ عَلَى أَنْ يَمْتَلِئَ قَلْبُهُ ﷺ إِيمَانًا وَحِكْمَةً بَغَيْرِ شَقٍّ: الزِّيَادَةُ فِي قُوَّةِ الْيَقِينِ؛ لِأَنَّهُ أُعْطِيَ بَرُوءِيَةً شَقَّ بَطْنُهُ وَعَدَمَ تَأَثُّرَهُ بِذَلِكَ مَا أَمِنَ مَعَهُ مِنْ جَمِيعِ الْمَخَافِ الْعَادِيَّةِ، فَلِذَلِكَ كَانَ أَشْجَعَ النَّاسِ حَالًا وَمَقَالًا، وَلِذَلِكَ وَصَفَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ [النَّجْمُ: ١٧]، اهـ. وَكُلُّ هَذِهِ الْأُمُورِ يَجِبُ الْإِيمَانُ بِهَا، وَالْقُدْرَةُ^(٢) صَالِحَةٌ لِذَلِكَ، وَقَدْ انْخَرَقَتِ الْعَادَاتُ لِكَثِيرٍ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى الْمُتَطَفِّلِينَ عَلَى جَنَابِ هَذَا السَّيِّدِ الْعَظِيمِ الْمَحْبُوبِ الْأَكْبَرِ، فَكَيْفَ بِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؟

(١) الْحَظِيمُ: مَا بَيْنَ الْحَجَرِ الْأَسَدِ وَالْبَابِ، إِلَى مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ ﷺ.

(٢) أَيْ الْقُدْرَةُ الْإِلَهِيَّةُ.

وقد سُئِلَ الإمام تقي الدين السبكي رحمه الله عن العلة السوداء التي أُخرجت من قلبه ﷺ حين شُقَّ فؤاده، وقول الملائكة «هذا حظ الشيطان منك»، فأجاب رحمه الله بأن تلك العلة خلقها الله تعالى في قلوب البشر، قابلة لما يُلقى الشيطان فيها، فأزيلت من قلبه ﷺ، فلم يبق فيه مكان لأن يُلقى الشيطان فيه شيئاً، وهذا معنى الحديث. قيل له: فلم يخلق الله تعالى هذا القابل^(١) في هذه الذات الشريفة، وكان يمكنه أن لا يخلقه الله تعالى فيه؟ فقال: إنه من جملة الأجزاء الإنسانية، فخلقه تكملةً للخلق الإنساني، ولا بد منه، ونزعه كرامة ربانية طرأت.

وقال غيره: لو خُلق نبيه ﷺ سليماً منها لم يكن للآدميين اطلاع على حقيقته، فأظهره الله تعالى على يد جبريل عليه السلام ليتحققوا كمالَ باطنه بإخباره ﷺ عما شاهده في نفسه، كما برز لهم مكمل الظاهر. انتهى.

وفي غسل قلبه بماء زمزم دون غيره أنه أفضل المياه بعد النابع من أصابعه الشريفة، ويليهِ: ماء الكوثر، ثم نيل مصر، ثم باقي الأنهر، ونظم السبكي ذلك بقوله:

وأفضل المياه ماءً قد نبُع بين أصابع النبي المتبُع
يليه ماء زمزم فالكوثر فنيل مصر، ثم باقي الأنهر

وقيل: لأن ماء زمزم يُقَوِّي القلب، ويُسكن الرُّوعَ.

وقال الحافظ الزين العراقي: ولذلك غُسل قلبه عليه السلام ليلة الإسراء ليقوى على رؤية الملكوت، وقيل: لأنه لما كان زمزم أصل حياه أبيه إسماعيل ﷺ، وقد رُبِّيَ عليها ونما عليه قلبه وجسده، وصار هو صاحبه وصاحب البلدة المباركة، ناسب أن يكون ولده الصادق المصدوق كذلك، ولما فيه من الإشارة إلى اختصاصه بذلك؛ فإنه قد صارت الولاية إليه في الفتح^(٢)، فجعل السقاية للعباس ولولده، وحجابه البيت لعثمان بن شيبة وعقبه إلى يوم القيامة.

(١) أي القابل لو سوسة الشيطان.

(٢) فتح مكة.

روى الطبراني من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «خير ماء على وجه الأرض ماء زمزم، فيه طعام طعم وشفاء سقم» وصححه ابن حبان، وروى مرسلًا من حديثه أيضًا قال: قال رسول الله ﷺ: «ماء زمزم لما شرب له» ورجاله ثقات.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «كنا نسميها، (يعني زمزم)، «شباة»^(١)، ونجدها نعم العون على العيال».

وروى فيه «إنه شراب الأبرار» كما عند الأزرقى، وكان رسول الله ﷺ إذا أراد أن يتحف الرجل بتحفة سقاه من ماء زمزم، كما رواه في الحلية، وقال عباد بن عبد الله بن الزبير: لما حجَّ معاوية حججنا معه، فلما طاف بالبيت صلى عند المقام ركعتين، ثم مر بزمزم وهو خارج إلى الصفا، فقال: انزع لي منها دلوًا يا غلام، قال: فنزع له منه دلوًا فأني به فشرب وصَبَّ على وجهه ورأسه، وهو يقول: «زمزم شفاء، وهي لما شرب له» قال الحافظ: إسناده حسن، وهو أحسن من كل إسناد وقفْتُ عليه لهذا الحديث، وقد جرَّبه جماعة من العلماء والأئمة فوجدوه صحيحًا.

وأما ما يذكر على بعض الألسنة من أن فضيلته ما دام في محله فإذا نُقلُ تغير، فقال الحافظ السخاوي: إنه شيء لا أصل له؛ فقد كتب النبي ﷺ إلى سهيل بن عمرو: «إن جاءك كتابي ليلاً فلا تصبحن، أو نهارًا فلا تمسين حتى تبعث إليَّ بماء زمزم»، فبعث له بمزادتين، وكان حينئذ بالمدينة قبل أن تُفتح مكة. وحملته عائشة رضي الله عنها في القوارير، وقالت: حملة رسول الله ﷺ في الأداوي والقرب، وكان يصب منه على المرضى ويستقيهم، وكذا حملة الحسن والحسين رضي الله عنهما، ونقله جازر باتفاق الأئمة الأربعة^(٢).

(١) في المراسد: «شباة» بالضم من أسماء زمزم في الجاهلية.

(٢) انظر المقاصد الحسنة للسخاوي ص ٣٥٨ ففيه تفصيل أوسع. والله أعلم.

وفي ماء زمزم خواص منها: أنه لا يُرفع ولا يغور إذا رُفعت المياه وغارت قبل يوم القيامة، ومنها أنه يُذهب الصداع ويبرد الحمّى.

قال القسطلاني: «وقد وقع في شق صدره الشريف من الخوارق ما يدهش السامع؛ فسبيلك الإيمان والتسليم من غير أن تتكلف إلى التوفيق بين المنقول والمعقول، للتبرّي مما يُتهم أنه محال من: شق البطن، وإخراج القلب المؤدّيين إلى الموت لا محالة، ونحن بحمد الله لا نرى العدول عن الحقيقة إلى المجاز في خبر الصادق، إلا في الأمر المحال على القدرة». انتهى.

ثم بعد طهارة باطنه وظاهره بالوضوء، لمناسبة شهود الحضرة القدسية، أُتِيَ بالبراق مسرّجاً ملجماً، (وهو دابة أبيض طويل، فوق الحمار ودون البغل، يضع حافره عند منتهى طرفه، وهو مأخوذ من البرق لسرعة سيره، أرسله الله تعالى من الجنة إجلالاً وتعظيماً، على عادة الملوك إذا استدعوا عظيمًا بعثوا إليه النجيب^(١) مُهيّأً مع أعز خواصهم للحضور، فهو من عالم الغيب: لا يوصف بذكورة ولا أنوثة، كالملائكة) فحُمِلَ عليه فانطلق به جبريل عليه السلام حتى أتى السماء الدنيا فاستفتح^(٢)، فقبل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: أو قد أرسل إليه؟ قال: نعم، قال: مرحبًا به فنعمَ المجيء جاء...»^(٣) الحديث بطوله، ورأى الأنبياء صلوات الله عليه وعليهم وصلى بهم.

واختلَفَ في صلاته ﷺ ليلة الإسراء بالأنبياء، قيل: قبل عروجه، وقيل: بعده، والأول استظهره ابن حجر، وصحَّح^(٤) الثاني ابن كثير، قال بعضهم: ولا مانع من أنه صلى ﷺ بهم قبل العروج وبعده. وكانت صلاته بهم ركعتين، والظاهر أنها كانت

(١) في اللغة: الفاضل على مثله النفيس في نوعه.

(٢) أي طلب فتح الأبواب.

(٣) الحديث طويل ومروي في كتب الصحاح.

(٤) عدّه صحيحًا.

فريضة^(١)؛ لأنها كانت بأذان وإقامة، وهل كانت بالفاتحة أو غيرها؟ لم يثبت ذلك. وفي «الإتقان»^(٢) ما يفيد أنه قرأ فيها بأم القرآن.

قال النووي: واختلف في هذه الصلاة، فقيل: إنها اللغوية، وهي الدعاء والذكر، وقيل: الصلاة المعهودة، وهذا أصح؛ لأن اللفظ يُحمل على الحقيقة الشرعية قبل اللغوية، وإنما يُحمل على اللغوية إذا تعذر حمله على الشرعية، ولم يتعذر هنا، فوجب الحمل على الصلاة الشرعية. وهل صَلَّى بأرواحهم متشكلة بصور أجسادهم، أو هي وأجسادهم؟ احتمالان. وفي الحديث ما يدل لكل منهما.

وأما ما رآه في السماوات؛ فأرواحهم متشكلة بصور أجسادهم إلا عيسى وإدريس، وصَلَّى أيضًا بالملائكة عند سدره المنتهى، ورأى من آيات ربه الكبرى، ثم دنا فتدلى، فكان قاب قوسين أو أدنى، فأوحى إلى عبده ما أوحى.

قال أبو بكر: سألت رسول الله ﷺ عن قوله ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ [النجم: ١٠]؟ قال: فقال الله عز وجل: «لولا أنني أحب العتاب لم أحاسب أمتك». قال: وذكر عن أمتي خصالاً:

أولها: قال: لَمْ أَكْلَفْهُمْ عَمَلَ الْغَدِ، وَهُمْ يَطْلُبُونَ مِنِّي رِزْقَ الْغَدِ.

وثانيها: قال: لَا أَدْفَعُ أَرْزَاقَهُمْ إِلَىٰ غَيْرِهِمْ، وَهُمْ يَدْفَعُونَ عَمَلَهُمْ إِلَىٰ غَيْرِي.

وثالثها: قال: إِنَّهُمْ يَأْكُلُونَ رِزْقِي، وَيَشْكُرُونَ غَيْرِي، وَيَحْرَنُونَ^(٣) مَعِي، وَيَصَالِحُونَ خَلْقِي.

ورابعها: قال: أَنَا الْمُعِزُّ، وَهُمْ يَطْلُبُونَ الْعِزَّ مِنِّي سِوَايَ.

وخامسها: قال: إِنِّي خَلَقْتُ النَّارَ لِكُلِّ كَافِرٍ، وَهُمْ يَجْتَهِدُونَ أَنْ يَوْقِعُوا أَنْفُسَهُمْ فِيهَا.

(١) أي من الفرائض لا من النوافل.

(٢) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي.

(٣) يعاندون ويعصون.

وفرض الله عليه وعلى أمته تلك الليلة كل يوم وليلة خمسين صلاة في أول الأمر، فما زال يراجع حتى صارت خمسا في الفعل وخمسين في الأجر.

والحكمة في تخصيص فرض الصلاة بليلة الإسراء: أنه ﷺ لما عُرج به إلى السماء، رأى تلك الليلة تعبُّد الملائكة؛ منهم القائم فلا يقعد، والراكع فلا يسجد، والساجد فلا يقعد، فجمع الله تعالى له ولأمته تلك العبادات في ركعة واحدة يصلِّيها العبد بشرائطها من الطمأنينة والإخلاص.

وفي اختصاص فرضها في السماء دون سائر الشرائع فإنها فرضت في الأرض، فللتنبية على مزيَّتها على غيرها من الفرائض. وفي فرضها تلك الليلة (كما قال السهيلي) التنبيه على فضلها حيث لم تُفرض إلا في الحضرة المقدَّسة المطهَّرة، ولذلك كانت الطهارة من شأنها ومن شرائطها، والتنبيه على أنها مناجاة الرب عزَّ وجلَّ، وأن الله تبارك وتعالى يُقبل بوجهه على المصلي يناجيه ويقول: حمدني عبدي، أثني عليَّ عبدي، إلى آخر سورة الفاتحة، وهو المُشاكل لفرضها عليه فوق السماء السابعة حين سمع كلام الرب عز وجل، وناداه. ولم يُعرج به حتى طهَّر ظاهره وباطنه بماء زمزم، كما يتطهر المصلي للصلاة، وأُخْرِج عن الدنيا بجسده كما يخرج المصلي عن الدنيا بقلبه، وَيَحْرُم عليه كل شيء إلا مناجاة ربه وتوجهه إلى قبلته في ذلك الحين، وهو بيت المقدس، ورُفِع إلى السماء كما يرفع المصلي يديه إشارةً إلى القبلة العليا، وهو البيت المعمور وإلى جهة عرش من يناجيه ويصلي له سبحانه وتعالى.

قال بعض المفسرين: الأفعال التي كلَّفنا الله بها على قسمين:

منها ما يُعقل معناه ووجهُ حكمته فيه؛ كالصلاة والصوم والزكاة؛ فإن الصلاة تُضَرِّعُ مَحْضٌ، وتواضِعُ وتذلُّ للخالق، والزكاة سَعْيٌ في دفع حاجة الفقير، والصوم سَعْيٌ في كسر الشهوة.

ومنها ما لا يُعقل معناه ولا يُعرف وجه الحكمة فيه كأفعال الحج؛ فإنَّنا لا نعرف

بعقولنا وجه الحكمة في رمي الجمار، والسعي بين الصفا والمروة والرمل.

ثم اتفق المحققون على أنه كما يحسن منه تعالى أن يأمر عباده بالنوع الأول، فكذا يحسن منه الأمر بالنوع الثاني؛ لأن الإطاعة في النوع الأول لا تدل على كمال الانقياد؛ لاحتمال أن المأمور إنما أتى به لما عرف بعقله من وجه المصلحة فيه، بخلاف الطاعة في النوع الثاني؛ فإنها لا تدل إلا على كمال الانقياد، وكمال نهاية التسليم، لأنه لما لم يعرف منه وجه المصلحة إليه لم يكن وجه إتيانها إلا محض الانقياد والتسليم، وهذا معنى قولهم: يجب علينا الإيمان والتصديق بكل ما جاءت به الرسل وإن لم نفهم حكمته، كذلك يجب علينا الإيمان والتصديق بكلام الأئمة وإن لم نفهم علته حتى يأتينا عن الشارع ما يخالفه.

ومن شعائر الإسلام الصلوات، والجماعات، وقراءة القرآن. والمساجد والمحارب في زماننا أكثر؛ إذ النبي ﷺ خرج من الدنيا والإسلام لم يبلغ غير جزيرة العرب. ولما أصبح ﷺ قص على قريش ما رأى، فقال له المطعم بن عدي: «كل أمرِك قبل اليوم كان أمماً (يعني خفيّاً)، أنا أشهد أنك كاذب؛ فنحن نضرب أكباد الإبل إلى بيت المقدس مصعداً شهراً ومنحدرًا وترعّم أنك أتيت في ليلة! واللات والعزى لا أصدّقك».

فقال أبو بكر رضي الله عنه: «يا مطعم، بسّ ما قلت لابن أخيك، جبهته وكذبتّه، وأنا أشهد أنه صادق».

فقالوا: «يا محمد صف لنا بيت المقدس، كيف بناؤه؟ وكيف هيئته؟ وكيف قربه من الجبل؟ (وفي القوم من سافر إليه)، فذهب ينعت لهم: بناؤه كذا، وهيأته كذا، وقربه من الجبل كذا. وسأله أمارّة، فأخبرهم بالعر وأنها يقدمون يوم الأربعاء، فلما كان ذلك اليوم لم يقدموا حتى كادت الشمس أن تغرب، فدعا ﷺ الله، فحبس الشمس، وكان كما وصف ﷺ. واختلف في حبس الشمس، فقليل وقوفها عن السير (عن الحركة)

بالكلية، وقيل بطء حركتها. (وقيل غير ذلك). فما زال ينعت لهم حتى التبس عليه النعت، فكَرَبَ كَرَبًا ما كَرَبَ مثله، فَجِيءَ بالمسجد وهو ينظر إليه حتى وضع دون دار عقيل أو عقال، فقالوا له: كَمْ للمسجد من باب؟ ولم يكن عدّها، فجعل ينظر إليها ويعدّها بابًا بابًا، وأبو بكر رضي الله عنه يقول: «صدقت، صدقت، أشهد أنك رسول الله»، فقال القوم: أما النعت فوالله لقد أصاب، ثم قالوا لأبي بكر: أتصدّقه أنه ذهب الليلة إلى بيت المقدس وجاء قبل أن يُصبح؟ قال: «نعم، إني لأصدّقه فيما هو أبعد من ذلك؛ أصدّقه بخبر السماء في غدوةٍ أو رَوْحَةٍ». فلذلك سمي أبو بكر الصديق رضي الله عنه.

وحكمة تخصيص الإسراء إلى المسجد الأقصى: أن قريشًا تعرفه، فيسألونه عنه، فيخبرهم بما يعرفونه، مع علمهم أنه ﷺ لم يدخل بيت المقدس قط، فتقوم الحجة عليهم، وكذلك وقع.

وقد اختلف الناس في كيفية الإسراء: فالأكثر من طوائف المسلمين متفقون على أنه بجسده ﷺ، والأقلون قالوا بروحه، فالإسراء بالروح مَحْكِيٌّ عن حذيفة وعائشة ومعاوية رضي الله عنه، فقد قالوا: إن ذلك كله كان رؤيا، وهناك قول ثالث: إن الإسراء كان بجسده إلى بيت المقدس، وبروحه من بيت المقدس إلى السموات السبع.

والصحيح عند الجمهور أن الإسراء والمعراج كانا يقظة لا رؤية؛ لأنه قد صح أن قريشًا كذّبتَه، وارتدّ جماعة ممن كان أسلم، وسألوه أمارَةً فأخبرهم بقدوم العير يوم الأربعاء؛ فلما كان ذلك اليوم لم يقدموا حتى كادت الشمس أن تغرب، فدعا الله تعالى فحبس الشمس حتى قدموا كما وصف. وكذلك تجلّى البيت المقدس له ونظره إليه وإخبار قريش، فهذا يدل على أن ذلك كله لم يكن رؤيا، ولو قال رسول الله ﷺ «رأيت رؤيا» لَمَّا كُذِّبَ وَلَا أُنْكِرَ ذلك على غيره، فضلًا عن إنكاره عليه، لأن آحاد الناس يرون في منامهم أنهم ارتقوا إلى السموات، وليس ذلك بعجيب.

وأيضاً الظاهر من قوله تعالى: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ [الإسراء: ١] أنه يقظة؛ فإن العبد (كما في المحكم)^(١) الإنسان: حرّاً كان أو عبداً لأنه مملوك لربه، وهو في الأصل صفة، لكنه استعمل استعمال الأسماء، والمراد به هنا محمد ﷺ، ففي قوله ﴿بِعَبْدِهِ﴾ دليل على أن الإسراء كان بروحه وجسده، لا بروحه فقط؛ إذ العبد اسم للجسد والروح. وتعجب قريش من ذلك لاستحالتهم إياه مدفوع^(٢) كما قال أهل الهيئة^(٣) إن الفلك الأعظم في مقدار ما يتلفظ الإنسان بلفظة واحدة يقطع ألفاً واثنين وثلاثين فرسخاً، وكما قاله البيضاوي بما ثبت في الهندسة أن ما بين طرفي قرص الشمس ضعف ما بين كرة الأرض مائة ونيفاً وستين مرة، ثم إن طرفها الأسفل يصل موضعها الأعلى في أقل من ثانية^(٤) وهي جزء من ستين جزءاً من الدقيقة.

وقد برهن في كتاب «الإحكام» أن الأجسام متساوية في قبول الأعراض، فالله قادر على كل الممكنات، فيقدر أن يخلق مثل هذه الحركة السريعة في بدن النبي ﷺ، أو فيما يحمله، والتعجب من لوازم المعجزات. اهـ.

قال مُحَشِّيه^(٥): وأيضاً كما يُستبعد في العقل صعودُ الجسم الكثيف من مركز العالم إلى ما فوق العرش، فكذلك يستبعد نزول الجسم اللطيف الروحاني من فوق العرش إلى مركز العالم. فإن كان معراجُه ﷺ في ليلة واحدة ممتنعاً، كان نزول جبريل من العرش إلى مكة في لحظة واحدة ممتنعاً، ولو حكمنا بهذا الامتناع كان ذلك طعناً في نبوة جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، والقول بثبوت المعراج متفرع على نحو تسليم جواز أصل النبوة، فثبت أن القائلين بامتناع صعود حركة جسمانية سريعة إلى

(١) كتاب المحكم لابن سيده وهو العمدة في المعاجم.

(٢) أي مردود عليه.

(٣) علماء الطبيعة (الفيزياء).

(٤) لأنها نجم سيار، فالمكان الذي يكون في طرفها الأعلى يصله طرفها الأسفل في هذه المدة، والله هو الأعلم والأدري بخلقه.

(٥) أي صاحب الحاشية أي الهامش على الكتاب المذكور.

هذا الحدّ يلزمهم القول بامتناع نزول جبريل في لحظة واحدة من العرش إلى مكة، وإن كان ذلك باطلاً كان ما ذكر أيضاً باطلاً. فإن قالوا: نحن لا نقول إن جبريلَ جسمٌ ينفصل من مكان إلى مكان، وإنما نقول: المراد من نزوله هو زوال الحجب الجسمانية عن روحه ﷺ حتى يظهر في روحه من المكاشفات والمشاهدات بعض ما كان حاضراً متجلياً في ذات جبريل، قلنا: تفسير الوحي بهذا الوجه هو قول الحكماء^(١).

وأما جمهور المفسرين فيقولون بأن جبريل جسم، وأن نزوله عبارة عن انتقاله من عالم الأملاك إلى مكة، وإذا كان كذلك كان الإلزام المذكور قوياً، وهذا تقرير ما ذهب إليه أكثر من المسلمين، وإن ذهب الأقلون إلى أنه عليه الصلاة والسلام ما أُسري إلا بروحه. انتهى.

فقد ذهب أهل التحقيق أنه تعالى أسرى بروح محمد ﷺ وجسده من مكة إلى المسجد الأقصى. انتهى.

قال بعضهم في هذا المعنى مخاطباً له ﷺ:

أُسْرِي إِلَى الْأَقْصَى بِجِسْمِكَ يَقْظَةً لَا فِي الْمَنَامِ فَيَقْبَلُ التَّأْوِيلَ
إِذْ أَنْكَرْتَهُ قَرِيشٌ قَبْلَ وَلَمْ تُكُنْ لَتَرَى الْمَهُولَ مِنَ الْمَنَامِ مَهُولًا
وقال آخر:

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَسْرَى بَعْبِهِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى مِنَ الْبَيْتِ ذِي الْحِجْرِ
وَطَافَ بِهِ الْكَوْنَيْنِ فِي لَيْلَةِ السَّرَى وَعَلَّمَهُ ذُو مِرَّةٍ كُلَّ مَا يَجْـرِي
دَنَا فَتَدَلَّى قَابَ قَوْسَيْنِ فَاتْلُهَا وَعَلَّمَهُ مَا لَمْ يَكُنْ قَبْلَهُ يَدْرِ
خَلِيلٌ، وَلَمْ يَعْلَمْ كَلِيمٌ، وَلَمْ يَنْلِ مَسِيحٌ، وَلَا خَلَقَ إِلَى مَتْنِ الْحَشْرِ
وقوله: «وعلمه ما لم يكن قبله يدري خليل» إلى آخره إشارة إلى أن معراجهم لم

(١) الحكماء هنا هم: الفلاسفة، والفلاسفة لا دين لهم.

يكن كمعراجيه مشتتملاً على تعليم كتعليمه؛ وذلك لأن المعراج كان لسته من الأنبياء: خليفة الله تعالى آدم أبو البشر، وإدريس، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، وصفوتهم نبينا ﷺ فمعراج آدم كان إلى الجنة، ومعراج إدريس إلى السماء السادسة، ومعراج إبراهيم إلى ملكوت السموات والأرض، ومعراج موسى إلى الطور، ومعراج عيسى إلى السماء الدنيا، ومعراج المصطفى ﷺ إلى العرش، وقد اشتركت الستة في أصل المعراج، ولكن «ما كُلُّ بيضاء شحمة»^(١).

وفي الخبر عنه ﷺ «أعطيتُ تفاحةً ليلةَ المعراج فأكلتها فصارت ماءً في ظهري، فلما رجعتُ واقعتُ خديجةً فحملتُ بفاطمة، فإذا هي: حورية إنسية سماوية أرضية». وفي وقوع الإسراء ليلاً فوائد. منها: ليزداد الذين آمنوا إيماناً بالغيب، ويفتن الذين كفروا زيادةً على فتنتهم، ومنها أنه وقت الخلوة والاختصاص عرفاً؛ فإن بين جليس الملك نهراً وجليسه ليلاً فرقاً واضحاً، ولله درُّ القائل:

الليلُ لي ولأحبابي أنادِهم قد اصطفتيهم كي يسمعوا ويَعُوا
وقول الآخر:

قلت: يا سيدي أتوترُّ الليل عن بهجةِ النهار المنير
قال: لا أستطيع تغييرَ رَسمي هكذا الرَسمُ في طلوعِ البدور
إنما زرتُ في الظلامِ لَكَيْما يُشرقَ الليلُ من أشعةِ نوري

ولأنه وقت الصلاة التي كانت مفروضة عليه، في قوله تعالى: ﴿قُرْآنُ اللَّيْلِ﴾ [المزمل: ٢]، وليكون أبلغَ للمؤمن في الإيمان بالغيب - كما تقدم - وفتنةً للكافر.

وقال بعض أهل الإشارات: لما محا الله آية الليل وجعل آية النهار مبصرة انكسر الليل، فجبر^(٢) بأن أسري فيه بمحمد ﷺ.

(١) مثل يضرب لعدم تطابق الأشياء وإن كانت من جنس واحد.

(٢) فجبر: أي أرضي.

قال ابن دحية: «أكرم نبينا محمد ﷺ بأمر، منها: انشقاق القمر^(١)، وإيمان الجن به، وخروجه إلى الغار ليلاً». والليل أصلٌ، ولهذا كان أول الشهر، وسواده يجمع ضوءَ البصر، ويُستلذ فيه بالسمر، وكان ﷺ أكثرُ أسفاره ليلاً، وقال: «عليكم بالدَّلَجَةِ؛ فَإِنَّ الْأَرْضَ تُطَوَّى بِاللَّيْلِ»^(٢)، والليل وقت الاجتهاد للعبادة، فلما كانت عبادته ليلاً أُكْرِمَ بالإسراء فيه، وليكون أجر المصدق به أكثرَ ليدخل فيمن آمن بالغيب دون مَنْ عاينه نهاراً، وصَحَّ أنه ﷺ قال: «ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى سماء الدنيا حتى يبقى الثلث الأخير، فيقول: من يدعوني فأستجيب له؟ ومن يسألني فأعطيه؟ ومن يستغفرني فأغفر له؟» الحديث. وهذه الخصوصية لم تُجعل للنهار، نَبَّهَ بها ﷺ لما في ذلك الوقت من الليل من سعة الرحمة ومضاعفة الأجر، ولإبطال كلام الفلاسفة: «إن الظلمة من شأنها الإهانة والشر».

وقد ذكرَ ﷺ بعد عَوْدِهِ الأنبياء الذين رآهم في بيت المقدس والسماء، وذكر الجنة والنار، وسدرة المنتهى، والأنهار الأربعة، وفرض الصلوات الخمس، وأنه رأى ربه عز وجل بعيني رأسه بلا كيف ولا أين ولا زمان.

مسألة رؤية الله:

ولنذكر هنا مسألة الرؤية على وجه الاختصار فنقول:

أجمع العلماء على أن رؤية الله تعالى بالأبصار يقظةً في الدنيا جائزة عقلاً؛ إذ كل موجود رؤيته جائزة، وليس ثمة دليل قاطع على استحالتها شرعاً؛ فرؤية النبي ﷺ الله ليلة المعراج ببصره جائزة عقلاً، بمعنى أن العقل إذا خُلِيَ ونفسه لم يحكم بامتناع رؤيته تعالى بالبصر. ورؤية الله تعالى في الدنيا من خصوصياته ﷺ، مستحيلة شرعاً على غيره، وإنما اختلاف الصحابة في وقوعها لا في إمكانها وجوازها، ومما يدلُّ

(١) رواه ابن جرير عن أنس، وقال إنه انشق مرتين. ورواه أيضاً عن عبد الله بن مسعود وجبير، وعبد الله بن عباس.

(٢) رواه أبو داود، والحاكم، والبيهقي عن أنس.

على جوازها في الدنيا، سؤال موسى عليه السلام إياها، إذ لا يجوز على نبي جهل شيء مما يجوز لربه أو يمتنع عليه أو يجب له. وكيفية الخلاف في وقوعها: كما حكاها عنه القشيري، وهو قول عائشة رضي الله عنها بإنكار رؤيته ﷺ ربه ليلة الإسراء حين قالت لمسروق(*) وكان متكئاً عندها: «يا أبا عائشة، ثلاث من تكلم بواحدة منهن فقد أعظم على الله، فقال: ما هن؟ فقالت: من زعم أن محمداً رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية، فجلس، وقال: انظريني يا أم المؤمنين ولا تعجليني، ألم يقل الله ﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأَفُقِ الْمُبِينِ﴾ [التكوير: ٢٣]، ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾ [النجم: ١٣]؟ فقالت أنا أول هذه الأمة سأل عن ذلك رسول الله ﷺ فقال: إنما هو جبريل، لم أره على صورته التي خلق عليها غير هاتين المرتين، رأيته منهبطاً من السماء ساداً عظم خلقه ما بين السماء والأرض، ثم قالت: أو لم تسمع أن الله تعالى يقول: ﴿لَا تَدْرِكُهُ الْبَصَرُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَرَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] أو لم تسمع أن الله يقول: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكْلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ [الشورى: ٥١] إلى قوله: ﴿عَلَىٰ حَكِيمٍ﴾. قالت: ومن زعم أن رسول الله ﷺ كتم شيئاً من كتاب الله فقد أعظم على الله الفرية، والله تعالى يقول: ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ [المائدة: ٦٧] قالت: «ومن زعم أنه يخبر بما يكون في غد، فقد أعظم على الله الفرية، والله تعالى يقول: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥] كما رواه مسلم، ووافقها أبو هريرة وجماعة، وهو المشهور عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه.

والذي جزم به صاحب «التحرير»، كما نقله عنه النووي وأقره: إثبات رؤيته ﷺ ربه ببصره، قال: والحجج في هذه المسألة، وإن كانت كثيرة، ولكننا لا نتمسك إلا بالأقوى منها، وهو حديث ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: «أتعجبون أن تكون الخلّة

(*) مسروق بن الأجدع الهمداني.

لإبراهيم، والكلام لموسى، والرؤية لمحمد ﷺ؟! وعند الطبراني من حديثه: أنظر محمدٌ إلى ربه. قال عكرمة فقلت له: نظر محمد إلى ربه؟ فقال: «قد جعل الكلام لموسى، والخلة لإبراهيم، والنظر لمحمد ﷺ». وأخرجه البيهقي بلفظ: «إن الله اصطفى إبراهيم بالخلة، واصطفى موسى بالكلام، واصطفى محمدًا بالرؤية».

وعن عكرمة «سئل ابن عباس: هل رأى محمدٌ ربه؟ قال: نعم». وقد روي بإسناد لا بأس به عن شعبة عن قتادة عن أنس. قال: رأى محمدٌ ﷺ ربه.

والأصل في الباب حديثُ ابن عباس حَبْرُ الأمة، والرجوع إليه في المعضلات، وقد راجعه ابن عمر في هذه المسألة، وراسله: هل رأى محمدٌ ﷺ ربه؟ فأخبره أنه رآه، فالعقيدة على مذهب ابن عباس رضي الله تعالى عنه.

وأما ما قاله الإمام مالك رضي الله عنه من أن الله سبحانه وتعالى لم يرَ في الدنيا؛ لأنه باق، والباقي لا يرى بالفاني، فإذا كان في الآخرة ورُزقوا أبصارًا باقية رأوا الباقي بالباقي، ومقتضاه أنه يقول بعدم رؤيته لأحد في الدنيا، فيكون مذهبه مذهب من قال: إن محمدًا لم ير ربه، فقد تأوله بعض المتأخرين بقوله: هو كلام حسن مليح، ليس فيه دلالة على استحالة الرؤية في الدنيا إلا من حيث ضعف القوة الباصرة، فإذا قوى الله من شاء من عباده وأقدره على حمل أعباء الرؤية في أي وقت كان، فلا مانع من ذلك، وهو الحق، فيجوز أن يقال: إن الله تعالى أودع البصر الشريف قوة أقدر بها على رؤيته تعالى، كما كان ﷺ يرى جبريل، والصحابة عنده لا يرونه: للقوة التي أمده^(١) الله بها دونهم.

قال الحافظ ابن حجر: ووقع في صحيح مسلم ما يؤيد التفرقة في الرؤية بين الدنيا والآخرة في حديث مرفوع، فيه: «واعلموا أنكم لن تروا ربكم حتى تموتوا».

(١) في الأصل: للقوة التي أمدها الله دونهم.

وأخرجه أيضًا ابن خزيمة من طرفين، وهذا ظاهر في انتفاء الرؤية عنه ﷺ، والجواب عن ذلك ممن أثبتها له ﷺ في الدنيا ما قاله ابن حجر: إن المتكلم لا يدخل في عموم كلامه، يعني أن النبي ﷺ نفاه عن غيره.

وأما ما تمسكت به عائشة رضي الله عنها، فقد أجاب عنه صاحب «التحرير»، كما نقله عنه النووي وأقره من قوله بعد نقله حديث ابن عباس وأنس السابقين، ولا يقدر في هذا حديث عائشة؛ لأن عائشة لم تخبر أنها سمعت النبي ﷺ يقول: لم أر ربي، وإنما ذكرت ما ذكرت متأولة لقول الله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا ﴾ [الشورى: ٥١]، ولقوله تعالى: ﴿ لَا تَدْرِكُهُ الْآبْصَارُ ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، والصحابي إذا قال قولاً خالفه غيره من الصحابة لم يكن قوله حجة اتفاقاً، وإذا صحت الروايات عن ابن عباس في إثبات الرؤية وجب المصير إلى إثباتها؛ فإنها ليست مما يُدرك بالعقل ويؤخذ بالظن، وإنما تُتلقى بالسمع، ولا يستجيز أحد أن يظن بابن عباس رضي الله عنهما أنه تكلم في هذه المسألة بالظن والاجتهاد، وقد قال معمر بن راشد حين ذكر اختلاف عائشة وابن عباس: ما عائشة عندنا بأعلم من ابن عباس، ثم إن ابن عباس أثبت شيئاً نفاه غيره، والمثبت مقدم على النافي.

هذا كلام صاحب التحرير.

قال النووي: «والحاصل أن الراجح عند أكثر العلماء أن رسول الله ﷺ رأى ربه بعيني رأسه ليلة الإسراء، لحديث ابن عباس وغيره مما تقدم، وإثبات هذا لا يأخذونه إلا بالسمع من رسول الله ﷺ، وهذا مما لا ينبغي أن يُشك فيه»^(١).

(١) الواقع الذي لا نشك فيه: أن رسول الله ﷺ لم يره بالعين المجردة، وأن ما قاله ابن عباس والسيدة عائشة رضي الله عنهما لا خلاف فيه، فالسيدة عائشة كلامها - فيما ندرى - عن العين المجردة، وابن عباس عن عين القلب، وقد حسم القضية كلها من أولها لآخرها رسول الله ﷺ نفسه فيما رواه ابن أبي حاتم عن أبي ذر لما سأله عن ذلك فقال: «إنه رآه بقلبه ولم يره ببصره».

ثم إن عائشة رضي الله تعالى عنها لم تنف الرؤية بحديث عن رسول الله ﷺ، ولو كان معها فيه حديث لذكرته، وإنما اعتمدت الاستنباط من الآيات، فأما احتجاجها بقوله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ فجوابه ظاهر؛ فإن الإدراك هو الإحاطة، والله تعالى لا يحاط به، وإذا ورد النص بنفي الإحاطة لا يلزم منه نفي الرؤية بغير إحاطة، وأما احتجاجها بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآيَ حِجَابٍ﴾ الآية، فالجواب عنه من أوجه:

أحدها: أنه لا يلزم من الرؤية وجود الكلام حال الرؤية، فيجوز وجود الرؤية من غير كلام.

الثاني: أنه عامٌ مخصوص بما تقدّم من الأدلة.

الثالث: ما قاله بعض العلماء: إن المراد بالوحي الكلام من غير واسطة، وإن كان مذهب الجمهور أن المراد بالوحي هنا الإلهام، أو الرؤيا في المنام، وأما قوله تعالى: ﴿أَوْ مِنْ وَرَآيَ حِجَابٍ﴾ [الشورى: ٥١] فقال الواحدي وغيره: معناه غير مجاهر لهم بالكلام، بل يسمعون كلامه سبحانه وتعالى من حيث لا يرونه، وليس المراد أن هناك حجاباً يفصل موضعاً من موضع، ويدلُّ على تحديد المحجوب، فهو بمنزلة ما يُسمع من وراء حجاب، حيث لم يُر المتكلم.

وما قدّمناه من أنه ﷺ رأى ربه بعيني رأسه هو قول أنس وعكرمة والحسن والربيع وجماعة من المفسرين.

وقال ابن عباس وأبو ذر وإبراهيم التيمي: رآه بقلبه.

قال ابن عطية: وعلى هذا رأى ربه بقلبه رؤية صحيحة، وهو أن الله تعالى جعل بصره في فؤاده، أو خلق لفؤاده بصراً حتى رأى ربه رؤية صحيحة.

أخرج الطبراني بسند صحيح عن ابن عباس أنه كان يقول: «نظر محمد إلى ربه مرتين؛ مرة ببصره ومرة بفؤاده، وعليه فلا بن عباس مذهب كون الرؤية بالبصر وبالفؤاد.

وما قاله ابن عطية في الرؤية بالفؤاد أقرّه النووي وارتضاه ابن حجر، ثم قال: وليس المراد برؤية الفؤاد مجرد حصول العلم؛ لأنه ﷺ كان عالماً بالله على الدوام، فليس المراد بالرؤية المعرفة؛ لأن غيره ﷺ من الأولياء إذا أطلقوا الرؤية والمشاهدة وأسندوا ذلك لأنفسهم إنما يريدون بها المعرفة فقط، فقال بعضهم:

دَنَا لَيْلَةَ الْإِسْرَاءِ مِمَّنْ أَحَبَّهُ وَثَانِيهِ رُوحُ الْقُدُسِ وَالنَّاسُ هُجَّدُ
دُنُوَّ اصْطِفَاءٍ لَا دُنُوَّ مَسَافَةٍ وَإِنْ كَانَ فِي حَالَتِهِ لَيْسَ يَبْعَدُ
وَقَالَ أَيْضًا:

نَجَى لِرَبِّ الْعَالَمِينَ مَقَرَّبَ حَبِيبٌ فَيَدْنُو كُلَّ حِينٍ وَيُسْتَدْنِي
نَأَى لَيْلَةَ الْإِسْرَاءِ عَنَّا تَرْقِيَا فَكَانَ دَنَا قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى
فَقَلْنَا لَهُ عَنْ صَحَّةِ أَلْفِ آيَةٍ وَهَلْ تُنْكِرُ الْأَزْهَارُ فِي الرُّوْضَةِ الْغَنَا
وَلَمْ تَثْبِتِ الرُّؤْيَا فِي الدُّنْيَا لِغَيْرِهِ ﷺ، حَتَّى لِمُوسَى عَلَيْهَا لِسْلَامٌ، كَمَا قَالَ:
وَلَوْ قَابِلْتَ لَفِظَةَ «لَنْ تَرَانِي» بِـ «مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ» فَهَمَّتْ مَعْنَى
خِلَافًا لِمَنْ قَالَ غَيْرَ ذَلِكَ.

والحاصل في أنه «على القول بوقوع الرؤية في الدنيا» لم تحصل لبشر غير نبينا ﷺ، ومن ادّعاها في الدنيا يقظة فهو ضال بإطباق العلماء، بل قيل بتكفيره. وقد نقل جماعة الإجماع على أنها لا تحصل للأولياء في الدنيا، والصواب أنه مختلف فيها وأن المنع أرجح قولِي الأشعري، وذهب ابن الصلاح وغيره إلى تكذيب مدّعيها يقظة في الدنيا، فإن صح عن أحد من المعبرين وقوع ذلك يؤوّل بأن تقلبات الأحوال تجعل الغائب كالمشاهد، حتى إذا كثر اشتغال السرّ بشيء واستحضاره له صار كأنه حاضر بين يديه، كما هو معلوم بالوجدان لكل أحد، وعليه يُحمل ما نُقل عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أنه كان يطوف حول البيت فسلم عليه إنسان فلم يردّ عليه، فشكاه إلى عمر رضي الله عنه، فقال: «كنا نرى الله في ذلك المكان»، وهذا يدل على أنه قد تتفق في زمانٍ دون

زمان، ومكان دون زمان، ومكان دون مكان، وسيأتي قريباً لذلك بعض تحقيق.

ولم يستدل القوم بآتي النجم لاحتمالهما رؤية وجبريل، وقد وردت الآثار بمستند كل من الاحتمالين في الآيتين، وإنما الراجح كما قاله بعض المتأخرين: أن الرؤية بالبصر وأن المرئي هو الله تعالى لا جبريل^(١)، وقد ذهب جماعة إلى الوقف في هذه المسألة ولم يجزموا بنفي ولا إثبات لتعارض الأدلة، ورجّحه أبو العباس القرطبي في «المفهم»^(٢) وعزاه لجماعة من المحققين، وقوّاه بأنه ليس في الباب دليل قاطع، وغالب ما استدل به الطائفتان ظواهر متعارضة قابلة للتأويل.

قال القرطبي: وليست المسألة من العلميات^(٣) حتى يكتفى فيها بالأدلة الظنية، وإنما هي من المعتقدات التي يُطلب فيها الدليل القطعي.

وردّه السبكي في «السيف المسلول» بأنه ليس من شرط جميع مسائل الاعتقاد الثبوت بالدليل القطعي، بل متى كان حديثاً صحيحاً، ولو ظاهراً، وهو من رواية الآحاد جاز أن يُعتمد عليه في بعض تلك المسائل، حيث لم يكن من مسائل الاعتقاد التي يُشترط فيها القطع، على أننا لسنا مكلفين بذلك^(٤).

وقد اختلف في رؤيته في المنام، ومعظم المثبتين للرؤية في الدنيا على جوازها من غير كيفية وجهة، ونُقل عن القاضي عباس اتفاق العلماء على جواز رؤية الله تعالى في المنام، وصحتها إن ادّعاه من هو أهله، كولي يوثق به، ويكون ذلك تخصيصاً للعموميات، كقوله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، وأما إن ادّعاه من ليس من أهله كالعاصي والمقصر- فإننا نكذبه، ومع ذلك فالرؤية المنامية ليست من قبيل المشاهدة البصرية الحقيقية، وإنما هي من قبيل نوع مشاهدة بالقلب دون العين،

(١) لا نوافق على هذا أبداً، لأن قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ [١٣-١٤] تحديد مكان، والله تعالى لا يحل في مكان، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً؛ إذ المكانية صفة للمخلوق.

(٢) كتاب المفهم لشرح صحيح مسلم للإمام القرطبي.

(٣) في الأصل «العمليات».

(٤) نعم لسنا مكلفين بالبحث في الأمور التي لا تحيط بها العقول، ﴿لَا يَكْفِيكَ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

وهي أيضًا غير الرؤية القلبية التي في اليقظة؛ فرويته ﷺ لربه ليلة الإسراء كانت يقظةً بصرية أو قلبية، يعني رؤية صحيحة، حيث جعل الله تعالى بصره ﷺ في فؤاده، أو خلق لفؤاده بصرًا حتى رأى ربه رؤية صحيحة كما سبق، لا في جهةٍ ولا بانحصار، منزهاً عن صفات الحوادث. والمحققون على أنه رآه بعينه وبقلبه، وإسراؤه ومعرجه ﷺ كان يقظةً أيضًا على الصحيح كما قيل:

أعلمت من ركب البراق عتيماً وتلاء جبريل الأمين نديماً
حتى سعا فوق السماء قدوماً ودنا فكلّم ربّه تكليماً

* * *

أم من على الرسل الكرام تقدّما ونوى الصلاة بهم، وكبرّ محرّما
وسرى إلى ذي العرش فرداً بعد ما بلغ الأمين^(١) مكانه المعلوما

* * *

أم من كتاب القوس آيةً قرّبه بعُلوّه ودُنُوّه من ربه
ورأى الإله بعينه وبقلبه وحوى من الغيب الخفيّ علوما

ولذلك لما أفحم قريباً بالدلائل القوية التي تفيد اليقين، من وصف بيت المقدس، ووصف العير التي مرّ بها في طريقه، وأنها تصل إليهم وقت كذا، فكان كما أخبر، لم يجدوا طريقة إلا أن رموه بالسحر، وقالوا: صدق الوليد.

ولوقوع الإسراء ليلاً فوائد، منها ليزيد الذين آمنوا إيماناً بالغيب، ويفتن الذين كفروا زيادة على فتنهم، وقد قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّءْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ ﴿الإسراء: ٦٠﴾ أَيِ الَّتِي شَاهَدْتَهَا لَيْلَةَ الْإِسْرَاءِ ﴿إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾ أَيِ امْتِحَانًا وَابْتِحَارًا، لأنه لما ذكر لهم قصة الإسراء كذبوه، وكفر به كثير ممن كان قد آمن به، وازداد المخلصون إيماناً، فلهذا السبب كانت امتحاناً. والمراد، «بالرؤية» في الآية الرؤية البصرية، حيث

(١) هنا جبريل.

إن الإسراء كان في اليقظة بجسمه الشريف، وأنه وقع ذلك ليلاً وكان خارقاً للعادة أشبه الرؤيا المنامية، فعبر عنه بالرؤيا مجازاً، وأدُلُّ دليلٌ على أن الرؤيا كانت بصرية، قوله تعالى: ﴿فَتَنَّا لِلنَّاسِ﴾ [الإسراء: ٦٠] كما ذهب إليه ابن عباس والمحققون وأرباب البصائر، إذ لو كانت منامية لما حصل افتتان كما سبق، إذ العاقل لا يستبعد الرؤيا المنامية، ولا ينازع، ولا يستعظم ذلك خصوصاً مع إنسان لم يُعهد عليه إلا الصدق من صغره إلى كبره ﷺ.

وأما رؤية المؤمنين للنبي ﷺ في الدنيا، فقد ورد: «من رآني في المنام فقد رآني حقاً؛ فإن الشيطان لا يتمثل بي» رواه الإمام أحمد، والبخاري، والترمذي عن أنس، وهو متواتر، وفي رواية: «من رآني فقد رأى الحق؛ فإن الشيطان لا يتزيأ بي» رواه الإمام أحمد، والبخاري، ومسلم عن أبي قتادة.

وفي رواية: «من رآني في المنام فسيراني في اليقظة، ولا يتمثل الشيطان بي» رواه البخاري ومسلم، وأبو داود عن أبي هريرة.

أي أن رؤيته ﷺ في المنام حق، ولو رآه الرائي على غير صفته الحقيقية التي هو عليها، خلافاً للحكيم الترمذي؛ لأن إدراكه على صفته الأصلية إدراكٌ لذاته، وإدراكه على غير صفته الأصلية إدراكٌ لمثاله. وعدم تمثُّل الشيطان به لئلا يُجعل ذلك وسيلة للكذب عليه في النوم، وقوله «فسيراني في اليقظة» أي في الآخرة رؤية خاصة بصفة القرب والشفاعة، وفيه بشرى بموته على الإيمان، وهذا عامٌ في أهل الطاعة، محتمل في أهل العصيان، فقد تُخرق لهم العادة إغراءً.

وقولنا فيما تقدم «رؤية خاصة» أي وإلا فجميع أمته يروونه في الآخرة، أو هذا قبل موته ﷺ، أي مَنْ رآه في المنام فسيوفقه الله تعالى للهجرة إليه ويراه بعيني رأسه، أو فسيره في الدنيا حقيقة كرامةً له، كما وقع لكثير من الأولياء وسألوه فأرشدهم.

ورُدَّ هذا بأنه يلزم بقاء الصحبة، وبأن جمْعاً ممن رأوه مناماً لم يروه يقظةً، وخبرُه لا

يتخلف، وأجيب بأن شرط الصحة أن يراه في عالم الدنيا قبل موته، وبأن من لم يبلغ درجة الولاية يراه قرب موته عند الاحتضار، ورؤيته في اليقظة نصّ جمع من الأئمة على إمكانها ووقوعها، وقيل المرئي مثاله لا حقيقة جسده الشريف.

ثم اعلم أن الرائي للنبي ﷺ مختلفون في الدنو منه والبعد؛ فمنهم من يدنو منه حتى لا يبقى بينه وبينه حجاب، ومنهم من يراه على بُعد بعد رفع الحجاب رفعاً غير تام، وهذا الدنو معنوي لا حسي، بحيث إن النبي ﷺ ينتقل إلى الرائي بأن يحيي إليه راجلاً أو راكباً أو نحو ذلك؛ إذ لا دليل عليه. انتهى.

وقد رُفِع سؤال للعلامة كمال الدين بن أبي شريف صورته: «رؤيا النبي ﷺ في النوم هل هي صحيحة؟ ولو كانت على أي حال من الأحوال، حتى لو رُؤي على لون أسمر أو رؤى بلا لحية أو نحو ذلك؟ أم كيف الحال؟ وهل يشترط لصحة الرؤيا شيء أم لا؟ وما معنى قوله ﷺ «من رآني فقد رآني حقاً فإن الشيطان لا يتمثل بي»^(١) أو كما قال؟ وما حكم الله في ذلك؟.

فأجاب رحمه الله بأن قوله ﷺ «من رآني في المنام فقد رآني حقاً فإن الشيطان لا يتمثل بي» ورد في الصحيحين وغيرهما من رواية غير واحد^(٢) من الصحابة، بالفاظ المعنى، ويتعلق البحث فيه بقوله ﷺ «من رآني في المنام» هل هو قاضٍ بمن رآه ﷺ بحليته وصفته؟ أو هو كمن رآه على أي صفة رآه؟ ويقول ﷺ: «فقد رآني» هل هو على ظاهره؟ بمعنى فقد رأى ذاتي حقيقة، أو هو مؤول؟ فذهب جمعٌ منهم ابن سيرين وإمام أهل التعبير إلى اختصاصه بمن رآه ﷺ على صفته. ثم من هؤلاء من ضيق فقال على صفته التي توفي عليها، حتى راعى عدد الشعرات البيض في رأسه ولحيته ﷺ. ومنهم من اكتفى بما تصدق عليه صفته ﷺ في وقت من أوقاته، كحال شبابه، أو رجولته، أو كهولته، أو ما بعد ذلك؛ فهؤلاء يُشترط عندهم في رؤياه ﷺ أن يرى على صفته، على

(١) وفي رواية للترمذي «من رآني فإني أنا هو؛ فإنه ليس للشيطان أن يتمثل بي».

(٢) أي أكثر من واحد.

اختلاف قولهم في المراد بالصفة. وذهب آخرون منهم القاضي أبو بكر الباقلاني إلى أنه لا يختص بذلك، وإلى أن المعنى في قوله: «فقد رأيي» على التأويل، فقال القاضي أبو بكر المذكور كما نقله عنه الماوردي وغيره: يعني «قد رأيي» فرؤياه حق ليست أضغاث أحلام، ولا من شبهات الشيطان بل له مما له تعبير صحيح، أي وليس المعنى أنه رأى ذاته حقيقة، قال: فقد يراه الرائي على خلاف صفته المعروفة، كمن رآه أبيض اللحية، وقد يراه شخصان في زمن واحد في مكانين مختلفين، فيراه أحدهما بمنزله، وهو بالمشرق، والآخر بمنزله وهو بالمغرب، وعلى هذا التأويل مشى الغزالي أيضًا، فقال: ليس معناه: فقد رأى جسمي وبدني، قال: بل المرئي مثال حقيقة روحه المقدسة التي هي محمل النبوة، لا نفس روحه ولا شخصه. وذهب طائفة إلى أن الحديث على ظاهره من أن المرئي حقيقة ذاته، إذ لا مانع من ذلك، والعقل لا يحيله^(١) لاحتاج إلى تأويله؛ إذ الرؤية أمر يخلقه الله تعالى في الحي، ولا يتوقف على مقابلة، ولا تحديق بصر، ولا كون المرئي ظاهرًا، بل الشرط كونه موجودًا فقط، وقد دلت الأحاديث الصحيحة على بقاء جسمه الشريف، وأنه لا يبلَى؛ ففي حديث أوس بن أوس عند أبي داود والنسائي، وغيرهما أن النبي ﷺ قال: «إن الله حَرَّمَ على الأرض أجساد الأنبياء»، وعند أبي داود من حديث أبي هريرة أنه ﷺ قال: «ما من أحد يسلم عليّ إلّا ردَّ الله عليّ رuchi حتى أردَّ عليه السلام».

وقد نصر القرطبيُّ مذهبَ القاضي الباقلاني، وشنَّ على القول برؤية الذات الشريفة حقيقةً بأنه يلزم عليه أمور منها: أنه لا يراه أحد على غير صفته التي مات عليها، وأن لا يراه رائيان في آن واحد في مكانين متباعدين، مع أن ذلك واقع لا مانع منه عقلاً ولا عادةً، وقد أجيب من طرف القائل عن رؤيته على غير صفته وفي مكانين مختلفين بأن ذلك من غلط الرائي، وأن كلاً من الصفة والمكان متخيَّل غير مرئي، وذلك التخيل بحسب حال الرائي، يُستدل به على التعبير بالنسبة إليه.

(١) أي لا يراه مستحيلًا.

وقد نصر النووي في شرح مسلم القول بأن الرؤية للذات حقيقة، وحكى مذهب القاضي أبي بكر الباقلاني أولاً، ثم حكى مذهب القائل بأن الرؤية للذات على ظاهرها، ثم حكى عن القاضي عياض أنه يحتمل أن يكون معنى الحديث إذا رآه على صفته المعروفة له في حياته، فإن رؤي على خلافها كانت رؤيا تأويل لا رؤيا حقيقة، ثم قال النووي: وهذا الذي قاله القاضي ضعيف، بل الصحيح أنه يراه حقيقة، ثم قال النووي: سواءً على صفته المعروفة أو غيره، كما ذكره البارزي، انتهى كلام النووي.

وقد تعقبه العلامة ابن حجر في «فتح الباري» بأن الذي قاله القاضي توسط حسن يمكن الجمع بينه وبين ما قاله البارزي، بأن تكون رؤياه على الحالين حقيقة، لكن إذا كانت على غير صورته كان النقص؛ لتخيله الصفة على غير ما هي عليه، ويحتاج ما يراه في ذلك المنام إلى التعبير. اهـ.

وبمناسبة ليلة الإسراء وليلة القدر ونحوهما، ذكر العلماء اختلافاً في التفضيل بين الليل والنهار، وممن ذهب إلى تفضيل الليل «النيسابوري» لوجوه: أحدها أن الليل راحة والنهار تعب، وأيضاً فالليل حظ الفراش والنهار حظ المعاش، ولأن الله تعالى سَمَّى ليلة القدر ﴿خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ [القدر: ٣] وليس في الأيام مثلها. وقيل: النهار أفضل لأنه نور نافع للمعاد والمعاش.

قال الحافظ السيوطي رحمه الله: وقد وقفتُ على تأليفٍ في التفضيل بين الليل والنهار لأبي الحسين بن فارس اللغوي صاحب المجمل، فذكر فيه وجوهاً في تفضيل هذا ووجوهاً في تفضيل هذا، فمما ذكره في تفضيل الليل: أن الله تعالى ذكر فيه سورة مسماة بسورة الليل، ولم ينزل في النهار سورة تسمى بسورة النهار، وأن الله تعالى قدَّم ذكره على النهار في أكثر الآيات، كقوله: ﴿وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَىٰ ۖ وَالنَّهَارُ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ [الليل: ١، ٢] ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتَيْنِ ۚ﴾ [الإسراء: ١٢] ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ﴾ [يونس: ٦٧] ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا﴾ [القصص: ٧١]، وأن الله خلقه قبل النهار، وأن ليالي الشهر سابقة على أيامه وأن في الليالي ليلة

خيرًا من ألف شهر، وليس في الأيام مثلها، وأن في كل ليلة إجابة وليس ذلك في النهار إلا في يوم الجمعة خاصة، وأنه وقت الخلوة والاختصاص عرفًا، فإن بين جليس الملك نهارًا وجليسه ليلاً فرقًا واضحًا، وأن النهار فيه أوقات تُكره فيها الصلاة^(١) وليس في شيء من ساعات الليل وقت كراهة، والصلاة من أشرف العبادات، وأن فيه التهجد والاستغفار بالأسحار، وهما أفضل من صلاة النهار واستغفاره، وأنه أصح لتلاوة الذكر، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ [المزمل: ٦] وقال: ﴿أَمَنْ هُوَ قَنِيتٌ ءَانَاءَ اللَّيْلِ﴾ [الزمر: ٩]. وأن الإسراء وقع بالليل، قال الله تعالى: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ [الإسراء: ١]، وقال الله تعالى: ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّهَا ۝ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا﴾ [الشمس: ٣، ٤].

وقال أهل العلم: في الليل تنقطع الأشغال، وتجمُّ الأذهان، ويصحُّ النظر، وتؤلف الحُكم، وتدرُّ الخواطر، ويتسع مجال القلب. ومؤلفو الكتب يختارونه على النهار؛ لأن القلب بالنهار طائر وبالليل ساكن، وكذلك مدبرو الملوك، وقديمًا كان يقال: الليل نهار الأريب.

وقال القائل:

ولم أرَ مثل الليل جنة^(٢) فاتك إذا همَّ أمضى^(٣)، أو غنيمته ناسك

وعارضه صاحبُ النهار بأن الله قدّم ذكره في قوله ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّهَا ۝ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا﴾ [الشمس: ٣، ٤] وبأن التقديم لا يدل على فضيلة، فقد قدّم الله الموت على الحياة، والجنّ على الإنس، والأعمى والأصمّ على البصير والسميع، في قوله: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾ [الملك: ٢]، ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْمَى وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ﴾ [هود: ٢٤]، والمتأخر مما

(١) أوقات كراهة الصلاة عند بلوغ الشمس، وبعد العصر إلى المغرب.

(٢) ستر ووقاية.

(٣) إذا عزم على خطة أنفذه.

ذُكر أفضل من المتقدم قطعاً، وبأن النور قبل الظلمة، قال الله تعالى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥]، وبأن الناس والشعراء ما زالوا يذمون الليل ويشكونه كقول امرئ القيس:

وليل كموج البحر أرخى سدوله عليّ بأنواع الهموم ليبتلي
فقلتُ له لما تمطّى بضلّبه وأردف أعجازاً وناء بكلّ
ألا أيها الليل الطويلُ ألا انجلِ بصُبح وما الإصباحُ منك بأمثلِ
فيا لك من ليلٍ كأنّ نجومه بكلِّ مُغارِ الفتلِ شُدّتْ يذبُلِ
وقد استعاذوا بالله من الأبهمين، ويقال الأعميين: السيلُ والليلُ. وبالليل تدبُّ الهوام وتثور السّباع وتنتشر اللصوص وتُشن الغارات وتُرتكب المعاصي، ولذلك قيل «الليل أخفى للويل».

وقد قال ﷺ: «أقلّوا الخروج إذا هدأت الرّجلُ؛ فإنّ لله دوابّ ينشرها»^(١) وقد شبه الله تعالى به وجوه أعدائه، فقال ﴿كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا﴾ [يونس: ٢٧]، وكان الحسن يقول: ما خلق الله خلقاً أشدّ سواداً من الليل. وقال تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ [الفلق: ٣]. قيل: هو الليل إذا أظلم. وتقول العرب للمكثّر: حاطب ليل؛ لما يُخشى عليه من نهش الهوام. ونهى النبي ﷺ عن صوم الليل، وأمر بغلق الأبواب وكفّ الصبيان بالليل.

وافتخرت العرب بالأيام دون الليالي، فقالوا «يوم ذي قار» ويوم كذا. والأسبوع أيامه مسمّاة دون الليل، وإنما تُذكر بالإضافة إلى الأيام، فيقال: ليلة الأحد، وليلة كذا، وليس المضاف كالمضاف إليه. والأيام النبيهة أكثر من الليالي كيوم الجمعة، ويوم عرفة، ويوم عاشوراء، والأيام المعلومات، والمعدودات، وليس في الليل إلا ليلة

(١) رواه أحمد، وأبو داود، والنسائي عن جابر، وبلغظه: «أقلّوا الخروج بعد هدأة الرجل؛ فإنّ لله دوابّ يبتهن في الأرض في تلك الساعة».

القدر، وليلة نصف شعبان. وقال عليه السلام: «اللهم بارك لأمتي في بكورها»^(١) ولم يقل ذلك في شيء من الليالي. هذا ما ذكره الحافظ السيوطي ببعض رسائله.

وأما أفضل ليلة الإسراء على ليلة القدر فقد قال أبو أمامة بن النقاش رحمه الله: «إن ليلة الإسراء أفضل من ليلة القدر في حق النبي صلى الله عليه وآله، وليلة القدر أفضل في حق الأمة لأنها لهم خير من عمل أكثر من ثمانين سنة ممن كان قبلهم، وأما ليلة الإسراء فلم يأت في أرجحية العمل فيها حديث صحيح ولا ضعيف»، والمأخوذ من كلام البلقيني رحمه الله أن ليلة الإسراء أفضل من ليلة القدر، ولعل الحكمة في ذلك كما قاله في «الاصطفاء»^(٢) اشتمالها على رؤيته سبحانه التي هي أفضل من كل شيء، ولذا لم يجعلها ثواباً من عمل من الأعمال مطلقاً، بل من بها على عباده المؤمنين يوم القيامة تفضلاً منه تعالى، وهذا مما يؤيد القول بتفضيل الليل على النهار، وظواهر كلامهم أن الخلاف بين الليلة المعينة التي أسري فيها بالنبي صلى الله عليه وآله، وبين ليلة القدر التي أنزل فيها القرآن. وأما الليلة المعينة التي أسري به صلى الله عليه وآله فيها وليلة القدر في كل عام فينبغي أن يكون فيها قول أبي أمامة بن النقاش السابق، وأما نظائر الليلة المعينة في كل عام فلا شك في أن ليلة القدر أفضل منها، كما لا يخفى، وبالجمله فما أحسن قول ابن الفارض:

وخير الليالي ليلة القدر إن دنت كما أن أيام اللقاء يوم جمعة
فالأزمان متكافئة في حد ذاتها، والفضل إنما هو بالخصوصيات المنسوبة إليها؛ فقد ذهب العز بن عبد السلام إلى أن التفضيل إنما هو بين العقلاء، ولا يجري في غيرهم من الأماكن والأزمان إلا باعتبار ما يقع فيها من الأعمال والعبادات، لا في ذواتها. ومذهب غيره أن التفضيل يكون بالذات: كتفضيل العلم على الظن، وبالصفة: كتفضيل القادر على العاجز، وبالطاعة: كتفضيل الولي على غيره من المؤمنين،

(١) رواه الإمام أحمد والأربعة، وابن حبان عن صخر الغامدي.

(٢) اسم كتاب.

وبالثواب: كتفضيل جلد المصحف على سائر الجلود، وبما حل فيه: كتفضيل مزاره ﷺ على سائر البقاع، وبالإضافة: كبيت الله، وحزب الله، وبالاتساق: كزوجاته ﷺ وذريته، وبالثمرة والجدوى: كتفضيل الرسالة على النبوة، وبتفاوت الثمرة وتحققها: كما في العلوم المدونة، وبما يُفيضه الله تعالى على الأماكن والأزمان بفيضه وكرمه: كاختصاص عرفة بالوقوف. فلا عبرة بمذهب مَنْ سَوَّى بين الأعيان والأزمان والأماكن، وزعم أنه لا مزية لشيء، وإنما هو مجرد ترجيح بلا مُرَجِّح؛ فإن قوله باطل، ويكفي في فساده أنه يقتضي أن ذوات الرسل كذوات أعدائهم، وأن البيت الحرام كغيره من البيوت، والحجر الأسود كغيره من الأحجار من غير فرق، ولا قائل بذلك، بل التفضيل له معان وأسباب، ومن هذا يُعلم أيضاً أن التفضيل بين العقلاء ليس بكثرة الثواب والعمل فقط، وهو الحق، فالتفضيل للأنبياء بِقُرْبِ المنزلة من الله وعلو المرتبة وكثرة الخصائص والمعجزات، كخاصة الإسراء لنبينا ﷺ وإضافته إليه في قوله ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾. قال أبو سلمان القاسم الأنصاري: لما وصل رسول الله ﷺ إلى الدرجات العالية والمراتب الرفيعة في المعارج، أوحى الله إليه: بِمَ أَشْرَفَكَ؟ فقال: يا رب بنسبتي إلى نفسك بالعبودية، فأنزل الله تعالى فيه ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ [الإسراء: ١] ولذلك قيل:

يا قَوْمُ قلبي عند أسماءٍ يَعْرِفُهُ السامِعُ والرائي
لا تَدْعُنِي إِلَّا بيا عَبْدَها فَإِنَّه أَشْرَفُ أسمائي

وقال الشيخ أحمد الغزالي:

وهانَ عليّ اللومُ في حُبِّ حُبِّها وقولُ الأعادي: إنه لخليعُ
أصمُّ إذا نوديتُ باسمي، وإنني إذا قيلَ لي يا عَبْدَها لسميعُ

وقال القاضي عياض:

ومما زادني شرفاً وتيهاً وكِدْتُ بأخْمَصي أطا الثُرَيَّا

دُخولي تحت قولك «يا عبادي» وَأَنْ صَيَّرْتَ أَحْمَدَ لِي نَبِيًّا

وقال آخر:

وَكُنْتُ قَدِيمًا أَطْلُبُ الْوَصْلَ مِنْهُمْ فَلَمَّا أَتَانِي الْعِلْمُ وَارْتَفَعَ الْجَهْلُ
تَيَقَّنْتُ أَنَّ الْعَبْدَ لَا طَلِبَ لَهُ فَإِنْ وَصَلُوا فَضَّلْ وَإِنْ هَجَرُوا عَدْلُ
وَإِنْ أَحْسَنُوا لَمْ يُحْسِنُوا غَيْرَ وَصْفِهِمْ وَإِنْ بَخَلُوا فَالْبُخْلُ مِنْ أَجْلِهِمْ يَحْلُو

* * *

ثم أقام عليه الصلاة والسلام بعد الإسراء بمكة على الأذى صابراً، وعلى نصيح الأمة مثابراً، يوافي موسم الحج فيعرض نفسه الشريفة حتى بايعه بيمنى الأنصار، على أن يؤوّه إذا أتاهم، وينصروه على الكفار. ثم أذن له في الهجرة إلى المدينة، ثم في القتال، فقابل ذلك بالقبول والامتنال، وأقام بالمدينة عشر سنين كوامل، وفيها أنزل بقية القرآن، وشُرِعَ غالبُ الأحكام التي بهرت الأواخر والأوائل.



الباب الثالث

في هجرته ﷺ إلى المدينة
وما ترتب على ذلك من المظاهر الإسلامية والظواهر التعليمية.
وفيه فصول

الفصل الأول

في الأسباب الباعثة على هذه الهجرة والتمهيد لها

قد أخفى ﷺ رسالته ثلاث سنين، كما تقدم في الفصل الأول من الباب الثاني، ثم أعلن بها في الرابعة، ودعا إلى الإسلام عشر سنين، يوافي الموسم كل عام يتبع الحجاج في منازلهم بمنى والموقف، ويسأل عن القبائل قبيلة قبيلة، ويسأل عن منازلهم، ويأتي إليهم في أسواق المواسم، وهي: عكاظ، ومجنة، وذو المجاز. وقد تقدم الكلام على سوق عكاظ في الفصل الثالث من الباب الثاني من المقالة الرابعة من الجزء الأول، وأن العرب كانت إذا حَجَّت تقيم بعكاظ شهر شوال، ثم تجيء إلى سوق مجنة تقيم فيه عشرين يوماً من ذي القعدة، ثم تجيء سوق ذي المجاز فتقيم به إلى أيام الحج.

وكان ﷺ يدعوهم إلى أن يمنعوه ويناصروه حتى يبلغ رسالة ربه، فكان يقول بمنى: يا أيها الناس، إن الله يأمركم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً. وكان وراءه أبو لهب يقول: يا أيها الناس، إن هذا يأمركم أن تتركوا دين آبائكم.

وقد عرض على بني حنيفة، وبني عامر بن صعصعة المبايعة، فقال له رجل منهم: رأيت إن نحن بايعناك على أمرك، ثم أظفرك الله على من خالفك أ يكون لنا الأمر من بعدك؟ فقال: الأمر إلى الله يضعه حيث شاء، فقال له ذلك الرجل: أنقاتل العرب دونك، فإذا أظفرك الله كان الأمر لغيرنا!! لا حاجة لنا بأمرك. وأبوا عليه. فلما رجعت بنو عامر إلى منازلهم، وكان فيهم شيخ أدركه السن، حتى لا يقدر أن يوافي معهم الموسم، فقدموا عليه، سألهم عما كان في موسمهم، فقالوا: جاءنا فتى من قريش،

أحد بن عبد المطلب، يزعم أنه نبي، يدعونا إلى أن نمنعه ونقوم معه، ونخرج إلى بلادنا. فوضع الشيخ يده على رأسه، ثم قال: يا بني عامر، هل لها من تلاف؟ هل لها من مطلب؟ والذي نفسي بيده ما يدعي النبوة كاذباً أحد من بني إسماعيل قط، وإنها لحق، وإن رأيكم غاب عنكم.

وقد بشر بظهوره وهجرته [من ملوك حمير] الملك الحارث الرايش أبو التبابعة في أبيات يقول فيها:

أنا الملك المتوج ذو العطايا	جلبت الخيل من أوطان شام
لنوطنها البلاد إلى بلاد	تداولها الملوك من آل رام
لأننا الأغلبون إذا بطشنا	وأنا المنقمون لكل دام
وأنا يوم نغضب أو نسامي	تكاد الأرض ترجف بالأنام
ولن ترضى تقر بمن عليها	ويشرق وجهها بعد الظلام
وفينا الملك والأملاك منا	ونحن الأكرمون بنو الكرام
أبونا يعرب، وبه نسامي	فنقهر من يفاخر أو يسامي
فإن أهلك فقد أملت ملكاً	لكم يبقى إلى وقت التهامي ^(١)
ويملك بعدنا من ملوك	يديمون الأنعام بغير دام
ويخرج بعدهم رجل عظيم	نبي لا يرخص في الحرام
يفارق أهله، وله كتاب	يوافق خطه رجع الكلام ^(٢)
وأحمد اسمهُ، يا ليت أني	أؤخر بعد مخرجه بعام
ويخلف بعده خلفاء بر	وتملك بعده أولاد عام

(١) هو النبي ﷺ، نسبة إلى تهامة بكسر التاء. وفي المراسد: «تهامة تسائر البحر، ومنها مكة» وأصل البلاد: تهامة، والحجاز، ونجد، وإنما سمي الحجاز حجازاً لأنه حجز بين تهامة ونجد.

(٢) الرجع: الصدى، والترجيع: التردد في الحلق.

[قوله أولاد عام: أي أولاد عامر، وهو سبأ الأكبر]

فبينما كان ﷺ في بعض المواسم، عند عَقَبَةِ الجَمْرَةِ سنة إحدى عشرة من النبوة، إذ لقي رهطاً من الخزرج، وكانوا ستة، وقيل ثمانية، أراد الله بهم خيراً، فقال لهم: من أنتم؟ فقالوا: نَفَرٌ من الخزرج، قال: أفمن موالي يهود^(١)؟ قالوا: لا، قال: أفلا تجلسون أكلمكم؟ قالوا: بلى. فجلسوا معه ﷺ، فدعاهم إلى الله عز وجل وعرض عليهم الإسلام، ورأوا أمارات الصدق عليه ﷺ، فقال بعضهم لبعض: والله إنه للأنبي الذي يوعدكم به يهود، فلا يَسْبِقَنَّكم إليه. فأجابوه وصدّقوه وأسلموا، وقالوا له: إنّا تركنا قومنا الأوس والخزرج بينهم من العداوة والشر ما بينهم، فإنّ الله يجمعهم عليك، فلا رجل أعز منك. وكان الأوس والخزرج أخوين لأب وأم، فوَعَتْ بينهما العداوة، وتناولت بينهم الحروب، فمكثوا على المحاربة والمقاتلة نحو عشرين ومائة سنة^(٢).

ولما آمنوا به ﷺ وصدّقوه، قالوا: إنا نشير عليك أن تمكث على حالك باسم الله حتى نرجع إلى قومنا، فنذكر لهم شأنك وندعوهم إلى الله وجل ورسوله ﷺ، ولعل الله يُصلح ذات بينهم، ونواعدك الموسم من العام المقبل. فرضي بذلك رسول الله ﷺ. ويسمى هذا ابتداء إسلام الأنصار؛ فإنهم أجابوه وانصرفوا راجعين إلى بلدهم من غير مبايعة، ويقال: «هم أهل العقبة^(٣) الأولى» فلما كان العام المقبل قدم من الأوس والخزرج اثنا عشر رجلاً، فاجتمعوا به ﷺ عند العقبة أيضاً، منهم خمسة من أهل العقبة الأولى، فبايعهم وعاهدهم، وهذه المبايعة في الحقيقة يقال لها: العقبة الأولى، وإن كانت هي الثانية، فلما انصرفوا راجعين إلى بلادهم بعث رسول الله ﷺ معهم ابنَ أم مكتوم، وهو ابن خال خديجة بنت خويلد أم المؤمنين رضي الله عنها، وكذلك

(١) أي من المواليين لهم.

(٢) في الأصل: مائة وعشرين سنة» وهو خطأ فجعلناها هكذا؛ لأن الأعداد لا تنطق بالعربية إلا هكذا: أي من اليمين إلى اليسار -جعلنا الله من أصحاب اليمين بفضلله ومنّه وكرمه.

(٣) العقبة: منزل في طريق مكة: بعد واقصة وقبل القاع لمن يريد مكة، وهو ماء لبني عكرمة، من بكر بن وائل. اهـ. مرصداً.

بعث مصعب بن عمير رضي الله تعالى عنه، يعلمان مَنْ أسلم منهم القرآن، ومن أراد أن يُسلم الإسلام، ويفقَّهَانهم في الدين، ويدعوان من لم يُسلم منهم إلى الإسلام، وكان مصعب يؤمُّ الأوس والخزرج، وجمَّع بهم أول جمعة جمعت في الإسلام حين بلغ المسلمون منهم أربعين رجلاً، بإرساله ﷺ إليه بالتجميع قبل قدومه ﷺ المدينة، وتسمية الأنصار إياها بيوم الجمعة لاجتماعهم فيه، هدايةً من الله تعالى، وإلا فكانت تُسمى في الجاهلية يوم العروبة، أي الرحمة، ولم يُجمَّع ﷺ بمكة، مع فرض الجمعة وهو بها؛ لعدم التمكن من فعلها هناك، ولم يأمر بها مصعباً عند إرساله إلى المدينة لعدم وجود شرطها من العدد المذكور حينئذ. وفشا الإسلام بالأنصار، وأسلم سعد بن معاذ سيد الأوس، وسعد بن عباد سيد الخزرج.

وفي سنة اثنتي عشرة من النبوة أُسريَ بالنبي ﷺ، وقيل سنة إحدى عشرة من النبوة كما سبق.

وهناك عقبة ثالثة، وهو: أنه خرج جماعة من الأنصار المسلمين إلى الموسم مع حجاج قومهم غير المسلمين، حتى إذا قدموا على مكة فواعدوا رسول الله ﷺ العقبة من أوسط أيام التشريق^(١)، فلما مضى ثلث الليل اجتمعوا في الشعب، وهم ثلاثة وتسعون رجلاً وامرأتان: أمُّ عمارة إحدى بني مازن بن النجار، وأسماء بنت عمرو ابن عدي، فجاءهم النبي ﷺ ومعه العباس بن عبد المطلب، وهو على دين قومه، إلا أنه أحب أن يظهر على أمر ابن أخيه ويتوثق به، فلما جلس كان أول متكلم، فقال: «يا معشر الخزرج، إن محمداً منّا حيث علمتم، وقد منعناه من قومنا، فمن هو على مثل ما رأينا فيه فهو في عزِّ قومه ومنعةٍ في بلده، وإنه قد أبى الانحياز إليكم وللحق بكم، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه، ومانعوه ممن خالفه، فأنتم وما تحمّلتم من ذلك، وإن كنتم ترون أنكم مُسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم فمن الآن

(١) أيام التشريق هي ثلاثة أيام بعد يوم النحر.

فَدَعُوهُ؛ فَإِنَّهُ فِي عِزٍّ وَمَنْعَةٍ فِي قَوْمِهِ وَبَلَدِهِ. فَقَالُوا: قَدْ سَمِعْنَا مَا قُلْتَ، فَتَكَلِّمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَخَذَ لِنَفْسِكَ وَلِرَبِّكَ مَا أَحْبَبْتَ. فَتَلَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْقُرْآنَ، وَدَعَا إِلَى اللَّهِ وَرَغَّبَ فِي الْإِسْلَامِ، ثُمَّ قَالَ: «أَبَايِعْكُمْ عَلَى أَنْ تَمْنَعُونِي مِمَّا تَمْنَعُونَ مِنْهُ أَنْفُسَكُمْ وَنِسَاءَكُمْ وَأَبْنَاءَكُمْ». فَأَخَذَ الْبَرَاءُ بْنُ مَعْرُورٍ بِيَدِهِ، ثُمَّ قَالَ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَنَمْنَعَنَّكَ مِمَّا نَمْنَعُ مِنْهُ أَزْرُنَا^(١)، فَبَايَعُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الرِّجَالِ حَبَالًا^(٢)، وَإِنَّا قَاطِعُوهَا (يعني اليهود)، فَهَلْ عَسَيْتَ إِنْ نَحْنُ فَعَلْنَا ذَلِكَ ثُمَّ أَظْهَرَكَ اللَّهُ أَنْ تَرْجِعَ إِلَى قَوْمِكَ وَتَدْعَنَا؟. فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ قَالَ: «بَلِ الدَّمُ الدَّمُ وَالْهَدَمُ الْهَدَمُ^(٣)» أَنَا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مِنِّي، أَحَارِبُ مِنْ حَارِبَتُمْ وَأَسَالِمُ مِنْ سَالِمَتُمْ، أَخْرَجُوا إِلَيَّ مِنْكُمْ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا، يَكُونُونَ عَلَى قَوْمِهِمْ بِمَا فِيهِمْ»، فَأَخْرَجُوا تِسْعَةً مِنَ الْخَزْرَجِ، وَثَلَاثَةً مِنَ الْأَوْسِ، وَانْتَهَتْ الْبَيْعَةُ فِي الْعَقْبَةِ.

فهذه بيعة العقبة الثالثة التي هي في الحقيقة بيعة ثانية، لأن الأولى لم تكن بيعة كما تقدم، ولعل من عدَّ البيعات ثلاثاً اعتبر أن العقبة الأولى التي اجتمع فيها الخمسة من الخزرج كانت بيعة سكوتية؛ لأنها كالبيعتين الأخيرتين، لم يصدر مما حصل فيها مخالفة حيث إن أهل الأولى عادوا في العقبة الثانية وبايعوا مع من حضر معهم من الأنصار على نصرته ﷺ على عدوه والإيمان بما جاء به، وهذا من أعظم درجات الإيمان، فبهذا استحق أهل العقبة الأولى الستة فضل المبايعة، وعُدَّتْ مبايعة العقبات ثلاثاً.

قيل: أحسن أصحاب رسول الله ﷺ ظَنُّهُمْ بِاللَّهِ، وَبَايَعُوا نَبِيَهُمْ ﷺ عَلَى الْمَوْتِ، فَعُوجِلُوا بِالْأَمْنِ وَالسَّلَامَةِ مِنَ الْفَوْتِ، وَلِهَذَا قِيلَ: لَيْسَ فِي خِصَالِ الْخَيْرِ وَإِنْ جَلَّتْ،

(١) أُرْزِرَ: جمع مفردة إزار والإزار: ثوب يحيط بالنصف الأسفل من البدن.

(٢) أي علائق وعهود.

(٣) قوله الهدم، يروى بسكون الدال وفتحها، فالهدم بالتحريك: القبر، يعني أي أقبر حيث تقبرون وقيل هو: المنزل، أي منزلكم، والهدم بالسكون وبالفتح أيضاً هو: إهدار دم القتل، يعني إن طلب دمكم فقد طلب دمي، وإن أهدر دمكم فقد أهدر دمي؛ لاستحكام الألفة بيننا، كما يؤخذ من النهاية [اهـ. هامش الطهطاوي].

ولا في أنواع البر وإن عظمت أعلى من حُسن الظن بالله تعالى.

الهجرة إلى المدينة:

ولما تمَّ أمرُ البيعة بين النبي ﷺ وبين أهل المدينة، وبقي أصحابه في ضَنْكٍ من إيذاء المشركين، شكوا إلى رسول الله ﷺ، ثم استأذَنوه في الهجرة، فمكث أيامًا وخرج إلى أصحابه وهو مسرور، وقال: قد أُخْبِرْتُ بدار هجرتكم، ألا وهو يثرب، فمن أراد منكم الخروج فليخرج. فصار القوم يتجهزون ويترافقون، ثم صاروا يرحلوا من مكة أرسالًا (أي قطائع) سرًّا، إلا عمر بن الخطاب، فإنه أعلنَ بالهجرة ولم يمنعه أحد من المشركين ولا قصده بسوء. فلما قدموا المدينة أنزلهم الأنصار في دُورهم وواسوهم، ولم يبق بمكة إلا رسول الله ﷺ وأبو بكر وعلي رضي الله عنهما، وكان أبو بكر كثيرًا ما يستأذنه في الخروج، فيقول له: «لا تعجل؛ لعل الله أن يجعل لك صاحبًا»، فرجا أبو بكر أن يكون ذلك صاحب، وترصَّد رفاقته وانتظر صحبته ﷺ.

وورد في حق أبي بكر حديث عن النبي ﷺ أنه قال: «رحم الله أبا بكر، زوّجني ابنته، وحملني إلى دار الهجرة، وصحبني في الغار، وأعتق بلالًا من ماله، وما نفعني مال في الإسلام ما نفعني مال أبي بكر»^(١).

ولما قدم الأنصارُ المدينةَ أظهروا الإسلامَ إظهارًا كليًّا.

التأمر على الرسول ﷺ في دار الندوة:

ثم لما رأت قريش أن رسول الله ﷺ قد صارت له شيع وأصحاب من غيرهم بغير

(١) والحديث بتمامه: «رحم الله أبا بكر: زوّجني ابنته، وحملني إلى دار الهجرة، وأعتق بلالًا من ماله، وما نفعني مال في الإسلام ما نفعني مال أبي بكر.

رحم الله عمر: يقول الحق وإن كان مرًّا، لقد تركه الحق وما له من صديق. رحم الله عثمان تستحييه الملائكة، وجهز جيش العسرة، وزاد في مسجدنا حتى وسعنا.

رحم الله عليًّا: «اللهم أدرِ الحق معه حيث دار». (رواه الترمذي عن علي).

بلدهم، ورأوا خروج شيعته وأصحابه^(١) من المهاجرين إليهم تحدّوا خروجه ﷺ، فاجتمعت قريش في دار الندوة للمشاورة في إخراجهم أو حبسه أو قتله، وهي دار قصي بن كلاب، وهو أول من بناها، وكانت قريش لا تقضي أمراً إلا فيها، ومنعوا الناس من الدخول إليهم، لئلا يدخل أحد من بني هاشم، فيطّلع على حالهم، فلما قعدوا للتشاور تزيّاً(*) لهم إبليس بصورة شيخ نجدي «متطيلس»^(٢) فوقف على الباب، فلما رأوه قالوا: من الشيخ؟ قال: شيخ من أهل نجد، سمعتُ باجتماعكم فأردتُ أن أحضركم، ولن تعدموا مني رايّاً ونصحاً. قالوا: ادخل. فدخل، وكان قد اجتمع فيها أشرف قريش من كل قبيلة.

فرغم ابن دريد في «الوشاح»^(٣) أنهم كانوا خمسة عشر رجلاً، وقال ابن دحية في «مولده»: إنهم كانوا مائة رجل. ثم شرعوا في الكلام فقال بعضهم: إن هذا الرجل - يعني محمداً ﷺ - قد كان من أمره ما كان، وإنّا لا نأمن منه الوثوب علينا بمن اتبعه، فأجمعوا فيه رايّاً، فقال بعضهم: رأيي أن تحبسوه في بيت وتشدّوا وثاقه، وتسدّوا بابه، غير كوة تُلقون إليه طعامه وشرابه منها وتربصوا به ريب المنون حتى يهلك فيه، كما هلك من الشعراء من كان قبله، كزهير والناطقة. فصرخ الشيخ النجدي (عدو الله ورسوله) فقال: بئس الرأي؛ والله لو حبستموه لخرج أمره من وراء الباب إلى أصحابه فوثبوا وانتزعوه من أيديكم، قالوا: صدق الشيخ، وقال بعضهم: رأيي أن تحملوه على جمل وتخرجه من بين أظهركم فلا يضرّكم ما صنع، واسترحتم. فقال الشيخ: والله ما هذا لكم برأي؛ ألم تروا حُسن حديثه، وحلاوة منطقه، وغلبته على قلوب الرجال

(١) في الأصل: «شيعه أصحابه» وبهذا يكون المعنى أصحاب أصحابه، وهو غير مستقيم المعنى، فأصلحناه إلى ما ترى.

(*) أي ظهر لهم في زي شيخ نجدي.

(٢) متطيلس: أي يلبس طيلساناً، وهو ضرب من الأوشحة يحيط بالبدن أو يُلبس على الكتف، خال من التفصيل والحياسة.

(٣) من كتب ابن دريد المفقودة. راجع كتاب ابن دريد حياته وتراثه، للدكتور السنوسي نشر مكتبة الآداب ص ١٢٢ - ١٣١.

مما يأتي به، فوالله لو فعلتم ذلك ما أمتتم أن يحل على حي من العرب فيغلب عليهم بذلك من قوله وحديثه حتى يبايعوه، ثم يسير بهم حتى يطأكم بهم. فقالوا: صدق الشيخ، فقال أبو جهل: أرى أن يُعطى خمسة رجال من خمس قبائل سيفاً فيضربونه ضربة رجل واحد، فيتفرق دمه في هذه البطون، فلا يقدر بنو هاشم على حرب قومهم جميعاً، فصوّب الشيخ النجدي قول أبي جهل. فتفرقوا على رأيهم مجمعين على قتله، فأخبر جبريل بذلك رسول الله ﷺ، وكان مما أنزل عليه في ذلك اليوم ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠] وقوله عز وجل: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ﴾ [الطور: ٣٠].

ولما استقر رأي قريش بعد المشاورة على قتله ﷺ، أتاه جبريل وأخبره بذلك، وقال: لا تَبِتْ هذه الليلة على فراشك الذي كنتَ تَبِيتُ عليه، وقال له: إن الله يأمرك بالهجرة إلى المدينة، ثم سأل جبريلَ عَمَّنْ يُهاجر معه، قال: «أبو بكر الصديق»، فمن ذلك سمّاه الله صديقاً، وقد سبق أن سبب تسميته صديقاً في المعراج بقوله لرسول الله ﷺ: «صدقت في كل ما تُخبر به»، فلعل هذا سبباً ثانياً لتأكيد التسمية بالصديق وتحقيقها. فلما كان الليل اجتمعوا على بابه يرصدونه حتى ينام، فيثبوا، أي ينهضوا ويقوموا عليه، وهو إذ ذاك داخل الدار، فأمر عليه الصلاة والسلام علياً فنام مكانه، وغطّى ببرد أخضر، وكان أول من شَرَى نفسه، ونزل فيه قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ [الآية: ٢٠٧ سورة البقرة].

وذكر الغزالي في «الإحياء» بأن الله تعالى أمر جبريل وميكائيل أن يهبطا إلى الأرض ويحفظاه من عدوه، فنزلا، فكان جبريل عند رأسه وميكائيل عند رجله.

وأنشد علي بن أبي طالب رضي الله عنه قصة مبيته على فراش رسول ﷺ فقال:

وَقَيْتُ بِنَفْسِي خَيْرَ مَنْ وَطِئَ الثَّرَى وَمَنْ طَافَ بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ وَبِالْحَجَرِ
رَسُولٌ إِلَهٍ خَافَ أَنْ يَمْكُرُوا بِهِ فَجَّاهُ ذُو الطُّوْلِ إِلَهٌ مِنَ الْمَكْرِ

وبات رسول الله في الغار آمناً موقى وفي حفظ الإله وفي ستر
وبت أراعيهم وما يُثبتوننسي وقد وطنت نفسي عن القتل والأسر
وخرج رسول الله ﷺ فرصدوا له، وقد أخذ الله على أبصارهم، فلم يره أحد، ونثر
على رؤوسهم كلهم تراباً في يده وهو يتلو ﴿يس﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ
لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يس: ١-٩] كما قيل:

وقريش إذ عزم الرحيل مهاجرًا ملأوا المسالك راصدًا ومشاجرًا
فمضى لحاجته ولم ير حاجرًا والقوم يقظى والبصائر نُوم
نثر التراب على رؤوس الحسد وسرى وقد وقفوا له بالمرصد
قولوا لأعمى العين مغلول اليد أنف الشقي بيغض أحمد مُرغم
ثم انصرف حيث أراد، فأتاهم آتٍ ممن لم يكن معهم، فقال: ما تنتظرون هنا؟ قالوا:
محمدًا، قال: قد خيبتكم الله، والله قد خرج محمد عليكم ما ترك منكم رجلًا إلا وضع عليه
ترابًا وانطلق لحاجته، فما ترون ما بكم! فوضع كل رجل يده على رأسه فإذا عليه تراب.

* * *

فقال أبو بكر: الصحبة بأبي أنت وأمي يا رسول الله. قال رسول الله ﷺ: نعم.
فجهزت أسماء بنت أبي بكر وآل أبي بكر^(١) جهاز السفر أحسن جهاز، وصنعن
لهم^(٢) سفرة (أي زادًا في جراب)، وكان في السفرة أي في الزاد شاة مطبوخة، فقطعت

(١) في الأصل: «فجهز زوجات النبي ﷺ وغيرهن جهاز السفر» وهو خطأ فاحش، إذ لم يكن للنبي ﷺ زوجات في
ذاك الوقت - فخديجة رضي الله عنها انتقلت إلى رضوان الله تبارك وتعالى قبل الهجرة بمدة، ولم يتزوج بأحد
من زوجاته رضي الله عنهن إلا بعد الهجرة والاستقرار بالمدينة، ولعل هذا من التحريف المطبوعي أو سبق قلم،
وجل من لا يسهو سبحانه وتعالى.

(٢) لأنهم كانوا أربعة: سيدنا رسول الله ﷺ، وسيدنا أبو بكر، وعامر بن فهيرة، مولى أبي بكر - وعبد الله بن أريقط.
أما أبو بكر رضي الله عنه فكان صاحب رسول الله ﷺ في حله وترحاله، وأما عامر بن فهيرة فكان راعي غنم
يخرج بغنمه فيعفي آثارهما ليضلل المشركين، وأما عبد الله بن أريقط فكان الدليل لهما في شعاب الجبال؛ لأنه
كان يعرفها جيدًا. وعن عائشة أنه لم يكن يعرف مكانهما في الغار إلا عبد الله بن أبي بكر وأسماء بنت أبي بكر
وعامر بن فهيرة.

أسماء بنت أبي بكر قطعة من نطاقها فربطت به فم الجراب المشتمل على الزاد، وأبقت الأخرى نطاقاً لها، فبذلك سميت ذات النطاقين، كما رُوي في صحيح مسلم عن أسماء بنت أبي بكر الصديق زوج الزبير بن العوام من كبار الصحابة، روى عنها ابنها عبد الله وعروة وجماعة، أسلمت قديماً بمكة وهاجرت إلى المدينة، وتوفيت بمكة بعد ابنها عبد الله بيسير سنة ثلاث أو أربع وسبعين، وقد جاوزت المائة.

ويُروى أنها قالت للحجاج: بلغني أنك تعير ابني عبد الله بن الزبير بابن ذات النطاقين! أنا والله ذات النطاقين؛ أما أحدهما فكنت أرفع به طعام رسول الله ﷺ وطعام أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وأما الآخر فنطاق المرأة التي لا تستغني عنه عند أشغالها.

وفي حديث أم إسماعيل: «أول ما اتخذ الناس النطق من قبل: أم إسماعيل اتخذت منطقاً المنطق: النطاق، وجمعه مناطق، وهو أن تلبس المرأة ثوبها، ثم تشد وسطها بشيء وترفع وسط ثوبها وترسله على الأسفل عند معاناة الأشغال؛ لئلا تعثر في ذيلها، ومنه سميت أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنها «ذات النطاقين»؛ لأنها كانت تطارق نطاقاً فوق نطاق، وقيل: كان لها نطاقان تلبس أحدهما وتجعل في الآخر الزاد إلى النبي ﷺ وأبي بكر وهما في الغار، وقيل: شقت نطاقها نصفين فاستعملت أحدهما وجعلت الآخر شداً لزادهما.

وخرج رسول الله ﷺ من مكة ووقف على الحزورة^(١) ونظر إلى بيت الله الحرام، وقال حين خروجه من أم القرى: «والله إنك لأحب أرض الله إليّ وإنك خير بقعة على وجه الأرض وأحبها إلى الله تعالى، ولولا أهلك أخرجوني لما خرجت منك»^(٢).

(١) الحزورة ضبطها صاحب المراسد بسكون الزاي وفتح الواو: سوق كانت بمكة، ودخلت في المسجد الحرام لما زيد فيه.

(٢) وفي لفظ آخر «والله إنك لخير أرض الله وأحب أرض الله إلى الله ولولا أني أخرجت منك ما خرجت» رواه الإمام مالك والترمذي وابن ماجه وابن حبان، والحاكم عن عبد الله بن عدي ابن الحمراء.

وقال ﷺ: «إِنْ خَيْرَ بِلَدَةٍ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ وَأَحَبَّهَا إِلَى اللَّهِ مَكَّةُ».

وسُميت أمّ القرى^(١) لأنها قبلة أهل الدنيا، فصارت هي كالأصل وسائر البلاد تبعًا، وأيضاُ الناس يجتمعون إليها للحج والتجارة كما يجتمع الأولاد للأُم، وقيل لأن الكعبة أول بيت وُضع للناس. وما أحسن ما قاله بعض الشعراء:

لَا تُتَكَرَّنْ لِأَهْلِ مَكَّةَ قَسْوَةً وَالْبَيْتُ فِيهِمُ وَالْحَطِيمُ وَزَمْزُ
أَذَوَا رَسُولَ اللَّهِ وَهُوَ نَبِيُّهِمْ حَتَّى حَمَمَتْهُ أَهْلُ طَيْبَةِ مَنْهُمْ
خَافَ الْإِلَهَ عَلَى الَّذِي قَدْ جَاءَهُ سَلْبًا فَلَا يَأْتِيهِ إِلَّا مُحَرَّمُ

أي خاف الله أن يسلب أهل مكة القادم إلى الحرم، فصار يقصد مكة الناس بالإحرام.

وأما حديث: «اللهم كما أخرجتني من أحب البقاع إليّ، فأسكنني أحب البقاع إليك»^(٢) فلم يصح عنه ﷺ؛ لأن مكة أفضل من غيرها بوجوه: منها أنه تعالى أوجب

(١) سماها الله تعالى «أم القرى» في قوله تعالى: ﴿وَلْيُنْذِرْ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الأنعام: ٩٢].

(٢) التحقيق في هذا الحديث أنه صحيح. قال محب الدين الطبري في كتابه «القرى لقاصد أم القرى» ص ٦٧٧ ما نصه: «... ثم اختلفوا في أيهما أفضل، فذهب عمر وبعض الصحابة إلى تفضيل المدينة، وهو قول مالك وأكثر المدنيين، وحملوا الاستثناء في قوله ﷺ: «إلا المسجد الحرام على أن مسجدي يفضل» بدون الألف. وذهب أهل الكوفة إلى تفضيل مكة، وبه قال ابن وهب وابن حبيب من أصحاب مالك، وإليه ذهب الشافعي. وزيادة أبي حاتم وغيره ترد ما ذهبوا إليه من التأويل.

وما احتجوا به من قوله ﷺ: «أخرجتني من أحب البقاع إليّ فأسكنني في أحب البقاع إليك» محمول على أنه أراد أحب البقاع بعد مكة، بدليل حديث النسائي وابن حبان في فضل مكة، فإنه دل على أنها أحب أرض الله إلى الله، على أن الحديث نفسه لا دلالة فيه؛ لأن قوله «فأسكنني في أحب البقاع»، هذا السياق يدل في العرف على أن المراد به بعد مكة؛ فإن الإنسان لا يسأل ما أخرج منه، فإن قوله «أخرجتني» «فأسكنني» يدل على إرادة غير المخرج منه، وتكون مكة مسكوتاً عنها في الحديث» اهـ. بحروقه.

ونص حديث النسائي وابن حبان، وأخرجه الترمذي أيضاً، «والله إنك لخير أرض الله وأحب أرض الله إلى الله ولولا أني أخرجت منك ما خرجت» ولكن في «الفتح الكبير» ورد هذا الحديث بلفظ: «والله إنك لخير أرض الله وأحب أرض الله إليّ، ولولا أني أخرجت منك ما خرجت» رواه الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه وابن حبان والحاكم عن عبد الله بن عدي ابن الحمراء. وكلا الحديثين وارد وصحيح. والله تعالى أعلم.

قصدَها للحج والعمرة الواجبين، وقصد المدينة سُنَّة، وإن فُضِّلَت بإقامة النبي ﷺ بعد النبوة فمكة أفضل؛ لأنه أقام بها ثلاث عشرة أو خمس عشرة، وبالمدينة عشراً، فإن فُضِّلَت بكثرة الطارقين فمكة أفضل؛ لكثرة من طرقها من الأولياء والصالحين والأنبياء والمرسلين، فما من نبي إلا حَجَّها؛ وهي متبوءاً إبراهيم وإسماعيل، ومولد سيد المرسلين، وليست المدينة كذلك، وإن ذهب إلى تفضيلها على مكة الإمام مالك. ولو صحَّ الحديث السابق فهو مجاز لوصف المكان بما يقع فيه، كبلد آمن، أو خائف، فوصف بأنه محبوب لما فيه مما يحبه الله من إقامة الرسول به إلى القيامة، وتكميل إرشاد الأمة والدين به، وأحسن من هذا أن يكون المعنى: كما أخرجتني من أحب البقاع إليّ في أمر معاشي فأسكنني الأحب إليك في أمر معادي، وهو ظاهر؛ فإنه لم يزل في زيادة من دينه وبلوغ أمره إلى أن تكامل، وبُشِّرَ بذلك في قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ...﴾ [المائدة: ٣] الآية.

وسيأتي قريباً بيان ذلك على وجه أوضح.



الفصل الثاني

في سَيْرِهِ مهاجراً إلى المدينة مع صاحبه :

صديقه رضي الله تعالى عنه ، وهو ابتداء التاريخ الإسلامي

لما بايعت الأنصارُ رسولَ الله ﷺ على ما ذكر، أمر أصحابه فهاجروا إلى المدينة، وبقي هو وأبو بكر وعليٌّ، فخرج هو وأبو بكر مستخفين من قريش، فلما فقدت قريش رسول الله طلبوه بمكة، أعلاها وأسفلها، فلم يجدوه، فشقَّ عليهم خروجه، وجعلوا مائة ناقة لمن يرده. ولما خرج أبو بكر مع رسول الله ﷺ متوجّهاً إلى الغار جعل طَوْراً يمشي أمامه وطَوْراً يمشي خلفه، وطوراً عن يمينه، وطوراً عن شماله، فقال عليه الصلاة والسلام: ما هذا يا أبا بكر؟ فقال: يا رسول الله أذكرُ الرصدَ فأحب أن أكون أمامك، وأتخوَّفُ الطلبَ فأحب أن أكون خلفك، وأحفظُ الطريقَ يميناً وشمالاً، فقال: لا بأس عليك يا أبا بكر؛ الله معنا.

وكان رسول الله ﷺ غيرَ لابسٍ شيئاً في رجليه، فحفي (*)؛ لأنه لم يتعوّد الحفاء، فحمله أبو بكر رضي الله تعالى عنه على كاهله حتى انتهى إلى الغار، فلما أراد النبي ﷺ أن يدخل، قال أبو بكر: والذي بعثك بالحق نبياً لا تدخله حتى أدخله فأُسْبِرْهُ (١) قبلك. فدخل أبو بكر رضي الله عنه، فجعل يلمس الغار بيده في ظلمة

(*) حفي: رقت قدمه من كثرة المشي حافياً (المعجم الوسيط، ١٩٣).

(١) السبر: معرفة الغور، من قولك: سبر فلان الشيء أي عرف غوره، ومنه المسبار: مقياس الحرارة. والمقصود أنه يتعرف على ما فيه خشية الأذى.

الليل مخافة أن يكون فيه شيء يؤذي رسول الله ﷺ، فلما لم ير فيه شيئاً دخل ﷺ الغار، وجعل رأسه في حجره^(١) ونام، ورأى أبو بكر رضي الله عنه جُحراً فألقمه عقبه، فلُدغ أبو بكر رضي الله عنه في رجله، فلم يتحرك، فسقطت دموعه على وجه رسول الله ﷺ، فقال: ما هذا؟ قال له: لُدغْتُ، فتفل عليه ﷺ فذهب ما يجده. وباتا في الغار، وأمر الله العنكبوتَ فنسجت على فم الغار، وأمر حمامتين فعششتا وباضتا، وما أحسن ما قيل:

وخافتُ عليك العنكبوتُ مِنَ العِدا فأرختُ بِبابِ الغارِ مَكْراً بها سِترا
ووافَقها في الذَّبِّ عَنْكَ حمامٌ أَتَيْنَ سِراعاً فابْتَنَيْنَ به وَكْرا
فلَمَّا أَتَى الكُفَّارُ طِرْنَ خديعةً فحيّا الحَيّا^(٢) تلكَ الخديعةَ والمَكْرا

وأقبل فتیان قريش بسهامهم وسيوفهم، ومعهم من يَقصُّ الأثر، حتى انتهى إلى الغار فقال لهم: إلى هنا انتهى أثره، فما أدري بعد ذلك أَصَعَدَ إلى السماء أم غاصَ في الأرض! فقال لهم قائل: ادخلوا الغار، فقال أمية بن خلف: ما تنظرون إلى الغار، وإن عليه لعنكبوتاً قبل ميلاد محمد؟ فسمع رسول الله ﷺ حديثهم، فقال ﷺ: «اللهم اعم بصَرهم» فجعلوا يترددون حول الغار، لا يرون أحداً، ويقولون: لو دخلا هذا الغار تكسّر بيض الحمام وتفسخ بيت العنكبوت. فعلموا أن الله تعالى حمى حماهما بالحمام، وصرف عنهما كيد الأعداء بالعنكبوت، ولقد حصل للعنكبوت الشرف بذلك. روى ابن وهب أن حمام مكة أظلت النبي ﷺ يوم فتحها، فدعا لها بالبركة.

ونهى عن قتل العنكبوت. وقال: «هي جند من جنود الله». إلا أن البيوت تُطهر من نسجها لأنه يورث الفقر^(٣).

(١) أي في حجر أبي بكر.

(٢) حيّا من التحية، والحيّا: المطر والخصب، وهو دعاء للعنكبوت والحمامتين؛ لأنهما فعلا شيئاً لم يفعله بنو آدم.

(٣) في الأسلوب ركافة، ولعل سقطاً حدث في الكلام أوجب هذه الركافة.

وأسند الثعلبي وابن عطية عن الإمام علي رضي الله عنه وكرم وجهه أنه قال: «طهروا بيوتكم من نسج العنكبوت؛ فإن تركه في البيت يورث الفقر».

وإلى ذلك يُشير صاحب البردة بقوله:

وما حوى الغار من خيرٍ ومن كرمٍ
فالصدق في الغار والصدق لم يرُما
ظنوا الحمامَ وظنوا العنكبوت على
وقاية الله أغنت عن مضاعفةٍ
وقيل في هذا المعنى:

والعنكبوت أجادت حوكَ حلتها
وما أحسن قول ابن النقيب:

ودودة القزَّ إن نسجت حريراً
فإنَّ العنكبوتَ أجلُّ منها
يَجْمَلُ لبُسه في كل شيءٍ
بما نسجت على رأس النبي^(١)

ورُوي لما اطلع المشركون فوق الغار، وأشفق أبو بكر رضي الله عنه على رسول

= وقد نسجت العنكبوت على الغار الذي دخله «عبد الله بن أنيس» لما بعثه النبي ﷺ إلى قتل خالد بن نبيح بالعرنة، فقتله واحتمل رأسه، وطارده الكفار، فدخل غاراً، فنسجت عليه العنكبوت، وجاء الطلب فلم يجدوا شيئاً، فرجعوا. ونسجت على سيدنا داود عليه الصلاة والسلام حين طلبه عدوُّ الله جالوت، ونسجت على عورة الإمام زيد بن علي ابن الحسين، لما قُتل، وصلبوه عرباناً رضي الله عنه عام ١٢١ هجرية، لعن الله كل من اشترك في قتله ولو بحرف من كلمة.

(١) ومن الطرائف أن رجلاً يقال له ياقوت، قال:

ألقني في لظى فإن أحرقتني
جمع النسيج كلُّ من حاك لكن
نسج داود: الدروع وما يُتقى به في الحروب.
فرد عليه يعقوب بن جابر:

أيها المدعي الفخار دَع الفخ
نسج داود لم يُقد ليلة الغا
وبقاء السمندل في لهب السنا
وكذا النعام يلتقم الحمم
رَ لذي الكبرياء والجبروت
ر، وكان الفخر للعنكبوت
ر مزيل فضيلة الياقوت
ر، وما الحمر للنعام بقوت
والسمندل: طائر يبيض ويُفرخ في النار في بلاد الهند.

الله ﷺ، وقال: إن تُصَبَّ اليوم ذهب دينُ الله، فقال عليه الصلاة والسلام: «ما ظنُّك باثنين الله ثالثهما»؟! وقال حسان ابن ثابت:

وثانِي اثنين في الغار المنيف وقد طاف العدو به إذ صاعدَ الجبلا

وكان حبَّ رسول الله - قد علموا - من الخلائق لم يَعْدِلْ به بدلا

قال أبو بكر - كما في الصحيحين -: «نظرت إلى أقدام المشركين من الغار على رؤوسنا، فقلت: يا رسول الله لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا، فقال: يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟». وكان مكثه ﷺ وأبي بكر في الغار ثلاث ليال، وقيل بضع عشر يوماً(*)، وروى أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه لما رأى القافة(**) - جمع القائف - قال: إن قُتِلْتُ فإنما أنا رجل واحد، وإن قُتِلْتَ أنت هلكت الأمة، قال ﷺ: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ أي بالمعونة والنصرة ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ﴾ أي على أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه، لا على رسول الله ﷺ لأن السكينة لا تفارقه؛ وهي أمانة تسكن عندها القلوب، ﴿وَأَيَّدَهُ﴾ أي رسول الله ﷺ ﴿بِجُودٍ﴾ أي ملائكة يصرفون أبصار الكفار عنه.

وروي عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول لأبي بكر: «أنت صاحبي في الغار، وصاحبي على الحوض»^(١).

قال الحسن بن الفضيل: من قال إن أبا بكر رضي الله عنه لم يكن صاحب رسول الله ﷺ فهو كافر؛ لإنكار نص القرآن، وفي سائر^(٢) الصحابة إذا أنكر يكون مبتدعاً لا كافراً. قال بعض النقاد ما معناه: ولما غار الحقُّ تعالى على نبيِّه وصاحبه من أعدائهما، أدخلهما غار الحفظ والأمان، وأذهب عنهما الهموم بجميل رعايته والأحزان، كما

(*) الصواب: بضعه عشر.

(**) القافة: الذين يتبعون الأثر.

(١) ورواه الترمذي، والحاكم عن عمر بن الخطاب.

(٢) أي بقية الصحابة.

صَرَّحَ بذلك القرآن: ﴿ثَانِيًا أَتَيْنَ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾ [التوبة: ٤٠] فكشف في تلك الخلوة لصديقه الحجاب، ودعا له بالبركة من عَقِبِهِ إلى يوم الحساب، وكان الله معهما في هاتيك الخلوة، والمتجَلِّي عليهما في تلك الخلوة^(١)، فصحبَهُمَا اسم الجلالة لفظًا ومعنى؛ فإنه من حيث اللفظ يقال رسولُ رسول الله، وخليفةُ رسول الله، ولم يكن ذلك إلا للصديق رضي الله عنه، ومن حيث المعنى فإنه معهما بالإمداد والإسعاد. واستأجر رسولُ الله ﷺ هو وأبو بكر رضي الله عنه عبد الله بن أريقط دليلًا، وهو على دين كفار قريش، ولم يُعرف له إسلام، فدفعا إليه راحلتهمَا وواعدا غارَ ثور بعد ثلاث ليال، فأتاهما براحتهمَا صُبْحَ ثلاث، وانطلق معهما عامرُ بن فهيرة والدليل، فساروا على طريق السواحل، ونزل ﷺ بِقُدَيْدٍ^(٢) على أم معبد: عاتكة بنت خالد، فمسحَ ضَرْعَ شاه مجهودة، وشرب من لبنها، وسقى أصحابه، واستمرت البركة فيها، فلما جاء زوجها أكرم بن الجون، ورأى ما بالشاة من اللبن، سألها فقالت: «رأيت رجلًا ظاهر الوضأة، متبلِّج الوجه، حسن الخلق»، وصارت تصفه بأوصافه إلى أن قالت: له رفقاء يَحْفُفُون به، إذ قال استمعوا لقوله، وإذا أمر يُبادرون إلى أمره، فقال: والله هذا صاحب قريش. ثم هاجرت بعد ذلك هي وزوجها، فأسلما، وكان أهلها يؤرخون بيوم نزول الرجل المبارك، ولَمَّا مَرَّت قريش سألوها عنه ووصفوه. فقالت: ما أدري ما تقولون، قد ضافني حالبُ الحائل^(٣)، فقالوا: ذاك الذي نريد.

وبعد أن خرج من مكة سَمِعَ صوت لا يُرى صاحبه:

جزى الله ربُّ الناسَ خَيْرَ جزائه رفيقين قالا خيمتي أمَّ معبدٍ
هما نزلا بالهدى واهتديا به وقد فاز من أمسى رفيق محمدٍ
فما حملت من ناقةٍ فوق رَحْلِها أبرَّ وأوفى ذمَّةً من محمدٍ

(١) موضع تجلي الله أي ظهور عظيم فضله.

(٢) في المراسد: «قديد» تصغير «قد» موضع قرب مكة.

(٣) الحائل: في الأصل: كل أنثى لا تحبل، وبالتالي لا تدرّ لبنًا، والمقصود هنا الشاة المجهودة.

فِيَالْ قُصَيِّ^(١) مَا زَوَى اللَّهُ عَنْكُمْ
لِيَهْنِ بَنَى كَعْبَ مَكَانَ فَنَاتِهِمْ
سَلُوا أَخْتَكُمْ عَنْ شَاتِهَا وَإِنَائِهَا
دَعَاها بِشَاةٍ حَائِلٍ فَتَحَلَبْتُ
فَغَادَرَهَا رَهْنًا لَدَيْهَا لِحَالِبٍ
فَعَرَفَ النَّاسَ تَوَجُّهَهُ إِلَى الْمَدِينَةِ.

ولما سمع حسان بن ثابت قال في جوابه هذه الأبيات:

لَقَدْ خَابَ قَوْمٌ زَالٍ عَنْهُمْ نَبِيهِمْ
تَرَحَّلَ عَنْ قَوْمٍ فَزَالَتْ عَقُولُهُمْ
هَدَاهُمْ بِهِ بَعْدَ الضَّلَالَةِ رُبُّهُمْ
وَهَلْ يَسْتَوِي ضَلَالُ قَوْمٍ تَسَفَّهُوا
لَقَدْ نَزَلَتْ مِنْهُ عَلَى أَهْلٍ يَشْرَبُ
نَبِيٌّ يَرَى مَا لَا يَرَى النَّاسُ حَوْلَهُ
وَإِنْ قَالَ فِي يَوْمٍ مَقَالَةَ غَائِبٍ

ثُمَّ تَعَرَّضَ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَأَبَى بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سَرَاةً بَنَ مَالِكُ الْمَدَلَجِي، وَعَلِمَ أَنَّهَا
الَّذَانِ جَعَلْتُ فِيهِمَا قَرِيشَ مَا جَعَلْتُ لِمَنْ أَتَى بِهِمَا، فَرَكِبَ فَرَسَهُ وَتَبِعَهُمَا بِزَعْمِهِ،
فَبَكَى أَبُو بَكْرٍ وَقَالَ: «يَا رَسُولَ اللَّهِ أَتَيْنَا^(٢)»، قَالَ: «كَلَّا» فَلَمَّا دَنَا سَرَاةً صَاحَ وَقَالَ:
يَا مُحَمَّدُ مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي الْيَوْمَ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: يَمْنَعُنِي الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ، الْوَاحِدُ
الْقَهَّارُ. وَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِدَعَوَاتٍ، وَقَالَ «اللَّهُمَّ اكْفِنَا أَمْرَ سَرَاةٍ بِمَا شِئْتَ وَكَيْفَ
شِئْتَ» فَسَاخَتْ^(*) قَوَائِمُ فَرَسِهِ، فَطَلَبَ الْأَمَانَ، وَقَالَ: «أَعْلَمُ أَنَّ قَدْ دَعَوْتُمَا عَلَيَّ فَادْعُوا

(١) يَا أَلْ قُصَيِّ.

(٢) فِي الْأَصْلِ «أَوْتَيْنَا» وَهُوَ خَطَأٌ، وَالصَّوَابُ مَا أَثْبَتْنَاهُ.

(*) أَيِ غَاصَتْ فِي الْأَرْضِ.

لي، ولكما أن أردّ الناس عنكما ولا أضربكما. قال سراقه: فوقفا لي، ثم ركبْتُ فرسي حتى جئتُهما، قال: فوقع في نفسي حين لقيتُ ما لقيتُ أن سيظهر أمرُ رسول الله ﷺ، فأخبرتُهما بما يريد الناس منهما، وعرضت عليهما الزاد والمتاع فلم يقبلا. وأنشد بعضهم لأبي بكر رضي الله عنه قصيدة مطلعها:

قال النبيُّ ولم يَجْزَعْ بوقرٍ بي ونحن في سَدَفٍ من ظُلمةِ الغار
«لا تخشَ شيئاً فإن الله ثالثنا»

إلى آخر القصيدة المذكورة في بعض السير.

قال: ومع أن مثل هذه القصيدة الساقطة لا يسمح الذوق السليم بنسبتها إلى أبي بكر رضي الله تعالى عنه - على فرض كونه يقول الشعر - فقد ذكر ابن عبد البر في ترجمة الصديق رضي الله عنه ما لفظه:

روى سفيان بن حسين عن الزهري قال: سألتني عبد الملك بن مروان، قال: رأيت هذه الأبيات التي تروى عن أبي بكر رضي الله عنه؟ فقلت له: حدثني عروة عن عائشة رضي الله عنها أن أبا بكر لم يقل شعراً في الإسلام حتى مات. انتهى.
فحينئذ يحتمل أن تكون هذه الأبيات نُظمت على لسانه، وأنه أنشدها، كما قيل فيما نُسب إليه من قوله بعض أبياته، منها قوله:

كلُّ امرئٍ مُصَبَّحٌ في أهله والموتُ أدنى من شراك نَعْلِهِ

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «إن أبا بكر لم يقل شعراً في الإسلام، أي ولا في الجاهلية» كما في رواية عنها، أي لم ينشئ الشعر حتى مات. وأما ما روي عن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه أنه قال: كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه إذا رأى النبي ﷺ قال:

أَمِينٌ مُصْطَفًى بِالْخَيْرِ يَدْعُو كضوءِ البدرِ زَايِلُهُ الظُّلَامُ^(١)

(١) المزيلة: المفارقة، ومنه قوله تعالى: ﴿فَزَيْلَنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَائُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِلَّا نَا عِبْدُونَ﴾ [يونس: ٢٨].

فمحمولٌ على أنها لم تسمع ذلك منه، على فرض أنه من إنشائه، وكذلك ما ذكره صاحب «الينبوع»^(١) في قوله: ليس عمل الشعر رذيلة؛ فقد كان الصديق وعمر وعليّ رضوان عليهم يقولون الشعر، وعليّ كرم الله وجهه أشعر من أبي بكر وعمر، ولو أنه بظاهره مناف لقول عائشة، إلا أنه يُحمل على الإنشاد كثرة وقلة، فإن عليّاً رضي الله عنه دُونَ باسمه ديوانٌ، ولا مانع أن يكون كله مما تمثل به إن لم يثبت عنه إنشاد الشعر.

ولما بلغ أبا جهل أمرُ سراقَة أنشد يقول:

بني مدلج أنى أخال سفيهم سراقَة يستغوي بنصر محمد
عليكم به أن لا يفرّق جمعكم فيصبح شتى بعد عزّ وسؤدد

فأجابه سراقَة:

أبا حكم^(٢): واللات لو كنتَ شاهداً بأمرِ جوادي حيث ساختَ قوائمه
علمتَ ولم تشككْ بأن محمداً نبيّ وبرهان، فمن ذا يكاتمُه
عليك بكفّ الناسِ عنه فإنني أرى أمره يوماً سبّـدو معالْمه
بأمرٍ تودّ النّضر فيه بأنه لو أن جميع الناس طراً تُسألْمه

وأسلم سراقَة عند رسول الله ﷺ حين انصرف من حنين والطائف، وكان شاعراً مجيداً رضي الله عنه.

فلما بلغ خروجُ النبي ﷺ حِيَّ بن ضمرة الجعدي قال: «لا عذر لي في مقامي بمكة» وكان مريضاً، فأمر أهله فخرجوا به إلى التنعيم^(٣) فمات، فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾.

[النساء: ١٠٠].

(١) ربما كان كتاب ينابيع المودة لسلمان بن خوجة كيلان البلخني.

(٢) كنية أبي جهل في الجاهلية.

(٣) موضع خارج الحرم على طريق المدينة - على ثلاثة أميال من مكة -.

فلما رأى ذلك مَنْ كان بمكة ممن يطيق الخروج خرجوا؛ فطلبهم أبو سفيان وغيره من المشركين، فردّوهم وسجنوهم، فافتتن منهم ناسٌ، وأقام عليّ رضي الله عنه بعد مخرجه عليه الصلاة والسلام بمكة ثلاثة أيام حتى أدّى ما كان عنده من الودائع، وأدركه بقاء، وقد نزل على كلثوم بن الهدم (وقيل سعد بن خيثمة) يوم الإثنين سابع، وقيل ثامن ربيع، وكانت مدة مقام عليّ هناك مع النبي ﷺ ليلةً أو ليلتين.

مبدأ التاريخ الإسلامي:

وأمر عليه الصلاة والسلام بالتأريخ من الهجرة لدولة الإسلام، قال ابن الجزار: ويُعرف بعام الإذن، وقيل: إن عمر رضي الله عنه أوّل من أرّخ وجعله من المحرّم، وقيل: يعلي بن أمية إذ كان باليمن، وقيل بل أرّخ بوفاته ﷺ^(١).

ومن فوائد التأريخ معرفة الآجال وحلولها، وأوقات التواليف، ووفيات الشيوخ، ومواليدهم، والرواة عنهم، فيعرف بذلك كذب الكذّابين وصدق الصادقين، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

وأخرج البخاري في «الأدب»، والحاكم عن ميمون بن مهران قال: رُفِعَ إلى عمر صكٌّ محله شعبان، فقال: أيُّ شعبان: الذي نحن فيه، أو الذي مضى، أو الذي هو آت؟ ثم قال أصحاب النبي ﷺ: ضعوا للناس شيئاً يعرفونه من التاريخ، فقال بعضهم: اكتبوا على تاريخ الروم، فقال: إن الروم يطول تاريخهم يكتبون من ذي القرنين، فقال: اكتبوا على تاريخ فارس، فقال: إن فارس كلما قام ملك طبع من كان قبله.

فاجتمع رأيهم أن الهجرة كانت عشر سنين، فكتبوا التاريخ من هجرة النبي ﷺ.

(١) قال ابن الصلاح: وقفت على كتاب في الشروط للأستاذ الزياي، ذكر فيه: أن رسول الله ﷺ أرّخ حين كتب الكتاب لنصارى نجران، وأمر عليّاً أن يكتب فيه: إنه كتب لخمس من الهجرة. وقال الجلال السيوطي في كتابه «الشماريخ في علم التاريخ» إن رسول الله ﷺ أمر بالتأريخ يوم قدم المدينة في شهر ربيع الأول. وقال ابن عساكر: «هذا أصوب».

ومن هنا نعرف أن رسول الله ﷺ هو المؤرخ الأول بالهجرة، وعمر تبعه.

وكانت الأنصار لما بلغهم خروج النبي ﷺ يخرجون كل يوم لتلقيه، فإذا اشتدت الهاجرة (ويقال الهجير، وهو اشتداد الحر نصف النهار، وهو المراد بالعلية، والهجرة السفلة هي التي بعد الضحى وقبل الزوال) رجعوا. فلما كان يوم قدومه فعلوا ذلك، فرآه رجلٌ من يهود، فنادى بأعلى صوته: «يا بني قيلةٌ هذا جدكم -أي حظكم ومطلوبكم- قد أقبل، فخرج إليه بنو قيلة، وهم الأنصار: الأوس والخزرج بسلاحهم، فتلقوه ونصروه على أعدائه وآووه، وواسوه، وآووا أصحابه وواسوهم، وهم الذين قال تبارك وتعالى فيهم: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ [الحشر: ٩] الآية.

وقال ﷺ في حقهم: «آية الإيمان حبُّ الأنصار، وآية النفاق بُغضُ الأنصار»^(١). وقال ﷺ للأنصار: «أنتم شعارٌ والناسُ دثار»^(٢) [والشعار: الثوب الذي يلي الجسد، والذثار الثوب الذي يكون فوق ذلك الثوب، فهو ألصق به وأقرب إليه ﷺ من غيرهم. والأنصار لقب إسلامي لهم لنصرتهم النبي ﷺ، وإنما كانوا يسمون أولاً: أولاد قيلة، والأوس والخزرج]. إلى غير ذلك من الأحاديث الصحيحة الواردة في فضلهم وفضل المهاجرين الذين آثروا رضوان الله ورضوان رسوله ﷺ على حظوظ أنفسهم، فتركوا بلادهم ومهادهم، وهاجروا مع المصطفى من مكة إلى المدينة التي هي مهاجرة.

وقال حسان رضي الله عنه في مدح الأنصار:

سَمَّاهُمُ اللَّهُ أَنْصَارًا بِنَصْرِهِمْ دِينَ الْهَدَى وَعَوَانُ الْحَرْبِ تَسْتَعْرُ

وَسَارَعُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاقْتَرَفُوا لِلنَّائِبَاتِ، وَمَا خَافُوا وَمَا جَرَوْا

وكان خروج النبي ﷺ من مكة يوم الإثنين، ومعه أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وله ﷺ من العمر ثلاث وخمسون سنة، فأقام بقباء (موضع بالمدينة في بني عمرو بن

(١) رواه أحمد والنسائي عن أنس.

(٢) وقال ﷺ: «الأنصار شعار والناس دثار، ولو أن الناس استقبلوا وادياً أو شعباً، واستقبلت الأنصار وادياً لسلكْتُ وادي الأنصار، ولولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار» رواه ابن ماجه، عن سهل بن سعد.

عوف على فرسخ من المسجد النبوي) أربعة أيام: يوم الإثنين، والثلاثاء، والأربعاء، والخميس، وأسس مسجدَ قُباء^(١) الذي نزل فيه: ﴿لَمَسْجِدُ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ...﴾ [التوبة: ١٠٨] الآية. وهو أول مسجد صَلَّى فيه ﷺ جماعةً ظاهرًا، وأول مسجد بُني لجماعة المسلمين عامة، وإن كان قد تقدّم بناء غيره من المساجد، لكن لخصوص الذي بناه. ثم خرج ﷺ من «قُباء» ضحى يوم الجمعة، فأدركته صلاة الجمعة في الطريق، في بني سالم بن عوف، فصلّاها في مسجدهم الذي في بطن وادي «نونا» (بنون مضمومة وأخرى بعدها ألف ممدودة، وهو مسجد صغير مبني بحجارة قدر نصف القامة) بمن كان معه من المسلمين، وهم مائة، فكانت هذه الجمعة أول جمعة صلّاها بالمدينة وخطب بها، وهي أول خطبة خطبها في الإسلام.

وكان ﷺ يخطب قائمًا، وكان إذا خَطَبَ احمرّت عيناه وعلا صوته واشتد غضبه كأنه منذر جيش يقول «صَبِّحْكُمْ وَمَسَاكُم»^(٢)، ولعل اشتداد غضبه كان عند إنذاره أمرًا عظيمًا، ويقول: «بعثت أنا والساعة كهاتين»^(٣) ويقرن بين إصبعيه: السبابة والوسطى ويقول: «أما أبعد: خير الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشرُّ الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار»^(٤).

وكان إذا قام أخذ عصا فتوكأ عليها، وكان أحيانًا يتوكأ على قوس، ولم يحفظ عنه أنه توكأ على سيف. وعند الإمام أحمد وغيره من حديث سعد بن عائذ وسعد القرظ مؤذن رسول الله ﷺ أن رسول الله ﷺ كان إذا خطب في الحرب خطب على قوس، وإذا خطب في الجمعة خطب على عصا. وفي حديث عائشة رضي الله عنها،

(١) قُباء: بالضم قرية قرب المدينة، سميت باسم بئر بها - وهي مساكن بني عمرو بن عوف - من الأنصار - على ميلين من المدينة، على يسار القاصد إلى مكة.

(٢) رواه ابن ماجه، وابن حبان، والحاكم عن جابر رضي الله عنه.

(٣) رواه أحمد، والترمذي، عن أنس، ورواه الإمام أحمد عن سهل بن سعد.

(٤) رواه الإمام أحمد ومسلم والنسائي، وابن ماجه عن جابر، والبيهقي مطولاً في الدلائل، وابن عساكر عن عقبة بن عامر والسجزي في الإنابة، وابن أبي شيبة.

قالت: «كان لرسول الله [ثوبان يلبسهما يوم الجمعة، فإذا انصرف من الجمعة طواهما ورفعهما]».

وفي حديث عمرو بن أمية عند النسائي قال: كأني أنظر إلى رسول الله ﷺ على المنبر وعليه عمامة سوداء، قد أرخى طرفها بين كتفيه. ومن جملة خطبته ﷺ: «فمن استطاع أن يقي وجهه من النار ولو بشق تمره فليفعل، ومن لم يجد فبكلمة طيبة، فإنها تجزئ: الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة».

ثم توجه بعد صلاة الجمعة على راحلته متوجّهاً إلى المدينة، فلما أشرف عليها قال: «هذه طابة أسكننيها ربّي، تنفي خبث أهلها كما ينفي الكير خبث الحديد، من أخاف أهل المدينة ظلماً أخافه الله عز وجل، وعليه لعنة الله والملائكة والناس، لا يقبل الله منه يوم القيامة صرّفاً ولا عدلاً»^(١).

وكيف لا تطيب بالحبیب حسّاً ومعنى، وهي معمورة أيضاً بالطيبين ملائكة وإنساً وجنّاً، ولا يدخلها بركته الطاعون، ولم يُصَب عليه الصلاة والسلام قط بالطاعون، ولا بذات الجنب، ولا جُنَّ نبّي، ولا سُلَب، ولا احتلم، ولا ثئاب؛ لأن هذا من الشيطان، وقد عصمهم الله من ذلك، ولا تسمى مدينته الشريفة العلية في الإسلام يثرب، كما كانت تسمى في الجاهلية لكراهة لفظ التثريب، الذي كالتعنيف والتعير والاستقصاء في اللوم، ومنه - التثريب عليكم - قال ﷺ: «يقولون يثرب، وهي المدينة»^(٢).

قال النووي في شرح مسلم: يعني أن بعض الناس من المنافقين وغيرهم يسمونها يثرب، وإنما اسمها المدينة. انتهى.

(١) وقال عليه الصلاة والسلام: «من أخاف أهل المدينة فقد أخاف ما بين جنبي» رواه أحمد عن جابر.

(٢) وفي الحديث الشريف: «من سمي المدينة يثرب فليستغفر الله: هي طابة، هي طابة» رواه الإمام أحمد عن البراء. والتثريب: المؤاخذه، ومنه قوله تعالى: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ﴾ [يوسف: ٩٢] أي لا مؤاخذه ولا معاقبة عليكم، ولذلك نهى النبي ﷺ عن تسميتها «يثرب» لأن الماكث فيها يكون كما قال: «تنصح عليها» وتنصح الطيب أي تجلوه، وتزيده إيماناً.

ومع ذلك فمادحوه كثيرًا ما يذكرون يشرب في مديحهم، كقول سيدي عبد الرحيم البرعي:

يا ساكن القبر المنير يشرب يا منتهى أمني وغاية مطلبـي

فلعل قرائن المديح يحسّن معها هذا التعبير، والعبرة في مثل هذا بالنية. وعن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «من استطاع منكم أن يموت بالمدينة فليمت؛ فإني أشفع لمن يموت بها»^(١)، لا يريد أحد أهل المدينة بسوء إلا أذابه تعالى ذوب الملح في الماء»^(٢).

وكان عليه الصلاة والسلام كلما مرَّ على دارٍ من دور الأنصار يدعوهم إلى المقام عندهم يقولون: يا رسول الله هلم إلينا، إلى القوة والمنعة. فيقول رسول الله ﷺ: «خلّوا سبيل الناقة فإنها مأمورة من قبل الله تعالى» وقد أرخى زمامها وما يحركها، وهي تنظر يمينًا وشمالًا، حتى إذا أتت دار مالك بن النجار بركت حيث مسجده الشريف الآن، ثم سارت وهو ﷺ عليها، ومشت حتى بركت على باب أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه، من بني مالك بن النجار، من كبار الصحابة، شهد بدرًا والمشاهد، ثم قامت ومشت والتفتت خلفها، ثم رجعت إلى منزلها أول مرة بمحلّ باب المسجد، وبركت فيه، ثم تجلجت (بجيمين) أي تحركت وألقت عنقها بالأرض وصوتت من غير أن تفتح فاه، فنزل عنها رسول الله ﷺ، وقال: «هذا المنزل إن شاء الله تعالى، اللهم أنزلنا منزلًا مباركًا».

(١) ولذلك سماها الله تبارك وتعالى «الإيمان» في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ﴾ [الحشر: ٩] وفي حديث آخر رواه مسلم في فضل المدينة «يأتي على الناس زمان يدعو الرجل ابن عمه وقريبه: هلم إلى الرخاء، هلم إلى الرخاء، والمدينة خيرٌ لهم لو كانوا يعلمون، والذي نفسي بيده لا يخرج منها أحد رغبة عنها إلا أخلف الله فيها خيرًا منه، ألا إن المدينة كالكبير تخرج الخبيث لا تقوم الساعة حتى تنفي المدينة شرارها كما ينفي الكبير خبث الحديد».

(٢) رواه الإمام أحمد، ومسلم، وابن ماجه.

ولما بركت الناقة على باب أبي أيوب خرج جوارٍ من بني النجار يضربن بالدفوف يقلن:

نحنُ جوارٍ من بني النجار يا حبذا محمدٌ من جـارٍ
فقال ﷺ: أَتُحِبِّينِي؟ قلن: نعم يا رسول الله، فقال عليه الصلاة والسلام: «اللَّهُ أَعْلَمُ
أَنَّ قَلْبِي يَحْبُكُم»، وفي هذا دليل لسماع الغناء على الدف من المرأة لغير العرس^(١).
وسياتي بسط الكلام على السماع في آخر فصل في الكتاب.
قال البيهقي رحمه الله: ولهذا يذكره بعضهم عند مقدّمه ﷺ المدينة من مكة^(٢) لا
أنه عند مقدمه المدينة من تبوك.

هذا كلامه، ولا مانع من تعدد ذلك.

واحتمل أبو أيوب (خالد بن زيد الأنصاري رضي الله عنه) رَحْلَهُ بإذنه ﷺ، وأدخله
بيته ومعه زيد بن حارثة، وكانت دار بني النجار أوسط دور الأنصار وأفضلها، وهم
أخوال عبد المطلب جدّ النبي ﷺ، وأراده قومٌ في النزول عليهم، فقال: «المرء مع
رَحْلِهِ» فأقام ﷺ عند أبي أيوب حتى بنى مسجده ومساكنه، وكان بناؤه من آخر ربيع
الأول إلى شهر صفر من السنة القابلة، أي وذلك اثنا عشر شهرًا، وقيل: مكث بيت
أبي أيوب سبعة أشهر، وكان قبله يصلي حيث أدركته الصلاة، وبناه هو والمهاجرون

(١) ليس هذا دليلًا، لأنه لم يكن قد نزل تشريع بعد، وقد نزل التشريع بعد ذلك بتحريم الغناء واللغو كله، قليله وكثيره،
تحريمًا قاطعًا، فقد قال ﷺ: الغناء يَنْبُتُ النفاق في القلب، كما ينبت الماء البقل (رواه ابن أبي الدنيا، والبيهقي)،
وقال ﷺ: «لست من ددٍ ولا الدد مني» رواه البخاري في الأدب، والبيهقي عن أنس والطبراني عن معاوية، أوضحها
إيضاحًا تأمًا قوله ﷺ: «لست من ددٍ ولا الدد مني، ولست من الباطل ولا الباطل مني» (رواه ابن عساكر عن أنس).
وفي الحديث: «نهى النبي ﷺ عن الغناء والاستماع إلى الغناء، وعن الغيبة والاستماع إلى الغيبة، وعن النسيئة
والاستماع إلى النسيئة» (رواه الطبراني والخطيب عن عبد الله بن عمر). وقال ﷺ: «من استمع إلى صوت غناء
لم يؤذن له أن يسمع الروحانيين في الجنة» (رواه الحكيم عن أبي موسى) وقال ﷺ: «من استمع فينة صَبَّ في أذنيه
الآنك يوم القيامة»، والأحاديث في هذا الباب لا تكاد تقع تحت حصر، فليتق الله الذين يطلقون الفتاوى بغير علم
ولا هدي ولا كتاب منير، فإن الله تعالى سائلهم يوم القيامة عما أفتوا، على أن الشيخ رحمه الله لا يقصد قطعًا هذه
القاذورات التي نتعاطاها اليوم.

(٢) وهو الحق الذي لا ريب فيه.

والأنصار رضوان الله عليهم أجمعين، وكان موضع المسجد مربداً -أي محلاً لتجفيف التمر- لسهل وسهيل ابني عمرو (يتيمين في حجر أسعد بن زرارة أو معاذ بن عفراء) فدعا الغلامين فساومهما المربد ليتخذه مسجداً فقالا: لا، بل نهبه لك يا رسول الله، فأبى أن يقبله منهما هبةً حتى ابتاعه منهما بعشرة دنائير أداها من مال أبي بكر الصديق رضي الله عنه، ولعل إطلاق اليتيم عليهما باعتبار ما كان آن صدور البيع منهما، وقيل: بل كان الموضع لبني النجار، وكان فيه قبورُ المشركين وخرب ونخل، فأراد النبي ﷺ أن يشتريه من بني النجار، فقال لهم: «ثامنوني حائطكم، فقالوا: لا نطلب ثمنه إلا إلى الله» فأمر رسول الله ﷺ بقبور المشركين فنبشت، وبالخرب فسويت، وبالنخل فقطع، فصفا النخل قبله المسجد، وجعلوا عضاداته(*) حجارة، ثم بناه باللبن، وسقفه بالجريد، وجعل عمده من خشب النخل^(١).

مسألة: الرسول ﷺ والشعر:

وكان ﷺ ينقل اللبن^(**) معهم في رداءه حتى اغبر صدره الشريف، وصار يقول:

هذا الجمال لا جمال خيبر هذا أبر -ربنا- وأطهر

أي هذا المحمول من الطين أبر وأطهر يا ربنا، لا ما يحمل من خيبر من نحو التمر والزبيب. وعمل فيه المسلمون. والمحرّم عليه ﷺ من الشعر إنما هو إنشاؤه: (أي الإتيان بالكلام الموزون عن قصد وزنه) وهذا هو المعنى بقوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ﴾ [يس: ٦٩] فإن فرض وقوع الكلام موزوناً منه ﷺ لا يكون ذلك شعراً متعارفاً؛ لعدم قصد وزنه، فليس من الممنوع منه، والغالب عليه ﷺ أنه إذا أنشد بيتاً من الشعر متمثلاً أو مسنداً لقائله، لا يأتي به موزوناً.

(*) الصواب: عضادته.

(١) قال عليه الصلاة والسلام: «عريشاً كعريش موسى، وخشيبات، والأمر أعجل من ذلك» (رواه المخلص في فوائده، وابن النجار عن أبي الدرداء).

(**) أي الطوب اللبن.

وعن عائشة رضي الله عنها لما قيل لها: هل كان رسول الله ﷺ يأتي بشيء من الشعر؟ قالت: كان أبغض الحديث إليه الشعر، غير أنه كان يتمثل ويجعل أوله آخره، وآخره أوله، أي غالبًا، كأن يقول: *ويأتيك من لم تزود بالأخبار* ويقول: *كفى بالإسلام والشيب للمرء ناهيًا*

أي وذلك قول سحيم عبد بني الحسحاس، شاعر مشهور مخضرم أدرك الجاهلية والإسلام:

كفى الشيب والإسلام للمرء ناهيًا

ولما غير ذلك رسول الله ﷺ قال له الصديق رضي الله عنه: إنما قال الشاعر كذا، فأعاد ﷺ كالأول، فقال الصديق: أشهد أنك رسول الله (وما علمناه الشعر). وقد قيل له ﷺ: من أشعر الناس؟ قال: الذي يقول:

ألم ترياني كلما جئت طارقًا وجدت بها وإن لم تَطِيبَ طيبًا
الأصل: [وجدت بها طيبًا وإن لم تَطِيبَ].

وعن الخليل: كان الشعر أحب إليه ﷺ من كثير من الكلام، وهذا لا يخالف قول عائشة رضي الله عنها: «كان أبغض الحديث إليه ﷺ الشعر»، لأن المراد بالشعر الذي يحبه ما كان مشتملاً على حكمة أو وصف جميل من مكارم الأخلاق، والذي يبغضه ما كان مشتملاً على ما فيه هجنة أو هجو، ونحو ذلك، ومن ثم قيل: «الشعرُ كلامٌ، حسنه حسنٌ، وقبيحه قبيحٌ».

وقد كان له ﷺ شعراء مثل: عبد الله بن رواحة، وكعب بن مالك، وحسان بن ثابت، وفي الجامع الصغير: «الشعر بمنزلة الكلام؛ فحسنه كحسن الكلام، وقبيحه كقبيح الكلام».

وقد كان ﷺ يسمع الشعر ويستنشده، فقد ذكر بعضهم أنه ﷺ كان يستنشد الخنساء (أخت صخر لأمه)، ويعجبه شعرها، فكانت تنشده وهو يقول: «هيه يا خُنَّاسِ»، ويومئ

بيده. وكذلك سمع الشعر من النابغة الجعدي حين دخل عليه، وأنشده:

ولا خيرَ في حلمٍ إذا لم يكنْ له بَوادِرُ تحمي صَفْوَهُ أنْ يُكـدَّرَا
ولا خيرَ في جهلٍ ^(١) إذا لم يكنْ له حَلِيمٌ إذا ما أوردَ القومَ أَصـدرا ^(٢)
فقال له النبي ﷺ: «لا فَضَّ الله فاك».

وسمعه ﷺ قصيدة كعب بن زهير، وإجازته عليه بالبردة الشريفة أدل دليل على عدم كراهته للشعر المباح.

وقال بعضهم: أجمع أهل العلم بأنه لم تكن امرأة قبل الخنساء ولا بعدها أشعر منها، ومن شعرها في أخيها المذكور:

أَعْيَنِي جُودَا وَلَا تَجْمُدَا أَلَا تَبْكِيَانِ لَصَخْرِ النَّدَى
طَوِيلُ النَّجَادِ عَظِيمُ الرَّمَادِ وَسَادَ عَشِيرَتِهِ أَمْرَدَا

وللجلال السيوطي كتاب سمّاه: «نزهة الجلساء في أشعار الخنساء».

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «إذا خفي عليكم شيء من غريب القرآن فالتمسوه في الشعر؛ فإن الشعر ديوان العرب»، وفي كلام عمر رضي الله عنه: «أفضل صناعات الرجل نعم الأبيات من الشعر يقدمها في صدر حاجته، فيستعطف بها قلب الكريم، ويستميل بها لؤم اللئيم».

وفي كتاب «تحقيق النصر» للزين المراغي، قيل: وضع ﷺ رداءه وهو في يثرب، فوضع الناس أرديتهم وهم يقولون:

لئن قعدنا والنبيَّ يَعْمَلُ ذاكَ إذَنْ لَلْعَمَلِ المضللِّ

(١) غضب.

(٢) أورد: أحضر إبله إلى الماء ليشقيه. أصدر: انصرف عن الماء بعد أن سقى إبله.

وآخرون يقولون:

لا يستوي مَنْ يَعْمُرُ المساجدا يدأب فيها قائمًا وقاعدًا

ومن يُرى عن التراب حائدا

ويُروى عن عثمان بن مظعون رضي الله عنه أنه كان رجلًا منتظفًا -أي مترفها- فكان إذا حمل اللبنة يجافي بها عن ثوبه لئلا يصيبه التراب، فإن أصابه شيء من التراب، نفذه، فنظر إليه علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وأنشد يقول: -أي مباسطة مع عثمان بن مظعون، لا طعنًا فيه-:

لا يستوي من يعمر المساجدا يدأب فيها إلخ.....*

وكان عثمان هذا ممن حرّم الخمر على نفسه في الجاهلية، وقال: «لا أشرب شرابًا يذهب عقلي ويضحك بي من هو أدنى مني».

* * *

وجعل ﷺ قبله المسجد لبيت المقدس إلى أن حوّلت في السنة الثانية، وجعل طوله مما يلي القبلة إلى مؤخره مائة ذراع، وفي الجانبين مثل ذلك أو دونه، وجعل أساسه قريبًا من ثلاثة أذرع بالحجارة، وجعل له أربعة أبواب من جهتي المشرق والمغرب؛ فمن جهة المشرق بابٌ جبريل، وباب النساء، ومن جهة المغرب بابُ السلام وباب الرحمة، وبني بيتين إلى جنبه بالبن، وسقفهما بجذوع النخل والجريد.

ثم تحوّل عليه الصلاة والسلام من دار أبي أيوب إلى مساكنه التي بناها.

هجرة بقايا المسلمين من مكة:

وبعث النبي ﷺ زيد بن حارثة وأبا رافع بيعيرين وخمسائة درهم إلى مكة، فقدموا بفاطمة، وأم كلثوم، وسودة بنت زمعة، وأسامة بن زيد^(١)، وأم بركة المكناة «أم أيمن»،

(١) في الأصل «أسامة بنت زيد»، والذي في السيرة الحلبيّة: «وأم أيمن حاضنته ﷺ زوج زيد بن حارثة وابنها أسامة ابن زيد». (انظر ص ٨٥ ج ٢).

وخرج عبد الله بن أبي بكر رضي الله تعالى عنه معهم بعيال أبيه، وأمّا علي بن أبي طالب رضي الله عنه فكان أقام بعد خروج النبي عليه الصلاة والسلام بثلاثة أيام، ثم أدركه بقاء، قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه، كما أخرجه عنه ابن عساكر: «ما علمتُ أحدًا هاجر إلا مختفيًا، إلا عمر بن الخطاب، فإنه لما همّ بالهجرة تقلد سيفه وتنكبّ قوسه، وانتضى في يده سهمًا، وأتى الكعبة وأشرف قريش بفنائها، فطاف سعيًا، ثم صلى ركعتين عند المقام، ثم أتى خلفهم، وقال: شأهت الوجوه، من أراد أن تشكله أمه، ويؤتمّ ولده، وتُرمل زوجته، فليلقني وراء هذا الوادي. فما تبعه منهم أحد؛ لأنهم كانوا يردون من أراد الهجرة ويسجنونه. وكان صحيح الإيمان يجتهد في اللحاق بالنبي ﷺ، كما وقع ليحيى بن ضمرة الجدعي لما بلغه خروج النبي ﷺ قال: لا عذر لي في مقامي بمكة، وكان مريضًا، فأمر أهله فخرجوا به إلى التنعيم، فمات، فأنزل الله تعالى ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [النساء: ١٠٠] وأول كلمة سُمعت منه ﷺ لما قدم المدينة: «أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلّوا بالليل والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام»^(١).

وكان ﷺ يخطب يوم الجمعة إلى جذع نخلة، وفي لفظ «يسند ظهره إليه إذا تكلم يوم الجمعة أو حدث أمرٌ يريد أن يكلم الناس فيه» فقال له الناس: يا رسول الله، قد كثر الناس (يعني المسلمين) وإنهم يحبون أن يروك فلو اتخذت منبرًا لقدر قيامك تقوم عليه فيراك الناس، قال: نعم، قال: من يجعل لنا هذا المنبر؟ فقال إليه رجل، فقال: أنا، قال: تجعله؟ قال: نعم (ولم يقل إن شاء الله)، قال: ما اسمك؟ قال: فلان، قال: اقعد، فقعد، ثم عاد فقال: من يجعل لنا هذا المنبر؟ فقام إليه رجل فقال: أنا، قال: تجعله؟ قال: نعم (ولم يقل إن شاء الله)، قال: ما اسمك؟ قال: فلان، قال: اقعد، فقعد، ثم عاد فقال: من يجعل لنا هذا المنبر؟ فقام إليه رجل، فقال: أنا، فقال: تجعله؟ قال: نعم، إن

(١) وورد بالإنفراد: «أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلّوا بالليل والناس نيام، وادخلوا الجنة بسلام» رواه أحمد، والحاكم، وابن حبان، وللحديث ألفاظ أخرى ورواة آخرون.

شاء الله، قال: ما اسمك؟ قال: باقوم، وكان قبطيًّا، قال: اجعله. فجعله، فصنع له المنبر ثلاث درجات بينه وبين الحائط ممر^(١) الشاة. فلما كان أيام معاوية جعل المنبر ست درجات وحوله عن مكانه، فكسفت الشمس يومئذ.

وحينُ الجذع الذي كان يخطب عليه ﷺ حديث متواتر، رواه من أصحاب رسول الله ﷺ الجَمْع الكثير، وإلى حينِ الجذع أشار الإمام السبكي في تائيته بقوله:

وَحَنَّ إِلَيْكَ الْجَذْعُ حِينَ تَرَكْتَهُ حَنِينَ الثَّكَالَى عِنْدَ فَقْدِ الْأَحَبَّةِ

وأشرقت المدينة بقدمه ﷺ فيها، وسرى السرور بحلوله ﷺ.

قال أنس بن مالك رضي الله عنه: لما كان اليوم الذي دخل فيه رسول الله ﷺ المدينة أضاء منها كل شيء، فلما كان اليوم الذي مات فيه أظلم منها كل شيء.

وعن البراء بن عازب قال: ما رأيتُ أهل المدينة فرحوا بشيء كفرحهم برسول الله ﷺ، وصعدت ذوات الخدور على الأسطحة لقدمه^(٢) ﷺ يقلن:

طَلَعَ الْبَدْرُ عَلَيْنَا مِنْ ثَنِيَّاتِ الْوُدَاعِ^(٣)

وَجَبَّ الشُّكْرُ عَلَيْنَا مَا دَعَا لِلَّهِ دَاغٌ

أَيُّهَا الْمَبْعُوثُ فِينَا جِئْتَ بِالْأَمْرِ الْمُطَاعِ

وُسُمِّيَتْ «ثنية الوداع» لأن المسافر من المدينة كان يشيِّع إليها، ويودِّع عندها قديمًا، وهي موضع بين مكة والمدينة. وقال ﷺ: «اللهم حَبِّبْ لَنَا الْمَدِينَةَ كَحُبِّنَا مَكَةَ أَوْ أَشَدَّ،

(١) أي قدر مرور شاة حوالي نصف متر.

(٢) في الأصل: «من قدمه».

(٣) ثنية الوداع: موضع، وهي ثنية مشرفة على المدينة -والثنية في الأصل: كل عقبة مسلوكة في جبل- دخلها النبي ﷺ عند خروجه من قباء. ولما أراد بناء المسجد الشريف -مسجد قباء- قال: يا أهل قباء. إيتوني بأحجار من الحرة، فجمعت عنده أحجار كثيرة، فخطَّ القبلة وأخذ حجرًا فوضعه، ثم قال: يا أبا بكر خذ حجرًا، فضعه إلى جنب حجري، ثم قال: يا عمر خذ حجرًا فضعه إلى جنب حجر أبي بكر، ثم قال: يا عثمان خذ حجرًا فضعه إلى جنب حجر عمر.

فستل رسول الله ﷺ عن ذلك فقال: «أمرُ الخلافة» (رواه الحاكم وصحَّحه).

اللهم بارك لنا في صاعها ومدّها»^(١).

والبركةُ حاصلةٌ لها؛ لأنها النموُّ والزيادة في نفس المكيل بحيث يكفي المدُّ بها ما لا يكفي في غيرها، وهذا محسوس لمن سكنها. ولمسلم: «اللهم بارك لنا في صاعنا، اللهم بارك لنا في مُدِّنا، اللهم اجعل مع البركة بركتين». وله أيضًا: «اللهم بارك لنا في ثمرنا، وبارك لنا في مدينتنا، وبارك لنا في صاعنا، اللهم إن إبراهيم عبدك وخليتك ونيبك وإنه دعا لمكة، وأنا أدعو للمدينة بمثل ما دعاك لمكة».

وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه: كان ﷺ يؤتى بأول التمر فيقول: «اللهم بارك لنا في مدينتنا، وفي ثمارها، وفي مُدِّنا، وفي صاعنا بركةً مع بركة. ثم يعطيه أصغر من يحضر من الولدان».

وجاء: «إنَّ الإيمان ليأرز إلى المدينة كما تأرز الحية إلى جحرها»^(٢) (ويأرز بكسر الراء أي ينضم ويجتمع بعضه إلى بعض) وفي رواية «إن الإسلام بدأ غريبًا وسيعود غريبًا كما بدأ، يأرز كما تأرز»^(٣) الحية إلى جحرها».

ومكةٌ أفضل من المدينة؛ لأن مكة تَشْرُفُ بفضل العبادة فيها على غيرها مما تكون العبادة فيه مرجوحة، وهذا قول الجمهور، وعند الإمام الشافعي مكة أفضل من المدينة، وحكى عن مالك ومطرف وابن حبيب - من أصحابه - لكن المشهور عن مالك وأكثر أصحابه تفضيل المدينة، وقد رجع عن هذا القول أكثر المصنفين من

(١) وردت في هذا عدة أحاديث، منها قوله ﷺ: «اللهم إن إبراهيم حَرَمَ مكة فجعلها حرامًا، وإنِّي حَرَمْتُ المدينة - ما بين مأزميها - ألا يراقَ فيها دم، ولا يُحْمَل فيها سلاح لقتال، ولا يخطب شجرة إلا لعلف، اللهم بارك لنا في مدينتنا، اللهم بارك لنا في صاعنا، اللهم بارك لنا في مُدِّنا، اللهم اجعل مع البركة بركتين. والذي نفسي بيده ما في المدينة من شُعب ولا نَقَب إلا عليه ملكان يحرسانها حتى تَقْدُمُوا» رواه مسلم.

(٢) في الأصل: «إنَّ الإيمان ليأرز إلى المدينة كما تأرز الحية إلى جحرها ويأزر بكسر الزاي» ولفظ الحديث الشريف كما أثبتناه: «يأرز، من الأرز»، وهو الانضمام والاجتماع بعضه إلى بعض كما في المختار، والحديث متفق عليه، ووراه الإمام أحمد وابن ماجه عن أبي هريرة.

(٣) أصلحناه أيضًا كما مر.

المالكية، واستثنى القاضي عياض البقعة التي دُفن فيها النبي ﷺ، فحكى الاتفاق على أنها أفضل بقاع الأرض. وأشدّ بعضهم:

جزم الجميع بأن خير الأرض ما قد حاط ذات المصطفى وحواهـا
ونعم لقد صدقوا بساكنها علت كالنفس حين زكّت زكا مأواها
وزاد بعضهم بعد هذين البيتين:

وبهذه ظهرت مزية طيبة فغدّت وكلّ الفضل في مغناها
حتى لقد خصّت بروضة جنة الله شرفها بها وحبّاهـا
ما بين قبر للنبي ومنبر حيّ الإله رسوله وسقاها

ورجّح بعضهم المدينة؛ لأن ميل كل نفس حيث حلّ حبيبها^(١) كما قال بعضهم:
عليّ لربع العامرية وقفة ليُملي عليّ الشوق والدمع كاتب
ومن مذهبي حبّ الديار لأهلها وللناس فيما يعشقون مذاهب

ولما هاجر ﷺ وأكثر اليهود يستقبلون بيت المقدس، وأمره الله أن يستقبل بيت المقدس، فرحت اليهود، فاستقبل بيت المقدس ستة عشر شهراً، وكان يحب أن يستقبل قبلة إبراهيم، فكان يدعو وينظر إلى السماء، فنزلت الآية، ﴿قَدْ رَأَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾.

[البقرة: ١٤٤]

(١) ولأن النبي ﷺ قال - فيما رواه ابن عساكر عن أبي سعيد: «الناس تبع لكم يا أهل المدينة في العلم» وبطبيعة الحال لا يكون التابع أفضل من المتبوع، ذلك لأن المدينة انتشر منها العلم وفتوحات الإسلام، والله سمّاها الإيمان في قوله: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ﴾ [الحشر: ٩].

على أن في مذهبي وعقيدتي أن المفاضلة بين مكة والمدينة متعذرة، فهذه فيها مولد رسول الله ﷺ، وتلك فيها وفاته، وكلا البلدين حرم آمن. وقد قال رسول الله ﷺ في المدينة: «إنها حرم آمن، إنها حرم آمن» رواه الإمام أحمد ومسلم عن سهل بن حنيف، وقال الله في مكة المشرفة: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُخَفِّطُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧] وليس وراء المفاضلة ما يفيد الناس، وإن كان للمتفق عليه من جميع أهل العلم أن البقعة التي ضمت جسد رسول الله ﷺ هي أفضل بقعة في الأرض والسماء.

فَرَقُ الْيَهُودِ:

ثم إن اليهود افترقوا فرقاً كثيرة، ولكن المشهور من فرقهم ثلاث: الرّبّانيون، والقَرّاءون، والسامريون، وهؤلاء مُجْمَعُونَ على نبوة موسى وهارون ويوشع عليهم السلام، وعلى التوراة وأحكامها، وإن كان فيها تحريف الكَلِم عن مواضعه، لكنهم يستخرجون منها ستمائة وثلاث عشرة فريضةً يتعبدون بها. وينفرد الرّبّانيون والقَرّاءون عن السامرة بنبوّات أنبياءٍ غير الثلاثة المذكورة، وينقلون عنهم تسعة عشر كتاباً، ويضيفونها إلى خمسة أسفار التوراة، ويعبرون عن الأربعة وعشرين كتاباً بالنبوّات، وهي على مراتب:

الأولى: التوراة، وهي خمسة أسفار.

الأول: يُذكر فيه بدء الخليقة والتاريخ من آدم إلى يوسف عليهما السلام.

والثاني: يذكر فيه استخدام المصريين لبني إسرائيل، وظهور موسى عليه السلام وهلاك فرعون، ونصب قبة الزمان، وأحوال التيه، وإمامة هارون عليه السلام، ونزول العشر كلمات، وسماع القوم كلام الله سبحانه وتعالى.

والثالث: يُذكر فيه تعليم القرابين بالإجمال.

والرابع: يذكر فيه عدد القوم، وتقسيم الأرض عليهم بالقرعة، وأحوال الرسل الذين بعثهم موسى عليه السلام إلى الشام، وأخبار المنّ والسلوى والغمام.

والخامس: إعادة أحكام التوراة بتفصيل المجمل، وذكر وفاة هارون، ثم موسى، وخلافة يوشع عليه وعليهما السلام.

المرتبة الثانية: أربعة أسفار: تُدعى الأولى:

أولها: ليوشع عليه السلام، يذكر فيه ارتفاع المنّ وأكلهم الغلال بعد تقريب القرбан، ومحاربة يوشع الكنعانيين، وفتح البلاد، وتقسيمها بالقرعة، ووفاته.

وثانيها: يُعرف بسفر الحكّام، فيه أخبار قضاة بني إسرائيل في البيت الأول.

وثالثها: لشمويل عليه السلام، فيه نبوّته ومُلك طالوت وقتل داود جالوت.

ورابعها: يُعرف بسفر الملوك، فيه أخبار ملك داود وسليمان عليهما السلام وغيرهما، وانقسام الملك بين الأسباط، والملاحم، والجلء الأول، ومجيء بختنصر وخراب بيت المقدس.

المرتبة الثالثة: أربعة أسفار تُدعى: الأخيرة:

فأولها: لأشعيا عليه السلام يُذكر فيه توبيخ الله تعالى لبني إسرائيل، الإنذار بما يقع، وبشرى الصابرين، وإشارة إلى البيت الثاني، والخلاص على يد كورش الملك.

وثانيها: لأرميا عليه السلام، يذكر فيه خراب البيت بالتصريح، والهبوط إلى مصر.

وثالثها: لحزقيل عليه السلام، ويذكر فيه حَكَمٌ طبيعية وفلكية ومرموزة، وشكل بيت المقدس، وأخبار يأجوج ومأجوج.

ورابعها: اثنا عشر سفرًا: فيها إنذارات بجراد، وزلازل وغيرها، وإشارة إلى المنتظر والمحشر، ونبوّة يونس عليه السلام، وغرقه وابتلاع الحوت له، وتوبة قومه، ومجيء عدوّه، وصلاة حبقوق، ونبوّة زكريا عليه السلام، وإشارات إلى اليوم العظيم، وبشارة بورود الخضر عليه السلام.

المرتبة الرابعة: تُدعى: الكتب، وهي أحد عشر سفرًا:

أولها: تاريخ من آدم إلى البيت الثاني، ونسب الأسباط وقبائل العالم.

وثانيها: مزامير داود عليه السلام، وعدّتها مائة وخمسون مزمورًا، ما بين طلبات وأدعية عن موسى عليه السلام وغيره.

وثالثها: قصة أيوب عليه السلام، وفيه مباحث كلامية.

ورابعها: أمثال حكمية عن سليمان عليه السلام.

وخامسها: أخبار الحكام قبل الملوك.

وسادسها: نشائد عبرانية لسليمان عليه السلام: مخاطبات بين النفس والعقل.
وسابعها: يُدعى جامع الحكمة لسليمان عليه السلام، فيه الحث على طلب الذات العقلية الباقية، وتحقير الجسمية الفانية، وتعظيم الله تعالى والتخويف منه.
وثامنها: يدعي النواح لأرميا عليه السلام، وفيه خمس مقالات، على حروف المعجم، ونُذِبَ على البيت.
وتاسعها: فيه ملك ذي النون.
وعاشرها: لدانيال عليه السلام، فيه تفسير منامات بختنصر وولده، ورموز على ما يقع في الممالك، وحال البعث والنشور.
والحادي عشر: لعزير عليه السلام؛ فيه صفة عود القوم من أرض بابل إلى البيت الثاني وبنائوه.
وينفرد الربانيون بشروح لفرائض التوراة وتفرعات عليها، ينقلونها عن موسى عليه السلام.

ولله دَرُّ ابن سهل الإسرائيلي الأسلمي حيث يقول:
تَسَلَّيْتُ عَنْ مُوسَى بِحَبِّ مُحَمَّدٍ هُدَيْتُ، وَلَوْلَا اللَّهُ مَا كُنْتُ أَهْتَدِي
وَمَا عَنْ قَلِيٍّ قَدْ كَانَ ذَاكَ وَإِنَّمَا شَرِيعَةُ مُوسَى عُطِّلَتْ بِمُحَمَّدٍ
ثم لما استقر ﷺ بالمدينة، وأظهرت أحبار اليهود العداوة للنبي ﷺ بغياً وحسداً، وانضم إلى اليهود جماعة من الأوس والخزرج منافقون منهم «عبد الله بن أبي بن سلول» رئيس المنافقين، واجتمع عليه أصحابه ﷺ وقاموا بنصرته، وصارت المدينة لهم دار إسلام، شرع الله جهاد الأعداء، ومن هذا الوقت ظهرت الغزوات.

الفصل الثالث

في ذكر الظواهر الحادثة بعد الهجرة إجمالاً

الإذن بالقتال: ولما مكث ﷺ بضع عشرة سنة يدعو إلى الله بغير قتال، صابراً على إيذاء العرب بمكة، واليهود بالمدينة له ولأصحابه؛ لأمر الله له بالصبر، ووعدته بالفتح، أذن له بالقتال لكن لمن قاتله بقوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا﴾ [الحج: ٣٩]... الآية ولما نزلت أخبر ﷺ بقوله «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله» المراد مع «محمد رسول الله»، وقد يكفي بالجزء الأول عن كلمتي الشهادة، أي عن التعبير بجميعهما؛ لأنه صار شعاراً لجميعهما، فحيث قيل «كلمة الشهادة»، أو «كلمة الإخلاص» أو «قول لا إله إلا الله» فهو «لا إله إلا الله محمد رسول الله»، وفي لفظ: «حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأناي محمد رسول فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله تعالى»، قيل. وما حقها؟ قال: «زنا بعد إحصان، وكفر بعد إسلام، أو قتل نفس»^(١).

وهي الكلمة العالية والشرعية الغالبة، من استمسك بها فقد سلم، ومن اعتصم بعصمتها فقد عصم، لقوله ﷺ: «إذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها...» هذا توقيع العصمة الدنيوية، وأما توقيع العصمة الأخروية ف«من قال لا إله

(١) رواه البخاري، ومسلم، والنسائي، وأبو داود عن أبي هريرة، والبخاري ومسلم عن ابن عمر، والنسائي عن أبي بكر، والحاكم وابن ماجه عن أبي هريرة. وللحديث ألفاظ مختلفة بمعنى واحد. وهو حديث متواتر.

إلا الله دخل حصني، ومن دخل حصني أمن من عذابي»^(١).

والأمر الذي أخبر عنه ﷺ هو قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقْتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: ٣٩].

قال بعضهم: وهي أول آية نزلت في شأن القتال.

وظاهر هذا السياق يقتضي أن الآية فيها الأمر له ﷺ بالقتال المذكور، وقد يتوقف في ذلك، ولعله أمر بذلك بغير الآية المذكورة؛ لأن الآية ظاهرها الإباحة، والمباح ليس مأموراً به، ثم أبيع الابتداء بالقتال حتى لمن لم يقاتل، لكن في غير الأشهر الحرم التي هي: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب بقوله تعالى: ﴿فَإِذَا أُنْسِلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ٥].

ثم أمر به وجوباً بعد فتح مكة في السنة الثامنة من الهجرة مطلقاً من غير تقييد بشرط ولا زمان، بقوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾ [التوبة: ٣٦] أي جميعاً في أي زمن، فعلم أن القتال كان قبل الهجرة وبعدها إلى صفر من السنة الثانية محرماً؛ لأنه ﷺ كان في أثناء ذلك مأموراً بالتبليغ، وكان التبليغ إنذاراً بلا قتال؛ لأنه نهي عنه، قيل في نيف وسبعين آية، ثم صار مأذوناً في قتال من قاتل، ثم أبيع قتال من لم يبدأ بالقتال في غير الأشهر الحرم، ثم أمر بالقتال مطلقاً لمن قاتل ومن لم يقاتل في أي زمن، سواء في الأشهر الحرم وغيرها، وقيل: إن القتال في الحالة الثانية كان مأموراً به، لا مباحاً، كالحالة الأولى.

ثم استقر أمر الكفار مع الرسول ﷺ، بعد نزول «براءة»^(*) على ثلاثة أقسام:

الأول: محاربون له ﷺ، وهؤلاء المحاربون إذا كانوا ببلادهم يجب قتالهم على الكفاية في كل عام مرة، أي يكفي ذلك في إسقاط الحرج كإحياء الكعبة، واستئد

(١) الحديث القدسي عن الله سبحانه وتعالى: رواه ابن النجار.

(*) سورة التوبة.

لذلك بقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾ [التوبة: ١٢٢] أي فهلاً نفر، وقيل: فرض كفاية^(١) في حق الأنصار، وفرض عين^(٢) في حق المهاجرين.

الثاني: أهل عهد، وهم المؤمنون من غير عقد الجزية، أي الذين صالحهم ووادعهم على أن لا يحاربوه ولا يظاهروا عليه عدوه، وهم على كفرهم، آمنون على دمائهم وأموالهم وأنفسهم؛ لأنه ﷺ قال: «من ظلم معاهداً أو انتقصه، أو كلفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس، فأنا حجيجه يوم القيامة»^(٣).

الثالث: أهل ذمة، وهم من عقدت لهم الجزية.

وهناك قسم آخر، وهو: من دخل في الإسلام تقيّة من القتل، وهم المنافقون، وكان ﷺ يأمر أن تُقبل منهم علانيتهم ويكَل سرائرهم إلى الله تعالى، فكان مُعْرِضاً عنهم، إلا فيما يتعلق بشعائر الإسلام الظاهرة، كالصلاة؛ فلا يخالف ما رواه الشيخان: «لقد هممتُ أن أُمّر بالصلاة فتُقام، ثم أُمّر رجلاً فيصلي بالناس، ثم أنطلق ومعى رجال معهم حِزْمٌ من حطب إلى قوم لا يشهدون الصلاة فأحرق عليهم بيوتهم بالنار». فإن هذا الحديث ورد في قوم منافقين يتخلفون عن الجماعة، ولا يصلّون أصلاً، بدليل السياق؛ لأن صدر الحديث: «أنقل الصلاة على المنافقين صلاة العشاء والفجر، (أي جماعتهما)، ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حَبْوًا، ولقد هممتُ... إلى آخره»^(٤).

وكان الجهاد في عهده ﷺ فرض عين، وقيل فرض كفاية، وكان إذا غزا بنفسه يجب على كل أحد الخروج معه لقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَن حَوْلَهُمْ مِّنْ

(١) فرض الكفاية: هو الذي إذا قام به البعض سقط عن الآخرين.

(٢) فرض العين: هو الفرض على كل المسلمين لا يسقط بأداء البعض له.

(٣) وقال ﷺ: من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عاماً» رواه الإمام أحمد وكثيرون غيره عن عبد الله بن عمرو بن العاص.

(٤) ورواه أيضاً أحمد، وأبو داود، وابن ماجه عن أبي هريرة.

الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ [التوبة: ١٢٠]، ومن ثمَّ وقع لمن تخلف عنه في غزوة تبوك ما وقع. وقد غزا ﷺ بنفسه.

وأما بعده^(١) ﷺ فللكفار حالان مذكوران في كتب الفقه.



(١) أي بعد وفاته ﷺ.

الباب الرابع

في تفاصيل الظواهر التي حدثت بعد هجرته عليه
الصلاة والسلام إلى وفاته ﷺ،

وفيه فصول

الفصل الأول

في ظواهر السنة الأولى من الهجرة وما فيها من الغزوات

قدم رسول الله ﷺ المدينة لاثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الأولى، ظهر يوم الإثنين، فنزل قباء، وأقام بها الإثنين، والثلاثاء، والأربعاء، والخميس، وأسّس مسجد قباء الذي نزل فيه: ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى﴾ [التوبة: ١٠٨]. وخرج من قباء يوم الجمعة، فما مر على دار من دور الأنصار إلا قالوا: «هَلُمَّ يا رسول الله إلى العدد والعدة، ويعترضون ناقته، فيقول: «خَلُّوا سَبِيلَهَا مَأْمُورَةٌ» ثم سارت حتى انتهت إلى موضع مسجده؛ فبنى مسجده الشريف ومساكنه كما سبقت الإشارة إلى ذلك آنفاً، فلم يزد فيه أبو بكر في أيام خلافته شيئاً، وزاد فيه عمر، وبناه على بنائه في عهده عليه الصلاة والسلام. ثم غيّر عثمان بن عفان في خلافته، فزاد فيه زيادة كثيرة، وبنى جدرانه بالحجارة المنقوشة، وجعل عُمُدَهُ من حجارة منقوشة أيضاً، وسقفه بالسَّاج^(١). ثم لما صارت الخلافة إلى الوليد بن عبد الملك الذي عمّر جامع دمشق. استعمل على المدينة عمر بن عبد العزيز، وكتب إليه في سنة سبع وثمانين من الهجرة يأمره بعمارة مسجده ﷺ، وبإدخال بيوت أزواجه فيه، حتى تصير مساحة المسجد مائتي ذراع^(٢) في مائتي ذراع، فأجابه أهل المدينة إلى ذلك، ففعل عمر بن عبد العزيز كذلك.

(١) الساج: ضرب من الشجر من الفصيلة الأرتدية يعظم جداً، ويذهب طويلاً وعرضاً، وله ورق كبير، وخشبه صلب جداً.

(٢) الذراع: ٦٤ سنتيمتراً.

وقد عَمَّرَ المسجد الشريف جماعة من ملوك الإسلام، وقد احترق هذا المسجد في زمن الملك الأشرف قايتباي الظاهري، فعَمَّرَه ووضع الدرايزينات حول الحجرة الشريفة، وعمل فيه منبرًا، وسَقَّفَه وذهَّب سقفه.

ثم في سنة ست وثمانين وثمانمائة، وقعت صاعقةٌ بالليل على منارة المسجد النبوي، احترق منها سقوفُ المسجد النبوي، وجميعُ ما فيه من المصاحف والكتب، وغير ذلك، ولم يبق سوى الجدران، ووردت الأخبار بذلك إلى السلطان المذكور، فجدَّدَ عمارته، فجاءت في غاية الحسن.

ولمَّا تمت العمارة التي صرف عليها أكثر من مائة ألف دينار، أرسل إلى المدينة المنورة خزانة كتب، وجعل مقرها بمدرسته التي عمرها هناك، وأرسل عدة مصاحف وأوقف عليها ما يلزم وقفه، والمدرسة باقية عامرة، على يسار الداخل للحرم النبوي، وينزل بها أمير الحاج المصري. وقد اعترض أهل الزيغ والشقاق، ومن في قلبه مرض ونفاق بحلول هذه الحادثة بالحرم الشريف، وإن لم يُصب الحجرة الشريفة ما يُخلُّ بالمقام المنيف، فكان الردُّ على المنافقين، وعصبة الضلال الفاسقين، بأنه ليس في هذا أدنى نقص في حقه ﷺ، وأنَّ حرمة لم يزل عند الله تعالى، وعند أهل الإيمان في أعلى درجات المقام الأعظم، وإنما لَمَّا مَلَ مَنْ مال من أهل طيبة عن سنته، رماهم الله تعالى بهذا الأمر، فتلقاها عنهم ﷺ بمسجده؛ لكمال رحمته بهم ورأفته.

قال الشريف السمهودي: وفي ذلك عبرة تامة، وموعظة عامة، أبرزها الله تعالى للإنذار فخص بها النذير الأعظم ﷺ، وقد ثبت أن أعمال أُمته تُعَرَّضُ عليه^(١) فلما ساءت الأعمال المعروضة، ناسب ذلك الإنذار بإظهار النار المجازي بها يوم القيامة والعرض، قال الله تعالى: ﴿وَمَا تُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء: ٥٩] وقال تعالى:

(١) للحديث الصحيح: «حياتي خير لكم؛ تُحَدِّثُونَ ويُحَدِّثُ لَكُمْ، ومماتي خير لكم؛ تُعَرَّضُ عَلَيَّ أَعْمَالُكُمْ، فإن وجدت خيرًا حمدت، وإن وجدت شرًّا استغفرت لكم» رواه الحارث وابن سعد وغيرهما وهو حديث صحيح ثابت.

﴿ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهَ بِهِ عِبَادَهُ، يَعْبَادُ فَاتَّقُونَ﴾ [الزمر: ١٦]. وقال الشاعر في هذا المعنى:

لم يحترق حرْمُ النبيّ لربيّةٍ يُخْشَى عليه ولا هنالك عارُ
لكنّما أيدي الروافض لا مَسَتْ ذاك البناء، فطهرته النارُ

وفي هذه السنة دخل بعائشة رضي الله تعالى عنها بعد ثمانية أشهر من الهجرة، وهي بنت تسع، وتوفي عنها وهي بنت ثمانى عشرة سنة، وكان قد عقد عليها قبل الهجرة بعد وفاة خديجة.

المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار:

وفيها آخى بين المسلمين من المهاجرين والأنصار، وكانوا تسعين رجلاً، من كل طائفة خمسة وأربعون، وقيل مائة، فاتخذ ﷺ عليّاً أخاً له^(١) وآخى بين أبي بكر وخارجة بن زيد الأنصاري، وبين أبي عبيدة وسعد بن معاذ الأنصاري، وبين عمر بن الخطاب وعثمان بن مالك الأنصاري، وبين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع الأنصاري، وبين عثمان بن عفان وأوس بن ثابت الأنصاري، وبين طلحة بن عبيد الله وكعب بن مالك الأنصاري، وبين سعيد بن زيد وأبي بن كعب الأنصاري. وأول مولود للمهاجرين بعد الهجرة عبدُ الله بن الزبير، وأول مولود للأنصار النعمان بن بشير رضي الله تعالى عنهم أجمعين.

وكان المقصود من المؤاخاة أن يكون بعضهم معظمًا لبعض، مهتمًا بشأنه، مخصوصًا بمعاونته ومناصرته ومواساته، حتى يكونوا يدًا واحدة على الأعداء بالنسبة للهيئة الاجتماعية، وأن يكون حُبُّ كلِّ أحدٍ لأخيه جاريًا مجرى حبه لنفسه، حتى قال بعضهم: إن هذه المؤاخاة كان فيها حُكْمُ التوارث، وإنهم كانوا كذلك إلى أن نزل بعد غزوة بدر ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٧٥]. وقبل الهجرة آخى ﷺ بين المهاجرين بلا توارث. فالمؤاخاة وقعت مرتين.

(١) قال له رسول الله ﷺ: «أنت أخي في الدنيا والآخرة» رواه الترمذي والحاكم عن عبد الله بن عمر.

وفي هذه السنة الأولى من الهجرة كانت غزوة الأبواء، وهي أول غزواته عليه الصلاة والسلام، ثم غزوة بواط، ثم غزوة العشيرة، موضع بناحية ينبع، وكانت بعد بواط بأيام قلائل، وقيل: إن هذه الغزوات كانت في السنة الثانية.

وغزوة الأبواء تسمى غزوة وَدَّان، بفتح الواو وتشديد الدال المهملة آخره نون^(١)، وذلك أنه ﷺ خرج غازيًا حتى بلغ «وَدَّان» وهي قرية كبيرة بينها وبين الأبواء نحو ثمانية أميال، و«الأبواء» قرية بين مكة والمدينة، وكان خروجه ﷺ بالمهاجرين يتعرض عير قريش، ويريد بني ضمرة، وكان عددٌ من معه سبعين رجلًا من أصحابه، وفي هذه الغزوة صالح بني ضمرة، فعقد الصلح مع سيدهم حينئذ، وهو مجدي بن عمرو الجهني، على أن لا يغزوهم ولا يغزونه، ولا يُكثروا عليه جمعًا، ولا يعينوا عليه عدوًّا، وكتب بينه وبينهم كتابًا نسخته:

بسم الله الرحمن الرحيم:

«هذا كتاب من محمد رسول الله ﷺ لبني ضمرة بأنهم آمنون على أموالهم وأنفسهم، وأن لهم النصرة على من رامهم، إلا أن يحاربوا في دين الله ما بَلَّ بحرٌّ صوفة (أي ما بقي فيه ما يبل الصوفة)، وأن النبي ﷺ إذا دعاهم لنصره أجابوه، عليهم بذلك ذمة الله وذمة رسوله ﷺ (أي أمانهما)» انتهى.

وكان لواؤه أبيض مكتوبًا عليه «لا إله إلا الله محمد رسول الله»، وكان اللواء مع عمه حمزة، واستعمل على المدينة سعد بن عباد، وانصرف إلى المدينة، وكانت غيبته خمس عشرة ليلة.

هذا ما قاله بعض أهل السير.

والصحيح: أنها كانت في الثاني عشر من شهر صفر من السنة الثانية من الهجرة.

(١) قرية جامعة في نواحي الفُرع، وبينها وبين هرشي ستة أميال، وبينها وبين الأبواء نحو من ثمانية أميال، قريب من الجحفة. وهرشي: ثنية في طريق مكة قريبة من الجحفة: تُرى من البحر.

وأما غزوة بواط^(١) (بضم الموحدة وفتحها وتخفيف الواو آخرها طاء مهملة) فالصحيح أيضاً أنها كانت في شهر ربيع الأول، وقيل في ربيع الآخر من السنة الثانية. وبواط جبل بالينع. وسبب هذه الغزوة أن النبي ﷺ بلغه أن عير قريش نحو ألفين وخمسمائة بعير، ومائة رجل من قريش، معهم أمية بن خلف، ذاهبة إلى مكة، فخرج ﷺ لاعتراضها في مائتين من أصحابه، وحمل اللواء -وهو العلم الذي يحمل في الحرب، يعرف به موضع أمير الجيش، وكان أبيض- سعد بن أبي وقاص واستعمل على المدينة السائب بن عثمان بن مظعون، وقيل سعد بن معاذ، فانتهى إلى بواط فلم يَلْقَ كيداً أي حرباً، فرجع إلى المدينة بدون حرب.

وأما غزوة العُشَيْرَة -بالعين المهملة والشين المعجمة وبالمهملة أيضاً، على صيغة التصغير، موطن ببطن الينع (وهو منزل الحاج المصري) - لبني مدلج، فكانت على الصحيح في جمادى الأولى سنة اثنتين، لقصد إدراك عير قريش المتوجهة إلى الشام، وذلك أن قريشاً جمعت أموالها في تلك العير، ولم يَبْقَ بمكة قرشي ولا قرشية له مثقال فصاعداً إلا بعث به في تلك العير، إلا حويطب بن عبد العزى. ويقال: إن في تلك العير خمسين ألف دينار، وألف بعير، وكان قائدُها أبا سفيان، وكان معه سبعة وعشرون رجلاً، وقيل: تسعة وثلاثون رجلاً منهم مخرمة بن نوفل، وعمرو بن العاص، وهي العير التي خرج إليها رسول الله ﷺ حين رجعت من الشام، وكانت سبباً لوقعة بدر الكبرى، خرج ﷺ في مائتين من المهاجرين خاصة، حتى بلغ العُشَيْرَة -بالتصغير- (وأما التي بغير تصغير العُشَيْرَة فهي غزوة تبوك) واستخلف على المدينة أبا سلمة بن عبد الأسد، وحمل اللواء عُمُه حمزة بن عبد المطلب؛ وكان اللواء أبيض، خرجوا على ثلاثين بعيراً يعتقبونها^(٢)، فوجدوا العيرَ قد مضت قبل ذلك بأيام، ورجع لم يلق حرباً، ووادَعَ ﷺ فيها بني مدلج، وكُنِيَ فيها عليّاً بأبي تراب حين وجده نائماً هو وعمار بن ياسر وقد

(١) بواط: جبل من جبال جهينة بناحية رضوى، به غزوة للنبي ﷺ.

(٢) أي يركبونها واحداً بعد الآخر، وفي الأصل «يتعقبونها».

علق به التراب الذي سقته عليه الريح، فأيقظه عليه الصلاة والسلام برجله، وقال له: «قم أبا تراب» فلما قام قال له: «ألا أخبرك بأشقى الناس أجمعين: عاقر الناقة، والذي يضربك على هذا، ووضع يده على قرن رأسه، فيخضب هذه» ووضع يده على لحيته. وفي السنة الأولى من الهجرة وادع ﷺ يهود، وعاهدهم وأقرهم على دينهم وأموالهم، واشترط عليهم وشرط لهم.



الفصل الثاني

في ظواهر السنة الثانية من الهجرة، وما فيها من الغزوات

وفي هذه السنة تحويلُ القبلة من صخرة بيت المقدس إلى المسجد الحرام. وعن ابن عباس أنه قال: «أول ما نُسخ من القرآن القبلة»، وذلك أنه ﷺ وأصحابه كانوا يصلون بمكة إلى الكعبة، فلما هاجروا إلى المدينة أمره الله تعالى أن يصلي نحو صخرة بيت المقدس، ليكون أقرب إلى تصديق اليهود إياه إذا صلى إلى قبلتهم، مع ما يجدون من نعته في التوراة، وصلى بعد الهجرة ستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً إلى بيت المقدس، وكان يحب أن يوجّه إلى الكعبة؛ لأنها كانت قبله أبيه إبراهيم عليه السلام، فأنزل الله قوله تعالى: ﴿قَدْ زَيَّ تَقَلَّبَ وَجْهَكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُؤَيِّنَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾.

[البقرة: ١٤٤].

وروى الليث عن يونس عن الزهري قال: «لم يبعث الله منذ هبط آدم إلى الأرض نبياً إلا جعل قبلته صخرة بين المقدس». وقد سبق التنويه إلى ذلك قريباً. فلما حوِّلت القبلة كان النبي عليه الصلاة والسلام في مسجد القبلتين، في بني سلمة، فكان يصلي فيه الظهر إلى بيت المقدس، وقد صلى بأصحابه ركعتين من الظهر، فتحوّل في الصلاة واستقبل الميزاب^(١)، وحوّل الرجال مكان النساء والنساء مكان الرجال، فوقع نصفها

(١) الميزاب: مسيل الماء والمزrab.

إلى بيت المقدس ونصفها إلى الكعبة، فسُمِّي ذلك المسجد مسجداً القبلتين.

وفيها «في شعبان» فرض صوم رمضان، وأمر الناس بإخراج زكاة الفطر عن الصغير والكبير، والحر والعبد، والذكر والأنثى، وصاع من تمر أو زبيب أو من بُر، وقال: «أغنوهم - يعني المساكين - عن ذلك السؤال في هذا اليوم»^(١).

قال ابن حجر: «وثواب الصوم الناقص كالكمال»^(٢) في الفضل المرتب على رمضان من غير نظرٍ لأيامه، أمّا ما يترتب على صوم الثلاثين من ثواب واجبه (أي فرضه) ومندوبه عند سحوره وفطوره، فهو زيادة يفوق بها الناقص، وكأن حكمته أنه عليه الصلاة والسلام لم يكمل له رمضان إلا سنة واحدة، والبقية ناقصة: زيادة طمأنينة نفوسهم على مساواة الناقص للكمال».

وقوله: «من غير نظر لأيامه»، تعقبه ابن قاسم بقوله: قد يقال الفضل المرتب على رمضان ليس إلا مجموع الفضل المرتب على أيامه، وأجيب بمنع الحصر، وأن لرمضان فضلاً من حيث هو، بقطع النظر عن مجموع أيامه، كما هو في مغفرة الذنوب لمن صامه إيماناً واحتساباً^(٣)، والدخول من باب الجنة المعد لصلاته، وغير ذلك مما ورد أنه يُكرّم به صوّام رمضان، وهذا لا فرق فيه بين كونه ناقصاً أو تاماً.

وأما الثواب المرتب على كل يوم بخصوصه فأمرٌ آخر؛ فلا مانع أن يثبت للكمال بسببه مما لا يثبت للناقص.

وقوله: «وكان حكمته إلخ» قال الشوبري: كذا وقع لابن حجر هنا، ووقع له في محلين آخرين أنه قال: لم يصم شهراً كاملاً إلا سنتين، وجرى عليه المنذري في سننه،

(١) أخرجه البيهقي والدارقطني من حديث ابن عمر.

(٢) الناقص: تسعة وعشرون يوماً، والكمال: ثلاثون يوماً.

(٣) وللحديث الشريف ألفاظ منها: «من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له من ذنبه» رواه أحمد، والأربعة عن أبي هريرة، وروى الخطيب عن ابن عباس: ما تقدم «من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر» ومعنى قوله ﷺ (ما تأخر) أن الله تعالى يوفقه إلى عدم المعاصي، والحديث صحيح، والله أعلم بحقيقة مراد رسوله ﷺ.

وقال: فما وقع له هنا غلط، سببه اعتماده على حفظه، انتهى.

أقول: لا يلزم أن ما هنا غلط، بل يحتمل أن ما قال المنذري مقالة لم يعرج عليها شيء ظهر له، ثم رأيت العلامة الأجهوري استوعب ما ذكر فقال:

وفرض الصيام ثاني الهجرة	فصام تسعة نبي الرحمة
أربعة تسع وعشرون، وما	زاد على ذلك بالكمال اتسما
كذا لبعضهم، وقال الهيثمي	ما صام كاملاً سوى شهر اعلم
وللدُميري أنه شهران	وناقص سواه خذ بياني

وفي هذه السنة أرى عبد الله بن زيد صورة الأذان في النوم، وورد الوحي بذلك، والذي قاله النووي في الروضة: إن الأذان شرع في السنة الأولى من الهجرة.

وقيل: كان ذلك - أي الأذان - في السنة الثانية عندما شاور عليه الصلاة والسلام أصحابه فيما يجمعهم به للصلاة؛ إذ كان اجتماعهم بمناذي «الصلاة جامعة». والأذان على المنائر من خصائص هذه الأمة، وليس لمن سواهم منائر يؤذنون عليها، بل ولا هذا الأذان المخصوص.

وفيها تزوج عليٌّ فاطمة بنت رسول الله ﷺ، وقال: «إن الله تعالى عقد على فاطمة لعلي في السماء»^(١) فنزل الوحي بذلك.

ولما قدم ﷺ من غزوة العشيرة لم يقيم بالمدينة إلا ليال^(*) حتى غزا غزوة «سفوان» في السنة الثانية، ويقال لها غزوة «بدر الأولى» فخرج خلف كرز بن جابر الفهري وقد أغار (قبل أن يسلم) على سرح المدينة (أي على النعم والمواشي التي تسرح بالغداة)، فسعى رسول الله ﷺ في طلبه حتى بلغ وادي سفوان من ناحية بدر، ولذا قيل لها «بدر

(١) ذكر العلامة محب الدين الطبري في كتابه «ذخائر العقبى» عن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «أتاني ملك: فقال: يا محمد، إن الله تعالى يقرأ عليك السلام ويقول لك: إني قد زوجت فاطمة ابنتك من علي بن أبي طالب في الملاء الأعلى فزوجه منها في الأرض». خرجه الإمام علي بن موسى الرضا في مسنده.

(*) الصواب: ليالي.

الأولى»، وفاته كرز بن جابر ولم يدركه. وكان ﷺ قد استعمل على المدينة زيد بن حارثة، وحمل علي بن أبي طالب رضي الله عنه اللواء وكان أبيض.

وفي هذه السنة أيضًا بعث عبد الله بن جحش في ثمانية أنفس إلى «نخلة» بين مكة والطائف؛ ليتعرفوا أخبار قريش، فمرّ بهم عير لقريش فغنموها وأسروا اثنين، وحضروا بذلك إليه ﷺ، وهي أول غنيمة غنمها المسلمون.

وفي سنة اثنتين من الهجرة كانت غزوة بدر الكبرى، وبدر اسم للوادي أو لغيره، وكان المسلمون ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلًا، وعدة المشركين ألف رجل معهم مائة فرس وسبعمائة بعير، وهي أفضل غزواته ﷺ؛ لأنهم بذلوا في نصرته الأرواح والأجسام، وقاموا على قدم الإخلاص، فاستحقوا مزيد الإكرام، وظفروا بالشهادة الكبرى والمنزلة الرفيعة في الدنيا والأخرى، ونطق بفضلها أشرف الكتاب، فكان الدعاء بذكرهم يستجاب، وعُدَّت تلاوة أسمائهم لتدفع كل مهمة، رضي الله عنهم وعن جميع الأمة. وليس في غزواته ما يعدل بها في الفضل ويقرب منها إلا غزوة الحديبية، حيث كانت بيعة الرضوان. ويقال لها: (بدر القتال، وبدر الفرقان)^(١)؛ لأن الله تعالى فرّق فيها بين الحق والباطل، وأظهر الله بها الدين من يومئذ، وقتل فيها صناديد قريش، وذلك أن العير التي خرج ﷺ في طلبها حتى بلغ العشيرة ووجدها سبقتة بأيام، لم يزل مترقبًا قفولها من الشام، فلما سمع برجوعها من الشام دعا المسلمين، وقال: «هذه عير قريش فيها أموالهم فاخرجوا إليها لعل الله أن ينفلكموها» فانتدب ناسًا للإجابة وآخرون لم يجيبوا لظنهم أن رسول الله ﷺ لم يلقَ حربًا، ولم يحتفل لها رسول الله ﷺ ولا اهتم بها، بل قال: «من كان ظهره حاضرًا فليركب معنا».

فكان أبو سفيان حين دنا بالعين من أرض الحجاز يتحسس الأخبار، ويسأل من لقي من الركبان تخوفًا من رسول الله ﷺ، فبلغه أن رسول الله ﷺ قد استنفر أصحابه

(١) سُميت بدر القتال؛ لأن الموقعة حدثت بها، وبدر الفرقان لأن الله فرق بها بين الحق والباطل، وسماها الله تعالى «الفرقان» في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَفَى الْجَمْعَانِ﴾ [الأنفال: ٤١].

للعير، وأنه تركه مقيماً ينتظر رجوع العير، فخاف خوفاً شديداً، فاستأجر ضمضم بن عمرو الغفاري بعشرين مثقالاً ليستنفر قريشاً، ويخبرهم أن محمداً قد عرض لعيرهم هو وأصحابه، فخرج ضمضم سريعاً إلى مكة، وقال: «يا معشر قريش اللطيمة اللطيمة [أي أدركوا اللطيمة، وهي العير التي تحمل الطيب والبز^(*)] أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمد في أصحابه، لا أرى أن تدركوها». فتجهز الناس سراعاً حيث أقام أشراف قريش يحضون الناس على الخروج، ولم يتخلف من أشرافهم إلا أبو لهب، وبعث مكانه العاص بن هاشم بن المغيرة، استأجره بأربعة آلاف درهم كانت له عليه ديناً أفلس بها، وكانوا خمسين وتسعمائة، وقيل ألفاً، وقادوا مائة فرس عليها مائة درع سوى دروع المشاة، ومعهم القينات^(**) يضربن بالدفوف، ويغنين بهجاء المسلمين، وخرج رسول الله ﷺ من المدينة في ثلاثمائة رجل وثلاثة عشر؛ من المهاجرين سبعة وسبعون، وباقيهم من الأنصار، وما فيهم سوى فارسين: المقداد بن عمرو الكندي، والزبير بن العوام، ونزل ﷺ في بدر، وبُني له عريش، وجلس فيه ومعه أبو بكر رضي الله عنه.

وكان ﷺ قد بعث طلحة بن عبيد الله وسعيد بن زيد يتحسسان خبر العير، فرجعا بخبر العير إلى المدينة، على ظن أنه ﷺ بالمدينة، فلما علما أنه ببدر خرجا إليه، فلقياه منصرفاً من بدر، وأسهم^(١) لكل منهما، ولو لم يحضرا القتال. ودفع ﷺ اللواء وكان أبيض إلى مصعب بن عمير، وكان أمامه ﷺ رايتان سوداوان، إحداهما مع علي بن أبي طالب، ويقال لها: «العقاب»، والأخرى مع بعض الأنصار، قيل هو سعد بن معاذ، وقيل الحباب بن المنذر. ولبس ﷺ درعه «ذات الفضول» وتقلد سيفه «العُضْب». ولما سار وادي دفران^(٢) (بكسر الفاء وهو واد قريب من الصفراء) أتاه الخبر عن سفر قريش

(*) البز: نوع من الثياب، والسلاح.

(**) القينة: الأمة صانعة وغير صانعة، وغلب على المغنية.

(١) أي جعل لهما سهماً في الغنائم.

(٢) في المراصد «دفران» بالقاف واد بالصفراء أو: شعب ببدر.

ليمنعوا غيرهم، فاستشار النبي ﷺ أصحابه، وأخبرهم الخبر وقال لهم: إن القوم قد خرجوا من مكة مسرعين، فماذا تقولون؟ فقال طائفة منهم: العيرُ أحبُّ إلينا من لقاء العدو، فهلاً ذكرت لنا القتال حتى نتأهب له إذ خرجنا للعر! فعند ذلك تغير وجه رسول الله ﷺ، قال بعضهم: وهذا سبب نزول قوله تعالى: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَرِهُونَ﴾ [الأنفال: ٥] فعند ذلك قام أبو بكر فقال وأحسن، ثم قام عمر فقال وأحسن، ثم قام المقداد بن الأسود، فقال: «يا رسول الله امض لما أمرك الله به، فنحن معك، فوالله لا نقول لك كما قال قوم موسى لموسى: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتَلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤] ولكننا نقول: «إنا معكما مقاتلون»، فلما سمع أصحاب رسول الله ﷺ ذلك تابعوهم، فأشرق عند ذلك وجهه ﷺ، ثم قال أشيروا عليّ، فقال عمر: يا رسول الله إنها قريش، والله ما دلت منذ عزت، ولا آمنت منذ كفرت، والله لتقاتلنك، فتأهب لذلك أهبت، وأعد لذلك عُدته. ثم استشارهم ثالثاً، فقال: أشيروا عليّ أيها الناس، ففهمت الأنصار أنه يعنيهم؛ لأنهم أكثر الناس عدداً، فقال له سعد بن معاذ «سيد الأوس»: لعلك تريدنا معاصر الأنصار يا رسول الله؟ فقال: أجل، قال: فقد آمنا بك وصدّقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا وموآثيقنا على السمع والطاعة، وإنني أقول عن الأنصار وأجيب عنهم، فاطعن حيث شئت، وصلّ جبل من شئت، واقطع جبل من شئت، وسالم من شئت، وعاد من شئت، وخذ من أموالنا ما شئت، وما أخذت منا كان أحب إلينا مما تركت، وما أمرت فيه من أمرنا فأمرنا تبع لأمرك، فامض يا رسول الله لما أردت، فنحن معك؛ والذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا، وإنا لصبر في الحرب صدق في اللقاء، لعل الله أن يريك منا ما تقر به عينك، فسر بنا على بركة الله، فنحن عن يمينك وعن شمالك وبين يديك ومن خلفك» فسر النبي ﷺ وأشرق وجهه بقول سعد، ونشطه ذلك، وقال: «أبشروا فإن الله تعالى قد وعدني إحدى الطائفتين أنها لكم، وتودون

أن غير ذات الشوكة تكون لكم (والطائفتان: العير، ونفير قريش، والعير: هو المعبر عنه في الآية بغير ذات الشوكة، لأنه لم يكن فيها إلا أربعون فارسًا، وأما الشوكة فهي في النفير لعددهم وعدتهم، فقوله تعالى ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ عَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٧] يعني تتمنون أن يكون لكم العير؛ لأنها الطائفة التي لا شوكة لها، أي لا حدة لها ولا شدة، ولا تريدون الطائفة الأخرى، ولكن الله يريد الطائفة الأخرى وهي نفير قريش الذي يريد حماية تلك العير، وهي المرادة من قوله تعالى: ﴿وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَوِّقَ أَلْحَقَّ بِكَلِمَتِهِ﴾ [الأنفال: ٧] الآية، ومعنى إحقاق الحق: تنجيز الوعد من النصر والظفر بالأعداء، ومعنى إحقاق الحق الثاني: تقوية القرآن والدين، ونصرة هذه الشريعة؛ لأن الذي وقع من المؤمنين يوم بدر بالكافرين كان سببًا لعزة الدين وقوته، ولهذا السبب قرنه بقوله ﴿وَبُطِّلَ الْبَطْلَ﴾ [الأنفال: ٨] الذي هو الشرك، وذلك في مقابلة الحق الذي هو الدين والإيمان، فقد أعلمه الله تعالى بعد وعده بالظفر بالطائفة الثانية، وأراه مصارعهم، فعلم القوم أنهم ملاقو القتال، وأن العير لا تحصل لهم.

ثم ارتحل رسول الله ﷺ حتى نزل قريبًا من بدر، فلما أُمسى بعث علي بن أبي طالب والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص في نفر من أصحابه إلى بدر يلتمسون الخبر، فأصابوا راوية^(١) لقريش معها غلام لبني الحجاج و غلام لبني العاص، فأتوا بهما رسول الله ﷺ وهو قائم يصلي، فقالوا: لمن أنتما؟ وظنوا أنهما لأبي سفيان، فقالا: نحن سقاة قريش بعثونا نسقيهم من الماء، فضربوهما، فلما أوجعوهما ضربًا، قالوا: نحن لأبي سفيان، فتركوهما. فلما فرغ رسول الله ﷺ من صلاته قال: «إذا صدقاكم ضربتموهما، وإذا كذباكم تركتموهما! صدقا والله، إنهما لقريش، أخبراني عن قريش». قالوا: هم وراء هذا الكثيب الذي يرى بالعدوة القصوى -أي جانب الوادي المرتفع- فقال لهما رسول الله ﷺ: كم القوم؟ قالوا: هم والله كثير عددهم، شديد بأسهم، قال: ما عدتكم؟ قالوا: لا ندري. وجهد النبي ﷺ أن يخبراه كم هم، فأبيا: قال: كم ينحرون من الجُرُر

(١) الراوية: الناقة المعدة عليها القرب.

كل يوم؟ قالوا: يوماً تسعاً، ويوماً عشراً، فقال ﷺ: «القوم ما بين التسعمائة والألف»، أي لكل جزور مائة، ثم قال لهما: «فمن فيهم من أشرف قريش؟» فعدّ له من فيهم من الأشراف، وهم كثير، وفيهم أبو جهل، فأقبل رسول الله ﷺ على الناس، فقال: «هذه مكة قد أَلَقْتُ إليكم أفلاذ كبدها - أي أشرافها وعظماءها -» ثم بعث ﷺ عَدِيًّا وبسبس رضي الله عنهما، إلى بدر يتحسسان الأخبار (التحسس للأخبار بالحاء المهملة: أن يفحص الشخص عن الأخبار بنفسه، وبالجيم يفحص عنها غيره) وجاء: «تَحَسَّسُوا ولا تَجَسَّسُوا»^(١) قبل وصوله ﷺ، وقبل وصول قريش إليها أيضاً، فنزلاً قريباً من بدر، عند تل هناك، ثم أخذاً شتاً لهما يستقيان فيه، وكان مجدي بن عمرو على الماء، وإذا جاريان تتخاصمان وتمسك إحداهما الأخرى على الماء، والممسكة الملزمة تقول لصاحبتها: إنما يأتي العيرُ غداً أو بعد غد، فأعمل لهم وأقضيكَ الذي لك. فقال مجدي بن عمرو الذي على الماء: صدقت، ثم جلس بينهما. فلما سمع بذلك عدي وبسبس، جلسا على بعيريهما، ثم انطلقا حتى أتيا رسولَ الله ﷺ فأخبراه بما سمعا. ثم إن أبا سفيان تقدم على العيرِ حذراً حتى ورد الماء، فلقي ذلك الرجل الذي على الماء، فقال له: هل أحسست أحداً؟ قال: ما رأيت أحداً أنكره، إلا أنني قد رأيت راكبين قد أناخا إلى هذا التل، ثم استقيا في شتٍ لهما، ثم انطلقا، فأتى أبو سفيان مناخهما فأخذ من أبعاد بعيريهما شيئاً ففتته، فإذا فيه كسيرات النوى، فقال: «والله علائفُ يثرب». فرجع إلى أصحابه سريعاً فصرف وجهه عيره عن الطريق، وترك بدرًا ببسار، وانطلق حتى أسرع، فلما علم أنه قد أحرز عيره أرسل إلى نفيّر قريش، وكان قد بلغه مجيئهم ليحرزوا العير، وكانوا حينئذٍ بالبحفة، [فقال أبو سفيان]^(٢): «إنما خرجتم لتمنعوا عيركم ورجالكم وأموالكم، وقد نجّاهم الله تعالى فارجعوا»، فقال أبو جهل:

(١) في القاموس: الحاسوس: الجاسوس، أو بالحاء في الخير وبالجيم في الشر، والجس: المس باليد، وتفحص الأخبار، ومنه الجاسوس والجسيس لصاحب سر الشر اهـ. مختصراً.

(٢) ليست في الأصل، وإنما وضعناها ليستقيم الكلام.

«والله لا نرجع حتى نحضر بدرًا فنقيم عليه ثلاثة أيام، فلا بد أن ننحر الجزر، ونطعم الطعام، ونسقي الخمر، وتعزف علينا القيان -أي تضرب بالدفوف- وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا، فلا يزالون يهابوننا أبدًا بعدها». وأراد بنو هاشم الرجوع، فاشتد عليهم أبو جهل، وقال: «لا تفارقنا هذه العصابة حتى نرجع»، ثم لا يزالوا سائرين حتى نزلوا بالعدوة القصوى، قريبًا من الماء، ونزل رسول الله ﷺ بعيدًا من الماء بينه وبين الماء مسافة، فظمى المسلمون وأصابهم ضيق شديد، وأجنب^(١) غالبهم، فحزنوا حزنًا شديدًا وأشفقوا، وكان الوادي لنا كثير التراب، تدخل فيه الأقدام، فأمطرت السماء ببركة النبي ﷺ وأصحابه، وتلبدت الأرض، وزال غبارها وشدتها، وشربوا وملأوا الأسقية، وسقوا الركائب، واغتسلوا من الجنابة، وطابت نفوسهم، فذلك قوله تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ﴾ [الأنفال: ١١]، وأصاب قريشًا^(٢) منها ما لم يقدروا على أن يرتحلوا منه ويصلوا إلى الماء، فكان المطرُ نعمةً وقوةً للمؤمنين، وبلاءً ونقمةً للمشركين. وأصاب المسلمين تلك الليلة نعاسٌ شديد، وبات النبي ﷺ من بينهم يصلي تحت شجرة، وقد حصل النعاس لهم، وهو دليل على الطمأنينة، فلما أن طلع الفجر نادى رسولُ الله ﷺ: «الصلاةُ عبادَ الله»، فجاء الناس من تحت الشجر والجحف^(٣)، فصلى بهم رسول الله ﷺ، وحرّضَ على القتال في خطبةٍ خطبها، فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه: «أما بعد: فياني أحثكم على ما حثكم الله عليه...» إلى أن قال «... وإن الصبر في مواطن البأس مما يُفَرِّجُ الله به الهمَّ ويُنجي به من الغم».

ولما رأى رسولُ الله ﷺ قريشًا وقد أقبلت بالدروع الساترة، والجموع الوافرة، والأسلحة البارقة، قال: «اللهم إن هذه قريش قد أقبلت بخيلائها (أي بكبرها) وعُجبها وفخرها) تُجادلك، وتخالف أمرك، وتكذب رسolk، اللهم فنصرك الذي

(١) أجنب: أي صار جُنُبًا بخروج المني باحتلام أو غيره الموجب للغسل.

(٢) في الأصل «قريش» على أنها فاعل، والصحيح «قريشًا» لأنها مفعول.

(٣) قرون الفلاة ورؤوسها.

وعدتني به، أَنَجِزْهُ اللَّهُمَّ، أَمَرْتَنِي بِالثَّبَاتِ وَوَعَدْتَنِي إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ، وَإِنَّكَ لَا تُخَلْفُ الْمِيعَادَ».

وكان من حكمة الله تعالى أن جعل المسلمين قبل أن يلتحم القتال في أعين المشركين قليلاً استدراجاً لهم ليقدموا، ولما التحم القتال جعلهم في أعين المشركين كثيراً ليحصل لهم الرعب، وجعل الله المشركين عند التحام القتال في أعين المسلمين قليلاً، ليقوي جانبهم على مقاتلتهم، وأنزل الله تعالى: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِيَ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِيَ أَعْيُنِهِمْ﴾ [الأنفال: ٤٤] ومن ثم قال الله تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِتْنَتِ الَّذِينَ اتَّخَفْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَخْرَجَ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَهُمْ رَأْيَ الْعَيْنِ﴾ [آل عمران: ١٣] وحين رأى المسلمون نار القتال قد شبت عجبوا^(١) بالدعاء إلى الله تعالى، فأنزل الله تعالى عند ذلك: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال: ٩] (أي متتابعين)، فكان جبريل عليه السلام في خمسمائة ملك على الميمنة، وفيها أبو بكر رضي الله عنه، وميكائيل عليه السلام في خمسمائة على الميسرة، وفيها علي رضي الله عنه، في صُور الرجال، عليهم عمائم بيض وثياب بيض، قد أرخوا أذنانها بين أكتافهم، وعلى جبريل عليه السلام عمامة صفراء أرسلها من خلفه.

وعن عروة بن الزبير: كانت عمامة الزبير يوم بدر صفراء، فأمدّه الله تعالى بالملائكة؛ ألف مع جبريل وألف مع ميكائيل، وقيل أيضاً: أمدّه بألف مع إسرافيل فزید في الوعد بثلاثة آلاف لقوله تعالى: ﴿بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٥] فوقع الوعد بإكمالهم خمسة آلاف، وكان ذلك مُعلّقاً على شرط، وهو الصبر والتقوى عن حوز الغنائم، فلم يصبروا، ففات الإمداد مما زاد على الثلاثة آلاف، وقيل: كان الإمداد يوم بدر بالخمسة

(١) عجبوا بالدعاء: رفعوا أصواتهم.

آلاف، وإنما كان الملائكة شركاء لهم في بعض الفعل، ليكون الفعل منسوباً للنبي ﷺ ولأصحابه، وأن الملائكة مدد على عادة مدد الجيوش، رعايةً لصورة الأسباب التي أجزاها الله تعالى في عباده، وإلا فجبريل وحده قادر على أن يدفع الكفار بريشة من جناحه، وليها بهم العدو بعد ذلك، فاتضح أن الملائكة قاتلت يوم بدر، ولم تكن لتكثير السواد فقط^(١).

وعند ابتداء الحرب نادى منادي قريش: يا محمد أخرج لنا أكفأنا من قومنا، فقال النبي ﷺ: «قم يا عبيدة بن الحارث، وقم يا حمزة، وقم يا علي»، أو قال: «قوموا يا بني هاشم، فقاتلوا»، فلما قدم عبيدة بن الحارث وحمزة وعلي دُنا منهم، وقالوا: من أنتم؟ لأن هؤلاء الثلاثة كانوا ملتبسين لا يُعرفون من السلاح، قال عبيدة: عبيدة، وقال حمزة: حمزة، وقال عليّ: عليّ، قالوا: نعم أكفأ كرام، فبارز عبيدة بن الحارث: عتبة ابن ربيعة، وبارز حمزة: شيبة، وبارز عليّ الوليد، فأما حمزة فلم يمهل أن قتل شيبة، وأما علي فلم يمهل أن قتل الوليد، واختلف عبيدة وعتبة بينهما بضربتين كلاهما طعن صاحبه، وكرّ حمزة وعليّ بسيفيهما على عتبة فذففا^(٢) عليه، واحتملا صاحبهما فجرّاه إلى أصحابه، وأضجعوه إلى جنب موقعه ﷺ، فأفرشه رسول الله ﷺ قدمه الشريف، فوضع خده عليها، فقال له عبيدة: ألسنتُ شهيداً يا رسول الله؟ فقال له رسول الله ﷺ: أشهدُ أنك شهيد.

قيل: هذه أول مبارزة وقعت في الإسلام. وفي الصحيحين عن أبي ذرّ أنه كان يقسم قسمًا أن آية ﴿ هَذَا خِصْمَانِ أَخْصَمُوا فِي رَبِّهِمْ ﴾ [الحج: ١٩] نزلت في حمزة وصاحبيه يوم بدر.

(١) قال الربيع بن أنس: «كان الناس يعرفون قتلى الملائكة ممن قاتلوهم بضرب فوق الأعناق، وعلى البنان مثل سمة النار قد أحرق به. وعن ابن عباس: لم تقاتل الملائكة إلا يوم بدر. وكذلك روى ابن إسحاق: لم تضرب الملائكة في يوم سوى يوم بدر. وإنما كان نزولهم في غير بدر لتثبيت المؤمنين، لا للقتال.

(٢) قوله «فذففا عليه»: أي أسرعا قتله وتما عليه اهـ. (من هامش الأصل).

ثم تراحم الناس ودنا بعضهم من بعض، وقد كان عدل رسول الله ﷺ صفوف أصحابه بقدرح في يده (أي سهم)، فمرّ بسواد بن غزيرة (حليف بني النجار) وهو خارج من الصف فطعنه^(١) بالسيف في بطنه، وقال: استؤ يا سواد، فقال: يا رسول الله أوجعتني وقد بعثك الله بالحق والعدل، فأقذني عن نفسك (أي مكّني من القصاص من نفسك) فكشف رسول الله ﷺ عن نفسه، وقال: استقد: أي اقتصص، فاعتنقه وقبل بطنه، فقال: ما حملك على هذا يا سواد؟ فقال: يا رسول الله حضر ما ترى فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمسّ جلدي جلدك^(٢)، فدعا له ﷺ بخير.

ثم لما عدل الصفوف، قال لهم: «إن دنا القوم منكم فادفعوهم عنكم بالنبل، واستبقوا نبلكم: لا ترموهم على بُعد، (لأن النبل مع البعد يخطئ) ولا تسلّوا السيوف حتى يغشوكم» ثم رجع ﷺ إلى العريش يناشد ربّه ما وعده به من النصر، ويقول: «اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تُعبد في الأرض» وأبو بكر يقول: «دع بعض مناشدتك ربك؛ إن الله منجز لك ما وعدك» فكان المصطفى في مقام الخوف، وهو هنا أعلى، والصدّيق في مقام الرجاء، وهو هنا دونه.

ولما اصطف الناس للقتال رمي قطبة بن عامر حَجراً بين الصفين، وقال: لا أفرُّ إن فرَّ هذا الحجر.

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ يوم بدر: «قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض»، فقال عمير بن الحُمَام^(٣) -بضم الحاء المهملة وتخفيف الميم

(١) وكزه وكزة خفيفة.

(٢) من الإصابة لابن حجر: «سواد بن غزيرة الأنصاري: من بني عدي ابن النجار. هو الذي أسر خالد بن هشام المخزومي».

روى عبد الرزاق أن النبي ﷺ كان يتخطى بعرجون، فأصاب به سواد بن غزيرة الأنصاري، فقال: أقذني... وساق القصة ورواه البغوي أيضاً.

(٣) هو عمير بن الحُمَام بن الجموح بن زيد بن حرام بن كعب بن سلمة الأنصاري. كان أول قتيل في سبيل الله في الحرب، واتفقوا على أنه استشهد يوم بدر لا يوم أحد، كما زعم بعضهم اهـ. باختصار من الإصابة.

-ابن الجموح الأنصاري: بَخَ بَخَ (كلمة ثقّال لتعظيم الأمر والتعجب منه مع التنوين وعدمه) فقال رسول الله ﷺ: ما يحملك على قولك بخ بخ؟ قال: لا، والله يا رسول الله إلا رجاء أن أكون من أهلها؟ قال: فإنك من أهلها. قال: فأخرج تمراتٍ من جعبته فجعل يأكل منهن، ثم قال: «لئن أنا حيئتُ حتى آكلَ تمراتي هذه إنها لحياة طويلة»، فرمى بما كان معه من التمر، ثم قاتل حتى قُتل.

وكان رسول الله ﷺ آخى بينه وبين عبدة بن الحارث المطلبى، فقتلًا يوم بدر جميعًا.

وقال ابن إسحاق: قال رسول الله ﷺ يوم بدر: لا يقاتل أحد في هذا اليوم فيُقتل صابرًا محتسبًا، مقبلًا غير مدبر، إلا دخل الجنة؟ وكان عمير واقفًا في الصف بيده تمرات يأكلهن، فسمع ذلك فقال: «بخ بخ، ما بيني وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء» وألقى التمرات من يده، وأخذ السيف وقاتل القوم وهو يقول:

رَكُضًا إِلَى اللَّهِ بِغَيْرِ زَادٍ إِلَّا التَّقَى وَعَمَلِ الْمَعَادِ
والصبر في الله على الجهاد إِنَّ التَّقَى مِنْ أَعْظَمِ السَّدَادِ
وَحَيْرٌ مَا قَادَ إِلَى الرِّشَادِ وَكُلُّ حَيٍّ فَإِلَى نَفَادِ

ويعد تعديل الصفوف كان أوّل من خرج من المسلمين «مهجع» - بكسر الميم وإسكان الهاء فجيم مفتوحة فعين مهملة - مولى عمر بن الخطاب، فقتله عامر بن الحضرمي بسهم أرسله إليه، ف قيل: إنه أول من يُدعى من شهداء هذه الأمة، وإنه ﷺ قال يومئذ: «مهجع سيد الشهداء»^(١).

وقاتل في ذلك اليوم المؤمنون، ثم أخذ رسول الله ﷺ حفنةً من الحصباء ناولها له عليّ رضي الله عنه، فاستقبل بها قريشًا، ثم قال: «شاهت وجوه القوم» - أي قبحت

(١) مهجع العكي - مولى عمر بن الخطاب - أصله من عكّ، فأصابه سباء، فمنّ عليه عمر فأعتقه. كان من السابقين إلى الإسلام. شهد بدرًا واستشهد بها. وكان ممن نزل فيهم قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الأنعام: ٥٢].

وذلت - ثم نفخهم بها فلم يبق من المشركين رجل إلا ملئت عينه وأنفه وفمه، فلا يدري أين يتوجه، يعالج التراب لينزعه من عينه، وقال لأصحابه: «شدوا عليهم» فكانت الهزيمة على المشركين، وردفهم المسلمون يقتلون ويأسرون، وأنزل الله ﷻ تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَنْ يَكُنَّ اللَّهُ رَمِيًّا﴾ [الأنفال: ١٧].

وقد ورد عن عمر رضي الله عنه أنه لما كان يوم بدر، وانهزمت قريش، نظرت إلى رسول الله ﷺ في آثارهم مصلاً السيف يقول: ﴿سَيَهْزُمُ الْجَمْعُ وَيُؤْلُونَ الدُّبْرَ﴾. [القمر: ٤٥].

وكان من جملة من خرج من المشركين يوم بدر: عبد الرحمن بن أبي بكر، وكان اسمه قبل الإسلام عبد الكعبة، فسماه النبي ﷺ عبد الرحمن، وكان من أشجع قريش، وأسن ولد أبيه، فلم أسلم في هدنة الحديبية وهاجر إلى المدينة قال لأبيه: لقد هدفت^(١) لي يوم بدر مراراً فأعرضت عنك، فقال أبو بكر: لو هدفت لي لم أعرض عنك. وكان حرسه ﷺ ببدر: سعد بن معاذ، وذكوان بن عبد الله، ويوم أحد حرسه: محمد ابن مسلمة الأنصاري. وحرسه يوم الخندق: الزبير بن العوام، وسعد بن أبي وقاص، وعباد بن بشر. وحرسه ليلة خيبر: أبو أيوب الأنصاري. وحرسه بلال بوادي القرى^(٢)، فلما أنزل الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧] ترك الحرس.

وفي يوم بدر قتل أبو عبيدة بن الجراح أباه وكان مشركاً، وأنزل الله تعالى: ﴿لَا يَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ...﴾ الآية [المجادلة: ٢٢].

وقال رسول الله ﷺ: «من له علم بنوفل بن خويلد؟ فقال علي: أنا قتلت. فكبر رسول الله ﷺ وقال: الحمد لله الذي أجاب دعوتي فيه؛ فإنه لما التقى الصفان نادي نوفل بصوت رفيع: يا معشر قريش: اليوم يوم الرفعة والعلا. فقال رسول الله ﷻ:

(١) أي كنت هدفاً لي أستطيع قتلك.

(٢) وادي بين المدينة والشام، من أعمال المدينة، كثير القرى.

«اللهم اكفني نوفل بن خويلد».

ثم أمر رسول الله ﷺ بأبي جهل أن يلتمس في القتلى، وقال: إن خفي عليكم انظروا إلى أثر جرح في ركبته، فإني ازدحمت يوماً وهو مائدة لعبد الله بن جدعان، ونحن غلمان، وكنت أسن منه، فدفعته فوق علي ركبته، فجحش جحشاً على إحديهما (أي خدش خدشاً لم يزل أثره به) فحمل عبد الله بن مسعود رأس أبي جهل بن هشام إليه ﷺ، فسجد شكرًا لله تعالى؛ لراحة المسلمين من هذا الفاجر، وكان يكني أبا الحكم فكناه النبي ﷺ أبا جهل، وهو عمرو بن هشام بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم، وأمه أسماء بنت مخزومة^(١) بن نهشل.

استطرد: كان المغيرة بن عبد الله بن المعرض: الملقب بالأقيشر، تزوج بابنة عم له يقال لها الرباب، على أربعة آلاف درهم، فأتى قومَه فسألهم فلم يعطوه شيئاً، فأتى ابنَ رأس البغل، وهو دهقان الصين وكان مجوسياً فسأله فأعطاه الصداق كاملاً، فقال:

كفاني المجوسيُّ بمهر الرباب	فدى للمجوسي خال وعم
شهدتُ عليك بطيب الأروم	فإنك بحرٌّ جواد خضم
وإنك سيدُ أهل الجحيم	إذا ما ترديت في من ظلم
تُجاورُ هامانَ في قعرها	وفرعونَ والمكتنى بالحكم ^(٢)

فقال المجوسي: ويحك سألت قومك فلم يعطوك شيئاً، وجئتني فأعطيتك فجزيتني هذا القول! فقال: أما ترضى أن جعلتك مع الملوك وفوق أبي جهل!.

* * *

واستشهد من المسلمين أربعة عشر رجلاً؛ ستة من المهاجرين، وثمانية من الأنصار، وقتل من المشركين سبعون، وأسر سبعون، وانهزم الباقيون، وغنم عليه الصلاة والسلام

(١) هي أسماء بنت مخزومة (في الأصل: «مخزومة»).

(٢) يقصد أبا جهل لعنه الله.

متاعهم، وكان من جملة الأسرى: العباس عمُّ رسول الله ﷺ.

ولما انقضى القتال أمر النبي ﷺ بسحب القتلى إلى القليب^(١)، وكانوا أربعة وعشرين رجلاً من صناديد قريش^(*)، فُقدوا فيه، ثم وقف رسول الله ﷺ فقال: يا أهل القليب، بُسَّ عشيرة النبي كنتم لنبيكم، كذبتُموني وصدَّقني الناس، وأخرجتموني وآواني الناس، وقاتلتُموني ونصرني الناس، يا أهل القليب هل وجدتم ما وعد ربُّكم حقًّا؟ فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقًّا. فقال له أصحابه: أتكلَّم قومًا موتى؟ قال: لقد علموا أنَّ ما وعدهم ربهم حقٌّ.

وعاد النبي ﷺ إلى المدينة، وكانت غيبته تسعة عشر يومًا، وأرسل زيد بن حارثة بشيرًا، فوصل إلى المدينة وقد نفضوا أيديهم من تراب رقية بنت النبي عليه الصلاة والسلام، وكان عثمان تخلف في المدينة بأمره ﷺ لسببها. وفيها^(٢) هلك أبو لهب.

وكانت وقعة بدر المذكورة صبيحة الجمعة لسبع عشرة ليلة خلت من رمضان، في السنة الثانية من الهجرة.

مقتل النضر ورثاء أخته له : لما وصل رسول الله ﷺ إلى الصفراء راجعًا من بدر، وأمر عليًّا بضرب عنق النضر بن علقمة بن كلدة بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصي القرشي العبدري، وكان شديد العداوة للنبي ﷺ، وإذا تلا ﷺ قرآنًا، يقول لقريش: ما يأتيكم محمد إلا بأساطير الأولين. فلما قُتل النضر أنشدت أخته النبي ﷺ - واسمها قتيلة - هذه الأبيات:

يا راکبًا إنَّ الأثیلَ مَظَنَّةٌ من صبح غادية وأنت موفقُ
أبلغ بها مَيتًا بأن تحيَّةً ما إن تزال بها النجائب تعنقُ

(١) أي البئر.

(*) واضح أنهم لم يسحبوا كلَّ القتلى، فقد سبق أن عددهم كان سبعين رجلًا.

(٢) أي في السنة الثانية.

مَنِّي إِلَيْهِ وَعَبْرَةً مَسْفُوحَةً جَادَتْ بِوَافِكِهَا وَأُخْرَى تَخْنُقُ
هَلْ يَسْمَعُنِي النَّضْرُ إِنْ نَادَيْتُهُ إِنْ كَانَ يَسْمَعُ مَيِّتٌ لَا يَنْطُقُ
ظَلَّتْ سِوْفُ بَنِي أَبِيهِ تَنْوُشُهُ لَهُ أَرْحَامٌ هُنَاكَ تَشَقُّقُ
قَسْرًا يُقَادُ إِلَى الْمَنِيَةِ مَتَبَعًا رَسَفَ الْمُقِيدُ وَهُوَ عَانٌ مُوثَقُ
أَمَحَمَّدٌ، وَلَأَنْتَ صَنُوءُ نَجِيبَةٍ فِي قَوْمِهَا وَالْفَحْلُ فَحْلٌ مَعْرَقُ
مَا كَانَ ضَرْكَ لَوْ مَنَنْتَ وَرَبَّمَا مَنْ الْفَتَى وَهُوَ الْمَغِيْطُ الْمَحْنَقُ
فَالنَّضْرُ أَقْرَبُ مَنْ تَرَكْتَ (*) وَسَيْلَةً وَأَحَقُّهُمْ إِنْ كَانَ عُنُقٌ يُعْتَقُ
أَوْ كُنْتَ قَابِلَ فَدِيَةٍ فَلْيُفْدَيْنِ بِأَعَزِّ مَا يَغْلَى بِهِ مِنْ يُنْفَقُ
ذَكَرَ أَنَّهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «لَوْ سَمِعْتُ شَعْرَهَا قَبْلَ ذَلِكَ لَمَا قَتَلْتُهَا».

وقيل: إن الذي أمر بقتله المقداد بن الأسود، وقال بعضهم: إن الزبير بن بكار قال: سمعتُ بعض أهل العلم يغمز في أبيات قتيلة بنت الحارث، ويقول إنها مصنوعة. اهـ. وقال بعضهم: الصحيح أن قتيلة ابنة النضر هي جدة الثريا ابنة علي بن عبد الله بن الحارث الموصوفة بالجمال، وهي صاحبة عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة بن المغيرة ابن عمرو بن مخزوم - الشاعر المشهور - لم يكن في قريش أشعر منه، وكان يتغزل في شعره بالثريا المذكورة، فتزوجها سهيل بن عبد الرحمن الزهري، ونقلها إلى قصره، فقال عمر المذكور في زواجهما، موريًا بالثريا وسهيل النجمين المعروفين ببنتين يُضرب بهما المثل في تعذر الاجتماع:

أَيُّهَا الْمُنْكِحُ الثُّرَيَّا سُهَيْلًا عَمْرُكَ اللَّهُ كَيْفَ يَلْتَقِيَانِ؟!
هِيَ شَامِيَّةٌ إِذَا مَا اسْتَقَلَّتْ وَسُهَيْلٌ إِذَا اسْتَقَلَّ يَمَانِي
ثم بعد قتل النضر بن الحارث أمر بضرب عُنُقِ عَقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطِ بْنِ أُمِيَّة.

(*) الرواية المشهورة: أقرب من قتلت قرابة.

ثم بعث رسول الله ﷺ عبد الله بن رواحة بشيرًا لأهل العالية - محل قريب من المدينة على عدة أميال - وزيد بن حارثة بشيرًا لأهل السافلة بما فتح الله على رسوله ﷺ والمسلمين، فجعل عبد الله بن رواحة يقول في أهل العالية: يا معشر الأنصار، أبشروا بسلامة رسول الله ﷺ وقتل المشركين وأسرهم، ونادى زيد بن حارثة في أهل السافلة بمثل ذلك، ويقولون: قُتل فلان وفلان، وأسر فلان وفلان من أشرف قريش. وصار عدو الله كعب بن الأشرف^(١) يكذبهما ويقول: إن كان محمد قتل هؤلاء القوم، فبطن الأرض خير من ظهرها.

إسلام عمير بن وهب:

قال ابن إسحاق: وجلس عمير بن وهب الجمحي مع صفوان بن أمية بعد مصاب قريش في بدر تجاه الكعبة، فتذاكرا قومهما وما نزل بهما من القتل والأسر، وكان عمير ابن وهب ممن يؤذي رسول الله ﷺ وأصحابه بمكة قبل الهجرة، وكان ابنه وهب ابن عمير في أسارى بدر، فقال صفوان: والله ما في الحياة بعد اليوم خير، فقال له عمير: صدقت، أما والله لولا ديني عليّ ليس له عندي قضاء، وعيال أخشى عليهم الضيعة بعدي لركبتُ إلى محمد حتى أعمل الحيلة وأقتله وأفتكُ ابني من أيديهم. وكان عمير شجاعًا، وكان صفوان ذا مال كثير، فانتهاز الفرصة صفوان، وقال له: أما دينك فعليّ قضاؤه، وأما عيالك فهم مع عيالي أواسيهم ما بقوا، ولا يكون في يدي شيء فيحرّمون منه. فعاهده عمير على ذلك، وقال: اكتم شأني وشأنك، فقال صفوان: اكتم ذلك. ثم إن عميرًا شحذ سيفه وسَمّمه، وانطلق حتى قدم المدينة، فبينما عمر ابن الخطاب - رضي الله تعالى عنه - في نفر من المسلمين يتحدثون عن يوم بدر، وما أكرمهم الله تعالى فيه، وما فعل بأعدائهم، ويشكرون الله تعالى، إذ نظر عمر إلى عمير بن وهب حين أناخ على باب المسجد ناقته متوشحًا سيفه، فقال: هذا عدو الله

(١) هو أعدى أعداء رسول الله ﷺ من اليهود.

عُمير بن وهب ما جاء إلا بشرّ. ثم دخل عمر على رسول الله ﷺ المسجد فقال: يا نبيّ الله، هذا عدو الله عمير بن وهب، قد جاء متوشحاً سيفه، قال: أدخله عليّ. فأقبل عمر بن الخطاب -رضي الله تعالى عنه- إلى عمير، فأخذ بحمائل سيفه، وقال لرجال ممن كانوا معه من الأنصار: ادخلوا إلى رسول الله ﷺ فاجلسوا عنده، واحذروا عليه من هذا الخبيث؛ فإنه غير مأمون. ثم دخل على رسول الله ﷺ، فلما رآه رسول الله ﷺ وعمر أخذ بحمائل سيفه في عنقه، قال: أرسله يا عمر، ادنُ يا عمير، فدنا عمير، وقال للنبي ﷺ: أنعم صباحاً - وكانت هذه تحية العرب في الجاهلية - فقال رسول الله ﷺ: أكرّمنا الله بتحية خير من تحيتك يا عمير؛ أكرّمنا بالسلام تحية أهل الجنة، ما جاء بك عمير؟ قال: جئت لهذا الأسير الذي عندكم، قال: فما للسيف في عنقك؟ قال: قبّحها الله من سيوف، وهل أغنت شيئاً، قال: اصدقني يا عمير، ما الذي جئت له؟ قال: ما جئت إلا لذلك، قال: يا عمير قعدت أنت وصفوان بن أمية تجاه الكعبة فذكرتما أصحاب القليب من قريش، ثم قلت: لولا دينٌ عليّ وعيال لي لخرجتُ حتى أقتل محمداً، فتحمل لك صفوان بدينك وعيالك على أن تقتلني له، والله تعالى حائل بينك وبين ذلك. قال عمير: أشهد أنك رسول الله، قد كنا يا رسول الله نكذبك بما يأتي من خبر السماء وما ينزل عليك من الوحي، وهذا أمر لم يعلمه أحد ولم يحضره إلا أنا وصفوان، والله إني لأعلم أنه ما أتاك إلا من الله تعالى، فالحمد لله الذي هداني للإسلام، وساقني هذا المساق. ثم شهد شهادة الحق -رضي الله تعالى عنه- فقال رسول الله ﷺ: فقّهوا أخاكم في دينه، وأقرئوه القرآن وأطلقوا له أسيره، ففعلوا ذلك، ثم قال: يا رسول الله إني كنت جاهداً في إطفاء نور الله شديد الأذى لمن كان على دين الله، وأنا أحب أن تأذن لي فأقدم مكة فأدعوهم إلى الله تعالى -إلى الإسلام- لعل الله يهديهم؟ فأذن له رسول الله ﷺ. فلحق^(١) بمكة وأظهر الإسلام، وأسلم ولده أيضاً -رضي الله تعالى عنهما.

(١) في الأصل فالحق، وهو خطأ.

قال ابن إسحاق: وأسلم بعد فك الأسر جماعة منهم: أبو وداعة السهمي، وعبد الله ابن خلف الجمحي، ووهب بن عمير الجمحي، وقيس بن السائب المخزومي، وأسلم السائب بن عبيد، وهو الأب الخامس للإمام الشافعي - رضي الله عنه - وكان صاحب راية بني هاشم يوم بدر من كفار قريش، وكان صاحب الراية أبو سفيان، لكن لغيبته في العير حملها السائب لشرفه، وأما الأب الرابع، فهو شافع بن السائب الذي ينسب إليه الإمام الشافعي رضي الله عنه، لقي النبي ﷺ وهو مترعر فأسلم.

فإن الإمام الشافعي - رضي الله عنه - هو محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان ابن شافع بن السائب بن عبيد بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب بن عبد مناف جد النبي ﷺ، فيجتمع الإمام الشافعي - رضي الله تعالى عنه - مع النبي ﷺ في جد الإمام الشافعي التاسع الذي هو جد النبي ﷺ الثالث، وهو عبد مناف.

ولما قدم عليه الصلاة والسلام المدينة وكانت وقعة بدر، وأُسر فيها من أسر من أهل مكة، قال عليه الصلاة والسلام لأهل بدر: «إن بكم عية^(١)، فلا يفلت منهم - يعني الأسارى - أحدٌ إلا بفداء أو ضربة عنق»، وقال: «استوصوا بهم خيراً». وكان فداؤهم أربعين أوقية عن كل إنسان، إلا العباس عم النبي ﷺ؛ فإن فدائه كان مائة أوقية، فكان من لا مال له من الأسارى يُقبل منه أن يعلم عشرةً من غلمان أهل المدينة الكتابة، فإذا حذقوه كان فدائه، فيومئذ تعلم زيد بن ثابت الكتابة في جماعة من الأنصار. ومن هنا تعلم أن النبي ﷺ كان حريصاً على تعليم^(٢) الكتابة التي هي التمدن الأولي للنوع البشري، وسيأتي بيان الوظائف والتعليمات التي كانت جارية في عهده ﷺ.

وقد منَّ النبي ﷺ على نفر من أسراء بدر، وخلق سبيلهم من غير شيء، ولما طلب ﷺ من العباس أن يفدي نفسه، قال: علام يؤخذ مني الفداء، وقد كنتُ أسلمت أنا

(١) أي فقر.

(٢) أي حريصاً على أن يتعلم المسلمون الكتابة والقراءة. وفي الأصل الذي راجعنا عليه «تعلم» وهو خطأ واضح، وذلك أن النبي ﷺ لو كان حريصاً على تعلم القراءة لأعطى العدو سلاحاً للطنع في الرسالة، نسأل الله العصمة من الزلل، وهو خطأ طباعي لا محالة.

وأم الفضل وبقية آل بيتي، ولكن القوم أكرهوني على الخروج؟ فقال النبي ﷺ: كان ظاهرُ أمرِك أنك كنت علينا، ولكنَّ الله تعالى يجزيك عما أخذ منك. وأنزل الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ قُلُومٌ لِّمَن فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَىٰ إِن يَظْلِمَ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُّؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾^(١) [الأنفال: ٧٠]، وقد أعطى الله العباسَ خيراً مما أخذ منه، وفي هذه الآية بشرى عظيمة للعباس؛ إذ أخذ أكثر مما أعطى، وغُفر له ما أخطأ، ولما نزلت قال العباس: يا رسول الله وددتُ أنك أخذت مني أضعافاً.

وفي البخاري أنه أتى بمال من البحرين (أي خراجها وهو أولُ خراج حُمِل إلى النبي ﷺ وكان مائة ألف، فأمر بصبه في المسجد. وكان أكثر مالٍ أتى به: فخرج إلى المسجد ولم يلتفت إليه، فلما قضى الصلاة جاء فجلس إليه فما كان يرى أحداً إلا أعطاه، إذ جاءه العباس فسأله، فقال: خذ، فحثا في ثوبه، ثم ذهب يُقلِّه فلم يستطع، فقال: يا رسول الله مُر بعضهم يرفعه إليّ، فقال: لا، فقال: ارفعه أنت عليّ، فقال: لا. فنثر منه ثم ذهب يُقلِّه فلم يستطع، فقال كالأول، فقال: لا. ثم نثر منه، ثم احتمله، فأتبعه ﷺ بصره عجباً من حرصه.

وذكر السهمي في «الفضائل» أن أبا رافع لما بشر النبي ﷺ بإسلام العباس أعتقه. ولما فدى العباس نفسه، ورجع إلى مكة وأظهر إسلامه، وجمع أمواله، وهاجر

(١) قال ابن كثير: قال محمد بن إسحق: حدثني العباس بن مغل عن بعض أهله عن عبد الله بن عباس -رضي الله عنهما- أن رسول الله ﷺ قال يوم بدر: «إني قد عرفت أن أناساً من بني هاشم وغيرهم قد أخرجوا كرهاً، لا حاجة لهم بقتالنا، فمن لقي منكم أحداً منهم فلا يقتله، ومن لقي أبا البختری بن هشام فلا يقتله، ومن لقي العباس بن عبد المطلب فلا يقتله، فإنما أخرج مستكرهاً».

فقال أبو حذيفة بن عتبة: أنقتل آباءنا وأبناءنا وإخواننا وعشائرنا وترك العباس؟! والله لئن لقيته لألجمته بالسيف. فبلغت رسول الله ﷺ فقال لعمر بن الخطاب: يا أبا حفص، (قال عمر: والله إنه لأول يوم كناني فيه رسول الله ﷺ أبا حفص) أ يضرب وجه عم رسول الله ﷺ بالسيف؟! فقال عمر: يا رسول الله ائذن لي فأضرب عنقه، فوالله لقد نافق. فكان أبو حذيفة يقول بعد ذلك: والله ما آمنُ من تلك الكلمة التي قلتُ، ولا أزال منها خائفاً إلا أن يكفرها الله تعالى عني بشهادة. فقُتل -رضي الله عنه- يوم اليمامة شهيداً.

انظر تفسير ابن كثير بتوسع عند تفسير قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ قُلُومٌ لِّمَن فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَىٰ إِن يَظْلِمَ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُّؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنفال: ٧٠].

إلى المدينة، ولازمه ﷺ في غزواته، كان ﷺ يكرمه ويعظمه^(١)، ووصفه عليه الصلاة والسلام فقال: «أجود الناس كفًّا، وأحناء عليهم»، وروى السهمي من حديث ابن عباس أنه عليه الصلاة والسلام قال: «ألا أبشرك يا عم؟ قال: بلى بأبي أنت وأمي. فقال عليه الصلاة والسلام: «إن من ذريتك الأصفياء، وعترتك الخلفاء»^(٢).

وكان الذي أسر العباس أبو اليسر، واسمه كعب بن عمرو، وكان قصيرًا دميماً، وكان العباس عظيم الخلق طويل القامة من مقبلي الظعن -يعني أنه كان يدرك فم الظعينة وهي راكبة على البعير، وهو على قدميه في الأرض.

وفي مُسند البزار: قيل للعباس: كيف أسرك أبو اليسر ولو أخذته بكفك لوسعته؟! فقال: ما هو إلا أن لقيته فظهر في عيني كالخدمة -والخدمة جبل حول مكة- وذكر أبو عمر: أن رسول الله ﷺ قال: «لقد أعانك عليه مَلَكٌ كريم».

ولما فدى العباس نفسه وابن أخيه عقيل بن أبي طالب قال لرسول الله ﷺ: لقد تركتني أتكفف قريشاً فقيراً معدماً، فقال له رسول الله ﷺ: فأين ما دفعته إلى أم الفضل وقت خروجك من مكة وقلت لها: ما أدري ما يصيبني، فإن حدث بي حادث فهو لك ولعبد الله وعبيد الله والفضل وقثم؟ فقال العباس: وما يدريك يا ابن أخي؟ قال: أخبرني به ربي، فقال العباس: أشهد أنك صادق، وأشهد أن لا إله إلا الله وأنت عبده ورسوله والله لم يطلع عليه أحد إلا الله ولقد دفعته إليها في سواد الليل، ولقد كنت مرتاباً في أمرك، فأما إذ أخبرتني بذلك فلا ريب. اهـ.

(١) كان النبي ﷺ يقول: «العباس مني وأنا منه» رواه الترمذي والحاكم عن ابن عباس، «العباس عم رسول الله ﷺ وإن عم الرجل صنو أبيه» رواه الترمذي.

وروى ابن عساكر عن علي: «العباس عمي وصنو أبي فمن شاء فليباه بأبيه». وقد ذكر له محب الدين الطبري فصلاً خاصاً به في كتابه «ذخائر العقبى» وهو فصل ممتع، فانظروا.

(٢) عن ابن عباس قال: خرج رسول الله ﷺ إلى المسجد فوجد العباس بن عبد المطلب ساجداً، فوقف حتى رفع رأسه، فلما انتقل من صلاته قال ﷺ: «إن من ذريتك الأصفياء، ومن عترتك الخلفاء» (ذكره صاحب ذخائر العقبى) محب الدين الطبري -رحمه الله.

وأم الفضل هذه «لبابة الكبرى» بنت الحارث الهلالية، أخت ميمونة زوج النبي ﷺ، وأختها «لبابة الصغرى» أم خالد بن الوليد، وولدت أم الفضل للعباس سبعة نجباء: عبد الله بن عباس صاحب التفسير الذي قال فيه عليه الصلاة والسلام: «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل». وإخوته الستة: عبيد الله، وعبد الرحمن، والفضل، وقثم، ومعبد، وكثير، (واختلف في كثير فقيل: إن أمه رومية)، وأختهم أم حبيب.

وفي أم الفضل يقول الشاعر:

ما ولدت نجيةً من فحلٍ بجبلٍ نعرفه وسَهْلٍ
كسبعةٍ من بطنِ أم الفضل أكرم بها من كهلةٍ وكهلٍ
عم النبي المصطفى ذي الفضل وخاتم الرسل وخير الرسل

وكان له أيضاً سوى هؤلاء ثلاثة من غير أم الفضل: عون، والحارث، وتمام، وكان أصغرهم تمام، وأمّه رومية تسمى «سبأ» ويقال شقيقه «كثير» المتقدم الذكر، وكان العباس يحمل «تماماً» هذا ويقول:

تَمُّوا بِتَمَّامٍ فَصَارُوا عَشْرَهُ يَا رَبِّ فَاجْعَلْهُمْ كَرَامًا بَرَرَهُ
واجعل لهم ذِكْرًا وَأَنْمِ الثَّمَرَهُ

وقد أجاب الله دعاء العباس في بنيه الأكياس، كانوا كما أراد أبوهم واشتهى، كلهم له رواية ونهى. ومع ذلك فيقال: ما رؤيت قبوراً أشد تباعداً بعضها من بعض من قبور بني العباس بن عبد المطلب؛ ولدتهم أمهم أم الفضل في دار واحدة، استشهد الفضل بأجنادين، ومات معبد وعبد الرحمن بإفريقية، وتوفي عبد الله بالطائف، وعبيد الله باليمن، وقثم بسمرقند، وكثير وأمّه سبأ المذكورة أخذته الذبحة بينبع - رضي الله عنهم جميعاً.

وخرّج محمد بن يزيد في «الكامل» أن العباس كان إلى منكب عبد المطلب،

وكان عبد الله بن عباس إلى منكب العباس، وكان علي بن عبد الله إلى منكب أبيه عبد الله. وطاف عليّ هذا بالبيت، وهناك عجوز قديمة، وعليّ قد فرّع^(١) الناس كأنه راكب والناس مشاة، فقالت: من هذا الذي فرع الناس؟! فقيل: هو علي بن عبد الله ابن العباس، فقالت: لا إله إلا الله، إن الناس ليرذلون^(٢)؛ عهدي بالعباس وهو يطوف بالبيت كأنه قرطاس أبيض. انتهى.

وقال بعضهم: أدرك الإسلام من العرب عشرة أنفار طوال جدًّا، منهم عبادة بن الصامت.

ومن جملة الأسارى أيضًا نوفل بن الحارث بن عبد المطلب، تأخر إسلامه إلى عام الخندق، وقيل: بل أسلم حين أُسر، وذلك أن رسول الله ﷺ قال له: افد نفسك بأرماحك التي بجدة، قال: والله ما علم أحد أن لي بجدة أرماحًا غير الله، أشهد أنك رسول الله. ثم شهد معه حينئذٍ، وأعانه عند الخروج إليها بثلاثة آلاف رمح، فقال رسول الله ﷺ: كاني أنظر إلى أرماحك هذه تقصف ظهور المشركين.

توفي نوفل بالمدينة سنة خمس عشرة، وصلى عليه عمر بن الخطاب -رضي الله تعالى عنهما.

وقيل: إن العباس أسلم قبل وقعة بدر، وكان يُخفي إسلامه لما طلب منه ﷺ أن يفدي نفسه، قال: علام يؤخذ مني الفداء وقد كنت أسلمت أنا وأم الفضل وبقيّة آل بيتي، ولكن القوم أكرهوني على الخروج^(٣)؟!، وقال النبي ﷺ: كان ظاهر أمرك أنك كنت علينا، ولكن الله تعالى يجزيك على ما أخذ منك، وأنزل الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّمَن فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَىٰ إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا ۖ﴾ [الأنفال: ٧٠] ولما نزلت قال العباس: يا رسول الله لوددت أنك كنت أخذت مني أضعافًا، والمأخوذ منه مائة

(١) أي فاقهم طولًا.

(٢) هو كناية عن أن أفاضل الناس يذهبون ويبقى الأقل فضلًا.

(٣) أي أنه لم يأت محاربًا، وإنما جاء مكرهاً.

أوقية من الذهب، كما سبق آنفاً.

وقد مَنَّ النبي ﷺ على نفر من أسراء بدر، وخلي سبيلهم من غير شيء، وفدى نفرًا كالعباس -رضي الله تعالى عنه-. ولما فدى العباس نفسه رجع إلى مكة وأظهر إسلامه، وجمع أمواله وهاجر إلى المدينة، ولازمه ﷺ في غزواته، وكان النبي ﷺ يعظمه، وكانت الصحابة تعظمه وتقدمه وتشاوره، وتأخذ برأيه، ولما قيل له: أيما أكبر أنت أو النبي ﷺ؟ قال: هو أكبر مني، وأنا وُلدت قبله^(١).

قال ابن إسحاق: ولما بلغ النجاشي نصرته النبي ﷺ ببدر فرح فرحًا شديدًا، قال جعفر بن أبي طالب -رضي الله عنه- وكان جعفر إذ ذاك بأرض الحبشة: فأرسل إليّ النجاشي وإلى أصحابي ذات يوم، فدخلنا عنده فوجدناه جالسًا على التراب لباسًا أثوابًا خَلَقَةً، فقال: إِنِّي أَبَشِّرُكُمْ بِنَا يَسْرُكُمْ، إنه قد جاءنا من نحو أرضكم عينٌ لي، فأخبرني أن رسول الله ﷺ مع أعدائه بمحلٍّ يقال له بدر، فكانت النصره لرسول الله ﷺ، فقال له جعفر: ما لك جالسٌ على التراب وعليك هذه الثياب؟ قال: «إنا نجد فيما أنزل الله تعالى على عيسى عليه السلام أن حقًا على عباد الله تعالى أن يُحَدِّثُوا له تواضعًا إذا أُحْدِثَ لهم نعمةً».

قال: ولما أوقع الله تعالى بالمشركين يوم بدر، واستأصل رؤساءهم قالوا: إن ثأرنا بأرض الحبشة، فلنرسل إلى ملكها ليدفع إلينا مَنْ عنده من أتباع محمد فنقتلهم بمن قُتل منا. فأرسلوا عمرو بن العاص، وعبد الله بن ربيعة -رضي الله تعالى عنهما، (فإنهما أسلما بعد ذلك)، ومعهما طائفة من كفار قريش إلى النجاشي ليدفع إليهما مَنْ عنده من المسلمين، وأرسلوا معهما هدايا وتحفًا للنجاشي، فلما وصلا إليه ردّهما خائبين، ولما بلغ ﷺ ذلك بعثَ إلى النجاشي عمرو بن أمية الضمري -رضي الله تعالى عنه- بكتاب يوصيه فيه على المسلمين الذين عنده بالحبشة.

(١) في هذا اللفظ من الآداب ما فيه.

وقد سبق التنويه إلى ذلك (في الفصل الثاني من الباب الثاني في الهجرتين إلى الحبشة).

وسيأتي الكلام على ذلك في قدوم جعفر من الحبشة في غزوة خيبر.

ويقال: إن عمرو بن العاص أسلم حينئذ على يد النجاشي، ولهذا يُلغز، ويقال: من هو الصحابي الذي أسلم على يد تابعي؟ ومنشأ هذا ما قاله بعض أهل السير حكايةً عن عمرو بن العاص عن نفسه من أنه قال: لما انصرفنا مع الأحزاب عن الخندق، جمعتُ رجالاً من قريش كانوا يرون رأيي ويسمعون مني، فقلت لهم: تعلمون والله إنني أرى أمر محمد يعلو الأمور علواً منكراً، وإنني قد رأيت أمراً، فما ترون فيه؟ قالوا: وماذا رأيت؟ قال: رأيت أن نلحق بالنجاشي فنكون عنده، فإن ظهر محمد على قومنا كنا عند النجاشي، فإننا أن نكون تحت يديه أحب إلينا أن نكون تحت يد محمد، وإن ظهر قومنا فتحن من قد عرفوا، فلن يأتينا منهم إلا خير، قالوا: إن هذا الرأي، قلت: فاجمعوا ما نُهدي له، وكان أحب ما يهدي إليه من أرضنا الأدم^(١)، فجمعنا له أدماً كثيراً، ثم خرجنا حتى قدمنا عليه، فوالله إننا لعنده إذ جاءه عمرو بن أمية الضمري، وكان رسول الله ﷺ قد بعثه إليه في شأن جعفر وأصحابه، قال: فدخل إليه ثم خرج من عنده، قال: فقلت لأصحابي: هذا عمرو بن أمية الضمري، لو قد دخلتُ على النجاشي وسألته إياه فأعطانيه فضربتُ عنقه، فإذا فعلتُ ذلك رأيت قريشاً أني قد أجزأت عنها حين قتلت رسول محمد. قال: فدخلت عليه فسجدتُ له كما كنت أصنع، فقال: مرحباً بصديقي، أهديتُ إليّ من بلادك شيئاً؟ قال: قلت: نعم أيها الملك، قد أهديت لك أدماً كثيراً، قال: ثم قرّبه إليه فأعجبه واشتراه، ثم قلت: أيها الملك، إنني قد رأيت رجلاً خرج من عندك، وهو رسول رجل عدوّ لنا فأعطينيه لأقتله، فإنه قد أصاب من أشرافنا وخيارنا. قال: فغضب، ثم مدّ يده فضرب به أنفه ضربةً ظننت أنه قد كسره، فلو

(١) الأدم: هو ما يُصلح للطعام ويطيبه.

انشقت لي الأرض لدخلت فيها فرقاً^(١) منه، ثم قلت له: أيها الملك، والله لو ظننت أنك تكره هذا ما سألتك، قال: أتسألني أن أعطيك رسول رجل يأتيه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى عليه السلام لتقتله؟! قال: قلت: أيها الملك، أأعزلك هو؟ قال: ويحك يا عمرو، أطعني واتبعه؛ فإنه والله لعلى الحق، وليظهرن على من خالفه، كما ظهر موسى على فرعون وجنوده، قال: قلت: أفتبايعني له على الإسلام؟ قال: نعم. فبسط يده فبايعته على الإسلام، ثم خرجت إلى أصحابي وقد حال رأيي عما كان عليه، وكنمت أصحابي إسلامي، ثم خرجت عامداً إلى رسول الله ﷺ، لأسلم، فلقيت خالد ابن الوليد، وذلك قبيل الفتح، وهو مقبل من مكة فقلت: أين يا أبا سليمان؟ قال: والله لقد استقام الميسم^(٢)، وإن الرجل لنبي، أذهب والله أسلم، فحتى متى؟ قال: قلت: والله ما جئت إلا لأسلم، قال: فقدمنا المدينة على رسول الله ﷺ، فتقدم خالد بن الوليد فأسلم وبايع، ثم دنوت فقلت: يا رسول الله إني أبايعك على أن يغفر لي ما تقدم من ذنبي، ولا أذكر ما تأخر، قال: فقال رسول الله ﷺ: يا عمرو، بايع فإن الإسلام يحب ما كان قبله، وإن الهجرة تجب ما كان قبلها. قال: فبايعته ثم انصرفت. اهـ.

قال ابن إسحق: وحدثني من لا أتهم أن عثمان بن طلحة بن أبي طلحة كان معهما، أسلم حين أسلما.

* * *

واختلفت الصحابة فيما يفعل بالأسارى؛ فمنهم من أشار بقتلهم، ومنهم من أشار بفدائهم.

قال في المواهب: وقد استقر الحكم في الأسارى عند الجمهور من العلماء: أن الإمام يخير فيهم، إن شاء قتل، كما فعل النبي ﷺ ببني قريظة، وإن شاء فادى بمال كما

(١) أي جزعاً وخوفاً.

(٢) جاء في الروض الأنف للسهيلى ج ٣ ص ٣٠٤: «ومن رواه «الميسم» بالياء فهي العلامة، أي قد تبين الأمر واستقامت الدلالة، ومن رواه (المنسم) بفتح الميم والنون، فمعناه: استقام الطريق ووجبت الهجرة».

فعل بأسارى بدر، وإن شاء استرقَّ مَنْ أَسْرَ، وإن شاء مَنْ وأطلق مِنْ غير شيء، وهذا مذهب الشافعي وطائفة من العلماء.

* * *

ولما أقبل رسول الله ﷺ راجعاً إلى المدينة، وخرج من مَضِيقِ الصَفراء^(١)، قسم النفل (أي الغنيمة) وكانت إبلاً وأفراساً ومتاعاً، وسلاحاً وأنطاعاً، وثياباً وأدماً كثيراً، كان قد حملة المشركون للتجارة في صحبة قريش، ونادى النبي ﷺ «مَنْ قَتَلَ قَتِيلًا فَلَهُ سَلْبُهُ»^(٢)، وأنزل الله تعالى في أصحاب بدر: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ...﴾ [الأنفال: ١] الآية. وأول من حل له أكل الغنائم واتخذها حرفة: رسول الله ﷺ، وكانت الأنبياء من قبل يجاهدون ويقاتلون ويسترقون الأرقاء، ولكن ما كانت الغنائم يحل أكلها لهم، وإذا غنموا من أموال المجاهدة شيئاً كانت تنزل نار فتحرقه، وكان ذلك علامة قبولهم. وفي الطبراني بسند جيد عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «أَطْلَعَ الله على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم» أو قال: «فقد وجبت لكم الجنة».

ويُضْرَبُ بأهل بدر المثل في عدم المؤاخذه، قال بعض الشعراء:

يَا بَدْرُ أَهْلُكَ جَارُوا وَعَلَمُوكِ التَّجَرِّي

وَقَبِّحُوا لَكَ وَضَلِّي وَحَسَّنُوا لَكَ هَجْرِي

فَلْيَصْنَعُوا كَيْفَ شَاءُوا فَإِنَّهُمْ أَهْلُ بَدْرِ

وقال ابن الفارض:

فَلْيَصْنَعِ الْقَوْمُ مَا شَاءُوا لِأَنْفُسِهِمْ هُمْ أَهْلُ بَدْرِ، فَلَا يَخْشَوْنَ مِنْ حَرَجٍ

[غريب الاتفاق] وأول أبيات الشاعر السابق فيها من المحسنات البديعية -غير

(١) الصَفراء: من ناحية المدينة، وهو واد كثير النخل والزرع في طريق الحاج، بينه وبين «بدر» مرحلة.

(٢) وفي لفظ آخر «من قتل كافراً فله سلبه» متفق عليه من البخاري ومسلم، ورواه الإمام أحمد وأبو داود.

التلميح - نوعٌ يقال له: «غريب الاتفاق» لا سيما إذا كان المخاطب اسمه «بدر»، وهو أن يتفق للشاعر أو الناثر وقعةٌ أو نكتةٌ يستخرجها من الكلام، أو من الوقائع، وهو عزيز الوقوع، وإن حصل للشاعر أو الناثر في ذلك قرأناً سعدٍ، سارت الركبان بقوله، كما اتفق لابن أبي حصينة المصري في حسام الدين لؤلؤ صاحب الملك الناصر يوسف حين غزا الفرنج الذين قصدوا الحجاز من بحر القلزم، وظفر الحاجب بهم، فقال ابن أبي حصينة يخاطب الفرنج:

عدوكم لؤلؤ والبحر مسكنه والدُّرُّ في البحر لا يخشى من الغير
ومنه قول الصَّفِيِّ الحَلِّي في بديعته:

ومن غدا اسمُ أمِّه نعتاً لأمِّته فتلك آمنةٌ من سائر النقم

ومنه قول ابن الساعاتي، وقد قصد الملك الناصر يوسف -المتقدم ذكره- «بيت يعقوب» من حصون الشام مخاطباً للإفرنج:

دَعُوا بَيْتَ يَعْقُوبَ فَقَدْ جَاءَ يَوْسُفُ

ومن غريب الاتفاق ما قيل من أن المأمون صنع تابوتاً بديعاً، يحمله حسان الغلمان على أكتافهم، ويطوفون به في خلال البستان، والمأمون جالس فيه، ومعه جوارى أبيه هارون الرشيد وجده موسى الهادي، فدعا الشعراء ذات يوم ليقولوا في ذلك شيئاً، فأنشدوا ما عندهم إلا أبا نواس، فسأله المأمون، فتلا قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ﴾ [البقرة: ٢٤٨] فلمَّح بالسكينة لهيبة الخليفة المأمون، وبالبقية للجواري، وبموسى وهارون لأبيه وجده، وهذا وإن كان من غريب الاتفاق إلا أنه لا يخلو عن التهور والخروج عن اللائق^(١).

(١) من شروط التشبيه أن يكون بين الطرفين وجه شبه، وليس كذلك هنا؛ إذ لا وجه للمشابهة بين الشياطين والملائكة، أخزى الله من قاله، ما أجرأه على القرآن!

والمراد بأهل بدر في الحديث: الذي حضروا وقعتها مع النبي ﷺ، استشهدوا فيها أم لا؛ لأنهم ارتقوا إلى مقام يقتضي الإنعام عليهم بمغفرة ذنوبهم السابقة واللاحقة، فلا يؤاخذهم بها لبذلهم مهجهم في الله ونصرهم دينه، والمراد إظهار العناية بهم لا الترخيص لهم في كل فعل، والخطاب لقوم منهم على أنهم لا يقارفون ذنباً، وإن قارفوه لم يصبروا، وقال القرطبي: «هذا خطاب إكرام وتشريف، تضمن أن هؤلاء حصلت لهم حالة غُفرت بها ذنوبهم السالفة، وتأهلوا لأن يُغفر لهم ما يستأنف من الذنوب اللاحقة، ولا يلزم من وجود الصلاحية لشيء وقوعه، ولقد أظهر الله تعالى صدق رسوله ﷺ في كل ما أخبر عنه بشيء من ذلك؛ فإنهم لم يزالوا على أعمال أهل الجنة إلى أن فارقوا الدنيا، وإن قُدر صدور شيء من أحدهم بادر إلى التوبة».

والشهداء ثلاثة أقسام:

الأول: شهيد في حكم الدنيا والآخرة في ترك الغسل والصلاة عليه، وهو من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا.

والثاني: شهيد في الدنيا دون الآخرة، وهو من قاتل رياءً وسمعةً وقُتل، فلا يُغسل ولا يصلى عليه.

والثالث: شهيد في الآخرة فقط وهو المطعون والمبطون والغريق والحريق والمحموم وطالب العلم إذا مات على طلبه، والمرأة تموت بسبب الولادة، ومن قتله مسلمٌ أو ذميٌّ أو باغٍ في غير القتال، فكل هؤلاء يُغسلون ويصلى عليهم، وهم شهداء في الدار الآخرة لا في الدنيا، قاله الإمام الرافي لأن عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان غُسلَا، وهما شهيدان بالإجماع.

* * *

استطرد لمناسبة: قال عمر بن عبد العزيز: كان أبي إذا خطب ونال من عليّ يلجلج في كلامه، فقلت، يا أبت إنك تمضي في خطبتك، فإذا أتيت إلى ذكر عليّ عرفت منك

تقصيرها، قال: أو فطنت لذلك؟ قلت: نعم، قال: يا بني إن الذين حولنا لو يعلمون من علي ما نعلم لتفرقوا عنا إلى أولاده.

فلما ولي عمر الخلافة لم يكن عنده من الرغبة في الدنيا ما يتركه في هذا الأمر العظيم لأجله، فكتب بتركه، وقرأ عوضه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ...﴾ [النحل: ٩٠] فحل هذا الأمر عند الناس محلاً عظيماً، وأكثروا مدحه حتى قال كثير في أبياته في حق عمر بن عبد العزيز:

وُلِيتَ وَلَمْ تَشْتَمِ عَلِيًّا وَلَمْ تُخِفْ بَرِيًّا، وَلَمْ تَتَّبِعْ مَقَالََةَ مُجْرِمٍ
وقيل: إنه قال: إن سبب محبتي علياً أني كنت بالمدينة أتعلم العلم، وكنت أُلزم عبيد الله بن عبد الله بن مسعود، فبلغه عني شيء من ذلك، أي في سب بني أمية لعلي، فأتيته يوماً وهو يصلي فأطال الصلاة، فقعدت أنتظر فراغه، فلما فرغ التفت إلي وقال: متى علمت أن الله غضب على أهل بدر وبيعة الرضوان بعد أن رضي عنهم؟! قلت: ولم أسمع بذلك، قال: فما الذي بلغني عنك في علي؟ فقلت: «معدرة إلى الله وإليك، والله لا أعود»، فما سُمع بعد ذلك يذكر علياً إلا بخير. اهـ.

ولا مانع أن يقال: إنه لحسن سريره السرية، وسيرة عدله العمرية، لما رأى الحق للإمام عليّ أبطل من نفسه مثلبة سبّه على المنابر، وهذا ما يقضي به حسن الظن في حق هذا الخليفة الموصوف بالعدل في الباطن والظاهر، بدليل استبدال ذلك بالآية الشريفة وهي ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾، فمن جملة ذلك الأمر بعدم السب والنهي عنه، إذ هو من الفحشاء والمنكر، لا سيما وأن الغالب في الخلفاء والسلاطين والملوك إنما يأمرون بما يأمرون به من تلقاء أنفسهم، كأمر الخليفة المعتضد العباسي بسب معاوية على المنابر، كما حكاه ابن جرير عنه، وإن صح أنه أمسك عن ذلك بعد أن أنشأ كتاباً ليقرأ على المنبر فيه مثالب معاوية ومعائبه، حيث قيل له: إن أهل بيت عليّ منهم الخارجون عليك في كل ناحية؛ فإذا سمعوا سبّ معاوية مال إليهم كثير من الناس، وخرجوا عن طاعة العباسية.

فيكون عمر بن عبد العزيز بادرَ بإزالة المنكر من بداية الأمر به، بدون أن ينتظر نصح ناصح، وهذا بفضلُه أكمل.

رُوي أنه لما سُئل عن علي ومعاوية، قال: «دماؤهم قد طَهَّرَ اللهُ منها سيوفنا، أفلا نُطَهِّرُ مِنَ الخوض فيها أَلَسْتَنَا؟!».

* * *

وفي منتصف شوال من هذه السنة الثانية، كانت غزوة بني قينقاع (بفتح القاف وإسكان الياء وتثنية النون) بطن من يهود المدينة لهم شجاعة وصبر، وكانوا حلفاء عبادة بن الصامت - رضي الله تعالى عنه - وعبد الله بن أبي بن سلول الخزرجي المنافق، وحلفاء للخزرج، فلما كانت وقعة بدر أظهروا البغي والحسد، ونبذوا العهد الذي كان ﷺ عاهدَهم به وعاهد بني قريظة والنضير: أن لا يحاربوه ويظاهروا عليه عدوه، وقيل: على أن لا يكونوا معه ولا عليه، وقيل: على أن ينصروه ﷺ على من دهمه من عدوه. فكانوا أول من غدر من يهود، وتبرأ عبادة بن الصامت من حلفهم، وتشبث به عبد الله ابن أبي بن سلول، وفيه نزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ﴾ [المائدة: ٥١]، فجمعهم ﷺ، وقال لهم: «يا معشر يهود، احذروا من الله أن ينزل عليكم مثل ما نزل بقریش من النقمة (أي ببدر)، أسلموا فإنكم قد عرفتم أني مرسل، تجدون ذلك في كتابكم وعهد الله تعالى إليكم» فقالوا: يا محمد، إنك تظننا مثل قومك، ولا يغرنك أنك لقيت قومًا لا علم لهم بالحرب، فأصبت لهم فرصة، إنا والله لو حاربناك لتعلمن أنك لم تقا تل مثلنا. وقد قالوا ذلك لأنهم كانوا أشجع اليهود وأكثرهم أموالاً وأشدَّهم بغياً، فأنزل الله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّهِ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ﴾ [آل عمران: ١٢]، فبينما هم على بغيتهم ومجاهرتهم بكفرهم، إذ جاءت امرأة كانت تحت رجل من الأنصار إلى سوق بني قينقاع، فجلست عند صائغ منهم في أمر حُلِيِّ لها، فجاء رجل من بني قينقاع فجلس من ورائها وهي لا تشعر، فحلَّ درعها إلى ظهرها بشوكة، فلما قامت تكشفت، فضحكوا منها، فقام إليه رجل من المسلمين فاتبعه فقتله، فقتل اليهود

المسلم، ونبذوا العهد إلى رسول الله ﷺ، فنزل فيهم: ﴿وَمَا تَخَافُ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةٍ﴾ [الأنفال: ٥٨]، فتحصَّنوا في حصونهم، فسار إليهم رسول الله ﷺ - ولواؤه كان أبيض بيد حمزة بن عبد المطلب رضي الله تعالى عنه - وحاصرهم خمس عشرة ليلة أشد الحصار، فقذف الله في قلوبهم الرعب، وكانوا سبعمائة نفس، أربعمائة حاسر^(١)، وثلاثمائة دارع^(٢)، فسألوا رسول الله ﷺ أن يخلي سبيلهم وأن يجلوها عن المدينة، وأن لهم نساءهم والذرية، وله ﷺ الأموال وال السلاح، فحُمِسَتْ^(٣) أموالهم، وأمر ﷺ أن يجلوها من المدينة، ووكل بإجلائهم عبادة بن الصامت رضي الله تعالى عنه، وطلبوا أن يمهلهم فوق الثلاث فقال: «ولا ساعة واحدة»، وتولَّى إخراجهم بنفسه. وذهبوا إلى أذرعات - بلدة بالشام - ولم يدُر الحوُلُ عليهم حتى هلكوا أجمعين بدعوته ﷺ، حيث قال لابن أبي بن سلول: «لا بارك الله لك فيهم». ووجد ﷺ في منازلهم سلاحًا كثيرًا، وأخذ ﷺ من سلاحهم ثلاث قسي، منها القوس «الكتوم» التي لا يُسمع لها صوت إذا رُمي بها، وهي التي رمى بها ﷺ يوم أحد، وأخذ ﷺ درعين منها الدرع المسماة «بالسغدية» بسين مهملة وغين معجمة، ويقال: إنها درع داود التي لبسها حين قتل جالوت، وأخذ ﷺ ثلاثة أرماح وثلاثة أسياف، وقبض رسول الله ﷺ أموالهم، وكانوا صاغَةً لا أرض لهم، وكان خليفة رسول الله ﷺ على المدينة أبا لبابة.

* * *

وفي هذه السنة: الثانية من الهجرة كانت غزوة السَّوِيْق:

لما أصاب قريشًا^(٤) في بدرٍ ما أصابهم، نذر أبو سفيان أن لا يمسه النساء والطيب حتى يغزو محمدًا، ويثأر منه ومن أصحابه بمن أصيب من المشركين يوم بدر، فخرج

(١) بلا درع.

(٢) يرتدي درعًا.

(٣) أي قسمت خمسة أقسام.

(٤) في الأصل «قريش» وهو خطأ.

في مائتي راكب من قريش لوفاء نذره، حتى نزل بمحل بينه وبين المدينة نحو بريد^(١)، ثم أتى لبني النضير، وهم حيٌّ من يهود خيبر يُنسبون إلى هارون بن عمران^(٢)، تحت الليل^(٣) فأتى حُيَّي بن أخطب، وهو من رؤساء بني النضير -وهو أبو صفية أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها- ليخبره من أخبار رسول الله ﷺ بما أحبَّ معرفته، فضرب عليه باب، فأبى أن يفتح له؛ لأنه خافه، وجاء إلى سلام بن مشكم سيد بني النضير، وصاحب كنزهم (أي المال الذي كانوا يجمعونه ويدخرونه للنوائب وما يعرض لهم، وكان حلياً يُعيرونه لأهل مكة)^(٤) فاستأذن عليه، فأذن له واجتمع به وسقاه خمراً، فلما كان السَّحَر خرج أبو سفيان ومن معه فلقي رجلاً من الأنصار في حرث له، فقتله وقتل أجيراً كان معه، وحرقت حرثهما، ورأى أن يمينه قد حلت فمضى هارباً، وقد خاف الطلب. وبلغ رسول الله ﷺ خبره، فخرج رسول الله ﷺ في مائتين من المهاجرين والأنصار في طلبهم، وكان خروجه لخمس من ذي الحجة من السنة الثانية من الهجرة، وجعل أبو سفيان وأصحابه يُخَفِّفون للهرب، فيُلْقون جُرْبَ السَّوِيق من قمح أو شعير مطحون، وهو عامة أزوادهم، فيأخذهم المسلمون، ولم يلحقوا بهم. وانصرف رسول الله ﷺ راجعاً إلى المدينة، وكانت غيبته خمسة أيام، ولإلقاء السويق من رحالهم لتخفيفها وأخذ المسلمين لذلك، سُميت غزوة السويق، ولم يلق فيها كيداً.

وفي هذه السنة مات عثمان بن مظعون رضي الله تعالى عنه.

(١) البريد: فرسخان، والفرسخ ثلاثة أميال، والميل يقدر بحوالي ١٦٠٩ من الأمتار.

(٢) وهو هارون أخو موسى عليهما السلام.

(٣) أي في ظلام الليل الشديد، وعبر بتحت؛ لأنه جعل الليل رداءه فهو تحته والليل فوقه.

(٤) كانوا يعطون الناس ويأخذون منهم إلى أن يتمكنوا مما يريدون. ومن أحداث اليهود أن جماعة منهم استعاروا ذهب المصريين -وقت خروجهم مع سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام- بحجة أو بأخرى -وذهبوا بها ولم يردوها لأصحابها- استحلوا هذا النهب بحجة أنهم شعب الله المختار، وهي دعوى عريضة لم يقم على صحتها دليل، بل قام الدليل على كذبها ألف مرة ومرة. وقد حكى القرآن عنهم أنهم قالوا: «نحن أبناء الله وأحباؤه» فردَّ عليهم هذه الفرية بقوله تعالى: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ﴾ [المائدة: ١٨]، وصوَّروا العجل الذي عبده من دون الله من هذه الأموال التي سرقوها من مصر.

وفيهما أيضًا هلك أميةُ بن أبي الصلت - من رؤساء الكفار - قرأ الكتب^(١)، وأطلع على البعثة، فكفر حسدًا؛ لأنه رجا أن يكون هو المبعوث، ونزل في حقه قوله تعالى: ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَٱنشَلَخَ مِنْهَا﴾ [الأعراف: ١٧٥]، وكان سافرَ إلى الشام ورجع عقيب وقعة بدر السابقة، فمرَّ بالقلب وفيه قتلى بدر، وكان ممن في القلب عتبة وشيبة ابنا خالي أمية، فجدع أذني ناقته، وقال قصيدة:

هَلَّا بَكَيْتَ عَلَى الْكِرَا	م بني الكرام أولي الممادح
كَبُكَا الْحَمَامِ عَلَى فُرُو	ع الأيَّك في الغصن الجوانح
يَبْكِينَ حَزَنِي مُسْتَكِي	نَاتٍ يَرْحَنَ مَعَ الرَوَائِحِ
أَمْثَالُهُنَّ الْبَاكِ	اتُ الْمُغُولَاتُ مِنَ النَوَائِحِ
مَاذَا بَدَّرَ وَالْعَقَنُ	قَلَّ مِنْ مَرَاذِيَةِ جَحَاحٍ ^(٢)
شُمُطٌ وَشَبَانٌ بِهَالِي	لٌ مُنَاوِيرٌ دَحَاحٍ ^(٣)
أَنْ قَدْ تَغَيَّرَ بَطْنُ مَكَّ	ةً فَهِيَ مَوْحِشَةٌ الْأَبَاطِحِ ^(٤)

وهي قصيدة نهى رسول الله ﷺ عن روايتها؛ لأن أمية كان يحرض قريشًا بعد وقعة بدر على المسلمين. ومع ذلك فله أشعار يُفهم منها ميله إلى اعتقاد أن دين الإسلام حق، فمن ذلك قوله:

كُلُّ دِينٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ	اللَّهِ إِلَّا دِينُ الْحَنِيفِيَّةِ زُورٌ
وَلَمَّا أَنشَدَ لَدَى النَّبِيِّ ﷺ قَوْلَهُ:	
الْحَمْدُ لِلَّهِ مُمَسَّانَا وَمُصَبِّحُنَا	بِالْخَيْرِ صَبَّحْنَا رَبِّي وَمَسَّانَا

(١) أي التوراة والإنجيل والزبور.

(٢) الجحجج: السيد.

(٣) الدحاح: القصير.

(٤) الأبطح: مسيل واسع، فيه حصى دقاق.

رَبُّ الْحَنِيفَةِ لَمْ تَنْفُذْ خَزَائِنَهَا مَمْلُوءَةٌ طَبَقُ الْآفَاقِ سُلْطَانَا
أَلَا نَبِيٌّ لَنَا يَأْتِي فَيُخْبِرُنَا مَا بَعْدَ غَايَتِنَا مِنْ رَأْسِ مَحْيَانَا
بَيْنَا يُرَبُّونَا آبَاؤُنَا هَلَكُوا وَبَيْنَمَا نَقْتَنِي الْأَوْلَادَ أَفْنَانَا
وَقَدْ عَلِمْنَا لَوْ أَنَّ الْعِلْمَ يَنْفَعُنَا أَنْ سَوْفَ يَلْحَقُ أَخْرَانَا بِأُولَانَا

قال النبي ﷺ «إِنْ كَادَ أُمِيَّةٌ لِيُسْلِمَ»^(١). وَيُرَوَّى أَنَّ أُمِيَّةَ بْنَ أَبِي الصَّلْتِ - واسمُ أبي الصَّلْتِ: عبد الله بن ربيعة بن عوف الثقفي - لما مرض مرضه الذي مات فيه جعل يقول: «قد دنا أجلي وهذه المرضة منيتي، وأنا أعلم أن الحنيفية حق، ولكن الشك يداخني في محمد». ولما دنت وفاته أغمى عليه قليلاً حتى ظن من حضره من أهله أنه قد قضى، ثم أفاق وهو يقول: «ليكما ليكما، ها أنا ذا لديكما، لا بريء فأعذر، ولا قوي فأنتصر». ثم إنه بقي يحدث من حضره ساعة، ثم أغمى عليه ثانياً، حتى يسوا من حياته، وأفاق وهو يقول: ليكما ليكما ها أنا ذا لديكما.

إِنْ تَغْفِرِ اللَّهُمَّ تَغْفِرْ جَمًّا وَأَيُّ عَبْدٍ لَكَ لَا أَلَمَّا

ثم أقبل على القوم فقال: «قد جاء وقتي، فكونوا في أهبي». وحدثهم قليلاً حتى يس القوم منه.

وكان أُمِيَّةٌ يتعبد في الجاهلية، ويؤمن بالبعث، وأدرك الإسلام ولم يسلم، وإنه لما غشي عليه وأفاق قال:

كُلُّ عَيْشٍ وَإِنْ تَطَاوَلَ دَهْرًا صَائِرٌ أَمْرُهُ إِلَى أَنْ يَزُولَا
لَيْتَنِي كُنْتُ قَبْلَ مَا قَدَّ بَدَا لِي فِي رُؤُوسِ الْجِبَالِ أَرَعَى الْوَعُولَا^(٢)
إِنَّ يَوْمَ الْحِسَابِ يَوْمٌ عَظِيمٌ شَابَ فِيهِ الْوَلِيدُ يَوْمًا ثَقِيلًا

(١) ولذلك قال رسول الله ﷺ: «أَمَنْ شَعُرُ أُمِيَّةَ بْنَ أَبِي الصَّلْتِ وَكُفْرَ قَلْبِهِ» رواه أبو بكر بن الأنباري في «المصاحف» والخطيب وابن عساكر عن عبد الله بن عباس.

(٢) الوعل: تيس الجبل، وهو جنس من المعز الجبلية له قرنان قويان.

اجعل الموت نُصَبَ عينك واحذرْ غولة الدهر إنَّ للدهر غولاً
ثم قضى نحبه، ولم يؤمن بالنبي ﷺ، وذكر عن سهل أن النبي ﷺ لما سمع قول
أمية:

لك الحمدُ والنعمانُ والفضلُ ربَّنَا فلا شيءَ أعلى منك حمداً وأمجداً
قال: «آمنَ شعره وكفر قلبه». وكُفِّرَ قلبه: عدم إيمانه بالنبي ﷺ، وما سلف ذكره
- من عدّه ممن آمن به ﷺ «كقس بن ساعدة» فالقصد منه اعتقاد نبوته ﷺ قبل مبعثه،
لا الإذعان بعد المبعث، حيث حمّله على عدم الإيمان الحسدُ والحميةُ الجاهليةُ وغلبةُ
الشقاء.

* * *

وكان خليفة رسول الله ﷺ في غيبته أبا لبابة، كما في غزوة بني قينقاع.

* * *

وفي هذه السنة الثانية من الهجرة كانت وقعة «ذي قار»^(١) بين بكر بن وائل وبين
جيش كسرى أبرويز، والغلبةُ على الهرمزان، وانهزمت الفرس، وقُتل الهرمزان.
وسبب هذه الوقعة المشهورة في أيام العرب «يوم ذي قار» أن كسرى أبرويز غضب
على النعمان بن المنذر وحبسه، فهلك في الحبس، وكان النعمان قد أودع حلقتة -
وهي السلاح والدرع - عند هانئ بن مسعود البكري، فأرسل أبرويز يطلبها من هانئ
المذكور، فقال: «هذه أمانة، والحرّ لا يُسلم أمانته»، وكان أبرويز لما أمسك النعمان
قد جعل موضعه في مُلْكِ الحيرة: إياس بن قبيصة الطائي، فاستشار أبرويز إياساً
المذكور، فقال إياس: المصلحةُ التغافلُ عن هانئ بن مسعود المذكور حتى يطمئن
ونتبعه فندركه. فقال أبرويز: إنه من أخوالك ولا تألوه نصحاً، فقال إياس: رأيي الملك
أفضل. فبعث أبرويز الهرمزان في ألفين من الأعاجم وبعث ألفاً من «بهر» (قبيلة)،

(١) ذو قار: ماء لبكر بن وائل قريب من الكوفة، بينها وبين واسط، وفيها كانت الوقعة المشهورة بين العرب والفرس.

فلما بلغ بكر بن وائل خبرهم أتوا مكاناً من «بطن ذي قار» فنزلوه، فوصلت إليهم الأعاجم واقتتلوا ساعة، وانهزمت الأعاجم هزيمة قبيحة، وأكثر العربُ الأشعار في ذكر هذا اليوم، وقيل: إن هذه الواقعة كانت في سنة أربعين من مولد النبي ﷺ، ولم تكن في عام وقعة بدر، وهذا القول هو الأقوى والأصح.

* * *

وفي هذه السنة كانت غزوة «قرقرة الكدر»^(١):

وهي أرض مما يلي جادة العراق إلى مكة، بها طيور في ألوانها كُدرة، عُرف بها ذلك الموضع.

سببها: وذلك أنه ﷺ بلغه أن قومًا من بني سليم وغطفان يريدون الإغارة على المدينة، فسار إليهم في مائتين من أصحابه، وحمل اللواء عليُّ بن أبي طالب -رضي الله تعالى عنه- فوصل إلى ذلك الموضع فلم يجد به أحدًا منهم، وأرسل نفرًا من أصحابه إلى أعلى الوادي، واستقبلهم في بطن الوادي، فوجد خمسمائة بعير مع رعاة لهم، فخمَسَ^(٢) الإبل، فخصَّ كلَّ واحدٍ بغيران، ورجع إلى المدينة.

وقيل: كانت هذه الغزوة في المحرم سنة ثلاث، ويمكن أن يُجمع بين القولين بأنها ابتدأت في أواخر شهر ذي الحجة، وبقيت إلى أول المحرم سنة ثلاث.

* * *

وفي هذه السنة وُلد عبد الله بن الزبير.

وكان خليفة رسول الله ﷺ على المدينة ابن أم مكتوم.

(١) قرقرة الكدر، قيل بناحية المعدن، قريبة من الأرحضية -أو الرَحْضية من نواحي المدينة قرية لبني سليم والأنصار من نجد، وبها آبار عليها زرع كثير ونخل، وحذاءها قرية يقال لها الحجر - بينها وبين المدينة ثمانية بُرْد، وقيل ماء لبني سُليم، به غزوة للنبي ﷺ.
(٢) جعلها خمسة أقسام.

الفصل الثالث

في ظواهر السنة الثالثة من الهجرة وما فيها من الغزوات

وفي هذه السنة الثالثة من الهجرة كانت غزوة إِمْر^(١):

ويقال لها غزوة «غطفان»^(٢) وغزوة «أنمار» . و «إِمْر» بكسر الهمزة وفتح الميم وتشديد الراء: اسم ماء. وذلك أنه ﷺ بلغه أن رجلاً يقال له «دُعْثُور» (بضم الدال وسكون العين ثم ثاء مضمومة) ابن الحارث الغطفاني (من بني محارب) جمع جَمْعاً من ثعلبة ومحارب بموضع من ديار غطفان، يسمى بـ «ذي إِمْر» باسم الماء الذي فيه، يريدون الإغارة على أطراف المدينة، فخرج إليهم ﷺ في أربعمئة وخمسين رجلاً من أصحابه، لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول، في السنة الثالثة من الهجرة، واستخلف على المدينة عثمان بن عفان، فلما سمعوا بمسير رسول الله ﷺ هربوا في رؤوس الجبال. وفي هذا المحل أصاب رسول الله ﷺ المطر الكثير، فبل ثيابه ﷺ وثياب أصحابه، فنزع ﷺ ثوبيه ونشرهما على الشجرة ليجفأ، واضجع بمرأى من المشركين، فبعث المشركون دعْثُورًا الذي هو سيد القوم وأشجعهم المجمع لهم، قالوا له: قد انفرد محمدٌ، فعليك به. فجاء ومعه سيفه حتى قام على رأس رسول الله ﷺ، ثم قال: ما يمنعك مني اليوم؟ فقال ﷺ: الله، ودفعه جبريل في صدره فوق على ظهره، فوق السيف من يده، فأخذ السيف رسول الله ﷺ، وقال: من يمنعك مني اليوم

(١) ذو إِمْر: موضع بئر، غزوة لرسول الله ﷺ قيل: هو من ناحية النخل بنجد، من ديار غطفان، والأمر: حجارة تُجعل كالأعلام. كذا من المراسد بلفظه.

(٢) غطفان: اسم لقبيلة من قبائل العرب.

يا دعثور؟ قال: لا أحد، كن خير آخذ. فتركه وعفا عنه، فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، والله لا أجمعُ الناسَ لحربك أبداً. فدفع له النبي ﷺ سيفه، فقال دعثور: والله إنك لخير مني، ثم أتى قومه فجعل يدعوهم إلى الإسلام، وأخبرهم أنه رأى رجلاً طويلاً دفعه في صدره، فوقع على ظهره، فقال: علمتُ أنه ملك، فأسلمت، فنزلت هذه الآية: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ اَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ﴾... الآية [المائدة: ١١]، ثم أقبل رسول الله ﷺ إلى المدينة، ولم يلق حرباً، وكانت مدة غيبته إحدى عشرة ليلة.

وفي هذه السنة (في شهر رمضان) وُلد الحسن بن علي رضي الله عنهما، وكانوا قد سموه حرباً، فسماه النبي ﷺ الحسن، وحَنَكه^(١) بتمر.

وفيها قتل محمد بن مسلمة الأنصاري كعب بن الأشرف اليهودي.

وفيها تزوج النبي ﷺ حفصة بنت عمر -رضي الله عنهما- وذلك أن عثمان بن عفان خطب حفصة بنت عمر منه بعد وفاة رقية، فردَّه عمر، فبلغ ذلك النبي ﷺ، فقال: يا عمر؛ أدلك على خير لك من عثمان، وأدل عثمان على خير له منك؟ قال: نعم يا نبي الله، قال: «تزوَّجني ابنتك وأزوِّج عثمان ابنتي». فكان ذلك؛ حيث تزوج ﷺ حفصة، وتزوج عثمان بأم كلثوم.

وفي هذه السنة كانت غزوة بَحْران:

(بفتح الباء الموحدة، وقيل بضمها، ثم حاء مهملة ساكنة، وهو موضع بالحجاز بينه وبين المدينة ثلاثة بُرْد) وتسمى هذه الغزوة بغزوة بني سليم.

سببها: لما بلغه ﷺ أن بحران اجتمع فيه كثير من بني سليم، خرج في ثلاثمائة من أصحابه، لِسِتَّ خلون من جمادي الأولى من السنة الثالثة من الهجرة، أحتَّ السير حتى بلغ بحران، وكان قبل أن يصل إلى ذلك بليلة لَقِيَ رجلاً من بني سليم، فأخبره أنَّ

(١) حنكه: دَلَّك حنكه. والحنك: باطن أعلى الفم من الداخل.

القومَ تفرَّقوا، فحبسه إلى أن وصل، فوجدهم كذلك قد تفرقوا ورجعوا إلى مياهم، فأقام ﷺ ولم يلقَ حرباً، وكانت غيبته عشرَ ليالٍ، وكان قد استخلف على المدينة ابن أم مكتوم.

وفي هذه السنة كانت غزوة أحد:

وكانت في شوال سنة ثلاثة من الهجرة باتفاق الجمهور، وأُخذ (بضمتين ومهملتين) جبل من جبال المدينة، على نحو ميلين منها، يُقصد لزيارة مشهد سيدنا حمزة ومن معه من الشهداء، ويقال: إنه أفضل الجبال.

لما أصاب قريشاً^(١) يوم بدر ما أصابها، مشى عبد الله بن ربيعة وعكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية رضي الله تعالى عنهم (فإنهم أسلموا بعد ذلك) ورجال آخرون^(٢) من أشراف قريش إلى أبي سفيان - رضي الله تعالى عنه - (فإنه أسلم بعد ذلك أيضاً) وإلى من كان له تجارة في تلك العير التي كان سببها وقعة بدر، وكانت تلك العير موقوفة في دار الندوة لم تُعطَ لأربابها، فقالوا: إن محمداً قد وتَّركم (أي قتل رجالكم ولم تدركو دماءهم) وقتل خياركم، فأعينونا بهذا المال على حربه لعلنا ندرك منه ثأراً عمّن أصابه منا، وقالوا: نحن طيِّبوا النفوس أن تجهزوا بأرباح تلك العير جيشاً إلى محمد، فقال أبو سفيان: وأنا أول من يجيب إلى ذلك وبنو عبد مناف معي، فجمع لأهل العير رؤوس أموالهم، وكانت خمسين ألف دينار، وأخرجوا أرباحها، وكان الربح لكل دينار ديناراً، وقيل نصف دينار، وأنزل الله في تلك الحادثة آية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ [الأنفال: ٣٦]، وتجهَّز قريشُ ومن والاهم من قبائل كنانة وتهامة، وكان عددهم ثلاثة آلاف، فيهم سبعمائة دارع ومائتا فارس، وقائدهم أبو سفيان بن حرب، وساروا من مكة حتى نزلوا

(١) في الأصل «قريش».

(٢) في الأصل «آخر».

بذي الحليفة^(١) مقابل المدينة، يوم الأربعاء لأربع مضيّن من شوال، وذو الحليفة هو ميقات أهل المدينة الذي يُحرّمون منه.

وقد أخرج أحمد في مسنده عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال يوم أحد: «رأيت كأنني في درع حصينة، ورأيت بقراً تُنحر، فأولت أن الدرع المدينة فإن شئتم أقمنا بالمدينة فإن دخلوا علينا قاتلناهم فيها»، فقالوا: «والله ما دخلت علينا في الجاهلية، أفتدخل علينا في الإسلام!» قال: فشأنكم إذاً. فذهبوا. فلبس رسول الله ﷺ لأمتّه، فقالوا: ما صنعنا؟ ردّدنا على رسول الله ﷺ رأيه! فجاءوا فقالوا: شأنك يا رسول الله، قال: «الآن!! ليس لنبي إذا لبس لأمتّه أن يضعها حتى يقاتل».

وأخرج أحمد والبخاري والطبراني والبيهقي في دلائل النبوة عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: لما جاء المشركون يوم أحد، كان رأيي رسول الله ﷺ أن يقيم بالمدينة، يقاتلهم فيها، فقال له ناس لم يكونوا شهدوا بدرًا: «لتخرج بنا يا رسول الله نقاتلهم بأحد». ورجوا أن يصيبوا من الفضيلة ما أصابه أهل بدر، فما زالوا برسول الله ﷺ حتى لبس أذاته، ثم ندموا، فقالوا: يا رسول الله: أقم، فالرأي رأيك. فقال: «فما ينبغي لنبي أن يضع أذاته إذا لبسها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه» اهـ.

واستخلف رسول الله ﷺ على المدينة ابن أم مكتوم.

وخرج ﷺ في ألف من الصحابة، وصار بين المدينة وأحد، ونزل الشّعب من أحد، وجعل ظهره إلى أحد، ثم كانت الوقعة يوم السبت لسبع مضيّن من شوال، ويقال عدّة أصحابه ﷺ تسعمائة، وفيهم مائة دارع، ولم يكن معهم من الخيل سوى فرسين؛ فرس لرسول الله ﷺ وفرس لأبي بردة، ولواء رسول الله ﷺ مع مصعب بن عمير (من بني عبد الدار)، وعلى ميمنة المشركين خالد بن الوليد، وعلى ميسرتهم عكرمة بن أبي جهل، ولواؤهم مع بني عبد الدار. وجعل ﷺ الرماة (وهم خمسون) وراءه. فالتقى

(١) بينها وبين المدينة ستة أميال أو سبعة، منها ميقات أهل المدينة، وهي مياه بني جشم.

الناس ودنا بعضهم من بعض، وقامت هند بنت عتبة زوج أبي سفيان رضي الله تعالى عنها (فإنها أسلمت بعد ذلك) وأم حكيم بنت طارق زوج عكرمة - رضي الله تعالى عنها - في النسوة المصاحبات لجيش المشركين يضربن بالدفوف خلف الرجال، يحرضن المشركين على القتال لحرب المسلمين، ويقلن:

نَحْنُ بَنَاتُ طَارِقٍ نَمْشِي عَلَى النَّمَارِقِ
إِنْ تَقْتُلُوا نَعَانِقَ أَوْ تُدْبِرُوا نُفَارِقَ
فِرَاقَ غَيْرِ مَالِقٍ

يُردن: نحن بنات الكوكب، وإنه لا يُنال. ويقال إن رملة بنت طارق، وأم حكيم بنت طارق قالتا ذلك، وقاله النساء معهن. وكان النبي ﷺ إذا سمع قولهن هذا قال: «اللهم إني بك أجول وأصول وفيك أقاتل، حسبي الله ونعم الوكيل».

واستمر القتل في أصحاب لواء المشركين، ورأى النساء برجالهن أمراً عظيماً، حتى وَلَوْلَنَ وتركن ما كنَّ فيه، وانهزم المشركون، حتى انهزمت هند بنت عتبة وصواحبها متحيرات ما دونهن مانع ولا دافع، حتى لو شاء المسلمون لأخذوهن. ودخل المسلمون عسكر المشركين.

وقاتل حمزة عم النبي ﷺ يومئذ قتالاً شديداً، وقتل أرطاة حامل لواء المشركين - إلى أن قُتل؛ ضربه وحشي عبد جبير بن مطعم، وكان حبشياً، بحربة فقتله، وكان حمزة مشغولاً عنه بقتال سباع بن عبد العزى، وفي قتل وحشي حمزة، يقول حسان:

مَا لِشَهِيدٍ بَيْنَ أَرْوَاحِكُمْ شَلَّتْ يَدَا وَحْشِيٍّ مِنْ قَاتِلٍ

وقُتل أيضاً مصعب بن عمير حامل لوائه ﷺ، فظن قاتله أنه رسول الله ﷺ، فقال لقريش: إني قتلْتُ محمداً، وشاع ذلك، وانتهى النضر بن أنس إلى جماعة من الصحابة، وقد دهشوا وقالوا: قُتل رسول الله ﷺ، فقال: فما تصنعون في الحياة بعده؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه. فاجتهدوا في القتال، ثم إن كعب بن مالك الشاعر عرف

رسول الله ﷺ، فنادى بأعلى صوته يبشر الناس، ورسول الله ﷺ يقول له: أنصت؛ فاجتمع عليه المسلمون، ونهضوا معه نحو الشعب، فيهم أبو بكر وعمر وعليّ والزبير والحرث بن الصمة الأنصاري، وغيرهم، وأدركه أبي بن خلف في الشعب، فتناول ﷺ الحربة من الحرث بن الصمة، وطعنه بها في عنقه، فكَرَّ أبي بن خلف منهزمًا، وقال له المشركون: ما بك من بأس؟ فقال: «والله لو بصق عليّ لقتلني» فمات بِسْرِفٍ^(١) وهم قافلون، وقال المصطفى ﷺ: «اشتد غضب الله على رجل قتل نبيًّا أو قتله نبي»^(٢) فمات عدو الله في مرجعهم إلى مكة.

وكان أبو عزة الجُمَحِيّ -أحد رؤساء حزب المشركين- وقع أسيرًا في بدر، فمنّ عليه رسول الله ﷺ وأحلفه أن لا يكثر عليه جمعًا، وأرسله بغير فدية، فلما كانت غزوة أحد طلبه رؤساء قريش ليتوجه معهم للحرب فامتنع من النفوذ لما وجهوه إليه، وقال: إن بلاء محمد عندي حسن، أطلقني يوم بدر. فلم يزلون به حتى خرج معهم، فأُسِرَ يوم أحد فضُرب عنقه. وكان معاوية بن المغيرة بن أبي العاص الذي جدد أنف حمزة، ومثّل به، فيمن مثّل، قد انهزم يوم أحد، فمضى على وجهه فبات قريبًا من المدينة، فلما أصبح دخلها، فأتى منزل عثمان بن عفان بن أبي العاص فضرب بابه، فقالت له امرأته أم كلثوم بنت رسول الله ﷺ: ليس هو ههنا، فقال: ابعثنِي إليه؛ فإن له عندي ثمنَ بغير ابتعته منذ عام الأول، وقد جئتُ به. فأرسلت إليه وهو عند رسول الله ﷺ، فلما جاء قال لمعاوية: أهلكَني ونفْسُك، ما جاء بك؟ قال: يا ابن عم لم يكن لي أحدٌ أقرب إليّ ولا أَمَسَّ رحماً بي منك، فجئتُكَ لتجيرني، فأدخله عثمان داره وصيرَه في ناحية منها، ثم خرج إلى رسول الله ﷺ ليأخذَ له منه أمانًا، فسمع رسول الله ﷺ أن معاوية بالمدينة، وقد أصبح بها، وقال: اطلبوه، فقال بعضهم: «ما كان ليعدو منزل عثمان، فاطلبوه به» فدخلوا منزل

(١) بالفتح، ثم بالكسر وآخره فاء: موضع على ستة أميال من مكة، من طريق «مرو»، بنى به رسول الله ﷺ بميمونة بنت الحرث، وفيه مات رضي الله عنها وأرضاها.

(٢) وفي رواية: «أشد الناس عذابًا يوم القيامة رجل قتل نبيًّا أو قتله نبي، أو رجل أفتى الناس بغير علم، أو مصور يصور التماثيل» رواه الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود.

عثمان فأشارت أم كلثوم إلى الموضع الذي صيّره عثمان فيه، فاستخرجوه من تحت دارة لهم، فانطلقوا به إلى النبي ﷺ، فقال عثمان حين رآه: والذي بعثك بالحق ما جئت إلا لأطلب له الأمان، فهبه لي، فوهبه له، وأجّله ثلاثاً، وأقسم لئن وُجدَ بعدها بشيء من أرض المدينة وما حولها ليقتلن، وخرج عثمان فجهّزه واشترى له بعيراً، وقال: ارتحل. وسار رسول الله ﷺ إلى حمراء الأسد، وأقام معاوية إلى اليوم الثالث ليعرف أخبار النبي ﷺ، ويأتي بها قريشاً، فلما كان اليوم الرابع قال ﷺ: «إن معاوية قد أصبح قريباً لم ينفد، فاطلبوه واقتلوه». وأصابوه على ثمانية أميال من المدينة، وقد أخطأ الطريق، فأدركوه، وكان اللذان أسرعاً في طلبه زيد بن حارثة وعمّار بن ياسر، فرمياه بالنبل حتى مات. ومعاوية هذا أبو عائشة بنت معاوية أم عبد الملك بن مروان.

ولما قُتل مصعبُ أعطى النبي ﷺ الراية لعلي بن أبي طالب، وانهزم المشركون، فطمعت الرماة في الغنيمة، وفارقوا المكان الذي أمرهم النبي ﷺ بملازمته، فأتى خالدٌ مع خيل المشركين من خلف، وصرخ ابن قميّة: إن محمداً قُتل، وانكشف المسلمون وأصاب فيهم العدو، وكان يوم بلاء المسلمين، وصلى رسول الله ﷺ الظهر يومئذ قاعداً، وكان عدة الشهداء منهم سبعين رجلاً، وعدة قتلى المشركين اثنان وعشرون رجلاً، ووصل العدو إلى رسول الله ﷺ، وأصابته حجارته حتى وقع، وأصيبت رباعيته وشجّ في وجهه وكلمت شفتاه. والذي كسر رباعيته عتبة بن أبي وقاص، والذي شجّ وجهه عبد الله بن شهاب الزهري في جبهته، وجعل الدم يسيل على وجهه الشريف وهو يقول: «كيف تفلح أمة خضبت وجه نبيها! اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون» وإلى ذلك أشار من قال:

وأهلك قومه في الأرض نوحٌ بدعوة «لا تذر ربّي» فأفنى
ودعوة أحمد ربّ أهد قومي فهم لا يعلمون كما علمنا

فنزل في ذلك قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٨] وضرب بالسيف على شقه الأيمن فجرح وجنته، ودخلت

حلقتان من المغفر^(١) في وجهه الشريف من الشَّجَّة، ونزع أبو عبيدة (عامر بن الجراح) إحدى الحلقتين من وجهه ﷺ فسقطت ثنية^(٢) أبي عبيدة الواحدة، ثم نزع الأخرى فسقطت ثنيته الأخرى. ومثَّلتُ هندٌ وصواحِبها بالقتلى من الصحابة؛ فجدعن الآذان والأنوف، وبقرت هندٌ عن كبد حمزة ولاكتها^(٣)، وصعد زوجها أبو سفيان فوق الجبل، وصرخ بأعلى صوته: «الحرب سجال يومٌ بيوم: يومٌ أحدٌ بيوم بدر، اعلُ هُبَلٌ» أي زِدْ عَلُوًّا، فقال ﷺ: قم يا عمر فأجبه، فقال: «الله أعلى وأجل: لا سواء، قَتَلَنَا فِي الْجَنَّةِ وَقَتَلَاكُمْ فِي النَّارِ».

ثم نادى أبو سفيان عند منصرفه. «إن موعدكم بدر العام المقبل» فقال رسول الله ﷺ لرجل من أصحابه: «قل: نعم بيننا وبينكم موعد» ثم التمس رسول الله ﷺ عمه حمزة فوجده وقد بُقِرَ بطنه، وجُدع أنفه وأذناه، فقال: لئن أظهرني الله عز وجل على قريش لأمثلن بثلاثين منهم^(٤)، فلما رأى المسلمون حزنه وغيظه على ما فعل بعمه، قالوا: لنمثلن بهم إن أظهرنا الله عليهم مثله ما يُمَثَّلُ بها أحد، فأنزل الله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾ [النحل: ١٢٦]، فكفر عن يمينه، ونهى عن المثلة. وروى ابن شاذان عن ابن مسعود: «ما رأينا المصطفى باكيًا قط أشد من بكائه على حمزة، وصعد في القبلة، ثم وقف على جنازته وبكى حتى كاد يغشى عليه، يقول: «يا حمزة يا عم، يا أسد الله وأسد رسوله، يا حمزة يا فاعل الخيرات، يا حمزة يا كاشف الكربات»^(٥). وليس هذا نوحٌ ولا تعدد^(*) بشمائل، بل إخبار بفضائله وشمائله.

(١) المغفر: زَوْدٌ ينسج من الدروع على قدر الرأس، يلبس تحت القلنسوة.

(٢) الثنية: إحدى الأسنان الأربع التي في مقدم الفم، ثنتان من فوق وثنان من تحت.

(٣) ولكنها لم تستطع ابتلاعها فلفظتها.

(٤) هذه رواية محمد بن إسحاق، وقد ذكرها ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾

آخر سورة النحل، وفي رواية البزار: «بسبعين» بدل «بثلاثين».

(٥) لأنه طالما فرج الكربات عن وجه رسول الله ﷺ، ولذلك ذكر رسول الله ﷺ ذلك، وهذا من باب ذكر الحسنات

التي أسداها لرسول الله ﷺ كما قال الشيخ فيما بعد.

(*) هكذا جاء.

ثم أَمَرَ فَسَجَّيَ بِرُودِهِ، ثُمَّ أَتَى بِالْقَتْلِ يُوْضَعُونَ إِلَى حِمْزَةٍ، فَصَلَّى عَلَيْهِمْ وَعَلَيْهِ، وَهَذَا دَلِيلٌ لِأَبِي حَنِيفَةَ؛ فَإِنَّهُ يَرَى الصَّلَاةَ عَلَى الشَّهِيدِ، خِلَافًا لِلشَّافِعِيِّ وَأَحْمَدَ رَحِمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى.

ثم أَمَرَ بِحِمْزَةٍ فُدِّنَ، وَاحْتُمِلَ أَنَاسٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَى الْمَدِينَةِ فُدِّنُوا بِهَا، ثُمَّ نَهَاَهُمُ ﷺ عَنْ مِثْلِ ذَلِكَ، وَقَالَ: «ادْفِنُوهُمْ حَيْثُ صُرِعُوا»، وَيُقَالُ دُفِنَ مَعَهُ ^(١) فِي قَبْرِهِ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنِ جَحْشٍ.

وَأَصِيبَتْ عَيْنُ قَتَادَةَ فَرَدَّهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِيَدِهِ، فَكَانَتْ بَعْدَ ذَلِكَ أَحْسَنَ عَيْنِيهِ، وَكَانَتْ إِصَابَتُهَا بِسَهْمٍ خَرَجَتْ بِحَدَقَتِهَا عَلَى وَجْتِهِ، وَهُوَ يَقِي السَّهَامَ بِوَجْهِهِ عَنْ وَجْهِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ. وَاسْتَشْهَدَ أَنَسُ بْنُ النَّضْرِ عُمُ بْنُ مَالِكٍ، وَقَدْ أَبْلَى بِلَاءً حَسَنًا، وَفِيهِ نَزَلَتْ: ﴿مَنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ...﴾ [الأحزاب: ٢٣ وما بعدها].

وَنَزَلَ فِي شُهَدَاءِ أَحَدٍ - كَمَا رَوَاهُ الْحَاكِمُ - (وَكَانُوا سَبْعِينَ رَجُلًا؛ أَرْبَعَةٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ: حِمْزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمَطْلَبِ، وَمُصْعَبُ بْنُ عَمِيرٍ، وَعُثْمَانُ بْنُ شَاسٍ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَحْشٍ، وَسَائِرُهُمْ مِنَ الْأَنْصَارِ) قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَلَمْ يَلْبِسْ أَلْبَاسَهُمْ لِيُظْهِرَهُ لِبَنِيهِمْ أَنَّهُمْ لَمْ يَمُوتُوا﴾ أَوْ لِكُلِّ أَحَدٍ ﴿أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ ^(٢) أَيِ مِنْ ثَمَارِ الْجَنَّةِ.

قَالَ الْبَيْضاوِيُّ: وَقِيلَ نَزَلَتْ فِي شُهَدَاءِ بَدْرٍ، وَكَانُوا أَرْبَعَةً عَشَرَ رَجُلًا: ثَمَانِيَةٌ مِنَ الْأَنْصَارِ، وَسِتَّةٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ.

قَالَ الْقَاضِي زَكَرِيَّا: وَهُوَ غَلَطٌ، إِنَّمَا نَزَلَ فِيهِمْ آيَةُ الْبَقَرَةِ ^(٣).

وَعَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - أَنَّهَا قَالَتْ لِلنَّبِيِّ ﷺ: هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ أَشَدَّ مِنْ يَوْمِ أَحَدٍ؟ قَالَ: لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكَ، وَكَانَ أَشَدُّ مَا لَقِيتُهُ يَوْمَ الْعَقَبَةِ، إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى

(١) أَيِ مَعِ حِمْزَةٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) آلِ عِمْرَانَ: ١٦٩ وما بعدها.

(٣) أَيِ الْآيَةِ ١٥٤: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ﴾.

ابن عبد ياليل، فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب^(١) فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلنتني، فنظرت فإذا فيها جبريلُ، فناداني، فقال: إنَّ الله قد سمع قولَ قومك لك، وأنا ملك الجبال، وقد بعثني ربك إليك لتأمركني بأمرٍ فيما شئت، إن شئت أطبقت عليهم الأخشبين». فقال النبي ﷺ: «أرجو أن يُخرجَ الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به» متفق عليه^(٢).

فكان دأبه ﷺ الصفح الجميل، وكان يجعله شكرًا للنصر والظفر، كما قال عند فتح مكة لأهلها، وكانوا قد أخرجوه منها، وهي أحب البقاع إليه: «أقول لكم كما قال أخي يوسف: لا تثريب عليكم اليوم، يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين».

وكان ممن استشهد في أحد: سعدُ بن الربيع، وأخذ ميراثه أخوه، وكان لسعد بنتان، وكانت امرأته حاملاً، وكانت الموارث على موارث الجاهلية، ولم تكن الفروض نزلت، فنزلت على رسول الله ﷺ حينئذ، فدعا أخا سعد، فقال: أعط ابنتي أخيك ثلثي الميراث، وادفع إلى زوجته الثمن، والباقي لك» ولم يُورث الحمل يومئذ، ثم وُرث بعد ذلك.

قال النووي في «الروضة»: إنَّ تحريم الخمر كان بعد غزو أحد، وذكر أرباب السير أنه كان في حصار بني النضير، في ربيع الأول سنة أربع، ولم يباشر ﷺ القتال في غزوة

(١) قرن الثعالب: هو قرن المنازل، ميقات أهل نجد، تلقاء مكة، كذا في المراسد - وبينه وبين مكة يوم وليلة.
(٢) في الصحيح عن عائشة - رضي الله عنها - أنها قالت للنبي ﷺ: «هل أتى عليك يوم أشد من يوم أحد؟ قال: لقد لقيت من قومك، وكان أشد ما لقيت يوم العقبة إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن كلال فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي فإذا أنا بالسحابة قد أظلنتني، فنظرت فإذا فيها جبريل عليه الصلاة والسلام، فنادي، فقال: قد سمع الله قول قومك لك، وما ردوا عليك به، وقد بعثت إليك بملك الجبال فتأمره بما شئت فيهم». فناداه ﷺ ملك الجبال وسلم عليه وقال له: إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين فعلت؟ قال النبي ﷺ: بل أرجو أن يُخرج الله تعالى من أصلابهم من يعبد الله لا يشرك به شيئاً».

وفي رواية «بل أستاذني بهم» بدل «أرجو» فقال له ملك الجبال: «أنت كما سمَّك ربك رءوف رحيم» اهـ. (من السيرة الحلبية ص ٣٩٥، ٣٩٦ ج ١).

من الغزوات إلا في أحد.

ولم يقاتل معه ﷺ من الملائكة إلا في بدر، وإلا في حنين^(١)، قيل: وأحد.

ولم يَرَمْ ﷺ بالحصباء في وجوه القوم في شيء من الغزوات، إلا في هذه الثلاث، على خلاف في الثالثة.

ولم يُجْرَح: أي لم يُصَبِّهْ ﷺ جراحةً في غزوة من الغزوات إلا في أحد.

ولم ينصب ﷺ المنجنيق في غزوة من الغزوات إلا في غزوة الطائف، وفيه أنه نصبه على بعض حصون خيبر، ولم يتحصن بالخندق في غزوة إلا في غزوة الأحزاب^(٢). وفي هذه السنة (الثالثة من الهجرة) كانت غزوة حمراء الأسد:

وهو جبل بناحية العقيق، بينه وبين المدينة ثمانية أميال، وذلك أنه لما كان صَبِيحَةَ^(٣) يوم أحد، وهو سادس عشر شوال من هذه السنة، أذن مؤذنٌ رسول الله ﷺ بالخروج لطلب العدو، وأن لا يخرج إلا مَنْ حضر معه بالأمس، فخرج، وخرجوا على ما بهم من الجهد والجراح - حتى كان بأسيد بن حضير تسع جراحات، يريد أن يداويها، فلما سمع النداء ترك المداواة سمعًا وطاعة لله ورسوله - وسار عليه الصلاة والسلام متجلدًا مرهبًا للعدو، وانتهى إلى حمراء الأسد، وكان المشركون قد صاروا إليها من أحد، ودفع لواءه وهو معقود لم يحلّ، إلى عليّ، أو إلى أبي بكر، إظهارًا للقوة وإرهابًا للعدو، وأقام بها ثلاثًا، ومر برسول الله ﷺ بـحمراء الأسد: سعيد بن أبي معبد الخزاعي

(١) من المتفق عليه أن الملائكة لم تقاتل إلا في بدر، وأما في حنين فقد نزلت الملائكة ولكن لم تقاتل.

(٢) الواقع أن الله سبحانه وتعالى أدب الأمة كلها بهذا الدرس العملي المجيد، وعلمها أن مخالفة الرسول ﷺ فيه الخطر كل الخطر على المسلمين أنفسهم؛ إذ فيه ضياعهم.

ومن المعروف أن الصحابة - رضوان الله عليهم - لم ولن ولا يقصدون مخالفة رسول الله ﷺ، ولكن لما حدث منهم ما حدث - عن طريق التأويل لا القصد - لقنهم الله هذا الدرس العملي تربية لهم وللأمة فيما بعد. أما من قصد المخالفة من المسلمين من قريب أو بعيد فليعد نفسه للدواهي، وها نحن نرى بأعيننا ما نرى من مغبة هذه المخالفة، نسأل الله الستر والعفو والعافية.

(٣) يقصد الصباح التالي لغزوة أحد.

سائراً إلى مكة، ولقي أبا سفيان وكفار قريش بالروحاء، فأخبرهم بخروج رسول الله ﷺ في طلبهم، فقالوا: «لقد أجمعنا الكثرة على المسلمين لنستأصل بقيتهم»، فقال سعيد الخزاعي: «إني أنهاكم عن ذلك، فلا ترجعوا إلى المدينة». فثبط عزم أبي سفيان عن الرجعة، وأكبر عليهم خروج رسول الله ﷺ، وقد قذف الله في قلوبهم الرعب، فانصرفوا سراعاً على ظفرٍ منهم، حيث لم يأمنوا أن تكون الدولة^(١) للمسلمين، حتى أتوا مكة، فلما بلغ النبي ﷺ ذلك قال: حسبنا الله ونعم الوكيل، فأنزل الله تعالى: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَالرُّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ...﴾ [آل عمران: ١٧٢] الآية. وكان خليفته على المدينة ابن أم مكتوم.



(١) الاستيلاء والغلبة.

الفصل الرابع

في ظواهر السنة الرابعة من الهجرة وما فيها من الغزوات

وفي هذه السنة كانت غزوة بني النضير: ونُقل عن النووي في «الروضة» أن غزوة بني النضير كانت سنة ثلاث، وأن تحريم الخمر كان بعد غزوة أحد^(١)، وكلامه يميل إلى أن تحريم الخمر كان سنة ثلاث، ورجَّح الدمياطي أيضاً في سيرته أن التحريم كان في السنة الثالثة.

والقول بأن التحريم كان في السنة الرابعة مشهور، وهناك قول آخر راجح، وهو: أنها كانت في غزوة الحديبية سنة ست من الهجرة، بدليل أن أنساً كان ساقياً لها، ولما ورد النهي عن ذلك أراقها، ولو كان ذلك سنة أربع لكان أنس يصغر عن ذلك، ويرجح قولهم: إن تحريم الخمر كان قبل الفتح، وربما يُجمع بين الأقوال بما رواه أحمد عن أبي هريرة أنها حُرِّمت ثلاث مرات، قال: «قدم المصطفى ﷺ المدينة وهم يشربونها، ويأكلون^(٢) الميسر، فسألوه عنهما، فأنزل الله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ...﴾ [البقرة: ٢١٩]، قال الناس: ما حرَّم علينا إنما قال «فيهما إثم كبير ومنافع للناس». وكانوا يشربون الخمر حتى صلى يوماً رجلٌ من المهاجرين، وأم أصحابه في المغرب، فخلط في قراءته، فأنزل الله تعالى الآية التي في النساء: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرُبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٣]. فكان الناس

(١) وذكر ابن هشام أنها كانت في ربيع الأول من السنة الرابعة.

(٢) انظر ابن كثير ص ٩٢ ج ٢.

يشربونها في وقت دون وقت، ثم نزلت الآية التي في المائدة، بالتأكيد، وهي قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمُ رَجَسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ﴾ [المائدة: ٩٠، ٩١]، إلى قوله تعالى: ﴿فَهَلْ أَنتم مِّنْهُمْ﴾ قالوا: انتهينا ربنا.

قال المفسرون: لما أنزل الله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحَرِّمُوا طَيِّبَاتٍ مَّا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [المائدة: ٨٧]، وقوله: ﴿وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ [المائدة: ٨٨]، وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ نَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ [النحل: ٦٧]، وكانت الخمر والميسر مما يستطاب عندهم، بين الله في هذه الآية^(١) أن الخمر والميسر غير داخلين في جملة الطيبات والحلال، بل هما من جملة المحرمات.

وروى أبو ميسرة أن عمر بن الخطاب -رضي الله تعالى عنه- قال: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً، فنزلت الآية التي في سورة البقرة: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ [البقرة: ٢١٩]. فدعي عمر فقرئت عليه، ثم قال: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً، فنزلت الآية التي في النساء: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٣] الآية. فدعي عمر فقرئت عليه ثم قال: «اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً». فنزلت الآية التي في المائدة: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمُ رَجَسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَهَلْ أَنتم مِّنْهُمْ﴾، فدعي عمر فقرئت عليه، فقال: قد انتهينا. أخرجه الترمذي من طريقين، وقال رواية عن أبي ميسرة: هذا أصح، وأخرجه أبو داود والنسائي.

وروى مصعب بن سعد عن أبي قال: صنع رجل من الأنصار طعاماً فدعانا فشربنا - وذلك قبل أن تحرم الخمر - حتى انتشينا، فتفاخرت الأنصار وقرش، فقالت الأنصار: نحن أفضل منكم، فقال سعد بن أبي وقاص: المهاجرون خير منكم، فأخذ رجل من

(١) المائدة: ٩٠، ٩١.

الأنصار لَحْيٍ^(١) جمل فضرب رأس سعد فشججه شجةً موضحة^(٢)، فأتى سعدٌ لرسول الله ﷺ فأخبره، فنزلت هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ﴾ إلى قوله: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوُونَ﴾.

وقال ابن عباس: نزل تحريمُ الخمر في قبيلتين من قبائل الأنصار، شربوا حتى ثملوا وعبث بعضهم ببعض، فلما صحوا جعل الرجل يرى الأثر بوجهه ولحيته، فيقول: فعل بي هذا أخي فلان، وكانوا إخوة ليس في قلوبهم ضغائن، فأنزل الله تحريم الخمر في هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ﴾ إلى قوله: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوُونَ﴾.

وقوله: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوُونَ﴾ لفظة استفهام^(٣)، ومعناه الأمر، أي انتهوا، وهذا من أبلغ ما يُنهى به؛ لأنه تعالى ذم الخمر والميسر وأظهر قبحهما للمخاطبين، كأنه قيل: قد تلي عليكم فيها من أنواع الصوارف والموانع، فهل أنتم متتهون مع هذه الأمور؟ أم أنتم على ما كنتم عليه، كأنكم لم توعظوا، أو تنزجروا؟

وفي هذه الآية دليل على تحريم شرب الخمر؛ لأن الله تعالى قرن شرب الخمر والميسر بعبادة الأصنام، وعدّد أنواع المفسدات الحاصلة بهما، ووعد بالفلاح عند اجتنابهما، وقال في آخر الآية: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوُونَ﴾ ومعناه الأمر.

وقال بعضهم: الحكمة في وقوع التحريم على هذا الترتيب: أن القوم كانوا ألفوا شرب الخمر، وكان انتفاعهم به كثيرًا، فعلم الله تعالى أنه لو منعهم دفعةً واحدة لَشَقَّ عليهم، فاستعمل في التحريم هذا التدريج والرفق.

(١) لحي جمل: أي عظمة.

(٢) أي أبدت العظم واضحًا.

(٣) الاستفهام هنا تقرّيع وزجر في غاية القوة، إذ معناه، والله تعالى أعلم: هل أنتم متتهون أو أنزل عليكم الدواهي والقوارع، ولذلك لما سمعها عمر رضي الله عنه فزع منها وقال: انتهينا يا رب (ثلاث مرات).

غزوة بني النضير:

وسبب تلك الغزوة - على بني النضير - أنه ﷺ ذهب إليهم ليستعين بهم في دية رجلين من بني كلاب بن ربيعة - مُوَادِعَيْنَ له - كان عمرو بن أمية الضمري قتلها غلطاً في رجوعه من معونة، ظاناً أنهما حَزَبِيَان، وكان النبي ﷺ عقد لهما أماناً، ولم يشعر به ضمرة، وكان ﷺ قد تعاهد مع بني النضير على ترك القتال، وعلى أن يعينوه في الديات، فحضر إليهم، وكان معه من أصحابه جماعة دون العشرة، منهم أبو بكر، وعمر، وأسيد بن حضير، فأجلسوهم بجانب دار من بيوتهم، وأرادوا الغدر به ﷺ، وأمروا أن يصعد رجل إلى الجدار ويلقي عليه رَحًى، فلما علم ذلك انصرف عنهم إلى المدينة حيث كان ذلك منهم نقضاً للعهد، وأرسل إليهم أن اخرجوا من بلدي؛ لأن ضياعهم كانت من أعمال المدينة، فأبوا الخروج وأذنوا بالمحاربة، فتجهَّز إليهم وغزاهم وحاصرهم في ربيع الأول، وبعد مُضِيِّ لِيَالٍ من الحصار سألوه ﷺ أن يُجْلِيَهُمْ إلى خيبر على أنَّ لهم ثُلثَ ما حملت الإبل من أموالهم، إلا السلاح، ولرسول الله ﷺ نخلهم وأرضهم، فأجابهم إليه، فخرجوا ومعهم الدفوف والمزامير تجلداً، فمضى من بني النضير إلى خيبر ناسٌ، وناسٌ إلى الشام، وبقيت أموالهم فَيْئاً لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ خالصة له دون المسلمين؛ لأن المسلمين لم يوجفوا عليها بخيل ولا ركاب، يقسمها كيف شاء وحيث شاء، إلا سهل بن حنيف وأبا دجانة فذكرا فقراً فأعطاهما منه شيئاً.

ويُروى أن النبي ﷺ لما ظهر على أموال بني النضير، قال للأَنْصَار: «إن إخوانكم من المهاجرين ليست لهم أموال، فإن شئتم قَسَّمْتُ هذه الأموال بينكم وبينهم جميعاً، وإن شئتم أمسكتهم، فقسمت هذه فيهم»، قال السعدان (سعد بن معاذ وسعد بن عباد): «بل اقسم هذه فيهم، واقسم لهم من أموالنا ما شئت» فقال بقية الأنصار مثل ذلك تبعاً للسعدين، وفرح ﷺ، وقال: «اللهم ارحم الأنصارَ، وأبناء الأنصار، وأبناء

أبناء الأنصار»^(١). فأنزل الله فيهم قوله تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩]، أي فاقة وحاجة إلى ما يؤثرون، فلهذا قسم ﷺ الأموال على المهاجرين بحسب ما اقتضته المصلحة، فعين لأبي بكر، وعبد الرحمن بن عوف، وصهيب، وأبي سلمة بن عبد الأسد المخزومي، ضياعاً معروفة، ومن الأنصار أعطى سهل بن حنيف، وأبا دجانة شيئاً لفقرهما.

وفي بني النضير نزلت سورة الحشر^(٢) التي سمّاها ابن عباس -رضي الله عنه- «سورة النضير» كما رواه سعد بن جبير.

وفي سنة أربع قصرت الصلاة الرباعية إلى ركعتين في السفر، وهذا مبني على أن هذه الصلاة أربعة تامة، ثم قصرت في السفر، وقيل إنها فرضت في الحضر أربعاً، وفي السفر ركعتين، وهو قول ابن عباس -رضي الله عنه- قال: فرض الله الصلاة على لسان نبيكم في الحضر أربعاً، وفي السفر ركعتين -رواه مسلم وغيره- كذا في «المواهب اللدنية».

وفي الوفا^(٣): «الذي عليه الأكثر: أن الصلاة نزلت بتمامها من بدء الأمر» والله أعلم، وقد سبق التنويه إلى ذلك في مبعثه ﷺ.

وفي هذه السنة الرابعة نزلت آية التيمم: وهي قوله تعالى: ﴿فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ [المائدة: ٦]، قال في معالم التنزيل^(٤): «وكان بدء التيمم ما روى عن عائشة قالت: خرجنا مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره، حتى إذا كنا بالبيداء ونزل الجيش، انقطع عقد لي، فأقام رسول الله ﷺ، وأقام الناس معه، وليسوا على ماء، وليس معهم ماء، فأتى الناس إلى أبي بكر، فقالوا: ألا ترى ما صنعت عائشة برسول الله ﷺ وبالناس

(١) رواه ابن ماجه عن عمرو بن عوف بلفظ «رحم الله الأنصار» بدل «اللهم ارحم الأنصار».

(٢) هي السورة التاسعة والخمسون في ترتيب المصحف، وآياتها ٢٤ آية.

(٣) كتاب الوفا بأحوال المصطفى ﷺ.

(٤) للبغوي الشافعي المعروف بالفراء.

معه؟! فجاء أبو بكر - رضي الله عنه - ورسول الله ﷺ واضع رأسه على فخذي قد نام، فقال: حَبَسْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ والناسَ وليسوا على ماء وليس معهم ماء! فقالت عائشة: فعاتبني أبو بكر، ثم قال ما شاء الله أن يقول، وجعل يطعنني بيده، فلا يمنعني من التحرك إلا مكان رسول الله ﷺ على فخذي. فنام رسول الله ﷺ حتى أصبح على غير ماء، فأنزل الله عز وجل آية التيمم، فتيَّمَمُوا، فقال أسيد بن حضير - وهو أحد النقباء وكان رئيساً في الجاهلية والإسلام -: «ما هي بأول بركتكم يا آل أبي بكر». قالت عائشة: فبعثنا البعير الذي كنتُ عليه فوجدنا العقد تحته، وقولها: فبعثنا البعير: أي أثرناه. والتيمم من خصائص هذه الأمة لتسهيل عليهم أسباب العبادة، ويدل على ذلك ما روى عن حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ: «فُضِّلْنَا عَلَى النَّاسِ بِثَلَاثٍ: جُعِلَتْ صَفُوفُنَا كَصَفُوفِ الْمَلَائِكَةِ، وَجُعِلَتْ الْأَرْضُ كُلُّهَا لَنَا مَسْجِدًا، وَجُعِلَتْ تَرْبَتُنَا لَنَا طَهُورًا إِذَا لَمْ نَجِدِ الْمَاءَ» أخرجه مسلم^(١).

* * *

الرَّجْمُ:

وفي السنة الرابعة (في ذي القعدة) كان رجم اليهوديين اللذين زنيا، ونزل قوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٧]. وفي العمدة: عن عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - قال: إن اليهود جاءوا إلى رسول الله ﷺ فذكروا له أن امرأة منهم ورجلاً زنيا، فقال لهم رسول الله ﷺ: ما تجدون في التوراة في شأن الرجم؟ فقالوا: نفضحهم ويُجلدون، فقال عبد الله ابن سلام: كذبتم إن فيها الرجم. فأتوا بالتوراة فنشروها، فوضع أحدهم يده على آية الرجم، وجعل يقرأ ما قبلها وما بعدها، فقال عبد الله بن سلام: ارفع يدك، فرفع يده فإذا آية الرجم، فقالوا:

(١) ولفظه كاملاً - كما في الفتح الكبير - «فضلنا على الناس بثلاث: جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة، وجعلت لنا الأرض كلها مسجداً وتربتها لنا طهوراً إذا لم نجد الماء، وأعطيت هذه الآيات من آخر سورة البقرة، من كنز تحت العرش، لم يُعْطَها نبي قبلي» رواه مسلم، والإمام أحمد، والنسائي عن حذيفة.

صدقَت يا محمد، فأمر بهما النبي ﷺ فُرجما، قال: فرأيت الرجل يُحني على المرأة يقيها الحجارة!. والذي وضع يده على آية الرجم: عبد الله بن سوريا.

واختلف العلماء في أن الإسلام هل هو شرط في الإحصان^(١) أم لا، فذهب الشافعي إلى أنه ليس شرطاً، فإذا حكم الحاكم على الذمي المحصن رجماً. ومذهب أبي حنيفة أن الإسلام شرط في الإحصان، واستدل الشافعي بهذا الحديث، ورجم النبي ﷺ اليهوديين. واعتذر السادة الحنفية عنه بأن قالوا: رجمهما بحكم التوراة، فإنه سألهم عن ذلك، وإن ذلك عند قدوم النبي ﷺ المدينة، وقالوا: إن حدّ الزنا نزل بعد ذلك، فكان ذلك الحديث منسوخاً، وهذا يحتاج إلى تحقيق التاريخ، أعني القول بالنسخ، وقوله: «فرأيتُ الرجل يحني على المرأة الجيد» في الرواية «يجناً» بفتح المثناة تحت وسكون الجيم وفتح النون والهمز، أي يميل، ومنه الجنأ، وفي كلام بعضهم ما يشعر بأن اللفظة بالحاء المهملة، يقال: حنى الرجل يحني حنواً: إذا أكبَّ على الشيء. فتحصّل من هذا أن السادة الحنفية يشترطون في الرجم الإسلام، وقد استدلوا على ذلك بما في البخاري عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: «أتى رسول الله ﷺ رجل من الناس وهو في المسجد فناداه: يا رسول الله إني زنيْتُ. فأعرض عنه النبي ﷺ، فتَنَحَّى لِشِقِّ وجهه الذي أَعْرَضَ قِبَلَهُ، فقال: يا رسول الله إني زنيْتُ، فأعرض عنه حتى ثَنَى ذلك أربع مرات، فلما شهد على نفسه أربع شهادات، دعاه النبي ﷺ، فقال: أبكِ جنون؟ قال: لا يا رسول الله، فقال: أَحْصَنْتِ؟ قال: نعم يا رسول الله، قال النبي ﷺ: اذهبوا به فارجموه». اهـ.

والرجل: «ماعز بن مالك - رضي الله عنه».

ويروى عن أبي سلمة بن عبد الرحمن أنه سمع جابر بن عبد الله يقول: كنت فيمن رجمه، فرجمناه بالمصلّى، فلما أدلَفَتْهُ الحجارة «بالدال المهملة والفاء، أي: (أوجعته

(١) الإحصان: الزواج.

وأوهنته) هرب، فأدركناه بالحرّة، فرجمناه.

ويستدل للرجم أيضاً بما رُوي عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود عن أبي هريرة وزيد بن خالد الجهني، أنهما قالاً: إن رجلاً من الأعراب أتى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله أنشدك الله إلا ما قضيتَ بيننا بكتاب الله تعالى. فقال الخصم الآخر وهو أفضقه منه: نعم فاقض بيننا بكتاب الله تعالى، وائذن لي. فقال رسول الله ﷺ: قل، قال: إن ابني كان عسيفاً^(*) على هذا فزني بامرأته، وإنني أخبرت أن على ابني الرّجم، فافتديت منه بمائة شاة ووليدة، فسألت أهل العلم فأخبروني أن ما على ابني جلد مائة وتغريب عام، وأن على امرأة هذا الرّجم، فقال رسول الله ﷺ: والذي نفسي بيده لأقضي بينكما بكتاب الله تعالى: أما الوليدة والغنم فردّ عليك، وأما ابنك فإن عليه جلد مائة وتغريب عام، ثم قال لرجلٍ من أسلم: اغد يا أنيس إلى امرأة هذا، فإن اعترفت فارجمها، قال: فغدا إليها، فاعترفت فرُجمت. قوله «إلا قضيتَ بيننا بكتاب الله» -تطلق هذه اللفظة على القرآن خاصة، وقد يطلق كتاب الله على حكم الله مطلقاً، والأولى حملُ هذه اللفظة على هذا؛ لأنه ذكر فيه التغريب، وليس ذلك منصوباً في كتاب الله، إلا أن يوجّه ذلك بواسطة أمر الله بطاعة الرسول واتباعه^(١)، وفي قوله: «ائذن لي» حسن الأدب في المخاطبة للأكابر، وقوله: «كان عسيفاً» أي أجيراً، وقوله: «افتديت منه» أي من الرّجم، وقوله: ردّ عليك، أي مردود عليك، أطلق اسم على اسم المفعول.

وقال في «التبيين»: وَجْهُ الرّجم لأنه ﷺ أمر برجم الغامدية وماعزاً وكانا محصنين، وأخرج ماعزاً إلى الحرّة، وقيل إلى البقيع ففرّ إلى الحرّة فرُجم بالحجارة حتى مات. ومما رواه الجماعة أنه عليه الصلاة والسلام رجم المرأة التي زنى بها العسيفُ، وقال عليه الصلاة والسلام «لا يحلُّ دَمُ امرئٍ إلا بإحدى ثلاث: كفرٌ بعد إيمان، وزنا

(*) العسيف: الأجير المستهان به.

(١) في مثل قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأَحْذَرُوا﴾ [المائدة: ٩٢]، و ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٢]، وغيرهما كثير في القرآن الكريم.

بعد إحصان، وقتل النفس بغير حق»^(١).

وقال عمر - رضي الله عنه - وهو على المنبر: مما أنزل في القرآن: «الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما ألبة» وسيأتي قومٌ ينكرون ذلك، ولولا أن الناس يقولون: إن عمر زاد في كتاب الله لكتبتهما في حاشية المصحف.

وعليه إجماع الصحابة - رضي الله عنهم - فوصل إلينا إجماعهم بالتواتر، ولا معنى لإنكار الخوارج الرجم؛ لأنهم ينكرون القطع برجم النبي ﷺ، فيكون مكابرةً وعناداً.

وقوله تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ [النور: ٢] عامٌ في المحصن وغيره، إلا أنها نسخت في المحصن بما ذكر، فبقيت معمولاً بها في غيره، ويزاد على المائة لغير المحصن بالسنة: تغريب عام، والرقيق على النصف مما ذكر، ولا رجم عليه؛ لأنه لا يتنصّف. وفي «البحر الرائق» قوله تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ انتسخ في حق المحصن، فبقى في حق غيره معمولاً به، ويكفي في تعيين الناسخ القطع برجم النبي ﷺ، فيكون من نسخ الكتاب بالسنة الفعلية لأنه ﷺ رجم ماعزاً، وكان قد أحصن، وثبوت الرجم عن رسول الله ﷺ متواتر المعنى.

* * *

وفي هذه السنة في جمادي الأولى كانت غزوة ذات الرقاع^(٢):

(١) وللحديث عدة ألفاظ، وممن رواه الإمام أحمد، والترمذي، والنسائي وابن ماجة، والحاكم، والأربعة، ومن ألفاظه: «لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني، والنفس بالنفس والتارك لدينه المفارق للجماعة» متفق عليه، ورواه الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود.

(٢) قيل: هي اسم شجرة في ذلك الموضع، وقيل لأن أقدامهم نقتب من المشي، فلقوا عليها الخرق، وقيل: الرقاع كانت في ألويتهم، وقيل: هو اسم جبل فيه سواد وبياض وحمرة. اهـ. من مراصد الاطلاع. والواقع أن ذلك كله اجتمع في هذه الغزوة.

وفي السيرة الحلبية: «وتسمى غزوة الأعاجيب، وقال ابن إسحق: إنها بعد غزوة بني النضير: أي سنة أربع من الهجرة، وقال غيره: مضى ربيع الأول والثاني وبعض جماد من السنة الرابعة، ثم غزا نجدًا، وبني محارب، وبني ثعلبة، وذكر البخاري أنها بعد خيبر واحتج بما رواه عن أبي موسى - رضي الله عنه - أنه شهد غزاة ذات الرقاع، ثم ساق الحديث.

وقال النووي في «الروضة» إنها كانت لِعَشْرِ خُلُونٍ مِنَ الْمُحَرَّمِ سَنَةِ خَمْسٍ، وَالرَّقَاعُ بِكَسْرِ الرَّاءِ جَبَلٌ سُمِّيَتْ بِهِ؛ لِأَنَّهُ فِيهِ بَقْعًا حُمْرًا وَسُودًا، أَوْ لِأَنَّهُ خِيلَهُمْ كَانَ بِهَا سُودٌ وَبَيَاضٌ، أَوْ لِأَنَّ صَلَاةَ الْخَوْفِ كَانَتْ بِهَا، فَسُمِّيَتْ بِذَلِكَ لِتَرْقِيعِ الصَّلَاةِ فِيهَا، أَوْ لِأَنَّهَا تُقَرَّتُ فِيهَا أَقْدَامُ الصَّحَابَةِ، وَسَقَطَتْ أَظْفَارُهُمْ، حَتَّى كَانُوا يَلْقُونَ عَلَى أَرْجُلِهِمُ الْخَرَقَ، وَيُقَالُ لِلْخَرَقِ رَقَاعٌ، وَتَسْمَى غَزْوَةُ الْأَعَاجِيبِ؛ لِمَا وَقَعَ فِيهَا مِنَ الْأُمُورِ الْعَجِيبَةِ، وَغَزْوَةُ بَنِي مُحَارِبٍ، وَبَنِي ثَعْلَبَةٍ؛ وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا بَلَغَهُ ﷺ أَنَّ بَنِي مُحَارِبٍ وَبَنِي ثَعْلَبَةٍ جَمَعُوا جَمُوعًا مِنْ غُطْفَانٍ لِمُحَارِبَتِهِ، خَرَجَ فِي أَرْبَعِمِائَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ- فَغَزَا نَجْدًا يُرِيدُ بَنِي مُحَارِبٍ وَبَنِي ثَعْلَبَةٍ، وَلَمَّا بَلَغَ ﷺ نَجْدًا، لَمْ يَجِدْ بِهَا أَحَدًا غَيْرَ نِسْوَةٍ، فَأَخَذَهُنَّ، وَفِيهِنَّ جَارِيَةٌ وَضَيْئَةٌ. ثُمَّ لَقِيَ جَمْعًا مِنْ غُطْفَانٍ، فَتَقَارَبَ الْجَمْعَانِ، وَلَمْ يَكُنْ بَيْنَهُمَا حَرْبٌ حَيْثُ خَافَ الْمُسْلِمُونَ أَنْ يُغَيِّرَ الْمُشْرِكُونَ عَلَيْهِمْ وَهُمْ غَافِلُونَ، حَتَّى صَلَّى النَّبِيُّ ﷺ بِالنَّاسِ صَلَاةَ الْخَوْفِ، وَكَانَتْ أَوَّلُ صَلَاةٍ لِلْخَوْفِ^(١)، فَهَمَّ بِهِمُ الْمُشْرِكُونَ، فَقَالَ قَائِلُهُمْ: دَعُوهُمْ؛ فَإِنَّ لَهُمْ صَلَاةَ الَّتِي هِيَ الظُّهْرُ^(٢) وَهِيَ أَحَبُّ إِلَيْهِمْ مِنْ أَبْنَائِهِمْ، فَنَزَلَ جَبْرِيلُ -عَلَيْهِ السَّلَامُ- عَلَيْهِ ﷺ فَأَخْبَرَهُ، فَصَلَّى صَلَاةَ الْعَصْرِ (صَلَاةَ الْخَوْفِ)؛ صَلَّى بِطَائِفَةٍ رَكَعَتَيْنِ وَبِالْأُخْرَى أُخْرَيْنِ، وَنَزَلَ بِهَا الْقُرْآنُ، وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ...﴾ [النساء: ١٠٢]، وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ شَرَّهُمْ بَعْدَ أَنْ تَعَرَّضَ لَهُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ مَنْ يَقْتُلُهُمْ فَلَمْ يَقْدِرُوا، فَمِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ جَاءَ رَجُلٌ مِنْ غُطْفَانٍ وَهُوَ غُورَثٌ -بِالْغَيْنِ الْمَعْجَمَةِ وَالثَّاءِ الْمَثْلَثَةِ- فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أُرِيدُ أَنْ أَنْظُرَ إِلَى سَيْفِكَ هَذَا، وَكَانَ مُحَلًى بِفُضَّةٍ، فَدَفَعَهُ إِلَيْهِ فَاسْتَلَّهُ وَهَمَّ بِهِ، فَكَبَّتْهُ اللَّهُ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَمَا تَخَافُنِي؟ فَقَالَ لَهُ: لَا، مَا أَخَافُ مِنْكَ. ثُمَّ رَدَّ سَيْفَهُ إِلَيْهِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَتَأَيَّهَا

(١) نص ما في السيرة الحلبية: «وكانت أول صلاة للخوف صلاها». قال: وفي رواية: حانت صلاة الظهر، فصلاها ﷺ بأصحابه، فهم به المشركون فقال قائلهم: دعوهم فإن لهم صلاة بعد هذه هي أحب إليهم من أبنائهم، وهي صلاة العصر» ص ٢٨٦ ج ٢ (طبعة مصطفى محمد).

وروى أن أول صلاة صلاها للخوف كانت بعسفان في غزوة الحديبية.

(٢) وفي رواية أنها العصر.

الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ ﴿[المائدة: ١١]﴾، والمفسرون على أن هذه الحادثة كانت في غزوة «أنمار» المتقدمة، ولا مانع من تعدد النزول لتعدد الأسباب، كما استظهره بعضهم.

ورجع ﷺ إلى المدينة، وكانت مدة غيبته خمس عشرة ليلة.

* * *

وفي هذه السنة كانت غزوة بدر الموعود: وتسمى غزوة بدر الصغرى، ويقال الصفراء بالفاء، وبدر الثانية والثالثة.

وسميت «بدر الموعود» لأن أبا سفيان نادى يوم أحد: «الموعود بيننا وبينكم بدر العام المقبل»، فخرج ﷺ ومعه ألف وخمسمائة من أصحابه، فأقاموا ببدر ثمانية أيام، مدة الموسم، وكان أبو سفيان قد خرج من مكة في ألفين من قريش، حتى نزل خارج مكة، وقد قام به رعب من النبي ﷺ، فجمع قريشاً، وقال لهم: إنه لا يصلح هذا العام المجذب لقتال محمد، فارجعوا. ورجعوا، وباع المسلمون ما كان معهم من التجارة وربحوا ربحاً كثيراً، وفيه نزل: ﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ﴾ [آل عمران: ١٧٤]، وانصرف ﷺ إلى المدينة.

وفيه وُلد الحسين -رضي الله عنه^(١).

وفي هذه السنة كانت «غزوة الخندق» ويقال لها: «غزوة الأحزاب»:

وهي الغزوة التي ابتلى الله تعالى فيها عباده المؤمنين، وثبت الإيمان في قلوب أوليائه المتقين، وأظهر ما كان يبطنه أهل النفاق والشقاق المعاندين، ولم تكن هذه الغزوة في شوال أو في ذي القعدة من السنة الخامسة كما ذكره أرباب السير، بل حقق النووي في «الروضة» أن الأصح أنها كانت في الرابعة، ويقويه أن ابن عمر رضي الله عنه يقول: «ردّني رسول الله ﷺ يوم أحد، وأنا ابن أربع عشرة سنة، ثم أجازني يوم

(١) ولد رضي الله عنه لخمس خلون من شعبان سنة ٤ هجرية.

الخنديق وأنا ابن خمس عشرة سنة»، فليس بينهما إلا سنة واحدة. وغزوة أحد كانت سنة ثلاث، فتكون غزوة الخندق سنة أربع، فهي قبل غزوة دومة الجندل.

قال الحافظ بن حجر: ولا حجة فيه؛ لاحتمال أن يكون ابن عمر -رضي الله تعالى عنه- في أحد كان أول ما طعن في الرابعة عشر، وكان في الأحزاب التي هي «غزوة الخندق» قد استكمل الخمسة عشر، وحينئذ يكون بين أحد والخنديق سنتان، كما هو الواقع لا سنة واحدة، فعلى ذلك لا مانع أنها كانت في الخامسة.

وسبب هذه الغزوة أنه لما وقع إجلاء بني النضير من أماكنهم، سار منهم جمع من كبرائهم، منهم سيدهم حيي بن أخطب -أبو صفية أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها- وعظيمهم سلام بن مشكم، ورئيسهم كنانة بن أبي الحقيق، وهودة بن قيس، إلى أن قدموا مكة على قريش يدعونهم ويحرّضونهم ليحزّبوا الأحزاب على حرب رسول الله ﷺ، وكانت الأحزاب عشرة آلاف، وكان المدبر لأمرها والقائم بشأنها أبو سفيان، وأنزل الله تعالى في ذلك صدر سورة الأحزاب.

فلما بلغه ﷺ ما أجمعوا عليه ندب الناس وأخبرهم خبر عدوّهم، وشاورهم في أمرهم، وقال لهم: هل نزل من المدينة أو نكون فيها؟ فأشار عليه سلمان الفارسي -رضي الله تعالى عنه- بالخنديق، حيث قال: «يا رسول الله إنّنا كنا بأرض فارس إذا تخوّفنا الخيل، خندقنا عليهم»، فأمر ﷺ بحفر الخندق حول المدينة، وعند ذلك ركب رسول الله ﷺ فرسًا له ومعه عدة من المهاجرين والأنصار، وأمرهم بالجدّ، ووعدهم النصر إن هم صبروا، فعمل الخندق من مكاييد الفرس، لا من مكاييد العرب، ولما نظر المشركون إلى الخندق، قالوا: والله إن هذه لمكيدة ما كانت العرب تكيدها.

وفي أمره ﷺ بحفر الخندق حول المدينة بمعرفة سلمان الفارسي، وفي التماس عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- من أبي لؤلؤة غلام المغيرة أن يعمل له رَحَى تطحن بالريح، دلالة على استحباب حصول الإسلام على أدوات الأشياء النافعة الموجودة بالممالك الأجنبية كما هو جارٍ الآن بالبلاد الإسلامية الراغبة في تجديد المنافع

للحرب والسلام.

وعمل ﷺ بنفسه في حفر الخندق، ولما بدأ ﷺ قال:

بسم الله وبه بُدِينَا^(١) ولو عَبْدُنَا غَيْرُهُ شَقِينَا

يا حَبَّذَا رَبًّا وَحَبَّ دِينًا

وقال ﷺ متمثلاً بقول ابن رواحة وهو ينقل التراب وقد وارى الغبار عن جلدة بطنه

الشريف:

لَاهُمَّ لَوْلَا أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَلَّيْنَا

فَأَنْزَلْنَا سَكِينَةً عَلَيْنَا وَثَبَّتْ الْأَقْدَامَ إِنْ لَا قَيْنَا

وَالْمَشْرُكُونَ قَدْ بَغَوْا عَلَيْنَا وَإِنْ أَرَادُوا فِتْنَةً أَبَيْنَا^(٢)

يمدّ بها صوته مكرراً لها: «أبينَا أبينا».

وروى أن حفر الخندق كان في زمان عسرة ومجاعة، حتى إن الأصحاب -رضي الله عنهم- كانوا يشدّون على بطونهم الحجر من الجهد والجوع الذي بهم، ولبثوا ثلاثة أيام لا يذوقون زاداً، وعن أبي طلحة: «شكونا إلى رسول الله ﷺ الجوع، ورفعنا عن بطوننا عن حجر، فرفع رسول الله ﷺ عن بطنه حجرين. ذكره الترمذي في الشمائل، ولهذا أشار صاحب البردة بقوله:

وَشَدَّ مِنْ سَغَبٍ أَحْشَاءَهُ وَطَوَى تَحْتَ الْحِجَارَةِ كَشْحًا مُتَرَفَ الْأَدَمِ

وهذا منه ﷺ تعليمٌ للأمة للصبر على الجوع، وإلا ففي الحقيقة هو مُطْعَمٌ شَبَّعَ مِنْ فَيْضِ مَوْلَاهُ؛ لَأَنَّهُ كَانَ يُطْعَمُ وَيَسْقَى مِنْ رَبِّهِ، وَإِنَّمَا الْعَادَاتُ الظَّاهِرِيَّةُ قَدْ تَجْرِي مَجْرَاهَا، وَلَوْ فِي حَقِّ الْأَنْبِيَاءِ، حَتَّى إِنَّهُ ﷺ فِي الصَّوْمِ كَانَ يَصِيرُ كَالطَّاعِمِ الرِّيَّانِ، مَكْرُمَةً لَهُ ﷺ،

(١) بضم الباء وكسر الدال (الطهطاوي).

(٢) وليس هذا من إنشاء النبي ﷺ، وإنما هو مردد، وكان من عادته أن يَقلِّبَ البيت أو يَكسِرَهُ ليخرج من ميزان الشعر، وهكذا في كل ما ورد أنه رَدَّه.

وإذا حصل له في النادر إذاقة جوع، فإنما كان ذلك على وجه الابتلاء الذي كان يحصل لإخوانه من الأنبياء والمرسلين؛ تعظيمًا لثوابهم، وإظهارًا لجواز الأعراض البشرية عليهم؛ صلوات الله وسلامه عليهم.

وعن أنس - رضي الله عنه - خرج رسول الله ﷺ إلى الخندق، فإذا المهاجرون والأنصار في غداة باردة، ولم يكن لهم عبيد يعملون ذلك لهم، فلما رأى ما بهم من النصب والجوع قال:

اللهم لا خيرَ إلا خيرَ الآخِرِه فباركُ في الأنصار والمهاجرة
وفي رواية: فأكرم الأنصار والمهاجرة^(١).

فقالوا مجيبين له:

نحنُ الذينَ بايعوا محمدًا على الجهادِ ما بقينا أبدًا
وفي رواية: «ما حيننا أبدًا».

ولما خطَّ رسولُ الله ﷺ الخندقَ، قطعَ لِكُلِّ عشرةِ أربعين ذراعًا، فاختمهم المهاجرون والأنصار في سلمان الفارسي، وكان رجلًا قويًّا، فقال المهاجرون: سلمان مِنَّا ونحن أحقُّ به، وقال الأنصار: سلمان منا ونحن أحقُّ به، فقال رسول الله ﷺ: «سلمان منا أهل البيت»^(٢). ولذلك يشير بعضهم:

لقد رَقِيَ سلمانٌ بَعْدَ رَقِيهِ مِنْزَلَةً شامخةً البنيان
وكيفَ لا والمصطفى قد عَدَّه مِنْ أهل بيته العظيم الشان

وإنما وقع التخاصم في سلمان - رضي الله عنه - لأنه كان رجلًا قويًّا، يعمل عمل عشرة رجال، وفي رواية: كان يحفر كل يوم خمسة أذرع من الخندق في عمقها أيضًا

(١) وليس هذا من إنشاء النبي ﷺ، وإنما هو مردد، وكان من عادته أن يَقْلِبَ البيت أو يَكْسِرَه ليخرج من ميزان الشعر، وهكذا في كل ما ورد أنه رَدَّه.

(٢) رواه الطبراني والحاكم عن عمرو بن عوف.

خمسـة أذرع، فعانه^(١) قيسُ بن صعصعة فصرع وتعطلَّ من العمل، فأخبر بذلك رسول الله ﷺ، فأمر أن يتوضأ قيسُ لسلمان ويُجمع وضوءه في ظرف ويغتسل سلمان بتلك الغسالة ويُكفَى الإناء خلف ظهره، ففعل، فنشط في الحال كما ينشط البعير من العقال^(٢).

وهو أول مشهد شهده سلمان الفارسي مع رسول الله ﷺ.

ومكث ﷺ في عمل الخندق خمسـة عشر يومًا، وجعل النساء والذراري في الآطام، وعلى حصن بعض النساء حسان بن ثابت الأنصاري -رضي الله تعالى عنه- وكان من دأبه أن لا يقتحم المخاوف؛ إما لمانع حسي، كأن تكون يداه لا تطيقان حمل القنـاة ومسك عنان الجواد؛ لأنه كان مُعدًّا للتحريض على القتال بحماس شعره الذي هو أحدُ من آلات النضال، وكانت وظيفته هجاء المشركين وتأيد الدين، ومع ذلك لم ينسبه أحد من أعدائه إلى الجبن^(٣)، ولم يَهْجُ به، كما قلت:

حَسَّانُ كَانَ هُمَامًا بطعنة الشَّعْرِ يُوجِع
وكيف يَجْبُنُ شَهْمٌ وَسَطَ الحُرُوبِ يُشْجِعُ

فكان عليه مدارٌ عظيم في الحروب وقوة الإسلام، وإن لم يَخْضُ في بحر المعامع، ولا كان له فيها اقتحام، ومما يدل على ذلك أنه في بعض الليالي، وهو مع النساء اتفق أن يهوديًا جعل يطوف بذلك الحصن، فقالت صفية لحسان: لا آمنُ هذا اليهودي أن يدلَّ على عورة الحصن، فيأتون إلينا، فانزل فاقتله. فقال حسان -رضي الله عنه-: يا بنت عبد المطلب قد عرفت ما أنا بصاحب هذا، (أي ليس دأبي الحرب). فلما أيسَّتْ

(١) أي حسده بالعين.

(٢) هذا هو الدواء الصحيح للحسد، وهو حديث صحيح.

(٣) في الواقع أن وضع جميع الشعراء هو هكذا: الشاعر يكون دائمًا خلف الرجال لأن صفته التشجيع، وأما وصف سيدنا حسان بالجبن فهو اتهام باطل وإن انتحلوا له الأسباب، وقد عاش سيدنا حسان عشرين ومائة عام منها ستون في الجاهلية وستون في الإسلام، رضي الله عنه وأرضاه.

منه أخذت عموداً ونزلت ففتحت باب الحصن وأتته من خلف فضربته بالعمود حتى قتله وصعدت الحصن فقالت: يا حسان انزل إليه فاسلبه؛ فإنه لم يمنعني من سلبه إلا أنه رجل. فقال: يا ابنة عبد المطلب ما لي بسلبه حاجة، يعني أنه لم يقتله، فليس سلبه له، لا أنه جبن عن سلب قتيل كل إنسان يستطيع أن يسلب ما عليه. فمن سمع هذه الحكاية نسبته إلى الجبن الذي لا يليق بحال الصحابة -رضوان الله عليهم- مع أن هذا لا ينتج عن جبنه، وإنما لا يدل على شجاعته، وليست الشجاعة في الحروب صفة لكل إنسان.

وعرض الغلمان وهو يحفر الخندق وكانوا بأجمعهم -من بلغ ومن لم يبلغ- يعملون فيه، فلما التحم الأمر: أمر من لم يبلغ خمس عشرة سنة أن يرجع إلى أهله، وأجاز من بلغ خمس عشرة سنة، فممن أجاز: عبد الله بن عمر بن الخطاب -رضي الله عنهما- وزيد بن ثابت، وأبو سعيد الخدري، والبراء بن عازب -رضي الله عنهم- وشبكوا المدينة بالبنيان من كل ناحية، فصارت كالحصن، وكان لواء المهاجرين بيد زيد بن حارثة، ولواء الأنصار بيد سعد بن عباد -رضي الله عنهما.

ولما فرغ منه ﷺ أقبلت قريش ومن معها من بني قريظة وقبائل العرب المشركين، واشتدَّ البلاء حتى ظن المؤمنون كلَّ الظن، وأقام رسول الله ﷺ والمشركون بضعةً وعشرين ليلة لم يكن بينهم حرب، إلا الرمي بالنبل والحصار، وكان جماعة من المنافقين مثل أوس القيظي، ومتابعيه ينفرون جيش الإسلام، ويقولون: ارجعوا إلى منازلكم، واعتلوا بأن منازلكم عورة خالية عن المحافظة، فإنها خارج المدينة، ونحن نخاف أن يظفر بها جيش العدو، وكما أخبر عنه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَبَاْهُلُ يَرْبَ لَا مَقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُواْ وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ [الأحزاب: ١٣]، وكان المشركون يتناوبون الحرب، لكن الله تعالى لم يُمكنهم عبور الخندق؛ فإن شجعان الصحابة كانوا يمنعونهم بالنبال والأحجار، وكان النبي ﷺ بنفسه في الليالي يحرس بعض مواضع.

ثم نصر الله نبيه على المشركين، واختلفت كلمتهم، وهبَّت ريح الصَّبا عاصفة في ليل شديدة البرد كما قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [الأحزاب: ٩]. فجعلت الريح تقطع أطناب خيامهم وتكفي قدورهم وتقلبهم على بعض أمتعتهم ولا تجاوز عسكرهم، وسَفَتْ عليهم التراب ورمتهم بالحصا، وانقلبوا خاسئين، فكان نَصْرُهُ ﷺ بالصَّبا، وكان إهلاكُ عاد بالدبور^(١)، (وهي الريح الغربية). ووقع بينهم الاختلاف، فرحلت قريش مع أبي سفيان، ورحلت غطفان وهم يقولون: الرحيل الرحيل، لا مقام لكم. فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فقال: «الآن نغزوهم ولا يغزونا» وكان كذلك حتى فتح مكة.

وظهرت للنبي ﷺ في حفر الخندق معجزات، منها:

أن كدية (أي صخرة) اشتدَّت عليهم، فدعا بماءٍ وتفلٍ فيه ونضح عليه، فانهالت تحت المساحي^(٢).

روى البيهقي وغيره أنه ﷺ لما خطَّ الخندق، وقطع لكل عشر أربعين ذراعاً، وأخذوا يحفرون، وظهر فيه صخرة عظيمة لم تعمل فيها المعاول، فوجَّهوا سلمان إلى رسول الله ﷺ يخبره، فجاءه وأخذ المعول فضربها ضربة فصَّدها، وبرق منها بريق أضواء ما بين لابتيتها (أي لابتَي المدينة) فكان بها مصباحاً في جوف بيت مظلم، فكبر وكبر المسلمون، وقال: «أضواء لي منها قصور الحيرة كأنها أنياب الكلاب» أي في بياضها وصفرتها وانضمام بعضها إلى بعض.

[واللابتان: حَرَّتَانِ يكتنفانها، والحَرَّة: كل أرض ذات حجارة سوداء كأنها محترقة من الحر].

ثم ضرب الثانية، فقال: «أضواء لي منها القصور الحمر من أرض الروم». ثم

(١) كما قال رسول الله ﷺ: «نُصِرْتُ بالصَّبا، وأهلكْتُ عاد بالدبور، رواه الإمام أحمد.

(٢) المساحي: المعاول التي يحطمون بها الصخور.

ضرب الثالثة، فقال: «أضأت لي قصور صنعاء، وأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة على كلها» أي الأراضي التي أضأت «فأبشروا» فقال المنافقون: ألا تعجبون من محمد يمنيكم أيها المؤمنون ويعدكم الباطل، ويخبركم أنه يبصر من يثرب^(١) (أي المدينة) قصور الحيرة، وأنها تفتح لكم، وإنكم إنما تحفرون الخندق من الفرق! أي الخوف» فنزل قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب: ١٢].

ومنها أن بنت بشير بن سعد أتت بقليل تمر إلى أبيها وخالها عبد الله بن رواحة، فمرت برسول الله ﷺ فدعاها، وقال: هات ما معك يا بنية، فصَبَّته على كَفِّهِ فما امتلأتا، ثم دعا بثوب فبسط له وبدد ذلك التمر عليه، ثم قال لإنسان: اصرخ في أهل الخندق، أَنْ هَلُمُّوا إِلَى الْغَدَاءِ. فجعلوا يأكلون منه، وجعل يزيد، حتى صَدَرَ^(٢) أهل الخندق وإنه ليسقط من أطراف الثوب.

ومنها ما رواه جابر، قال: كانت عندي شُوَيْهَةٌ غير سمينية، فأمرت امرأتي أن تخبز قرص شعير، وأن تشوي تلك الشاة لرسول الله ﷺ، وكنا نعمل في الخندق نهارًا وننصرف إذا أمسينا، فلما انصرفنا من الخندق قلت: يا رسول الله صنعت لك شويهة ومعها شيء من خبز الشعير، وأنا أحب أن تنصرف إلى منزلي. فأمر رسول الله ﷺ من يصرخ في الناس معه: إلى بيت جابر. وأقبل رسول الله ﷺ والناس معه، فقدم له ذلك، فبرك وسمى الله، ثم أكل، وتواردها الناس كلما صدر قومٌ جاء قوم حتى صدر أهل الخندق عنها^(٣).

وقال سلمان الفارسي: «كنت قريبًا من رسول الله ﷺ، وأنا أعمل في الخندق،

(١) قد نهى النبي ﷺ عن تسمية المدينة «يثرب» وقال: «من سَمَى المدينة يثرب فليستغفر الله، هي طابة، هي طابة» رواه الإمام أحمد عن البراء؛ لأن التشريب: المؤاخذه والعقاب، ومنه قوله تعالى: ﴿لَا تَتْرِبْ عَلَيْكُمْ﴾. والمدينة دار الإيمان والأمان والمغفرة، جعلنا الله من أهلها بمنه وكرمه.

(٢) أي رجعوا وانصرفوا منه.

(٣) رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

فتغلظ عليّ الموضع الذي كنت أعمل فيه، فلما رأى رسول الله ﷺ شدة المكان أخذ المعول وضرب بيديه ضربة لمعت تحت المعول برقة، ثم ضرب أخرى فلمعت برقة أخرى، ثم ضرب أخرى فلمعت برقة أخرى، قالت: فقلت بأبي أنت وأمي، ما هذا الذي لمع تحت المعول؟ فقال: أرايتَ ذلك يا سلمان؟ فقلت: نعم، فقال: أما الأولى: فإن الله فتح بها عليّ اليمن، وأما الثانية فإن الله فتح بها عليّ الشام والمغرب، وأما الثالثة فإن الله فتح بها عليّ المشرق».

وفرغ رسول الله ﷺ من عمل الخندق، وأقبلت قريش في أحابيشها أي (حلفائها) ومن تبعها من كنانة في عشرة آلاف، وأقبلت غطفان ومن تبعها من أهل نجد، وكان بنو قريظة وكبيرهم كعب بن أسيد قد عاهدوه ﷺ، فما زال عليهم أصحابهم من اليهود حتى نقضوا العهد، وصاروا مع الأحزاب، فعظم الخطب حتى ظن المؤمنون كل الظن كما سبق، ونجم النفاق من بعض المنافقين، حتى قال معتب بن قشير: «كان محمد يَعدُّنا أن نأكل كنوز كسرى وقیصر، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى قضاء الحاجة». كما قال تعالى: ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَنَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا ۝١٠ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ۝﴾.

[الأحزاب: ١٠، ١١].

وقال ابن عباس: كان الذين جاءوهم من فوقهم بنو قريظة، ومن أسفل منهم قريش وغطفان. اهـ.

والمراد من فوقهم: من جهة المدينة، ومن أسفل منهم: من جانب أسفل الوادي. وأقام المشركون بضعة وعشرين ليلة، ورسول الله ﷺ مقابلهم، وليس بينهم قتال غير المراماة بالنبل والحصار كما سبق، ثم خرج عمرو بن عبد ود - من ولد لؤي بن غالب - يريد المبارزة، فبرز إليه عليّ - رضي الله عنه - فقال عمرو: يا ابن أخي، والله ما أحبُّ أن أقتلك، فقال علي: لكنني والله أحبُّ أن أقتلك. فحمي عمرو، ونزل من

على فرسه وسل سيفه كأنه شعلة نار، ثم أقبل نحو عليٍّ مغضبًا، ثم التقيا، فاستقبله عليٌّ بدركته فضربه فقدّها وأثبت فيها السيف، وأصاب رأسه فشجّه، وضربه عليٌّ على حبل عاتقه فسقط وأثار العجاج^(١)، وسمع النبي ﷺ التكبير، فعرف أن عليًّا قتله، وانكشفت الغبرة، وإذ علا عليٌّ صدر عمرو يذبحه، ثم أهبّ الله ريح الصّبا، إلى آخر ما سبق ذكره. ثم أقبل عليٌّ ووجهه يتهلل، ولم يكن في العرب درعٌ مثل درع عمرو، فخرجت خيولهم منهزمة، وألقى عكرمة بن أبي جهل رمحه يومئذ، وهو منهزم عن عمرو، وخرج في إثرهم الزبير وعمر فناوشوهم ساعة، وحمل الزبير على رجل منهم^(٢) فشقه نصفين، وقطع سرجه حتى وصل إلى كاهل الفرس، فقليل له: ما رأينا مثل سيفك! فقال: ما هو السيف، إنه الساعد. ثم اتفق الكفار على أن يحملوا جميعًا ولم يتخلف منهم أحد، فوافوا رسولَ الله عند طلوع الشمس وأحدقوا بالخندق من كل وجه، ووجهوا نحو خيمته كتيبة عظيمة فيها خالد بن الوليد، فقاتلوهم يومئذ إلى هويٍّ^(٣) الليل حتى كشفهم الله وتفرقوا، وشغل المصطفى ﷺ عن العصرين^(٤) والعشاءين، فأقام لكل إقامة، وقال: «شغلونا عن الصلاة الوسطى ملأ الله قلوبهم نارًا»^(٥). ولم يكن لهم بعد ذلك قتال جميعًا، وتفرّق الأحزاب بتخذيّل نعيم بن مسعود الأشجعي الذي أتى إلى رسول الله ﷺ مسلمًا، ولم يعلم قومه، وأمره ﷺ بالتخذيّل، حيث قال له: «خَذَلْنَا ما استطعت فإن الحرب خدعة»^(٦) (بفتح الخاء وسكون الدال أي ينقضي أمرها بالمخادعة).

(١) العجاج: الغبار.

(٢) هو هبيرة بن أبي وهب، زوج أم هانئ أخت الإمام علي كرم الله وجهه.

(٣) هويّ الليل: تمامه واستواؤه.

(٤) العصرين: الظهر والعصر، والعشاءين: المغرب والعشاء.

(٥) وفي رواية: «ملأ الله بيوتهم وقبورهم نارًا كما شغلونا عن الصلاة حتى غابت الشمس» رواه أحمد، والأربعة والبيهقي عن علي، وابن ماجه عن عبد الله بن مسعود.

(٦) «الحرب خدعة» قال البزار: فتح الخاء وسكون الدال لغة النبي ﷺ ولغته أفصح اللغات.

وقالوا: معناه أن من خدع مرة واحدة عطب وهلك ولا عودة له، وقال المطرزي: الفتح أفصح لأنه لغة قريش: وقال ابن درستويه: ليست لغة قوم، إنما هي لغة الجميع؛ لأنها من الخداع فلذلك فُتِحَتْ والله تعالى أعلم.

وقال ضرار بن الخطاب بن مرداس، أخو بني محارب بن فهر في يوم الخندق، يمدح قومه، ويعتذر عن الهزيمة:

ومشفقة تظن بنا الظنوننا
كَأَنَّ زُهَاءَهَا أَحَدٌ إِذَا مَا
تَرَى الْأَبْدَانَ فِيهَا مَسْبَغَاتٍ
وَجَرْدًا كَالْقَدَاحِ مَسْوَمَاتٍ
كَأَنَّهُمْ إِذَا صَالُوا وَصَلْنَا
أَنَاسٌ لَا تَرَى فِيهِمْ رَشِيدًا
وَأَحْجَرْنَا هُمْ شَهْرًا كَرِيشًا^(٣)
نُرَاوِحُهُمْ وَنَغْدُو كُلَّ يَوْمٍ
بَأَيْدِينَا صَوَارِمُ مَرْهَفَاتٍ
كَأَنَّ وَمِضْهُنَّ مَعْرِيَّاتٍ
وَمِضْ عَقِيقَةٍ^(٥) لَمَعَتْ بِلَيْلٍ
فَلَوْلَا خَنْدَقٌ كَانُوا لَدَيْهِ
وَلَكِنْ حَالُ دُونِهِمْ وَكَانُوا
فَإِنْ نَرَحُلْ فَإِنَّا قَدْ تَرَكْنَاهَا
إِذَا جَنَّ الظَّلَامُ سَمِعْتَ نَوْحًا^(٦)
وَقَدْ قُذْنَا عَرْنَدَسَةً طُحُونًا^(١)
بَدَتْ أَرْكَانُهُ لِلنَّازِرِينَ
عَلَى الْأَبْطَالِ وَالْيَلْبِ^(٢) الْحَصِينَا
نُؤْمُ بِهَا الْغَوَاةَ الْخَاطِئِينَ
بِبَابِ الْخَنْدَقِينَ مَصَافِحُونَا
وَقَدْ قَالُوا: أَلَسْنَا رَاشِدِينَ؟
وَكُنَّا فَوْقَهُمْ كَالْقَاهِرِينَ
عَلَيْهِمْ فِي السَّلَاحِ مُدَجِّجِينَ
نَقْدُ بِهَا الْمَفَارِقَ وَالشُّؤْنَ^(٤) وَنَا
إِذَا لَاحَتْ بِأَيْدِي مَصْلَتَيْنَا
تَرَى فِيهَا الْعَقَائِقَ مُسْتَبِينَا
لَدَمَّرْنَا عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ
بِهِ مِنْ خَوْفِنَا مَتَعَوِّذِينَ
لَدَى أَيْبَاتِكُمْ سَعْدًا رَهِينًا
عَلَى سَعْدٍ يُرْجَعَنَّ^(٧) الْحَنِينَا

(١) العَرْنَدَسُ من الإبل: الشديد.

(٢) اليب: محرقة الترس، أو الدرع، أو جلد يخرز بعضه إلى بعض تلبس على الرؤوس خاصة.

(٣) التكريش: تقطيب الوجه، وكرش الجلد: تقبض، والمقصود أنه صعب شديد.

(٤) مفرق الرأس: مفترق الشعر. الشؤون: مجاري الدمع.

(٥) العقيقة هنا: ما يبقى في السحاب من شعاعه، وبه تشبه السيوف، فُتْسمى عقائق - اهـ. (ومن القاموس المحيط).

(٦) النائحات.

(٧) الترجيع: التردد مرة بعد أخرى.

وسوف نروركُم عمّا قريب كما زُرنَاكُم متوازيـنَا
بِجَمْعٍ مِّنْ كَنَانَةٍ غَيْرِ عُزْلِ كَأَسَدِ الْغَابِ قَدْ حَمَتِ الْعَرِينَا
فأجابه كعب بن مالك - رضي الله عنه - فقال:

وسائلة تسائل ما لَقِينَا ولو شهدت رأنا صابرينَا
صَبَرْنَا لَا نَرَى لِلَّهِ عِدْلًا^(١) على ما ندبَنَا متوكليـنَا
وكان لنا النبيُّ وزيرِ صِدْقٍ به تَعْلُو الْبَرِيَّةُ أَجْمَعِينَا
نقاتل معشرًا ظلموا وعَقُّوا وكانوا بالعداوة مُرْصِدِينَا
نُعَاجِلُهُمْ إِذَا نَهَضُوا إِلَيْنَا بِضَرْبٍ يَعْجَلُ الْمَتَسَرِّعِينَا
ترانا في فضافض سابغات كَغُدرَانِ^(*) الْمَلَا مُتَسَرِّبِلِينَا
وفي أيماننا بيضٌ خِفَافٌ بها نَشْفِي مِرَاحَ^(٢) الشاغبينَا
بباب الخندين كأنَّ أَسَدًا شوابكهن^(٣) تحمينَ الْعَرِينَا
فوارِسُنَا إِذَا بَكُرُوا وراحوا على الأعداء شوسًا مُعْلَمِينَا
لِنَنْصُرَ أَحْمَدًا وَاللَّهِ حَتَّى نَكُونَ عِبَادَ صِدْقٍ مُخْلِصِينَا
وَيَعْلَمَ أَهْلُ مَكَّةَ حِينَ سَارُوا وَأَحْزَابٌ أَتَوْا مُتَحَزِّبِينَا
بأنَّ اللَّهَ لَيْسَ لَهُ شَرِيكٌ وَأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الْمُؤْمِنِينَا
فإِذَا تَقَتَّلُوا سَعْدًا سِفَاهَا فَإِنَّ اللَّهَ خَيْرُ الْقَادِرِينَا
سَيُدْخِلُهُ جَنَّاتٍ طَيِّبَاتٍ تَكُونُ مُقَامَةً لِلصَّالِحِينَا

(١) قوله عِدْلًا بكسر العين أي معادلًا أهـ.

(*) الغدير: القطعة من الماء يغادرها السيل (بقية مياه السيل). والمَلَا: الصحراء.

(٢) المراح: الأشر والبطر، والمقصود: تذهب أشهرهم وبطهرهم.

(٣) الشوابك: الأنياب المتشابكة من أسد شابك: مشتبك الأنياب.

كما قد رَدَّكم فلا^(١) شريداً بغِيظكم خَزايَا خائِئينَا
خزايَا لم تَنالُوا ثَمَّ خَيْرًا وكَدُّتُمْ أَنْ تَكُونُوا دَامِرِينَا^(٢)
بريحٍ عاصِفٍ هَبَّتْ عَلَيْكم فَكُنْتُمْ تَحْتَهَا مُتَكَمِّهِينَا^(٣)

* * *

وفي شهر ذي القعدة وصدر^(*) ذي الحجة من هذه السنة كانت غزوة بني قريظة^(٤):
وهم قوم من اليهود بالمدينة من حلفاء الأوس، وسيد الأوس حينئذ سعد بن معاذ
-رضي الله تعالى عنه-.

لما رجع ﷺ من الخندق، وكان وقت الظهيرة ودخل بيت عائشة -رضي الله تعالى
عنها- فبينما هو يغتسل، ودعا بالمجمر ليبتخر، أتاه جبريل عليهما السلام بعد صلاة
الظهر، فقال: أو قد وضعت السلاح يا رسول الله؟ قال: نعم، فقال جبريل: ما وضعت
ملائكة الله السلاح منذ نزل بك العدو^(٥)؛ إن الله يأمرك يا محمد بالمسير إلى بني
قريظة، فإني عامدٌ إليهم بمن معي من الملائكة، فمزّلزُلٌ بهم الحصون، فقال ﷺ: إن
في أصحابي جهداً فلو أنظرتهم أياماً. فقال جبريل عليه السلام: انهض إليهم، فوالله
لأدقنهم كدقّ البيض على الصفا، (وكان جبريل على فرس أبلق). فقال: ولأدخلن
فرسي هذا عليهم في حصونهم، ثم لأضعضعنّها. فأدبر جبريل عليه السلام ومن معه
من الملائكة حتى سطع الغبار في زقاق بني غنم وهم طائفة من الأنصار، فأبرز^(٦)

(١) الفلّ: الكتبية المنهزمة، وقومٌ فلّ: منهزمين.

(٢) دامرين: هالكين.

(٣) التكمة: التهديم في البئر ونحوها، أو التندم على الأمر الغائب.

وكان شعار أصحاب رسول الله ﷺ يوم الخندق وبني قريظة «حم حم لا يُنصرون» كذا في سيرة ابن هشام.

(*) المراد أوله وبدايته.

(٤) في البخاري أنها كانت بعد رجوع النبي ﷺ من الخندق ووضع السلاح.

(٥) وفي لفظ: قال: «يا رسول الله ﷺ ما أسرع ما حللتكم، عُذِيرُك من محارب، عفا الله عنك».

(٦) كذا بلفظ «أبرز» في السيرة الحلبية وقال: إنها كذلك في سيرة الحافظ الدميّاطي: بالأذان في البراز، ومعناه: أمره.

رسول الله ﷺ بلالاً فأذن في الناس: «من كان سميعاً مطيعاً فلا يصلين العصر إلا في بني قريظة»، وأعطى ﷺ الراية علي بن أبي طالب، واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم، ونادى مناد بأمره ﷺ: «يا خَيْلَ اللهِ ارْكَبِي»^(١).

ثم سار إليهم ﷺ وقد لبس سلاحه وركب فرسه، والناس حوله قد لبسوا السلاح، وركبوا الخيل، وهم ثلاثة آلاف، والخيل ستة وثلاثون فرساً، له ﷺ منها ثلاثة، وقدم ﷺ علي بن أبي طالب كرم الله وجهه برايته إلى بني قريظة، ومروا بنفر من بني النجار قد لبسوا السلاح، فقال: هل منكم أحد؟ قالوا: نعم دحية الكلبي مر على فرس أبيض عليه اللآمة، وأمرنا بحمل السلاح، وقال لنا: رسول الله ﷺ يطع عليكم الآن، فلبسنا سلاحنا وصففنا. فقال ﷺ: ذاك جبريل عليه السلام بعث إلى بني قريظة ليزلزل حصونهم ويقذف الرعب في قلوبهم، فلما دنا علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - من الحصن ومعه نفر من المهاجرين والأنصار، وغرز اللواء عند أصل الحصن، سمع من بني قريظة مقالةً قبيحة في حق النبي ﷺ، فسكت المسلمون، وقالوا: السيف بيننا وبينكم، فلما رأى علي - رضي الله عنه - رسول الله ﷺ مقبلاً، أسلم اللواء لأبي قتادة الأنصاري، ورجع إليه ﷺ فقال: يا رسول الله، لا عليك أن تدنو من هؤلاء الأجانب، قال: لعلك سمعت منهم أذى؟ فقال: نعم يا رسول الله، قال: لو رأوني لم يقولوا من ذلك شيئاً. فكان كما قال ﷺ، وحاصر رسول الله ﷺ بني قريظة خمسين وعشرين ليلة، وقيل دون ذلك، وكان طعام الصحابة - رضي الله عنهم - التمر، يُرسل به إليهم سعد بن عباد - رضي الله عنه - فلا زال يحاصرهم حتى جهدهم الحصار، وقذف الله في قلوبهم الرعب، فلما أيقنوا أنه ﷺ غير منصرف عنهم حتى يقاتلهم، قال كبيرهم «كعب بن أسيد»: يا معشر يهود قد نزل بكم من الأمر ما ترون، وأنا عارضٌ عليكم خِلاًلاً ثلاثاً أيها شئتم، قالوا: وما هي؟ قال: «نتابع هذا الرجل ونصدقّه، فوالله لقد تبين لكم أنه نبي مرسل، وأنه الذي تجدونه في كتابكم، فإذا آمنتم به أنتم على أموالكم

(١) وهو من أحسن الكنايات، ومعناه: «يا فرسان الله».

ودمائكم ونسائكم وأبنائكم، وما منعنا من الدخول معه إلا الحسد للعرب، حيث لم يكن هذا النبي من بني إسرائيل. وكان يهود بني قريظة يدرسون ذكر رسول الله ﷺ في كتبهم، وأن دار هجرته المدينة، بل كان هذا غير خاص ببني قريظة؛ إذ غيرهم كان كذلك، فقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كانت يهود بني قريظة، وبني النضير، وفدك، وخيبر، يجدون في كتبهم صفة النبي ﷺ قبل أن يُبعث، وأن دار هجرته المدينة».

قال كعب: فإن أبيتم عليّ فهلم فلنقتل أبناءنا ونساءنا، ثم نخرج إلى محمد وأصحابه رجالاً مصلتين(*) السيوف، ولم نترك وراءنا ثقلًا حتى يحكم الله بيننا وبين محمد، فإن نهلك نهلك ولم نترك وراءنا نسلًا يُخشى عليه، وإن نظفر فلعمري لنجدن النساء والأبناء. قالوا: «نقتل هذه المساكين؟ فما خير العيش بعدهم؟» قال كعب: فإن أبيتم عليّ هذه، فإن الليلة ليلة السبت، وأن عسى أن يكون محمد وأصحابه قد أمتوا فيها، فانزلوا لعلنا نصيب من محمد وأصحابه غرة (أي غفلة). فقالوا: نفسد سببنا ونحدث فيه ما لم يكن يحدث فيه من كان قبلنا؟ وقال لهم عمرو بن سعد: قد خالفتم محمدًا فيما عاهدتموه عليه، ولم أشرككم في غدركم، فإن أبيتم أن تدخلوا معه فاثبتوا على اليهودية وأعطوا الجزية، فوالله ما أدري أيقبلها أم لا، قالوا: نحن لا نقر للعرب بخراج في رقابنا يأخذونه، القتل خير من ذلك، قال: فإنني بريء منكم.

وبعد الحصار أرسلوا بنباش بن قيس إلى رسول الله ﷺ أن ينزلوا على ما نزلت عليه بنو النضير، من أن لهم ما حملت الإبل إلا الحلقة «أي الدرع»، فأبى ﷺ، فأرسلوه ثانيًا بأنه لا حاجة لهم بشيء من الأموال، لا من الحلقة ولا من غيرها، فأبى رسول الله ﷺ إلا أن ينزلوا على حكم رسول الله ﷺ، فعاد نباش إليهم بذلك، ثم إنهم بعثوا إلى رسول الله ﷺ أن ابعث إلينا أبا لبابة، وهو رفاعة بن المنذر، لنستشيره في أمرنا؛

(*) أي مجردين السيوف من غمدها.

لأنه كان من حلفاء الأوس وبنو قريظة (منهم)^(١) وكان مناصحاً لهم؛ لأن ماله وولده وعياله كانت في بني قريظة، فأرسله ﷺ إليهم، فلما رآوه قام إليه الرجال وأسرع إليه النساء والصبيان يكون في وجهه من شدة المحاصرة وتشيت مالهم، وقام كعب بن أسيد، فقال لأبي لبابة: قد عرفت ما بيننا، وقد اشتد علينا الحصار وهلكنا، ومحمد لا يفارق حصننا حتى ننزل على حكمه، فلو زال عنا لحقنا بالشام أو خير، ولم نطأ له أرضاً، ولم نكثر عليه جمعاً أبداً، ما ترى؟ قد اخترناك على غيرك، أنزل على حكم محمد؟ قال: نعم فانزلوا، وأشار بيده إلى حلقه إشارة إلى الذبح، ومعناه لا تفعلوا لئلا يذبحكم، قال أبو لبابة، فوالله ما زالت قدماي من مكانهما حتى عرفت أنني خنت الله ورسوله؛ لأن في قولي تنفيراً لهم عن الانقياد له ﷺ. ومن ثم أنزل الله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ [الأنفال: ٢٧] الآية، وقيل: (وهذا أثبت)^(٢) أنه نزل في ذلك: ﴿وَأَخْرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا﴾ [التوبة: ١٠٢]، وسالت عين أبي لبابة بالدموع، وانطلق على وجهه، فلم يأت رسول الله ﷺ، وربط نفسه إلى عمود بالمسجد يقال له: «أسطوانة التوبة» كان أكثر نفعه ﷺ عنده، وقال: والله لا أذوق طعاماً ولا شرباً حتى أموت أو يتوب الله عليّ مما صنعت. وعاهد الله أن لا يطأ أرض بني قريظة أبداً ولا يرى في بلد خان الله ورسوله فيه أبداً. فلما بلغ رسول الله ﷺ خبره، وكان قد استبطأه، قال: أما لو جائي لاستغفرتُ له، وأما بعد أن فعل ما فعل فما أنا بالذي أُطلقه حتى يتوبَ الله عليه، فنزلت توبته، فتولى النبي ﷺ إطلاقه بيده بعد أن أقام مرتبطاً بالجذع ست ليالٍ لا يُحلُّ إلا للصلاة.

ثم إن بني قريظة نزلوا على حكم رسول الله ﷺ، فأمر بهم فكتفوا وجعلوا ناحية بين الستمائة والسبعمائة، وأخرج النساء والذراري من الحصون، وجعلوا ناحية، وكانوا ألفاً، واستعمل عليهم عبد الله بن سلام، فتواثبت الأوس، وقالوا: يا رسول الله موالينا

(١) في الأصل «وبنو قريظة من الأوس» وهو خطأ؛ لأن بني قريظة كانوا من حلفاء الأوس، لا من الأوس.

(٢) في الأصل (وهو أولاً أثبت) أصلحناه من السيرة الحلبية.

وحلفاؤنا، وقد فعلت في موالي إخواننا بالأمس ما قد فعلت، (يعنون بني قينقاع)، لأنهم كانوا حلفاء الخزرج، ومن الخزرج عبد الله بن أبي بن سلول، وكانوا قد نزلوا على حكم رسول الله ﷺ فكلّمه فيهم عبد الله بن أبي بن سلول، فوهبهم له، على أن يجلبوا، (فطلبت) ^(١) الأوس من رسول الله ﷺ أن يهب لهم بني قريظة كما وهب بني قينقاع لإخوانهم من الخزرج، فلما كلمته الأوس أبي أن يفعل ببني قريظة ما فعل ببني قينقاع، ثم قال لهم: أما ترضون يا معشر الأوس أن يحكم فيهم رجل منكم؟ قالوا: نختار حكم سعد بن معاذ -رضي الله عنه- فرضى بذلك رسول الله ﷺ، وأذن لسعد ابن معاذ، وليس إذنه ﷺ لسعد بن معاذ في ذلك لكونه لا يجوز له ﷺ الحكم بينه وبين محاربه، بل هو جائز له؛ فإن من خصائصه ﷺ أن يحكم لنفسه، فلأن يحكم بينه وبين محاربه من باب أولى، ومعنى الحكم بينه وبين محاربه أن يقول للمحارب: أترك قتالك على التزام كذا وكذا، أو على ما يقتضيه رأي فلان، ويحكم به فيك، ومن هذا القبيل تحكيم سعد بن معاذ في بني قريظة بأمر النبي ﷺ، فالتحكم في المحاربين من خصائص الإمام الأعظم ^(٢)، ومن حقوقه؛ فلا يجوز لأحد أن يفتات عليه، ولا أن يفعله بغير إذنه، فالحكم في الحقيقة حقه ﷺ، وقد ردّه إلى سعد وفوض له فيه. وكان سعد بن معاذ -رضي الله عنه- حين أصابه السهم بالخندق وُضع في خيمة في المسجد ثداوى فيها الجرحى من أصحابه، فأتاه قوم فحملوه على حمار وساروا به وهم يقولون: «يا أبا عمرو أحسن في مواليك؛ فإن رسول الله ﷺ إنما ولّاك ذلك لتُحسن فيهم، فقد رأيت عبد الله بن أبي بن سلول وما صنع في حلفائه»، كل ذلك وسعد بن معاذ ساكت، فلما

(١) في الأصل (فطلنت) وهو خطأ.

(٢) وهو النبي ﷺ فقط، أما الأئمة -الحكام- فلهم ذلك في حدود الكتاب والسنة، أما إذا خالف القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة: فضرِبُ كلامه عرض الحائط أولى، بدليل قوله عليه الصلاة والسلام: «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق» رواه الإمام أحمد والحاكم، وروى النسائي قوله عليه الصلاة والسلام: «لا طاعة لأحد في معصية الله، إنما الطاعة في المعروف» وروى الإمام أحمد: «لا طاعة لمن لم يقطع الله» والأحاديث في هذا الباب كثيرة اكتفينا منها بما أوردنا.

أكثرُوا عليه قال - رضي الله عنه: «لقد آن لسعد أن لا تأخذه في الله لومة لائم»، فقال بعضهم: «واقوماه»، فأتى سعد على حمار، فلما دنا قريباً من باب المسجد، وانتهى رضي الله عنه إلى رسول الله ﷺ وإلى المسلمين وهم حوله جلوس، قال رسول الله ﷺ للأَنْصار: قوموا إلى سيدكم^(١)، فقاموا صفين، كل رجل منهم يُحِبِّي سعداً، حتى انتهى إلى رسول الله ﷺ، فقال: احكم يا سعد، فقال: الله ورسوله أحقُّ بالحكم، قال ﷺ: قد أمرك الله أن تحكم فيهم، فقال سعد لبني قريظة: أترضون بحكمي؟ قالوا: نعم، فأخذ عليهم عهدَ الله وميثاقه أنَّ الحكم ما حكم به سعد، قال سعد: إني أحكم فيهم أن تُقتل الرجال، وتُقَسَّم الأموال، وتُسبى الذراري والنساء، فقال رسول الله ﷺ لسعد: «لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سموات»^(٢).

وما أحسنَ قول من قال:

لَيْتَ دَهْرِي حَاكِمٌ لِي فِي عَدُوِّي لِيَغِيْظُهُ
وَهُوَ قَدْ يَحْكُمُ يَوْمًا حُكْمَ سَعْدٍ فِي قَرِيْظَتِهِ

وأخرج أحمد عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: دُمِيَ يوم الأحزاب سعد ابن معاذ فقطع الجلد، فحسمه^(*) رسول الله ﷺ بالنار، فانتفخت يده فنزف، فلما رأى ذلك قال: «اللهم لا تُخْرِجْ نفسي حتى تُقَرَّ عيني من بني قريظة»، فاستمسك عرقه، فما قطر قطرة حتى نزلوا على حكم سعد، فأرسل إليه، فحكم أن تقتل رجالهم وتُسبى نساؤهم وذرايرهم ليستعين بهم المسلمون، فقال رسول الله ﷺ: «أصبتَ حُكْمَ الله فيهم»، فلما فرغ منهم انفتق عِرْقُهُ فمات رضي الله عنه، كما سيأتي قريباً. ويُنسب لحسان بن ثابت في رثائه قوله:

(١) حديث ثابت في كثير من كتب السنة والمغازي، وفيه رد على طوائف المتفهمة.

(٢) وفي رواية: «من فوق سبعة أرقعة».

(*) يقال: حسم العرق إذا قطعه وكواه لتلا يسيل دمه.

لقد سَجَمْتُ^(١) مِنْ دَمْعٍ عَيْنِي عَبْرَةً وَحَقَّ لِعَيْنِي أَنْ تَفِيضَ عَلَى سَعْدٍ
 قَتِيلٌ ثَوَى فِي مَعْرَكٍ فُجِعَتْ بِهِ عِيُونُ ذَرَارِي^(٢) الدَّمْعِ دَائِمَةُ الْوَجْدِ
 عَلَى مِلَّةِ الرَّحْمَنِ^(٣) وَارِثَ جَنَّةٍ مَعَ الشُّهَدَاءِ وَفَدُّهَا أَكْرَمُ الْوَفْدِ
 فَإِنْ تَكُ قَدْ وَدَّعْتَنَا وَتَرَكْتَنَا وَأَمْسَيْتَ فِي غِبْرَاءِ مَظْلَمَةِ اللَّحْدِ
 فَأَنْتَ الَّذِي يَا سَعْدُ بَتَّ بِمَشْهَدٍ كَرِيمًا وَأَثْوَابُ الْمَكَارِمِ وَالْحَمْدِ
 بِحُكْمِكَ فِي حَيِّ قَرِيطَةِ وَالَّذِي قَضَى اللَّهُ فِيهِمْ مَا قَضَيْتَ عَلَى عَمْدِ
 فَوَافَقَ حُكْمُ اللَّهِ حُكْمَكَ فِيهِمْ وَلَمْ تَعْفُ إِذْ ذَكَرْتَ مَا كَانَ مِنْ عَهْدِ
 فَإِنْ كَانَ رَبُّ الدَّهْرِ أَمْضَاكَ فِي الْأَلَى شَرُّوا هَذِهِ الدُّنْيَا بِجَنَّاتِهَا الْخُلْدِ
 فَنِعْمَ مَصِيرُ الصَّادِقِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ يَوْمًا لِلْوَجَاهَةِ وَالْقَصْدِ

ثم أمر ﷺ أَنْ يَجْمَعَ مَا وُجِدَ فِي حَصُونِهِمْ، فَقَسَّمَهُ ﷺ، فَجَعَلَ لِلْفَارِسِ ثَلَاثَةَ أَسْهُمٍ: سَهْمًا لَهُ، وَسَهْمَيْنِ لِفَرَسِهِ، وَلِلرَّاجِلِ سَهْمًا؛ وَكَانَتْ خَيْلُ الْمُسْلِمِينَ يَوْمَئِذٍ سِتَّةً وَثَلَاثِينَ فَرَسًا، وَوَقَعَ فِي سَهْمِ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ سَبِيهِمْ رِيحَانَةُ بِنْتُ عَمْرِو بْنِ حِزَامَةَ - مِنْ بَنِي عَمْرِو بْنِ قَرِيطَةَ - وَيُقَالُ رِيحَانَةُ بِنْتُ شَمْعُون، فَلَمْ تَزَلْ فِي مَلِكِهِ حَتَّى مَاتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ. وَأَمْرٌ بِالْأَسَارَى أَنْ يَكُونُوا فِي دَارِ زَيْدِ بْنِ أَسَامَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وَالذَّرِيَّةُ فِي دَارِ ابْنَةِ الْحَارِثِ النَّجَّارِيَّةِ؛ لِأَنَّ تِلْكَ الدَّارَ كَانَتْ مَعْدُودَةً لِنَزُولِ الْوُفُودِ مِنَ الْعَرَبِ، وَأَمْرٌ بِالْمَتَاعِ أَنْ يُحْمَلَ، وَتَرْكُ الْمَوَاشِي هُنَاكَ تَرْعَى الشَّجَرَ، ثُمَّ غَدَا ﷺ سَائِرًا إِلَى الْمَدِينَةِ، ثُمَّ خَرَجَ إِلَى سُوقِ الْمَدِينَةِ فَخَنَدَقَ بِهَا خَنَادِقَ، أَيْ حَفَرَ فِيهَا حَفَائِرَ، ثُمَّ أَمَرَ بِقَتْلِ كُلِّ مَنْ أَنْبَتَ - أَيْ بَلَغَ - فَجَاءُوا إِلَيْهِ أَرْسَالًا تُضْرَبُ أَعْنَاقُهُمْ وَيُلْقَوْنَ فِي تِلْكَ الْخَنَادِقِ، وَقُتِلَتْ فِيهِمْ امْرَأَةٌ وَاحِدَةٌ، وَهِيَ بَنَانَةُ امْرَأَةُ الْحَكَمِ الْقُرْظِيِّ، وَكَانَتْ طَرَحَتْ عَلَى خِلَادِ بْنِ سُوَيْدِ بْنِ

(١) سَالَ دَمْعُهَا غَزِيرًا.

(٢) ذَرَارِي الدَّمْعِ مِنْ ذَرِّ الْحَبِّ وَالْمَلْحِ وَالِدَوَاءِ: فَرْقُهُ، وَالْمَعْنَى أَنَّ دَمْعِي مُتَفَرِّقٌ وَلَكِنْ قَلْبِي دَائِمُ الْوَجْدِ وَالْحُزْنِ.

(٣) وَالْمَعْنَى أَنَّهُ عَلَى مِلَّةِ الرَّحْمَنِ، وَمَاتَ مُسْلِمًا شَهِيدًا، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الصامت رَحَى من فوق الحائط، فاستشهد وحده في هذه الغزوة، فقال رسول الله ﷺ: «له أجر شهيدين» وقتلها به قصاصًا، لا لكونها كانت في قتال المشركين.

ومما يستشهد به الفقهاء في كتاب الفقه^(١) في قتال المشركين، على أن المرأة لا تُقتل - كما قاله الياضي - قول أبي الخطاب عمر بن أبي ربيعة القرشي المخزومي:

إِنَّ مِنْ أَكْبَرِ الْكِبَائِرِ عِنْدِي قَتْلُ بَيْضَاءٍ خَوْدَةٍ عَطْبُولٍ
كُتِبَ الْقَتْلُ وَالْقِتَالُ عَلَيْنَا وَعَلَى الْغَانِيَاتِ جَرُّ الذِّبُولِ

ثم أتى بكعب بن أسد: سيد بني قريظة، فقال له كعب - بعد أن عُرض عليه الإسلام -: «لولا أن تعاريني يهودُ بالجزع من السيف لا تَبْعَتْكَ»، فأمر ﷺ بضرب عنقه.

وكان المتولي لقتل بني قريظة عليُّ بن أبي طالب، والزيير بن العوام - رضي الله تعالى عنهما - وينسب لحسان بن ثابت قوله:

لَقَدْ لَقِيتُ قَرِظَةً مَا أَسَاها^(٢) وَمَا وَجَدْتُ لِذُلٍّ مِنْ نَصِيرٍ
غَدَاةَ أَتَاهُمْ يَهْوِي إِلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ كَالْقَمَرِ الْمُنِيرِ
لَهُ خَيْلٌ مَجَنَّبَةٌ تُغَادِي بَفَرَسَانٍ عَلَيْهَا كَالصَّقْوَورِ
تَرْكَنَاهُمْ وَمَا ظَفَرُوا بِشَيْءٍ دِمَاءَهُمْ عَلَيْهِمْ كَالْغَدِيرِ
فَهُمْ صَرَعَى يَحُومُ الطَّيْرُ فِيهِمْ كَذَاكَ يُدَانُ ذُو الْعَنْدِ الْفَجُورِ
فَأَنْذِرْ مِثْلَهَا نَصْحًا قَرِيشًا مِنَ الرَّحْمَنِ إِنْ قَبِلْتَ نَذِيرِي

وقوله:

لَقَدْ لَقِيتُ قَرِظَةً مَا أَسَاها وَحَلَّ بِحِصْنِهَا ذُلٌّ ذَلِيلُ
وَسَعْدٌ كَانَ أَنْذَرَهُمْ بِنَصْحِ بَأَنَّ إِلَهُكُمْ رَبُّ جَلِيلُ

(١) ليس الشعر من أوجه الاستدلال، وإنما قد يكون ملحمة من الملح، على سبيل التفكه، لا الاستشهاد.

(٢) ما أساءها: ما أساءها: حُذِفَت الهمزة للتسهيل، وفي ابن هشام (في المطبوعة) ما سآها، بهمة المد بعد السين.

فما برحوا بِنَقْضِ الْعَهْدِ حَتَّى غَزَاهُمْ^(١) فِي بِلَادِهِمُ الرُّسُولُ
أَحَاطَ بِحَصْنِهِمْ مِّنَّا صَفُوفٌ لَهُ مِنْ حَرٍّ وَقَعَهُمْ صَلِيلٌ^(*)

ولما انقضي شأن بني قريظة، قال رسول الله: «لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا، ولكنكم تغزونهم» فكان كذلك.

وانفجر جرحُ سعد بن معاذ الذي في يده، وسال الدم، واحتضنه ﷺ، فجعلت الدماء تسيل على رسول الله ﷺ، وحُمِلَ إلى منزله، فمات سعد منه ولم يعلم^(٢) ﷺ بموته، فأتى جبريل فقال: يا محمد، مَن هذا الميت الذي فُتحت له أبواب السماء واهتزَّ له العرش فرحًا به؟ فقام رسول الله ﷺ سريعًا إلى سعد بن معاذ فوجده قد مات، ولما دُفِنَ سَعْدٌ - رضي الله عنه - وشيَّعه النبي ﷺ ومن معه من الصحابة والملائكة، سَبَّحَ ﷺ وَسَبَّحَ النَّاسُ مَعَهُ، فقالوا: يا رسول الله: لِمَ سَبَّحْتَ؟ قال: لقد تضايق على هذا العبد الصالح قبره حتى فرَّجه الله عنه، وسئل ﷺ عن ذلك، فقال: كان يُقَصِّرُ في الطهور من البول بعض التقصير.

ثم بعث رسولُ الله ﷺ بسبايا بني قريظة إلى نجد أو الشام لِتُبَاعَ ويُسْتَرَى بها سلاحٌ.

ونهى رسولُ الله ﷺ أَنْ يَفْرَقَ بَيْنَ الْأُمِّ وولدها في السبايا من بني قريظة، وقال: لَا يُفْرَقَ بَيْنَ أُمٍّ وولدها حتى يبلغ. فكانت أُمُّ الولد تباع من المشركين هي وولدها، وهو مَحْمَلُ قوله ﷺ: «من فرَّق بين والدته وولدها فرَّق الله بينه وبين أحبته يوم القيامة»^(٣).

وفي هذه السنة الرابعة في صفر قدم عليه ﷺ قَوْمٌ مِنْ عَضَلِ وَالْقَارَةِ (عضل بفتح

(١) في سيرة ابن هشام «غزاهم» بدل «غزاهم» ومعناه قتلهم بالسيوف.

(*) الصليل: صوت له رنين، وهو صوت قارعة السيوف.

(٢) كانت الجملة «فمات سعد منه وحمل إلى منزله ولم يعلم ﷺ، فأصلحناه إلى ما نرى حتى ينتظم الكلام.

(٣) رواه الإمام أحمد والترمذي، والحاكم عن أبي أيوب.

المهملة والمعجمة بعدها لام: بطن من بني الهون بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر يُنسبون إلى عضل بن الديش، والقارة بالقاف وتخفيف الراء: بطن من الهون أيضًا ينسبون إلى الديش المذكور، وقال ابن دريد: القارة أكمة سوداء فيها حجارة، كأنهم نزلوا عندها فسمّوا بها، كذا في المواهب اللدنية) وطلبوا منه أن يبعث معهم من يفقه قومهم في الدين، فبعث معهم ستة، وهم: ثابت بن أبي الأفلح، وخبيب بن عدي، ومرثد بن أبي مرثد الغنوي، وخالد بن البكير الليثي، وزيد بن الدثنة، وعبد الله بن طارق، وأمر عليهم مرثد بن أبي مرثد، فلما وصلوا إلى الرجيع (ماء لهذيل على أربعة عشر ميلًا من عسفان) غدروا بهم وقتلوهم، فقتل ثلاثة وأسر ثلاثة، وهم: زيد، وخبيب، وعبد الله بن طارق، فأخذوهم إلى مكة، فهرب عبد الله بن طارق في الطريق، وقاتل إلى أن قتلوه بالحجارة، فلما وصلوا إلى مكة في ذي القعدة حبسوا كل واحد منهما حتى تخرج الأشهر الحرم، ولما انسلخ الأشهر الحرم أخرجوا خبيبا وزيدا من الحرم إلى التنعيم ليقتلوهما في الحِلِّ، واجتمع خبيب وزيد في الطريق فتواصوا بالصبر والثبات على ما يلحقهما من المكاره، قال لهما خبيب: دعوني أصلي ركعتين، فتركوه، فصلى ركعتين، وقال: والله لولا أن تحسبوا أن ما بي من جزع لزدت. وعند موسى بن عقبة أنه صلاهما في موضع مسجد التنعيم وقال: «اللهم أخصهم عدداً واقتلهم بدداً (يعني متفرقين)^(١) ولا تبق منهم أحداً». فلم يحل الحول، ومنهم أحد حيي، أنشأ خبيب يقول:

فلستُ أبالي حين أُقتل مُسلمًا على أيِّ شقٍّ كان في الله مضجعي
وذلك في ذات الإله وإن يشأ يبارك على أوصالٍ شلُو^(*) مُمَزَّع
إلى الله أشكو غُرْبتي بعد كُرْبتي وما أرصد الأحزاب لي عند مَصْرَعي

[الأوصال: جمع وصل، وهو العضو. والشلو: بكسر الشين المعجمة الجسد،

(١) والمعنى: أن يشنت الله شملهم.

(*) الشلو: الجسد والجلد من كل شيء.

ويطلق على العضو، لكن المراد بها هنا الجسد].

قال أبو هريرة: «كان خبيب أول مَنْ سَنَّ الرُّكْعَتَيْنِ عِنْدَ الْقِتْلِ لِكُلِّ مُسْلِمٍ قُتِلَ صَبْرًا»، لأنه فعلهما في حياته ﷺ، فاستحسن ذلك من فعله وقرَّرها، واستحسنه المسلمون، فبقي سنة. والصلاة خير ما خُتم به عملُ العبد.

وفي هذه السنة أمر رسول الله ﷺ زيد بن ثابت بتعلم^(١) السريانية، وسيأتي ذلك موضَّحًا في تراجمة النبي - عليه الصلاة والسلام.

وفي هذه السنة الرابعة، وقيل في الخامسة نزلت آية الحجاب، والمراد بالآية الطائفة من القرآن نزل فيها الأمر بالستر، وهي قوله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ [الأحزاب: ٣٣]، أي «الزَّمَنَ بِيُوتِكُنَّ» ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ﴾ قيل: هو التكسُّر والتبختر، وقيل: هو إظهار الزينة وإبراز المحاسن للرجال ﴿تَبَرَّجِ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾ قيل إن الجاهلية الأولى: بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام، وقيل: هي زمن داود وسليمان عليهما الصلاة والسلام، كانت المرأة تلبس قميصًا من الدروع غير مخيط من الجانبين، فيرى خلفها منه، وقيل: الجاهلية الأولى ما قبل الإسلام، والجاهلية الأخرى يفعلون مثل فعلهم آخر الزمان، وقيل: قد تذكر الأولى ولا تستلزم أخرى كقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى﴾ [النجم: ٥٠]، ولم تكن لهم أخرى، ونزل فيها أيضًا قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا نَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ [الأحزاب: ٥٣]، قال أكثر المفسرين: نزلت هذه الآية في شأن وليمة زينب بنت جحش حين بنى بها رسول الله ﷺ، قال أنس بن مالك رضي الله عنه: كنت ابنَ عشر سنين مقدَّم رسول الله ﷺ المدينة، فخدمته عشر سنين، وتوفي رسول الله ﷺ وأنا ابن عشرين سنة، فكنت أعلم الناس بشأن الحجاب حين أنزل، وكان أول ما نزل في مبتنى رسول الله ﷺ بزینب بنت جحش، حين أصبح النبي ﷺ بها عروسًا فدعا القوم فأصابوا من الطعام ثم خرجوا،

(١) في الأصل «بتعليم» وهو خطأ واضح.

وبقي رَهْطٌ عند النبي ﷺ فأطالوا المكث، فقام رسول الله ﷺ وخرج وخرجت معه، لكي يخرجوا، فمشى النبي ﷺ ومشيت حتى جاء عتبة حجرة عائشة - رضي الله تعالى عنها - وظن أنهم قد خرجوا، فرجع ورجعت معه، حتى إذا دخل على زينب، فإذا هم جلوس لم يقوموا، فرجع النبي ﷺ ورجعت معه، حتى إذا بلغ عتبة حجرة عائشة، وظن أنهم خرجوا فرجع ورجعت معه، فإذا هم قد خرجوا، فضرب النبي ﷺ بيني وبينه الستر، ونزلت آية الحجاب.

قال أبو عثمان (واسمه الجعد) عن أنس قال: فدخل - يعني النبي ﷺ - البيت وأرخى الستر، وإني لفي الحجرة وهو يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ﴾ [الأحزاب: ٥٣]، وهذا أدبٌ من الله أدبٌ به الثقلاء. قال ابن عباس: نزلت في ناس من المسلمين كانوا يتحينون طعام رسول الله ﷺ فيدخلون عليه قبل الطعام إلى أن يُدْرَكَ^(١)، يأكلون ولا يخرجون، وكان رسول الله ﷺ يتأذى بهم فنزلت الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ﴾ إلى قوله: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ﴾ أي سألتن نساء النبي ﷺ حاجة ﴿فَسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ أي من وراء ستر يستركم عنهن، فبعد آية الحجاب لم يكن لأحد أن ينظر امرأة من نساء رسول الله ﷺ: متنقبة كانت أو غير متنقبة، ونزل فيها أيضًا قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلْبِيبِهِنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٩]، والجلابيب جمع جلباب، وهي الملاءة التي تشتمل بها المرأة فوق الدرع والخمار، وقيل: هي كل ما يُسْتَرَّ به من كساء وغيره، قال ابن عباس: أمر نساء المؤمنين أن يغطين رؤوسهن ووجوههن بالجلابيب، إلا عينًا، لِيُعْلَمَ أَنَّهُنَّ حُرَّائِرٌ، وهو قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ أَذْنَىٰ أَنْ يُعْرِفَنَ فَلَا يُؤْذِنَنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٩]، أي لا يُتَعَرَّضَ لهن، بخلاف الإماء فلا يغطين وجوههن، وكان المنافقون يمشون في طرق المدينة يتبعون النساء إذا برزن بالليل لقضاء حوائجهن، فيتبعون المرأة، فإن سكنت اتبعوها، وإن زجرتهن انتهوا عنها،

(١) أي ينضج الطعام.

ولم يكونوا يطلبون إلا الإماء، ولكن كانوا لا يعرفون الحرة من الأمة؛ لأن زي الكل واحد، تخرج الحرة والأمة في درع وخمار، فشكون ذلك لأزواجهن، فذكروا ذلك للنبي ﷺ، فنزل: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ...﴾ الآية [الأحزاب: ٥٨]، ثم نهى الحرائر أن يتشبهن بالإماء^(١) بقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّيُّ قُلٌ لَّا زَوْجَكَ...﴾. قال أنس: «مرّت بعمر بن الخطاب جارية متقنعة، فعلاها بالدرّة، وقال: (يا لكاع أتتشبهين بالحرائر؟! ألقى القناع) ولكاع كلمة يقال لمن يُستحقر به مثل: العبد، والأمة، والقليل العقل، مثل قولك: يا خسيس^(٢)».

وفي هذه السنة توفيت فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف -أم علي بن أبي طالب رضي الله عنه- أسلمت وتوفيت مسلمةً بالمدينة.



(١) في القاموس المحيط: «خَدَمٌ، وَخِدَامٌ، موضع الخلخال، والسير، ورباط السراويل عدد أسفل رجل المرأة» اهـ. بتصرف.

والإماء: الخدم، والمغنيات: (يسرن مكشوفات الوجه وخدم الرجلين) ولذلك سمين بالخدم: من الخدمة، وكشف خدم الأقدام، وهن لا يستحيين من كشفها، فلذلك نُهي الحرائر أن يتشبهن بالإماء. ولهذا نقول لنساء هذا الزمن: إنكن رجعتن إلى أرذل من خدم الجاهلية الأولى؛ إذ الحرة اليوم خلعت جلباب الحياء، مع خلعهها جلباب الستر الذي تستر به جسدها: تشبهاً بالخدم (خدم الجاهلية الأولى). والمرأة على هذه الوتيرة التي نراها لا يمكن أن تكون هي المرأة المسلمة التي يريد الإسلام إعزازها وتكريمها وإبعادها عن فحش القول، وعن الفاحشة، نسأل الله تعالى أن يُسبل علينا ستر الدنيا والآخرة.

(٢) لأن الأمة إذا تشبهت بالحرة، لحق الحرة ما يلحق الأمة من استهزاء الرجال بها، كما نرى اليوم في الشوارع، وأسواق الفجور.

الفصل الخامس

في ظواهر السنة الخامسة وما فيها من الغزوات

قد سبق أن غزوة ذات الرقاع، ولو ذكرت في ظواهر سنة أربع، إلا أنه كما تقدم صحَّح بعضهم أنها كانت في سنة خمس.

وفي هذه السنة كانت غزوة دومة الجندل^(١):

(بضم الدال المهملة وبعدها واو ساكنة فميم مفتوحة فهاء) مضاف إلى الجندل (بفتح الجيم وسكون النون وفتح الدال المهملة، آخره لام) بلد بين الحجاز والشام، وهو أول غزوات الشام، على عشر مراحل^(٢) من المدينة، وعشرين من الكوفة، وثمان من دمشق، واثنني عشرة من مصر، سميت بدومي بن إسماعيل، كان نزلها، وكانت بعد غزوة ذات الرقاع بشهرين وأربعة أيام، بناء على ما صحح النووي من أن ذات الرقاع كانت في سنة خمسة، وصاحب دومة الجندل يسمى «أكيدر»، ويقال: إن منزل أكيدر كان أولاً في دومة الحيرة، وكان يزور أخواله من كلب، فخرج معهم للصيد فرُفعت له مدينة متهدمة لم يبق إلا حيطانها مبنية بالجندل، فأعاد بناءها وغرس الزيتون وغيره فيها، وسمّوها دومة الجندل للفرق بينها وبين دومة الحيرة، وكان «أكيدر» يتردد بينهما.

(١) في مراصد الإطلاع ما نصه: «دومة الجندل» بالضم والفتح، وأنكر ابن دريد الفتح، وعدّه من أغلاط المحدثين، وجاء في حديث الواقدي «دوما الجندل» قيل: هي من أعمال المدينة، حصن على سبعة مراحل من دمشق، بينها وبين المدينة.

قيل: هي غائط من الأرض «خمس فراسخ» ومن قبل مغربه عين تشج فتسقي ما به من النخل والزرع، وحصنها مارد (أملس)، وسميت «دومة الجندل» لأنها مبنية به، وهي قرب جبل طيء.

(٢) المرحلة: المسافة يقطعها السائر في نحو يوم، أو ما بين المنزلين.

ويزعم بعضهم أن تحكيم الحكّمين بين علي ومعاوية كان بدومة الجندل. وسببها أنه ﷺ بلغه أن بها جمعاً كثيراً يظلمون من مرّ بهم، وأنهم يريدون أن يدنوا من المدينة، فندب الناس واستخلف على المدينة سباع بن عُرْفطة -بضم العين المهملة- الغفاري، وخرج إليها لخمس ليالٍ بقيت من ربيع الأول وفي ألف، يسير الليل ويكمن النهار، ومعه دليل من بني عذرة يقال له «مذكور» رضي الله عنه، فلما دنا منهم جاء إليهم الخبر فتفرقوا، فهجم على مشاتهم ورعاتهم، فأصاب من أصاب، وهرب من هرب، ونزل رسول الله ﷺ بساحتهم فلم يلق بها أحداً، وبعث السرايا فرجعت ولم تلق منهم أحداً، ورجعت كل سرية بإبل، وأخذ محمد بن مسلمة رجلاً منهم وجاء به إلى النبي ﷺ، فسأله رسول الله ﷺ عنهم، فقال: هربوا حيث سمعوا أنك أخذت نعمهم. فعرض ﷺ عليه الإسلام فأسلم.

ورجع ﷺ إلى المدينة ولم يلق حرباً.

وفي رجوعه وادع -أي صالح- عيينة بن حصن، واسمه حذيفة الفزاري: أن يرعى بمحل بينه وبين المدينة ستة وثلاثون ميلاً؛ لأن أرضه كانت أجذبت، ولما سمن حافرُه وخُفُّه وانتقل إلى أرضه، عدا على لقاح رسول الله ﷺ بالغابة وقيل له «عيينة» لأنه أصابته لقوة^(١) فحفظت عيناه، فُسِّمِي عيينة، وعيينة هذا أسلم بعد الفتح وشهد حنيناً والطائف، وكان من المؤلفة^(٢)، ودخل على النبي ﷺ بغير إذن وأساء الأدب فصبر النبي ﷺ على جفوته، وقال فيه ﷺ: «إن شر الناس من تركه الناس اتقاء فُحْشه»^(٣)، وقيل إن ذلك إنما قيل في مخرمة بن نوفل، ولا مانع من تعدد ذلك. وقد ارتد عيينة بعد ذلك في زمن الصديق رضي الله عنه، فإنه لحق بطليحة بن خويلد حين تنبأ وآمن

(١) اللّوة: داء يعرض للوجه يعوجُّ منه الشّدق.

(٢) هم جماعة من الصحابة كان الرسول ﷺ يعطيهم من الأموال ليحببهم في الإسلام.

(٣) رواه أبو داود رضي الله عنه، والترمذي عن عائشة بلفظ: «إن شر الناس منزلةً عند الله يوم القيامة من تركه الناس اتقاء فُحْشه».

به، فلما هرب طليحة أسره خالد بن الوليد رضي الله عنه، وأرسل به إلى الصديق في وثاق، فلما دخل المدينة صار أولادُ المدينة ينخسونه بالحديد، ويضربونه، ويقولون: أيُّ عدوِّ الله كفرتَ بالله بعد إيمانك، فيقول: والله ما كنتُ آمنْتُ. فَمَنَّ عليه الصديقُ، فأسلم، ولم يزل مظهرًا للإسلام.

وفي غيبته ﷺ في هذه الغزوة ماتت أم سعد بن عبادة (عمرة بنت مسعود) من المبايعات، وكان ابنها رضي الله عنه معه ﷺ. ولما قدم ﷺ المدينة صَلَّى على قبرها، وذلك بعد شهر، وقال له سعد: يا رسول الله أَتَصَدَّقُ عنها؟ قال: نعم، قال: أي الصدقة أفضل؟ قال: الماء. فحفر بئرًا، وقال: هذه لأم سعد رضي الله عنها^(١).

وفي هذه السنة غزوة بني لحيان بن هذيل بن مدركة:

(بكسر اللام وفتحها) قبيلة من هذيل، لما وقعت وقعة عاصم بن ثابت وخبيب ابن عدي وغيرهما من الصحابة الذين قتلتهم هذيل، وَجَدَ^(٢) النبي وَجْدًا شديدًا على أصحابه المقتولين بالرجيع، وأراد أن ينتقم منهم، فأمر أصحابه بالتهيؤ، وخرج رسول الله ﷺ في جمادى الأولى من السنة الخامسة لستة أشهر من فتح بني قريظة، فقصد بني لحيان يطالب بئار عاصم بن ثابت وخبيب بن عدي (أهل الرجيع^(٣))، وذلك إثر رجوعه من «دومة الجندل»، فسلك على طريق الشام أولاً ليصيب من القوم غرّة، وعسكر في مائتي رجل، ومعهم عشرون فرسًا، ثم أخذ ذات اليسار إلى صخيرات^(٤)

(١) وروى سعد بن عبادة أن رسول الله ﷺ قال: «أفضل الصدقة سقي الماء» رواه الإمام أحمد، وأبو داود، والنسائي، وابن حبان، والحاكم.

وفي هذا رد علي الذين يتعللون بإنكار نفع الصدقة بعد الوفاة، وليتقوا الله، وليحفظوا ألسنتهم.

(٢) وَجَدَ: أي حَزَنَ.

(٣) رجيع (بفتح أوله، وبالعين المهملة) على فعيل، هو الموضع الذي غدرت عضل والقارة بالسبعة نفر الذين بعثهم رسول الله ﷺ، منهم عاصم بن ثابت «الذي حمته الدبر» وهو ماء لهذيل قرب الهدّة، (بين مكة والطائف) وقد خَفَّفَ بعضهم داله. والرجيع: والله قرب خبير. كذا في المراصد.

(٤) في هامش المراصد ما نصه: في الزبيدي: وضبطه ابن الأثير بالحاء المهملة «صخيرات» واحده «صحرة» وهي أرض لينة تكون في وسط الحرة.

اليمام ثم رجع إلى طريق مكة وأجدّ السير حتى نزل غُران^(١) (بضم المعجمة وفتح الراء وهي منازل بني لحيان، وهو واد بين أمج^(٢) وعسفان، وبينه وبين عسفان خمسة أميال) حيث كان مصابُّ أصحاب الرجيع، واستغفر لهم، وأقام هناك يوماً أو يومين يبعث السرايا في كل ناحية، فوجد بني لحيان قد حذروا وتمنَّعوا في رؤوس الجبال، وفاتته الغرّة، فخرج في مائتي راكب إلى المدينة، ولم يلق كيِّداً، وكانت غيبته عن المدينة أربع عشرة ليلة.

قال جابر رضي الله عنه: سمعتُ رسولَ الله ﷺ حين وجه إلى المدينة يقول: «آيئون تائبون إن شاء الله لربنا حامدون، أعوذ بالله من وعثاء السفر (أي مشقته)، وكآبة المنقلب (أي حزن المنقلب)، وسوء المنظر في الأهل والمال».

ومنها خرج لغزوة الغابة المعروفة بـ «غزوة ذي قرد»^(٣).

واستعمل في غزوة بني لحيان على المدينة ابن أم مكتوم.

وبعض أهل السير جعل غزوة «بني لحيان» في شهر ربيع الأول سنة ست، والصحيح أنها كانت في جمادي الأولى من السنة الخامسة، على رأس ستة أشهر من «فتح بني قريظة».

وفي هذه السنة لما رجع ﷺ من بني لحيان، وقف على الأبواء وزار قبر أمه^(٤).

وفيها فكَّ رسول الله ﷺ سلمانَ الفارسي رضي الله عنه عن الرق، وكان إسلامه في السنة الأولى من الهجرة.

وفيها انخسف القمر في جمادى الآخرة، فصلَّى بهم النبي ﷺ صلاة الخسوف حتى انجلى القمر.

(١) غران: منازل بني لحيان، بين أمج وعسفان.

(٢) أمج: ضبطها في المراسد بهمة القطع، لا بالمد: أمج.

(٣) ستأتي هذه الغزوة بتفصيلها في بداية السنة السادسة.

(٤) زار قبر أمه ﷺ في «ألف مُقَنَّع» يعني ألف فارس مقنَّع.

الفصل السادس

في ظواهر السنة السادسة وما فيها من الغزوات

وفي هذه السنة كانت غزوة «الغابة» وتعرف بذِي قَرَد:

والغابة: الشجر الملتف، وذِي قَرَد بفتح القاف والراء، وبالดาล المهملة، وقيل: بضم القاف وفتح الثاني: موضع على ميلين من المدينة على طريق خيبر.

كانت هذه الغزوة في السنة السادسة من الهجرة، بعد غزوة بني لحيان.

وقال البخاري: كانت قبل خيبر بثلاثة أيام، وفي مسلم نحوه، ولكن إجماع أهل السير على خلافهما^(١). وهي الغزوة التي أغار فيها عيينة بن حصن في خيل من غطفان وفزارة على لقاح رسول الله ﷺ بالغابة قبل خيبر، وكانت اللقاح عشرين لِقحة، واللقحة: ذات اللبن القريبة من الولادة، وكان أول من علم بهم سلمة بن الأكوع الأسلمي رضي الله تعالى عنه؛ فإنه غدا يريد الغابة متوشحاً قوسه، ومعه غلام لطلحة ابن عبيد الله معه فرس لطلحة يقوده، فلقي غلاماً لعبد الرحمن بن عوف، فأخبره أن عيينة بن حصن قد أغار على لقاح رسول الله ﷺ في أربعين فارساً من غطفان، فخرج سلمة يقتفي أثر القوم كالسبع، وكان يسبق الفرس جرياً، حتى لحق بهم، فجعل يردهم بالنبل، ويقول إذا رمى:

(١) الشيخان أصدق من أهل السير؛ لأنهما أخذوا الرواية بالسند الصحيح

خُذْهَا وَأَنَا ابْنُ الْأَكْوَع اليوم يوم الرُّضْع

(أي يوم هلاك اللثام).

فإذا وجهت الخيل نحوه انطلق هاربًا، وكانت إذا دخلت الخيل في بعض مضايق الجبل يعلو سلمة الجبل ويرميهم بالحجارة، حتى خففوا رحلهم بإلقاء كثير من الرماح والبرُد^(١).

ولما بلغ رسول الله ﷺ صياح ابن الأكوع صرخ بالمدينة: «الفرع الفرع! يا خيل الله اركبي».

فنادى ﷺ بذلك، كما نادى في غزوة بني قريظة.

وأول من انتهى إلى رسول الله ﷺ من الفرسان المقداد بن الأسود رضي الله عنه، وعقد ﷺ لهذا الأمير لواءً في رمحه، ثم قال له: اخرج في طلب القوم، ثم عباد بن بشر، وسعد بن زيد رضي الله عنهما، ثم تلاحت به الفرسان، وأمر عليهم سعد بن زيد، وكان شعارهم (أي علامتهم التي يُعرفون بها في ظلمة الليل، أو عند الاختلاط): «يا منصور أمت» تفاؤلاً بأنَّ يَحْصُلَ لهم النصر بعد موت عدوهم، واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم.

وأقبل ﷺ في المسلمين حتى نزل بالجبل من ذي قرد، بناحية خيبر، وكان ابن الأكوع قد استنقذ من غطفان أكثر اللقاح، فنحر بلال رضي الله عنه ناقته حينئذ، وقسم ﷺ في كل مائة من أصحابه جُزُورًا ينحرونه، وكانوا خمسمائة، وبعث سعد بن عباد رضي الله تعالى عنه بأحمال تمر، وبعشر من الجزر، فوافت رسول الله ﷺ بذي قرد، فقال: «اللهم ارحم سعدًا، وآل سعد، نعم المرء سعد بن عباد».

فقال الأنصار: هو سيدنا وابن سيدنا، من بيت يُطعمون في المَحَل^(٢) ويحملون

(١) جمع بردة: كساء أسود مربع فيه صِغَر، تلبسه الأعراب، والجمع برد. بفتح الراء (كذا في المختار).

(٢) أي يطعمون في الجذب.

الكلَّ ويحملون^(١) عن العشيرة، فقال ﷺ: «خيار الناس في الإسلام خيارهم في الجاهلية إذا فقهوا في الدين»^(٢). ورجع ﷺ وهو على ناقته العضباء، وهي «القصوى»، وهي «الجدعاء»، ولم يكن بها غضب، ولا جدع، مردفًا سلمة بن الأكوع رضي الله عنه، وأعطى ﷺ سلمة بن الأكوع سهمي الراجل والفارس جميعًا مع كونه راكبًا، وهذا استدلل به من يقول: إن للإمام أن يفاضل في الغنيمة، وهو مذهب الإمام أبي حنيفة، وإحدى الروايتين عن أحمد.

وعند الإمام مالك والإمام الشافعي رضي الله عنهما: لا يجوز، ولعله لعدم صحة ذلك عندهما^(٣).

وروى عن سلمة قال: قلت يا رسول الله ابعث معي فوارسَ لندرك القومَ. فقال لي رسول الله ﷺ، بعد أن ضحك: «إذا ملكت فأُسَجِّحْ» (بهمزة قطع، ثم سين مهملة، ثم جيم مكسورة، ثم حاء مهملة - أي فارق وأحسن - من السجاجة وهي السهولة). وفي هذه السنة كانت غزوة بني المصطلق ويقال لها المُرَيْسِيْع: (بميم مضمومة، فراء مهملة مفتوحة، فمثلة تحتية ساكنة، فسين مهملة مكسورة، فمثلة تحتية ساكنة، وآخره عين مهملة) اسم ماء من مياههم.

والمصطلق: بطن من خزاعة، وهم بنو جَذِيْمَة، وجذيمة هو المصطلق. وسببها أنه ﷺ بلغه أن الحارث بن ضرار سيد بني المصطلق وقائدهم رضي الله عنه - فإنه أسلم - قد جمع لحرب رسول الله ﷺ من قدر عليه من قومه، ومن العرب، فدعاهم إلى حرب المصطفى، فأجابوه وتهيأوا للسير معه، فبعث المصطفى بُرَيْدَةَ بن الحُصَيْب - بضم الحاء وفتح الصاد المهملتين - يعلم علم ذلك، فلقي الحارث بن أبي ضرار وكلمه، ورجع إلى المصطفى فأخبره بذلك، فأسرع الخروج إليهم حتى

(١) في الأصل «ويحمون» والتصحيح من السيرة الحلبية والمعنى: يتحملون الحملات عن العشيرة لكرمهم.

(٢) ورواه البخاري عن أبي هريرة بلفظ «خياركم» بدل «خيار الناس».

(٣) ولم لا تكون خصوصية لسيدنا رسول الله ﷺ أو لسلمة رضي الله عنه.

لقيهم على ماء من مياههم يقال له: «المريسي»^(١)، واستخلف على المدينة زيد بن حارثة، وكان معه من أفراسه: لزاز، والظرب، ولما وصل إليهم عرض عليهم الإسلام فأبوا وحاربوا، فاستأصلهم قتلاً وأسرًا ونهباً^(٢) واستاق إبلهم وشياههم، وكانت الإبل ألفين، والشياه خمسة آلاف، واستعمل عليهم مولاه سُقران -بضم الشين المعجمة، وكان حبشيًا، واسمه صالح، وكان السبي مائتي أهل بيت.

وفي هذه الغزوة كانت قصة حديث الإفك في عائشة رضي الله عنها، وهي مشهورة في كتب السير والتفاسير، ويروى عن الزهري عن عروة عن عائشة أن رسول الله ﷺ قد أقبل من سفره حتى إذا كان قريباً من المدينة، وكان معه عائشة رضي الله تعالى عنها في سفره ذلك، فقال فيها أهل الإفك ما قالوا، وقد برأ الله عائشة أم المؤمنين في كتابه الكريم في عدة آيات أولها: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ﴾ إلى قوله: ﴿أُولَٰئِكَ مَبْرُؤُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [النور: ١١: ٢٦].

قال أبو الفرج بن الجوزي: كان النبي ﷺ قد تزوج أول نسائه خديجة، ثم عائشة، ثم حفصة، ثم أم سلمة، ثم أم حبيبة، ثم زينب بن جحش، ثم جويرية، ثم صفية، ثم ميمونة، فلما كان في واجب القسمة يحتاج إلى مراعاة الوقت، وخاطره الكريم ﷺ لا يحتمل، جاءه التخفيف بقوله تعالى: ﴿تُرْجَىٰ مِنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتَوَّيَّ إِلَيْكَ مِنْ تَشَاءُ وَمِنْ أَبْغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾ [الأحزاب: ٥١] ولم يكن عنده ﷺ أثر من عائشة رضي الله عنها، ولا أعلى منزلة^(٣) منها اهـ.

وجعله عائشة بعد خديجة بدون فاصل هو أحد الأقوال؛ فإن بعضهم يقول: إنه تزوج بسودة بنت زمعة رضي الله عنها، ودخل عليها في مكة، وعقد عقده بعائشة

(١) المريسي بالضم، ثم الفتح، وياء ساكنة، وسين مهملة مكسورة، وياء آخر الحروف، وعين مهملة، ورواه بعضهم بالغين المعجمة (مريسيغ): ماء بناحية «قديد» إلى الساحل، به غزوة النبي ﷺ إلى بني المصطلق -من خزاعة- فقاتلهم واصطفى منهم «جويرية» فتزوجها ﷺ اهـ. مراد.

(٢) النهب هنا: الغنيمة، ولا يراد الشر إلا مثله، وذلك لأنهم هم الذين بدأوا رسول الله ﷺ بالحرب.

(٣) لأنها الصديقة بنت الصديق رضي الله عنهما.

رضي الله عنها بمكة، ولم يدخل بها إلا في المدينة^(١) فلعل القائل بأنها بعد خديجة في العقد لا في الدخول، وحسبك من فضل عائشة رضي الله عنها أمور من أعظمها أنه قد أنزل الله القرآن الحكيم ببراءتها وتشريفها اهـ.

وكان رسول الله ﷺ استشار الصحابة في ذلك فقال علي: «غيرها من النساء كثير»^(٢) وقال عمر: من زوجكها يا رسول الله؟ قال: الله، قال: أفتظن أن ربك دلس^(٣) عليك فيها؟ سبحانك هذا بهتان عظيم! فنزلت الآية كذلك. وأما أهل الإفك وهم: مسطح بن عباد بن عبد المطلب وحسان بن ثابت وعبد الله بن أبي بن سلول: فجلدهم ﷺ ثمانين إلا عبد الله بن أبي بن سلول رأس المنافقين فلم يجلداه.

وقد ذكر أبو عمر بن عبد البر الحافظ أن قومًا أنكروا أن يكون حسان خاض في الإفك أو جلد فيه، روي عن عائشة أنها برأتها من ذلك. وكان عبد الله بن أبي بن سلول هو المقصود بمن تولى كبره فله عذاب عظيم في الآخرة، وهو أشد أهل الإفك إيذاء للنبي ﷺ، بدليل أن النبي ﷺ لما صعد المنبر قال: «يا معشر المسلمين من يعذرني من رجل قد بلغني أذاه في أهلي (يعني عبد الله بن أبي بن سلول) فوالله ما علمت على أهلي إلا خيرًا، ولقد ذكروا رجلًا (أي صفوان بن المعطل صاحب الناقة) ما علمت عليه إلا خيرًا، وما كان يدخل على أهلي إلا معي». فقام أسيد بن حضير (وهو ابن عم سعد بن معاذ) فقال: أعذرك يا رسول الله منه؛ إن كان من الأوس ضربت عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج فما أمرتنا فعلناه. فقام سعد بن عبادة (وهو سيد الخزرج، وكان رجلًا صالحًا، ولكن أخذته الحمية) فقال لأسيد بن حضير: كذبت، والله لا

(١) إنه ﷺ لم يدخل في مكة على أحد نسائه بعد خديجة رضي الله عنها، وقول بعضهم هذا لا دليل عليه.
(٢) أما سيدنا علي رضي الله عنه وكرم الله وجهه فإنما أراد أن يخفف عن النبي ﷺ بعض ما يجد. لا طعنًا في أم المؤمنين رضي الله عنها، وحاشاه أن ينوي ذلك. وكيف يطعن، وهي من خاصة قريش: حسبًا ونسبًا - يعني من أهله وعشيرته - وأبوها أحب الناس إلى رسول الله ﷺ أما ما قيل غير ذلك أو ما يدور حوله، فهو محض افتراء وكذب، والله المستعان على ما يصفون.
(٣) يقال: دلس البائع إذا كتم عيب السلعة عن المشتري (أي غشه).

تقدر على قتله. فقام أسيد بن حضير، وقال: كذبت، لَعَمْرُ الله لنقتلنه، وإنك لَمَنَافِقُ تجادل عن المنافقين. فثار الحيَّان؛ الأوس والخزرج، حتى هموا أن يقتتلوا ورسول الله ﷺ على المنبر، فلم يزل يخفضهم حتى سكتوا، فالمراجعة لرسول الله ﷺ وقعت بين أسيد بن حضير وسعد بن عباد سيد الخزرج، كما ذكره ابن إسحاق عن الزهري عن عبيد الله بن عبد الله وغيره.

وأما ما قيل من أن المراجعة في ذلك كانت بين سعد بن عباد وسعد بن معاذ فهو وَهْمٌ نَبَّ عليه ابن خلدون في السيرة، واستدل على ذلك بأن سعد بن معاذ مات بعد فتح بني قريظة بلا شك في أثناء السنة الرابعة، وغزوة بني المصطلق في شعبان من السنة السادسة بعد عشرين شهراً من موت سعد بن معاذ، والملاحاة بين الرجلين (أي المنازعة والمخاصمة) كانت بعد غزوة بني المصطلق بأزيد من خمسين ليلة اهـ.

وفي هذه الغزوة قتل رجلٌ من الأنصار رجلاً من المسلمين خطأً يظنه كافراً، والقتيل هشام من بني ليث بن بكر، وكان أخوه مقيس مشركاً، فقدم المدينة، وأظهر الإسلام طالباً دية أخيه، فأمر له رسول الله ﷺ بها، وأقام قليلاً ثم عدا على قاتل أخيه فقتله، ثم خرج إلى مكة مرتدّاً، ومن قوله:

حَلَلْتُ به وتُري وأدركت ثورتِي وكنْتُ إلى الأوثان أوَّلَ راجع

وهو ممن أهدر النبي ﷺ دمه يوم فتح مكة.

وفي هذه الغزوة أيضاً ازدحم جهجاه الغفاري - أجير عمر رضي الله عنه - وسانان الجهني - حليف الأنصار - على الماء وتقاتلا، فصرخ الغفاري: يا معشر المهاجرين، وصرخ الجهني: يا معشر الأنصار، فغضب عبد الله بن أبي بن سلول المنافق وعنده رهط من قومه فيهم زيد بن أرقم، فقال ابن أبي بن سلول: «أَوْ قد فعلوها، قد كاثرونا في بلادنا، أما والله، لئن رجعنا إلى المدينة لِيُخْرِجَنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ» (يعني بالأعز نفسه وبالأذل رسول الله ﷺ)، ثم قال لمن حضر من قومه: هذا ما فعلتم بأنفسكم،

أحللتموهم بلادكم، وقاسمتموهم على أموالكم، أما والله لو أمسكتهم عنهم ما بأيديكم لتحولوا عنكم، فأخبر زيد بن أرقم - ذو الأذن الواعية - وهو غلام حديث السن النبي ﷺ بذلك، وعنده عمر بن الخطاب، فقال: يا رسول الله مُرْ به عبد الله بن بشير فليقتله، فقال ﷺ: كيف يا عمر؟ يتحدث الناس إذن أن محمداً يقتل أصحابه^(١)، ثم أمر بالرحيل في وقتٍ لم يكن ليرحل فيه، ليقطع ما الناس فيه، فلقبه أسيدُ بن حضير وقال: يا رسول الله رحت في ساعة مُنكرة لم تكن لتروح فيها، (فإنه ﷺ كان لا يرحل إلا إن برد الوقت) فقال له رسول الله ﷺ: ما بلغك ما قال عبد الله بن أبي بن سلول؟! فقال: وماذا قال؟ فأخبره بمقاله، وأرسل رسول الله ﷺ إلى عبد الله بن أبي فأناه، فقال: أنت صاحب هذا الكلام الذي بلغني؟ فحلف عبد الله أنه لم يقل ذلك.

رُوي أن رسول الله ﷺ قال لزيد بن أرقم: لعلك غضبت عليه؟ قال: لا. قال: فلعله أخطأ سمعك؟ قال: لا. فلعله شُبّه عليك؟ قال: لا، فنزلت آية ﴿لَيْن رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ﴾ [المنافقون: ٨] لتصديق زيد بن أرقم، فبادر أبو بكر وعمر إلى زيد رضي الله تعالى عنهم ليبشّراه، فسبق أبو بكر فأقسم عمر أن لا يبادره بعدها إلى شيء، وقال أسيد: أنت والله تُخرجه إن شئت، أنت العزيز وهو الذليل، وبلغ ابن عبد الله بن أبي بن سلول - وكان حسن الإسلام، واسمه أيضاً عبد الله، وكان تبرأ من أبيه عند نزول سورة المنافقين - مقالة أبيه، فاعترض أباه عند المدينة، وقال: والله لا تدخل حتى يأذن لك رسول الله ﷺ، فأذن له، وحينئذ دخل، وقال: يا رسول الله، بلغني أنك تريد قتل أبي عبد الله لما بلغك عنه، فإن كنت فاعلاً فمُرني به، فأنا أحمل إليك رأسه، فو الله لقد علمتُ الخرج ما كان بها رجل أبرّ بوالديه مني، وإنني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله، فلا تدعني نفسي أن أنظر إلى قاتل أبي عبد الله بن أبي يمشي في الناس فأقتله، فأقتل

(١) ليس هذا من الصحابة رضي الله عنهم، وإنما هو رأس النفاق والمنافقين لعنه الله، وإنما خشي رسول الله ﷺ أن يفترى الناس هذه الفرية فيما بعد، ويستدلوا عليها بهذا الصنيع، فلذلك أمر رسول الله ﷺ بعدم قتله. والحديث رواه البخاري عن جابر بلفظ: «لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه».

مؤمنًا بكافر وأدخل النار، فقال رسول الله ﷺ: «نرفق به ونُحسن صحبته ما بقي معنا». وكانت في جملة السبي برة بنت الحارث بن ضرار: سيد بني المصطلق، وقعت في سهم ثابت بن قيس، وابن عم له، فجعل ثابت لابن عمه نخلات له بالمدينة في حصته من برة، وكاتبها على تسع أواق من ذهب، فدخلت عليه ﷺ وأخبرته بإسلامها، وقالت له: إني برة بنت الحارث سيد قومه، أصابنا من الأمر ما قد علمت، ووقعت في سهم ثابت بن قيس، وابن عم له، وخلصني ثابت من ابن عمه بنخلات في المدينة، وكاتبني على مالٍ لا طاقة لي به، وإني رجوتك فأعني في مكاتبتي. فقال رسول الله ﷺ: أو خير لك من ذلك؟ قالت: ما هو؟ قال: أؤدي عنك كتابتك، وأتزوجك؟ قالت: نعم يا رسول الله. فأرسل رسول الله ﷺ إلى ثابت بن قيس رضي الله عنه فطلبها منه، فقال ثابت: هي لك يا رسول الله، وأدّى ما كان كاتبها عليه وأعتقها، وتزوجها وهي ابنة عشرين سنة، وسماها «جويرية»، وكان اسمها «برة» كما سبق، وكذلك ميمونة، وزينب بنت جحش، كان اسم كل منهما «برة» فغيره ﷺ، وكذا كان اسم بنت أم سلمة «برة» فسماها «زينب» وكانت من أفقه نساء زمانها، كذا ذكره أبو عمر. وسبب ذلك لما في «برة» من تزكية النفس.

ويذكر أن عليًا كرم الله وجهه هو الذي أسرها، ولا مانع من أن يكون علي رضي الله عنه أسرها، ثم وقعت في سهم ثابت بن قيس وابن عمه رضي الله عنهما عند القسمة؛ لأنه لم يثبت في هذه الغزوة أنه ﷺ جعل الأسرى لمن أسره، كما وقع في غزوة بدر.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كانت «جويرية» امرأة علي وجهها ملاحه، فجاءت تسأل رسول الله ﷺ في كتابتها، فلما قامت على باب الخباء كرهت دخولها على النبي ﷺ (وإنما كرهت ذلك لما جُبِلَتْ عليه النساء من الغيرة) وعرفت أن رسول

الله ﷺ سيري منها مثل الذي رأيتُ، فقالت: يا رسول الله أنا جويرية بنت الحارث^(١)، وكان من أمري ما لا يخفى عليك، ووقعت في سهم ثابت بن قيس بن شماس، وإنني كاتبته على نفسي، فجئت أسألك في كتابتي، قال رسول الله ﷺ: فهل لك فيما هو خير من ذلك؟ فقالت: وما هو يا رسول الله؟ قال: أؤدي عنك كتابتك وأنزوجهك؟ قالت: قد فعلتُ.. قالت: فتسامع الناس (يعني أن رسول الله ﷺ تزوج جويرية) فأرسلوا ما في أيديهم من السبي، فأعتقوهم، وقالوا: أصهار رسول الله لا ينبغي أن تُسرق، قالت: فما رأينا امرأة كانت أعظم بركة على قومها منها، وأعتق بسببها مائة أهل بيت من بيت بني المصطلق^(٢) -خرجه بهذا السياق أبو داود.

وعن جويرية رضي الله عنها قالت: لما أعتقني رسول الله ﷺ وتزوجني، والله ما كلمته في قومي حتى كان المسلمون هم الذين أرسلوهم، وما شعرت إلا بجارية من بنات عمي تخبرني الخبر، فحمدتُ الله سبحانه وتعالى.

وقد حدث يزيد بن رومان أن رسول الله ﷺ بعث إلى بني المصطلق بعد إسلامهم الوليد بن عقبة بن أبي معيط لأخذ صدقاتهم، فلما سمعوا به ركبوا إليه، فلما سمع بهم^(٣) هابهم، فرجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره أن القوم قد هموا بقتله ومنعوه من أخذ صدقاتهم، فأكثر المسلمون في ذكر غزوهم، حتى هم رسول الله ﷺ بأن يغزوهم، فبينما هم على ذلك إذ قدم وفدُهم على رسول الله ﷺ، فقالوا: يا رسول الله، سمعنا برسولك حين بعثته إلينا، فخرجنا إليه لنكرمه ونؤدِّي إليه ما قبلنا من الصدقة، فانشمر راجعاً، فبلغنا أنه زعم لرسول الله ﷺ أننا خرجنا إليه لنقتله، والله ما جئنا لذلك، فأنزل الله فيه وفيهم: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَا فْتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِمَهِلَةٍ

(١) ولذلك نقول: إن هذه الرواية غير صحيحة، لأن الذي سماها «جويرية» هو رسول الله ﷺ، وقد تقدم أن اسمها قبل «برة».

(٢) ولذلك نقول: إن أسرها كان خيراً وبركة على قومها: تزوجها رسول الله ﷺ، وأعتق بسببها مائة أهل بيت، وأسلم جميع قومها. والحمد لله رب العالمين..

(٣) أي لما سمع الوليد بن عقبة بركبهم إليه.

فَنُصِّحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴿٦﴾ وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ ﴿٧﴾
[الحجرات: ٦-٧] إلى آخر الآية، وكان شعار المسلمين: يا منصور أمت.

وفي هذه السنة كسفت الشمس.

وأما ما قيل من أن آية التيمم نزلت في غزاة بني المصطلق، فقد قال النووي في الروضة: إن آية التيمم نزلت في سنة أربع.

وفي هذه السنة كانت غزوة الحديبية:

وتُخَفَّفُ وتُشَدَّدُ، وهي بئر قريب من مكة، بينها وبين المدينة تسع مراحل، سُمي المكان باسمها، وقيل شجرة، وقيل قرية بقرب مكة على سبعة أميال من مكة.

وسبب هذه الغزوة أن رسول الله ﷺ رأى في المنام بالمدينة قبل أن يخرج إلى الحديبية أنه دخل هو وأصحابه المسجد الحرام، وأخذ مفتاح الكعبة بيده وطافوا واعتمروا وحلق بعضهم، وقَصَّر بعضهم، فأخبر بذلك أصحابه ففرحوا وحسبوا أنهم دخلوا مكة عامهم ذلك، فأخبر أصحابه أنه معتمر، فخرج من المدينة في ذي القعدة سنة ست لا يريد حرباً بالمهاجرين والأنصار في ألف وأربعمائة، ليأمن أهل مكة ومن حولهم من حربه، وساق الهدي وأحرم بالعمرة من ذي الحليفة ولبي، فاقتدى به جمهور أصحابه، واستعمل ﷺ على المدينة الشريفة ابن أم مكتوم، وقيل أبا رهم كلثوم بن الحصين، وقيل استخلف أبا رهم مع ابن أم مكتوم جميعاً، فكان ابن أم مكتوم على الصلاة، وكان أبو رهم حافظاً للمدينة. وسار حتى وصل إلى ثنية المُرَّار^(١) مهبط الحديبية من أسفل مكة، وأمر بالنزول، فقالوا: ننزل على غير ماء! ووقع من معجزاته ﷺ نبع الماء في ذلك المكان حتى صدر الناس عنه، وتأهبت قريش للقتال، وبعثوا رسولهم «عروة بن مسعود الثقفي» سيد أهل الطائف - رضي الله عنه - فإنه أسلم بعد ذلك - إلى النبي ﷺ، وقال: إن قريشاً لبسوا جلود النمر (أي أظهروا العداوة والحقَد)

(١) ثنية المُرَّار (بضم الميم) كذا في المراسد.

وقد نزلوا بذى طوى^(١) وعاهدوا الله أن لا تدخل عليهم مكة عنوة أبداً. ثم جعل عروة يتناول لحية رسول الله ﷺ وهو يكلمه، وهذه عادة العرب: أن الرجل يتناول لحية من يكلمه خصوصاً عند الملاطفة، وفي الغالب إنما يصنع ذلك النظير بالنظير، لكن كأنه ﷺ إنما لم يمنعه من ذلك استمالَةً وتأليفاً له، وكان المغيرة بنُ شعبة قائماً على رأس رسول الله ﷺ ومعه السيف، وعليه المغفر، وكلما أهوى عروة بيده إلى لحية النبي ﷺ ضرب يده بنصل السيف، ويقول «كُفَّ يَدُكَ عن مس لحية رسول الله قبل أن لا تصل إليك» فإنه لا ينبغي لمشرك ذلك، وإنما فعل ذلك المغيرة رضي الله عنه إجلالاً لرسول الله ﷺ، ولم ينظر لما هو عادة العرب، فلما أكثر عليه غضب عروة، وقال: «ويحك ما أظفك وأغلظك»، فتبسم رسول الله ﷺ وقال: هذا ابن أخيك المغيرة بن شعبة. ثم قام عروة من عنده وهو يرى ما يصنع أصحابه: لا يتوضأ إلا ابتدروا وضوءه، ولا سقط من شعره شيء إلا أخذوه، وإذا تكلموا خفضوا أصواتهم عنده، ولا يحدُّون النظر إليه تعظيماً له، فرجع عروة إلى قريش، وقال لهم: إني جئتُ كسرى وقيصراً في ملكهما، فوالله ما رأيت ملكاً في قومه مثل محمد في أصحابه.

وورد أيضاً في حديث الحديبية أنه لما نزل ﷺ على الركية^(٢) جاءه بديل بن ورقاء الخزاعي في نفر من قومه من أهل تهامة، فقال: «تركتُ كعب بن لؤي وعامر بن لؤي نزلوا عداد مياه الحديبية معهم العوذُ المطافيل»^(٣) وهم مقاتلون وصادوك عن البيت.

[والعوذُ: جمع عائد الناقة ذات اللبن، والمطافيل: ذوات الأطفال الصغار جمع مطفل أي أنهم حضروا مع الإبل، وهي كانت جُلَّ أموال العرب ليتزوّدوا بذلك، ولا يرجعون خوف الجوع، أو العوذُ المطافيل النساء معهن أطفالهن، أي أنهم خرجوا

(١) ذو طوى: موضع عند مكة (وقيل بالفتح، وقيل بالكسر، ومنهم من يضمها) وإد بمكة، قيل: هو الأبطح «كذا في المراصد».

(٢) الركية: البئر، جمعها ركي، وركايا.

(٣) العوذ: الحديثات التاج من الظباء وكل أنثى. والمطافيل: جمع مطفل، وهي ذات الطفل من الإنس والوحش وغيرهما.

بنسائهم معهنّ أولادهنّ لإرادة طول المقام، ليكون أدعى لعدم الفرار].

ولما قال بديل بن ورقاء لرسول الله ﷺ: هُم مقاتلوك وصادوك عن البيت، قال له النبي ﷺ: لم نجئ لقتال أحد، ولكننا جئنا معتمرين، وإن قريشاً قد نهكتهم الحرب وأضررت بهم، فإن شاءوا ماددتهم مدّة ويُخلّوا بيني وبين الناس، وإن شاءوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا، وإلا فقد حموا، وإن هم أبوا فوالذي نفسي بيده لأقاتلنهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي (وهي أعلى العنق) أو ليُنْفَذَنَّ الله أمره. فقال بديل: سأبلغهم ما تقول، ثم دعا رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب رضي الله عنه ليعثه إلى أبي سفيان وأشرف قريش يُعلمهم أنه لم يأت لحرب، وإنما جاء زائراً ومُعظّماً لهذا البيت، فقال: يا رسول الله إني أخاف قريشاً على نفسي، وما بمكة من بني عدي بن كعب أحدٌ يمنعني، وقد عرفت قريش عداوتي إياها وغلظتي عليها، ولكن أدلك على رجل أعزّ بها مني: عثمان بن عفان؛ فإن بني عمه يمنعون. فدعا رسول الله ﷺ عثمان ابن عفان رضي الله عنه، فبعثه إلى أبي سفيان وأشرف قريش ليعلمهم بذلك، فخرج عثمان بن عفان رضي الله عنه إلى مكة، ودخل مكة من الصحابة عشرة أيضاً بإذن رسول الله ﷺ ليزوروا أهاليهم، فلما وصل إليهم عثمان عرفهم ذلك، وهم يردّون عليه: «إن محمداً لا يدخل علينا أبداً» فلما فرغ عثمان من تبليغ رسالة رسول الله ﷺ، قالوا له: إن أحببت أن تطوف بالبيت فطف، فقال: ما كنت لأفعله حتى يطوف رسول الله ﷺ، فغضبت قريش، وأمسكوه وحبسوه ثلاثة أيام.

ولما احتبس عثمان، بلغ رسول الله ﷺ أن عثمان رضي الله عنه قد قُتل، وقتلوا معه العشرة رجال الذين دخلوا مكة أيضاً، فحزن النبي ﷺ والمسلمون من سماع هذا الخبر حزناً شديداً، فقال النبي ﷺ حين بلغه ذلك: لا نبرح حتى نناجز القوم، (أي نقاتلهم) ودعا النبي ﷺ إلى بيعة الرضوان، فبايعهم على أن يقاتلوا قريشاً ولا يفروا عنهم، وأنه إما الفتح وإما الشهادة. ولم يتخلف أحد، إلا الجعد بن قيس، اختفى بإبط ناقته يستتر بها من الناس، وكان سيد بني مسَلِمة (بكسر اللام) في الجاهلية، وقد

قال ﷺ لبني مسلمة: مَنْ سيدكم؟ قالوا: «الجد بن قيس، على بُخل فيه» قال: «وأي داء أدوا من البخل؟» ثم قال ﷺ: سيدكم عمرو بن الجموح. وكان ﷺ جالساً تحت سَمرة أو سدرة (وسَمرة بفتح السين المهملة وضم الميم بعدها راء مفتوحة مهملة وآخرها هاء: شجر الطلح)^(١) وكان عدد المبايعين ألفاً وثلاثمائة، وسميت هذه البيعة بيعة الرضوان؛ لأن الله تعالى ذكر في سورة الفتح الذين صدرت عنهم هذه البيعة، بقوله: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: ١٨]. ثم أتى رسول الله ﷺ الخبر بأن ما ذكر من أمر عثمان باطل، فبايع عنه ﷺ، ووضع يده اليمنى على يده اليسرى، وقال: «اللهم إن هذه عن عثمان؛ فإنه في حاجتك وحاجة رسولك»^(٢) وكانت يد رسول الله ﷺ لعثمان خيراً من أيديهم لأنفسهم.

وكان محمد بن مسلمة رضي الله عنه على حرس رسول الله ﷺ، فبعثت قريش أربعين (وقيل خمسين رجلاً) عليهم مكرز بن حفص ليطوفوا بعسكر رسول الله ﷺ رجاء أن يصيبوا منهم أحداً أو يجدوا منهم غرةً - أي غفلة - فأخذهم محمد بن مسلمة إلا مكرزاً فإنه أفلت، وأتى بهم إلى رسول الله ﷺ فحبسوا، وبلغ قريشاً حبس أصحابهم، فجاء جمعٌ منهم حتى رموا المسلمين بالنبل والحجارة، فأسر المسلمون منهم اثني عشر رجلاً، وعند ذلك بعثت قريش إلى رسول الله ﷺ جمعاً فيهم سهيل بن عمرو، فلما رآه النبي ﷺ قال لأصحابه: سَهْلٌ أمرُكم، فقال سهيل: يا محمد إن الذي كان من حبس أصحابك عثمان والعشرة رجال، وما كان من قتال من قاتلك، فإنه لم يكن من رأى ذوي رأينا، بل كنا كارهين له حين بلغنا، وكان من سفهائنا، فابعث إلينا بأصحابنا الذين أسرت أولاً وثانياً. فقال رسول الله ﷺ: إني غير مرسلهم حتى ترسلوا أصحابي. فقالوا: نفعل. فبعث سهيلاً ومن معه إلى قريش بذلك، فبعثوا بمن كان عندهم، وهو عثمان رضي الله عنه والعشرة رجال رضي الله عنهم، فأرسل رسول الله ﷺ أصحابهم. اهـ.

(١) هو شجر عظيم من شجر العضاء، وجمهور المفسرين على أن الطلح الوارد في القرآن هو: الموز. اهـ. مختار.

(٢) انظر الرياض النضرة في مناقب العشرة لمحِب الدين الطبري ص ٢٩ و ٣٠.

ولما علمت قريش بهذه البيعة خافوا، وأشار أهل الرأي بالصلح على أن يرجع ويعود من قِبل فيقيم ثلاثاً معه سلاح الراكب - السيف في القُرب^(١) والقوس - فبعثوا سهيل بن عمرو ثانياً ومعه مكرز بن حفص وحويطب بن عبد العزى إلى رسول الله ﷺ ليصالحه، على أن يرجع في عامه هذا؛ لثلاثاً تتحدث العرب بأنه دخل عنوة، وأنه يعود من قِبل، فلما انتهى سهيل بن عمرو إلى رسول الله ﷺ جثا على ركبتيه بين يديه ﷺ والمسلمون حوله، وتكلم فأطال، ثم تراجعاً^(٢)، ومن جملة ذلك أن النبي ﷺ قال له: تَخْلُوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْبَيْتِ فَنُطَوِّفَ، فقال: له سهيل: «والله لا تتحدث بنا أننا أخذنا ضُغْطَةً (بالضم أي بالشدة والإكراه) ولكن ذلك من العام القابل». ثم التأم الأمر بينهما على الصلح على ترك القتال، إلى آخر ما يأتي، ولم يبق إلا الكتابُ بذلك، وعند ذلك وثب عُمَرُ حتى أتى أبا بكر فقال: أليس رسول الله؟ قال: بلى. قال: ألسنا بالمسلمين وهم بالمشركين؟ قال: بلى، قال: فعلام نعطي الدنْيَةَ (بفتح الدال وكسر النون وتشديد الياء: النقيصة والخصلة المذمومة) في ديننا؟ قال: يا عمر، الزم فأنا أشهد أنه رسول الله، قال: وأنا، ثم أتى رسول الله فقال له ذلك، فقال: أنا عبد الله ورسوله لن أخالف أمره، ولن يُضَيِّعَنِي. فأجاب النبي ﷺ إلى ذلك، فقال سهيل: هاتِ اكْتُبْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ كتاب صلح، فدعا النبي ﷺ الكاتب، فقال له: اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم، فقال سهيل: لا أعرف الرحمن إلا صاحب الإمامة، اكتب باسمك اللهم، فقال المسلمون: لا تكتب إلا بسم الله الرحمن الرحيم، فقال النبي ﷺ: اكتب باسمك اللهم، فكتب، ثم قال: «اكتب هذا ما صالح عليه محمد رسول الله»، فقال سهيل: لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت، ولا قاتلناك، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك محمد ابن عبد الله، فقال النبي ﷺ: «إني لرسول الله، وإن كذبتُموني، وأنا محمد بن عبد الله، اكتب محمد بن عبد الله».

(١) القرب: جمع قراب وهو السيف في غمده.

(٢) هو ورسول الله ﷺ: أي راجع بعضهم بعضاً في الكلام.

وفي رواية: كان الكاتب علي بن أبي طالب، وكان قد كتب محمد رسول الله، فقال رسول الله ﷺ لعلي: امح رسول الله واكتب مكانه محمد بن عبد الله، فقال علي: لا والله لا أمحوك أبداً، فقال النبي ﷺ: فأرنيه، فأراه إياه، فأخذ الكتاب بيده الكريمة ومحا «رسول الله» وكتب مكانه «محمد بن عبد الله»، وكانت هذه معجزة لرسول الله ﷺ حيث كتب بيده الشريفة ولم يكن يكتب. وأقبل بوجهه ﷺ على علي بعد ما كتب في كتاب الصلح محمد بن عبد الله، فقال: «يا علي سيكون لك يوم مثل هذه الواقعة». ثم قال رسول الله ﷺ لعلي: اكتب: هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو على وضع الحرب عن الناس عشر سنين، يأمن فيها الناس، ويكف بعضهم عن بعض، وعلى أنه من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه رده عليه، وإن كان مسلماً، وإن جاء قريش ممن مع محمد لم يردوه عليه، وأن من أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه، وأنك ترجع عنا عامك هذا فلا تدخل علينا مكة، وأنه إذا كان عام قابل، خرجنا عنها فدخلتها أنت وأصحابك فأقمت فيها ثلاثاً مع سلاح الراكب السيوف في القرب، لا تدخلها بغيرها». وأشهدوا في ذلك الكتاب على الصلح رجالاً من المسلمين: أبا بكر، وعمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب -وهو كاتب الصحيفة- وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وأبا عبيدة بن الجراح، ومحمد بن مسلمة، وعبد الله بن سهيل بن عمرو، ورجالاً من قريش: حويطب بن عبد العزى، ومكرز بن حفص.

ولما بلغ هذا الشرط (أن من أتى محمداً من قريش رده إليهم وإن كان مسلماً، ومن جاء قريشاً ممن مع محمد لم يردوه عليه)، تعجب المسلمون من هذا الشرط، فقالوا: سبحان الله، كيف نرد من أتانا مسلماً!! وقالوا: يا رسول الله، أكتب هذا، قال: «نعم. إنه من ذهب إليهم فأبعده الله، ومن جاء منهم سيجعل الله له فرجاً ومخرجاً».

ونسخ الكتاب نسختين، فوضعت إحداهما عند رسول الله ﷺ، وأخذ الأخرى سهيل بن عمرو، ولما فرغ من كتاب القضية وثب من كان هناك من خزاعة، فقالوا:

نحن ندخل في عهد محمد وعقده، وقال بنو بكر: نحن ندخل في عقد قريش وعهدهم. وقد كان للنبي ﷺ عِلْمٌ أَنَّ هذا الصلح سببٌ لأمن الناس وظهور الإسلام، وأن الله يجعل فيه فرجاً للمسلمين، وهو أعلم بما علمه ربه، وإن كَانَ أمرُ هذا الصلح قد عَظُمَ على المسلمين، حتى كادوا يهلكون، لَمَّا رَأَوْا ما رَأَوْا من الصلح والرجوع من غير فتح، وقد كان أصحاب رسول الله ﷺ لما خرجوا من المدينة لا يشكّون في فتح مكة للرؤيا التي رآها النبي ﷺ، وهذه الشروط الصعبة التي انضم إليها أمره ﷺ لِعَلِّي رضي الله عنه في كَتَبِ الصحيفة أن يَمْحُوَ لفظَ رسول الله، ولم يَمْحه، ومحاه النبي ﷺ وكتب بدله «ابن عبد الله» بيده، فكان هذا من الخطب الجسيم الذي يقع الريب في القلوب الضعيفة، حتى لمن لا يفهم الأسرار في الأزمان الحديثة، والحال أنها واردة وثابتة بالأحاديث الصحيحة، فما يقع في الوهم من أن هذه الكتابة قاذحة في المعجزة باطل؛ لأن الكتابة إذا وقعت من غير معرفة بأوضاع الحروف ولا قوانين الخط وأشكالها بقيت الأمية على ما كانت عليه، وكانت هذه الكتابة الخاصة من إحدى المعجزات وتماها، كما كان من المعجزات في كتابة شروط الصلح إخباره ﷺ علياً أنه سيكون لك يوم مثل هذه الواقعة، وهو إشارة منه ﷺ لما سيقع بين علي ومعاوية رضي الله عنهما؛ فإنهما في حرب صفين وقعت بينهما المصالحة على ترك القتال إلى رأس الحول، وصحَّ ذلك وظهر يوم التحكيم لما قال حَكَمُ أهل الشام حين كتب في الصلح: «هذا ما صالح عليه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب»: «لو عرفنا أنك أمير المؤمنين ما خالفناك»، كما سيأتي مبيناً في خلافته.

وأما ما ورد من أنه رضي الله تعالى عنه في عام الحديبية، وفي غزوة بني المصطلق قاتل الجن، وأن جبريل قال يوم غزوة أحد وهو صاعد إلى السماء: «لا سيف إلا ذو الفقار ولا فتى إلا علي» فهذا من الموضوع - كما ذكره ابن تيمية^(١) - يعني أنه موضوع

(١) ذو الفقار هو سيف رسول الله ﷺ، وابن تيمية ليس من رجال الحديث، حتى يحكم، وقد خرَّجه له المحب الطبري في «الرياض النضرة»، وللحديث ترجمة طويلة في «المقاصد الحسنة» للسخاوي.

لم يرد من طريق يعتدّ به، وإن كان المدح في عليّ لا يُستكثر عليه وذلك للإجماع على شجاعته وكرامته، والمراد بالفتى: الشجاع السيد، وفي الحديث: أن ملكاً يقال له رضوان نادى يوم بدر من السماء: «لا فتى إلا علي ولا سيف إلا ذو الفقار» وقال النبي ﷺ: أنا الفتى ابن الفتى، أخو الفتى، ابن الفتى يعني إبراهيم، وأخو الفتى يريد عليّاً كرم الله وجهه» انتهى.

وقد علمت ما في هذا الكلام، وإن كان معناه لا يُستكثر على عليّ رضي الله عنه. وأتى أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف في قيده من مكة في أثناء الكتاب، وكان قد أسلم، فقال سهيل بن عمرو: هذا أول ما أقاضيك عليه أن تردّه إليّ، فردّه ﷺ إلى أبيه، وعظم ذلك على المسلمين، وأخبر النبي ﷺ أبا جندل: أن الله سيجعل له فرجاً ومخرجاً، إننا قد عقدنا بيننا وبين القوم عقداً واصطلحنا، وأعطيناهم على ذلك وأعطونا عهد الله، وإنّا لا نغدر بهم.

ولما تمّ الصلح وكتابه أمر رسول الله ﷺ أن ينحروا ويحلّقوا، فتوقفوا، فغضب حتى شكا إلى زوجته أمّ سلمة، فقالت: يا رسول الله، لا تلمهم فإنهم قد دخلهم أمر عظيم مما أدخلت على نفسك من المشقة في أمر الصلح ورجوعهم بغير فتح، ولكن اخرج وانحر واحلق فإنهم تابعوك. فخرج ونحر وحلق رأسه حينئذ، وكان الحالق له ﷺ خراش بن أمية الخزاعي رضي الله عنه، فلما رآه الناس نحر وحلق فعلوا مثله. وقسم لحوم الهدايا في الفقراء الذي حضروا الحديبية، وبعث النبي ﷺ عشرين بدنة مع ناجية^(١) حتى نحروها بمروة^(٢)، وقسموا لحومها على فقراء مكة، قال ابن عباس: حلق رجال يوم الحديبية وقصّر آخرون، فقال رسول الله ﷺ: «اللهم اغفر للمحلّقين» وفي معالم التنزيل قال: «يرحم الله المحلقين، قالوا: والمقصّرين يا رسول الله، قال:

(١) هو ناجية بن جندب بن عمير بن يعمر بن إرم بن وائل بن سلامان بن أسلم الأسلمي، كان اسمه ذكوان، فسماه رسول الله ﷺ «ناجية» حين نجا من قريش، مات بالمدينة في خلافة معاوية.

(٢) نوع من الحجارة مسنون تصلح للذبح واسم للمكان المعروف بمكة.

اللهم اغفر للمحلقين، قالوا: والمقصرين يا رسول الله، قال: اللهم اغفر للمحلقين، قالوا: والمقصرين، وفي الثالثة أو الرابعة قال: والمقصرين» قالوا: لِمَ ظهرت (أي أظهرت) الترحم للمحلقين دون المقصرين؟ قال: لأنهم لم يَشْكُوا (أي لم يرجوا أن يطوفوا بالبيت بخلاف المقصرين، أي لأن الظاهر من حالهم أنهم آخروا بقية شعورهم رجاء أن يحلقوها بعد طوافهم بالبيت).

وكان صلح الحديبية فتحًا قريبًا، أَمِنَ الناسُ بعضهم بعضًا، ورضًا من الله تعالى، قال تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: ١٨] كما سبق، وعن جابر أنهم كانوا يوم الحديبية أربع عشرة مائة، فبايعوه ﷺ وعمر أخذ بيده تحت الشجرة (وهي سمرة) غير الجد بن قيس اختفى تحت بطن بعيره. زادوا في رواية: وقيل عدد المبايعين خمس عشرة مائة فأكثر، وقيل غير ذلك. قال أهل السير: أقام النبي ﷺ عشرين يومًا بالحديبية، ثم رجع ﷺ إلى المدينة، وما فُتِحَ من قبله فتح أعظم من هذا الفتح، فلما كانت الهدنة، ووضعت الحرب أوزارها، وأمن الناس بعضهم بعضًا، التقوا وتفاوضوا في الحديث والمنازعة، فلم يكلم أحد بالإسلام أحدًا إلا دخل فيه، فلقد دخل في مدة سنتين في الإسلام مثل ما كان قبل ذلك، أو أكثر، ببركة مهادنته ﷺ.

ولما رجع ﷺ إلى المدينة حتى إذا كان بين مكة والمدينة (بكرع الغميم) نزل ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ [الفتح: ١] إلى آخرها، وُسِّمِيَ فتحًا لأنه كان مقدمة لفتوح كثيرة تتسع بها دائرة الإسلام، ولما نزلت قال لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: «أُنزلت عليّ سورة هي أحب إليّ مما طلعت عليه الشمس»^(١).

ثم إن أبا بصير «عتبة بن أسد بن حارثة» هرب ولحق بالنبي ﷺ، وكان قد أسلم وحبسه قومه بمكة، وهو ثَقَفِي، من حلفاء بني زهرة، فبعث إليه الأزهر بن عبد عوف

(١) رواه الإمام أحمد بلفظ: «نزل عليّ البارحة سورة هي أحب إليّ من الدنيا وما فيها» ورواه البخاري والترمذي والنسائي من طرق عن مالك رحمه الله، وإسناده مدني جيد، انظر بتوسع تفسير ابن كثير رحمه الله.

وعم عبد الرحمن بن عوف، والأخنس بن شريق سيد بني زهرة كتاباً مع رجل من بني عامر بن لؤي، ومعه مولى لهم بطلب أبي بصير، فأسلمه النبي ﷺ، فاحتملاه، فلما نزلوا بذئ الحليفة أخذ أبو بصير السيف من أحد الرجلين، ثم ضرب به العامري فقتله، وفرَّ الآخر، وأتى أبو بصير إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، قد وفيت ذمتك حيث رددتني إليهم، وأطلقني الله منهم، فقال النبي ﷺ: «ويلمه (أي ويل أمه) مسعر حرب، لو كان له رجال» ففطن أبو بصير من لحن هذا القول أنه سيرده، وخرج إلى سيف^(١) البحر على طريق قريش الذي كانوا يأخذونه إلى الشام، وبلغ المسلمين الذين كانوا احتبسوا بمكة قول رسول الله ﷺ: «ويلمه مسعر حرب لو كان معه رجال»، فخرجوا إلى أبي بصير، فاجتمع إليه قريب من سبعين رجلاً منهم، وذكر موسى بن عقبة أن أبا جندل بن سهيل بن عمرو الذي رُدَّ إلى قريش بالحديبية مُكرَّهاً يوم الصلح والقضية هو الذي انفلت في سبعين راكباً، أسلموا وهاجروا فلحقوا بأبي بصير، ونزلوا معه، وكرهوا أن يقدموا على رسول الله ﷺ في تلك المدة التي هي زمن الهدنة، خوفاً أن يردهم إلى أهلهم حكم الشروط. واجتمع إلى أبي جندل أناسٌ من غفار وأسلم وجهينة، وطوائف من العرب حتى بلغوا ثلاثمائة مقاتل، وهم مسلمون، فأقاموا مع أبي جندل وأبي بصير، فقطعوا مادة قريش، لا يظفرون بأحد منهم إلا قتلوه، ولا تمرُّ بهم غيرُ لقريش إلا أخذوها وقتلوا أصحابها، وقال في ذلك أبو جندل:

أنا بذئ المروة بالساحل	أبلغ قريشاً عن أبي جندل
بالبعض فيها والقنا الذابل	في معشرٍ تخفق أيمانهم
من بعد إسلامهم الواصل	يأبون أن تبقى لهم رفقة
والحق لا يغلبُ بالباطل	أو يجعل الله لهم مخرجاً
أو يقتل المرء ولا ياتل	فيسلم المرء بإسلامه

(١) سيف البحر: ساحل البحر.

فأرسلت قريش أبا سفيان بن حرب إلى رسول الله ﷺ يسألونه ويتضرعون إليه ويناشدونه بالله والرحم أن يرسل إلى أبي بصير^(١) وأبي جندل^(٢) بن سهيل، ومن معهم فيقدمون عليه، وقالوا: إنا أسقطنا هذا الواحد من الشروط، فمن أتى محمداً فهو آمن.

وقيل: قالوا من خرج منا إليك فأمسك في غير حرج؛ فإن هؤلاء الركب قد فتحوا علينا باباً لا يصلح إقراره. فلما كان ذلك من أمرهم، علم الذين كانوا أشاروا على رسول الله ﷺ أن يمنع أبا جندل من أبيه يوم الصلح والقضية أن طاعة رسول الله ﷺ خيرٌ فيما أحبوا وفيما كرهوا، وأن رأيه أفضل من رأيهم^(٣)، وعلموا بعد ذلك أن مصالحته ﷺ كانت أولى، لأنها كانت سبباً لكثرة المسلمين؛ فإن المشركين لما آمنوا القتال اختلطوا بالمسلمين فأثر فيهم الإسلام، فأسلم كثير منهم.

وكتب رسول الله ﷺ يأمر أبا بصير أن يقدم عليه بالمدينة هو وأبو جندل الذي كان اجتمع به مع رفاقه، ويأمر من معهما من المسلمين أن يرجعوا إلى بلادهم وأهليهم، ولا يتعرضوا لأحد مريبهم من قريش، فلما قدم كتاب رسول الله ﷺ على أبي بصير، وكان حينئذ مشرفاً على الموت، مات وكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم في يده

(١) أبو بصير هو: «عتبة بن أسيد بن حارثة» ويقال هو: عبيد بن أسيد بن جارية، ويقال أيضاً: عتبة بن أسيد بن جارية بن أسيد بن عبد الله بن سلمة بن غبرة بن عوف بن قيس (ثقيف) بن منبه بن بكر بن هوازن: حليف بني زهرة، هكذا ذكره خليفة عن أبي معشر. وقال ابن شهاب: هو رجل من قريش، وقال ابن هشام: إنه ثقيفي. وله قصة لطيفة ذكرها صاحب الاستيعاب والحافظ ابن حجر، فارجع إليهما، وقد بني بجوار قبره مسجد في عهد رسول الله ﷺ ولم ينكر هذا أحد من السلف والخلف رضي الله عن الجميع.

(٢) أبو جندل بن سهيل بن عمرو القرشي العامري: كان من السابقين، أسلم أبوه أيضاً، وجاهد هو وأبوه في فتوح الشام، وأتى مع المشركين في غزوة بدر فانهاز إلى المسلمين، ثم أسر بعد ذلك، أسره المشركون وعذب ليرجع عن دينه، وأخيراً لحق بأبي بصير على ساحل البحر، وكان هناك منهما ما كان. والحمد لله الذي نصر دينه وأعز جنده.

(٣) ذلك لأنه: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣-٤] وليس الرأي مع الوحي بشيء.

يقرأه، فدفنه أبو جندل مكانه، وجعل عند قبره مسجداً. وقدم على رسول الله ﷺ أناس من أصحاب أبي جندل، ورجع سائرهم إلى أهلهم، وأمنت عيران قريش، وظاهر بعض الروايات يدل على أن قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِطَنِ مَكَّةَ﴾ [الفتح: ٢٤] نزلت في قصة أبي بصير.

ولم يزل أبو جندل مع رسول الله ﷺ، وشهد ما أدرك من المشاهد بعد ذاك، وشهد الفتح، ورجع مع رسول الله ﷺ، وقدم أبوه سهيل بن عمرو المدينة أول إمارة عمر بن الخطاب رضي الله عنهما، فمكث بها شهراً، ثم خرج إلى الشام يجاهد، وخرج معه ولده أبو جندل، فلم يزا مجاهدين حتى ماتا هناك رضي الله تعالى عنهما.

وهاجرت في مدة الصلح أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط، وجاء فيها أخوها عمارة والوليد ابنا عقبة حتى قدما على رسول الله ﷺ يسألانه أن يردها عليهما بالعهد الذي بينه وبين قريش بالحديبية، فلم يفعل، وقال: أباي الله ذلك، وأنزل الله فيه على رسوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَأَمْتَحِنُوهُنَّ﴾ [الممتحنة: ١٠] الآية، وكان الامتحان أن تستحلف المرأة المهاجرة أنها ما هاجرت ناشراً ولا هاجرت إلا لله ورسوله، فكان في الآية بيان أن ذلك الرد في الرجال لا في النساء؛ لأن المسلمة لا تحل للكافر، فلما تعذر ردهن لورود النهي عنه، لزم رد مهورهن، فأمر النبي ﷺ أن لا ترجع المؤمنات إلى الكفار لشرف الإسلام، وأن لا تكون كافرة في نكاح مسلم لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْسِكُوا بِعَصَمِ الْكُوفِرِ﴾ [الممتحنة: ١٠] فمنع الله من رد النساء، وفسخ ذلك الشرط المكتتب، وحرّم الله حينئذ على المسلمين إمساك الكوافر في عصمتهم، فطلق الأصحاب كل امرأة مشركة في نكاحهم، وطلق عمر بن الخطاب يومئذ امرأتين له مشركتين بمكة، وعن ابن عباس: يعني من كانت له امرأة بمكة فلا يعدّها من نسائه؛ لأن اختلاف الدارين قطع عصمتها منه.

وفي غزوة الحديبية صار صلحٌ مصر للروم حيث غلبت الرومُ فارسًا، وأخرجوهم من الشام^(١).

وفي هذه السنة ماتت أم رومان بنت عامر بن عويمر، أم عائشة رضي الله عنهما، كانت أسلمت قديمًا، وكانت أولًا تحت عبد الله بن سخبرة، فولدت له الطفيل، وهو أخو عائشة لأُمها، ثم مات عنها فتزوجها أبو بكر، فولدت له عبد الرحمن وعائشة. وفي السنة السادسة فرض الحج -على ما عليه الجمهور- وقيل كان قبل الهجرة، حكاها إمام الحرمين في النهاية، وقيل غير ذلك.

وفي هذه السنة نزل حكم الظهار، وذلك أن أوس بن الصامت غضب على زوجته خولة بنت ثعلبة ذات يوم، وقال لها «أنت عليّ كظهر أمي»، (وكان ذلك أول ظهار في الإسلام، وكان الظهار طلاقًا في الجاهلية)، ثم ندم على ما قاله: فأنت خولة النبي ﷺ وعائشة تغسل رأسه، فقالت: يا رسول الله: إن زوجي أوس بن الصامت تزوجني وأنا ذات مال وأهل، فلما أكل مالي وذهب شبابي وتفرّق أهلي، ظاهر مني. فقال ﷺ: حرّمت عليه. فبكت وصاحت، وقالت: أشكو إلى الله فقري وفاقتي ووَجْدِي وصبيّة صغارًا إن ضَمَمْتُهُمْ إِلَيْهِ ضَاعُوا، وإن ضَمَمْتُهُمْ إِلَيَّ جَاعُوا. فقال ﷺ: ما أراك إلا حرّمت عليه. فجعلت ترفع صوتها باكية، وتقول: اللهم إني أشكو إليك. فبينما هي على تلك الحالة إذ تغيّر وجهُ رسول الله ﷺ للوحي، فنزل جبريل عليه السلام بهذه الآيات: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١]، فدعا رسول الله ﷺ أوس بن الصامت، فتلا عليه الآيات المذكورة، فقالت عائشة: تبارك الله الذي وسع علمه كل شيء، إني كنت أسمع كلام خولة ويخفى عليّ بعضه، وهي تحاور رسول الله ﷺ، فما برحت حتى نزل جبريل

(١) وفيه تصديق لأبي بكر رضي الله عنه، فإنه حدث نقاش بين أبي بكر وجماعة من قريش إذ كان المؤمنون يحبون أن ينتصر الروم، وكان المشركون يحبون أن ينتصر الفرس، وقال لهم أبو بكر ما معناه: إن الروم سينتصرون في بضع سنين. انظر تفسير ابن كثير بتوسع.

بهذه الآيات. فقال رسول الله ﷺ لأوس: أعتق رقبة، فقال: ما لي بهذا قدرة، قال: صُمْ شهرين متتابعين، قال: إني إذا لم آكل في اليوم مرتين كَلَّ بصري، قال: فأطعم ستين مسكيناً، قال: لا أجد إلا أن تعينني منك بعون وصلة. فأعانه رسول الله ﷺ بخمسة عشر صاعاً، وكانوا يرون أن عند أوس مثلها، وذلك لستين مسكيناً، لكل مسكين نصف صاع، وهذا أول ظهار في الإسلام.

وفي رمضان هذه السنة استسقى رسول الله ﷺ لما أجذب الناس، فمُطِروا فقال ﷺ: «أصبح الناس مؤمناً بالله وكافراً بالكواكب» قاله مغلطي.

واستسقى في موضع المصلّى، وصلى صلاة الاستسقاء.

روى أنه قحط الناس على عهد رسول الله ﷺ فأتاه المسلمون، وقالوا: يا رسول الله، قحط المطر، ويس الشجر، وهلك المواشي، وأسنت الناس^(١) فاستسقى لنا ربك. فخرج رسول الله ﷺ والناس معه، يمشي ويمشون بالسكينة والوقار، حتى أتوا المصلّى، فتقدم صلى بهم ركعتين، يجهر فيهما بالقراءة، وكان ﷺ يقرأ في العيدين والاستسقاء في الركعة الأولى بفاتحة الكتاب و ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ [سورة الأعلى] وفي الركعة الثانية بفاتحة الكتاب و ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْعُنْثِيَةِ...﴾ [سورة الغاشية]، فلما قضى صلاته استقبل الناس بوجهه، وقلب رداءه لكي ينقلب القحط إلى الخصب، ثم جثا على ركبتيه، ورفع يديه، وكبّر تكبيرة قبل أن يستسقي، ثم قال: «اللهم اسقنا، وأغننا غيثاً مغيثاً، وحياء ربيعاً، وجداً طبقة غداً مغدقاً، عاماً هنيئاً مريئاً، مريعاً مرتعاً، وابلًا شاملاً، مسبلاً مجللاً، دائماً ودراً، نافعاً غير ضار، عاجلاً غير راث، غيثاً اللهم تُحيي به البلاد، وتغيث به العباد، وتجعله بلاغاً صالحاً للحاضر والباد، اللهم أنزل في أرضنا زيتها، وأنزل عليها سقيتها. اللهم أنزل علينا من السماء ماءً طهوراً تُحيي به بلدة ميتاً، واسقِهِ مما خلقت أنعاماً وأناسي كثيراً».

(١) أسن بفتح السين: تغير ألوانهم مثل الماء الأسن المتغير اللون.

فما برحوا حتى أقبل قَزَعٌ^(١) من السحاب، فالتأم بعضه إلى بعض، ثم أمطرت سبعة أيام بلياليهن، لا تُقلع عن المدينة، فأتاه المسلمون وقالوا: يا رسول الله، قد غرقت الأرض، وتهدّمت البيوت، وانقطعت السبل، فادع الله تعالى أن يصرفها عنا. فضحك رسول الله ﷺ، وهو على المنبر حتى بدت نواجذه، تعجباً لسرعة ملالة بني آدم، ثم رفع يديه، ثم قال: «حوالينا ولا علينا، اللهم على رؤوس الظراب، ومنابت الشجر، وبطون الأودية وظهور الآكام»، فتصدعت عن المدينة حتى كانت مثل ترس عليها، كالفسطاط^(٢) تمطر مراعيها، ولا تمطر فيها قطرة.

وفي رواية: لما صارت المدينة كالفسطاط، وضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه، ثم قال: «لله أبو طالب؛ لو كان حيّاً لقرّرت عيناه، من الذي ينشدنا قوله؟». فقام علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال: يا رسول الله كأنك أردت: وأبيض يستسقي الغمام بوجهه ثمال^(٣) اليتامى عصمة للأرامل فقال رسول الله ﷺ: أجل.



(١) القزع: بفتح الحاء - قطع رقيقة من السحاب.

(٢) الفسطاط: بيت من شعر.

(٣) ثمال اليتامى: كافلهم.

الفصل السابع

في ظواهر السنة السابعة وما فيها من الغزوات

وفي هذه السنة من الهجرة كانت غزوة خيبر^(١)، في منتصف المحرم:

و«خيبر» بلد بينها وبين المدينة ثمانية بُرْد، ذات حصون، أعظمها يسمى القموص^(٢) لما قدم رسول الله ﷺ من الحديبية مكث بالمدينة ذا الحجة وبعض المحرم^(٣)، ثم خرج إليها غازيًا، فدفع اللواء إلى علي، وسار، فلما أشرف قال لأصحابه: قفوا، ثم قال: «اللهم ربّ السموات وما أظللنّ، ورب الأرضين وما أقللنّ، ورب الشياطين وما أضللنّ، ورب الرياح وما أذرين، نسألك خير هذه القرية وخير أهلها، ونعوذ بك من شرها وشر أهلها، وشر ما فيها، أقدموا بسم الله».

ونزلوا على خيبر ليلاً، فلم يصحّ لهم تلك الليلة ديكٌ، وكان ﷺ إذا غزا قومًا لم يُغِرْ عليهم حتى يُصبح، فإن سمع أذانًا أمسك، وإلا أغار، فبات لم يسمع أذانًا، فلما أصبحوا خرجوا إلى أعمالهم بمساحيهم ومكاييلهم لعدم علمهم، فلما رأوه ﷺ عادوا وقالوا: «محمد والخميس» (أي الجيش سمي به لأنه خمسة أحماس: ميمنة

(١) مدينة كبيرة ذات حصون ومزارع ونخل كثير، بينها وبين المدينة ثمانية بُرْد، سميت باسم رجل من العماليق، وهو أخو يثرب الذي كانت المدينة في الجاهلية مسماة باسمه.

(٢) القموص: جبل بخيبر، عليه حصن ابن أبي الحقيق اليهودي، كذا في المراصد وفي هامشه: وفي البكري: حصن من حصون خيبر.

(٣) في السيرة الحلبية: «ولما رجع رسول الله ﷺ من الحديبية أقام شهرًا وبعض شهر ذي الحجة ختام سنة ست، ومن المحرم افتتاح سنة سبع، وقال مالك: كانت سنة ست».

وميسرة ومقدمة، ومؤخرة، وقلب) فقال النبي ﷺ: «الله أكبر خربت خير، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين»، وبهذا استدلل على أن إيراد آيات القرآن على سبيل الاقتباس والاستشهاد لا بقصد التلاوة والقراءة جائز فيما يحسن ويجمل، لا في المدح ولغو الحديث، وبه قال النووي في شرح مسلم: وقد جاء لهذا نظائر كثيرة، كما ورد في فتح مكة أنه ﷺ جعل يطعن في الأصنام ويقول: جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً - كما سيأتي، وأخرج ابن أبي شيبة عن سعيد بن المسيب قال: كان رسول الله ﷺ إذا رأى الهلال قال: «آمنت بالذي خلقك فسوأك فعدلك» ومما يدل على ذلك ما أخرجه ابن أبي حاتم عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: «كنت عند أبي في وصيته، وهي: بسم الله الرحمن الرحيم.. هذا ما أوصى به أبو بكر بن أبي قحافة، عند خروجه من الدنيا، حين يؤمن الكافر ويتقي الفاجر، ويصدق الكاذب، إني استخلفت عليكم عمر بن الخطاب، فإن يعدل فذلك ظني فيه، ورجائي فيه، وإن يجُر ويبدل فلا أعلم الغيب، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون».

وروي أن عثمان بن عفان يوم الدار أشرف من داره على الناس، وقد أحاطوا به فقال: ﴿وَيَقُولُوا لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقَ أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٩]، يا قوم لا تقتلونني، كنتم هكذا، (وشبك بين أصابعه). فكل هذا كغزوة خيبر، وحديث فتح مكة يدل على جواز الاقتباس. انتهى.

وفرق ﷺ الرايات - ولم تكن الرايات إلا بخيبر، وإنما كانت الألوية - وكانت يومئذ سوداء تسمى العقاب، لكون لون العقاب أسود، ثم حاصرهم وضيق عليهم وأخذ الأموال، وفتح الحصون حصناً حصناً حتى انتهى إلى حصنهم «الوطيح» والسَّلام، وكان آخر الحصون افتتاحاً، وكان حصارهم بضع عشرة ليلة، وأخذ سبايا منهم صفية بنت كبرهم حبي بن أخطب، اصطفاها ﷺ لنفسه وتزوجها وجعل عتقها صداقها، وبهذا أخذ الإمام أحمد رضي الله عنه حكم مذهبه، وهو من مفردات مذهبه وقال غيره: إن هذا من خواصه ﷺ، وكانت صفية رأت في المنام وهي عروس - بكنانة

ابن أبي الربيع بن أبي الحقيق - أن قمراً وقع في حجرها، فذكرته لزوجها فقال: ما هذا إلا أنك تتمنين ملك الحجاز محمداً، ولطمها. وعرس ﷺ بها في الطريق في قبة، فبات أبو أيوب الأنصاري متوشحاً بالسيف يحرسه، فلما أصبح رآه النبي ﷺ فقال: ما لك؟ قال: خفتُ عليك من امرأة قتلت أباها وزوجها وقومها، وهي حديثة عهد.

وكانت الراية مع أبي بكر رضي الله تعالى عنه، فكان يقاتل قتالاً شديداً، ثم أخذها عمر فقاتل قتالاً شديداً، فقال ﷺ: «أما والله لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله، كزاراً غير فرار، يأخذها عنوة»^(١) فتناول المهاجرون والأنصار إليها، يرجو كل واحد أن يكون هو صاحب ذلك، وكان علي بن أبي طالب رضي الله عنه قد تخلف بالمدينة لرمد لحقه، فلما أصبحوا جاء علي فتفل النبي ﷺ في عينيه^(٢) فما اشتكى رمداً بعدها، ثم أعطاه الراية وعليه حلة حمراء فنهض بها وأتى خبيراً، فأشرف عليه رجُلٌ من يهودها، وقال: من أنت؟ قال: علي بن أبي طالب، فقال اليهودي: غلبتم يا معشر اليهود. فخرج «مرحب» صاحب الحصن من الحصن، ولم يكن في أهل خبير أشجع من مرحب، وعليه يمانى، وعلى رأسه بيضة^(٣)، وله رمح سنانة ثلاثة أسنان، ونادى: من يبارز؟ وهو يرتجز ويقول:

قد علمتُ خيرٌ أني مَرَحَبٌ شاكي السلاح بطل مُجَرَّبٌ
أطعنُ أحياناً، وحيناً أضرب إذا الحروب أقبلت تلهَبُ
إنَّ حِمَايَ لِلْحِمَى لا يُقَرَّبُ

فخرج عليٌّ كرم الله وجهه، وهو يقول:

أنا الذي سَمَّني أُمِّي حَيْدَرَهُ أكيلكم بالسيف كَيْلَ السَّنَدَرِهِ
لَيْتُ بغابات شديد القسورة

(١) حديث ثابت صحيح، انظر في «الرياض النضرة في مناقب العشرة»، ص ١٩٧ و ١٩٨ ج ٣.

(٢) الهامش السابق.

(٣) البيضة: الخوذة تتخذ من حديد وقاء للرأس.

[والسندرة: مكيال معلوم، ومعلوم أن حيدرة اسم من أسماء الأسد، وهو أشجعها. أشار بذلك إلى أن أمه فاطمة لما ولدته سمّته باسم أبيها، وكان أبو طالب حينئذ غائبًا، فلما قدم سماه عليًا، ولذلك قال علي رضي الله عنه يوم خير: أنا الذي سمتني... إلى آخره، فغلب عليه ما سماه أبوه].

فاختلفا بضربتين، فسبقه علي رضي الله عنه فقدّ البيضة والمغفر ورأسه، فسقط عدو الله ميتًا.

وكان فتح خيبر في شهر صفر، على يد علي رضي الله عنه بعد حصار بضع عشرة ليلة. وإلى ذلك يشير بعضهم:

وشادن^(١) أبصرته مقبلاً فقلت من وجدي به: مرحبًا
قد فؤادي في الهوى قدّه^(٢) قد علي في الوغى مرحبًا

وفتح المسلمون حصون خيبر كلها عنوة، إلا حصن «الوطيح»^(٣) وحصن «سُلالم»^(٤) -بضم السين المهملة- فإنما فُتِحَا صلحًا، وكان أعظم حصون خيبر حصن «القموص»^(٥) كصبور من حصون الكتيبة^(٦) «الثلاثة»، وكان منيعًا حاصره المسلمون عشرين ليلة ثم فتحه الله على يد علي رضي الله عنه ومنه سُبِيت صفية رضي الله عنه، وقيل: إن اسمها قبل أن تُسبى زينب، فلما صارت من الصفي سميت صفية، والصفى ما كان يصطفيه ﷺ لنفسه من الغنيمة قبل أن تُقسم، وكان في الجاهلية لأمر الجيوش رُبُع الغنيمة، ومن ثم قيل له: المربع^(٧).

(١) الشادن: الغزال، إذا قوي وطلع واستغنى عن أمه.

(٢) «قدّه» الأولى بمعنى قسمه شطرين و «قدّ» الثانية من القد، وهو الطول والعرض، و «قد» الثالثة: مبنية على الفتح خلف حركة الجر، أي كقدّ علي رضي الله عنه مرحبًا حين ضربه فقسم رأسه.

(٣) الوطيح: حصن من حصون خيبر، وهو بفتح الواو وكسر الطاء.

(٤) «السُلالم»: حصن من حصون خيبر كان من أحصنها، وكان آخرها فتحًا على رسول الله ﷺ.

(٥) «القموص»: جبل بخيبر، عليه حصن ابن أبي الحقيق اليهودي.

(٦) الكتيبة: حصن من حصون خيبر، وفي كتاب الأموال لأبي عبيد: الكتيبة بالناء المثلثة.

(٧) المربع: ما يأخذه الرئيس، وهو ربع المغنم.

قال السهيلي رحمه الله: «كانت أموال النبي ﷺ من ثلاثة أوجه: الصفي^(١)، والهدية، وخُمس الخُمس» هذا كلامه، ولا يخفى أنه يزداد على ذلك «الفيء».

وباقى حصون الكتيبة الثلاثة هو حصن «الوطيح» وحصن «ساللم» المتقدمين.

وشهد خيبر مع رسول الله ﷺ نساءً من النساء المسلمات، فرضخَ لهنَّ عليه الصلاة والسلام من الفيء، ولم يضرب لهنَّ بسهم^(٢)، وقيل^(٣) ضرب لهنَّ أيضًا بسهم كامل، وكانت قد خرجت معهم عشرون امرأة.

وفي حديث ابن أبي الصلت عن امرأة غفارية سمّاها قالت: أتيت رسول الله ﷺ في نسوةٍ من غفار، وهو يسير إلى خيبر فقلنا: يا رسول الله، قد أردنا الخروج معك لنداوي الجرحى ونعين المسلمين ما استطعنا، فقال: على بركة الله، قالت: فخرجنا معه، فلما افتتح خيبر رضح لنا من الفيء.

واستشهد بخيبر من المسلمين نحوً من عشرين رجلاً، منهم عامر بن الأكوع عم سلمة بن الأكوع -وقد كان رسول الله ﷺ قال له في مسيره إلى خيبر: انزل يا ابن الأكوع فاحد^(٤) لنا من هُنيئاتك^(٥)، فنزل يرتجز برسول الله ﷺ، فقال:

والله لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا

وقُتل عامر بن الأكوع رضي الله عنه بسيف نفسه، رجع عليه وهو يقاتل فكلمه كَلِمًا^(*) شديدًا، فمات منه.

(١) الصفي: ما يصطفيه الرئيس من الغنيمة قبل القسمة.

(٢) فيه دليل على أن المرأة ليست من أهل الحرب والقتال. وذلك لأن الجندي في جيش المسلمين يأخذ نصيبه من الغنائم قسمة، وغير الجندي يرضخ له رضحًا إذا حضر القتال. والله تعالى أعلم.

(٣) إذا عبر بلفظ «قيل» فذلك لأنه ضعيف.

(٤) من حدا يحدو الإبل، أي ساقها وحثها على السير...

(٥) من هُنيئاتك: أي من كلماتك ومن أراجيزك.

(*) أي: جرحه جرحًا شديدًا.

وفي غزوة خيبر أهديت للنبي ﷺ الشاة المسمومة، فأخذ منها قطعة وأكلها، وأكل القوم، فقال: «ارفعوا أيديكم فإنها أخبرتني أنها مسمومة»، فمات بشر بن البراء، وكان بشر قد أساغ تلك اللقمة والمصطفى ﷺ لم يسغها لكنها أثرت في فمه ولهواته قبل أن يُنطق الله له ذراعها بالتحذير مما دُسَّ فيها من السم القاتل من ساعته، ودعا ﷺ باليهودية فاعترفت، ثم قال لها: «ما حملك على ما صنعت؟ قالت: إن كنت نبياً لم يضرَّك الذي صنعتُ، وإن كنتَ ملكاً أرحتُ الناس منك، فقال: «ما كان الله ليسلطك على ذلك»، ولم يعاقبها؛ لأنه كان لا يتقم لنفسه، وإلى ذلك يشير صاحب الهمزية رحمه الله تعالى بقوله:

ثم سَمَّتْ له اليهوديةُ الشاةَ ةَ وَكَمْ سَامَ الشَّقَوَةَ الْأَشْقِيَاءُ
فَأَذَاعَ الذَّرَاعُ مَا فِيهِ مِنْ شَاءٍ رٌّ بِنُطْقٍ إِخْفَاؤُهُ إِبْدَاءُ
وَبِخُلُقٍ مِنَ النَّبِيِّ كَرِيمٍ لَمْ تَقَاصَصْ بِجُرْحِهَا الْعَجْمَاءُ

[أي ثم جعلت اليهودية السم القاتل في الشاة، ومرات كثيرة يطلب الشقوة وتحلَّى بها الأشقياء، الذين لا خلاق لهم، فأخبر ذلك الذراعُ النبي ﷺ بالنطق بما فيه من سم، وإخفاء ذلك النطق عن الحاضرين إبداءً وإظهار له ﷺ، وبسبب ما تحلَّى به ﷺ من كمال الحلم والعفو، لم تقاصص تلك المرأة بجرحها، أي بجرح سُمِّها، لأن السم يجرح الباطن، كما يجرح الحديد الظاهر].

وما قيل: إنه أمر بها فقتلت به قصاصاً، لعله هو عين ما يُروى عن ابن عباس أنه دفعها إلى أولياء بشر بن البراء، بهذا يفسر قول ابن إسحاق: «أجمع أهل الحديث أن رسول الله ﷺ قتل اليهودية التي سمَّته» وقال النبي ﷺ في مرض موته: «إن أكلة خيبر لم تزل تعاودني، وهذا زمان انقطاع أبهري»^(١) [والأبهر عِرْقٌ في الظهر وقيل: هو

(١) قال رسول الله ﷺ: «ما زالت أكلة خيبر تعاودني كل عام حتى كان هذا أوان قطع أبهري» [رواه ابن السني وأبو نعيم في الطب عن أبي هريرة].

عرق مستبطن القلب، فإذا انقطع لم تبق بعده حياة، وقيل: الأبهـر^(١) عِرْقٌ منشؤه من الرأس، ويمتد إلى القدم، وله شرايين تتصل بأكثر أطراف البدن؛ فالذي في الرأس منه يسمى «النائمة»^(٢). وقولهم: أسكت الله نأمتَه أي حياته، ويمتد إلى الحلق ويُسمَّى فيه الوريد^(٣)، ويمتد إلى الصدر فيسمى الأبهـر، ويمتد إلى الظهر فيسمى الوتين^(٤) والفؤاد معلق به، ويمتد إلى الفخذين فيسمى النِّسَا^(٥) ويمتد إلى الساق فيسمى الصافن^(٦).

ولم يكتب لليهود خبير كتابًا بإسقاط الجزية عنهم، وإنما ساقاهم النبي ﷺ على النصف من ثمارهم، ويخرجهم متى شاء.

ثم في زمن خلافة القائم بأمر الله، ظهر يهودي رئيس الرؤساء ببغداد، وأظهر كتابًا فيه أن رسول الله ﷺ أمر بإسقاط الجزية عن أهل خيبر، وفيه شهادة الصحابة رضي الله عنهم، منهم: علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فحُمِلَ الكتاب إلى رئيس الرؤساء، ووقع الناس منه في حيرة، فعرضه على الحافظ أبي بكر^(٧) خطيب بغداد، فتأمله وقال: إن هذا مزور، ف قيل له: من أين ذلك؟ فقال: فيه شهادة معاوية رضي الله عنه، وهو أسلم عام الفتح سنة ثمان من الهجرة، وفتوح خيبر سنة سبع من الهجرة، ولم يكن مسلمًا في ذلك الوقت، ولا حضر ما جرى، وفيه شهادة سعد بن معاذ رضي الله عنه، ومات سعدُ يوم بني قريظة بسهم أصابه، ذلك قبل فتح خيبر بستين^(٨). انتهى.

(١) الأبهـر: الظهر، عرق فيه، ووريد العنق، والأكل، وهو: عرق في اليد، وهو عرق الحياة.

(٢) ويقال: النائمة، بالتشديد.

(٣) في القاموس: الوريدان: عرقان في العنق.

(٤) الوتين: عرق في القلب إذا انقطع مات صاحبه.

(٥) النسّا: عرق من الورك إلى الكعب.

(٦) الصافن: صنف الفرس يُصَفَّنُ صَفُونًا: قام على ثلاث قوائم وحَزَفِ الرابعة، ومنه قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ لَعْنٌ وَهُمْ يُعَذَّبُونَ فِي النَّارِ﴾ [ص: ٣١] وَصَفَّنَ الرجل: صَفَّ قدميه.

(٧) هو الخطيب البغدادي صاحب كتاب الكفاية في علم الرواية والله أعلم.

(٨) ومن مثل هذه القضية نعلم أن اليهودي لا يترك بضاعته أبدًا وبضاعته التي لا يتركها: «الكذب، والزور، والدجل، وتلبس إبليس» هذه بضاعتهم أخزاهم الله ولعنهم.

وفي هذه السنة فتح «فدك»^(١)، وهي قرية بينها وبين مدينة النبي ﷺ مرحلتان، وقيل ثلاث مراحل. قال أهل السير: لما أتى النبي ﷺ حوالي خيبر، بعث محيصة بن مسعود الحارثي إلى فدك، يدعو أهلها إلى الإسلام، فدعاهم إليه، فخوفهم أن رسول الله ﷺ جاء إلى حربهم كما أتى إلى حرب أهل خيبر، وقالوا: «إن عامراً وياسراً وحارثاً وسيد اليهود مرحباً في حصن نطاه ومعهم ألف مقاتل، وما نظن أن يقاومهم محمد»، فمكث محيصة فيهم يومين، ولما رأى أن لا ميل لهم في الصلح، أراد أن يرجع، فقالوا له: اصبر نستشير أكابر قومنا ونبعث معك من يُصالح محمداً، وبينما هم في ذلك الرأي إذ أتاهم خبر حصن «الناعم» أن رسول الله ﷺ فتحه، فوقع في قلوبهم خوفٌ عظيم، فأرسلوا جماعة من يهود فدك إلى النبي ﷺ يصالحوه، فبعد القيل والقال الكثير، استقر الأمر على أن يعطوا النبي ﷺ نصف أرض فدك، ولهم نصفها، فرضي النبي ﷺ، فصالحهم على ذلك. وكان يعملون على ذلك حتى أخرجهم عمرٌ وأهل خيبر إلى الشام، واشترى منهم حصتهم «النصف» بمال المسلمين، كما سيأتي فكان مال خيبر للمسلمين، وفدك خالصة له؛ لأنها فُتحت بغير إيجاف (أي تحريك وإعتاب في السير) ولا ركاب فلم يقسمها ووضعها حيث أمره الله، وانصرف ﷺ عن خيبر إلى وادي القرى فحاصرها وافتتحها عنوة، وقسمها. وأصاب بها غلامه مدعماً «سهمٌ غَرَبٌ» (بفتح الراء والإضافة، وبتسكين الراء بلا إضافة: وهو الذي لا يُعرف راميهِ) فقتله. وقال ﷺ فيه لما شهد له أناس بالجنة: «كلا إن الشملة التي أخذها يوم خيبر من المغنم قبل القسم لتشتعل عليه ناراً»، فلما سمع ذلك الناس جاء رجل بشراك أو شراكين إلى رسول الله ﷺ فقال ﷺ: «شراك من نار أو شراكان من نار».

وعن أبي حميد الساعدي، قال: استعمل رسول الله ﷺ رجلاً من أسد على الصدقة، فلما قدم قال: هذا لكم، وهذا أُهدى لي، فقال النبي ﷺ: فهلا جلس في بيت

(١) «فدك» بالتحريك، وآخره كاف: قرية بالحجاز بينها وبين المدينة يومان وقيل ثلاثة، أفاءها الله على رسوله ﷺ. بها عين فوارة ونخل.

أمه أو في بيت أبيه فينظر أيهدى إليه أم لا، فالذي نفسي بيده لا يأخذ منها أحد شيئاً إلا جاء به يوم القيامة يحمله على رقبتة، إن كان بغيراً له رغاء، أو بقرة لها خوار، وإن كان شاة جاء بها تَعَرَّ (بفتح المثناة الفوقية وسكون المثناة التحتيّة بعدها مهملة مفتوحة، ويجوز كسرها) أي لها صوت شديد - ثم رفع يديه حتى رُئيت صُفْرَةُ إبطيه، ثم قال: «اللهم هل بَلَّغْتُ، اللهم هل بَلَّغْتُ».

وروي أن النبي ﷺ أمر فروة بن عمرو البياضي أن يجمع غنائم خيبر في حصن «نطاه» فجمع، وكان في أثناء الغنائم صحائف متعددة من التوراة، فجاءت يهود تطلبها، فأمر النبي ﷺ بدفعها إليهم، ويوم جَمَعَ غنائم خيبر وأخذ سباياهم أمر النبي ﷺ منادياً ينادي: «أَنْ مَنْ آمَنَ بالله واليوم الآخر» «أَنْ لا يصيب أحدٌ امرأة من السبي غير حامل حتى يستبرئها» (أي حتى تحيض). وفي لفظ: أمر رسول الله ﷺ مناديه ينادي: «أَنْ مَنْ آمَنَ بالله واليوم الآخر لا يَسُقْ بمائه زرعَ الغير^(١)، ولا يَطأ امرأة حتى تنقضي عدتها (أي حتى تحيض)»^(٢).

ولم يزل يهود خيبر وأهل فدك على شروطهم بعد الفتح إلى أن أجلاهم عمر رضي الله عنه منها، ومن غيرها من بلاد العرب، وهي الحجاز - مكة والمدينة واليمامة وطرقها وقراها كالطائف لمكة وخبير للمدينة - حيث بلغه أن النبي قال في مرضه الذي مات فيه: «لا يجتمعن دينان بأرض العرب»^(٣)، وفي رواية «بجزيرة العرب» اهـ. والعرب أفضل الأجناس، وأعزهم نفساً، وأكرمهم أخلاقاً، وأرقهم طباعاً، وأكثرهم وفاء، وأجمعهم للخلال الكريمة، وأبعدهم عن الأخلاق الذميمة، وهم بحور الكرم والوفاء.

(١) كناية عن أنه لا يجوز له وطء امرأة حامل.

(٢) أو تضع حملها إن كانت حاملاً. والله تعالى أعلم.

(٣) وفي لفظ: «لئن عشتُ إن شاء الله لأخرجن اليهود والنصارى من الجزيرة العربية» رواه الترمذي والنسائي عن عمر، وفي لفظ آخر «لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب حتى لا أدع إلا مسلماً». رواه مسلم، وأبو داود، والترمذي عن عمر رضي الله عنه.

قال الأصمعي: وَخُصَّتِ الْعَرَبُ بِإِطْعَامِ الطَّعَامِ وَالْأَنْفَةِ مِنَ الضَّيْمِ.
وقال المأمون: فَضَّلْتُ الْعَرَبَ عَلَى سَائِرِ الْأَجْناسِ بِالسُّؤُودِ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِيهِمْ إِلَّا أَنَّهُمْ لَا يَصْلَحُونَ لِلِاسْتِرْقَاقِ لَكَفَى.

وَأَرْقُّ الْعَرَبِ طَبْعًا: قَرِيشٌ، وَأَهْلُ الْحَرَمِينَ.

وقال: اِخْتَصَّتِ الْعَرَبُ مِنْ بَيْنِ الْأَنْامِ بِثَلَاثٍ: الْعِمَائِمُ تَاجُهَا، وَالسِّيُوفُ سَيَاجُهَا، وَالشُّعْرُ دِيَوَانُهَا. وَإِنَّمَا قِيلَ الشُّعْرُ دِيَوَانِ الْعَرَبِ؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَرْجِعُونَ إِلَيْهِ عِنْدَ اخْتِلَافِهِمْ فِي الْأَسْبَابِ وَالْحُرُوبِ وَلِأَنَّهُ مُسْتَوْدَعٌ عِلْمِهِمْ، وَحَافِظُ آدَابِهِمْ، وَمَعْدَنُ أَخْبَارِهِمْ، وَلِهَذَا قِيلَ:

الشُّعْرُ يَحْفَظُ مَا أَوْدَى الزَّمَانُ بِهِ وَالشُّعْرُ أَفْخَرُ مَا يُنْبِئُ عَنِ الْكُرَمِ

لَوْلَا مَقَالُ زَهِيرٍ^(١) فِي قِصَائِهِ مَا كُنْتُ تَعْرِفُ جَوْدًا كَانَ مِنْ هَرَمٍ^(٢)

وَفِي الْحَدِيثِ عَنْهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «الْعِمَائِمُ تَيْجَانُ، فَإِذَا وَضَعُوهَا وَضَعَ اللَّهُ عِزَّتَهُمْ»^(٣).

وَمَنْ أَعَزَّ الْعَرَبَ نَفْسًا وَأَشْرَفَهُمْ هِمَمًا الْأَنْصَارُ، وَهُمْ الْأَوْسُ وَالْخَزْرَجُ، أَبْنَاءُ قَبِيلَةٍ، لَمْ يُوَدُّوا إِيَّاهُ قَطُّ فِي الْجَاهِلِيَّةِ إِلَى أَحَدٍ مِنَ الْمُلُوكِ، وَكُتِبَ إِلَيْهِمْ تُبَّعٌ أَبُو كَرْبٍ يَدْعُوهُمْ إِلَى طَاعَتِهِ وَيَتَوَعَّدُهُمْ إِنْ لَمْ يَنْقَادُوا لَهُ، فَكُتِبُوا إِلَيْهِ:

الْعَبْدُ تُبَّعٌ كَمْ يَوْمٌ قَاتَلْنَا وَمَكَانُهُ بِالْمَنْزَلِ الْمَتَدَلَّلِ

إِنَّا أَنَاسٌ لَا نَنَامُ بِأَرْضِنَا عِضُّ الرِّسُولِ هَنَّا لَأَمْ^(٤) الْمُرْسَلِ

فَلَمَّا دَنَا لِقَاتِلَهُمْ كَانُوا يِقَاتِلُونَهُ نَهَارًا وَيَخْرَجُونَ إِلَيْهِ الْقَرَى لَيْلًا، فَندَمَ عَلَى^(٥) قِتَالِهِمْ،

(١) الشاعر زهير بن أبي سلمى.

(٢) هَرَمٌ بَيْنَ سَنَانٍ مِنْ أَجْوَادِ الْعَرَبِ، مَدْحُهُ زَهِيرُ بْنُ أَبِي سَلَمَى.

(٣) وَفِي لَفْظِ رَوَاهُ الدِّيلَمِيُّ فِي مَسْنَدِ الْفَرْدَوْسِ عَنْ أَبِي عَبَّاسٍ «الْعِمَائِمُ تَيْجَانُ الْعَرَبِ فَإِذَا وَضَعُوا الْعِمَائِمَ وَضَعُوا عِزَّهُمْ» وَرَوَاهُ الْبَيْهَقِيُّ بِزِيَادَةِ «واعتَمَّوا تَزَادُوا حِلْمًا» وَرَوَاهُ الْقِضَاعِيُّ أَيْضًا.

(٤) الْهِنُ: الْفَرْجُ، وَهُوَ اسْتِهْزَاءٌ بِهِ وَشْتَمٌ لَهُ، وَالْمَقْصُودُ بِالرِّسُولِ هُنَا: الرِّسُولُ الَّذِي جَاءَهُمْ بِخَطَابِ التَّهْدِيدِ.

(٥) فِي الْأَصْلِ «نَدَمَ مِنْ» وَالْأَصَحُّ «عَلَى».

ورحل عنهم. وحسب الأنصار من الفضل ما يُروى أنهم لما رأوا رسول الله ﷺ في مرض موته يزداد وجعاً طافوا بالمسجد، فأشفقوا من موته ﷺ، فدخل عليه الفضل فأخبره بذلك، ثم دخل عليّ رضي الله عنه فأخبره بذلك، ثم دخل عليه العباس فأخبره ذلك، فخرج ﷺ متوكئاً على عليّ والفضل، والعباس أمامه، والنبي ﷺ معصوب الرأس يخطُّ برجليه حتى جلس على أسفل مرقاة من المنبر، فحمد الله، وأثنى عليه، وخطب خطبة ختمها بقوله: «وأوصيكم بالأنصار خيراً؛ فإنهم الذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلكم، يحبون من هاجر إليهم، ألم يشاطروكم في الثمار؟ ألم يؤسّعوا لكم في الدنيا؟ ألم يؤثروكم على أنفسهم وبهم الخصاصة؟» اهـ.

وبالجملة فكل واحد من العرب يرى في نفسه العزة، وأنه سيد حيّه وقبيلته، وأكرمها، لا سيما رؤساؤهم الذين هم فيهم كالملوك، قال الشاعر:

وإذا سألت عن الكرام وجدّتي كالشمس لا تخفى بكل مكان

رَجْع:

ثم سار ﷺ إلى المدينة، وكان قد كتب إلى النجاشي يطلب منه بقية المهاجرين، ويخطب أمّ حبيبة - رملة بنت أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس - فزوّجها للنبي ﷺ ابن عمها خالد بن سعيد بن العاص بن أمية بالحبشة، وأصدقها النجاشي عن النبي ﷺ أربعمئة دينار، وبعثها مع شرحبيل بن حسنة في سنة سبع، وكلم رسول الله ﷺ المسلمين أن يدخلوا الذين حضروا من الحبشة في سهامهم من مغنم خيبر، ففعلوا، فما أحسن زواج الحضرة النبوية بهذه الكريمة الزكية على يد هذا الملك الموفق، والتابعي^(١) الذي طلع بدره على سنية الإيمان وأشرق، فقد فاق هذا الملك النجاشي بما له من حميد الخلال نجاشي كافور الخال، الذي هو ملك الجمال.

(١) والنجاشي تابعي، لأنه لم ير النبي ﷺ ولم يجتمع به.

وعلى ذكر الكافور فيحسن إيراد هذا الخبر المأثور، وهو: أنه لما جرح بعض الصحابة في بعض الغزوات، فعولج أن ينقطع دمه فلم ينقطع، فقال حسان: اتنوني بكافور، فجيء له به، فلما وضعه على الجرح انقطع دمه، فقال له ﷺ: مِمَّ أخذتَ هذا؟ قال: من قول امرئ القيس:

فَكَرْتُ لَيْلَةً وَصَلَهَا فِي هَجْرَهَا فَجَرْتُ مَدَافِعُ مُقْلَتِي كَالْعَنْدَمِ
فَطَفَقْتُ أَمْسَحُ مُقْلَتِي بِخَدِّهَا إِذْ عَادَةُ الْكَافُورِ إِمْسَاكَ الدِّمِ
فَقَالَ ﷺ: «إِنَّ مِنَ الشَّعْرِ لِحِكْمَةً»^(١).

وفي هذه السنة كتب رسول الله ﷺ إلى جيلة بن الأيهم [آخر ملوك غسان] ودعاه إلى الإسلام، قال: فلما وصل إليه الكتاب أسلم وكتب جواب كتاب رسول الله ﷺ، وأعلمه بإسلامه، وأرسل الهدية، وكان ثابتاً على إسلامه إلى زمان عمر بن الخطاب، وفي خلافته قدم مكة للحج، وحين كان يطوف في المطاف وطئ رجلاً من فزارة إزاره فانحلَّ، فلطم الفزاريّ لطمَةً هشم بها أنفه وكسر ثنياه، فشكا الفزاري إلى عمر واستغاثه، فطلب عمرُ جيلةً وحكم بأحد الأمرين: إما العفو وإما القصاص، قال جيلة: أتقتصرُ له مِنِّي سواء وأنا ملك وهو سوقي!! قال عمر: الإسلام سوى بينكما لا فضل لك عليه إلا بالتقوى، قال: فإن كنتُ أنا وهذا الرجل سواء في هذا الدين فأتنصر^(٢)، قال عمر: إذا أضرب عنقك، قال: فأمهلني إليه حتى انظر في أمري، فلما كان الليل ركب في بني عمه وهرب إلى قسطنطينية وتنصر هناك ومات مرتدّاً. وبعض أهل الإسلام على أن جيلة عاد إلى الإسلام ومات مسلماً.

وفي هذه السنة اتخذ رسولُ الله ﷺ الخاتم؛ ثبت في صحاح الأحاديث أن النبي

(١) رواه أحمد، وأبو داود، وابن ماجه، عن أبي، والترمذي عن ابن مسعود، والطبراني عن عمرو بن عوف، وعن أبي بكر وأبو نعيم في الحلية، عن أبي هريرة والخطيب البغدادي عن عائشة وعن حسان بن ثابت، وابن عساكر عن عمر.

(٢) في الأصل «فانتصر» وهو خطأ.

ﷺ لما أراد أن يكتب إلى كسرى وقيصر والنجاشي وغيرهم من الملوك إلى الإسلام، قيل له: إنهم لا يقبلون كتاباً إلا بخاتم، أو مختوماً، فصاغ النبي ﷺ خاتماً من ذهب، واقتدى به ذوو اليسار من أصحابه، فصنعوا خواتيم من ذهب، فلما لبس رسول الله ﷺ خاتمه، لبسوا أيضاً خواتيمهم، فجاء جبريل عليه السلام من الغد، وقال: «لبس الذهب حرام لذكور أمتك» فطرح النبي ﷺ خاتمه فطرح أصحابه أيضاً خواتيمهم، ثم اتخذ رسول الله ﷺ خاتماً حلقه وفصه من فضة^(١)، ونقش فيه «محمد رسول الله» في ثلاثة أسطر: محمد سطر، ورسول سطر، والله سطر. واقتدى به أصحابه فاتخذوا خواتيمهم من فضة.

وفي هذه السنة بعث ﷺ رُسُلَهُ إلى الملوك، وقيل: كان إرسال الرسل في آخر سنة ست، وجمع بعضهم بين القولين بأن إرسال الرسل كان في السنة السادسة، ووصولهم إلى المرسل إليهم كان في السنة السابعة، وقد سبق الكلام على بعث الرسل إلى الملوك في الفصل الرابع عشر من الباب الأول من المقالة الرابعة من الجزء الأول من هذا التاريخ، وسيأتي ذلك في الفصل الرابع من الباب السادس.

وفي هذه السنة - في ذي القعدة في الشهر الذي صده المشركون - كانت عمرة القضاء، ويقال لها عمرة القضية. لأن رسول الله ﷺ قاضى قريباً أي صالحهم عليها، ومن ثم قيل لها: «عمرة الصلح» ويقال لها عمرة «القصاص»؛ قال السهيلي رحمه الله: وهذا الاسم أولى لقوله تعالى: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَتُ قِصَاصٌ﴾^(٢)

(١) «كان خاتمه من فضة: فصه منه» رواه البخاري عن أنس.

«كان خاتمه من ورق، وكان فصه حبشياً» رواه مسلم عن أنس.

«كان يتختم بالقضبة في يساره» رواه مسلم عن أنس، وأبو داود عن ابن عمر.

«كان يتختم في يمينه» رواه البخاري والترمذي، ومسلم، والنسائي عن أنس وأحمد والترمذي، وابن ماجه، عن عبد الله بن جعفر.

«كان يتختم في يمينه، ثم حوله في يساره» رواه ابن عدي عن عبد الله بن عمر، وابن عساكر عن عائشة.

(٢) سورة البقرة: ١٩٤.

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: فتحصّل من أسمائها أربعة: «القضاء»، و «القضية»، و «الصلح» و «القصاص» لأنها كانت في شهر ذي القعدة من السنة السابعة، وهو الشهر الذي صده فيه المشركون عن البيت منها سنة ست، وليست قضاء عن العمرة التي صُدَّ عن البيت فيها، فإنها لم تكن فسدت بصدّهم له عن البيت، بل كانت عمرة تامة معدودة في عُمُرِهِ ﷺ التي اعتمرها ﷺ بعد الهجرة، وهي أربعة: عمرة الحديبية، وعمرة القضاء، وعمرة الجعرانة، لما قسم غنائم حنين، والعمرة التي قرنها مع حجه في حجة الوداع، بناء على ما هو الراجح من أنه كان قارئاً، وكلها في ذي القعدة إلا التي كانت مع حجه.

وخرج ﷺ قاصداً مكة للعمرة على ما عاقدَ عليه قريشاً في الحديبية من أن يدخل مكة في العام القابل معه سلاح المسافر، ولا يقيم بها أكثر من ثلاثة أيام، وأمر أصحابه أن يستمروا قضاءً لعمرتهم التي صدهم المشركون عنها بالحديبية، وأن لا يتخلف أحد ممن شهد الحديبية، فلم يتخلف منهم أحد، إلا من استشهد منهم بخير ومن مات. وخرج معه ﷺ قوم من المسلمين عُمَاراً غير الذين شهدوا الحديبية، وكانوا في عمرة القضاء ألفين، واستخلف على المدينة أبا رهم الغفاري، وقيل غيره، وساق ستين بدنة وقلّدها [أي جعل في عنق كل بعير قطعة جلد ليعلم أنها هدي] وجعل عليها ناجية بن جندب، وحمل رسولُ الله ﷺ السلاحَ والدروعَ والرماحَ، وقاد مائة فرس عليها محمد ابن مسلمة رضي الله عنه، وعلى السلاح بشير^(١) بن سعد، فلما انتهى إلى ذي الحليفة قدّم الخيل أمامه، فقليل: يا رسول الله، حملت السلاح وقد شرطوا أن لا تدخلها عليهم بسلاح إلا بسلاح المسافر!! [السيوف في القرب] فقال رسول الله ﷺ: لا يدخل عليهم الحرم بالسلاح، ولكن يكون قريباً منّا، فإن هاجنا الهيج من القوم كان السلاح

(١) هو: بشير بن سعد بن ثعلبة بن الجلاس (بضم الجيم) الأنصاري الخزرجي، شهد بدرًا، والعقبة، وأحداً، والخندق، والمشاهد مع رسول الله ﷺ.

قتل سنة ١٣ هـ (ثلاث عشرة هجرية) بعين النمر - (بلدة في طرف بادية على غربيّ الفرات، أكثرُ نخلها القَسْب - التمر اليابس - ويحمل منها إلى سائر الأماكن).

قريباً منه. ثم إن قريشاً بعثت مكرز بن حفص في نفر من قريش إليه ﷺ، فقالوا: «والله يا محمد ما عُرِفَتَ صغيراً ولا كبيراً بالغدر وتدخل بالسلح في الحرم على قومك وقد شرطت عليهم أن لا تدخل إلا بسلاح المسافر» [السيوف في القرب] فقال ﷺ: إني لا أدخل عليه بسلاح، فقال مكرز: هو الذي تُعرَفُ به: البر والوفاء، ثم رجع مكرز إلى مكة سريعاً، وقال: إن محمداً لا يدخل بسلاح، وهو على الشرط الذي شرط لكم.

فلما اتصل خروجه لقريش خرج كبراًؤهم من مكة حتى لا يروه ﷺ يطوف بالبيت هو وأصحابه عداوةً وبغضاً وحسداً لرسول الله ﷺ - فدخل رسول الله ﷺ مكة راكباً ناقته القُصوى، وأصحابه محدقون به قد توشحوا السيوف، يُلبُّون، ثم دخل من الثنية، وهي ثنية كداء بفتح أوله والمد (وهي طلعة الحجون التي بأعلى مكة ينحدر منها إلى المقابر على درب المعلاة) على طريق الأبطح ومنى، وعبد الله بن رواحة أخذُ بزام راحلته، وهو يمشي بين يديه ويقول:

خَلُّوا بني الكُفَّار عن سَبيله	خَلُّوا؛ فكلُّ الخيرِ في رسوله
قد أنزل الرحمنُ في تنزيله	بأنَّ خيرَ القتلِ في سبيله
فاليومَ نضربُكم على تأويله	كما ضربناكم على تنزيله

وجعل ﷺ السِّلَاحَ في بطن يأجج (كيسمع وينصر ويضرب: موضع قريب من الحرم) وتخلَّفَ عنده جمعٌ من المسلمين من أصحابه، عليهم أوس بن خولي، وقعد جمعٌ من المشركين بجبل «قيقعان»^(١) ينظرون إليه ﷺ وإلى أصحابه وهم يطوفون بالبيت، وقد قال كفار قريش: إن المهاجرين أوهنتهم حمى يثرب، ثم قال ﷺ: «رحم الله امرءاً أراهم من نفسه قوة» فأمر أصحابه أن يرسلوا الأشواط الثلاثة، أي ليُروا المشركين أن لهم قوة، فعند ذلك قال بعضهم لبعض: هؤلاء الذين زعمتم أن الحمى

(١) في الأصل «قينقاع» وهو خطأ، وفي «المراصد» قيعقان: جبل بمكة، الواقف عليه يشرف على الركن العراقي: (يعني من الحرم الشريف).

قد أوهنتهم؛ إنهم لينفرون نَفَرَ الظبي؟!!

وإنما لم يأمرهم ﷺ بالرمل في الأشواط كلها رفقاَ بهم، واضطبع ﷺ بأن جعل وسط رداءه تحت عضده الأيمن، وطرفه على عاتقه الأيسر، ففعلت الصحابة رضي الله عنهم كذلك، وهذا أول رَمَل واضطباع في الإسلام، فكان ابن عباس يقول: كان الناس يظنون أنها ليست سُنَّة عليهم، وأن رسول الله ﷺ إنما صنعها لهذا الحي من قريش، للذي بلغه عنهم حتى حَجَّ حجة الوداع، فلزمها، فدلَّ على أنها سُنَّة. ثم طاف رسول الله ﷺ بين الصفا والمروة على راحلته، فلما كان الطواف السابع عند فراغه وقد وقف الهدْيُ عند المروة، قال: «هذا المنحر، وكلُّ فجاج مكة مُنَحَر» فنحر عند المروة وحلق هناك، وكذلك فعل المسلمون.

وأقام ﷺ ثلاثة أيام، فلما تمت الثلاثة التي هي أمد الصلح، جاءه حويطب بن عبد العزى ومعه سهيل بن عمرو رضي الله عنهما - فإنهما أسلما بعد ذلك - إلى رسول الله ﷺ يدعوانه إلى الخروج هو وأصحابه من مكة، فقالوا: نناشدك الله والعَقْدُ إلا ما خرجت من أرضنا، فقد مضت الثلاثُ. فخرج رسول الله ﷺ هو وأصحابه من مكة، وكان ﷺ تزوَّج ميمونة بنت الحارث الهلالية رضي الله عنها، وكان اسمُها بَرَّة، فسمّاها رسول الله ﷺ ميمونة، وهي أخت أم الفضل زوج العباس رضي الله عنها، وأخت أسماء بنت عميس لأُمها - زوج حمزة رضي الله عنه - وكان تزوُّجه بها ﷺ قبل أن يُحرِّم بالعمرة وقيل: بعد أن حلَّ منها، وقيل: وهو محرم، وبنى بها في عوده من مكة بمحل يقال له «سرف» ككتف، بقرب التنعيم، على ثلاثة أميال من مكة، واتفق فيما بعد أنها ماتت بسرف ودُفنت فيه، وفي بعض السير أنها لما اعتلت بمكة قالت: أخرجوني من مكة لأن رسول الله ﷺ أخبرني أنني لا أموت بها، فحملوها حتى أتوا بها سرف، إلى الشجرة التي بنى بها رسول الله ﷺ تحتها، في موضع القبة، فماتت هناك سنة ثمان وثلاثين، وهناك عند قبرها سقاية.

وفيها تحريم الحُمُر الأهلية، والنهي عن أكل كل ذي ناب من السباع، وفيها النهي

عن متعة النساء بالضم والكسر، وهي أن يتزوج امرأة ليتمتع بها مدة ثم يُخلي سبيلها، وتحصل الفرقة بانقضاء الأجل بغير طلاق، ثم حلّها يوم حنين، ثم حرّمها تحريمًا مؤبدًا^(١).

وفيها جاءته مارية القبطية بنتُ شمعون، أهداها له المقوقس ملك مصر وإسكندرية وأختها سيرين مع هدية من ذهب وقدر من قوارير، فكان رسول الله ﷺ يشرب فيه، وهدية من عسل من بنها العسل، فدعا رسولُ الله ﷺ لعسل بنها بالبركة، وبغلته دُلْدُل -بضم الدالين- ولم يكن في العرب غيرها، وهي أول بغلة رُوّيت في الإسلام وكانت بيضاء، وقيل شهباء، أهداها له أيضًا المقوقس، وكان يركبها في السفر، وعاشت بعده حتى كبرت وسقطت أضراسها، وكان يحشُّ لها الشعير، وقيل: كانت ذكرًا لا أنثى، وكل ذلك مع حاطب بن أبي بلتعة.

وفي هذه السنة أيضًا كان تزوّجه بأمّ حبيبة.

وفيها أسلم أبو هريرة، وعلى أشهر الأقوال اسمه «عبد شمس بن عامر»، فسُمّي في الإسلام عبد الله^(٢)، وقيل له: لم كنوك بأبي هريرة؟ قال: كنت أرى غنم قومي، وكانت لي هريرة صغيرة ألعب بها، فكنوني بأبي هريرة، وكان النبي ﷺ يكنيه أبا هرّ، وكان أحفظ أصحابه لأخبار رسول الله ﷺ وآثاره، ولم يشتغل بالبيع ولا بالغرس، ولزم رسول الله ﷺ ثلاث سنين مختارًا للعدم والفقر، ومروياته في كتب الأحاديث خمسة آلاف وثلاثمائة وأربعة وسبعون حديثًا.

وفي هذه السنة قدّم جعفر بن أبي طالب وأصحابه من الحبشة، وكان قد خرج في أثر المهاجرين، الهجرة الأولى التي كان أميرها عثمان بن عفان رضي الله عنه، فهاجر

(١) قال صاحب «الروضة الندية»: «وهذا نهى مؤيد وقع في آخر موطن من المواطن التي سافر فيها رسول الله ﷺ، وتعبه موته بعد أربعة أشهر، فوجب المصير إليه». وفي الصحيحين من حديث علي: «أن النبي ﷺ -نهى عن متعة النساء يوم خيبر؟».

(٢) الأشهر أنه: عبد الرحمن بن صخر، ولم يختلف الناس في اسم كما اختلفوا في اسمه، لأنه اشتهر بكنيته رضي الله عنه.

جعفر بن أبي طالب مع أصحابه وزوجته أسماء بنت عميس، فتتابع المسلمون إلى بلاد الحبشة، منهم من هاجر بأهله، ومنهم من هاجر بنفسه، ثم بلغ المهاجرين أن المشركين قد لانوا لرسول الله ﷺ، فرجعوا إلى مكة، ثم بلغهم أنهم عادوا له بالشر، فرجعوا إلى الحبشة، ولم يدخل أحدٌ منهم مكة إلا ابن مسعود فإنه دخل ثم خرج ومعه عدد كثير من المسلمين، وهذه هي الهجرة الثانية كما سبق التنويه إلى ذلك في الفصل الثاني في الهجرتين إلى الحبشة من الباب الثاني، وقد سبق أن المهاجرين يزيدون على مائة نفس. أحسن النجاشي جوارهم، ومكثوا آمنين على دينهم، يعبدون الله كما يحبون، فلما هاجر ﷺ إلى المدينة جمعت قريش مالا من كل ما يستطرف من متاع مكة، وأهدوه إلى النجاشي وبطارقته جميعاً، وبعثوا به عمرو بن العاص وعمارة ابن أبي معيط، فقدموا على النجاشي والمهاجرون عنده بخير دار وأحسن جوار، فلما دخلا عليه سجداً له وقرباً هداياهم إليه، فقبلها منهما، وقالاً له: إن قومنا يحذرونك من هؤلاء الذين قدموا عليك؛ لأنهم قوم رجل خرج فينا يزعم أنه رسول الله، ولم يتابعه أحد منا إلا السفهاء، وقد كنا ضيقنا عليهم فجاؤوا إليك؛ ليفسدوا عليك دينك وملكك فادفعهم إلينا لنكفيكهم. فغضب النجاشي عند ذلك، وقال: «والله لا أسلمهم إليكما حيث اختاروني على من سواي، حتى أدعوهم وأسألهم عما يقولون، فإن وجدت أنهم على خلاف ما تقولون أحسنت جوارهم ما جاوروني». فأرسل إليهم ليجمعهم، فدخلوا عليه في مجلسه، وعمرو بن العاص عن يمينه وصاحبه عن يساره، والقسيسون والرهبان جلوس عنده، فلما انتهوا إليه قالوا لهم: اسجدوا للملك، فلم يسجدوا له، فلما سألهم النجاشي عن ذلك قالوا: ما نسجد إلا للذي خلقك وملكك، وقد علمنا نبينا الصادق تحية أهل الجنة، وهي: السلام. فعرف النجاشي أن ذلك حق، وأنه في التوراة والإنجيل، فقال: اختاروا من يتكلم عنكم، فقال جعفر: أنا أستأذن وأتكلم. فأذن له، فقال جعفر للنجاشي: سل هذين الرجلين (يعني عمراً وصاحبه): أعبيد نحن أم أحرار؟ فقالا: بل أحرار كرام، فقال جعفر: سلهما هل أهرقنا دماء بغير حق فيقتص

منا؟ فقال عمرو: لا، ولا قطرة، فقال جعفر: سلهما هل أخذنا أموال الناس بغير حق فعلينا قضاؤه؟ فقال النجاشي: إن كان قنطاراً فعليّ قضاؤه، فقال عمرو: ولا قيراط، فقال النجاشي، فما تطلبون منهم؟ قال عمرو: كنا وإياهم على دين واحد، وأمر واحد، على دين آبائنا، فتركوا ذلك واتبعوا غيره، فبعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرتهم لتدفعهم إلينا، فهم أعلم بما عابوا عليهم وعاینوه منهم. فقال النجاشي لجعفر وأصحابه: ما هذا الدين الذي اتبعتموه وفارقتم فيه دين قومكم، فلم تدخلوا في ديني ولا في دين أحد من الأمم؟ فقال جعفر: أيها الملك، أمّا ما كنّا عليه فهو دين الشيطان؛ لأننا كنا قومًا جاهلية، نكفر بالله ونأكل الميتة، ونأتي الفاحشة، ونقطع الأرحام، ونُسيءُ الجار، ويأكل القويُّ منا الضعيف، وأما الدين الذي تحوّلنا إليه فدين الإسلام؛ فإن الله عز وجل بعث إلينا رسولاً منا، نعرف صدقه وأمانته وعفافه، وهو الذي بشرّ به عيسى ابن مريم عليه السلام فقال: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦]، فدعانا إلى الله عز وجل لنوحّده ونعبده ولا نشرك به شيئاً، وأمرنا بالصلاة والزكاة، (وعدّد إليهم أمور الإسلام)، وأمرنا بالمعروف ونهانا عن المنكر، وأن نخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا دونه من عبادة الأصنام من الحجارة والأوثان، فصدّقناه وأمنّا به، ومعه كتاب كريم مثل كتابكم الذي أنزل على عيسى ابن مريم عليه السلام. فقال النجاشي: «تكلّمت بأمر عظيم، فعلى رسلك»، ثم أمر بضرب الناقوس، فاجتمع إليه كل قسيس وراهب، فلما اجتمعوا عنده، قال لهم: أنشدكم الله الذي أنزل الإنجيل على عيسى؛ هل تجدون بين عيسى وبين القيامة نبياً مرسلًا؟ فقالوا: اللهم نعم، قد بشرنا عيسى ابن مريم عليه السلام، وقال: من آمن به فقد آمن بي، ومن كفر به فقد كفر بي. فقال النجاشي: ماذا يقول لكم هذا الرجل؟ وما يأمركم به؟ وما ينهاكم عنه؟ قالوا: يقرأ علينا كتاب الله عز وجل، ويأمرنا بالمعروف وينهانا عن المنكر، ويأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وحسن الجوار، وصلة الرّحم، وبرّ اليتيم، وكفّ الأذى، والكف عن المحارم والدماء. ونهانا عن الفواحش، وقول الزور،

وأكل اليتيم، وقذف المحصنات، فحرّمنا ما حرّم علينا، وأحللنا ما أحلّ لنا، فعدا علينا قومنا، فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردّونا إلى عبادة الأوثان عن عبادة الله عز وجل، وأن نستحلّ من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا وشق علينا ذلك، وحالوا بيننا وبين ديننا؛ خرجنا إلى بلدك واخترناك على من سواك، ورجونا أن لا نُظلم عندك أيها الملك. فأعجب النجاشي قوله، ثم قال له: هل عندك مما جاء به عن الله من شيء؟ قال جعفر: نعم، فقال النجاشي: اقرأه عليّ. فقرأ عليهم سورة العنكبوت والروم ففاضت عين النجاشي وأصحابه من الدمع، وقالوا: زدنا يا جعفر من هذا الحديث الطيب. فقرأ عليهم سورة الكهف، فقال النجاشي: إن هذا الكلام والذي أنزل على عيسى ليخرجان من مشكاة واحدة. ثم أقبل على جعفر وأصحابه، وقال: مرحباً بكم وبمن جئتم من عنده، وأنا أشهد أنه رسول الله الذي بشرّ به عيسى، ولولا ما أنا فيه من الملك لأتيته حتى أقبل أعتابه، امكثوا في أرضي ما شئتم. وأمر لهم بكسوة وطعام، وقال لعمر بن العاص وصاحبه: انطلقا فوالله لا أسلمهم إليكما أبداً، ولا أكاد. فلما خرجا من عنده قال عمرو بن العاص: والله لا تينهم غداً ولأعينّهم عنده بما أستأصل به خفارتهم^(١)، فقال له صاحبه - وكان أتقى الرجلين - لا تفعل؛ فإنهم أرحامنا، وإن كانوا قد خالفونا، قال: والله لأخبرنه أنهم يزعمون أن المسيح ابن مريم عبدٌ. فلما كان الغد غدا إليه فقال له: أيها الملك، إنهم يقولون في المسيح قولاً عظيماً، فأرسل إليهم واسألهم. فأرسل إليهم، فلما دخلوا عليه، قال لهم: ما تقولون في عيسى ابن مريم؟ [عليه الصلاة والسلام] فقال له جعفر: نقول فيه الذي جاءنا به نبينا محمد ﷺ، هو عبدُ الله وروحه ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول. ثم قرأ عليهم صدرًا من سورة مريم فبكى النجاشي حتى أخضلت لحيته بدموعه، وبكى^(٢) أساقفته حتى

(١) الخفارة: شدة الحياء، والخفير: المجاور، والمجير، والمعنى أنه يستغفره فلا يجيرهم بعد ذلك فيطردهم، وذلك يُذهب بهاء وجوههم في زعمه.

(٢) في الأصل: «وبكوا أساقفته».

أخضلت مصاحفهم^(١) حين سمعوا ما تلى عليهم، وقال: والله يا معشر القسيسين والرهبان ما يزيد فيما يقولون عن ابن مريم. ثم قال لجعفر وأصحابه: اذهبوا فأنتم سُيُوم بأراضي (والسيوم: الأمنون) مَنْ سَبَّكُمْ أو آذاكم عُرِّم، ثم من سبكم أو آذاكم عُرِّم [ثلاث مرات] وقال: أبشروا ولا تخافوا، فلا دهونة^(٢) اليوم على حزب إبراهيم، فقال عمرو: يا نجاشي: ومن حزب إبراهيم؟ قال: هؤلاء الرهط، وصاحبهم الذي جاءوا من عنده ومن اتبعهم، فقال عمرو: بل نحن حزب إبراهيم. فاختصم الفريقان في إبراهيم، [فأنزل الله تعالى في ذلك اليوم على رسول الله ﷺ وهو بالمدينة قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ بِإِزْهِيمَ لِلَّذِينَ أَتَبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾] [آل عمران: ٦٨]، فقال النجاشي: إنما هديتكم لي رشوة فاقبضوها، فوالله ما أخذ الله مني الرشوة حين ملكني. فخرجا من عنده خائبين مردودًا عليهما ما جاء به، وأقام جعفر وأصحابه ثمَّ في خير دارٍ وأحسن جوار.

ويُفهم من فيض عين النجاشي وأصحابه بالدموع حين سمع قراءة جعفر رضي الله عنه سورة من القرآن، أن له ولأصحابه معرفة بالعربية الفصيحة، فلعلَّ بلاد هذا النجاشي المتملك عليها هي الأراضي المجاورة لأرض اليمن، ويبعد أن تكون هذه السور ترجمت لهم من العربية بلسانهم، لأن الترجمة لا تؤثر في قلوبهم، حتى تفيض دموعهم، ويدلُّ عليه فيض دموع الحبشة القادمين مع جعفر رضي الله عنه، لما تلا عليهم سورة يس، وقد تقدم في غزوة بدر أن غضب النجاشي على عمرو وأصحابه كان بحضور عمرو بن أمية الضمري، وأن عمرو بن العاص طلب من النجاشي قتله! والخطب سهل؛ فلعل الواقعة تعددت، وبالجملية فالنتيجة واحدة: وهي أنه لم يقبل من عمرو بن العاص صرفاً ولا عدلاً في استجارة أصحابه ﷺ.

وروت أُمّ سلمة - رضي الله عنها - إذ نزل بالنجاشي من ينازعه في ملكه، قالت أم

(١) المصاحف: الصحف التي يقرءون فيها، ومنه سُمي المصحف مصحفاً لأنه يكتب في صحائف.

(٢) أي لا تحريض ولا أذى.

سلمة رضي الله عنها: فوالله ما علمنا حزنًا قط أشد حزنٍ حزنه عند ذلك تحررًا أن يظهر ذلك على النجاشي، فيأتي رجل لا يعرف من حقنا ما كان النجاشي يعرفه، قالت: وسار النجاشي وبينهما ما عرض النيل^(١)، قالت: فقال أصحاب رسول الله ﷺ: مَنْ يخرج حتى يحضر وقعة القوم؟ فقال الزبير بن العوام: أنا، فنفخوا له قرية فجعلها في صدره، ثم سبح عليها حتى خرج إليهم وحضرهم، ودعونا الله للنجاشي بالظهور على عدوه، والتمكن له في بلده، فظهر واستوثق عليه أمر الحبشة، فكنا عنده في خير منزل، حتى قدمنا على رسول الله ﷺ.

وفي سنة ست من الهجرة بعث رسول الله ﷺ عمرو بن أمية الضمري -بفتح الضاد وسكون الميم- إلى النجاشي بكتاب يدعوه فيه إلى الإسلام، وكتب فيه ما صورته:

«بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلى النجاشي ملك الحبشة؛ أما بعد فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن، وأشهد أن عيسى ابن مريم روحُ الله وكلمته، ألقاها إلى مريم البتول الطاهرة المطهرة الحصينة، فحملت بعيسى، فخلقه من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده ونفخه، وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له، والموالاتة على طاعته، وأن تتبعني وتؤمن بي وبالذي جاءني؛ فإني رسول الله، وقد بعثتُ إليكم ابنَ عمي جعفرًا، ومعه نفر من المسلمين، فإذا جاءوك فأقرهم^(٢) ودع التحير؛ فإني أدعوك وجنودك إلى الله تعالى، وقد بلغت ونصحتُ، فاقبل نصيحتي. والسلام على من اتبع الهدى».

فلما وصل إليه الكتاب أخذه ووضعه على عينيه، ونزل عن سريره وجلس على الأرض تواضعًا وقرأه، وقال: «أشهد بالله أنه النبي الأمي الذي ينتظره أهل الكتاب،

(١) لأن النيل بينهم وبين بلاد من بلاد السودان فقد كانت الحرب هناك.

(٢) أي أحسن ضيافتهم.

وأن بشارة موسى براكب الحمار^(١) كبشارة عيسى براكب الجمل^(٢). فأسلم وحسن إسلامه، وكتب إلى رسول الله ﷺ بإجابته وتصديقه وإسلامه على يد جعفر كتاباً صورته:

«بسم الله الرحمن الرحيم.. إلى محمد رسول الله ﷺ من النجاشي أضحمة بن أبجر: سلام عليك يا رسول الله من الله ورحمة الله وبركاته، لا إله إلا الله الذي هداني للإسلام... أما بعد... فقد بلغني كتابك يا رسول الله، فما ذكرت من أمر عيسى فو رب السماء والأرض إن عيسى ما يزيد على ما ذكرت «ثفروفاً»^(٣)، وقد عرفت ما بعثت به إلينا، وقد قربنا ابن عمك وأصحابه، وإنني أشهد أنك رسول الله صادقاً مصداً، وقد بايعتك وبايعت ابن عمك، وأسلمت على يده لله رب العالمين، وقد بعثت إليك يا نبي الله ابني أريحاً، وإن شئت أن آتيك بنفسي فعلت يا رسول الله، فإنني أشهد أن ما تقول حق، والسلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته».

تنبيه:

فتحصل من ذلك أن النجاشي هذا هو أضحمة الذي هاجر إليه المسلمون في رجب سنة خمس من النبوة، وكتب إليه النبي ﷺ كتاباً يدعو به إلى الإسلام مع عمرو بن أمية الضمري سنة ست من الهجرة، وأسلم على يد جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه، وتوفي في رجب سنة تسع من الهجرة، ونعاه النبي ﷺ يوم توفي، وصلى عليه بالمدينة، وأما النجاشي الذي ولي بعده وكتب إليه النبي ﷺ يدعو به إلى الإسلام فكان كافراً لم يعرف إسلامه ولا اسمه، وقد خلط بعضهم ولم يميز بينهما.

ولما خرج جعفر رضي الله عنه من الحبشة لرسول الله ﷺ، بعث النجاشي أريحاً ابنه في ستين رجلاً من الحبشة إلى رسول الله ﷺ، فركبوا سفينة في أثر جعفر وأصحابه،

(١) عيسى عليه السلام.

(٢) محمد ﷺ.

(٣) الثفروق (بضم التاء): قمع الثمرة أو ما يلتزق به قمعها.

حتى إذا كانوا في وسط البحر غرقوا، والحكمة في ذلك -والله سبحانه وتعالى أعلم- لو أنهم جاءوا إلى رسول الله ﷺ، ووصلوا إليه، ربما كان الكفار والمنافقون يقولون: «إن محمداً ما به ملكة (أي قوة وسلطان) واشتد أزره بملك الحبشة وأصحابه»، فأراد الله تعالى أن يظهر للناس كافة أن قوة رسول الله ﷺ من قبله عز وجل، لئلا يشك في ذلك أحد أن قوته من ملك أو سلطان أو وزراء أو أعوان كما هو مصرح به في بعض الكتب المعتمدة. ووافى جعفر وأولاده الثلاثة عبد الله، ومحمد، وعون، ومن دخل في الإسلام هناك على رسول الله ﷺ في خيبر، في سفيتين، وفيهم سبعون رجلاً من الحبشة، عليهم ثياب الصوف، منهم اثنان وستون من الحبشة، وثمانية من أهل الشام، فقرأ عليهم رسول الله ﷺ سورة يس إلى آخرها، فبكوا حين سمعوا القرآن، وآمنوا وقالوا: ما أشبه هذا بما كان ينزل على عيسى، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرُكَ﴾ [المائدة: ٨٢]، يعني وفد النجاشي الذين قدموا مع جعفر بن أبي طالب، وكانوا من أهل الصوامع، وأما قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنْ الْحَقِّ﴾ [المائدة: ٨٣] الآية. قال ابن عباس رضي الله عنهما (في رواية عطاء): يريد النجاشي وأصحابه، قرأ عليهم جعفر بالحبشة ﴿كَهَيْعَصَ﴾ [سورة مريم] ما زالوا يبكون حتى فرغ جعفر من القراءة. كذا في تفسير البغوي رحمه الله تعالى.

ولما أقبل عليه ﷺ جعفر رضي الله عنه، قام ﷺ إلى جعفر وقبَّله بين عينيه، وقال: ما أدري بأيهما أَسْرُ بقدم جعفر أم بفتح خيبر؟.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما لما قدم جعفر رضي الله عنه من أرض الحبشة، اعتنقه النبي ﷺ وقبَّله بين عينيه. وجعل ذلك أصلاً لاستحباب المعانقة، وقال بعضهم إنها مكروهة، وحديث جعفر يحتمل أن يكون قبل النهي عنها، ولم يجب بذلك الإمام مالك رضي الله عنه؛ فإنه لما قدم سفيان بن عيينة رضي الله عنه فصافحه الإمام مالك، وقال: لولا أنها بدعة لعانقتك، فقال له سفيان: قد عانق من هو خير منك ومني؛ النبي

ﷺ، قال الإمام مالك: تعني جعفر بن أبي طالب؟، قال: نعم. قال: ذاك حبيب خاص، ليس بعام، أي فذلك من خصوصياته، فقال له سفيان: أتأذن لي أن أحدثك بحديثك؟ قال: نعم. فقال: حدثني فلان عن فلان عن ابن عباس رضي الله عنهما، وذكر الحديث المتقدم عنه.

وأما المصافحة فقد جاء أن أهل اليمن لما قدموا المدينة صافحوا الناس بالسلام، فقال النبي ﷺ: إن أهل اليمن قد سَنُوا لكم المصافحة، وقال: من تمام محبتكم المصافحة^(١).

ولما رأى جعفر رسول الله ﷺ حَجَلَ، أي مشى على رجل واحدة، إعظاماً لرسول الله ﷺ؛ لأن الحبشة يفعلون ذلك للتعظيم، وكان رسول الله ﷺ يقول له: «أشبهت خَلْقِي وَخُلُقِي»، وفي لفظ «جعفر أشبه الناس بي خُلُقًا وَخُلُقًا» وكان ﷺ يسميه «أبا المساكين» لأنه رضي الله عنه كان يحب المساكين، ويجلس إليهم ويحدثهم ويحدثونه، وذكر بعضهم أنه لما قال له ﷺ: «أشبهت خَلْقِي وَخُلُقِي» رقص من لذة هذا الخطاب، ولم ينكر عليه ﷺ رقصه. وجعل ذلك أصلاً لجواز رقص الصوفية عند ما يجدونه من لذة المواجهة في مجالس الذكر والسماع^(٢).



(١) وفي رواية: «من تمام التحية الأخذ باليد»، رواه الترمذي عن عبد الله بن مسعود.

(٢) لا لوم على المغلوب حقاً، الذي سيطرت عليه لذة الذكر والسماع من وجد حقيقي لا ادعاء فيه، أما ما يتخذه شياطين من أدعاء التصوف فهو بدعة وضلالة، لا يرضاه الله ولا رسوله ولا المؤمنون، ولا من عنده ذرة من عقل.

الفصل الثامن

في ظواهر السنة الثامنة وما فيها من الغزوات

وفي هذه السنة قدم خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعثمان بن طلحة فأسلموا. وفيها (في جمادي الأولى) غزوة مؤتة^(١) وهي قرية من قرى البلقاء بالشام قبل الكرك، وهي أولى الغزوات بين المسلمين والروم، وكانت الروم والعرب المتنصرة في نحو مائة ألف.

وسبب هذه الغزوة أنه ﷺ أرسل الحارث بن عمير إلى ملك بصرى بكتابه، فعرض له بمؤتة عمرو بن شرحبيل الغساني فقتله، ولم يُقتل له ﷺ رسولٌ غيره، فبعث ﷺ ثلاثة آلاف، وأمر عليهم زيد بن حارثة مولاه، وقال: إن أصيب فأمركم جعفر بن أبي طالب، فإن أصيب فأمركم عبد الله بن رواحة الأنصاري، فإن أصيب فسيفتح الله على يدي رجل من المسلمين» وأشار بيده إلى خالد بن الوليد^(٢). فلما التقوا مع الروم أخذ الراية زيد بن حارثة، حتى استشهد، ثم أخذ الراية جعفر فقاتل حتى قُطعت يده اليمنى فأخذها بشماله فقاتل حتى قُطعت شماله، فحضر الراية وقاتل حتى قُتل رضي الله عنه، وسُمِّي «ذا الجناحين» لأنه ﷺ قال: «إن له جناحين يطير بهما حيث شاء من الجنة».

(١) في حدود الشام.

(٢) ولذلك أُمّر المسلمون خالدًا حين قُتل من ذكرهم رسول الله ﷺ ائتمارًا بأمر رسول الله ﷺ.

ويُحكى أنه وُجد في مقدّمه أربعة وخمسون ما بين طعنة رمح وضربة سيف، وقُتل في السنة الثامنة من الهجرة، وهو ابن نحو من أربعين سنة، وكان أَسَنَّ من أخيه علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ودخلت فاطمة بنت رسول الله ﷺ تبكي وتقول: واعمّاه، فقال النبي ﷺ: «علي مثل جعفر فلتبكِ البواكي»^(١)، ثم انصرف إلى أهله، وقال: «اتخذوا لآل جعفر طعاماً فقد شُغلوا عن أنفسهم» وضمَّ عبد الله بن جعفر إليه ومسح رأسه وعيناه تدمعان. وقال: «اللهم اخلف جعفرًا في ذريته بأحسن ما خلفت به أحدًا من عبادك الصالحين» وكان لجعفر من الولد: عبد الله الجواد، وعون، ومحمد، استشهدوا بصفين، وقيل: إنهم قُتلوا بالطف مع الحسين عليه السلام، وحمل ابنُ زياد رؤوسهم مع رأس الحسين إلى يزيد بن معاوية، ولم يكن لعون عقب.

ثم أخذ الراية عبد الله بن رواحة الأنصاري، فاستشهد، وفي أثناء استشهاد هؤلاء الصحابة الكرام كان ﷺ جالسًا على المنبر وقد كشف الله له مُعْتَرَكهم، فكان يخبر باستشهاد كل واحد منهم ويصلي عليه، ويأمر أصحابه بالاستغفار له.

وفي «الصفوة» عن محمد بن جعفر قال: «فلما تجهَّز الناس وتهيَّأوا للخروج إلى مؤتة، قال للمسلمين: «صحبكم الله ودفع عنكم سوء ردِّكم مسالمين غانمين» فلما فصلوا من المدينة سمع العدو بمسيرهم، فجمعوا لهم وتهيَّئوا لحربهم، وقام فيهم شرحبيل بن عمرو، فجمع نحو مائة ألف، وقدم الطلائع أمامه، ولما نزلوا «معان»^(٢) من أرض الشام بلغهم أن هرقل قد نزل «مآب» من أرض «البلقاء»^(٣) في مائة ألف من الروم، وانضمت إليه المستعربة من: لخم، وجذام، والقين، وبلي، وبهراء، ووائل، فلما بلغ ذلك المسلمين أقاموا على «معان» ليلتين ينظرون في أمرهم، وقالوا: نكتب إلى رسول الله ﷺ فنخبره بعدد عدونا، إما أن يمدنا بالرجال، وإما أن يأمرنا فنمضي

(١) ورواه ابن عساكر بلفظ: «علي مثل جعفر فلتبكِ الباكية».

(٢) مَعَان: بالفتح: مدينة في طرف بادية الشام تلقاء الحجاز من نواحي البلقاء.

(٣) البلقاء: كورة من أعماق دمشق، بين الشام ووادي القرى، قصبتها عمان.

له. فشجعهم عبد الله بن رواحة فقال: والله يا قوم إن الذي تكرهونه للذي خرجتم له تطلبون الشهادة، وما نقاتل الناس بعدة ولا قوة ولا كثرة، وما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به؛ فانطلقوا فإنما هي إحدى الحسنيين؛ إما الظهور وإما الشهادة، قال الناس: قد والله صدق ابن رواحة، فمضوا لوجوههم.

وفي «الاكتفاء»: ثم مضى الناس حتى إذا كانوا بتخوم البلقاء لقيهم جموع هرقل من الروم والعرب بقرية من قرى البلقاء، يقال لها «مشارف»^(١)، وانحاز المسلمون إلى «مؤتة» التي سُميت الغزوة باسمها، فالتقى الناس عندها فتعَبَّى لهم المسلمون، فجعلوا على مِئْمَنَتِهِمْ رجلاً من بني عذرة يقال له: قطبة بن قتادة، وعلى مسيرتهم رجلاً من الأنصار يقال له: عبادة بن مالك، ثم التقى الناس فاقتتلوا، فقاتل زيد براءة رسول الله ﷺ حتى شاط^(٢) في رماح القوم، ثم أخذها جعفر فقاتل حتى إذا لحمه القتال اقتحم عن فرس له شقراء، ثم عرقبها^(٣)، ثم قاتل القوم حتى قُتل رضي الله عنه، وهو يقول:

يا حَبْدًا الجنة واقتربها طَيِّبَةً وباردٌ ضِرَابُهَا
والرومُ روم، قد دنا عذابها عليّ إذ لا قِيَّتُهَا ضِرَابُهَا

وقد سبق ذكر هذه الغزوة عند الكلام على قيصر هرقل - في الفصل الرابع عشر من الباب الأول من المقالة الرابعة من الجزء الأول من هذا التاريخ.

وفي هذه السنة - على ما في أُسْدِ الغابة - أو السابعة، أو التاسعة من الهجرة، اتخذ المنبر لرسول الله ﷺ من أثل الغابة، وفي رواية: من طرفاء الغابة، للخطبة، وهي الكلام المنشور المُسَجَّع، وهو أول منبر عُمل في الإسلام. وفيها كان مولد إبراهيم ابن النبي ﷺ، وهو ثالث أولاده.

وفيها وفاة زينب بنته ﷺ، وهي أكبر بناته ﷺ.

(١) قرية قرب حوران تنسب إليها السيوف المشرفية.

(٢) شاط بمعنى «قُتل» رضي الله عنه.

(٣) أي قطع عرقوبها وهي ما يوازي الركبة. وفعل ذلك حتى لا تنفر.

وفي هذه السنة كان **نقض الصلح**، وغزوة فتح مكة الذي هو أعظم الفتوح الإسلامية؛ لأن الله أعز دينه ورسوله وجنده وحرمه وبلده وبيته، واستبشر به أهل السماء، وضرب أطناب عزه على مناكب الجوزاء، ودخل الناس في دين الله أفواجًا، وأشرق به وجه الدهر ضياءً وابتهاجًا، وأزال الله به الشرور، وزاد به المصطفى السرور، وذلك أن بني بكر بن عبد مناف اعتدت على خزاعة، وهم على ماء لهم بأسفل مكة يقال له «الوتير»^(١) وكان في صلح الحديبية أنه^(٢) لا يتعرض لمن دخل في عقد قريش، ولا يتعرضون لمن دخل في عقده، يعني اصطلحوا على وضع الحرب بين الناس عشر سنين يأمن الناس، ويكف بعضهم عن بعض، وأنه من أحب أن يدخل في عقد رسول الله ﷺ وعهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه، وكانت خزاعة ممن دخل في عهد النبي ﷺ وعقده، وبنو بكر ممن دخل في عهد قريش وعقدهم، وكانت بينهم حروب في الجاهلية، فكلمت بني بكر أشراف قريش أن يعينوهم على خزاعة بالرجال والسلاح، فوعدوهم ووافوهم متنكرين، فبيتوا خزاعة، أي جاءوا ليلاً بغتة فقتلوا منهم عشرين، ثم ندمت قريش على ما فعلوا، وعلموا أن هذا نقض للعهد الذي بينهم وبين رسول الله ﷺ، وخرج عمرو بن سالم الخزاعي في طائفة من قومه، حتى قدموا عليه ﷺ المدينة مستغيثين، وكان ذلك مما هاج فتح مكة، فوقف عمرو على رسول الله ﷺ وهو جالس في المسجد، وأنشده أبياتًا، وهي:

لَاهُمَّ إِنِّي نَاشِدٌ مُّحَمَّدًا	حَلَفَ آبِينَا وَأَبِيهِ الْأَتْلَدَا
فَوَالِدَا كُنَّا وَكُنْتَ الْوَلَدَا	وَوَاحِدًا كُنْتَ وَكُنَّا الْعَدَدَا
إِنَّ قَرِيشًا أَخْلَفُوكَ الْمَوْعِدَا	وَنَقَضُوا مِيثَاقَكَ الْمُؤَكَّدَا
وَزَعَمُوا أَنْ لَسْتَ تَدْعُو أَحَدَا	وَهُم أَذَلُّ وَأَقْلُّ عَدَدَا

(١) وقيل: هو ما بين عرفة إلى آدم، كذا في مراصد الإطلاع.

(٢) أي الرسول ﷺ.

هم يَتَوْنَا بالتوتير هُجَّـدا وقتلونا رُكَّعًا وسُجَّـدا
فانصُرْ هَـدَاك الله نَصْرًا أَبـدا وادعُ عباد الله يأتوا مـددا

فلما سأله بهذه الأبيات أن ينصره، قال له ﷺ: «نُصِرْتَ يا عمرو بن سالم» ودمعت عيناه ﷺ، وقال: «لا ينصرني الله إن لم أنصر بني كعب مما أنصر به نفسي»، وبني كعب هم خزاعة. ثم قدم بديل بن ورقاء الخزاعي في نفر من خزاعة عليه ﷺ فأخبروه بما أصيب منهم، ومظاهرة قريش بني بكر عليهم، ثم انصرفوا راجعين إلى مكة، وقد كان رسول الله ﷺ قال للناس: «كأنكم بأبي سفيان، وقد جاء ليشدّد في العقد ويزيد في المدة، وقد وهبوا الذي صنعوا» فلما لقي أبو سفيان بديلاً، قال: من أين أقبلت يا بديل؟ فظن أنه رسول الله ﷺ، قال: سِرْتُ إلى خزاعة في هذا الساحل، وفي بطن هذا الوادي، قال: أو ما أتيت محمداً؟ قال: لا. فلما راح بديل مكة، قال أبو سفيان: لئن كان بالمدينة لقد علفَ بها. فعمد إلى منزل ناقته، فأخذ من بَعْرِهَا فَفَتَّهَ، فرأى فيه النوى، فقال: أحلف بالله قد جاء بديلٌ محمداً، ثم خرج أبو سفيان حتى قدم المدينة ليجدّد العهد، فدخل على ابنته أم حبيبة (أم المؤمنين زوج الرسول ﷺ) فلما ذهب ليجلس على فراش رسول الله ﷺ طوته عنه، فقال: يا بنية ما أدري، أرغبت بي عن هذا الفراش، أم رغبت به عني؟ قالت: بل هو فراش رسول الله، وأنت رجلٌ مشرك نجس، وما أحب أن تجلس على فراش رسول الله ﷺ، قال: والله لقد أصابك بعدي يا بنية شرٌّ. ثم خرج وأتى النبي ﷺ فكلّمه، فلم يرد عليه شيئاً، فذهب إلى أبي بكر، ثم إلى عمر، ثم إلى علي رضي الله عنهم على أن يكلموا رسول الله ﷺ في أمره، وتشفعَ بهم، فلم يفعلوا، ثم قال لفاطمة أن تأمر ابنها الحسين (وهو غلام يدب بين يدي أبيه) حتى يجير له، فأبت، فقال لعليّ كرم الله وجهه: يا أبا الحسن، إني أرى الأمور قد اشتدت عليّ فانصحنِي، فقال: والله لا أعلم شيئاً يُغني عنك، ولكنك سيد بني كنانة، فقم فأجر بين الناس (أي اطلب الأمان) ثم الحق بأرضك، قال له: أو ترى ذلك يغني عني شيئاً؟ قال: لا والله، ما أظنه، ولكن لا أجد لك غير ذلك. فقام أبو سفيان في

المسجد، فقال: يا أيها الناس، إني قد أجزتُ بين الناس. ثم ركب بعيره وانطلق، فلما قدم على قريش قالوا: ما وراءك؟ فقص ما جرى له مع أبي بكر وعمر وعلي، وأنه قد أجاز بين الناس، فقالوا: هل أجاز محمد ذلك؟ قال: لا، قالوا: والله إن الرجل (يعنون عليًا) أراد اللعب بك، فما يغني عنّا ما قلت، قال: لا والله ما وجدتُ غير ذلك.

ثم أمر ﷺ بالجهاز، وأمر أهله أن يُجهّزوه، ولم يُعلموا به أحدًا، ثم أعلم الناس بأنه يريد مكة، وقال: «اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتهم في بلادهم»، (أي نأخذهم بغتة، أي على حين غفلة من قبل أن يعلموا به)، فكتب حاطب بن أبي بلتعة كتابًا إلى أهل مكة، وبعثه مع سارة مولاة بني هاشم، يُعلمهم بذلك، فأطلع الله رسوله على ذلك، وأرسل عليًا والزبير، وأخذوا منها الكتاب، فقال لحاطب: ما حملك على هذا؟ فقال: والله إني مؤمن، ما كفرْتُ منذ أسلمت، ولا غششتك منذ صحبتك، ولكن لي بين أظهرهم أهلٌ وولد، وليس لي عشيرة، فصانعتُهم. فقال عمر: دعني يا رسول الله أضرب عنقه فإنه منافق. فقال ﷺ: «إنه شهد بدرًا، وما يدريك لعل الله قد أطلع على أهل بدر، فقال لهم: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم» ففاضت عينا عمر، فأنزل الله عز وجل في حاطب ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ﴾ [الممتحنة: ١] الآية، وبعث رسول الله ﷺ إلى من حوله من الأعراب فجلبهم، وهم: أسلم، وغفار، ومزينة، وجهينة، وأشجع، فمنهم من وافاه بالمدينة، ومنهم من لحقه بالطريق، واستخلف على المدينة عبد الله بن أم مكتوم، وقد أهدر ﷺ دم سارة حاملة كتاب حاطب بعد الفتح.

ثم خرج رسول الله ﷺ من المدينة لعشرة مضت من رمضان ومعه المهاجرون والأنصار، عائدًا إلى مكة، فكان جيشه عشرة آلاف، فصام وصام الناس معه، حتى إذا

كان «الكديد»^(١) وهو الماء الذي بين قديد^(٢) وعسفان^(٣) أفطر، فلم يزل مضطراً حتى انسلخ الشهر، وبلغ ذلك قريشاً، فخرج أبو سفيان بن حرب، وحكيم بن حزام، وبديل ابن ورقاء يتجسسون الأخبار، وكان العباس رضي الله عنه أسلم قديماً، وكان يكتم إسلامه، فخرج بعياله مهاجراً، فلقي رسول الله ﷺ بالحجة^(٤) وقيل بذى الحليفة، ثم حضر أبو سفيان بن حرب على يد العباس إلى النبي ﷺ بعد أن استأمن له، فأسلم معه حكيم بن حزام وبديل بن ورقاء.

وفي رواية عروة: لما دخل أبو سفيان مع العباس على رسول الله ﷺ صبيحة أسلم، قال أبو سفيان: يا محمد، إني قد استنصرتُ إلهي واستنصرتُ أنتَ إلهك، فوالله ما لقيتك من مرة إلا ظهرت عليّ، فلو كان إلهي محقاً وإلهك مبطلاً لظهرتُ عليك. فشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.

وممن أسلم يومئذ معاوية بن أبي سفيان وأخوه يزيد، وأمه هند بنت عتبة، وكان معاوية يقول: إنه أسلم يوم الحديبية، فكتم إسلامه عن أبيه وأمه. وقال العباس: يا رسول الله، إن أبا سفيان يحب الفخر فاجعل له شيئاً يكون في قومه. فقال ﷺ: «مَنْ دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن» فلما ذهب أبو سفيان لينصرف قال رسول الله ﷺ: احبسه يا عباس بمضيق الوادي، حتى تمر به جنودُ الله تعالى فيراها، قال: فخرجتُ به حتى حبسته حيث أمرني رسول الله ﷺ، ومَرَّتْ به القبائل على راياتها، كلما مرَّتْ قبيلة كَبَّرْتُ ثلاثاً عند محاذاته، قال: مَنْ

(١) الكديد: موضع بالحجاز على اثنين وأربعين ميلاً من مكة. بين عسفان وأمع. وفي هامش المراسد: «في ياقوت: ويوم الكديد من أيام العرب».

(٢) قديد: بضم القاف: قرب مكة.

(٣) عسفان: منهلة من مناهل الطريق، بين الجحفة ومكة.

(٤) كانت قرية كبيرة ذات منبر (أي مسجد جامع به منبر) على طريق مكة، على أربع مراحل، وهي ميقات أهل مكة والشام، وسميت الجحفة لأن السيل جحفها (أي أضر السيل بأهلها) وكان اسمها (مهية) بينها وبين البحر ستة أميال، وبينها وبين «غدير خم» ميلان.

هؤلاء يا عباس؟ فأقول: سليم، فيقول: ما لي وسليم، ثم تمر القبيلة فيقول: من هؤلاء؟ فأقول: مزينة، فيقول: ما لي ولمزينة، ثم مرت بنو غفار - بكسر الغين المعجمة - ثم أسلم، ثم بنو كعب، ثم جهينة، ثم كنانة، ثم أشجع، لا تمر قبيلة إلا سألني عنها فإذا أخبرته، فيقول: ما لي ولبني فلان؟ حتى مر رسول الله ﷺ في كتيبه الخضراء - وإنما قيل لها الخضراء لكثرة الحديد وظهوره فيها، والعرب تطلق الخضرة على السواد، كما تطلق السواد على الخضرة^(١) - المهاجرون والأنصار، لا يرى منهم إلا الحدق من الحديد، لأن فيها ألفي دارع^(٢)، فلما رأى ذلك أبو سفيان قال: سبحان الله، من هؤلاء يا عباس؟ قلت: هذا رسول الله ﷺ في المهاجرين والأنصار، قال: ما لأحد بهؤلاء من قبل ولا طاقة، والله يا أبا الفضل لقد أصبح مُلكُ ابن أخيك عظيمًا، قلت: ويحك يا أبا سفيان إنها النبوة. قال: فنعلم إذن، فقلت: الحق الآن بقومك فحذرهم. فخرج سريعًا حتى إذا جاءهم، فصرخ بأعلى صوته: يا معشر قريش، هذا محمد قد جاءكم بما لا قبل لكم به. قالوا: فمَهْ؟ قال: فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، قالوا: ويحك وما تغني دارك عنا شيئًا، قال: فمن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، ومن ألقى السلاح فهو آمن. ففترق الناس إلى دورهم وإلى المسجد، واستثنى ﷺ جماعةً أمر بقتلهم، وإن وجدوا متعلقين بأستار الكعبة، وبهذا استدل على أن مكة فُتحت صلحًا لا عنوة، وبه قال الإمام الشافعي.

وفي بعض السير: لقي رسول الله ﷺ ببعض الطرق بالأبواء أبا سفيان ابن عمه الحارث بن عبد المطلب، وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة - ابن عمته عاتكة بنت عبد المطلب - فأعرض عنهما ﷺ، فجاء إليه أبو سفيان وعبد الله بن أمية من قبل وجهه، فقال ﷺ: ﴿لَا تَزِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف:

(١) في مختار الصحاح: وربما سمو الأسود أخضر. وقوله تعالى: ﴿مُدْهَامَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٦٤] قالوا: خضراوان؛ لأنهما يضربان إلى السواد من شدة الري.

(٢) أي حامل درع.

٩٢] وقبل منهما إسلامهما، فأنشده أبو سفيان معتذراً إليه بأبيات، فضرب رسول الله ﷺ على صدره وقال: «أنت طردتني كلَّ مطَّرد». وكان أبو سفيان بعد ذلك ممن حَسَنَ إسلامه، فقيل: إنه ما رفع رأسه إلى رسول الله ﷺ منذ أسلم حياً منه، وكان ﷺ يحبه ويشهد له بالجنة، ويقول: أرجو أن يكون خَلَفًا من حمزة^(١)، وقال ﷺ لأبي سفيان ابن الحارث حين جاء مسلماً بعد أن كان عدوًّا له كثير الهجاء: «كُلُّ الصيد في جَوْف الفِرا»^(٢) (وهو بفتح الفاء حمار الوحش)، والمعنى أن حمار الوحش من أعظم ما يصاد، وكل صيد دونه، كما أنك من أعظم أهلي وأمسهم رحمًا بي، ومن أكرم من يأتيني وكلُّ دونك»، وكان أبو سفيان يُشبه رسول الله ﷺ من جملة من يشبهونه، وهم ستة، والباقي: جعفر بن أبي طالب، والحسن بن علي، وقثم بن العباس، والسائب بن عبيد بن عبد الله بن نوفل بن هشام بن عبد المطلب بن عبد مناف، وعبد الله بن نوفل ابن الحارث بن عبد المطلب.

ثم أمر ﷺ أن تركز راية سعد بن عباد بالحجون^(٣) لما بلغه أنه قال: «اليوم يوم الملحمة، اليوم تُسْتَحَلُّ الكعبة» فقال: «كذب سعد، ولكن هذا يوم يعظم الله فيه الكعبة، ويوم تُكْسَى فيه الكعبة» فمن هنا يُعلم أنه ﷺ كما سعى في العمار الحسي سابقًا، سعى في العمار المعنوي لاحقًا. ونِعْم ما قال سادة الأول: أوَّل الفكر آخر العمل، فالساعي في التعمير يستحيل أن يكون سببًا في التدمير، لا سيما البشير النذير، أو ليس أنه ﷺ كان في بناء قريش للكعبة يشتغل في بنائها بنفسه معهم، وأنه لما اختير

(١) وكان عليه الصلاة والسلام يقول فيه: «أبو سفيان بن الحارث خيرُ أهلي» رواه الطبراني والحاكم عن أبي حبة البدرى. وروى الحاكم وابن سعد عن عروة مرسلاً قوله ﷺ: «أبو سفيان بن الحارث سيد فتيان أهل الجنة».

(٢) رواه الراهمزمي في الأمثال عن نصر بن عاصم الليثي قال: «أذن رسولُ الله ﷺ لقريش وأخرأبا سفيان، ثم أذن له، فقال - أي أبو سفيان - ما كدْتُ تأذن لي حتى كنت تأذن لحجارة الجُلْهُمَتَيْنِ (بضم الجيم وسكون اللام وبضم الهاء: اسم مكان) قبلي؟ قال: وما أنت وذاك يا أبا سفيان، إنما أنت كما قال الأول: «كُلُّ الصيد في جوف الفِرا».

ورواه العسكري أيضًا قريبًا من هذا اللفظ، والله تعالى أعلم.

(٣) مكان بأعلى مكة عند مقبرتها. وقال الأصمعي: الحجون هو الجبل المشرف الذي بحذاء مسجد البيعة على شعب الجزارين - قاله ياقوت الحموي.

حكمًا حين اختصمت القبائل في رفع الحجر إلى موضعه، كان هو الآخذ بالثوب وواضعه بالركن، والأمر للإصلاح بأخذ كل قبيلة طرفًا من الثوب ورفعها إلى ما يحاذي موضعه، والمتناول للحجر من الثوب، والواضع له بيده الشريفة في محله، فحقَّ على من يرفع بنيانها أن يرفع شأنها.

ثم أمر ﷺ أن يدخل الزبيرُ ببعض الناس من كداء^(١)، وسعدُ بن عبادَة سيد الخزرج ببعض الناس من ثنية كُدَى^(٢) وأمر عليًّا أن يأخذ الراية منه فيدخل بها لما بلغه من قول سعد: اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الكعبة، وأمر خالد بن الوليد أن يدخل من أعلى مكة من كُدَاء في بعض الناس، وكل هؤلاء الجنود لم يقاتلوا؛ لأن النبي نهى عن القتل، إلا أن خالد بن الوليد لَقِيَهُ جماعة من قريش فرموه بالنبل ومنعوه من الدخول فقاتلهم خالد وقتل من المشركين ثمانيةً وعشرين رجلًا، فلما علم النبي ﷺ بذلك قال: أَلَمْ أَنهَكُم عن القتال؟ فقالوا له: إن خالدًا قوتل فقاتل. وقُتل من المسلمين رجلان، ودخل النبي ﷺ مكة من كُدَاء وهو على ناقته يقرأ سورة الفتح ويُرجِّع^(٣).

وكان دخوله ﷺ مكة يوم الإثنين، ووضع الحجرَ يوم الإثنين، وخرج من مكة مهاجرًا يوم الإثنين، ودخل المدينة يوم الإثنين، ونزلت عليه سورة المائدة يوم الإثنين. وعن عائشة رضي الله عنها: كان لواؤه يوم فتح مكة أبيضَ، ورايته سوداء تُسمَّى العُقَاب، وهي التي كانت بخير.

وعنها رضي الله تعالى عنها أنها قالت: دخل رسولُ الله ﷺ يوم الفتح من كُدَاء [بفتح الكاف والمدّ والتثوين: جبل بأعلى مكة] وهذا هو المعروف، خلافًا لمن قال:

(١) اسم مكان أسفل مكة خرج منه النبي ﷺ من مكة، وهو بفتح الكاف.

(٢) اسم مكان ثنية بأعلى مكة، عند المحصب، وهو بضم الكاف.

(٣) الترجيع: التردد في القراء وإعادة الآيات.

أغلب العلماء على أن رجيعه إنما كان من أثر اهتزاز الناقة، ولكن الصحابة رضي الله عنهم كانوا يأخذون عنه كل شيء دون النظر إلى الأسباب. والله أعلم.

إنه دخل من أسفل مكة، وهي ثنية كُدَى [بضم الكاف والقصر والتنوين] وعند الخروج خرج ﷺ من هذه، وبهذا استدل على أنه يستحب دخول مكة من الأولى والخروج منها من الثانية، واغتسل ﷺ لدخول مكة، وبه استدل على استحباب الغسل لدخول مكة ولو حلالاً، وكان شعار المهاجرين «يا بني عبد الرحمن» وشعار الخزرج «يا بني عبد الله» وشعار الأوس «يا بني عبيد الله» أي شعارهم الذي يعرف به بعضهم بعضاً في ظلمة الليل، عند اختلاط الحرب، لو وجد.

وبعث النبي ﷺ السرايا إلى الأصنام التي حول مكة فكسرها، ونادى مناديه بمكة: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدع في بيته صنماً إلا كسره»، وكذلك إلى الناس يدعوهم إلى الإسلام، ولم يأمرهم بقتال، وكانت بنو جذيمة قد قتلوا في الجاهلية عوفاً أبا عبد الرحمن، وعم خالد - كانا أقبلا من اليمن - وأخذوا ما معهما، وكان من السرايا التي بعثها ﷺ تدعو إلى الإسلام سريةً مع خالد بن الوليد، فنزل على ماء لبني جذيمة فأقبلوا بالسلاح، فقال لهم خالد: ضعوا السلاح فإن الناس قد أسلموا، فوضعوه، فدعاهم إلى الإسلام فلم يُحسنوا أن يقولوا: أسلمنا، فجعلوا يقولون: صبأنا صبأنا، فأمر بهم خالد فكتفوا، ثم عرضهم على السيف فقتل من قتل^(١) منهم، فلما بلغ النبي ﷺ ذلك رفع يديه إلى السماء حتى بانَ بياضُ إبطيه، وقال: «اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد» [مرتين] ثم أمر علياً رضي الله عنه أن يؤدي لهم الدماء والأموال، ففعل^(٢) ذلك، ثم سألهم: هل بقي لكم دم أو مال؟ قالوا: لا، وكان قد فضل مع عليٍّ قليلٌ مال، فدفعه إليهم زيادةً تطيباً لقلوبهم، فأعجب النبي ﷺ ذلك.

(١) ظن سيدنا خالد رضي الله عنه أنهم خرجوا إلى دين الصابئة: جنس من أهل الكتاب، ومن القول الفاحش اتهم سيدنا خالد بأنه خالف أمر رسول الله ﷺ لضغينة في نفسه من هؤلاء الناس، ولا يعتقد هذا إلا جاهل أو مدخول في عقيدته. والله تعالى أعلم.

(٢) وهذا دليل آخر على براءة سيدنا خالد، فإن الدية لا تؤدي إلا في الخطأ، أما العمد ففيه القصاص؛ لأنهم مسلمون.

وأُنكر عبد الرحمن بن عوف على خالد فعله^(١)، فقال خالد: ثأرتُ أباك. فقال عبد الرحمن: بل ثأرتَ عمك الفاكه، وفعلتَ فعل الجاهلية في الإسلام. وبلغ رسول الله ﷺ خصامهما، فقال: «يا خالد دع عنك أصحابي، فوالله لو كان لك أحدٌ ذهبًا ثم أنفقتَه في سبيل الله تعالى ما أدركت غدوة أحدهم ولا رَوْحته».

وكان فتح مكة يوم الجمعة لعشر بقين من رمضان، ودخل النبي ﷺ مكة وملكها عنوةً بالسيف، وإلى ذلك ذهب مالك وأصحابه، وهو الصحيح من مذهب أحمد رضي الله عنه، وقال أبو حنيفة والشافعي رضي الله تعالى عنهما إنها فُتحت صلحاً^(٢).

ولما دخل مكة ﷺ وكان حول البيت ثلاثمائة وستون صنماً مشدودة بالرصاص، لكل حي من أحياء العرب صنم، وكان هُبُل أعظمها، وهو على باب الكعبة، فلما طاف جعل يشير بقضيب في يده إليها ويقول: جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً. فما أشار لصنم إلا وقع لوجهه، وفي ذلك قال تميم الخزاعي:

فَفِي الْأَصْنَامِ مُعْتَبَرٌ وَعِلْمٌ لِمَنْ يَرْجُو الثَّوَابَ أَوْ الْعِقَابَ
ثُمَّ أَمَرَ ﷺ بِهُبُلِ فَكُسِرَ، وهو واقف عليه.

وروى أن الزبير بن العوام قال لأبي سفيان: إن هُبُل الذي كنت تفتخر به يوم أحد قد كُسِر، قال: دَعْنِي لَا تَوَبِّخْنِي، لو كان مع إله محمد إله آخر لكان الأمر غير ذلك.

ويقال: إن رسول الله ﷺ لما دخل مكة يوم الفتح كان بها من الأصنام ثلاثمائة وستون صنماً حول الكعبة، منها إساف ونائلة، فكُسِرَا مع الأصنام. وفي ذلك يقول فضالة الليثي:

(١) وإنما لأمه سيدنا عبد الرحمن بن عوف لأنه كان يعرف أن القوم قد أسلموا وخالد يجهل ذلك منهم، ولو علم ما فعل هذا أبداً، وقول خالد: ثأرتُ أباك، إنما يريد أن يبرد قلب عبد الرحمن حتى يخفف عبد الرحمن عنه اللوم. وقول رسول الله ﷺ: «يا خالد دع عنك أصحابي» إنما أراد رسول الله ﷺ -والله تعالى أعلم- أن يبين مكانة السابقين في الإسلام، فإن السابقين لهم فضلهم ومكانتهم، فلا يجترئ عليهم أحد مهما كان. وهذا الذي نقوله وندين به لله رب العالمين، والله تعالى أعلم.

(٢) انظر ص ٤٤٢ في القول بأن مكة فتحت صلحاً لا عنوة.

لو رأيت محمداً وجنوده بالفتح يوم تُكسّر الأصنام
لرأيت نور الله أصبح بيّناً والشرك يغشى وجهه الإظلام

وكان عليه ﷺ لما دخل مكة عمامة سوداء، فوقف على باب الكعبة، وقال: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده»، ثم ذكر ﷺ خطبةً بيّن فيها جملة من الأحكام، منها: أن لا يُقتل مسلمٌ بكافر، ولا يتوارث أهل ملّتين مختلفتين، ولا تُنكح المرأة على عمتها ولا على خالتها، والبيّنة على المدعي واليمين على من أنكر، ولا تسافر امرأة مسيرة ثلاثة ليالٍ إلا مع ذي محرم، ولا صلاة بعد العصر وبعد الصبح، (أي من النوافل)، ولا يُصام يوم الأضحى ولا يوم الفطر.

ثم قال: يا معشر قريش، إنّ الله أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعاظمها بالآباء، الناس من آدم، وآدم من تراب، ثم تلا هذه الآية: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاهُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ [الحجرات: ١٣] الآية، ثم قال: يا معشر قريش، فاجتمع به المشركون في المسجد الحرام آيسين من أرزاقهم، فجاء رسول الله ﷺ حتى دخل المسجد الحرام، وأحاط جيشه بالمسجد، ودخل معه خواصه، وفتح له باب الكعبة حتى دخل وصلّى بها، وأقام الخواصّ حول رسول الله ﷺ وأيديهم على مقابض سيوفهم، وهم ينتظرون أمره بوضع السيف في أعدائهم، فخرج رسول الله ﷺ، وقام على عتبة الباب، وأقبلت قريش وهم منكسو رؤوسهم خوفاً وحزناً، فقال: «يا أهل مكة، بنس العشير كنتم لنبيكم، كذّبتموني وصدّقني الناس، وأخرجتموني وآواني الناس، وقاتلتموني ونصرني الناس، والآن قد أظهرني الله عليكم كما ترون، فما تروني فاعلاً بكم؟» فقام سهيل بن عمرو - وهو كان من رؤساء قريش - وقال: يا محمد، أنت أخ كريم وابن أخ كريم، وقد قدرت؛ إنّ عذبتنا فيجرم عظيم، وإن عفوت عنا فبحلم قديم. فتبسم رسول الله ﷺ في وجوههم، وقال: «بل أقول مثل ما قال أخي يوسف

عليه السلام: «لا تثريب عليكم اليوم، يغفر الله لكم. اذهبوا فأنتم الطلقاء»^(١)، فأعتقهم ﷺ جميعاً ولم يسب ذراريهم، وكان الله قد أمكنه منهم. فكانوا له فيئاً، فبذلك سمي أهل مكة الطلقاء، أي الذين أُطلقوا فلم يُسترقوا، ولم يؤسروا، والطلاق هو الأسير إذا أُطلق.

وروي أن عائشة رضي الله عنها نذرت إن فتح الله مكة على رسول الله ﷺ تصلي في البيت ركعتين، فلما فُتحت مكة وحجَّ رسول الله ﷺ حجة الوداع سألت النبي ﷺ أن يفتح لها باب الكعبة ليلاً لتوفي نذرَها، فجاء عثمان بن طلحة رضي الله عنه بالمفتاح إلى رسول الله ﷺ، وقال: يا رسول الله، إنها لم تُفتح ليلاً قط، قال: فلا تفتحها. ثم أخذ رسول الله ﷺ بيدها وأدخلها الحجر، وقال: «صلي ها هنا؛ فإن الحطيم (أي الحجر) من البيت، إلا أن قومك قصرَ بهم النفقة (أي الحلال) فأخرجوه من البيت، ولولا حدثان قومك بالجاهلية لنقضت بناء الكعبة، وأظهرت قواعد الخليل، وأدخلت الحطيم في البيت، وألصقت العتبة على الأرض، ولئن عشتُ إلى قابل لأفعلن ذلك» ولم يعش ﷺ، ولم تتفرغ الخلفاء لذلك^(٢).

ولما اطمأن الناس خرج رسول الله ﷺ إلى الطواف؛ فطاف بالبيت سبعا على راحلته، واستلم الركن، ودخل الكعبة ورأى فيه الشخصوس على صور الملائكة،

(١) لما كان فتح مكة ورسول الله ﷺ بمكة أرسل إلى صفوان بن أمية، وإلى أبي سفيان بن حرب، وإلى الحارث بن هشام، قال عمر بن الخطاب: فقلت: «قد أمكن الله منهم لأعرفهم بما صنعوا» حتى قال رسول الله ﷺ: «مثلي ومثلكم كما قال يوسف لإخوته: ﴿لَا تَتْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾» [يوسف: ٩٢] قال عمر: فانفضحتُ حياءً من رسول الله ﷺ كراهية أن يكون بدر مني، وقد قال لهم رسول الله ﷺ ما قال. (والحديث أخرجه ابن عساکر).

(٢) بل إنهم قد نهوا عن ذلك، لثلا يتخذ الملوك لعبة لهم، كلما جاء ملك جدد، فهدم وبني، وبيت الله يُنزّه عن ذلك، كما قال عبد الله بن عباس لابن الزبير رضي الله عنهما - حينما كان محصوراً بمكة من قبل الحجاج بن يوسف، وأصاب الكعبة المنجنیق - فقال عبد الله بن عباس: دعها على ما أقرّها رسول الله ﷺ، فإني أخشى أن يأتي بعدك من يهدمها، فلا تزال تُهدم وتُبنى، فيتهاون الناس بحرمتها، ولكن ارفعها. (انظر الجامع اللطيف في فضل مكة والبيت الشريف ص ٨٦).

وصورة إبراهيم وفي يده الأزام يستقسم بها، فقال ﷺ: «قاتلهم الله، جعلوا شيخنا يستقسم بالأزلام! ما شأن إبراهيم والأزلام! ما كان إبراهيم يهوديًا ولا نصرانيًا، ولكن كان حنيفًا مسلمًا، وما كان من المشركين» ثم أمر بتلك الصور فطمست، وصلى في البيت، ثم جلس على الصفا فاجتمع الناس لبيعته على الإسلام، فكان يبايعهم على السمع والطاعة لله ولرسوله، فبايع الرجال، ثم النساء^(١).

رُوي أن النبي ﷺ عهد إلى أمرائه حين أمرهم أن يدخل مكة أن لا يقاتلوا إلا من قاتلهم، إلا أحد عشر رجلًا وست نسوة، فإنه أمر بقتلهم أينما ثقفوا من الحل والحرم، وإن وجدوا تحت أستار الكعبة.

أما الرجال الأحد عشر: فأحدهم عبد الله بن خطل (رجل من بني تميم بن غالب بن فهر، وقد كان قدم بالمدينة قبل فتح مكة وأسلم، وكان اسمه عبد العزى، فغَيَّر النبي ﷺ اسمه وسمَّاه عبد الله).

والثاني عبد الله بن سعد بن أبي سرح، أخو عثمان بن عفان من الرضاعة، فبالغ عثمان في شفاعته، ثم قال بعدما أعرض عنه النبي ﷺ مرارًا: يا رسول الله، أُمَّتُهُ. فصمَّت طويلاً، ثم أَمَّنه، فأسلم، وقال ﷺ: إنما صمَّت ليقوم أحدكم فيقتله، فقالوا: هَلَّا أومأت إلينا؟ فقال: إن الأنبياء لا تكون لهم خائنة الأعين. وكان أسلم قبل الفتح، وكتب الوحي لرسول الله ﷺ، فكان يبدل القرآن، ثم ارتدَّ وهرب إلى مكة، ثم أسلم يوم الفتح، وعاش إلى خلافة عثمان، وولَّاه مصر^(٢).

والثالث: عكرمة بن أبي جهل، استأمنت له زوجته أم حكيم، وجاء عكرمة حتى وقف بحذاء رسول الله ﷺ، وقال: يا محمد، إن هذه أخبرتني أنك أُمَّتني، فقال رسول الله

(١) كانت مبايعته للنساء كلامًا باللسان فقط.

(٢) وكان إسلامه في المرة الثانية عن عقيدة صحيحة والحمد لله رب العالمين. ذكر الذهبي في تاريخ الإسلام ص ١٣٨ ج ٣ (خلافة الصديق - خلافة علي) أنه لما احتضر قال: اللهم اجعل آخر عملي صلاة الصبح، فلما ذهب يسلم عن يساره فاضت نفسه رضي الله عنه.

ﷺ: «صدقتُ فإنك آمن»، فقال عكرمة: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأنت عبد الله ورسوله ﷺ.

والرابع: الحويرث بن نفيل، كان يؤذي رسول الله ﷺ ويهجوّه، فقتله عليّ رضي الله عنه.

والخامس: المقيس - بكسر الميم وسكون القاف وفتح المثناة التحتية وآخره سين مهملة - هو ابن صبابه الكندي - بالصاد المهملة المضمومة وبالموحدين - وجُرمه أن أخاه هشام بن صبابه، قدم المدينة وأسلم، وكان مع النبي ﷺ في غزوة المريسيع، فظن أنصاريّ من بني عمرو بن عوف أنه مشرك فقتله خطأ؛ فقدم مقيسُ المدينة يطلب دمَ أخيه فأمر النبي ﷺ الأنصاري بالدية، فعقل ديته، فأسلم مقيس، وبعد ما أخذ الدية قتل الأنصاريّ وارتد ورجع إلى مكة مشركاً.

والسادس: هبار بن الأسود، وكان كثيرًا ما يؤذي رسول الله ﷺ يوم بدر، فعرض هبار مع جماعة لطريق زينب ومنعها، وضرب زينب^(١) بالرمح فسقطت عن ناقتها، وكانت حاملاً، فألقت حملها ومرضت وماتت بهذا المرض، فغضب عليه النبي ﷺ غضباً شديداً، وأهدر دمه؛ ولما رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة جاء هبار رافعاً صوته؛ وقال: «يا محمد، أنا جئتُ مُقرّاً بالإسلام، وقد كنت قبل هذا مخذولاً ضاللاً؛ والآن قد هداني الله للإسلام، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله» واعتذر إليه معترفاً بذنبه، مظهرًا لخبالته، فقبل النبي ﷺ إسلامه، وقال: «يا هبار عفوت عنك، والإسلام يُجِبُّ ما كان قبله».

والسابع: صفوان بن أمية، ولما علم أن النبي ﷺ أهدر دمه يوم فتح مكة هرب مع عبد له اسمه يسار إلى جدة يريد أن يركب منها إلى اليمن، فقال عمير بن وهب الجمحي: يا نبيّ الله، إن صفوان بن أمية سيدٌ قومي، وقد خرج هارباً منك ليقذف نفسه في البحر،

(١) زينب ابنة رسول الله - ﷺ.

فأَمَّنْهُ عليك، فقال: هو آمن، قال: يا رسول الله: أعطني شيئاً يعرف به أمانك، فأعطاه رسول الله ﷺ عمامته التي دخل بها مكة، فخرج بها عمير حتى أدركه بجدة، وهو يريد أن يركب البحر، فقال: يا صفوان، فداك أبي وأمي، واذكر الله في نفسك أن تهلكها، فهذا أمان رسول الله ﷺ فرجع معه حتى وقف به على رسول الله ﷺ، فقال صفوان: هذا يزعم أنك أمتني؟ قال: صدق، قال: فاجعلني في أمري بالخيار شهرين، قال: أنت فيه بالخيار أربعة أشهر، فلما خرج النبي ﷺ إلى حنين وهوازن، واستعار منه النبي ﷺ مائة درع، فقال صفوان: أغضباً يا محمد؟ فقال النبي ﷺ: «بل عارية مضمونة» وحين قفل النبي ﷺ من الطائف إلى الجعرانة مرّ مع صفوان على شعب مملوء من الإبل والغنم وسائر أنعام الغنيمة، وكان صفوان يحدّ النظر إلى تلك الأموال، ولم يرفع بصره منها، وكان النبي ﷺ يلاحظه، فقال: يا أبا وهب، أتعجبك هذه؟ قال: نعم، قال: وهبتها لك كلها، فقال صفوان: ما طابت نفس أحد بمثل هذا، إلا نفس نبي فأسلم هناك.

والثامن: حارث بن طلاطلة - وهو من جملة مؤذي النبي ﷺ - وفي يوم فتح مكة قتله علي بن أبي طالب.

والتاسع: كعب بن زهير بن أبي سلمى المزني الشاعر، صاحب -بانت سعاد- القصيدة المشهورة، وكان يهجو النبي ﷺ، فجاء وهو جالس في المسجد فدخل وأسلم، وأنشأ قصيدته التي أولها:

بانت سعادُ فقلبي اليوم متبولٌ ... [فلما بلغ إلى قوله:]
 إن الرسولَ لنورٍ يُستضاء به مُهَنَّدٌ من سيوف الله مسلول
 أُنبئتُ أنَّ رسولَ الله أوعدني والعفو عند رسول الله مأمول

قال النبي ﷺ: «اسمعوا ما يقول»، وقيل: فرح النبي ﷺ^(١) وكساه برده جائزة له:

(١) فرح النبي ﷺ بإسلامه، لا بشعره، وكساه النبي ﷺ البردة تأمينا له حتى يطمئن، وأما شعره فدليل على حسن إسلامه رضي الله عنه.

فلما كان زمن معاوية أرسل إلى كعب: أن بعنا بردة النبي ﷺ، فقال: ما كنت لأؤثر ثوب رسول الله ﷺ أحداً، فلما مات كعب اشتراها معاوية من أولاده بعشرين ألف درهم ونقل المؤيد أبو الفدا إسماعيل صاحب حماة في تاريخه أنه اشتراها بأربعين ألف درهم، ثم توارثها الخلفاء الأمويون والعباسيون، حتى أخذها «التتر» انتهى.

والصحيح أن هناك بردتين: بردة كعب بن زهير، وهي التي اشتراها معاوية، وفُقدت بزوال بني أمية، والثانية هي التي أهداها ﷺ لأهل أيلة في غزوة تبوك، وكتب لهم أماناً، واشترها أبو العباس السفاح بثلاثمائة دينار، ولعلها هي التي أخذها التتر، وإلا فقد كانت عند الخلفاء يتوارثونها ويطرحونها على أكتافهم في المواكب جلوساً وركوباً، وكانت على المقتدر حين قُتل وتلوّثت بالدم.

وأخرج الإمام أحمد بن حنبل في الزهد عن عروة بن الزبير رضي الله عنه أن ثوب رسول الله ﷺ الذي كان يخرج فيه للوفد، رداء حضرمي، طوله أربعة أذرع، وعرضه ذراعان وشبر، فهو عند الخلفاء قد خَلَقَ وطووه بتياب تلبس يوم الأضحى والفطر انتهى.

ولعل هذا هو الموجود في الخزينة الخديوية المصرية^(١).

وكان إسلام كعب في السنة التاسعة.

والعاشر: وحشي بن حرب، قاتل حمزة، وكان كثير من المسلمين حريصاً على قتله، ويوم فتح مكة هرب إلى الطائف وأقام هناك إلى زمان قدوم وفد الطائف إلى النبي ﷺ، فجاء معهم ودخل عليهم، وقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله، فقال النبي ﷺ: أنت وحشي؟ قال: نعم، قال: أنت قتلت حمزة؟ قال: قد كان من الأمر ما بلغك يا رسول الله، قال: اجلس واخك لي كيف قتلته، ولما قصَّ عليه قصة قتله، قال: أما تستطيع أن تُغيِّبَ وجهك عني!

(١) الآن بمسجد مولانا الحسين رضي الله عنه في حجرة المخلفات الشريفة.

وكان وحشي بعد ذلك إذا رأى النبي ﷺ يفرّ منه ويختفي.

والحادي عشر: عبد الله بن الزبيري، وكان من شعراء العرب، وكان يهجو أصحاب النبي ﷺ ويحرّض المشركين على قتالهم، ويوم الفتح لما سمع أن النبي ﷺ أهدر دمه هرب إلى نجران وسكنها، وبعد مدة وقع الإسلام في قلبه، فأتى النبي ﷺ، فلما رآه من بعيد قال: هذا ابن الزبيري، ولما دنا منه قال: السلام عليك يا رسول الله، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنك رسول الله.

وأما النساء الست اللاتي أهدر النبي ﷺ دماءهن يوم الفتح.

فإحدهن هند بنت عتبة، وهي امرأة أبي سفيان.

رُوي أن رسول الله ﷺ لما فرغ يوم فتح مكة من بيعة الرجال، أخذ في بيعة النساء، وهو على الصفا، وعمر جالس أسفل منه يبائعهن بأمره، ويبلغهن عنه، فجاءت هند ابنة عتبة - امرأة أبي سفيان - وهي متنكرة خوفاً من رسول الله ﷺ أن يعرفها لما صنعت بحمزة في كونها مثلت به ومضغت كبده، فقال رسول الله ﷺ: «أبايعكن على أن لا تشركن بالله شيئاً، فبايع عمر النساء على أن لا يشركن بالله شيئاً، فقال رسول الله ﷺ: «أبايعكن على أن لا يسرقن، فقالت هند: إن أبا سفيان شحيح، فإن أصبت من ماله هناة؟ فقال أبو سفيان: ما أصبت فهو لك حلال، فضحك النبي ﷺ وعرفها، وقال لها: وإنك لهند؟ فقالت: نعم فأعفُ عما سلف يا نبي الله، فقال: عفا الله عنك، فقال: ولا يزينين، فقالت: أترزني الحرة؟! فقال: ولا يقتلن أولادهن، فقالت: ربيّناهم صغاراً وقتلتهم كباراً، فأنتم وهم أعلم (وكان ابنها حنظلة بن أبي سفيان قد قُتل يوم بدر)، فضحك عمر رضي الله عنه حتى استلقى، وتبسم ﷺ: ولا يأتين ببهتان يفتريه، قالت: والله إن إتيان البهتان لقبيح، وما تأمرنا إلا بالرشد ومكارم الأخلاق. ولما قال: ولا تعصيني في معروف؛ قالت: والله ما جلسنا مجلسنا هذا وفي أنفسنا أن نعصيك في معروف، فلما رجعت جعلت تكسر صنمها وتقول: كنا منك في غرور.

الثانية والثالثة «قُريّة» بالقاف والموحدة مصغراً، «والفَرْتَنّا» بالفاء المفتوحة والراء المهملة الساكنة والمثناة الفوقية والنون - كذا صحّحه القسطلاني في المواهب اللدنية، وهما قيتتان^(١) أي مغنيتان لابن خطل؛ وكانت تغنيان بهجاء رسول الله ﷺ، فأمر بقتلهما مع ابن خطل - فأما «قُريّة» فُقُتِلَتْ مصلوبة؛ وأما «فرتنا» ففرت حتى استؤمن لها من رسول الله فأمّنها؛ فأمنت.

الرابعة: مولاة بني خطل: وقتلت يوم الفتح.

الخامسة: مولاة بني عبد المطلب: وقيل مولاة عمرو بن صيفي بن هاشم.

السادسة: سارة: وهي التي حملت كتابَ حاطب بن أبي بلتعة من المدينة ذاهبة إلى مكة إلى قريش؛ وأعطاهما عشرةً دنانير على أن توصّل الكتاب إلى أهل مكة؛ وكتب في الكتاب: «من حاطب بن أبي بلتعة إلى أهل مكة؛ اعلّموا أن رسول الله ﷺ يريدكم؛ فخذوا حذرکم».

وكانت تؤذي رسولَ الله ﷺ بمكة؛ وتغيّث يوم الفتح حتى استؤمن لها؛ فعاشت حتى أوطأها رجلٌ فرساً له في زمن عمر بن الخطاب بالأبطح فقتلها، وفي فتح الباري في شرح صحيح البخاري: أنها أسلمت.

* * *

وأذن بلال الظُّهْرَ على الكعبة، فقالت جويرية بنت أبي جهل: لقد أكرم الله أبي حين لم يشهد نهيقَ بلال على ظهر الكعبة. وقال الحارث بن هشام: ليتني متُّ قبل هذا. وقال خالد بن أسيد: لقد أكرم الله أبي فلم ير هذا اليوم. فخرج عليهم ﷺ ثم ذكر لهم ما قالوه؛ فقال الحارث: أشهد أنك رسول الله؛ ما أطلع على هذا أحدٌ فنقول أخبرك. فقام علي رضي الله عنه - ومفتاح الكعبة في يده - فقال: يا رسول الله اجمع لنا الحجابة مع السقاية. فقال ﷺ: أين عثمان بن طلحة؟ فدعاه؛ فقال: «هاك مفتاحك يا

(١) ومنه تعلم أن الغناء إنما هو من صناعة الخدم عند العرب.

عثمان؛ إن الله استأمنكم على بيته؛ فكلوا مما يصل إليكم من هذا البيت بالمعروف». وفي رمضان هذه السنة يوم الفتح أسلم أبو قحافة؛ والد أبي بكر رضي الله عنهما. روى أن أبا بكر لما جاء إلى النبي ﷺ بأبيه أبي قحافة لُيْسِلِم، فقال له النبي ﷺ: لم عَنَيْتَ الشيخ، ألا تركته حتى أكون أنا آتية في منزله؟! فقال أبو بكر: بأبي أنت وأمي؛ هو أَوْلَى أن يأتي رسول الله ﷺ. وكانت امرأة أبي قحافة: أم الخير - أم أبي بكر - قد أسلمت قديماً في السنة السادسة من النبوة، واسم أبي قحافة عثمان بن عامر؛ توفي في السنة الرابعة عشرة من الهجرة، في خلافة عمر، بعد وفاة أبي بكر رضي الله عنه بسنة، وكان ابن سبع وتسعين سنة.

قال ابن هشام: وبلغني أن النبي ﷺ حين افتتح مكة ودخلها، قام على الصفا يدعو وقد أهدت الأنصار، فقالوا فيما بينهم: أترون أن رسول الله ﷺ إذا فتح الله عليه أرضه وبلده يقيم بها؟ فلما فرغ من دعائه قال: ماذا قلتم؟ قالوا: لا شيء يا رسول الله. فلم يزل بهم حتى أخبروه، فقال ﷺ: «معاذ الله، المحيا محياكم، والممات مماتكم». قال ابن إسحاق، وكان جميع من شهد فتح مكة من المسلمين عشرة آلاف، وكان فتح مكة لعشر ليال بقين من رمضان سنة ثمان.

واستقرض ﷺ من ثلاثة نفر من قريش: أخذ من صفوان بن أمية رضي الله عنه خمسين ألف درهم، ومن عبد الله بن أبي ربيعة أربعين ألف درهم، ومن حُوَيْطَب بن عبد العزى أربعين ألف درهم فرّقها ﷺ في أصحابه من أهل الضعف، ثم وفّاها مما غنمه من هوازن، وقال: «إنما جزاء السلف الحمد والأداء»^(١).

وأقام رسول الله ﷺ بمكة حين فتحها خمس عشرة ليلة يَقْصُرُ الصلاة؛ ثم خرج إلى هوازن وثقيف، وقد نزلوا حينئذ^(٢).

(١) رواه أحمد، والنسائي، وابن ماجه عن عبد الله بن أبي ربيعة. بلفظ «الوفاء» بدل «والأداء».

(٢) واد قريب من مكة، قبل الطائف، بجنب ذي المجاز، سُمي باسم حنين بن نابتة: رجل من العماليق؛ وكانت به الوقعة المشهورة.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن خزاعة قتلت رجلاً من بني ليث، عام الفتح بقتيل لهم في الجاهلية، فقام رسول الله ﷺ خطيباً بعد الظهر، مسنداً ظهره الشريف إلى الكعبة، فحمد الله وأثنى عليه، وقال: أيها الناس: إن الله قد حبس عن مكة الفيل وسلط عليها رسوله والمؤمنين، ألا وإنها لم تحل لأحد كان قبلي، ولا لأحد يكون بعدي، وإنما أحلت لي ساعة من نهار، ألا وإنها ساعتي هذه، فلا يُنْفَر صيدها، ولا يُخْتَلَى خلاؤها، ولا يُعْضَد شجرها، ولا تحل ساقطتها إلا لمنشد، ومن قُتل له قتيل فهو بخير النظرين؛ إما أن يود أو يقتل، فقال العباس بن عبد المطلب رضي الله تعالى عنه: إلا الإذخر: لصاغتنا ولسقف بيوتنا، قال ﷺ: إلا الإذخر^(١)، ثم ودَى^(٢) رسول الله ﷺ ذلك الرجل الذي قتله خزاعة، وهو ابن الأقرع الهذلي - من بني بكر - فإنه دخل مكة وهو على شركه، فعرفته خزاعة فأحاطوا به، فطعنه منهم خراش بمشقص في بطنه حتى قتله، فلامه ﷺ، وقال: «لو كنت قاتلاً مسلماً بكافر لقتلت خراش»^(٣) - [والمشقص: ما طال من النصال وعرض] - قال ابن هشام: وبلغني أنه أول قتيل وداه النبي ﷺ.

وسرقت امرأة، فأراد ﷺ قطع يدها، ففزع قومها إلى أسامة بن زيد بن حارثة رضي الله عنهم، يستشفعون به، فلما كلمه أسامة فيها تلون وجهه ﷺ، وقال: «أتكلمني في حد من حدود الله تعالى؟!» فقال أسامة: استغفر لي يا رسول الله. ثم قام ﷺ خطيباً، فأثنى على الله بما هو أهله، ثم قال: «أما بعد، فإن ما أهلك الناس قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، والذي نفسُ

(١) وفي رواية: «إن الله حبس عن مكة الفيل وسلط عليها رسول الله ﷺ والمؤمنين، ألا فإنها لم تحل لأحد قبلي، ولا تحل لأحد بعدي، ألا وإنها حلت لي ساعة من نهار، ألا وإنها ساعتي هذه، حرام لا يُخْتَلَى شوكتها، ولا يُعْضَد شجرها، ولا يلتقط ساقطتها، إلا لمنشد، ومن قُتل له قتيل فهو بخير النظرين: إما أن يعقل، وإما أن يقاد أهل القتل» متفق عليه، ورواه الإمام أحمد، وأبو داود.

والخلا: الرطب من الحشيش، أي ولا يؤخذ حتى حشيشها الرطب.

(٢) أعطى دينه

(٣) وقال رسول الله ﷺ: «لا يقتل مسلم بكافر» رواه أحمد والترمذي وابن ماجه عن عبد الله بن عمرو بن العاص، وروى ابن ماجه قوله ﷺ: «لا يقتل مؤمن بكافر، ولا ذو عهد في عهده».

محمد بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها»^(١).

ثم أمر رسول الله ﷺ بالمرأة فُقطعت يدها^(٢).

ثم قام أبو شاه - رجل من أهل اليمن - فقال: اكتبوا إلي يا رسول الله. فقال رسول الله ﷺ: اكتبوا إلي أبي شاه. [قال الأوزاعي: يعني الخطبة التي سمعها من رسول الله ﷺ].

وفي هذه السنة كانت غزوة حنين، وهي: غزوة هوازن.

وحنين اسم واد بقرب الطائف - بينه وبين مكة ثلاث ليال - وتسمى غزوة «أوطاس»^(٣) وهو وادٍ لهوازن.

وسبب غزوة حنين أنه لما فتحت مكة تجمعت هوازن بخيولهم وأموالهم لحرب رسول الله ﷺ، ومقدمهم مالك بن عوف النصري، وانضمت إليهم ثقيف، وهم أهل الطائف، وبنو سعد بن بكر، وهم الذين كان النبي ﷺ مرتضعاً عندهم^(٤)، وحضر بنو جشم، وفيهم دريد بن الصمة، وقد جاوز المائة لرأيه، وقال رجلاً:

يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعٌ أَحْبُّ فِيهَا وَأَضَعُ

فلما سمع النبي ﷺ باجتماعهم، خرج من مكة لست خلون من شوال سنة ثمان من الهجرة، وكان يقصر الصلاة بمكة من يوم فتحها إلى خروجه هذا، وخرج معه اثنا عشر ألفاً؛ ألفان من أهل مكة، والعشرة آلاف التي كانت معه وفتح الله بها مكة، وانتهى إلى حنين، والمشركون بأوطاس، وقال رجل من المسلمين - لما رأى كثرة جيش المسلمين -: لن يغلب هؤلاء من قلة، وفي ذلك نزل قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ

(١) وحاشاها أن تفعل، ولكنه مثال ضربه رسول الله ﷺ في أن الحدود لا يُعفى منها أحد، ولو كان المحدود ابن الحاكم المؤتمر بأوامر الله لأقام عليه الحد كما فعل عمر بن الخطاب مع ابنه. وبهذا تستقيم الأمور، ويلتزم كل إنسان حده؛ لأنها أحكام الله، لا أحكام البشر.

(٢) هي امرأة من بني مخزوم، والحديث في الصحيحين وأغلب كتب الحديث.

(٣) واد في ديار هوازن، فيه كانت وقعة حنين. (كذا في المراسد).

(٤) قوم حليلة السعدية أم النبي ﷺ من الرضاعة رضي الله عنها.

كَثُرْتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا ﴿[التوبة: ٢٥] فلما التقوا انهزم المسلمون، لا يلوي أحد على أحد، وانحاز رسول الله ﷺ ذات اليمين في نفر من المهاجرين والأنصار وأهل بيته، واستمر ﷺ ثابتاً، وتراجع المسلمون^(١) واقتتلوا قتالاً شديداً، وقال النبي ﷺ لبغلته الدلدل «البدي البدي» فوضعت بطنها على الأرض، وأخذ حفنة من تراب فرمى بها في وجه المشركين، وقال: «شاهت الوجوه» (أي خضعت وذلت) فلم تبق عين إلا دخل فيها من ذاك التراب، فكانت الهزيمة عليهم، ونصر الله المسلمين، وأنزل الله تعالى ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ [الأنفال: ١٧] وقال عليه الصلاة والسلام: «أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب»^(٢) وهذا يدل على كمال شجاعته وتمام صولته وقوته ﷺ؛ إذ في هذا اليوم الشديد اختار ركوب البغلة التي ليس لها كَرٌّ ولا فَرٌّ، كما يكون للفرس، ومع ذلك توجه نحو العدو وحده، ولم يُخَفِ صفته ونسبه، وما هذا كله إلا لوثوقه بالله وتوكله عليه، وليس قوله ﷺ: «أنا النبي لا كذب» إلى آخره من الشعر؛ لأن شرطه، كما تقدّم في بناء المسجد الشريف، أن يكون عن قصد وروية، وإنما قال ﷺ: أنا ابن عبد المطلب، ولم يقل أنا ابن عبد الله؛ لأن العرب كانت تنسبه ﷺ إلى جده عبد المطلب لشهرته، ولموت عبد الله في حياته، فليس من الافتخار بالآباء الذي هو من عمل الجاهلية، كما تقدّم في قوله ﷺ: «أنا ابن العواتك»^(٣).

واستشهد من المسلمين أربعة، وقُتل من المشركين أكثر من سبعين قتيلاً، وأفضى المسلمون في القتال إلى الذرية، فنهاهم عن ذلك، ونادى مناديه: «مَنْ قَتَلَ قَتِيلًا فَلَهُ سَلْبُهُ»^(٤).

(١) أي إلى رسول الله ﷺ.

(٢) متفق عليه، ورواه الإمام أحمد، والنسائي عن البراء.

وللحديث روايات أخرى، منها: «أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب، أنا أعرب العرب، ولدتني قريش، ونشأت في بني سعد بن بكر، فأنتي يأتيني اللحن» رواه الطبراني عن أبي سعيد.

(٣) ولفظ الحديث كما رواه سعيد بن منصور الطبراني: «أنا ابن العواتك من سليم».

(٤) وفي لفظ: «من قتل كافراً فله سلبه» متفق عليه، ورواه أبو داود، والترمذي عن قتادة، وأحمد وأبو داود عن أنس، وأحمد وابن ماجه عن سمرة.

ولما فرغ ﷺ من حُنين بعث عبيداً [أبا عامر الأشعري] لغزوة أوطاس لطلب دريد ابن الصَّمة وأصحابه، فهزَّمهم وقتلهم، واستشهد أبو عامر رضي الله عنه بعد قتله جماعة منهم، وكان في السبي الشيماء أخته ﷺ من الرضاعة، واسمها «حذافة»، وإنما غلب لقبها، فلا تعرف في قومها إلا به^(١).

ولما هَزَمَ رسولُ الله هوازنَ، وأمر بطلبهم، قال لجيشه: «إِنْ قدرتم على بجاد - رجل من بني سعد - فلا يفلتنَّ منكم»، فأخذته الخيل وضمَّموه إلى الشيماء بنت الحارث (ويكنى أبا ذؤيب كما يكنى بأبي كبشة) أخت للنبي ﷺ، وأنعبوهم في السباق، وتعبت الشيماء بتعبهم، فجعلت تقول: والله أخت صاحبكم، فلم يصدِّقوها، فأخذها طائفة من الأنصار، وكانوا أشدَّ الناس على هوازن، فأتوا بها إلى رسول الله ﷺ، فقالت: يا محمد إني أختك، فقال رسول الله ﷺ: وما علامة ذلك؟ فأرته عضةً بإبهامها، وقالت: هي عضضتنيها وأنا متوركة بوادي السدر ونحن يومئذ نرعى بهُمَ أبيك وأبي، وأمك وأمي، وتذكَّر يا رسول الله حلابي لك عنز أبيك. فعرف رسول الله العلامة فوثب قائماً فبسط رداءه، ثم قال: اجلسي عليه، ورحَّب بها، ودمعت عيناه، وسألها عن أمه وأبيه فأخبرته بموتهما^(٢) ثم قال: إِنْ أحببت فأقيمي عندنا محبَّة مكرَّمة، وإِنْ أحببت أن ترجعي إلى قومك وصلتكِ ورجعتِ إلى قومك» قالت: بل أرجع إلى قومي. فأسلمت وأعطاه رسولُ الله ﷺ ثلاثة أعبد وجارية، وأمر لها ببعير أو بعيرين، وسألها من بقي منهم، فأخبرته بأخيها وأختها وبعمها، وأخبرته بقوم سألها عنهم، ثم قال: «ارجعي إلى الجعرانة تكونين مع قومك، فإني أمضي إلى الطائف». فرجعت إلى الجعرانة، ووفاها

(١) واسمها حذافة (بالحاء المهملة)، ويقال: حذافة (بالجيم والذال المعجمتين) بنت الحارث، ولقبها «الشَّيماء» أو الشَّماء، وقد أكرمها رسول الله ﷺ حين جاءت مسلمة، فهي أخت النبي ﷺ من الرضاعة، وصحابية جلييلة رضي الله عنها.

(٢) كون أبيه وأمه من الرضاع ماتا قبل ذلك غير صحيح؛ لأن حليمة السعدية رضي الله عنها (أم النبي ﷺ من الرضاع) جاءت إلى النبي ﷺ يوم حنين أيضاً فقام لها النبي ﷺ وبسط لها رداءه، وأسلمت. وروى حديث الرضاعة عنها: أبو يعلى، وابن حبان في صحيحه، وفي «السيرة الكبرى» لابن إسحاق، ورواه أبو داود، وابن منده وغيرهم، وصَرَّحُوا فيه برواية عبد الله بن جعفر عنها، وأبوه من الرضاع أيضاً أسلم بعد انتقال النبي ﷺ، أسلم وحسن إسلامه.

رسول الله ﷺ بالجعرانة، فأعطاهما نَعَمًا وشاء، وكَلَّمته في بجاد: أن يهبه لها ويعفو عنه، ففعل ﷺ.

وقد سبق بعض ذلك في الفصل الأول من الباب الأول من المقالة الخامسة من الجزء الثاني.

وورد في الحديث النبوي أنه ﷺ خرج وهو محتضن أحد ابني ابنته رضي الله عنها وهو يقول: «إنكم لتُجَبَّنون وتُجَلَّلون، وتُجَهَّلون، وإنكم لمن ريحان الله، وإن آخر وطأة^(١) وطئها الله بوج^(٢)» انتهى.

قال العلماء: إن هذا الحديث من خَفِيِّ التعريض وغامضه؛ فإن «وج» واد من الطائف، و«حنين» واد قبله، فأراد رسول الله ﷺ غزاة حنين؛ لأن غزوة حنين آخر غزوة أوقع بها رسول الله ﷺ مع المشركين، وأما غزوتنا الطائف وتبوك اللتان بعد حنين فلم يكن فيهما وطأة، أي قتال، وإنما كانتا مجرد خروج إلى الغزوة من غير ملاقات عدو ولا قتال، ووجه عطف هذا الكلام، وهو قوله ﷺ «وأن آخر وطأة وطئها الله بوج» على ما قبله من الحديث، وهو التأسف على مفارقة أولاده لقرب وفاته؛ لأن غزوة حنين كانت في شوال سنة ثمان، ووفاته كانت في ربيع الأول من سنة إحدى عشرة، وبينهما سستان ونصف، فكأنه قال: وإنكم لمن ريحان الله أي من رزقه، وأنا مفارقكم عن قريب، إلا أنه صانع عن قوله: وأنا مفارقكم عن قريب» على سبيل التعريض بقوله «وإن آخر وطأة وطئها الله بوج» إشارة لما أَراده وقصده من قرب وفاته، بحصول الغزوة المؤزرة.

(١) الوطأة: الضغطة، كما في الحديث الشريف «اللهم اشد وطأتك على مضر» وفي «المقاصد الحسنة» للسخاوي، ما لفظه: «ومن حديث عمر بن عبد العزيز قال: «زعمت المرأة الصالحة خولة بنت حكيم أن رسول الله ﷺ خرج وهو محتضن حسنًا وحسينًا، وهو يقول: «إنكم لتُجَبَّنون وتُجَلَّلون، وإنكم من ريحان الله» وفيه بحث جيد فانظر ص ٤٥٣.

(٢) «وج» واد بالطائف كانت به غزاة للنبي ﷺ اهـ. مراد.

وفيهما توفيت زينب. وفيها غلا السعر، فقالوا: سَعَرْنَا^(١).

وفيهما وُلد إبراهيم ابن النبي عليه الصلاة والسلام.

وفيهما مات حاتم الطائي، وكان شاعرًا مجيدًا يُضرب بجوده المثل.

وقيل: مما ورد أن الذين تأسَف عليهم النبي ﷺ في زمن الفترة كانوا أربعة: الأول: الملك أنوشروان لعدله، والثاني: أبو طالب عم النبي ﷺ لبرِّه، والثالث: حاتم الطائي لكرمِه، والرابع: امرؤ القيس لشعره^(٢).

ففي غزوة حنين وسرية أوطاس وقع من إعلاء كلمة الله وإظهار شوكة الإسلام ما لا مزيد عليه، ونال فيها كثير من المسلمين أجر الشهادة، وانهمزت ثقيف إلى الطائف، وكان هذا سبب غزوة الطائف.

وفي هذه السنة كانت غزوة الطائف: والطائف بُليدة كثيرة الفواكه، وهي أبرد مكان بالحجاز، وربما جمد الماء في ذروة الجبل التي هي على ظهره، وأكثر ثمرها الزبيب، وهي طيبة الهواء ينتجع إليها أغنياء مكة أيام الصيف لذلك، وسبب هذه الغزوة أنه لما انهزمت ثقيف من حنين إلى الطائف، وأغلقوا مدينتهم، سار النبي ﷺ وحاصرهم نيفًا وعشرين يومًا، وقاتلهم بالمنجنيق، ودخل نفر من المسلمين تحت دبابة (بدال

(١) فقال النبي ﷺ: «إنا الله هو المسعر القابض الباسط الرازق، وإنني لأرجو أن ألقى الله وليس أحد منكم يطالبني بمظلمة في دم ولا مال» رواه الإمام أحمد وأبو داود، والترمذي، وابن ماجه، والدارمي، والبخاري، وأبو يعلى. وصحح الحديث ابن حبان والترمذي.

(٢) لو أنه ورد فيه عن النبي ﷺ شيء لكان على العين والرأس، ولكنه قيل على الظن، ولذلك قال الحلبي رحمه الله تبارك وتعالى: «إطلاق العادل عليه لتعريفه بالاسم الذي كان يدعى به، لا لوصفه بالعدل والشهادة له بذلك، بناء على اعتقاد المعتقدين فيه» إلى أن قال: «ولا يجوز أن يسمى رسول الله ﷺ من لم يحكم بغير حكم الله عادلاً» اهـ.

وأما امرؤ القيس فقال فيه عليه الصلاة والسلام: «امرؤ القيس صاحب لواء الشعراء إلى النار» رواه الإمام أحمد، وقال أيضًا: «امرؤ القيس قائد لواء الشعراء إلى النار؛ لأنه أحكَم قوافيها» رواه أبو عروبة في الأوائِل، وابن عساكر. ومن المعروف أن أهل الفترة ناجون إلا جماعة ذكرهم رسول الله ﷺ بالاسم منهم امرؤ القيس، ومن المعروف أن امرؤ القيس كان رجل خمر ونساء، وذو لسان مقذع في وصف النساء، مما كان يهيج العرب ويوقع بعضهم ببعض، والله تعالى أعلم.

مهملة وباءين موحدتين بينهما ألف لينة آخرها هاء: آلة تتخذ للحروب، فتدفع في أصل الحصن، فينقبون وهم في جوفها) ودنوا إلى سور الطائف، فصبّوا عليهم سلك الحديد المحمي ورموهم بالنبل، فأصابوا منهم قومًا، وأمر ﷺ بقطع أعنابهم، ثم رحل عنهم ونزل بالجعرانة، واجتمعت فيها الغنائم، وأتى إليه بعض هوازن ودخلوا عليه يستعطفونه، وقالوا: قد أصابنا من البلاء ما لا يخفى عليك، وإنّ فيمن أصبتهُم الأمهات والأخوات، والعمات والخالات (يريدون: عماتك وخالاتك وحواضنك اللاتي كن يكفلنك لأن مرضعته ﷺ من هوازن) ونرجو عطفك. فقال ﷺ: «إنّ أحسن الحديث أصدقه؛ أبناؤكم ونسأؤكم أحب إليكم أم أموالكم؟ فاخاروا إحدى الطائفتين، إما السبي وإما المال»، فقالوا: ما كنا نعدل بالأحساب شيئًا، اردد علينا نساءنا وأبنائنا، فهو أحب إلينا ولا نتكلم في شاة ولا بعير. فردّ عليهم نصيبه ونصيب بني عبد المطلب، قائلاً: «أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم، وإذا أنا صليت الظهر بالناس فقوموا وقولوا: إنّنا نستشفع برسول الله إلى المسلمين، وبالمسلمين إلى رسول الله في نساءنا وأبنائنا، فسأعطيكم عند ذلك وأسأل لكم، فلما صلّى رسول الله ﷺ الظهر قاموا إليه فتكلموا بالذي أمرهم به، فقال رسول الله ﷺ بعد أن أثنى على الله بما هو أهله: «أما بعد فإن إخوانكم هؤلاء جاءوا تائبين، وإنّي رأيتُ أن أردّ إليهم سببهم فمن أحبّ أن يطيب بذلك فليفعل، ومن أحبّ منكم أن يكون على حظّ حتى نعطيه إياه من أول ما يفيء الله علينا فليفعل، هؤلاء القوم جاءوا مسلمين، وقد خيّرْتهم فلم يعدلوا بالأبناء والنساء شيئًا، فمن كان عنده من النساء سبي وطابت نفسه أن يرده فليرده»، قال الناس: رضينا وسلّمنا. فردّوا عليهم نساءهم وأبنائهم، ثم لحق مالك بن عوف مقدّم هوازن برسول الله ﷺ، فأسلم وحسن إسلامه، واستعمله في قومه وعلى من أسلم من تلك القبائل، وكانت عدة السبي الذي أطلقه ستة آلاف.

وروي أن رسول الله ﷺ لما عُرض عليه سبي هوازن، كان ممن عرض عليه بنت حاتم الطائي، فقالت: يا رسول الله أنا بنت من كان يحمل الكلّ (أي الشيء الذي

يحصل منه التعب) ويُكسب المعدوم (أي يعطيه له تبرعاً) ويعين على نوائب الزمان، أنا بنت حاتم الطائي. فمنَّ عليها ﷺ وردَّ لها مالها: وقال: «أكرموا عزيزَ قوم ذلٍّ، وغنيَّ قوم افتقر»، فقالت: يا رسول الله وصويحباتي؟ فقال: «وصويحباتك، كريمة بنت كريم» فقالت: يا رسول الله، أأذن لي أن أدعو لك بدعوات؟ فأذن لها، وقال لأصحابه: أنصتوا وعوا، فقالت: «شكرتك يد افتقرت بعد غنى، ولا ملكتك يد استغنت بعد فقر، وأصاب الله بمعروفك مواضعه، ولا جعل لك إلي لئيم حاجة، ولا سلبت نعمة عن كريم إلا وجعلت سبباً لردّها، وحسبك هذا في اصطناع المعروف وإغاثة الملهوف. وقد سبق التنويه إلى ذلك في الفصل الثاني من الباب الخامس من المقالة الخامسة من الجزء الثاني من هذا التاريخ.

قال القاضي محمد بن سلامة القضاعي في كتاب «الأنباء»: كان بها من السبايا ستة آلاف، ومن الإبل والغنم ما لا يُدرى عدده، واستعمل أبا الجهم بن حذيفة بن غانم القرشي على النفل (أي الغنيمة) يوم حنين.

وذكر ابن الأثير في «الكامل» في أخبار يوم حنين أن رسول الله ﷺ أمر بالسبايا والأموال فجُمعت إلى الجعرانة (وهي ما بين الطائفة ومكة) وجعل عليها بديل بن ورقاء الخزاعي، انتهى.

وبالجعرانة قسَّم رسول الله ﷺ هذه الغنائم.

وقيل: كانت عدَّة الإبل أربعة وعشرين ألفاً، والغنم أكثر من أربعين ألف شاة، ومن الفضة أربعة آلاف أوقية، وأعطى المؤلِّفة قلوبهم مثل: أبي سفيان وابنيه (يزيد ومعاوية) وسهل بن عمرو، وعكرمة بن أبي جهل، والحارث بن هشام (أخا أبي جهل)، وصفوان ابن أمية، وغيرهم من قريش، وكذلك أعطى الأقرع بن حابس التميمي، وعيينة بن حصن، ومالك بن عوف مُقدِّم هوازن، فأعطى لكل واحد من الأشراف مائة من الإبل، وأعطى الآخرين أربعين أربعين، وأعطى العباس بن مرداس السلمي أباعر لم يرضها، وقال في ذلك أبياتاً:

أتجعلُ نهبي ونهبَ العُبيِّ — مد بين عينة والأقـرِعِ
وما كان حصنٌ ولا حابس — يفوقان مرداسَ في مَجْمَعِ
وما كنتُ دونَ امرئٍ منهما — ومَن تَصَعِ اليومَ لم يُرْفَعِ
أي ومَن تخفضه بعدم الإعطاء لا يرتفع بعد ذلك، والعُبيد بضم العين اسم فرسه.
ويروى أن النبي ﷺ قال: «اقطعوا عني لسانه»^(١) فأعطي حتى رَضِيَ، ومدح النبي ﷺ فقال:

رأيتُك يا خَيْرَ البرِيَّةِ كُلِّها — نشرتَ كتابًا جاء بالحق معلما
شَرَعْتَ لنا دينَ الهُدَى بَعْدَ حَوْدِنا — عن الحق لَمَّا أصبح الحق مظلما
فمن مبلغُ عَنِّي النَّبيِّ مُحَمَّدًا — وكل امرئٍ يُجْزَى بما كان قَدَمًا
أَقَمْتَ سبيلَ الحق بعد اعوجاجه — وكان قديمًا ركنه قد تهدمًا
تعالى علوًّا فوق عرشِ إلهنا — وكان مكانُ الله أعلى وأعظمًا
ويقال إنه أنشد هذه الأبيات وامتدح بها النبي ﷺ فأعطاه خَلَّةً قطع بها لسانه، أي بقية من الغنيمة.

ولما فَرَّق رسول الله ﷺ الغنائم ولم يُعْطِ الأنصار من ذلك شيئًا، وَجَدُوا في أنفسهم^(٢)، فدعاهم ﷺ فقال: «إن قريشًا حديثو عهد بالجاهلية، أما ترضون أن يرجع الناس بالدنيا، وترجعون برسول الله ﷺ إلى بيوتكم؟ قالوا: بلى، قال رسول الله ﷺ: «لو سلك الناس واديًا وسلكت الأنصارُ شِعْبًا لسلكْتُ شِعْبَ الأنصار»^(٣)، اللهم ارحم

(١) هذا من ألطف الكنايات وأجملها، إذ معناه أنه يقول لهم: سدوا حاجته حتى لا يسأل بلسانه مرة أخرى، وفيه دعوة إلى أدب استعمال اللفظ.

(٢) أي حزنوا في أنفسهم، وليست من موجدة الغضب: معاذ الله.

(٣) ولفظ الترمذي - كما جاء في الفتح الكبير - «إن قريشًا حديثو عهد بجاهلية ومصيبة، وإنني أردتُ أن أحبهم وأتألفهم، أما ترضون أن يرجع الناس بالدنيا وترجعون برسول الله ﷺ؟ لو سلك الناس واديًا أو شِعْبًا لسلكت وادي الأنصار وشِعْبهم».

الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار»^(١).

ويومئذ قال ذو الخويصرة «من تميم»: لم تعدل هذه القسمة، ولا أريد بها وجه الله، فقال ﷺ: «سيخرج من ضئى (أي أصل) هذا الرجل قوم يخرجون من الدين كما يخرج السهم من الرمية، لا يجاوز إيمانهم تراقيهم، فخرج منه حرقوص بن زهير البجلي المعروف بذي الثدية؛ لأن في رأس عضده مثل حلمة الثدي، عليه شعرات بيض أول من بويع من الخوارج بالإمامة، وأول مارق من الدين.

والخوارج قوم يكفرون مرتكب الكبيرة، ويحكمون بحبوط عمل مرتكبها، وتخليده في النار، ويحكمون بأن دار الإسلام تصير بظهور الكبائر فيها دار كفر، ولا يصلون جماعةً.

ثم اعتمر ﷺ من الجعرانة، وعاد إلى المدينة، واستخلف على مكة عتاب بن أسيد ابن أبي العيص بن أمية، وهو شاب لم يبلغ عشرين سنة، وترك معه معاذ بن جبل يفقه الناس، فحجَّ بالمسلمين هذه السنة عتاب المذكور، وهو أول أمير أقام حج الإسلام، وكان عليه الورع والزهد، وحجَّ المشركون على مشاعرهم.

وفي هذه السنة أسلم عروة بن مسعود الثقفي رضي الله عنه، وكان من حديث ثقيف: أن رسول الله ﷺ لما انصرف عنهم عن الطائف اتبع أثره عروة بن مسعود حتى أدركه قبل أن يصل إلى المدينة، فأسلم، وسأله أن يرجع إلى قومه بالإسلام، فقال له رسول الله ﷺ: «إنهم قاتلوك» فقال عروة: يا رسول الله، أنا أحب إليهم من أبصارهم. وكان فيهم كذلك مُحِبًّا مطاعاً، فخرج يدعو قومه إلى الإسلام رجاء أن لا يخالفوه لمنزلته فيهم، فلما أشرف لهم على عُلْيَةٍ^(٢) له وقد دعاهم إلى الإسلام، وأظهر لهم دينه، رموه بالنبل من كل جهة، فأصابه سهم فقتله، فقيل له: ما ترى في دمك؟ قال: كرامة أكرمني الله بها، وشهادة ساقها الله إليّ فليس فيّ إلا في الشهداء الذين قُتلوا مع

(١) رواه ابن ماجة بلفظ «رحم الله» والباقي سواء.

(٢) العُلْيَة: الغرفة، وجمعها: العلالي.

رسول الله ﷺ قبل أن يرحل عنكم، فادفنوني معهم. فزعموا أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ مَثْلَهُ فِي قَوْمِهِ كَمَثَلِ صَاحِبِ يَسَ فِي قَوْمِهِ».



الفصل التاسع

في ظواهر السنة التاسعة وما فيها من الغزوات

وفي هذه السنة كانت غزوة تبوك، وهي آخر غزواته، وتبوك [بفتح التاء المثناة الفوقية وضم الباء الموحدة وسكون الواو وبعدها كاف] في طرف الشام من جهة القبلة، بينها وبين المدينة المشرفة نحو أربع عشرة مرحلة، سُميت الغزوة بعين تبوك، وهي العين التي أمر رسول الله ﷺ أن لا يمَسُّوا من مائها شيئاً حتى يأتي ﷺ إليهم، وذلك أن رسول الله ﷺ قال: «إنكم ستأتون غداً إن شاء الله تعالى عين تبوك، وإنكم لن تأتوها حتى يضحي النهار، فمن جاء بها فلا يمَسُّ من مائها شيئاً حتى آتي»، قال معاذ: فجنَّناها وقد سبقنا إليها رجالان من المنافقين، والعينُ مثل الشراك تبصُّ بشيء قليل من الماء، فسألهما النبي ﷺ: هل مَسَسْتُمَا من مائها شيئاً؟ فقالا: نعم، فقال لهما ما شاء الله أن يقول، ثم أمر برفع ماء منها، فرفعوا له من تلك العين قليلاً، حتى اجتمع شيء، ثم غسل ﷺ فيه وجهه ويديه، ثم أعاده فيها، فجاءت العين بعد ذلك بماء كثير ببركة النبي ﷺ، فاستقى الناس وكفاهم.

ويقال لها غزوة العُسرة، سُميت بذلك لوقوعها في زمن الحر، والبلاد مجدبة والناس في عُسر، ويقال لها: الفاضحة؛ لافتضاح المنافقين فيها.

وحض ﷺ من عنده من المسلمين على الجهاد، ورغبهم فيه، وأمرهم بالصدقة، فجاءوا بصدقات كثيرة، وكان أول من جاء بها أبو بكر، جاء بماله كله [أربعة آلاف

درهم] وجاء عمر بنصف ماله، وجاء العباس بن عبد المطلب بمال كثير، وجاء طلحة بمال، وجاء عبد الرحمن بن عوف بمائتي أوقية من الفضة، وجاء سعد بن عبادة بمال، وجاء محمد بن مسلمة بمال، وجاء عاصم بن عدي بتسعين وسقاً من تمر، وجهز عثمان بن عفان ثلث ذلك الجيش، وكفاهم مؤنتهم، فقال رسول الله ﷺ: «ما يضر عثمان بن عفان ما فعل بعد اليوم»^(١).

وسار ﷺ إلى تبوك، واستخلف علياً رضي الله عنه على المدينة، وعلى عياله، فقال علي: أتخلفني في الصبيان والنساء؟! قال: «ألا ترضي يا علي أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى؟ غير أنه لا نبي بعدي»^(٢). وليس المراد من هذا الحديث أن جميع المنازل الثابتة لهارون من موسى سوى النبوة ثابتة لعلي من النبي ﷺ، وإلا لما صح الاستثناء [كما تزعم الشيعة والرافضة] مستدلين به على استحقاقه الخلافة بعده ﷺ، بل المراد أن علياً خليفة عن النبي ﷺ مدة غيبته بتبوك، كما كان هارون خليفة عن موسى مدة غيبته للمناجاة، وأما الاستثناء فمقطع، والمعنى: لكنك لست نبياً كهارون؛ لأنه لا نبي بعدي، ولكن سلم أن الحديث يعمُ المنازل كلها فهو عام مخصوص؛ إذ من منازل هارون كونه أخاً نبي^(٣)، والعام المخصوص غير حجة في الباقي، أو حجة ضعيفة على الخلاف^(٤).

(١) وأخرجه الترمذي وأحمد بلفظ: «ما على عثمان بعد هذه؟» (كررها مرتين)، كذا في الرياض.

(٢) رواه مسلم والترمذي عن سعد، والترمذي عن جابر، ورواه أبو حاتم وابن إسحاق، والحافظ الدمشقي في معجمه بمعناه، والسلفي في النسخة الدمشقية.

(٣) وأيضاً فإنه أرسل كما أرسل موسى صلى الله على نبينا وعليه وسلم.

(٤) بل هو حجة قوية؛ لأن عموم اللفظ أشمل من خصوص المسبب، أما عن زيادة سيدنا هارون، فهي بالنسبة للرسالة، وهذا أمر لا يجادل فيه أحد، وباء التشبيه، أو كاف التشبيه في قوله: «بمنزلة» أو «كمنزلة» تفيد وجه شبه ما، إلا أنه ليس تاماً، ومن أوجه الشبه أنه أخوه، وإن كان ابن عمه؛ لأنه عاش معه عيشة الأخ الكامل الأخوة، وقول رسول الله ﷺ: «إن الله جعل ذرية كل نبي في صلبه وجعل ذريتي في صلب علي» فيه إشارة واضحة على الاتحاد الكامل في الأصل، والفرقة في الشخص فقط... ولقد بلغ الأمر أن الرسول ﷺ هو الذي سمى حسناً وحُسَيْنًا ومُحَسَّنًا، على أسماء أولاد هارون عليه الصلاة والسلام: «شَبِيرًا وشَبِيرًا ومُشَبَّرًا» وقال في الحسين رضي الله عنه: «فيه لغة ورثها من عمه موسى» فمن أين يأتي الميراث إذا لم يكن هناك شبه يكاد يكون كاملاً؟! والله تعالى أعلم.

وكان مع النبي ﷺ ثلاثون ألفاً، وكانت الخيل عشرة آلاف، وتخلف عبد الله بن أبي المنافق [ومن تبعه من أهل النفاق، وتخلف ثلاثة من الصحابة، وهم: كعب بن مالك، ومُرارة بن الربيع، وهلال بن أمية، ولم يكن لهم عذر، ثم رجع النبي ﷺ إلى المدينة بعد أن أقام بتبوك بضعة عشرة ليلة لم يجاوزها، وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فركع فيه ركعتين، ثم يجلس الناس، فلما فعل ذلك جاء المتخلفون فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون، وكانوا فوق الثمانين رجلاً، فتقبل منهم النبي ﷺ علانيتهم واستغفر لهم، ووكل سرائرهم إلى الله تعالى. ثم جاءه كعب بن مالك، وكان قد تقدمه مرارة بن الربيع، وهلال بن أمية، فسألهم عن سبب تخلفهم، فاعترفوا أن لا عذر لهم، فأمرهم بالمضي حتى يقضي الله فيهم، ونهى ﷺ عن كلامهم من بين من تخلف عنه، فاجتنبهم الناس، وضاعت عليهم الأرض بما رحبت، فلبثوا على ذلك خمسين ليلة، ولما مضت أربعون ليلة من الخمسين أمرهم النبي ﷺ باعتزال نسائهم، وجاءت امرأة هلال إليه ﷺ لتستأذنه في خدمة هلال، فأذن لها من غير أن يقربها. فلما مضت خمسون ليلة من حين النهي عن كلامهم نزلت توبتهم، فأخبر النبي ﷺ بتوبة الله عليهم، وذهب الناس يبشرونهم، وجاء كعب إلى النبي ﷺ وهو^(١) يبرق وجهه من السرور، فقال له ﷺ: أبشّر بخير يوم مرّ عليك منذ ولدتك أمك، فقال: أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله عز وجل؟ فقال: بل من عند الله عز وجل. وأنزل الله على رسوله ﷺ ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ﴾ [التوبة: ١١٧] إلى قوله تعالى: ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩]. قال كعب: فوالله ما أنعم الله عليّ نعمة قط بعد أن هداني للإسلام أعظم في نفسي من صدقي لرسول الله ﷺ، وأن أكون كذبتّه فأهلك كما هلك الذين كذبوه، فإن الله تعالى قال للذين كذبوا حين أنزل الوحي: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ٩٥] إلى قوله تعالى: ﴿فَاتَّكَأَ اللَّهُ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾.

[التوبة: ٩٦].

(١) الضمير يرجع إلى النبي ﷺ.

وأما ما ورد «هَجَرُ المسلم أخاه فوق ثلاثة أيام حرام»^(١) محله إذا كان لحظوظ النفس أو لتعلقات الدنيا، وأما إذا كان المهجور مبتدعاً أو متجاهراً بالفسق ونحو ذلك فلا تحرم هجرته، لما ثبت من هَجَرِ النبي ﷺ الثلاثة الذين خُلِفوا^(٢).

ولم يجاوز ﷺ «تبوك»، حيث استشار أصحابه في مجاوزتها، فقال له عمر رضي الله عنه: «إِنْ كُنْتَ أَمَرْتَ بِالسَّيْرِ فَسِرْ، فَقَالَ ﷺ: «لَوْ أَمَرْتُ بِالسَّيْرِ لَمْ أُسْتَشْرِكْ فِيهِ» فقال: يا رسول الله: إِنْ لِلرُّومِ جَمُوعًا كَثِيرَةً، وَلَيْسَ بِهَا أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ، وَقَدْ دَنَوْنَا، وَقَدْ أَفْرَعَهُمْ دَنُوكَ، فَلَوْ رَجَعْنَا هَذِهِ السَّنَةَ حَتَّى نَرَى أَنْفُسَنَا أَوْ يُحْدِثَ اللَّهُ أَمْرًا. وَهَذَا تَصْرِيحٌ بِأَنْ تَبُوكَ لَمْ يَقَعْ فِيهَا مَقَاتِلَةٌ، وَلَا حَصْلٌ فِيهَا غَنِيمَةٌ، وَإِنَّمَا أَتَاهُ ﷺ وَهُوَ بِهَا «يُحَنَّةٌ» (بِضْمِ الْمَثْنَاءِ تَحْتَ، وَفَتْحِ الْحَاءِ الْمَهْمَلَةِ ثُمَّ نُونٌ مُشَدَّدَةٌ مُفْتُوحَةٌ، ثُمَّ تَاءُ التَّائِيثِ) «ابْنُ رُوبَةٍ» (بِالْمَوْحَدَةِ) صَاحِبُ «أَيْلَةٍ»^(٣) وَصُحْبَتُهُ أَهْلُ «جَرْبَاءَ» تَأْنِيثُ أَجْرَبٍ، يُمَدُّ وَيُقْصَرُ، قَرْيَةٌ بِالشَّامِ، وَأَهْلُ (أَذْرُحِ)^(٤) بِالذَّالِ الْمَعْجَمَةِ السَّاكِنَةِ وَالرَّاءِ الْمَهْمَلَةِ الْمَضْمُومَةِ وَالْحَاءِ الْمَهْمَلَةِ (مَدِينَةُ تَلْقَاءِ السَّرَاةِ) وَ «أَهْلُ مِينَا»، وَأَهْدَى «يُحَنَّةٌ» رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَغْلَةً بَيْضَاءَ، فَكَسَاهُ ﷺ بَرْدًا، وَهِيَ الْبُرْدَةُ الَّتِي كَانَتْ عِنْدَ خَلَفَاءِ بَنِي الْعَبَّاسِ، اشْتَرَاهَا مِنْ أَهْلِ (أَيْلَةٍ)^(٥) أَبُو الْعَبَّاسِ السَّفَّاحُ بِثَلَاثِمِائَةِ دِينَارٍ، وَكَانَتِ الَّتِي

(١) ورواية مسلم عن ابن عمر: «لا يحل لمؤمن أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام». وروى ابن نافع رحمه الله قوله عليه الصلاة والسلام: «هَجَرُ الْمُسْلِمِ كَسْفُكَ دَمَهُ». وروى الإمام أحمد والبخاري ومسلم وأبو داود والترمذي: «لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليالٍ، يلتقيان فيصعد هذا ويصعد هذا، وخيرُهما الذي يبدأ بالسلام» وفي رواية... «لا يحل لمؤمن أن يهجر أخاه فوق ثلاث، فإن مرت به ثلاث، فليأته فليسلم عليه، فإن ردَّ السلام فقد اشتركا في الأجر، وإن لم يردَّ السلام فقد باء بالإثم» رواه أبو داود. وفي رواية: «لا يحل لمؤمن أن يهجر أخاه فوق ثلاث» فمن هجر فوق ثلاث فمات دخل النار.

(٢) إن النبي ﷺ قَبْلَ مَنْ قَبْلَ، وَلَمْ يَقْبَلْ مِنْ هَؤُلَاءِ الثَّلَاثَةِ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَزَلُوا عِنْدَهُ ﷺ، فَأَرَادَ أَنْ يُؤَدِّبَهُمْ أَدَبًا خَاصًّا، إِسْلَامِيًّا صَرَفًا، لَا لِقَصْدِ الْهَجْرِ، فَهَجَرُ الْمُسْلِمِ لِأَمْرِ مِنَ الْأُمُورِ الدُّنْيَوِيَّةِ هُوَ الْمَذْمُومُ، أَمَا إِنْ كَانَ لِأَجْلِ الدِّينِ فَهُوَ الْمَطْلُوبُ.

(٣) مدينة على ساحل بحر القلزم (البحر الأحمر) مما يلي الشام، وهي آخر الحجاز وأول الشام.

(٤) بلد من أعمال عمان، بالبلقاء من أرض الشام، قرب السراة من ناحية الحجاز.

(٥) بضم الراء، بلد في أطراف الشام من أعمال الشراة، من نواحي بلقان وعلان.

اشتراها معاوية من ذرية كعب بن زهير، فُقدت عند زوال دولة بني أمية^(١). وقد تقدم في غزوة فتح مكة أن بردة النبي ﷺ التي خلعها على كعب بن زهير جائزة على قصيدته المشهورة، قد اشتراها معاوية من ذريته، ثم فقدت بزوال بني أمية، بخلاف هذه. فليراجع في محله^(٢).

فصالح النبي ﷺ (يحنة) على إعطاء الجزية، فبلغت جزيتهم ثلاثمائة دينار، بعد أن عرض عليه الإسلام فلم يسلم، وكتب له ولأهل أيلة كتاب الصلح، وكتب أيضاً لأهل أذرح وجرباء كتاب الصلح، وأن عليه مائة دينار في كل رجب، وصالح أيضاً أهل (مينا) على ربع ثمارهم، فمن هذا يُفهم أنه ﷺ لم يتعرض في غزوة تبوك لقتال الروم، وقد سبق الكلام عليه.

ولما وصل ﷺ تبوك كان هرقل بحمص، قدم من القسطنطينية إليها، وكانت قاعدة مملكته بالشام، وكانت في زمانهم أعظم من دمشق، ولم يكن همّ بالذي بلغ رسول الله ﷺ عنه من جمعه ولا حدّثته نفسه بذلك، وبعث ﷺ دحية بكتاب إليه، فلما جاءه دعا قسيسي الروم وبطارقتها، ثم أغلق عليه وعليهم، وقال: «قد نزل هذا الرجل حيث رأيتم، وقد أرسل يدعوني إلى ثلاث خصال: إما أن أتبعه على دينه، أو أن أعطيه ما لنا على أرضنا، والأرض أرضنا، أو نُلقِي إليه الحرب، والله لقد عرفتم فيما تقرأون من الكتب ليأخذن موضع قدمي هاتين، فهلم فلتتبعه على دينه، أو أن نعطيه مالا» فنخروا^(٣) نخرة رجل واحد، حتى خرجوا من برانسهم^(٤)، وقالوا: أتدعوننا إلى أن نذر النصرانية، أو نكون عبيداً لأعراب من الحجاز؟! فلما ظن أنهم إن خرجوا من عنده أفسدوا عليه الروم، قال: إنما قلت ذلك لأعلم صلابتكم على أمركم. ثم دعا

(١) هناك بردتان: إحداهما اشتراها معاوية من ذرية كعب بأربعين ألف درهم، والثانية أهداها النبي ﷺ لصاحب أيلة نظير إهدائه البغلة، وهي التي اشتراها السفاح من أهل أيلة، وأخذها التتر.

(٢) في الأصل: في الفصل الرابع عشر من الباب الأول من المقالة الرابعة من الجزء الأول من هذا التاريخ.

(٣) النخير: صوت بالأنف.

(٤) جمع برنس: ثوب رأسه ملتصق به.

رجلاً من عرب تجيب، كان على نصارى العرب، فقال: ادع لي رجلاً حافظاً للحديث، عربيّ اللسان أبعثه إلى هذا الرجل بجواب كتابه. فجاء التنوخي، فدفع إليه هرقل كتاباً، وقال: اذهب بكتابي هذا إلى هذا الرجل فما سمعته من حديثه، فاحفظ لي منه ثلاث خصال: هل يذكر صحيفته التي كتب بشيء؟ وانظر إذا قرأ كتابي، فهل يذكر الليل؟ وانظر إلى ظهره، هل فيه شيء يريبك؟ قال: فانطلقت بكتابه حتى جئته تبوكاً، فإذا هو جالس بين ظهراني أصحابه محتباً على الماء، فقلت: أين صاحبكم؟ قيل: ها هو ذا. فأقبلت أمشي حتى جلست بين يديه، فناولته كتابي، فوضعه في حجره، ثم قال: ممن أنت؟ فقلت: أنا أحد تنوخ، قال: هل لك في الحنفية ملة أبيك إبراهيم؟ قلت: إني رسول قوم وعلى دين قوم، حتى أرجع إليهم. فضحك رسول الله ﷺ وقال: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦] يا أخا تنوخ، إني كتبت بكتاب إلى كسرى فمزقه، والله ممزقه وممزق ملكه، وكتبت إلى صاحبك بصحيفة فأمسكها، فلن يزال الناس يجدون منه بأساً ما دام في العيش خير، قلت: هذه إحدى الثلاث التي أوصاني بها صاحبي، فأخذت سهماً من جعبي فكتبتها في جفن سيفي، ثم ناول الصحيفة رجلاً عن يساره، قلت: من صاحب كتابكم الذي يقرأ لكم؟ قالوا: معاوية، فإذا في كتاب صاحبي: تدعوني إلى جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين، فأين النار؟ فقال رسول الله ﷺ سبحان الله، أين النهار إذا جاء الليل^(١)؟! فأخذت سهماً من جعبي فكتبت في جنب سيفي، فلما أن فرغ من قراءة كتابي، قال: إن لك حقاً، وإنك رسول، فلو وجدت عندنا جائزة جَوَزَنَّاك بها، إنا سُفَرُ مُرْمِلُونَ. فناده رجل من أصحابه، فقال: أنا أجوزُه، ففتح رحله، فإذا هو بحلّة صَفراء فوضعها في حجري، فقلت: من صاحب الجائزة؟ قيل لي: عثمان، ثم قال رسول الله ﷺ: أيكم يُنزل هذا الرجل؟ فقال فتى من الأنصار: أنا، فقام الأنصاري وقمت معه، حتى إذا خرجت من طائفة المجلس ناداني رسول الله ﷺ، فقال: تعال يا

(١) وفي الفتح الكبير في ضم الزيادة إلى الجامع الصغير: «سبحان الله، أين الليل إذا جاء النهار؟» رواه الإمام أحمد.

أخا تنوخ، فأقبلتْ أهوي حتى كنت قائماً في مجلسي الذي كنت بين يديه، فحلَّ حبوته على ظهره، وقال: «ها هنا، امض لما أمرت به» فجلتْ في ظهره، فإذا أنا بخاتم النبوة عند غضروف كتفه مثل المَحْجَمَةِ^(١) الضخمة، فانصرف الرجل إلى هرقل، فذكر له ذلك، فدعا قومه إلى التصديق بالنبي ﷺ؛ فأبوا حتى خافهم على ملكه، وهو في موضعه بحمص لم يتحرك ولم يزحف، وأهدى هرقل له ﷺ هدية فقبلها، وفرَّقها على المسلمين، وأقام ﷺ بضع عشرة ليلة، ولم يجاوزها، ثم انصرف قافلاً إلى المدينة.

ففي هذه الغزوة خرج النبي ﷺ من المدينة إلى الشام في العدد الذي لم يتم قبله مثله، كان العدد فيها ثلاثين ألفاً، أو أكثر، وكانت الشُّقَّة بعيدة، ولهذا لو يُورَّ فيها، بل أعلم الناس بوجههم ليكون تأهّبهم بحسب ذلك، ومع هذا الاجتهاد في الاستعداد لم يَلْتَقَ فيها حرباً، ولا افتتح بلدًا، وذلك لأنَّ أجل فتوح الشام لم يكن بعد، فانتسَخ العزم بالقدَر وبجفاف القلم^(٢).

ورجع النبي ﷺ إلى المدينة وعلى المسلمين الوقار والسكينة من غير اضطراب عند انصراف العزيمة، وقد تقدم بعض ذلك^(٣).

وفي هذه السنة هُدمَ مسجدُ الضرار الذي ذكره الله تعالى في كتابه العزيز في سورة براءة: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا...﴾ [التوبة: ١٠٧] الآية أنزلت في جماعة من المنافقين بنوا مسجدًا أيضًا يضارون به مسجد قباء، وكانوا اثني عشر رجلاً من أهل النفاق، وكانوا جميعاً يصلّون في مسجد قباء، فبنوا مسجد الضرار ليصلّي فيه بعضهم، فيؤدّي ذلك إلى الاختلاف وافتراق الكلمة، ولما فرغوا أتوا رسول الله ﷺ وهو يتجهّز إلى تبوك وقالوا: يا رسول الله، قد بنينا مسجدًا لذي العلة والحاجة والليلة المطيرة الشاتية، وإنّا نحب أن تأتينا وتصلّي لنا فيه، وتدعو بالبركة. فقال رسول الله

(١) المَحْجَمَةُ: القارورة التي يُجمع فيها دُم الحجامَة.

(٢) يقصد قول رسول الله ﷺ: «جف القلم بما هو كائن».

(٣) في الأصل: «في الفصل الرابع من المقالة الرابعة من الجزء الأول».

ﷺ: «إني على جناح سفر، ولو قدمنا إن شاء الله أتيناكم فصلينا»، ولما انصرف ﷺ من تبوك ونزل بـ «ذي ودان» [موضع قريب من المدينة] أتوه فسألوه إتيان مسجدهم، فدعا بقميصه ليلبسه ويأتيهم، فنزل عليه القرآن، وأخبره الله خبر المسجد الضرار وما همُّوا به، فدعا رسولُ الله ﷺ عامرَ بنَ عديٍّ، وعامرَ بنَ السكن، وقال لهم: «انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهلُه فاهدموه واحرقوه»، فخرجوا سريعاً فحرقوه وهدموه، وتفرق عنه أهلُه.

وفي دخول هذه السنة على رسول الله ﷺ وهو بالمدينة، قبل غزوة تبوك تابعت الوفود من جميع الجهات؛ فإنهم كانوا منتظرين ما يقع له ﷺ مع قومه، فلما حصل الفتح دخل الناس في دين الله أفواجا، ووردَ عليه عروةُ بن مسعود الثقفي، وكان غائبا عن حصار الطائف، فأسلم وحسن إسلامه فقال: أمضي إلى قومي وأدعهم، فقال له ﷺ: إنهم قاتلوك. فكان كما قال؛ حيث رُمي بسهم في سطح بيته، وهو يؤذن للصلاة، فمات، ومنع قومه من الطلب بدمه، وقال: «هي شهادة ساقها الله»، وأوصى أن يُدفن مع شهداء المسلمين، ثم قدم ابنُه أبو المليلح، وقارب^(١) بن الأسود بن مسعود فأسلما، وضيقَ مالك بن عوف على ثقيف، واستباح سرحهم، وقطع سابلتهم (أي سبيلهم)، وبلغهم رجوع النبي ﷺ من تبوك، فوفدوا عليه فأسلموا، وسألوه أن يدع اللات التي كانوا يعبدونها لا يهدمها إلى ثلاث سنين، فأبى، فنزلوا إلى شهر فأبى، وسألوه أن يُعفيهم من الصلاة، فقال: «لا خير في دين لا صلاة فيه». فأجابوا، وأرسل معهم المغيرة ابن شعبة، وأبا سفيان بن حرب، فهدما اللات، وخرج نساء ثقيف حَسرى يبكين عليها.

وفيها بعث أبا بكر رضي الله عنه ليحج بالناس، ومعه عشرون بدنة لرسول الله ﷺ وثلاثمائة رجل، فلما كان بذي الحليفة أرسل عليًّا رضي الله عنه في أثره وأمره بقراءة

(١) قارب بن الأسود بن مسعود بن معتب بن مالك بن كعب بن عمر بن سعد بن عوف بن ثقيف (ابن أخي عروة ابن مسعود) قدم على رسول الله ﷺ وأخوه أبو المليلح فأسلما قبل قدوم وفد ثقيف، له ترجمة وافية في الإصابة فانظرها هناك.

براءة، وآيات من أول سورة البقرة على الناس، وأن ينادي «أن لا يطوف بالبيت بعد السنة عريان» (أي مكشوف العورة كما كانت الجاهلية تفعل ذلك) ولا يحجّ مشرك.

وعن أبي هريرة قال: كنت مؤذن عليّ رضي الله عنه حين بعثه رسول الله ﷺ إلى أهل مكة ببراءة، فنادت: أن لا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة؛ ولا يحج بعد هذا العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان بينه وبين رسول الله عهد فأجله أربعة أشهر، فإذا مضت الأربعة أشهر فإن الله بريء من المشركين ورسوله.

فعاد أبو بكر وقال: يا رسول الله، هل نزل في شيء؟ قال: «لا، ولكن لا يؤدى عني غيري أو إلا رجل من أهل بيتي، ألا ترضى يا أبا بكر أنك كنت معي في الغار؟ وصاحبي على الحوض؟» قال: بلى. فكان أبو بكر أميراً على الموسم، وعليّ يؤذن ببراءة^(١) يوم الأضحى؛ وأن لا يحج مشرك ولا يطوف بالبيت عريان؛ فلم يحج في العام بعد الذي حج فيه المصطفى حجة الوداع مشرك، وأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَمِهِمْ هَكَذَا﴾ [التوبة: ٢٨].



(١) براءة: هي سورة التوبة، أذن ببراءة: أي يُعلمهم بها ويقرؤها عليهم.

الفصل العاشر

فيما وقع من وفود العرب عليه ﷺ، وفي حجة الوداع

في هذه السنة بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد في ربيع أو جمادى في سرية (أربعمائة) إلى نجران وما حولها، يدعو بني الحارث بن كعب إلى الإسلام ويقاثلهم إن لم يفعلوا، فأسلموا وأجابوا داعيته، وبعث الرسل في كل وجه، فأسلم الناس، فكتب بذلك إلى رسول الله ﷺ، فكتب إليه بأن يُقدّم مع وفدهم، فأقبل خالد ومعه وفد بني الحارث بن كعب، منهم: قيس بن الحصين، ويزيد بن عبد المدان، ويزيد بن المحجل، وعبد الله بن قراد الزيايدي، وشداد بن عبد الله الضبابي، وعمرو بن عبد الله الضبابي، فأكرمهم النبي ﷺ، وقال لهم: «بِمَ كنتم تغلبون من يقاتلكم في الجاهلية؟». قالوا: كنا نجتمع ولا نفرق، ولا نبداً أحداً بظلم. قال: صدقتم.

فأسلموا، وأمر عليهم قيس بن الحصين، ورجعوا صدر ذي القعدة من سنة عشر، ثم أتبعهم عمرو بن حزم (من بني النجار) ليُفقههم في الدين ويعلمهم السنة، وكتب ﷺ إليه كتاباً عهد إليه فيه عهده، وأمره بأمره، وأقام عاملاً على نجران، وهذا الكتاب وقع في السير مروياً، واعتمده الفقهاء في الاستدلالات، ومنه أخذت كثير من الأحكام الفقهية، ونصه:

بسم الله الرحمن الرحيم

«هذا كتاب من الله ورسوله - ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١]. عهد من محمد النبي لعمرو بن حزم حين بعثه إلى اليمن، أمره بتقوى الله في أمره كله؛

فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون، وأمره أن يأخذ بالحق كما أمره الله، وأن يبشّر الناس بالخير ويأمرهم به، ويعلم الناس القرآن ويفهمهم فيه، وأن ينهى الناس، فلا يمس القرآن إنساناً إلا وهو طاهر، وأن يخبر الناس بالذي لهم والذي عليهم، ويلين للناس في الحق ويشد عليهم في الظلم؛ فإن الله حرّم الظلم ونهى عنه، فقال: ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ١٨]، وأن يبشّر الناس بالجنة ويعملها، وينذر الناس النار وعملها، ويستأنف الناس حتى يتفقهوا في الدين، ويعلم الناس معالم الحجّ وسننه وفرائضه وما أمر الله به، والحجّ الأكبر والحجّ الأصغر، وهو العمرة، وينهى الناس أن يصلي أحد في ثوب واحد، إلا أن يكون واسعاً يثني طرفه على عاتقيه، وينهى أن يحتبي أحد في ثوب واحد، ويُفضي بفرجه إلى السماء، وينهى أن يقص شعر رأسه إذا عفا في قفاه، وينهى إذا كان بين الناس هيّج عن الدعاء إلى القبائل والعشائر^(١) وليكن دعاؤهم إلى الله وحده لا شريك له، فمن لم يدع إلى الله، ودعا القبائل فليقطعه بالسيف، حتى يكون دعاؤهم إلى الله وحده لا شريك له، ويأمر الناس بإسباغ الوضوء في وجوههم وأيديهم إلى المرافق، وأرجلهم إلى الكعبين، وأن يمسحوا برؤوسهم كما أمرهم الله، وأمر بالصلاة لوقتها، وإتمام الركوع والسجود، وأن يغسل بالصبح^(٢)، ويهجر^(٣) بالهاجرة حتى تميل الشمس^(٤)، وصلاة العصر والشمس في الأرض مدبرة، والمغرب حين^(٥) يقبل الليل؛ لا يؤخر حتى تبدو نجوم السماء، والعشاء أول الليل.

وأمره بالسّعي إلى الجمعة إذا نودي لها، والغسل عند الرّواح إليها، وأمره أن يأخذ من الغنائم خمس الله، وما كُتب على المؤمنين في الصدقة من العقار عشر ما سقت

(١) الدعوة الخبيثة إلى القومية، والتي يحاول البعض إحياءها اليوم، ولعلّوا أنه لا قومية في الإسلام -إنما المؤمنون إخوة أينما كانوا.

(٢) الغسل: بفتحين: ظلمة آخر الليل، والغسل: أي الوقت الذي يختلط فيه آخر ظلمة الليل بأول ضوء النهار.

(٣) الهاجرة: نصف النهار عند اشتداد الحر.

(٤) أي عن كبد السماء.

(٥) في الأصل «حتى»، ولا يستقيم الكلام بها.

العين، أو سقت السماء، وعلى ما سقى الغَرْبُ^(١) نصفُ العشر، وفي كلِّ عَشْرٍ من الإبل شاتان، وفي كلِّ عشرين: أربع شياه، وفي كلِّ كل أربعين من البقرة: بقرة، وفي كلِّ ثلاثين من البقر: تَبِيعٌ أو تَبِيعَةٌ (جذع أو جذعة)، وفي كلِّ أربعين من الغنم سائمة (وحدُّها شاة) فإنها فريضة الله التي افترضها على المؤمنين في الصدقة، فمن زاد خيرًا فهو خير له.

وَأَنَّ مَنْ أَسْلَمَ مِنْ يَهُودِيٍّ أَوْ نَصْرَانِيٍّ إِسْلَامًا خَالِصًا مِنْ نَفْسِهِ، وَدَانَ بِدِينِ الْإِسْلَامِ، فَإِنَّهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، لَهُ مِثْلُ مَا لَهُمْ وَعَلَيْهِ مَا عَلَيْهِمْ.

وَمَنْ كَانَ عَلَى نَصْرَانِيَّتِهِ أَوْ يَهُودِيَّتِهِ، فَإِنَّهُ لَا يُرَدُّ عَنْهَا، وَعَلَيْهِ الْجَزِيَّةُ عَلَى كُلِّ حَالٍ ذَكَرَ أَوْ أَنْثَى حُرًّا أَوْ عَبْدًا دِينَارًا وَافٍ أَوْ عَوْضَهُ ثِيَابًا، فَمَنْ أَدَّى ذَلِكَ فَإِنَّ لَهُ ذِمَّةَ اللَّهِ وَذِمَّةَ رَسُولِهِ، وَمَنْ مَنَعَ ذَلِكَ فَإِنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ جَمِيعًا، صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَى مُحَمَّدٍ وَالسَّلَامُ عَلَيْهِ وَرَحْمَتُهُ وَبَرَكَاتُهُ.

وقدم عليه وفدٌ عامر، عشرة نفر، فأسلموا وتعلموا شرائع الإسلام، وأقرأهم أُبَيُّ القرآن وانصرفوا.

وقدم في شوال وفدٌ سلامان، سبعة نفر، رئيسهم حُبَيْب، فأسلموا وتعلموا الفرائض وانصرفوا.

وفيها قدم وفد «ازدجرش» وفد فيهم صردُ بن عبد الله الأزدي في عشرة من قومه، ونزلوا على فروة بن عمرو، وأمر النبي ﷺ بعد أن أسلموا صردًا على مَنْ أسلم منهم، وأن يجاهد المشركين حوله، فحاصر «جرش» ومن بها من خثعم وقبائل اليمن - وكانت مدينةً حصينة، اجتمع إليها أهل اليمن حين سمعوا بزحف المسلمين - فحاصروهم شهرًا ثم قفل عنهم، فظنوا أنه انهزم، فاتبعوه إلى جبل شكر، فصَفَّ وحمل عليهم ونال منهم، وكانوا بعثوا إلى رسول الله ﷺ رائدَيْن، وأخبرهما ذلك اليوم بواقعة شكر،

(١) الغرب: الدلو العظيمة.

وقال: «إِنَّ بُدْنَ الله لَتَنْحَرُ عنده الآن»، فرجعا إلى قومهما وأخبراهم بذلك، وأسلموا، وحمى لهم حمى حول قريتهم.

وفيها كان إسلامُ همدان ووفادتهم على يد عليٍّ رضي عنه، وذلك أن رسول الله ﷺ بعث خالد بن الوليد إلى أهل اليمن يدعوهم إلى الإسلام، فمكث ستة أشهر لا يجيبونه، فبعث عليه الصلاة والسلام عليَّ بن أبي طالب وأمره أن يقفل خالد، فلما بلغ عليٌّ أوائل اليمن جمعوا له، فلما لقوه صفوا، فقدم عليٌّ الإنذار وقرأ عليهم كتاب رسول الله ﷺ، فأسلمت همدان كلها في ذلك اليوم، وكتبت بذلك إلى النبي ﷺ، فسجد لله شكراً، ثم قال: السَّلامُ على همدان (ثلاث مرات).

ثم تتابع أهل اليمن على الإسلام وقدمت وفودهم، وكان عمرو بن معديكرب الزبيدي قال لقيس بن مكشوح المرادي: اذهب بنا إلى هذا الرجل، فلن يخفى علينا أمره. فأبى قيس ذلك؛ فقدم عمرو على النبي ﷺ فأسلم. وكان فروة بن مُسيك المرادي على زبيد؛ لأنه وفد قبل عمرو مفارقاً لملوك كندة، فأسلم ونزل على سعد بن عبادة، وتعلم القرآن وفرائض الإسلام، واستعمله رسول الله ﷺ على مراد وزبيد ومذحج كلها، وبعث معه خالد بن سعيد بن العاص على الصدقة، فكان معه في بلاده حتى كانت الوفاة.

وفي هذه السنة قدم وفد عبد القيس، يقدمهم الجارود بن عمرو، وكانوا على دين النصرانية، فأسلموا ورجعوا إلى قومهم، ولما كانت الوفاة^(١) وارتدت عبد القيس، ونصبوا المنذر بن النعمان بن المنذر: ثبت الجارود على الإسلام، وكان له المقام المحمود، وهلك قبل أن يرجعوا.

وقد كان رسول الله ﷺ بعث العلاء بن الحضرمي قبل فتح مكة إلى المنذر بن ساوي العبدي، فأسلم وحسن إسلامه، وهلك بعد الوفاة^(٢)، وقبل ردة أهل البحرين.

(١) أي وفاة النبي ﷺ.

(٢) الهامش السابق.

وفي هذه السنة قدم وفد بني حنيفة (في ستة عشر) فيهم مسيلمة بن حبيب الكذاب، ورجال بن عُنْفُوَة، وطلق بن علي بن قيس، وعليهم سلمان بن حنظلة، فأسلموا وأقاموا أيامًا يتعلمون القرآن من أبي بن كعب سيد القراء، ومن فضلاء الصحابة، ورجال يتعلم، وطلق يُؤذّن لهم، ومسيلمة في الرّحال^(١). وذكروا للنبي ﷺ مكانه في رحالهم، فأجازه، وقال: «ليس بِشَرِّكُمْ مكانًا»^(٢) لحفظه رحالكم». فقال مسيلمة: «عرف أن الأمر لي من بعده».

ثم ارتد، وادّعى مسيلمة بعد النبوة، وشهد له طلق^(٣) بن علي بن قيس أن رسول الله ﷺ أشركه في الأمر، فافتتن الناس به، وذلك أنه ادّعى النبوة، وأنه أشرك مع رسول الله ﷺ، وكتب إليه: «من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله، سلام عليك، فإني أشركت في الأمر معك، وإن لنا نصف الأرض ولقريش نصف الأرض، ولكن قريشًا قوم لا يعدلون».

وكتب إليه رسول الله ﷺ:

«بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد رسول الله إلى مسليمة الكذاب، سلامٌ على مَنْ اتَّبَعَ الهدى.

أما بعد: فإنَّ الأرضَ لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين».

وقد قيل إن ذلك كان بعد منصرف النبي ﷺ من حجة الوداع.

وفيها قدم وفد كندة يقدّمهم الأشعث بن قيس، في بضعة عشر، وقيل: في ستين،

(١) ذكرها في السيرة بصيغة الضعف «قيل إن بني حنيفة جعلوه في رحالهم».

(٢) في السيرة الحلبيّة أنه أمر له ﷺ بمثل ما أمر به لواحد منهم - خمسة أواق من فضة، وقال: أما إنه ليس بِشَرِّكُمْ مكانًا إلح» وليس هذا مدحًا لمسيلمة، بل يفيد أن فيهم من هو شر منه وأفسد، لعنه الله، كيف وقد قال ﷺ: «في بني حنيفة كذاب ومبين»؟.

(٣) وذلك شرّ من مسيلمة.

وقيل: في ثمانين، وعليهم الديباج والحريز، وأسلموا، ونهاهم النبي ﷺ عنه^(١) فتركوه، وقال له أشعث: «نحن بنو أكل المرار»^(٢) يعتز بذلك؛ لأن لهم عليه ولادة من الأمهات، ثم قال لهم: لا، نحن بنو النضر بن كنانة لا نقفو^(٣) أمنا، ولا نتنفي من أبينا^(٤).

وقدم مع وفد كنانة وفد حضرموت، وهم بنو وليعة وملوكهم: جمد، ومخوس، ومشرح، وأبضعه، فأسلموا، ودعا لمخوس بإزالة الرئة^(٥) من لسانه.

وقدم وائل بن حجر راغبًا في الإسلام، فدعا له ومسح رأسه، ونودي «الصلاة جامعة» سرورًا بقدمه، وأمر معاوية أن ينزل بالحرّة، فمشى معه، وكان راكبًا فقال له معاوية: «أعطني نعلك أتوقّي به الرمضاء»، فقال: ما كنت لألبسها وقد لبستها، وفي رواية «لا يبلغ أهل اليمن أن سوقة لبس نعل ملك» فقال: أردفني؟ قال: لست من أرداف الملوك، ثم قال معاوية: إن الرمضاء قد أحرقت قدمي، فقال وائل: امش في ظل ناقتي، كفأك به شرفًا، ويقال: إنه وفد علي معاوية في خلافته فأكرمه، ثم إن رسول الله ﷺ كتب له كتابًا صورته:

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب محمد النبي لوائل بن حجر قُيِّل حضرموت، إنك إن أسلمت، لك ما في يدك من الأرض والحصون، ويؤخذ منك من كل عَشْرٍ واحدة، ينظر في ذلك ذو عدل، وجعلتُ لك أن لا تظلم فيها معلم الدين.

(١) أي عن الحريز.

(٢) أكل المرار هو: الحارث بن عمرو بن حجر بن عمر بن معاوية بن الحارث بن معاوية بن ثور بن مرثع بن معاوية بن كندة. ويقال: بل أكل المرار: حجر بن عمرو بن معاوية.

(٣) نقفو: نتبع؛ لأن الانتساب لا يكون للأُم، وقد قال قائلهم: يا ويح قوم يقال لهم: من أبوكم؟ فيقولون: أمنا من قريش.

(٤) كان من جدات النبي ﷺ من هي من قبيلتهم ومنهن «دعد بنت سرير بن ثعلبة بن الحارث: كلاب بن مرة». اهـ. من هامش سيرة ابن هشام.

(٥) الرئة: ثقل في اللسان في الكلام.

والنبي ﷺ والمؤمنون أشهاد عليه».

وفي هذه السنة قدم وفد محارب في عشرة، فأسلموا.

وفيها قدم وفد الرُّها^(١) من مذحج في خمسة عشر نفرًا، وأهدوا فرسًا، فأسلموا وتعلموا القرآن وانصرفوا، ثم قدم وفد منهم وحجوا مع رسول الله ﷺ، فأوصى لهم بمائة وسق من خبير جارية عليهم من الكتيبة، وباعوها من معاوية.

وفي هذه السنة قدم وفد نجران (النصارى) في سبعين راكبًا يقدمهم أميرهم العاقب عبد المسيح (من كندة) وأسقفهم أبو حارثة بن بكر بن وائل، والسيد (الأيهم)، وجادلوا عن دينهم، فنزل صدر سورة آل عمران، وآية المباهلة، فقال لهم النبي ﷺ يوم المباهلة عن أمر ربه ﴿... تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ [آل عمران: ٦١] فقال عبد المسيح لقومه: «لا تباهلوا محمدًا؛ فإنني أرى معه وجوهاً^(٢) لو أقسمت على الله أن يزيل الجبال لأزالها، فتهلكوا إلى آخر الأبد».

فأبوا المباهلة وأشفقوا منها، وسألوا الصلح، وكتب لهم به على ألف حلة في صفر، وألف رجب، وعلى دروع ورماح وخيل، وحمل ثلاثين من كل صنف، وطلبوا أن يبعث معهم واليًا يحكم بينهم، فبعث معهم أبا عبيدة بن الجراح، ثم جاء العاقب والسيد وأسلموا، وقد أشار إلى ذلك الصَّفِيُّ الحَلِّي في بديعته، في مبحث العنوان، حيث قال مشيرًا إلى هذه القصة:

والعاقبُ الحَبْرُ من نجران، إنَّ له
يومَ التَّباهُلِ عُقْبَى زِلَّةِ الْقَدَمِ
والمباهلة: الملاعة، قال جرير:

لو أن تغلبَ جمعتُ أحسابها
يومَ التَّباهُلِ لم تَزِنْ مثقالا

(١) الرُّها: بضم أوله، ويمد ويقصر: مدينة بالجزيرة فوق حران؛ بينهما ستة فراسخ.

(٢) جمع رسول الله ﷺ عليًا، وفاطمة، والحسن، والحسين وقدّمهم أمامه، وجمعهم في كساء، وقال: «اللهم إن هؤلاء أهل بيتي» فلما رآهم العاقب رجع فرعًا وقال ما قال.

وهذا البيت من النزاهة (نوع من الهجاء)، وهي عبارة عن الإتيان بألفاظ غير سخيفة تكون من أحسن الهجاء الذي إذا أنشدته العذراء في خدرها لا يُعَدُّ من مثلها قبيحاً.

وهذه الواقعة مما يدل دلالة قطعية على نبوته ﷺ من وجهين: أحدهما أنه خوَّفهم بنزول العذاب عليهم لو ثوقه بذلك، وإلا لأفحم إذا لم ينزل العذاب عليهم، وثانيهما أن تركهم مباهلته يدل على أنهم عرفوا من التوراة والإنجيل ما يفيد نبوته، وإلا لما أحجموا عن مباهلته، ويدل على تيقنهم هذا أنه قد نقل عنهم أنهم قالوا لبعضهم: «إنه والله هو النبي المبشِّر به في التوراة والإنجيل، وإنكم لو باهلتموه لحصل الاستئصال» فكان ذلك تصريحاً منهم بأن الامتناع عن المباهلة إنما كان لعلمهم بأنه نبي مرسل من عند الله تعالى، ويؤيد هذا قوله ﷺ «والذي نفسي بيده إن العذاب تدلَّى على أهل نجران، ولو لاعنوا لمسخوا قرده وخنازير، ولاضطرم عليهم الوادي ناراً، ولاستأصل الله تعالى نجران وأهله، حتى الطير على رءوس الشجر، ولَمَّا حال الحولُ على النصاري حتى هلكوا كلهم»^(١).

وفي هذه السنة قدم وفد الصدف و«ككتف» من كندة - يُنسبون الآن إلى حضر موت - في بضعة عشر نفراً، فأسلموا، وعلمهم أوقات الصلاة، وذلك في حجة الوداع. وفيها قدم وفد عبس.

(١) وروى البخاري عن حذيفة رضي الله عنه قال: «جاء العاقب والسيد صاحباً نجران إلى رسول الله ﷺ يريدان أن يُلاعنا قال: فقال أحدهما لصاحبه: لا تفعل؛ فوالله لئن كان نبياً فلاعنّا، لا نفلح نحن ولا عقبنا من بعدنا. قالوا: إنا نعطيك ما سألتنا، وابعث معنا رجلاً أميناً، ولا تبعث معنا إلا أميناً، فقال: «لأبعثن معكم رجلاً أميناً حق أمين» فاستشرف لها أصحاب رسول الله ﷺ فقال: قم يا أبا عبيدة بن الجراح، فلما قام قال رسول الله ﷺ: «هذا أمين هذه الأمة». وهذا الحديث رواه البيهقي في دلائل النبوة مطوَّلاً جداً. وفي رواية ابن مردويه: «قدم على النبي ﷺ العاقب والطيب فدعاهما إلى الملاعة، فواعدها على أن يلاعناه الغداة، قال: فغدا رسول الله ﷺ فأخذ بيد علي، وفاطمة، والحسن، والحسين، ثم أرسل إليهما، فأبيا أن يجيبا، وأقرأ له بالخراج، قال: فقال رسول الله ﷺ: «والذي بعثني بالحق لو قالوا: لا، لأمطر عليهم الوادي ناراً» وقضية المباهلة مشهورة جداً، إذ نزل فيها قوله تعالى: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَنْتَ اللَّهُ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ [آل عمران: ٦١].

وفيهما قدم وفد عدي بن حاتم (في شعبان).

وفيهما قدم وفد خولان^(١) عشرة نفر، فأسلموا وهدموا صنمهم.

وكان قد وفد على رسول الله ﷺ في هدنة الحديبية قبل خير: رفاعه بن زيد الضبيبي (من جذام)^(٢) وأهدى غلاماً فأسلم، وكتب له رسول الله ﷺ كتاباً يدعوهم إلى الإسلام، فأسلموا، ولم يلبثوا أن قفل دحية بن خليفة الكلبي منصوراً من عند هرقل، حين بعثه النبي ﷺ ومعه تجارة، فأغار عليه الهنيد بن عوص^(٣) وقوم بني الضليع (من بطون جذام)، فأصابوا كل شيء معه، وبلغ ذلك المسلمين من بني الضبيبي، فاستنقذوا ما أخذته الهنيد وابنه وردّوه على دحية، وقدم دحية على النبي ﷺ فأخبره الخبر، فبعث النبي ﷺ زيد بن حارثة في جيش من المسلمين، فأغار عليهم وقتلوا الهنيد وابنه في جماعة، وكان معهم ناس من بني الضبيبي، فاستباحوهم معهم، فركب رفاعه بن زيد ومعه زيد بن عمرو (من قومه) فقدموا على النبي ﷺ وأخبروه الخبر، فقال: كيف أصنع بالقتلى؟ فقالوا: يا رسول الله، أطلق لنا من كان حيّاً، فبعث معهم عليّ بن أبي طالب، وحمله على جمل وأعطاه سيفه، وأمره بردّ أموالهم، فسار عليّ إلى زيد بن حارثة فلحقه بغيفاء الفحلّتين^(٤) وأمره بردّ أموالهم، فردّها.

وفي هذه السنة قدم وفد عامر بن صعصعة، فيهم عامر بن الطفيل بن مالك، وأريد ابن ربيعة بن مالك، فقال عامر للنبي ﷺ: يا محمد، اجعل لي الأمر بعدك، قال: ليس ذلك لك ولا لقومك، قال عامر: اجعل لي الوبر ولك المدر^(٥)، قال: لا، ولكن أجعل لك زعنة الخيل؛ فإنك امرؤ فارس، فقال: لأملأنها عليك خيلاً ورجلاً. ثم ولّوا، فقال:

(١) خولان: اسم مخلاف من مخاليف اليمن (وهو بفتح الخاء) ينسب إلى خولان بن عمرو بن قضاة.

(٢) اسم قبيلة.

(٣) الهنيد بن عوص (بالصاد)، وابنه عوص بن الهنيد.

(٤) الفيفاء: المفازة، والفحلّتان: اسم موضع.

(٥) الوبر: يقصد أهل البادية. المدر. يقصد بها سكان البيوت المبنية.

«اللهم اكفنيهم، اللهم اهد عامراً واغنِ الإسلامَ عن عامر»^(١) فرجعوا إلى بلادهم، فأخذ الطاعون عامراً في عنقه، فمات في طريقه (في أحياء بني سلول) وأصابته أخاه «أربد» صاعقة بعد ذلك.

ثم قدم علقمة بن علاثة بن عوف، وعوف بن خالد بن ربيعة وابنه، وأسلموا. وفيها قدم وفد طيء (في خمسة عشر نفراً) يقدمهم سيدهم: زيد الخيل، وقبيصة ابن الأسود (من بني نبهان) فأسلموا، وسمّاه رسولُ الله ﷺ زيدَ الخير، وأقطعَ له بئراً وأرضين معها وكتب له بذلك، ومات في مرجعه.

* * *

وفي هذه السنة كانت حجة الوداع، وتُسمى حجة الإسلام. وتُسميت حجة الوداع لأن النبي ﷺ خطب الناس فيها وأوصاهم، وقال: «لعلكم لا تروني بعد عامي هذا» وودّعهم.

واختلف: هل كان ﷺ فيها مفرداً أو قارناً أو متمتعاً، قال النووي: والصحيح أنه كان أولاً مفرداً، ثم أحرَمَ بالعمرة بعد، وأدخلها على الحج، فصار قارناً؛ فمن روى الأفراد فهو الأصل، أو القرآن اعتمد آخر الأمرين، أو التمتع: أراد التمتع اللغوي، وهو الانتفاع والارتفاق، وبه تنتظم الأحاديث.

وذلك أن النبي ﷺ خرج حاجاً لخمس وعشرين من ذي القعدة سنة عشر، وكان معه من أشرف الناس جماعة، ومائة من الإبل عربياً، ودخل مكة يوم الأحد لأربع خلون من ذي الحجة.

وعن ابن عباس قال: خرج رسول الله ﷺ من بيته متدھناً مترجلاً^(٢)، حتى أتى ذا

(١) اللهم اهد عامراً، أي بني عامر، واغن عن عامر: أي عن ذلك الرجل الذي قال ما قال.

(٢) مترجلاً: ماشياً على الرجل، من ترَجَّلَ الرجل: إذا مشى راجلاً.

الحليفة، وأحرم في ثوبين من نسج «صُحار»^(١): إزار ورداء، وخرج بنسائه جميعاً، فدخل مسجد ذي الحليفة، فصلّى ركعتين، ثم ركع ناقته القصواء فلما استوت على ظهر البيداء أهلّ بالحج، ودخل ﷺ مكة نهاراً على راحلته، حتى انتهى إلى البيت، فلما رأى البيت رفع يديه فوق زمأ^(٢) ناقته، فأخذه بشماله، فبدأ بالطوف بالبيت قبل الصلاة، ولم يستلم من الأركان إلا اليماني والأسود، ورمل رسول الله ﷺ من الحجر إلى الحجر في الأشواط الثلاثة، وخطب ﷺ قبل يوم التروية بيوم بعد الظهر، ويوم عرفة حين زالت الشمس^(٣) وهو على راحلته قبل الصلاة، والغد من يوم النحر بعد الظهر بمنى، وساق في حجته مائة بدنة نحر منها ستين بيده بالحربة، ثم أعطى عليّاً سائرهما فنحراها، ولم يصم ﷺ يوم عرفة، وصلى الظهر والعصر بعرفة بأذان وإقامتين، ثم وقف بعرفة، ودفع حين غابت الشمس، فقصد في سيره^(٤)، ثم صلى المغرب والعشاء بأذان وإقامتين، ثم بات بالمزدلفة، ووقف على ناقته القصواء حين أسفر^(٥)، ثم دفع ورمى جمرة العقبة يوم النحر على راحلته، ونحر بالمنحر، وقال: «كل منى منى منكرة»^(٦)، وحمل حصاه من «جَمْع» ثم كان يرمي بالجمار ماشياً، ويرمي يوم الصدر راكباً، وكان يرفع يديه عند الجمار ويقف، ولا يفعل ذلك عند جمرة العقبة، وزار البيت يوم النحر، ونفر يوم الصدر، فنزل بالأبطح في قبة ضربت له، فلما كان في آخر الليل خرج فودّع البيت، ثم مضى من وجهه إلى المدينة.

وقال النبي ﷺ: إنَّ أفضل أيامكم يوم النحر، ثم يوم القرّ، وهو اليوم الثاني. انتهى.

(١) صحار (بالضم): هضبة عُمان، مما يلي الجبل.

(٢) زمأ الناقة: خطامها.

(٣) يعني عن كبد السماء.

(٤) يعني سار سيراً قصداً، أي تمهل في سيره عن السرعة.

(٥) يعني وقت الإسفار، وهو الوقت الذي يكون بعد الفجر وقبل طلوع الشمس.

(٦) أي ينحدر الحاج في أي مكان منها.

خطبة الوداع:

ولقيهُ عليُّ بن أبي طالب بصدقات «نجران» وكان محرماً فقال: حلّ كما حلّ أصحابك، فقال: إني أهلتُ بما أهّل به رسولُ الله ﷺ. فبقي على إحرامه. ونحر رسولُ الله ﷺ الهدْي عنه، وعلمَ الناس مناسك الحج والسنن، وخطب الناس بعرفة خطبةً بيّن فيها الأحكام، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال:

«أيها الناس، اسمعوا قولي، فإنني لا أدري، لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبداً.

أيها الناس إنّ دماءكم وأموالكم عليكم حرامٌ إلى أن تلقوا ربكم كُرمة يومكم هذا وحرمة شهركم هذا، وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم. وقد بلغت؛ فمن كان عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها، وإن كان رباً فهو موضوع، ولكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون قضى الله أن لا رباً؛ إنّ ربّاً العباس بن عبد المطلب موضوع كله، وإنّ كلّ دم في الجاهلية موضوع كله، وإنّ أول دم أضع دم ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب (وكان مسترضعاً في بني سعد فقتله بنو هذيل). أيها الناس إنّ الشيطان قد يئس من أن يُعبد بأرضكم هذه أبداً، ولكنه رضي أن يُطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم، فاحذروه على دينكم، إنّما النسيءُ زيادة في الكفر يضلّ به الذين كفروا، يُحلّونه عامّاً ويحرّمونه عامّاً ليواطئوا عدة ما حرّم الله فيحلّوا ما حرّم الله، ألا وإنّ الزمان استدار كهيتته يوم خلق الله السموات والأرض، وإنّ عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله، يوم خلق الله السموات والأرض، منها أربعة حُرُم، ثلاث متواليات: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب الفرد الذي بين جمادى وشعبان»^(١).

(١) رواه الإمام أحمد، ورواه البخاري في التفسير، ومسلم وابن جرير الطبري وسعيد بن منصور، وله ألفاظ وطرق مختلفة بمعنى واحد.

[ومعنى الحديث: أن الأشهر رجعت إلى ما كانت عليه، وعاد الحج في ذي الحجة، وبطلَ النسيءُ الذي كان في الجاهلية، وقد وافقت حجةُ الوداع ذا الحجة، وكانت حجة أبي بكر رضي الله عنه قبلها في ذي القعدة، والنسيءُ: التأخير لحرمة شهر إلى آخر كما كانت الجاهلية تفعل؛ كانوا إذا جاء شهرٌ حرام وهم محاربون أحلّوا وحرّموا مكانه شهرًا آخر، ورفضوا خصوص الشهر، واعتبروا مجرد العدد، فكانوا يؤخرون تحريم المحرّم إلى صفر، فيحرّمون صفر ويستحلّون المحرم، فإذا احتاجوا إلى تأخير تحريم صفر أخرّوه إلى ربيع، وهكذا شهرًا بعد شهر، حتى استدار التحريم على السنة كلها، وكانوا يحجون في كل شهر عامين، فحجّوا في ذي القعدة عامين، ثم حجّوا في المحرم عامين، ثم حجّوا في صفر عامين، وكذا باقي شهور السنة، فوافقت حجة أبي بكر في السنة التاسعة في ذي القعدة، قبل حجة الوداع بسنة، ثم حجّ النبي ﷺ في العام المقبل حجة الوداع، فوافق حجّه شهرَ ذي الحجة، وهو شهر الحج المشروع، فوقف بعرفة في اليوم التاسع.

واختلفوا في أول من نسأ النسيءَ، فقال ابن عباس: بنو مالك بن كنانة، وكان يليه أبو ثمامة وجنادة بن عوف بن أمية الكناني، كان يقوم على جمل بالموسم فينادي: إن آلَتهكم قد أحلت لكم المحرم فأحلّوه، ثم ينادي في قابل^(١): إن آلَتهكم قد حرّمت عليكم المحرم فحرّموه.

وقال الكلبي: أول من فعل ذلك رجل من بني كنانة يقال له: نعيم بن ثعلبة.

وقيل: أول من فعل ذلك عمرو بن لحي، وهو أول من سيّب السوائب، وقال فيه النبي ﷺ: «رأيت عمرو بن لحي يجر قصَبَهُ (أي أمعاه) في النار»^(٢).

«أما بعد؛ أيها الناس، فإن لكم على نسائكم حقًا، ولهنّ عليكم حقًا؛ عليهنّ أن لا يُوطئن فرشكم غيركم، ولا يُدخلن أحدًا تكرهونه بيوتكم إلا بإذنكم، وعليهنّ أن

(١) قابل: أي العام التالي.

(٢) رواه مسلم، وأحمد، وغيرهما من أصحاب الصحاح.

لا يأتين بفاحشة مُبَيَّنَّة، فإن فعلن؛ فإنَّ الله قد أذن لكم أن تعضلوهنَّ وتهجروهنَّ في المضاجع، وتضربوهن ضرباً غير مبرِّح، فإن انتهين فلهنَّ رزقهنَّ وكسوتهنَّ بالمعروف، واستوصوا بالنساء خيراً؛ فإنهن عندكم عَوَان^(١) لا يملكن لأنفسهنَّ شيئاً، وإنكم إنما أخذتموهنَّ بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، فاعقلوا أيها الناس واسمعوا قولي، فإنني قد بلغتُ قولي وتركْتُ فيكم ما إن استعصمتُم به فلن تضلُّوا أبداً: كتاب الله وسنة نبيه.

أيها الناس: اسمعوا قولي، واعلموا أنَّ كل مسلم أخو المسلم، وأن المسلمين إخوة، فلا يحل لامرئٍ من مال أخيه إلا ما أعطاه إياه عن طيب نفس، فلا تظلموا أنفسكم... ألا هل بلغت؟».

فذكر أنهم قالوا: «اللهم نعم»، فقالوا رسول الله ﷺ: «اللهم اشهد»^(٢).

وفي حجة الوداع نزلت عليه في يوم الجمعة بعد العصر في يوم عرفة وهو ﷺ واقف بعرفات على ناقته العضاء: ﴿الْيَوْمَ يَبْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَحْشَوْهُمْ وَأَخْشَوْنَ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ (يعني الفرائض والسنن والحدود والأحكام) ﴿وَأَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً﴾ [المائدة: ٣] فلم ينزل بعد هذه الآية شيء: لا حلال ولا حرام، ولا شيء من الفرائض والسنن والحدود والأحكام.

وقيل: إكمال الدين بهذه الآية: أنه لا يزول، ولا يُنسخ، وأن شريعتهم باقية إلى يوم القيامة، ومعنى إتمام النعمة: يعني إكمال الدين والشريعة؛ لأنه لا نعمة أتم من نعمة الإسلام. وعن طارق بن شهاب قال: جاء رجلٌ من اليهود إلى عمر بن الخطاب، قال: يا أمير المؤمنين، آيةٌ في كتاب الله تقرأونها لو نزلت علينا لاتخذنا ذلك اليوم عيداً، قال: فأية؟ قال: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ وَأَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً ﴿ فقال عمر: «إني لأعلم اليوم الذي نزلت فيه، والمكان الذي نزلت على رسول

(١) عوان: أي أسيرات عندكم.

(٢) أي اشهد أنني بلغت الرسالة.

الله ﷺ فيه؛ نزلت بعرفات يوم الجمعة^(١) أشار عمر إلى أن ذلك اليوم كان عيداً لنا. وعن ابن عباس: أنه قرأ ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ وعنده يهودي، فقال: لو نزلت هذه الآية علينا لاتخذنا يومها عيداً، فقال ابن عباس: كان في ذلك اليوم خمسة أعياد: يوم جمعة، ويوم عرفة، وعيد لليهود، وعيد للنصارى، وعيد المجوس، ولم تجمع أعياد لأهل المل في يوم واحد قبله ولا بعده.

وروي أنه لما نزلت هذه الآية بكى عمر، فقال النبي ﷺ: ما يبكيك يا عمر؟ فقال: أبكاني أنا كنا في زيادة من ديننا، فأما إذا أكمل فإنه لم يكمل شيء إلا نقص، قال: «صدقت»^(٢)، فكانت هذه الآية نعت رسول الله ﷺ، وعاش بعدها أحدًا وثمانين يومًا^(٣).

ولما رجع ﷺ من حجته إلى المدينة أقام بقاء ذا الحجة تمام سنة عشر من الهجرة، ثم دخلت سنة إحدى عشر، فأقام بها أيضاً المحرم وصفر، وفي يوم الأربعاء آخر صفر بدأ بالنبي ﷺ وجعه، فحُم وصدع، وأشار فيه إشارة ظاهرة بخلافة أبي بكر، بشائه عليه على المنبر، لما فهم دون بقية الصحابة قوله في خطبته: «إِنَّ عَبْدًا خَيْرُ اللَّهِ بَيْنَ أَنْ يُوْتِيَ زَهْرَةَ الدُّنْيَا وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ، فَاخْتَارَ مَا عِنْدَهُ» أنه ﷺ يَعْنِي نفسه، فبكى وقال: فدينك يا رسول الله بآبائنا وأمهاتنا. فقابله ﷺ بقوله: «إِنَّ أَمَنَ النَّاسَ عَلَيَّ فِي صَحْبَتِهِ وَمَالِهِ أَبُو بَكْرٍ، وَلَوْ كُنْتُ مَتَّخِذًا مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا، وَلَكِنْ أَخُوَّةُ الْإِسْلَامِ» ثم قال: لا يبقَى في المسجد خوذة إلا سُدَّتْ، إلا خوذة أبي بكر^(٤). زاد مسلم: «إِنَّ ذَلِكَ كَانَ قَبْلَ مَوْتِهِ بِخَمْسِ لَيَالٍ» ثم أكَّد أمر الخلافة بأمره صريحاً أن

(١) رواه البخاري، ومسلم والترمذي، والنسائي، والإمام أحمد، وابن مردويه.

(٢) رواه ابن جرير الطبري.

(٣) رواه ابن جرير الطبري.

(٤) رواه مسلم والترمذي.

ولم يحج ﷺ بعد أن فرض الحج إلا حجة الوداع، وكانت وقفته فيها الجمعة، وحجَّ معه ألف، حتى حج معه من لم يره قبلها ولا بعدها، ولم يحج بعد الهجرة غيرها، وأما بعد النبوة وقبل الهجرة، فحج ثلاث حجات، وقيل حجتين، وقيل كان يحج كل سنة قبل أن يهاجر، واعتمر بعد أن هاجر أربع عُمَر: عمرة الحديبية، وعمرة القضية، ويقال لها عمرة القضاء، وعمرة القصاص، وعمرة الجُمرانة (بكسر الجيم وسكون العين) في إثر وقعة حنين، وعمرة مع حجته. ولم يُعَدِّ مالك بن أنس في الموطأ الرابعة عمرة، وقال: إنما اعتمر ثلاثاً فقط؛ لأنه إنما حجَّ حجة الوداع مفرداً بالحج دون العمرة، وتابعه على مقالته هذه بعضهم، وهو أحد قَوْلِي الإمام الشافعي رضي الله عنه.

وفي هذه السنة أسلم جرير بن عبد الله البجلي.

ونزلت سورة ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ [النصر: ١] بمنى يوم النحر في حجة الوداع، والمعنى: إذا جاء نصر الله نبيّه ﷺ على أعدائه، والفتح: فتح مكة، وقيل: نزلت قبل موته ﷺ بثلاثة أيام. وكان ﷺ بعد نزول هذه السورة يكثر من قول «سبحان الله وبحمده أستغفر الله وأتوب إليه» وعلم بها أنه قَرَّبَ أجله، قال أبو هريرة رضي الله عنه: لما نزلت قال رسول الله ﷺ: «الله أكبر جاء نصر الله والفتح». وعن جابر رضي الله عنه: أنه كان ذات يوم يبكي بكاءً شديداً، ف قيل له: ما يُبكيك؟ قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: دخل الناس في دين الله أفواجا، والمراد بالناس أهل اليمن.

وفي هذه السنة مات إبراهيم ابن رسول الله ﷺ.

(١) في مسند الإمام أحمد عن الإمام علي كرم الله وجهه قال: «يا رسول الله من نُؤمَّر بعدك؟ قال: إن نُؤمَّروا أبا بكر تجدوه أميناً زاهداً في الدنيا راغباً في الآخرة، وإن نُؤمَّروا عمر تجدوه قوياً أميناً لا يخاف في الله لومة لائم، وإن نُؤمَّروا علياً -وما أراكم فاعلين- تجدوه هادياً مهدياً، يأخذ بكم الطريق المستقيم». وروى مسلم والإمام أحمد أنه قال أيضاً: «ادعي أباك وأخاك حتى أكتب كتاباً؛ فإني أخاف أن يتمنى متمن ويقول قائل: أنا أولى، ويأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر» وهي تولية صريحة. والحديث صحيح.

الباب الخامس

في وفاته ﷺ وذكر بعض أخلاقه وصفاته. ومعجزاته،

وأزواجه، وأعمامه، وعماته، وأخواله، ومواليه

وخدمه، وحشمه ﷺ،

وفيه فصول

الفصل الأول

في ذكر وفاته ﷺ وما يتعلق بذلك

لما أكمل الله له ولأمته الدين، وأتمَّ عليهم نعمته أجمعين، نقله إلى دار كرامته شهيداً من أكله الذراع المسموم المهدى له بخير، فجمع بين الرسالة والشهادة، والنبوة والسعادة، فابتدأ به المرضُ في العشر الأخير من صفر، عام أحد عشر من الهجرة الشريفة، وكان قد قدم ﷺ من حجة الوداع سنة عشر من الهجرة، وأقام بالمدينة إلى أن شكا ﷺ الوجع، ومرض مرضه، ولما اشتد به ﷺ مرضه، قال لعائشة رضي الله عنها: «يا عائشة، ما أزال أجد ألمَ الطعام الذي أكلته بخير، فهذا أوانه، وإنني وجدتُ انقطاعَ أبهرٍ من ذلك السم»^(١).

وكان ابتداء ذلك المرض في بيت ميمونة بنت الحارث، وكان يدور على نسائه حتى اشتد مرضه، فجمع نساءه، واستأذنهن أن يُمرَّض في بيت إحداهن، فأذنَّ له أن يمرَّض في بيت عائشة رضي الله عنها، فانتقل إليها في غير ليالي القسم؛ لأنه كان يدور عليهن في بعض الأحيان في يوم واحد وليلة، ويختم بعائشة.

ولما حضر ﷺ إلى بيت عائشة أمرَ نادياً فنادى في المدينة أن اجتمعوا لوصية النبي ﷺ فاجتمع كلُّ من في المدينة من ذَكَرٍ وأُنْثَى، وكبيرٍ وصغيرٍ، تركوا أبوابهم

(١) رواه ابن السني، وأبو نعيم في الطب، وغيرهما.

ودكاكينهم مفتحة، وخرج ﷺ وهو متوعك بين الفضل بن العباس، وعلى بن أبي طالب رضي الله عنهما، حتى جلس على المنبر، فحمد الله، ثم قال: «يا أيها الناس، مَنْ كُنْتُ جلدْتُ له ظهرًا هذا ظهري فليستقد (أي يقتصر) مِنِّي، ومن كنت شتمْتُ له عِرْضًا فهذا عِرْضي فليستقد مِنِّي، ومن أخذْتُ له مالًا فهذا مالي فليأخذ منه، ولا يخشى الشحناء من قبلي، فإنها ليست من شأني».

ثم نزل وصلى الظهر، ثم رجع إلى المنبر فعاد إلى مقالته، فادّعى عليه رجلٌ بثلاثة دراهم، فأعطاه عَوْضَهَا، ثم قال: «ألا إِنَّ فُضُوحَ الدنيا أهونُ مِنْ فُضُوحِ الآخرة، ثم صلى على أصحاب أحد، واستغفر لهم، ثم قال: «إِنَّ عبدًا خَيَّرَهُ الله بين الدنيا وبين ما عنده فاختر ما عنده» فبكى أبو بكر، وقال: فدينك بأنفسنا. ثم أوصى ﷺ بالأنصار.

ولما اشتدَّ وجَعُهُ قال: «ائتوني بدواة وبيضاء»^(١) أكتب لكم كتابًا لن تضلوا بعده أبدًا». فقال بعضهم: إن رسول الله ﷺ قد غلبه الوجع، وعندكم القرآن، حسبنا كتاب الله. ثم اختلفوا واختصموا، فمنهم من يقول: قرَّبوا يكتب لكم كتابًا لن تضلوا بعده أبدًا، ومنهم من يقول غير ذلك، فلما كثر اللغو والتنازع قال: «لا ينبغي عند نبيٍّ تنازُعٌ» فذهبوا يعيدون عليه، فقال: «دعوني؛ فما أنا فيه خيرٌ مما تدعونني إليه».

وكان في أيام مرضه يصلي بالناس، وإنما انقطع ثلاثة أيام، فلما أذن بالصلاة أول ما انقطع، قال: «مُرُّوا أبا بكر فليصل بالناس»، فقالت عائشة رضي الله عنها: «إِنَّ أبا بكر رجلٌ أَسِيفٌ»^(٢) (أي رقيق القلب)، وإنه متى يقوم مقامك لا يُسمع الناس من البكاء، فلو أمرت عمر. فقال: «مُرُّوا أبا بكر أن يصلي بالناس»، فقالت عائشة لحفصة: «قولي إن أبا بكر رجلٌ أَسِيفٌ، وإنه متى يقوم مقامك لا يسمع الناس، فلو أمرت عمر. فقال: «إنكن صواحبُ يوسف» (أي مثل صاحبة يوسف عليه الصلاة والسلام وهي زليخا) أظهرت خلاف ما تبطن، أظهرت للنساء التي جمعتن أنها تريد إكرامهن بالضيافة،

(١) يقصد: شيئًا يكتب فيه العهد الذي سيعهد فيه للمسلمين.

(٢) كان رضي الله عنه يُشَمُّ من فيه رائحة الشواء من احتراق كبده من خوف الله عز وجل.

وإنما قَصْدُهَا أن ينظرن لحسن يوسف عليه الصلاة والسلام ويعذرنها في حبه، والنبى ﷺ فهم من عائشة رضي الله عنها أنها تظهر كراهة ذلك، مع محبتها له باطنًا، هكذا يقتضيه ظاهر اللفظ، والمنقول عن عائشة رضي الله عنها أنها قصدت بذلك خوف أن يتشأم الناس أبا بكر فيكرهونه، حيث قام مقامه ﷺ، فقد جاء عنها رضي الله عنها أنها قالت: «ما حملني على كثرة مراجعتي له ﷺ إلا أنه لم يَقَعْ في قلبي أن يحب الناس بعده رجلًا قام مقامه أبدًا، ولا كنت أرى أنه يقوم أحد مقامه إلا تشأم الناس منه»^(١)، فصلى بهم ثلاثة أيام في حياة رسول الله ﷺ، فوجد النبي ﷺ في بعض الأيام خفة، فقام يتهادى بين رجلين، ورجلاه يخطآن في الأرض؛ حتى دخل المسجد، فلما سمع أبو بكر رضي الله تعالى عنه صوته ذهب يتأخر، فأومأ إليه ﷺ أن لا يتأخر، فجاء رسول الله ﷺ حتى جلس عن يسار أبي بكر، والناس يقتدون بصلاة أبي بكر رضي الله عنه، فلما فرغ النبي ﷺ وجلسوا قال ﷺ: «معاشر المسلمين؛ ما من نبي يموت حتى يُصَلِّي خلف رجل صالح من أمته» وإن النبي صَلَّى به رجلان من أمته: عبد الرحمن بن عوف في السفر، وأبو بكر الصديق في الحضر.

وأما ما رواه البخاري بإسناده إلى عروة عن أبيه عن عائشة، أنه ﷺ أمر أبا بكر أن يصلي بالناس في مرضه، فكان يصلي بهم، فوجد رسول الله ﷺ من نفسه خفة فخرج إلى المحراب، وكان أبو بكر يصلي بصلاة رسول الله، والناس يصلون بصلاة أبي بكر، أي بتكبيره، فهو إنما كان في وقت آخر. وفي المواقف أيضًا: أن النبي ﷺ استخلف أبا بكر في الصلاة حال مرضه، واقتدى به وما عزله، ولذلك قال علي: «قدّمك رسول الله في أمر ديننا، أفلا نقدّمك في أمر دنيانا؟!»^(٢).

قال أنس بن مالك رضي الله عنه: لما مرض النبي ﷺ مرضه الذي مات فيه، اجتمعنا جماعة من الصحابة، ودخلنا عليه ﷺ وجلسنا بين يديه وهو نائم على فراشه،

(١) هذا هو الصحيح، والذي قاله الشيخ أولاً معاذ الله أن يكون منها رضي الله عنها؛ وهي الصديقة بنت الصديق.

(٢) رد قاطع على الذين يفرّقون بين أصحاب رسول الله ﷺ.

فجلس أبو بكر عند رأسه، ونظر في وجهه وبكى، ففتح النبي ﷺ عينيه، وقال: ما الذي يبكيك يا أبا بكر؟ فقال: حبيبي، افتركت في شيء أنا خائف منه، قال: ما هو؟ قال: في قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ جَهْدَ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ [التوبة: ٧٣]، وهذا دين يتقى بعدك ونخاف أن تحتج علينا الأعداء من بعدك، ويقولون إن الله أمر نبيكم بجهاد الكفار والمنافقين، فجاهد الكفار ولم يجاهد المنافقين، ونخاف أن يكون ذلك نقص في الدين، فمن يقضي دينك ويجاهد الكفار والمنافقين، من بعدك، فلزم النبي ﷺ يد أبي بكر، وقال: «أنت قاضي ديني والقاتل من يرتد عن ديني، أما سمعت قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾؟».

[المائدة: ٥٤].

قالت عائشة رضي الله عنها: إنه ﷺ كان يقول قبيل وفاته: «لا إله إلا الله؛ إنَّ للموت سكرات» وإنه أشخص بصره إلى سقف البيت ثم قال: «اللهم الرفيق الأعلى (أي نهاية مقام الروح وهو الحضرة الواحدية)؛ فالمسؤول إلحاقه بالمحل الذي ليس بينه وبينه أحد في الاختصاص».

وفي حديث مرسل أنه قال: «اللهم إنك تأخذ الروح من بين العصب والقصب والأنامل، اللهم فأعني على الموت وهونهُ عليّ»^(١) [والقصب عروق الرئة، والرئة: مهموزة مخففة]، وأما حديث: «اللهم الرفيق الأعلى» فكان آخر كلمة تكلم به، ولما رأت فاطمة ذلك قالت: «واكرِّباه» فقال: «لا كرب على أبيك بعد اليوم»^(٢)، وكلما أفاق أوصى بالمحافظة على الصلاة^(٣)، وفي تلك الشدائد زيادة رفع درجات للأصفياء، وكفارة سيئات لأهل الابتلاء.

وقد توفي ﷺ وهو ابن ثلاث وستين، وكذا الصحيح في سن أبي بكر وعمر وعائشة

(١) عزيز على الروح الطاهرة أن تفارق الجسد الطاهر.

(٢) ومما قالوه: إن الدنيا بالنسبة له هي الكرب، أما وقد خرج من الدنيا فلا كرب عليه.

(٣) كان يكرر: «الصلاة وما ملكت أيمانكم» رواه أحمد، والنسائي، وابن ماجه، والطبراني.

ثلاث وستون سنة، وهذا أحسن مدة العمر بعد النصر والفتح المبين.

واختلف في مدة مرضه: ف قيل اثنا عشر يوماً، وقيل ثلاثة عشر يوماً، وقيل أربعة عشر يوماً.

ولم يوص ﷺ بما يورث؛ إذ لم يترك ديناراً، ولا درهماً، ولا عبداً، ولا أمةً، ولا شاةً، ولا بعيراً، بل توفي ولم يجد ما يفكُّ به درعَ حربه الزردية، وهي ذات الفضول (بالضاد المعجمة لطولها) أرسل بها إليه سعد بن عباد حين سار إلى بدر، وكانت من حديد، وهي التي رهنها عند أبي الشحم اليهودي على ثلاثين صاعاً من شعير، وكان الدين إلى سنة. إنما أوصى بكتاب الله المبين، وبالصلاة والزكاة والأرقاء ملك اليمين، حتى إن صدره ليغرغرُ بذلك، وما يكاد لسانُ يُبين. وفعله^(١) ﷺ من باب التشريع، وإلا فالنبي ﷺ أغنى العالمين على الإطلاق، وكذا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، لم يُبعثوا إلا ليشرعوا، فكان دينه ﷺ تشريعاً لأُمَّته، ويجوز الدين برهن وغير رهن، وقد ورد في الحديث: «تداينوا تُرزقوا»^(٢) ومعناه إذا كان خفيفاً، وورد في حديث آخر: «يد الله فوق يد المدين ما دام ينوي السداد»^(٣).

وكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه يحب الدين الخفيف؛ حتى يدخل في الحديث. وبعد وفاته دهش الناس وطاشت عقولهم، واختلفت أحوالهم في ذلك؛ فقال عمر ابن الخطاب رضي الله عنه: من قال إن رسول الله ﷺ مات علوثُ رأسه بسيفي هذا، وإنما ارتفع إلى السماء. فقرأ أبو بكر رضي الله عنه: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ إلى قوله ﴿وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤] فرجع القوم

(١) أي الدين.

(٢) وروى الإمام أحمد أن أم المؤمنين المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها كانت تكثر من الاستدانة ولها عنها مندوحة. قالت: قال رسول الله ﷺ: «ما من عبد كانت له نية في أداء دينه إلا كان له من الله عون» فأنا ألتمس العون من الله. وزاد الطبراني «وسبب له رزقاً». وكذلك كانت تفعل أم المؤمنين ميمونة رضي الله عنها التماساً لمعونة الله تعالى.

(٣) السابق.

إلى قوله وبادروا إلى سقيفة بني ساعدة، وهي دار سعد بن عباد، وكان سعد بن عباد مريضاً، وقالوا: نوليه هذا الأمر، فبايع عمرُ أبا بكر، ثم بايعه الناس خلا جماعة.

وُغسل ﷺ ثلاث مرات؛ الأولى بالماء القراح، والثانية بالماء والسدر، والثالثة بالماء. وغسله عليٌّ والعباس وابناه الفضل وقثم، وأسامة بن زيد وشقران مَوْلَاهُ ﷺ، فكان العباس وابناه يقبلونه، وأسامة وشقران يصبان الماء، وعليٌّ يغسله، ونفضه عليٌّ فلم ينزل منه شيء فقال: «بأبي أنت وأمي ما أطيبك حياً وميتاً» وأعينهم معصوبة، لحديث علي «لا يغسلني إلا أنت، فإنه لا يرى أحدٌ عورتي إلا طُمِست عيناه». وُغسل ﷺ من بئر عَرَس (بفتح العين المهملة وسكون الراء فسين مهملة) بوصية منه، كان يشرب منها، وكُنْ في ثلاثة أثواب بيض سَحُولِيَة (بفتح السين وضمُّها، والفتح أشهر، فالفتح منسوب إلى السحول، وهو القصَّار، لأنه يسحلها أي يغسلها أو إلى «سحول»، وهي بلدة باليمن، وأما بالضم فهو جمع سُحل، وهو الثوب الأبيض النقي، ولا يكون إلا من قطن) ليس فيها قميص ولا عمامة، بل لفائف من غير خياطة، ويُرد حبرة أُدرَج فيها إدراجاً، وفُرِغَ من جهازه يوم الثلاثاء، وُوضِعَ على سريرهِ، وصلى عليه المسلمون صفوفاً؛ لا يؤمُّهم أحد، وكان أبو بكر وعمر في الصف الأول، الذي حيَّاه رسول الله ﷺ، فقالا: «اللهم إنا نشهد أنه ﷺ قد بلغ ما أنزل إليه، ونَصَحَ لأُمته، وجاهد في سبيل الله حتى أعزَّ الله دينه، وتمت كلمته، فاجعلنا إلهنا ممَّن تبع القول الذي أنزل معه، واجمع بيننا وبينه حتى نعرِّفه بنا ونعرِّفنا به؛ فإنه كان بالمؤمنين رءوفاً رحيماً، لا نبتغي بالإيمان به بدلاً، ولا نشترى به ثمناً أبداً»، فيقول الناس: آمين، آمين. وهذا يدل على أن المراد بالصلاة عليه ﷺ: الدعاء، لا الصلاة على الجنازة المعروفة عندهم. والصحيح أن هذا الدعاء كان ضمن الصلاة المعروفة التي بأربع تكبيرات، فقد جاء أن أبا بكر -رضي الله عنه- دخل عليه ﷺ فكَبَّرَ أربع تكبيرات، ثم دخل عمر -رضي الله عنه- فكَبَّرَ أربعاً، ثم دخل عثمان -رضي الله عنهما- ثم تتابع الناس أرسالاً، يكبِّرون عليه، أي وعلى هذا إنما خُصِّوا الدعاء بالذكر؛ لأنه الذي يليق به ﷺ، ومن ثم استشاروا

كيف يدعون له، فأشير بمثل ذلك.

وروى البيهقي عن ابن عباس: لما صَلَّى على المصطفى ﷺ، أُدْخِلَ الرجالُ فصلًا بغير إمام أرسالاً (أي قطائع) (١).

وقال الشافعي: وذلك لعظم أمره وتنافسهم في أن لا يتولى الإمامة أحدٌ في الصلاة عليه، وقيل: أوصى به. وقال السهيلي: وجهُ الفقه فيه أن الله افترض الصلاة عليه بقوله: ﴿صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦] وحُكِمَ الصلاة التي تضمنتها الآية أن لا تكون بإمام، والصلاة عليه عند موته داخلَةٌ في لفظ الآية. ثم صَلَّى عليه النساء بعد الرجال، ثم الصبيان، ثم العبيد بغير دعاء الجنائز المعروفة.

وفُرش له لَحْدُهُ قطيفة كان يلبسها ويفترشها، فقالوا: لا يلبسها أحد بعده، وهي كساء.

واتخذوا له لَحْدًا ونَصِبَتْ عليه تسعُ لَبَنَاتٍ، وجعلوه مُسَنَّمًا، وهذا لا يعارض مذهب العلماء في كراهة وضع فراش تحت الميت؛ لأنَّ كلامهم في غير النبي ﷺ ممن يتغير ويَبْلَى. وحكمةُ عدم أكل الأرض أجساد الأنبياء، وَمَنْ أَلْحَقَ بِهِمُ: التكريم، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزُقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩]. والأنبياء أَجَلٌ وأعظم من ذلك، والراجع أن حياة الشهداء بالجسد لا بالروح فقط، ولا يَقْدَحُ في ذلك عدمُ الشعور من الحي، وأعظمُ دليل على ذلك أن حياة الروح ثابتة لجميع الأموات: المؤمن والكافر بالإجماع، فلو لم تكن حياة الشهداء بالجسد لاستوى هو وغيره، ولم يحصل له تمييز على غيره، ولم يكن لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءُ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١٥٤] معنى، وقال ابن جرير في تفسيره: ﴿وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ أي لا ترونهم فتعلموا أنهم أحياء، فظاهره أن رزق الشهداء بالأكل والشرب في البرزخ، ليس للاحتياج، بل للإكرام والتنعيم. وورد

(١) جماعات.

«إن الله حَرَّمَ على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء»^(١) قال العلامة القرطبي في التذكرة: إن الأرض لا تأكل لحوم الأنبياء، والشهداء، والعلماء، والمؤذنين المحتسبين، وحملته القرآن. قال ابن كمال باشا:

لا تأكل الأرض جسماً للنبي ولا لعالم وشهيد قتل معترك
ولا لقارئ قرآن ومحتسب أذانه لإله مجري الفلك
ولا يضغط في قبره، وكذلك الأنبياء، ولم يسلم من الضغط صالح ولا غيره
سواهم^(٢)، وتحرَّم الصلاة على قبره واتخاذ مسجداً.

واختلفوا في موضع دفنه، فقال بعضهم: عند المنبر، وقال بعضهم: بالبقيع، وقال آخرون: يُحْمَل إلى أبيه إبراهيم فيدفن عنده، حتى قال العالم الأكبر صديق الأمة: ادفنوه في الموضع الذي قبض فيه، وهو بيت عائشة؛ فإن الله لم يقبض روحه إلا في مكان طيب، سمعته يقول: «ما قبض نبي إلا ودُفن حيث يقبض»^(٣). فُرع وحفر له أبو طلحة الأنصاري تحت فراشه الذي مات عليه، ونزل في قبره عليّ، والفضل وقثم.

وفي الإكليل: إن آخر الناس عهداً به ﷺ عليّ، وقيل: قُثم، وهو أصح. ولما دُفن ﷺ جاءت فاطمة رضي الله عنها فقالت: كيف طابت أنفسكم أن تحثوا على رسول الله التراب؟! وأخذت من تراب القبر الشريف وشمته وأنشدت تقول:

ماذا على من شَمَّ تُرْبَةَ أحمد أن لا يَشُمَّ مَدَى الزمان غواليها
صُبَّتْ عليّ مصائبُ لو أنَّها صُبَّتْ على الأيام عُدنَ لياليها

(١) رواه ابن ماجه.

(٢) وقد قال العلماء: إن ضمة القبر للكافر والعاصي ضمة غيظ، وضمة للمؤمن صالح ضمة الأم الحنون، وقد ورد في الحديث الصحيح أن: «من قرأ قل هو الله أحد في مرضه الذي يموت فيه لم يُفتن في قبره، وأمن من ضغطة القبر، وحملته الملائكة يوم القيامة بأكفها حتى تجزيه من الصراط إلى الجنة» رواه أبو نعيم في الحلية.

(٣) رواه مالك في الموطأ، وابن ماجه، وابن إسحاق في السيرة.

وقد عاشت فاطمة رضي الله تعالى عنها بعده ﷺ ستة أشهر، فما ضحكت تلك المدة.

وقال علماء السَّير: لَمَّا دفنها عليٌّ وقف على قبرها، وبكى، وقال:
لِكُلِّ اجتماع من خيلين فُرقةٌ وكلُّ الذي دونَ الفراق قليلٌ
وإنَّ افتقادي فاطمَ بعدَ أحمد دليلٌ علي أن لا يدوم خليل
وعن عطاء بن رباح قال: قال رسولُ الله ﷺ: «مَنْ أصابته مصيبةٌ فليتذكر مصيبتَه في فإنها من أعظم المصائب»^(١).

تعزية الخضر: ورُوي أنه جاءت من نبي الله الخضر عليه السلام التعزية، لأهل بيت النبوة بهذه المصيبة العظمى، يسمعون صوته ولا يرون شخصه^(٢)، فقال بعد أن سلمَ عليهم وقرأ ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [آل عمران: ١٨٥] إِنَّ فِي اللَّهِ عِزًّا مِنْ كُلِّ مَصِيبَةٍ، وَخَلَفًا مِنْ كُلِّ هَالِكٍ، ودرگًا مِنْ كُلِّ فَائِتٍ، فبالله فثَقُوا، وإيَّاه فارجُوا؛ فإنما المُصاب من حُرِّمِ الثَّوابِ.

وقد ذكر الشيخ أبو إسحاق في «المهذب» أوَّل باب التعزية: أنه يُسْتَحَبُّ أَنْ يُعَزَّى بتعزية سيدنا الخضر أهل بيت النبوة: «إن في الله.... إلى آخره».

وكان الرجل من أهل المدينة إذا أصابته مصيبةٌ جاء أخوه فصافحه، ويقول: يا عبد الله اتَّقِ الله، فإن في رسول الله أسوةً حسنة. وقال بعضهم في ذلك:

اصبر لكل مصيبةٍ وتجلَّد واعلَمْ بأنَّ المرءَ غيرُ مُخلَّدٍ

(١) هي مصيبة العمر وقاصمة الظهر.

(٢) ونصها من الروضة الندية ص ١٨٣ ج ١: «وأخرج الشافعي من حديث جعفر بن محمد، عن أبيه، عن جده قال: «لما توفي رسول الله، وجاءت التعزية: سمعوا قائلاً يقول: إن في الله عزاءً من كل مصيبة، وخلفاً من كل هالك، ودرگًا من كل فائت؛ فبالله فثقوا، وإيَّاه فارجوا، فإن المُصاب من حُرِّمِ الثَّوابِ» والخضر عليه السلام مختلف فيه: أهو نبي أم رجل صالح من المعمرين؟ وسيظهر آخر الزمان علناً ويحارب مع عيسى ابن مريم، وتحديث بينه وبين الدجال وقائع وحوادث كثير، ذكرت في كتب أعلام النبوة، والفنن والملاحم في آخر الزمان.

واصْبِرْ كما صَبَرَ الكَرَامُ فَإِنَّهَا نُوبٌ تَنُوبُ الْيَوْمَ تُكْشَفُ فِي غَدٍ
وَإِذَا أَتَتْكَ مُصِيبَةٌ تَشْجَى بِهَا فَادْكُرْ مُصَابِكَ بِالنَّبِيِّ مُحَمَّدٍ

ورثاه جماعة، منهم صفية عمته رضي الله عنها بمراثٍ كثيرة، وأبو سفيان بن الحارث، وأبو بكر الصديق رضي الله عنه.

وتوفاه الله وحصل له درجة الشهادة، فوق ما أعطاه الله من مراتب النبوة وزاده؛ لأنه لما سَمَّته اليهودية في الشاة استمر ذلك السم حتى قال في مرضه: «الآن انقطع أبْهَرِي» يعني من ذلك السم، والأبهر: عرقٌ مستبطن القلب، فإذا انقطع لم تبق بعده حياة.

وكانت وفاته يوم الإثنين ثاني عشر ربيع الأول، حين زاغَتِ الشمسُ سنة إحدى عشرة من الهجرة، وقيل: حين اشتد الضحى، كالوقت الذي دخل فيه إلى المدينة.

وعن ابن عباس: وُلِدَ ﷺ يوم الإثنين، وأُسْتُنْبِئَ يوم الإثنين، وخرج مهاجرًا من مكة إلى المدينة يوم الإثنين، ودخل المدينة يوم الإثنين، ووضع الحجر يوم الإثنين، وقُبِضَ يوم الإثنين، ودُفِنَ ليلة الأربعاء، وكانت ليلةً مظلمةً لفقده وانقطاع الوحي، عَكَسَ دخوله إليها في الهجرة.

قال أنس: «لما كان اليوم الذي دخل فيه رسول الله ﷺ المدينة أضاء منها كل شيء، فلما كان اليوم الذي مات فيه أظلم منها كل شيء».

وَلَمْ أُخَرِّ دَفَنَهُ؟ وقد قال عليه الصلاة والسلام لأهل بيتٍ أُخِّرُوا دَفْنَ مِيتِهِمْ: «عَجَّلُوا دَفْنَ مِيتِكُمْ وَلَا تَوَخَّرُوهُ»^(١).

فالجواب: أُخِّرُوهُ للاختلاف في دفنه، أو للاشتغال بأمر البيعة؛ ليكون لهم إمامٌ يرجعون إليه، وهو أهم الأمور، حتى استقر الأمر، فبايعوا أبا بكر، ثم رجعوا بعد ذلك إلى النبي ﷺ، فنظروا في دفنه فغسلوه وكفَّنوه ﷺ، وتزينتِ الجنان بقُدوم روحه الكريمة.

(١) وأخرج أحمد والترمذي قال ﷺ: «ثلاث لا يؤخَّرن: الصلاة إذا أتت، والجنابة إذا حضرت، والأيم إذا وجدت كفؤًا».

إذا كان عرشُ الرحمن اهتز لموت (أحد)^(١) أتباعه فرحًا واستبشارًا بقدوم روحه، فكيف بقدوم روح الأرواح ﷺ!

فعلى هذه الرواية^(٢) يومُ وفاته موافق ليوم مولده.

قال الصلاح الصفدي في شرح لامية العجم فائدة ذكرتها هنا، وهي أنه وُجد بخط الشيخ تقي الدين بن الصلاح رحمه الله تعالى ما صورته: «ذكر أبو القاسم السهيلي قال: أجمع المسلمون على أنَّ حَجَّةَ الوداع كان يومُ عرفة فيها يوم الجمعة، وكان أولُ شهر ذي الحجة في تلك السنة الخميس، هذا لا شك فيه».

ثم قال بعد ذلك: «وقال أكثر أهل التاريخ إن رسول الله ﷺ توفي يوم الإثنين، ثاني عشر ربيع الأول، بعد الحجة المذكورة بثلاثة أشهر».

وكيف حسبَ الإنسانَ الشهورَ، وهن: ذو الحجة، والمحرم، وصفر، وربيع الأول، وجعل أول ذي الحجة الخميس، ما يتصوّر أن يكون رسول الله ﷺ توفي يوم الإثنين ثاني عشر ربيع الأول، سواء حسبَ الجميع نواقص أو كوامل، أو بعضها نواقص وبعضها كوامل، فاعتبره تجده كذلك.

وأجاب عن هذا السؤال قاضي القضاة شرف الدين البارزي الحموي بما صورته: يحتمل أنه لما حجَّ رسولُ الله ﷺ رأى هلالَ ذي الحجة بين مكة والمدينة ليلة الخميس، وغمَّ على أهل المدينة، فلم يروا هلالَ ذي الحجة إلا ليلة الجمعة، فلما رجَعَ رسولُ الله ﷺ وتوفي بالمدينة أرَّخ أهلُ المدينة موته على حكم ما رأوا، وأرَّخوا في أول ذي الحجة، وهو يوم الجمعة، فجاءت الشهور الثلاثة: ذو الحجة، والمحرم، وصفر كوامل، وجاء أول ربيع الأول: الخميس، وكان ثاني عشر ربيع الأول

(١) ما بين القوسين لم يكن بالأصل الذي راجعنا عليه، بل وضعناها لإصلاح السياق، والذي اهتز له عرش الرحمن هو «سعد بن معاذ» رضي الله عنه، قال رسول الله ﷺ: «اهتز عرش الرحمن لموت سعد بن معاذ» رواه مسلم، والإمام أحمد.

(٢) رواية ابن عباس التي أشار إليها آنفاً بقوله: «عن ابن عباس... إلخ».

يوم الإثنين، وكان بين رؤيته ﷺ وبين رؤية أهل المدينة مسافة القصر، والصحيح من مذهب الشافعي اعتبارُ اختلاف المطالع، والله أعلم. اهـ^(١).

ولما توفي ﷺ ترتب على وفاته ارتدادُ أكثر العرب، كبنِي حنيفة، إلا أن أهل المدينة ومكة والطائف لم تدخلهم الردّة، وكان عاملُ رسول الله ﷺ على مكة عتّاب بن أسيد، فاستخفى خوفاً على نفسه، فارتجت مكة وكاد أهلها يرتدون، فقام سهيل بن عمرو على باب الكعبة وصاح بقريش وغيرهم، فاجتمعوا إليه، فقال: «يا أهل مكة، كنتم آخرَ مَنْ أَسْلَمَ، فلا تكونوا أول من ارتد، والله لَيُئِمِّنَ اللهُ هذا الأمر كما قال رسول الله ﷺ». فامتنع أهل مكة من الردة.

وسياتي ما يتعلق بذلك في الفصل الأول من الباب الخامس.

قال ابن إسحاق: ولما توفي رسول الله ﷺ عظمتُ به مصيبة المسلمين، فكانت عائشة - رضي الله عنها - فيما بلغني تقول: «لما توفي رسول الله ﷺ ارتدت العرب وشرأبت اليهودية والنصرانية، ونجم النفاق، فكان المسلمون كالغيم المطيرة في الليلة الشاتية لفقد نبيهم ﷺ، حتى جمعهم الله على أبي بكر» انتهى.

وقال أهل السير: خرج أبو بكر - رضي الله عنه - إلى الناس وهم في المسجد يمجون، فخطبهم وثبتهم، ونعى لهم سيّد الأولين، وقرأ عليهم الآيات التي تناسب ذلك، ومنها: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ

(١) أخرج مسلم في صحيحه عن سيدنا عمر رضي الله عنه أنَّ رجلاً من اليهود قال: يا أمير المؤمنين، آية في كتابكم تقرأونها لو علينا معشر اليهود أنزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيداً، قال: أي آية؟ قال: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] قال عمر: قد عرفنا ذلك اليوم والمكان الذي أنزلت فيه على رسول الله ﷺ. وهو قائم يوم عرفة في يوم الجمعة.

وأخرج رزين في «تجريد الصحابة» أن رسول الله ﷺ قال: «أفضل الأيام يومُ عرفة وافقَ يومَ جمعة، وهو أفضل من سبعين حجة في غير حجة».

وحديثُ أن رسول الله ﷺ وقف وقفة عرفة يوم جمعة، رواه أيضاً البخاري ومسلم، والإمام أحمد، وابن جرير، وابن مردويه، والطبراني، وهو مروي عن سيدنا عمر، والإمام علي، ومعاوية بن أبي سفيان، وعبد الله بن عباس وسمرة بن جندب.

أَعَقَبَكُمْ ﴿ وهذا استفهام إنكار ﴾ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿ [آل عمران: ١٤٤] - ولم يكن فيهم أثبت منه ومن العباس.

وما ترك رسول الله ﷺ عند موته درهما ولا دينارا، ولا عبدا ولا شيئا، إلا بغلته البيضاء وسلاحه، وأرضا جعلها صدقة.

وعن عائشة - رضي الله عنها - أن فاطمة سألت أبا بكر بعد وفاة رسول الله ﷺ ميراثها من تركة رسول الله ﷺ من خير وفدك، فقال أبو بكر: إن رسول الله ﷺ قال: «لا نورث؛ ما تركناه صدقة»، فأبى أبو بكر أن يدفع إلى فاطمة شيئا؛ فوجدت فاطمة على أبي بكر في ذلك؛ فهجرته فلم تزل مهاجرة حتى توفيت^(١).

وروى البيهقي عن الشعبي أن أبا بكر عاد فاطمة في مرضها، فقال لها علي: هذا أبو بكر يستأذن عليك؟ قالت: أتحب أن أذن له؟ قال: نعم، فأذنت له. فدخل عليها فترضاها حتى رضيت^(٢).

(١) قول الشيخ رحمه الله «لم تزل مهاجرة حتى توفيت». افتراء محض من المؤرخين، والذي يستعرض موقف الصحابة عند موت رسول الله ﷺ، ويعرف مدى المصيبة التي حلت بهم، يعرف أيضا موقف السيدة فاطمة - رضي الله عنها - من هذه الصدمة. هذا أحدهم يدعو على نفسه بالعمى، حتى لا يرى أحدا بعد رسول الله ﷺ ويستجاب له، وهذا سيدنا عمر قد حدث له ما حدث، حتى هاج في الناس، وقال: «من يزعم أن محمدا قد مات قتلته بسيفي هذا». وهذا أبو بكر رضي الله عنه وأرضاه، أخذ جسمه في النقصان والتحول حتى مات بعد عامين وأشهر من موت رسول الله ﷺ. وهذا، وعدد كبير من الصحابة رضي الله عنهم حدث منهم ما يُنكر لو لم يكن هذا الحادث، فما بالك بالسيدة فاطمة - رضي الله عنها - وأرضاه. مطالبتها بالميراث صحيحة، ولكن غضبها من أبي بكر افتراء وكذب، نعم، إنها جلست في بيتها ستة أشهر لم تكلمه ولم تكلم أحدا؛ لما هي فيه من البلوى التي حلت بها، وقد عبرت عن هذا عندما زارها أباه [بعد انتقاله] بقولها:

صُبَّتْ عَلَيَّ مَصَائِبٌ لَوْ أَنَّهَا صُبَّتْ عَلَى الْأَيَّامِ عُذُنْ لِيَالِيَا

وأما حديث «نحن معاشر الأنبياء لا نورث: ما تركناه صدقة» فقد رواه أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي بن أبي طالب، وطلحة، والزبير، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الرحمن بن عوف، والعباس، وأزواج النبي ﷺ، والرواية عنهم ثابتة في الصحيح والمسانيد. ولم تحرم السيدة فاطمة من الميراث وحدها، وإنما أيضا أزواجه ﷺ، فلم لم يُنزل الشيعة الضجة بأن أزواجه ﷺ: لم لم يورثن أيضا؟ وهذه وحده أكبر دليل على أنها زووجة مقصودة للإفساد، لا حياء في السيدة فاطمة - رضي الله عنها - والله تعالى أعلم.

(٢) إنما ترضاها سيدنا أبو بكر مخافة أن تكون غاضبة منه، وفي الحديث جملة من آداب بيت النبوة، منها قولها: «أتحب أن أذن له» لأن المرأة ليس لها أن تأذن في بيت زوجها إلا بإذنه.

الفصل الثاني

في ذكر بعض أخلاقه وصفاته ﷺ

من المعلوم أنه ﷺ لمَّا كان خاتم النبيين وسيد المرسلين، وآتاه الله علم الأولين والآخرين، وفضَّله على سائر الخلق أجمعين، خصَّه بمناقب لا يحصيها أحد من العالمين، فكيف وهو الذي أظهر هذا الدين القويم، وأنار هذا الصراط المستقيم! فكل فضل منسوب إلى فضله، وكل علم مستفاد من علمه ونبله، فهذا ينبغي أن يُذكر شيء من مناقبه على سبيل الاختصار والإيجاز، وقد تقدم ذكر بعضها فنقول:

إن من أحسن ما يروى من أوصافه ما رُوي عن عمر بن الخطاب أنه سَمِعَ بعد وفاة النبي ﷺ يقول وهو يبكي هذه الكلمات:

«بأبي أنت وأمي يا رسول الله (أي أفديك بأبي وأمي، وهي كلمة تستعملها العرب لتعظيم المفدى) لقد كان لك جذعٌ تخطب عليه، فلما كثر الناس اتخذت منبراً تُسمعهم عليه، فجنَّ الجذع لفراقك حتى جعلت يدك عليه فسكت، فأمتُّك أولى بالحنين عليك حين فارقتهم.

بأبي أنت وأمي يا رسول الله، لقد بلغ من فضيلتك عند ربك أن جعل طاعتك طاعته فقال تعالى: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

بأبي أنت وأمي يا رسول الله، لقد بلغ من فضيلتك عنده أن أخبرك بالعفو عنك قبل أن يخبرك بذنبك، فقال: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهْمُ﴾ [التوبة: ٤٣].

بأبي أنت وأمي يا رسول الله، لقد بلغ من فضيلتك عنده أن جعلك آخر الأنبياء وذكرك في أولهم، فقال تعالى: ﴿وَلِإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ [الأحزاب: ٧].

بأبي أنت وأمي يا رسول الله، لقد بلغ من فضيلتك عنده أن أهل النار يودّون لو كانوا أطاعوك وهم بين أطباقها يُعذّبون، يقولون: ﴿يَلَيْتَنَّا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ﴾ [الأحزاب: ٦٦].

بأبي أنت وأمي يا رسول الله، إن كان موسى بن عمران أعطاه الله حَجْرًا تتفجر منه الأنهار، فماذا بأعجب من أصابعك حين نبع منها الماء^(١)! صلى الله عليك.

بأبي أنت وأمي يا رسول الله، لئن كان سليمان بن داود أعطاه الله الريح غدوًا شهر ورواحها شهر، فما ذلك بأعجب من البراق حيث سرت عليه إلى السماء السابعة، ثم صليت الصبح بالأبطح، صلى الله عليك.

بأبي أنت وأمي يا رسول الله، لئن كان عيسى ابن مريم أعطاه الله إحياء الموتى، فما ذلك بأعجب من الشاة المسمومة حتى كلمتك وهي مشوية فقالت: «لا تأكلني فإنني مسمومة».

بأبي أنت وأمي يا رسول الله، لقد دعا نوح على قومه فقال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦] ولو دعوت علينا مثلها لهلكنا عن آخرنا، فلقد وُطئ ظهرُك، وأدُمي وجهُك، وكُسرت رباعيتك، فأبيت أن تقول إلا خيرًا فقلت: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون».

بأبي أنت وأمي يا رسول الله، لقد اتبعك في قلة سنك وقصر عمرك ما لم يتبع نوحًا في كبر سنّه وطول عمره؛ فلقد آمن بك الكثير، وما آمن معه إلا القليل.

بأبي أنت وأمي يا رسول الله، لو لم تجالس إلا كفؤًا ما جالسنا، ولو لم تنكح

(١) رواه مسلم في حديثه الطويل في غزوة بواط وغيره في الصحيح.

إِلَّا كَفُّوْا مَا نَكَحَتْ إِلَيْنَا، وَلَوْ لَمْ تَوْاَكُلْ إِلَّا كَفُّوْا مَا أَكَلْتَنَا، لَبَسَتْ الصُّوفَ، وَرَكِبَتْ
الْحِمَارَ، وَوَضَعَتْ طَعَامَكَ بِالْأَرْضِ، وَلَعَقَتْ أَصَابِعَكَ تَوَاضِعًا مِنْكَ».

ووصفه عليّ رضي الله عنه فقال: «ليس بالطويل، ولا بالقصير، ضخّم الرأس، كثُ
اللحية، شَتْنُ الكَفَّيْنِ والقدمين، ضخّم الكراديس، مُشْرَبًا وجهه بحمرة، أدعج العينين،
سبط الشعر، سهل الخدين، كأن عنقه أبريق فضة».

وقال أنس: «لَمْ يُشِنَّهُ اللَّهُ بالشيب، كان في مقدّم لحيته عشرون شعرة بيضاء، وفي
مفرق رأسه شعرات بيض».

وروي أنه كان يخضب بالحناء والكتم. وعن ابن عمر: «اِخْتَضِبُوا بالسواد فإنه أنكَأ
لِلْعَدُوِّ وَأَحَبُّ لِلنِّسَاءِ».

وكان بين كتفيه خاتم النبوة، وهو بضعة (أي قطعة لحم) ناشزة (أي مرتفعة) حولها
شعر.

وروي سلمان الفارسي أنه قال: مثل بيضة الحمامة بين كتفيه، وقيل: كان مضغة
كلون بدنه، وقيل: كانت شامة خضراء محتفزة في اللحم، وقيل: كَزُرُ الحجلة (بتقديم
الزاي على الراء) والمراد به البيض، والحجلة (بتقديم الحاء على الجيم بعدها لام):
الطائر المعروف أي مثل بيض هذا الطائر.

قال بعضهم: وجملة الأقوال تبلغ نيفًا وعشرين قولاً، لكنها متقاربة المعنى، وليس
ذلك باختلاف، بل كل راوٍ شَبَّهَ بما سَنَحَ له وظهر، فواحدٌ قال: كَزُرُ الحجلة، وآخر:
كبيضة الحمامة، وآخر: كالتفاحة، وآخر: بضعة لحم ناشزة، وآخر: لحمة نائثة، وآخر:
المحجمة، وكلُّها ألفاظ مؤدّاها واحد، وهو قطعة لحم، ومن قال: شَعْرٌ؛ فلأن الشعر
حوله متراكم عليه.

وقال القرطبي رحمه الله: الأحاديثُ الثابتةُ على أَنَّ خاتم النبوة كان شيئاً بارزاً أحمرَ
عند كتفيه الأيسر، إذا قَلَلْ قدر بيضة الحمامة، وإذا كثر: جمع اليد. انتهى.

وسُئِلَ البرهان الحلبي: هل خاتم النبوة من خصائصه ﷺ؟ أو كل نبي خُتِمَ بخاتم النبوة؟ فأجاب: لا أستحضر في ذلك شيئاً، ولكن الذي يظهر أنه خُصَّ بذلك لمعانٍ منها أنها إشارة إلى أنه خاتم النبيين، وليس كذلك غيره، ولأن باب النبوة ختم به، فلا يُفتح بعده.

وفي هذا المعنى لنجل المؤلف «على فهمى رفاة» قوله:

بَعَثَهُ لِلدِّينِ أَفْرَا حُحْ وَلِلْأَعْدَا مَاتُمْ
وَلَهُ الْخَاتَمُ يُنْبِي أَنَّهُ لِلرُّسُلِ خَاتَمُ

قال السهيلي: «والحكمة في وضع خاتم النبوة على جهة اليسار، أنه لما ملئ قلبه إيماناً ختم عليه كما يختم على الدعاء المملوء ممسكاً أو دُرّاً، فجمع الله تعالى أجزاء النبوة لسيدنا محمد رسول الله ﷺ، وتَمَّمه وختمَ عليه بختمه، فلم تجد نفسه ولا عدوه سبيلاً إليه من أجل ذلك الختم؛ لأن الشيء المختوم محروس، وكذلك تدبيرُ الله لنا في هذه الدار، إذا وجد أحدنا الشيء بختمه زال الشك وانقطع الخصام فيما بين الآدميين، فلذلك ختم ربُّ العالمين في قلبه حتى يطمئن له القلب الذي ألقى النور فيه، فظهر بين كتفيه كالليضة». انتهى.

واسعُ الجبين، عَرَقَهُ أَطْيَبُ رِيحًا مِنَ الْمِسْكِ، وفي وجهه تدويرٌ، عظيمُ الفم، حَسَنُ الثَّغْرِ، رائقُ الشَّيْءِ، فِي أَسْنَانِهِ تَفْلِيحٌ وَتَفْرِيقٌ، حَلَوُ الْمُنْطَقِ، يَتَكَلَّمُ بِجَوَامِعِ الْكَلِمِ، لَا يَضْحَكُ إِلَّا تَبَسُّمًا، إِذَا جَلَسَ مَعَ أَصْحَابِهِ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ- فَكَأَنَّمَا عَلَى رُؤُوسِهِمُ الطَّيْرُ مِنْ حُسْنِ تَوَاضُعِهِمْ بَيْنَ يَدَيْهِ ﷺ، أَزْهَرُ اللَّوْنِ، إِذَا مَشَى فَكَأَنَّمَا تُطَوَّى لَهُ الْأَرْضُ، وَفِي مَشْيِهِ لَا يَلْتَفِتُ وَرَاءَهُ، وَإِذَا التَفَتَ التَفَتَ جَمِيعًا، حَسَنُ الْوَجْهِ، حَسَنُ الصَّوْتِ، خُصُوصًا بِتِلَاوَةِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ.

وقد جاوز نبينا ﷺ المرتبة العليا من الفصاحة، فكان أفصح العرب لساناً وأوضحهم بياناً، وأعدلهم نطقاً، وأسَدَّهُمْ لَفْظًا، وَأَبْيَنَهُمْ لَهْجَةً، وَأَقْوَمَهُمْ حِجَةً، وَأَعْرَفَهُمْ بِمَوَاقِعِ

الخطاب، وأهداهم إلى طرق الصواب، تأييداً إلهياً، وحفظاً سمائياً، وعنايةً ربانية، ورعايةً روحانية، حتى لقد قال [عليّ] رضي الله عنه وسمعهُ يخاطب وفد بني نهد: «يا رسول الله، نحن بنو أب واحد، ونراك تكلم وفود العرب بما لا نفهم أكثره»، فقال: «أدبني ربي فأحسن تأديبي، ورُبيتُ في بني سعد» فكان رسول الله ﷺ يخاطب العرب على اختلاف شعوبهم وقبائلهم، وتباين بطونهم وأفخاذهم وفصائلهم، كلٌّ منهم بما يفهمون، ويحدثهم بما يعلمون، ولذلك قال ﷺ: «أُمِرْتُ أَنْ أَخاطبَ النَّاسَ عَلَى قَدْرِ عَقُولِهِمْ» فكانَ الله تعالى قد أعلمه ما لم يكن يعلمه غيره من بني أبيه، مما تفرَّق ولم يوجد في قاصي العرب ودانيهم.

وكانت القبائل تَرُدُّ على رسول الله ﷺ لتأخذ عنه القرآن، وكان ﷺ يترجم لكل قبيلة بحسب لغتها من قبائل: قريش، وكنانة، وحِمْير، وهذيل، وطِئِئ، وجِهم، ومدلج، وغيرهم؛ فربما مدَّ^(١) ﷺ قدر الألف والألفين والثلاث لمن لغته كذلك، وربما فحَّم لمن لغته التفخيم، وربما أَمَل لمن لغته الإمالة، وربما أدغم لمن لغته الإدغام، وربما رَقَّق لمن لغته الترقيق، وهكذا في سائر وجوه الآداب والأحكام التي أَمَرنا الله بها ونهانا عنها في القرآن كلها واحدة، لا تتغير في جميع القراءات، فلما وقع الضبط وأخذت القراءات عن القبائل ضبطَ كلِّ إنسان ما سمع فقط؛ إذ القياس هنا ممنوع، وجميعُ التراجم كلها قرآن منزل، أُوحي به إلى رسول الله ﷺ ولو جاز أن يترجم ﷺ عن القرآن بغير ما أُوحي به إليه لم يخرج عن مرتبتين؛ لأنه إما يترجم بلفظٍ مساوٍ للوحي أو دونه، فإن كان دونه: لم يَصْدُقْ عليه أنه ﷺ بَلَّغَ ما أنزل إليه من ربه، وذلك مُحَالٌ في حقه ﷺ، وإن كان مساوياً: فأَيُّ فائدة للعدول عن الوحي من الله بلفظٍ مساوٍ له؟ فما بقي إلا أنه ﷺ بَلَّغَ ما أنزل إليه من ربه بحروفه الحاملة للمعاني القديمة. وكان ابن عباس رضي الله عنهما يقول: «ما أنزل الله عزَّ وجل كتاباً إلا بالعربية إذ

(١) أي مدَّ الحروف في النطق.

هي أوسع اللغات، ولكن كان جبريل عليه السلام يترجم لكل نبي بلسان قومه، وليس في القرآن العظيم إلا لغة العرب، وربما وافقت اللغة منه لغة غير العرب، والأصلُ عربي لا يخالطه شيء».

وكان أصحابُ رسول الله ﷺ ومن يَفِدُ إليه من العرب يعرفون أكثر ما يقوله، وما جهلوه يسألونه عنه فيوضحه لهم، وقد كان النبي ﷺ إذا تكلم تكلم بكلام مفصل مبين يعده العادُّ، ليس بهذا مسرع لا يحفظ، قالت عائشة رضي الله عنها: ما كان رسول الله ﷺ يسرد سردكم هذا؛ كان يحدث حديثاً لو عدّه العادُّ لأحصاه، وكان يعيد الكلمة ثلاثاً لَتَفْهَمَ عنه، وقال له عمر رضي الله عنه: يا رسول الله ما لك أفصحن ولم تخرج من بين أظهرنا؟ قال:

«لقد كانت لغة إسماعيل قد دَرَسَتْ فجاء بها جبريل فحَفَظَنيها» وقال: «أنا أَعَرَبُ العرب، وُلدت في قريش ونشأت في بني سعد فأَتَيْني اللَّحْنُ»^(١) فقد كان من خصائص نبينا ﷺ أن يكلم كل ذي لغة بلغته على اختلاف لغة العرب وتراكيب ألفاظها وأساليب كلمها، وكان أحدهم لا يجاوز لغته، وإن سمع لغة غيره فكالعجمية يسمعها العربي، وما ذلك منه ﷺ إلا بقوة إلهية وموهبة ربّانية؛ لأنه بعث إلى الكافة طراً وإلى الخليقة سوداً وحمراً، ولا يوجد متكلم بغير لغته إلا قاصراً في تلك الترجمة، نازلاً عن صاحب الأصالة في تلك اللغة، إلا هو ﷺ؛ فإنه كان إذا تكلم في لغة من لغات العرب أفصح وأنصع بلغاتها منها بلغة نفسها، وجدير به ذلك؛ فقد أوتي جميع القوى البشرية المحموده، ومزية على الناس بأشياء كثيرة.

وبالجملة فقد ألّف الناس في فصاحته وجوامع كَلِمِهِ الدواوين، ولا خفاء بأن أفصح اللغات لغات العرب، وغاية لسان هارون وفصاحته إنما كانت في العبرانية،

(١) وقد رُوِيَ أن النبي ﷺ قال: «أول من فتق لسانه بالعربية المبينة إسماعيل وهو ابن أربع عشرة سنة» رواه الشيرازي في الألقاب عن علي كرم الله وجهه، وروى الحديث الذي ذكره الشيخ بلفظ آخر: «أنا أعربكم، أنا من قريش ولساني لسان بني سعد بن بكر» رواه ابن سعد.

وإلا فالعربية أفصح منها^(١)، وأما ما اشتهر على ألسنة كثير من الناس أنه ﷺ قال: «أنا أفصح من نطق بالضاد»، فقال الحافظ ابن كثير، وتابعه تلميذاه الزركشي، وابن الجوزي، والجلال السيوطي، والسخاوي: إنه لا أصل له، كما يؤخذ من قول النجم. ثم هو ﷺ أفصح من نطق بالضاد من بين أهل اللغة العربية، حيث لم يعزه لرواية، وهو صحيح المعنى، إذ معناه: أنا أفصح العرب. لكونهم هم الذين ينطقون بها، ولا توجد في لغة غيرهم.

وأما خلقه ﷺ، فكان خلقه القرآن؛ يرضى لرضاه، ويسخط لسخطه، ويسارع إلى ما حثَّ عليه، ويمتنع مما زجر عنه، فلهذا كان يتضاعف جوده وإفضاله في شهر رمضان لقرب عهد مخالطته جبريل عليه السلام، وكثرة مدارسته لهذا الكتاب الكريم الذي يحثُّ على مكارم الأخلاق والجود، ولا شك أن المخالطة تؤثر وتورث أخلاقاً من المخالط، كما قال بعضهم لابنه:

بُنِّي اجْتَنِبْ كُلَّ ذِي بَدْعَةٍ وَلَا تَصْحَبْ مَنْ بِهَا يُوصَفُ
فيسرق طبعك من طبعه وأنت بذلك لا تعرفُ

وقد سُئل الشمسُ الرملي: كيف كان جبريل يُقرئ النبي ﷺ؟ فأجاب بأنه كان يقرأه عليه أولاً ليعلمه إياه، ثم بعد ذلك كان يدارسه القرآن، بأن يقرأ هذا على هذا والآخر كذلك.

وكان ﷺ لا ينتقم لنفسه ولا يغضب لها، إلا أن تُنتهك حُرُمات الله، فيغضب لله، وإذا غضب لم يَقُمْ لغضبه أحد، وكان أرجح الناس عقلاً وأفضلهم، يُكثر الذكر ويطيل الصمت، دائم البشر، وكان أصدق الناس وأوفاهم ذمةً، وأوسعهم صدراً، وأكرمهم عشيرةً، وأحسنهم خلقاً، وإذا انتهى إلى قوم جلس حيث ينتهي به المجلس، يؤلف

(١) أما قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِخَىٰ هَارُوتَ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾ [القصص: ٣٤] ليس المقصود فصاحة اللغة، وإنما المقصود أنه يستطيع أن يعبر أحسن منه، والله أعلم بمراده بذلك.

أصحابه ولا ينفرهم، ويكرم كل كريم قوم ويؤليه عليهم، ويشي على مكارم الأخلاق، فأثنى بذلك على حاتم الطائي حين تعرفت إليه ابنته بأبيها، وذلك أنها سُبِيت في جمع من نساء قومها في غزوة هوازن، فلما خرج رسول الله ﷺ من المسجد قامت إليه فقالت: «يا محمد، مات الوالد وغاب الوافد، فلا تُشمت بي أحياء العرب، فإني ابنة من كان يُقري الضيف ويفك العاني، ويُطلق الأسير ويُعطي السائل» فقال ﷺ: مَنْ أبوك؟ فقالت: حاتم الطائي، قال: «خلّوا عنها إن أباه كان يحب مكارم الأخلاق» فأثنى على أبيها مع كفره، وخلّى عن ابنته ومَن معها لأجله، فهذه آثار صنائع المعروف مع الكفر والعصيان، فكيف مع الطاعة والإيمان؟!.

قيل: إن ابنة حاتم الطائي دَعَتْ لرسول الله ﷺ حين مَنَّ عليها بالخلاص من الأسر فقالت: «شكرتكَ يَدُ افتقرت بعد غنى، ولا ملكتك يَدُ استغنت بعد فقر^(١)»، وأصاب الله بمعروفك مواضعه، ولا جعل لك إلى لئيم حاجة، ولا سلبت نعمة عن كريم إلا وجعلت سبباً لردّها».

ويقال إنها خاطبته بقولها:

خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِعُرْفٍ كَمَا أُمِرْتُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ
وَلِنْ فِي الْكَلَامِ لِجَمْعِ الْأَنَامِ فَمُسْتَحْسَنٌ مِنْ ذَوِي الْجَاهِ لَيْنِ

وكان ﷺ يُؤَلِّي مِنَ النَّاسِ خِيَارَهُمْ، والذي يليه منهم خيارهم، وكان أفضلهم عنده أعمهم نصيحةً، وأعظمهم عنده منزلة أحسنهم مواساةً ومؤازرةً، وما انتهر خادماً ولا قال له في شيء صنعَه لَمْ صَنَعْتَهُ؟ ولا في شيء تركَه لَمْ تَرَكَتَهُ؟ بل يقول «لو قَدَّر يكون»، ولا ضرب بيده أحداً إلا في الجهاد.

ولما قيل له ادْعُ عَلَى الْكَفَّارِ، قال: «إنما بعثت رحمةً، اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون».

(١) لأن اليد التي افتقرت بعد غنى هي أليف الكرم، والأخرى والعياذ بالله أليف الفقر وضجيجه، أَرْضَعَهَا بِلْبَانِهِ.

وكان عنده القريب والبعيد، والقوي والضعيف في الحق سواء، ويؤلف أصحابه ولا يُنفّرهم، ولم يكن فحاشاً (من باب النسب)^(١) أي وليس بذئ فحش أي لا يصدر عنه، وليس من باب المبالغة حتى تكون منفية لإشعاره ببقاء أصل الفحش، وهو ظاهر البطلان، فهو من باب قوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [فصلت: ٤٦] أي بذئ ظلم، لا أن كثرة الظلم هي المنفية وأصل الظلم موجود؛ إذ هو مستحيل عليه تعالى. ولا لَعَنًا، ولا بخيلاً، ولا جباناً، ولا سَخَابًا في الأسواق (بالسين المهملة والخاء المعجمة وهو لغة ربيعة) والسَّخْب هو: رفع الصوت، أي لا كثيره ولا قليله، والمراد نفيه مطلقاً. والمعنى وصفه ﷺ بأنه ليس عنده رغبة في الدنيا وتحصيلها، بحيث يصرف زمانه في تحصيلها بالجد في ذلك والإكثار منه في الأسواق، فلا ينافي أنه عليه الصلاة والسلام تَجَرَّ لخديجة رضي الله عنها^(٢) فكيف يكون ذلك، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «اتَّقُوا اللَّهَ وَأَجْمَلُوا فِي طَلَبِ الدُّنْيَا فَإِنَّ كُلَّ مَيْسِرٍ لِّكَمَا خُلِقَ لَهُ»^(٣) ولا يواجه أحداً بما يكره، يُكْرِمُ أَهْلَ الْفَضْلِ ويتألف أهل الشرف، ويؤثر الداخل بوساده، وكان يخصف نعله، ويرقع ثوبه، ويعود المرضى؛ حتى بعض الكفرة والمنافقين، ويشهد الجنائز، ويزور القبور، ويسلم عليهم ويستغفر لهم، ولا يقام لغضبه إذا تعرّض للحق بشيء حتى ينتصر له، ولا يغضب لنفسه ولا ينتصر لها، ولا يترك أحداً يقوم بين يديه ولا أن يمشي خلفه، ويقول: «خَلُّوا ظَهْرِي لِّلْمَلَائِكَةِ»^(٤) يخدم من خدمه، وله عبيد وإماء، ولا يترفع عليهم في مأكَل ولا ملبس، قال أنس: «خدمته نحوًا من عشر سنين، فوالله ما صحبتُهُ في حضرٍ ولا سفرٍ ولا خدمةٍ إلا كانت خدمته لي أكثر من خدمتي له، وما قال لي أف قط، ولا قال لشيء فعلت: لِمَ فعلتَ كذا؟ ولا لشيء لم أفعله: لِمَ لم تفعل

(١) أي لا ينسب إلى الفحش، فقد قال ﷺ: «إن الله لا يحب كل فاحش متفحش».

(٢) هذا قبل (الرسالة) أما بعدها فمما أفاء الله عليه.

(٣) رواية ابن ماجة والطبراني والحاكم، والبيهقي ولفظها: «أجملوا في طلب الدنيا؛ فإن كل ميسر لما كُتب له منها».

كذا في الفتح الكبير، وقوله ﷺ: «كل ميسر لما خُلِقَ له» رواه أحمد وأبو داود والترمذي.

(٤) رواه ابن سعد، ولفظه: «امشوا أمامي: خلوا ظهري للملائكة».

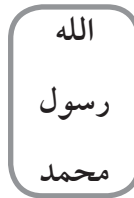
كذا؟» ولا يَجْزِي سِيئَةً بِمِثْلِهَا، بل يعفو ويصفح، ويجود ويمنح، وَكَانَ يَأْكُلُ مَا وَجَدَ، ولا يَتَكَلَّفُ مَا فَقَدَ، ويحبُّ اللحمَ، ويعجبه الذراع، وَسُمِّ فِيهِ، والدُّبَّاءُ والعجوة والعسل والحلواء، وأحبُّ الفاكهة إليه العنب والبطيخ، وكان أكثر طعامه التمر والماء، وإذا لم يجد صَبَرَ، ولا يأكل وحده، ويعاف الضبَّ، والكلوتين^(١)، وَأَتَى بِلَبَنٍ وَعَسَلَ وَقَالَ: «أَدْمَانُ فِي إِنْاء؟ لَا أَكُلُهُ وَلَا أَحَرِّمُهُ» ويأكل بثلاثة أصابع ويستعين بالراع، ويتبع ما سقط من السفرة، ويقول: مَنْ فعله غُفِرَ لَهُ، ويسمِّي الله أولاً ويحمده آخرًا، ويأكل مُقْعِيًا لَا مُتَكِنًا، ويقول: «أَكُلْ كَمَا يَأْكُلُ الْعَبِيدُ، وَأَجْلِسْ كَمَا يَجْلِسُ الْعَبِيدُ»، وقوله كما يأكل العبيد: أي كأكل العبد في هيئة التناول ومصاحبة الرضا بما حضر تواضعًا لله، لا كما يأكل أَهْلُ الْكِبَرِ، وَأَهْلُ الشَّرِّه، فالمراد بالعبد هنا الإنسان المتذل المتواضع لربه، كما قاله المناوي، وقوله: وأجلس أي في حالة الأكل كما يجلس العبد، أي لأن التخلق بالأخلاق العبدية أشرف الأوصاف، لا كما يجلس أهل الكبر وأهل الشره من الاتكاء، وما أكل قَطَّ ذَا رَائِحَةٍ كَرِيهَةٍ لِنَزُولِ الْمَلِكِ عَلَيْهِ بِالْوَحْيِ ومجالسته، بل ولغير الملك من نسائه والناس. ولا يجمع بين لبن وسمك، ولا لبن وحامض، ولا بين حَارِّينَ وَلَا بَارِدِينَ، ولا قابضين ومُسْهِلِينَ، ولا غليظين، ويدفع ضررَ البعض بالبعض، كتمر بزبد، وبطيخ أو قثاء برطب، وينقع التمر ويشربه للهضم، ولا ينام بعد الأكل. وكان يشرب اللبن حليًا وممزوجًا، والماء في ثلاثة أنفاس، ويمصُّ ولا يعبُّ، ويقول: «الْكِبَادُ مِنَ الْعَبِّ» (الكباد: وجع الكبد)، ولا يتنفس في الإناء، وإذا شرب دفع الباقي لمن عن يمينه، وإن كان عن يساره أشرفَ أو أسنَّ، قال للأيمن: «الشربة لك، فإن شئتَ آثَرْتَهُ» ويشرب قاعدًا، وربما شرب قائمًا.

وكان يلبس الكتَّانَ أو الصوف، أو القطن، وهو الغالب، قميصًا أو رداءً أو إزارًا أو غيرهما، ويحب البيضَ والخضر، ولبس البردة والحبرة والعجبة والحلَّةَ الحُمْراءَ،

(١) ولم يحرِّمهما «أما الضب فلأنه ليس مما يأكله قومه» وفي الأصل «الطحال» ولعله كان يعاف الطحال كذلك والنصح من «الشمال» للترمذي، وأما الكلوتين فمكانهما من البول.

والقباء والساذج^(١) والأسود والقز، والمعلم أطرافه بسندس، وأحْبُّها إليه القميص، ورُوي أنه لبس السراويل، ولبس جبَّةً خسروانية مفرجة عليها سُجْف من ديباج، والطيلسان في الحرّ، كالיום الذي هاجر فيه. وله ثوبان للجمعة، وبُرْدٌ أخضر للعيد، والعمامة السوداء والبيضاء، وهي الأكثر بغير قلنسوة، وبها، وبلا عمامة، ويجعل لها غالبًا عَذْبَةً بين كتفيه^(٢) ولم تكن عمامته ﷺ كبيرة تؤذي، ولا صغيرة لا تقي، ولم يتحرَّر في طولها وعرضها، وما قال الطبري من أن الطول سبعة في عرض ذراع، وأنها من صوف لم يثبت. وكان ثيابه فوق الكعبين، وربما جعلها لنصف الساق، والكُم إلى الرسغ، أو مع الأصابع، ويلبسها من ميامنه، وينزعها بالعكس، ويقول عند لبسه: «الحمد لله الذي كساني ما أستر به عورتِي وأتَجَمَّلُ به» وإذا استجدَّ ثوبًا سَمَّاه، وقال: «اللهم لك الحمد كما كسوتنيه، أسألك خيرَه وخير ما صُنِعَ له، وأعوذ بك من شره وشر ما صُنِعَ له» ولبسه وأعطى الخَلْقَ^(٣) مسكينًا، وله ملحفة مصبوغة بزعفران أو ورس.

وله خاتم فضة منه، ونقشُه «محمد رسول الله» لكن على هذا الشكل:



محمد تحت، ثم رسول فوق، ثم لفظ الجلالة فوق ذلك، وهذه صفته: والقراءة من أسفل السطر الثالث. ويتختم في خنصر يمينه ويساره، والأكثر الأول. ويلبس النعال السبتية، والتاسومة، والخف.

(١) الملابس التي لا ألوان فيها.

(٢) لم تكن كما يفعلون اليوم، وإنما كانت كاسية ما بين المنكبين.

(٣) أي الثوب القديم.

وكان فرشه من آدم، حشوه من ليف، وطوله ذراعان وشيء، وعرضه ذراع ونحو شبر.

وروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه دخل على النبي ﷺ وهو على سرير وقد أثر الشريط في جنبه، فبكى عمر رضي الله عنه، فقال النبي ﷺ: ما يبكيك يا عمر؟ فقال: ذكرت كسرى وقیصر وما كانا فيه من الدنيا، وأنت رسول رب العالمين وقد أثر بجنبك الشريط! فقال النبي ﷺ: «أولئك قوم عجلت لهم طياتهم في حياتهم الدنيا، ونحن قوم أخرت لنا طياتنا في الآخرة».

وكان يحب الطيب ويكره الريح الكريه، ويتطيب بغالية ومسك، ويتبخّر بكافور وعود، ويكتحل بالإنثمد في كل عين ثلاثاً، ويأمر بالباه (يعني النكاح والتزويج) وينهى عن التبتل نهياً شديداً، وقال: «لا تبتل في الإسلام»^(١) ولا يحتقر فقيراً لفقره، ولا يهاب ملكاً لملكه، ويُعظم النعمة وإن دقت، ولا يذم منها شيئاً، ويكرم ضيفه ويسط له رداءه كرامة له، وكان يتوكأ على العصا، وقال: «التوكؤ على العصا من أخلاق الأنبياء» ورعى الغنم، وقال: «ما بعث الله نبياً إلا رعى الغنم» وحكمة ذلك أن راعي الغنم - التي هي أضعف البهائم - يسكن في قلبه الرقة واللطف، فإذا انتقل من ذلك إلى رعاية الخلق كان قد هُذب^(٢) أو لا.

وكان أشد حياءً من العذراء في خدرها لا يثبت بصره في وجه أحد. وكان أحلم الناس وأشجعهم، وأسخاهم، لم يسأله أحد شيئاً إلا أعطاه، ومن سأله حاجة لا يرده إلا بها أو بميسور حسن من القول، لا بمعسور خشن. فكان أجود بني آدم على الإطلاق، يجود بجميع أنواع الجود، من بذل العلم، والمال، وبذل نفسه لله في إظهار دينه، وهداية عباده، وإيصال النفع العميم بكل طريق من: إطعام جائعهم ووعظ جهالهم،

(١) «نهى النبي ﷺ عن التبتل» رواه الإمام أحمد، وأبو داود، وهو حديث متفق عليه من البخاري ومسلم عن سعد، وأحمد، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه عن سمرة.

(٢) وأيضاً في رعي الغنم: الصبر، والتؤدة، ومعالجة المريضة، ورد الشاردة، والحفاظ عليها من الذئب وغيره.

وقضاء حوائجهم، وتحمل أثقالهم، فكان أجود بالخير من الريح المرسلة، وكان إذا دخل رمضان أطلق كل أسير، وأعطى كل سائل، وإنما كان جوده يضاعف في شهر رمضان زيادة على جوده في غيره من الشهور؛ لأن جود ربه يتضاعف فيه، وقد جُبل ﷺ على حب ما يحبه الله، ولأنه كان يلتقي هو وجبريل عليه السلام في رمضان، وهو أفضل الملائكة وأكرمهم، ويدارسه الكتاب الذي أوتي إليه، وهو أشرف الكتب وأفضلها، وهو يحث على الإحسان ومكارم الأخلاق. وفي مسلم قال: «ما سئل ﷺ شيئاً إلا أعطاه، فجاءه رجل فأعطاه غنماً بين جبلين، فرجع إلى قومه فقال: يا قوم أسلموا فإن محمداً يعطي عطاءً من لا يخشى الفاقة». وعن صفوان بن أمية قال: «لقد أعطاني رسول الله ﷺ ما أعطاني، وإنه لمن أبغض الناس إليّ، فما برح يعطيني حتى إنه لأحب الناس إليّ». وفي مغازي الواقدي أنه ﷺ أعطى صفوان وادياً مملوءاً إبلًا وغنماً، فقال: «أشهد ما طابت بهذا إلا نفس نبي»، ولذلك قالت له خديجة رضي الله عنها في أول بعثته حين رجع من غار حراء، بعد ما حصل من جبريل ما حصل، لما أمره بالقراءة: «والله لا يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتُقري الضيف، وتحمل الكلّ (أي الشيء الذي يحصل منه التعب لغيرك)، وتكسب المعدوم (أي تعطيه له تبرعاً منك)، وتعين على نوائب الدهر (أي حوادثه)».

وكان ﷺ أكثر الناس تواضعاً، يجيب من دعاه من غني أو فقير أو حرّ أو عبد. وكان عليه الصلاة والسلام في سفر، فأمر بإصلاح شاة^(١) فقال رجل: يا رسول الله، عليّ ذبحها، وقال آخر: وعليّ سلخها، وقال آخر: وعليّ طبخها، فقال ﷺ «وعليّ جَمْعُ الحَطَب» فقالوا: يا رسول الله، نحن نكفيك ذلك، فقال: «قد علمتُ، ولكني أكره أن أتميز عليكم؛ فإن الله يكره من عبده أن يراه متميزاً بين أصحابه»، وقام فجمع الحطب.

(١) أي ذبحها للطعام والأكل.

وكان أرحم الناس؛ يُصْغِي^(١) الإناء للهرة، وما يرفعه حتى تروى رحمةً لها، وأعفهم وأشدّهم إكراماً لأصحابه، لا يمدُّ رجله بينهم، ويوسّع لهم إذا ضاق المكان، ولم تكن ركبتاه تتقدّمان جليسه، يبدأ مَنْ لقيه بالسلام، ويتجمل لأصحابه، ويتفقدهم ويسأل عنهم، فمن مرض عادةً، ومن غاب دعا له، ومن مات استرجع^(٢) فيه، وأتبعه الدعاء له. وكان عليه الصلاة والسلام تنام عيناه ولا ينام قلبه انتظاراً للوحي^(٣)، وإذا نام نفخ ولا يَغُطّ.

وكان لا يأكل الصدقة، ويأكل الهدية، ويكافئ عليها، وأكل الخبز بالخل، وقال: «نعم الإدام الخل». وكان مَنْ جالسه أو أقامه لحاجة صابرة حتى يكون الرجل هو المنصرف، وما جلس إليه أحد فقام حتى يقوم الرجل، وما خيّر بين أمرين إلا اختار أيسرهما، إلا أن يكون فيه إثم أو قطيعة رحم^(٤) فيكون أبعد الناس منه، وكان يداعب أصحابه ولا يقول في مداعبته إلا حقاً^(٥)، وكان يخفف الصلاة إذا سمع بكاء الصبي مما يعلم من شدة وجد أم الصبي بولدها.

وباع واشترى بنقدٍ ونسيئة، والأغلب بعد البعثة الشراء، وبعد الهجرة لم يحفظ البيع إلا في ثلاث صور، وأجر واستأجر وهو الأغلب، وأجر نفسه قبل النبوة للرعي والإتجار، وشارك ووكل وتوكل، ووهب ووُهب له، واستعار وضمن عن الله ضماناً خاصاً وعاماً، وشفع وشُفع إليه، وسابق وصارع، وطلق وآلى، وضاف وأضاف، وداوى وتداوى بمفرّد ومركّب، ورقى واسترقى، وحذر من التخمّة وكثرة الأكل،

(١) يميلها لشرب.

(٢) قال: ﴿إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦].

(٣) قلوب الأنبياء أكبر من قلوب العارفين، ولذلك لا تنام؛ لأنها على صفة الملائكة، يُسَبِّحُونَ اللهَ الليل والنهار، ولا يفترون، وكذلك قلب النبي ﷺ [لا ينام لأنه على ذكر مستمر، والله تعالى أعلم]، والذي ينام: الغافل اللاهي.

(٤) في الأصل: «إلا أن يكون فيه قطيعة رحم».

(٥) قال مرةً لأصحابه: «يا ذا الأذنين» رواه أحمد، وأبو داود، والترمذي عن أنس أن النبي ﷺ قال له ذلك - يعني يمازحه - وجاءه رجل يستحمه فقال: إني حاملك على ولد ناقة، فقال: يا رسول الله ما أصنع بولد الناقة؟ فقال: وهل تلد الإبل إلا النوق؟!

وكان يصوم حتى يقال لا يفطر، وعكسه، وأكثرُ صيامه في شعبان، وكان يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه، فتقول له عائشة: أتتكلف هذا وقد غفر الله لك؟! فيقول: أفلا أكون عبداً شكوراً! وكان أكثر دعائه: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك». وخرج من الدنيا ولم يملأ بطنه في يوم من طعامين، فكان إذا شبع من التمر لم يشبع من الشعير، وإذا شبع من الشعير لم يشبع من التمر، وربما شدَّ على بطنه حجراً من الجوع. وقد آتاه الله مفاتيح خزائن الأرض فأبى أن يقبلها، واختار الآخرة عليها، وهذا على وجه الاختيار لا على وجه الاضطرار لأجل أن تتأسى به أمته، ومما يدل على ذلك قوله ﷺ «عَرَضَ عَلَيَّ رَبِّي لِيَجْعَلَ لِي بَطْحَاءَ مَكَّةَ ذَهَبًا، فَقُلْتُ: يَا رَبِّ أَشْبِعُ يَوْمًا وَأَجُوعُ يَوْمًا، فَإِذَا جُعْتُ تَضَرَعْتُ إِلَيْكَ وَذَكَرْتُكَ، وَإِذَا شَبِعْتُ شَكَرْتُكَ وَحَمَدْتُكَ»، قصد ﷺ أن يكون مشغولاً بالله في طَوْرِي الشدة والرخاء، والنعمة والبلاء.

قال بعضهم: وحكمة ربط الحجر أن يُسكن بعض ألم الجوع؛ لأن حرارة المعدة الغريزية ما دامت مشغولة بالطعام قلَّت الحرارةُ به، فإذا قلَّ اشتغلت برطوبات الجسم وجواهره، فيحصل التألم حينئذ، يزداد ما لم يَضْمَ إلى المعدة الأحشاء والجلد، فإنَّ نارها حينئذ تخمد بعض الخمود، فيقلُّ الألم، فيفيد إنَّ شدَّ الحجر على قدر ألم الجوع، فكلما زيد زيد. اهـ.

وقال بعضهم: عادةُ أصحاب الرياضة^(١)، وكذا العرب وأهل المدينة إذا اشتد جوعهم وخليت بطونهم أن يربط كل واحد منهم حجراً على بطنه؛ لئلا تنزل أمعاؤه، فيشقُّ عليه التحرك، فإذا ربط حجراً على بطنه يشتد بطنه وظهره فتسهل عليه الحركة، فكان ﷺ أكثرهن رياضة، وكان الله تعالى خلق فيه برودة تُسكن الجوعَ وحرارته.

وقال بعضهم: يقال لمن يؤمر بالصبر: «اربط على قلبك حجراً» فكان ﷺ يؤمر بالصبر ويأمر أمته بالصبر، حالاً ومآلاً.

(١) يقصد بأصحاب الرياضة: الذين يدرّبون أنفسهم على الخلوات والذكر.

وفي كتاب السنن لسعيد بن منصور من حديث عبد الله بن عبد الرحمن بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال: «اللهم مَن أبغضني وعصاني، فأكثر له المال والولد».

اللهم مَن أحبني وأطاعني فارزقه الكفاف.

اللهم ارزق آل محمد الكفاف.

«اللهم رزق يوم بيوم».

ويناسبه ما أورده السلفي أن يهوديًا أتى النبي ﷺ فقال: «ادع لي» فقال «اللهم أصح جسمه، وأكثر ماله، وأطل حياته»^(١).

وورد في الجامع الصغير: «إنَّ الله إذا أحبَّ عبدًا جعل رزقه كفافًا» اهـ. قال العريزي: أي بقدر كفايته، لا يزيد عليها فيطغيه، ولا ينقص عنها فيؤذيه؛ فإن الغنى مبطرةٌ والفقر مذلةٌ.

وأما اقتناعه ﷺ باليسير وسؤاله ربه أن يجعل رزقه قوتًا، ففي حديث ابن عباس رضي الله عنهما: «كان رسول الله ﷺ يبيت الليالي المتتابعة طاويًا وأهله لا يجدون عشاءً، فكان عامةُ خبزهم الشعير».

وقد خيره الله بين أن يكون نبيًا ملكًا وأن يكون نبيًا عبدًا، فقال: بل نبيًا عبدًا «ثلاثًا». فانظر إلى همته العلية كيف عُرِضت عليه خزائن الأرض فأعرضَ عنها وأباها، مع أنه ﷺ لو أخذها لم ينفقها إلا في طاعة ربه، لكنه اختار العبودية المحضة، فبأهلها من هممة شريفة رفيعة، ما أسناها، ونفس زكية كريمة ما أزكاها.

وقال البدر الزركشي: «لم يكن النبي ﷺ فقيرًا من المال قط، ولا حاله حال فقير»، بل كان أغنى الناس، قد كُفِيَ أمرَ دنياه في نفسه وعياله. وكان يقول في قوله ﷺ: «اللهم أَحْبِبْنِي مَسْكِينًا»: إن المراد به استكانة القلب لا المسكنة التي هي أنه لا يجد ما يقع موقعًا من كفايته، وكان يشدد النكير على من يعتقد خلاف ذلك.

(١) لأن اليهود لا يحبون إلا ذلك، فدعا لهم بما يحبون: إن هم إلا كالأنعام.

وقال بعضهم: «الفقر لباسُ الأنبياء وزينةُ الأولياء» لأن الفقر يورث الخشوع، والخشوع يورث الكرامة.

وقد قيل: «إن لكل شيء مفتاحًا، ومفتاح الجنة حب المساكين والفقراء».

وخصائصه ﷺ على أضراب:

الأول الواجبات: الضحى، والأضحى، والوتر، والتهجد، والسواك، والمشاورة، ومصابرة العدو وإن كثر وزاد على الضعف، وقضاء دين من مات وعليه دين لم يخلف وفاء، وقيل: كان يفعله تكررًا لا وجوبًا، وتخيير نسائه، وقيل: كان مستحبًا.

الثاني ما اختص به من المحرمات، فيكون الأجر في اجتنابه أكثر، وهو قسمان: أحدهما في غير النكاح، فمنه: الشعر، والخط، والأكل متكئًا، وأكل الثوم والبصل، والكراث، وقيل: مكروه، وإذا لبس لأمتة لا ينزعها حتى يلقي العدو، وقيل: مكروه، وإذا شرع لزمه إتمامه، وأن لا ينظر إلى ما متع به الناس من الدنيا، وخائنة الأعين.

الثاني في النكاح: فمنه إمساك من كرهت نكاحه، وقيل: تكررًا.

الثالث المباحات: فمنه الوصال في الصوم، واصطفاء ما أبيح له من الغنيمة قبل القسمة، ودخول مكة بلا إحرام، وإباحة القتال فيها ساعة، والقضاء بالعلم، والحكم لنفسه وولده، ويشهد لنفسه وولده، ويقبل شهادة من يشهد له، ويحمي الموات لنفسه، ولا ينتقض وضوؤه بالنوم مضطجعًا، وأبيح له أخذ الطعام والشراب من مالهما المحتاج إليهما إذا احتاج ﷺ إليهما، ويجب على صاحبهما البذل وصيانة مهجته عليه الصلاة والسلام، وإباحة تسع نسوة، والصحيح الزيادة له، وانعقاد نكاحه بلا ولي ولا شهود، وفي وجوب القسم بين أزواجه وإمائه خلاف.

الرابع ما اختص به من الفضائل والإكرام: فمنه أن أزواجه اللاتي توفي عنهن محرّمات على غيره أبدًا، وفيمن فارقها في حياته أو جه: أصحّها التحريم، وأن أزواجه رضوان الله عليهن أمهات المؤمنين، وأنهن أفضل من غيرهن من النساء، وجعل ثوابهن وعقابهن

ضعفين^(١)، وأنه خاتمُ النبيين، وخيرُ خلقِ الله، وأُمته أفضلُ الأمم، وهي معصومة من الاجتماع على ضلالة، وأصحابه خير القرون، وشريعته مؤيدة وناسخة لجميع الشرائع، وكتابه معجز محفوظ عن التحريف والتبديل، وهو حجة على الناس بعد وفاته، ومعجزات الأنبياء انقرضت، ونُصر بالربع من مسيرة شهر، وجُعِلت له الأرض مسجداً وطهوراً، وأُحِلَّتْ له الغنائم، وأُعطي الشفاعة والمقام المحمود، وأُرسل إلى الناس كافة، وهو سيد ولد آدم، وأول من تنشق عنه الأرض، وأولُ شافع، وأول مشفع، وأول من يقرع باب الجنة، وأكثرُ الأنبياء تبعاً، وأُعطي جوامع الكلم، وصفوف أُمته في الصلاة كصفوف الملائكة، وكان لا ينام قلبه، ولا يحل لأحد أن يرفع صوته فوق صوته، ولا يناديه باسمه، ويخاطبه المصلي بقوله: السلام عليك أيها النبي، ولو خاطب آدمياً غيره بطلت صلاته، ويلزُمُ المصلي إذا دعاه أن يجيبه وهو في الصلاة، ولا تبطل صلاته، وكانت الهدية حلالاً له، بخلاف غيره من ولاية الأمور، ولا يجوز الجنون على الأنبياء، بخلاف الإغماء، ومن رآه في المنام فقد رآه حقاً، وأن الأرض لا تأكل لحَمَ الأنبياء، وأنَّ كذباً عليه ليس ككذب على غيره. صَلَّى اللهُ عليه وعلى آله وسلم.

فلما كان ﷺ خاتم النبيين وسيد المرسلين، وآتاه الله عِلْمَ الأوّلين والآخرين، ولا يُحصي مناقبه أحدٌ من العالمين صَلَّى اللهُ عليه وعلى آله وصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ.

قال البوصيري:

فَاقَ النَّبِيِّينَ فِي خَلْقٍ وَفِي خُلُقٍ	وَلَمْ يَدَانُوهُ فِي عِلْمٍ وَلَا كَرَمٍ
وَكُلُّهُمْ مِّنْ رَّسُولِ اللَّهِ مَلْتَمِسٌ	غَرَفًا مِنَ الْبَحْرِ أَوْ رَشْفًا مِنَ الدَّيَمِ
وَكُلُّ آيَ الرَّسُولِ الْكَرَامُ بِهَا	فَإِنَّمَا اتَّصَلَتْ مِنْ نُّورِهِ بِهِم
فَمَبْلَغُ الْعِلْمِ فِيهِ أَنَّهُ بِشَرٍّ	وَأَنَّهُ خَيْرُ خَلْقِ اللَّهِ كُلِّهِم

(١) لقوله تعالى: ﴿يَنْسَاءَ الَّتِي مِنْ يَأْتِ مِنْكُمْ يَنْجِسَتْهُ مُبَيَّنَةً يُضَاعَفُ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ [الأحزاب: ٣٠] وقوله بعدها: ﴿وَمَنْ يَفْتَنُ مِنْكُمْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعَمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾ [الأحزاب: ٣١] وعلل ذلك بقوله تعالى: ﴿يَنْسَاءَ الَّتِي لَشَأْنُ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ﴾ [الأحزاب: ٣٢].

فقد أطلع الله على ما شاء من المغيبات، فوقعت على وفق إخباره بها فيما مضى وما هو آت، واستأثر سبحانه دون جميع الخلق بعلم أمور منها: مفاتيح الغيب الخمس^(١). ولقد قبض النبي ﷺ وما يعلم الروح، وقال الجنيد: الروح مما استأثر الله بعلمه ولم يُطلع عليه أحدًا من خلقه، فلا يجوز لعباده البحث عنه بأكثر من أنه موجود، وثبت عن ابن عباس أنه كان لا يفسر الروح، أي لا يعين المراد به في الآية^(٢).

وقد اختلف في مسألة اشتهرت بالديار المغربية، نشر الله بها أعلام السنة المحمدية، وهي: هل أحاط رسول الله ﷺ بعلم الله كما أحاط الحق بعلمه أو لا؟ فأجاب عن ذلك بعضهم بقوله: لا يصح ذلك، بل الذي ينبغي اعتقاده أن الله أعلم رسوله ﷺ ما لم يُعلمه أحدًا من الخلق، وحاشا سيد الأحاب أن يرضى من أمته أن يسووا بينه في العلم وبين رب الأرباب، ومن المحال أن يلحق العبد مرتبة السيد على كل حال، فاحذر الغلط، وإياك من ركوب التعاسيف والشطط^(٣). اهـ.

وقد قال ﷺ: «لا تطروني كما أطري عيسى» أي لا تبالغوا في مدحي، وفي معنى الحديث قال البوصيري:

دَعَ ما ادَّعته النصارى في نبيهم واحكم بما شئت مدحا فيه واحتكم
فإن فضل رسول الله ليس له حد فيعرب عنه ناطق بقم
ولقد أجاد القائل:

الأمر أعظم من مقالة قائل إن رقق البلغاء أو إن أفحموا
ماذا يقول المادحون ومدحه حقا به نطق الكتاب المحكم

(١) قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ [لقمان: ٣٤].

(٢) وقال بعض المفسرين في قوله تعالى ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: ٨٥] أي كانت بكلمة «كن» وهذا يعني أنها سر غامض لا يعلمه إلا الله تعالى، والقول فيها تهجم على الله تعالى.

(٣) لو علم رسول الله علم الله لكان علم الله تعالى محدودًا، وكان الله تعالى محدودًا واعتقاد هذا صريح الكفر والعياذ بالله!

ويُحكي أن العارف الكبير أبا حفص عمر بن الفارض رحمه الله تعالى قيل له: لم لا مدحت النبي ﷺ؟! فأُشيد قائلًا:

أرى كل مدح في النبي مُقَصِّرًا وإن بالغ المثني عليه وأكثرًا
إذا لله أثنى بالذي هو أهله عليه، فما مقدار ما يمدح الوري؟

فمن تمام الإيمان به ﷺ: اعتقاد أنه لم يجتمع في بدن آدمي من المحاسن الظاهرة ما اجتمع في بدنه الشريف ﷺ، فيكون ما يُشاهد من محاسنه الظاهرة علامةً على محاسنه الباطنة، ولا أكمل منه ﷺ، ولا مساوٍ له في هذا المدلول، فكَذلك في الدالِّ، ولذا نقل القرطبي عن بعضهم أنه قال: لم يظهر لنا في الدنيا تمامُ حُسْنِه ﷺ وإلا لما طاقت أعينُ الصحابة النظرَ إليه ﷺ^(١) فإذا كان في الآخرة ظهر تمامُ ذلك، ولذا قال صاحب البردة:

فهو الذي تمَّ معناه وصورته ثم اصطفاه حبيبًا باري النسم
منزّه عن شريك في محاسنه فجوهر الحُسن فيه غير مُنقسم

وقد جمع الله له ﷺ محاسن السير وأحسن السياسة والخبر، مع أنه أمي لا يكتب ولا يقرأ، ولا معلّم له من البشر، نشأ بين جُهال، يتيمًا من أبويه، فعلمه الله مكارم الأخلاق، وجعل له من أكارم الآداب أوفر خلاق.

وما أحسن قول القائل:

أخذ الإله أبا الرسول ولم يزل برسوله الفردِ اليتيم رحيمًا
نفسه الفداء لمُفردٍ في يثمه والدُّرُّ أحسن ما يكون يتيماً

وكذلك جمع ﷺ ما تفرّق في الأنبياء من مكارم الأخلاق، وسَمَّاه عظيمًا فقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]؛ فكان فيه ﷺ خلق آدم (بفتح الخاء وسكون اللام)، ومعرفة شيث، وشجاعة نوح، وخلة إبراهيم، ولسان إسماعيل، ورضى إسحاق، وفصاحة

(١) ولذا ثبت عن عمرو بن العاص وغيره أنه ما كان يستطيع أن يُثبت نظره في وجه رسول الله ﷺ إذ قال: «والله ما ملأت عيني من رسول الله ﷺ قط».

صالح، وحكمة لوط، وبُشْرَى يعقوب، وشدة موسى، وصبر أيوب، وطاعة يونس، وجهاد يوشع، وصوت داود، وحُب دانيال، ووقار إلياس، وعصمة يحيى، وزهد عيسى.

ثم دعا الله تعالى عباده للاقتداء به والتخلق بأخلاقه فقال: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١]؛ فقد أئده الله تعالى بالمعجزات الباهرة، وأكرمه بالآيات الظاهرة، وخصه بالشفاعة العظمى في الدار الآخرة، ﷺ وعترته الطاهرة، وصحابته النجوم الزاهرة، قال الأديب جمال الدين الدمشقي في ذلك:

يا عينُ إنْ بَعْدَ الحَبِيبِ ودَارُهُ وَنَأَتْ مَرَابِعُهُ وَشَطَّ مَزَارُهُ
فلقد ظَفَرَتْ مِنَ الزَّمَانِ بِطَائِلٍ إِنْ لَمْ تَرِيهِ فَهَذِهِ آثَارُهُ
ولقد سبقه إلى ذلك الصلاح الصفدي، فقال:

أَكْرَمُ بِأَثَارِ النَّبِيِّ مُحَمَّدٌ مَنْ زَارَهُ اسْتَوْفَى السُّرُورَ مَزَارُهُ
يا عينُ دُونَكَ فَانْظُرِي وَتَمَتَّعِي إِنْ لَمْ تَرِيهِ فَهَذِهِ آثَارُهُ
واقْتَدِي بهما في ذلك أَبُو الحَزْمِ المَدَنِي، فقال:

يا عينُ كَمْ ذَا تَسْفَحِينَ مَدَامَعًا شَوْقًا لِقُرْبِ المِصْطَفَى وَدِيَارِهِ
إِنْ كَانَ صَرَفُ الدَّهْرِ عَاقِلٍ عَنْهُمَا فَتَمَتَّعِي يَا عَيْنُ فِي آثَارِهِ

وبالجملة فأثاره ﷺ ومآثره هي الوسطة العظمى في تشييد هذا الدين المحمدي^(١) العظيم البنيان الذي هو ببركته ﷺ باق إلى آخر الزمان، وكذلك ما دامت معجزة القرآن التي هي أكبر المعجزات باقية بين أظهرنا، فلا يَنْسَخُ الماضي الآتِ، فشرعة المصطفى عليه الصلاة والسلام باقية إلى يوم القيامة، ومعجزة القرآن الباهرة الدلائل ليست - ولله الحمد - داخلة في قول القائل:

تَتَخَلَّفُ الْآثَارُ عَنْ أَصْحَابِهَا حِينَئِذٍ وَيُدْرِكُهَا الْفَنَاءُ فَتَبْعُ

(١) يقصد الشرع الإلهي الذي خُص به محمد ﷺ من دون الأنبياء، بدليل أنه عبر بها في قوله «فشرعة المصطفى» إلخ.

الفصل الثالث

في ذكر معجزاته

أكبر معجزاته ﷺ القرآن الذي أعجز الإنس والجان، وتحدى به بلغاء العرب وفصحاءهم -الذين هم الرؤساء في قوانين المعاني والبيان، والفرسان في ميادين الفصاحة والشجعان- عن معارضته على أن يأتوا بعشر سور مثله مفتريات، وتنازل معهم إلى الإتيان بسورة من مثله، وفي السور ما هو ثلاث آيات، فلم يأتوا بمثله، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرًا، ونكصوا على أعقابهم خائبين؛ فغيرهم إن عارض أولى بالعجز والخذلان؛ إذ مُحالٌ سكوتهم ثلاثًا وعشرين سنة^(١) عن معارضة لو قدرُوا عليها، خصوصًا مع كونه ﷺ ينادي عليهم بالعجز عن معارضته، والقصور عن بلوغ الغرض من مناقضته، ويوبخهم ويسبُّ آلهتهم، فلم يستطع أحد منهم أن يرفع رأسه ويناديه بجواب، وإنما يزدادون تحسرًا عن المعارضة، ويعترفون لبعضهم في الافتراء في قولهم إن هذا إلا سحرٌ يؤثر، وسحرٌ مستمر، وأساطير الأولين، ويعتذرون ظاهرًا بقولهم: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ [البقرة: ٨٨] ﴿قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا نَدْعُونَ إِلَيْهِ﴾ [فصلت: ٥] - ولما قالوا- لو نشاء لقلنا مثل هذا- ردَّ الله عليهم بقوله: ﴿وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾ [البقرة: ٢٤] فما فعلوا، وما قدرُوا، ولو قدرُوا على أدنى معارضة لبادروا إليها، وأفحموا الخصم الذي كانوا محافظين على إطفاء نوره، وإنما أعجز كلَّ بليغ لجزالته وغرابة أسلوبه

(١) مدة رسالته صلى الله عليه وسلم حتى وفاته.

وبلاغته وانتهائه في الفصاحة إلى الطرف الأقصى؛ فإنه لا أفصح ولا أوضح ولا أكمل ولا أجزل ولا أنسب ولا أعذب من ألفاظه، ولا أسد ولا أشد الثامًا وتشاكلاً من نظمِه، وأمّا معانيه فكلُّ ذي لبٍّ يشهد لها بالتقدم في أبواب البلاغة، والترقي إلى درجات الإتقان والبيان الواضح.

وقيل: إعجازه هو كونه خارجاً عن جنس كلام العرب، من النظم والنثر والخطب. وما كان من المعجزات معدوماً بالقطع، منقولاً بالتواتر كالقرآن، فلا شك في كفر منكره وارتداده، وأنه بمنزلة منكر وجود النبي ﷺ في الدنيا. وما لم يكن من المعجزات كذلك: فإن اشتهر: بُدع^(١) منكره وفُسق؛ كنبع الماء من بين أصابعه الشريفة، وتكثير الطعام اليسير. وإن لم يشتهر: ولكن ثبت بطريق صحيح أو حسن، عَزَّر منكره إن كان مثله يخفى عليه ذلك قبل التوقيف. فهو النور المستبين والحق الواضح المبين، لا شيء أسطع من أعلامه، ولا أصدع من أحكامه، ولا أوضح من بلاغته، ولا أرجح من فصاحته، ولا أكثر من إفادته، ولا ألد من تلاوته، قال رسول الله ﷺ: «القرآن فيه خبرٌ من قبلكم، ونباٌ من بعدكم، وحُكم ما بينكم»^(٢)، وقال تعالى: ﴿فَإِنْ نَنْزَعْنَاهُ مِنْ شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩] الآية، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢] قال بعضهم: إذا أردتُ محادثة الحق تعالى أخذتُ المصحف فلا أزال أناجيهِ ويناجيني، وإذا أردتُ محادثة رسوله أخذتُ كتاب حديثه، وكذلك كلُّ من أردتُ مناجاته من الأولين والآخرين. اهـ.

وقد حقق العارفون أنَّ كلامَ الله: رسالةٌ من الله لعباده، ومخاطبةٌ لهم، وهو البحر المشتمل على جواهر العلم، المتضمن بظاهره وباطنه، ولهذا قاموا بآداب سماعه، ورعوه حق رعايته، وقد تجلَّى لخلقه في كلامه لو كانوا يعقلون. وكذلك كلام رسول الله ﷺ مما يتعين حسن الاستماع إليه؛ لأنه ﷺ لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحيٌ يوحي.

(١) أي اتهم بأنه مبتدع.

(٢) في فضائل القرآن لابن كثير، وعزاه إلى الترمذي.

قال الشيخ أبو إسحاق الثعلبي رحمه الله: «إن عدد آيات القرآن ستة آلاف وستمائة وست وستون آية؛ فما هو أمر ألف آية، وما هو نهى ألف آية، وما هو وعد ألف آية، وما هو وعيد ألف آية، وما هو إخبار ألف آية، وما هو قصص وأمثال ألف آية، وما هو تحليل وتحريم خمسمائة آية، وما هو تسييح وتهليل مائة آية، وما هو ناسخ ومنسوخ ست وستون آية»^(١).

وقال بعضهم:

ألا إنما القرآن تسعة أحرف أتيت بها في بيت شعر بلا خلل
حلال، حرام، مُحَكَّم، متشابه بشير، نذير، قصّة، عظة، مثل

ووفد غالب بن صعصعة على الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، ومعه ابنه الفرزدق، فقال له: من أنت؟ فقال: غالب بن صعصعة، قال: ذو الإبل الكثيرة؟ قال: نعم. قال: فما فعلت بإبلك؟ قال: أذهبتها النوائب، ثم قال له: يا أبا أخطل، من هذا الذي معك؟ قال: ابني، وهو شاعر، قال: علمه القرآن فهو خير له من الشعر، فكان ذلك في نفس الفرزدق حتى قيّد نفسه، وآلى على نفسه أن لا يحلّ قيده حتى يحفظ القرآن، فحفظه في سنة، وذلك قوله:

وما صبّ رجلي في حديد مجاشع مع القيد إلا حاجة لي أريدها

فقد جمع الله له ﷺ كل ما أوتيته الأنبياء من معجزات، وخصائص، ولم يجمع ذلك لغيره، بل خصّ كلاً بنوع من المعجزات، وذهب كلُّ نبي بمعجزاته، ولم يبق لها أثر ظاهر خلا الروايات عنها والأخبار، وأبقى لنا ﷺ القرآن، معجزاً خالداً بين ظهرانينا إلى يوم القيامة بعد ذهابه، لا تنكشف شموه، ولا تذوي زهراته، يعلم ذلك من أدرك منه شرح الآيات المحكمة وأسباب نزولها، وما اشتملت عليه من الأمر والنهي، والأحكام والمعاني، والإعجاز والإيجاز، والفصاحة والبلاغة، والبيان والبدیع، وأخبار الأولين

(١) في هذا العدد خطأ فليراجع النص.

والآخرين، وشرائع الأمم السالفة، والوعد والوعيد، وذُكر الدنيا وأحوالها، والآخرة وأحوالها، فكلُّ من نظر في كتاب الله تعالى من الفصحاء البلغاء في سائر الأعصر، وأمعن النظر فيه استخرج بمعرفته جواهر المعاني من كنوز الآيات الكريمة، وأطلع على أسرار البلاغة، وعلم ما انطوت عليه من أسرار الإعجاز، فقد علم بالقرآن الذي تحدَّى به ﷺ صدق دعوى النبوة جميع ما أخبر به علمًا قطعياً يقينياً لا يقدر فيه شيء من الاحتمالات العقلية، مع ما نُقل عنه ﷺ من المعجزات والأمور الخارقة للعادة بطريق الشهرة والآحاد، وما بلغ القدر المشترك منه حد التواتر في المعجزات، وإن كانت تفاصيلها مروية آحاداً، قال بعضهم:

قد انقضت معجزاتُ الرسل منذ قَضُوا	نَحْبًا وَأَفْحَمَ مِنْ ذَلِكَ الْجَيْلُ
ومعجزاتُ رسولِ الله باقيةٌ	محفوظةٌ ما لها في الدهر تحوُّلُ
تكفلُ الله هذا الذِّكْرَ يحفظكُم	فلن يضيع الذي بالله مكفولُ
هَذِي المفاخرُ، لا تَحْطَى الملوكُ بها	المُلْكُ منقطع، والوَحْيُ مَوْصُولُ

كيفية نزول القرآن:

وأنزل الله القرآن إلى السماء الدنيا جملةً، ثم فرَّقه في ثلاث وعشرين سنةً مدةً الوحي، بمكة ثلاث عشرة سنة، وبالمدينة عشر سنين، فكان جبريل ينزل بالسورة أو الآية لأمر يحدث، ويخبر النبي ﷺ بموضعها من القرآن، وعلى هذا الترتيب كان ﷺ يعرض على جبريل كل سنة ما كان يجتمع عنده منه، وعرضه عليه في السنة التي توفي فيها مرتين. وما استقر عليه الأمر في العرضة الأخيرة هو الذي وقع عليه ترتيب المصحف العثماني، وأمَّا ما وقع في غيره من مصاحف بعض الصحابة كمصحف ابن مسعود، ومصحف أبي بن كعب من الترتيب والقراءات، وزيادة بعض السور مما هو مخالف للمصحف العثماني، فقد وقع ذلك أولاً بتوقيف، ثم نُسخ ذلك بما استقر عليه الأمر في العرضة الأخيرة وكتب في المصحف العثماني، ولم يُبلغ النسخ من ذكر من

الصحابة، ولا ما استقرَّ عليه الأمر، فأبقوا مصاحفهم على ما كان عندهم.

فإن قيل: نزوله جملةً إلى السماء هل كان قبل نبوته ﷺ أو بعدها؟ أجيب بأنه جَوَزَ أبو شامة الأمرين، واستظهر هو الأول، والجلال السيوطي الثاني، قال: والآثار صريحٌ سياقها فيه، وربما فهم من كلام بعض المتأخرين اختيار المعية، فإن قيل: فما السر في نزوله مُنَجَّمًا؟ وهَلَّا نزل كسائر الكتب جملةً؟ أجيب: هذا سؤالٌ تولى الله جوابه، فقال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ [الفرقان: ٣٢] يعنون كما أنزل على من قبله من الرسل، فأجابهم تعالى بقوله ﴿كَذَلِكَ﴾ أي أنزلناه مفرقًا ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ [الفرقان: ٣٢] أي لنقوي به قلبك؛ فإن الوحي إذا كان يتجدد في كل حادثة كان أقوى للقلب وأشدَّ عنايةً بالمرسل إليه، ويستلزم ذلك كثرة نزول الملك إليه وتجديد العهد به وبما معه من الرسالة من ذلك الجنب الرفيع العزيز، فيُحدث له من السرور ما تَقْصُرُ عنه العبارة، ولهذا كان ﷺ أجود ما يكون في رمضان لكثرة لقاءه جبريل عليه السلام، وقيل: معنى «لنثبت به فؤادك» لنحفظه، ففُرِّقَ عليه ليثبت عنده حفظه.

وقد اختلف: هل في القراءة شيء أفضل من شيء؟ فقول: لا، وعليه الأشعري والقاضي وأبو بكر الباقلاني؛ لأن الأفضل يُشعر بنقص المفضل، وكلامه تعالى حقيقةً واحدة لا نقص فيه، وقيل: نعم، لظواهر الأخبار، كخبر: «ألا أعلمكم بأعظم سورة في القرآن؟»^(١)، وخبر «إِنَّ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ تعدل ثلث القرآن»^(٢) والتفضيل يرجع إلى عظم الأجر والثواب، وإلى اللفظ لا إلى الصفة؛ لأن ما تضمنته نحو آية الكرسي وسورة الإخلاص ليس موجودًا في نحو ﴿تَبَّتْ يَدَايَ لِهَبِّ﴾ والتحقيق: أنه لا خلاف في المعنى، بل الأول محمولٌ على ذات القرآن وحقيقته، والثاني على غيرها

(١) رواه الإمام أحمد، وأبو داود، والنسائي وابن ماجه، ومالك في موطنه، وهو حديث فيه طول: بخصوص سورة الفاتحة، وانظر ابن كثير في التفسير.

(٢) رواه الإمام أحمد، والنسائي في اليوم والليلة، وغيرهما من الرواة كثير.

كما علمت، قاله شيخ الإسلام.

وسميت السورة سورةً لقطعها من السورة الأخرى، إذ السُور: القطع، فلما قرن بعض السور ببعض سُمِّيَ المجموعُ قرآنًا، كما يسمَّى بعضه قرآنًا لذلك أيضًا، قاله شيخ الإسلام في شرحه على البخاري.

وقد رُوِيَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَنْزَلَ الْقُرْآنَ دَفْعَةً إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَوُضِعَ فِي بَيْتِ الْعِزَّةِ، فَحَفَظَتْهُ الْحَفَظَةُ، وَكَتَبَتْهُ الْكَتَبَةُ، ثُمَّ نَزَلَ مِنْهَا بِلِسَانِ جَبْرِيلَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ شَيْئًا فَشَيْئًا بِحَسَبِ الْمَصَالِحِ.

فإن قيل: ما قَدَرُ الْمَنْزَلِ؟ أَجِيبُ بِأَنَّهُ كَانَ عَلَى حَسَبِ الْمَصَالِحِ قَلَّةً وَكَثْرَةً، فربما نزل العَشْرُ مِنَ الْآيَاتِ، كما صحَّ في قصة الإفك، وأول سورة المؤمنين، ونزول الخمس منها، ونزول بعض آية كما صحَّ في نزول ﴿عَبْدُ أُولَى الْأَصْرَارِ﴾ [النساء: ٩٥] وحدها، وهي بعض آية.

وكان جبريل يخبر النبي ﷺ بموضعها من القرآن. فالقرآن في المحفوظ على النحو الذي في مصاحفنا الآن.

فإن قيل، فما معنى الإنزال؟ أَجِيبُ أَنَّ لَهُمْ فِيهِ اخْتِلَافًا، فَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: إِنَّهُ عِبَارَةٌ عَنْ إِظْهَارِ الْقِرَاءَةِ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ أَلْهَمَ كَلَامَهُ جَبْرِيلَ وَهُوَ فِي السَّمَاءِ، وَعَلَّمَهُ قِرَاءَتَهُ، ثُمَّ أَدَّاهُ جَبْرِيلَ فِي الْأَرْضِ.

فإن قيل: فما كيفية التأدية؟ أَجِيبُ بِأَنَّهُمْ ذَكَرُوا فِيهَا طَرِيقَتَيْنِ:

إِحْدَاهُمَا: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ انْخَلَعَ مِنْ صُورَةِ الْبَشَرِيَّةِ إِلَى صُورَةِ الْمَلَكِيَّةِ، وَأَخَذَهُ مِنْ جَبْرِيلَ.

وِثَانِيَتُهُمَا: أَنَّ الْمَلِكَ انْخَلَعَ إِلَى الْبَشَرِيَّةِ حَتَّى يَأْخُذَهُ الرَّسُولُ مِنْهُ، وَالْأَوَّلُ أَصْعَبُ الْحَالَيْنِ.

والمراد بالانخلاع الظهور بتلك الصورة، لا مفارقة الطبع بالمرّة كما هو ظاهر،

فإن قيل: فما كيفية تلقّي جبريلَ له؟ أجيب بما قاله الطيبي: لعله تلقّفه من الله تلقّفًا روحانيًا، أو يحفظه من اللوح المحفوظ، فينزل به إلى الرسول ويلقيه عليه، وفسر بعض المحققين التلقف الروحاني بالإلهام.

فإن قيل: فما النازل على النبي ﷺ؟ أجيب بأن فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه اللفظ والمعنى، وأن جبريل حفظ القرآن من اللوح المحفوظ، ونزل به.
والثاني: أن جبريل إنما نزل بالمعاني خاصة، وأنه ﷺ علّم تلك المعاني وعبر عنها بلغة العرب، وتمسك قائله بقوله تعالى: ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ ﴾ [الشعراء: ١٩٣، ١٩٤].

والثالث: أن جبريل ألقى عليه المعنى، وأنه عبّر بهذه الألفاظ بلغة العرب، وأن أهل السماء يقرأونه بالعربية، ثم إنه نزل به كذلك.

وأخرج ابن أبي حاتم عن سفيان الثوري، أنه لم ينزل وحيًا إلا بالعربية، ثم ترجم كل نبي لقومه، بدليل قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ ﴾ [إبراهيم: ٤]. والمراد بقومه أهل بلده، أي حيّه الذي هو قريش: فهم قومه، وهم غير أهل دعوته^(١)؛ إذ دعوته عامة لجميع الناس، بدليل قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وقال بعضهم:

كِتَابُ اللَّهِ أَفْضَلُ كُلِّ قِيلٍ رَوَاهُ الْمُصْطَفَى عَنْ جَبْرِئِيلَ
 عَنْ اللَّوْحِ الْمَحِيطِ بِكُلِّ شَيْءٍ عَنِ الْقَلَمِ الرَّفِيعِ عَنِ الْجَلِيلِ

وقد اختلف العلماء في ترتيب السور: هل هو توقيفي من النبي ﷺ؟ أو باجتهاد من الصحابة؟ بعد الإجماع على أن ترتيب الآيات توقيفي، والقطع بذلك. فذهب جماعة

(١) يعني: وغير عشيرته كذلك هو مرسل إليهم، لأنه ﷺ مرسل للخلق كافة، وأما غيره من الرسل عليهم الصلاة والسلام، فلم يرسل أحدهم إلا إلى قومه وعشيرته وأهل بلده خاصة.

من العلماء إلى أن ترتيب السور باجتهاد من الصحابة، منهم الإمام مالك، والقاضي أبو بكر، في أحد قوليه، وجزم به ابن فارس، وبما استدل به لذلك اختلافُ مصاحف السلف في ترتيب السور^(١).

وذهب جماعة آخرون إلى أنه توقيفي، منهم القاضي أبو بكر في أحد قوليه، وخلائق، قال بعضهم: ترتيب السور هكذا عند الله في اللوح المحفوظ، على هذا الترتيب.

وقد أثبت الصوفية عالم المثل، وجعلوه عالمًا متوسطًا بين عالم الأجساد والأرواح، وقالوا هو الطف من عالم الأجسام، وأكثف من عالم الأرواح، وبنوا على ذلك تجسد الأرواح وظهورها في صورة مختلفة من عالم من المثل، وقد يستأنس لذلك بقوله تعالى: ﴿فَمَثَلٌ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [مريم: ١٧]. فتكون الروح الواحدة كروح جبريل في وقت واحد مُدَبَّرَةٌ لشبحه الأعلى، وهذا الشبح المثالي الذي تمثل لمريم. وينحل بهذا ما قد اشتهر نقله عن بعض الأئمة، أنه سأل بعض الأكابر عن جسم جبريل عليه السلام، فقال: أين كان يذهب بجسمه الأول الذي سد الأفق بأجنحته كما تراءى للنبي ﷺ في صورته الأصلية عند إتيانه إليه في صورة دحية؟ وقد تكلف بعضهم الجواب عنه بأنه يجوز أن يقال: كان يندمج بعضه في بعض، إلى أن يصغر حجمه، فيصير بقدر صورة دحية، ثم يعود ينبسط إلى أن يصير كهيئته الأولى، على قاعدة جواز التخلخل والتكاثف في الأجسام. وما ذكره الصوفية أحسن، وهو أن يكون جسمه الأول بحاله، لم يتغير، وقد أقام الله تعالى له شعبًا آخر، وروحهُ تتصرف فيهما جميعًا إلى وقت واحد، قال الصوفية: وعلى هذا الأصل تتخرج مسائلُ

(١) قال ابن كثير في فضائل القرآن: «وقد حكى القرطبي عن أبي بكر بن الأنباري في كتاب (الرد) أنه قال: «فمن آخر سورة أو قَدَّمَ أخرى مؤخِّرة كمن أفسد نظم الآيات وغير الحروف والآيات، وكان مستنده اتباع مصحف عثمان رضي الله عنه؛ فإنه مرتب على هذه النحو المشهور». اهـ.

والحق أن هذا هو الذي لا يحلُّ غيره؛ لأن الصحابة أجمعوا على شيء أخذوه عن رسول الله ﷺ، فأصبح ملزمًا بالاتباع.

كثيرة، وتتحلُّ بها إشكالات غير يسيرة.

* * *

ومن أمهات معجزاته عليه الصلاة والسلام: انشقاق القمر، وقد أجمع المفسرون وأهل السنة على وقوعه لأجله ﷺ؛ فإن كفار قريش لما كذبوه ولم يصدّقوه طلبوا منه آية تدل على صدقه في دعواه، فأعطاه الله تعالى هذه الآية العظيمة، التي لا قدرة لبشر على إيجادها، دلالةً على صدقه عليه الصلاة والسلام في دعواه الوحداية لله تعالى، وأنه منفرد بالربوبية، وأن هذه الآلهة التي يعبدونها باطلة لا تنفع ولا تضر، وأنَّ العبادة لا تكون إلا لله وحده لا شريك له.

قال ابن عبد البر: «قد رُوي هذا الحديث -يعني حديث انشقاق القمر- عن جماعة كثيرة من الصحابة، وروى ذلك عنهم أمثالهم من التابعين، ثم نقله عنهم الجهم الغفير، إلى أن انتهى إلينا وتأيد بالآية الكريمة» اهـ.

وفي الترمذي من حديث ابن عمر في قوله تعالى: ﴿أَقْرَبَتْ السَّاعَةُ وَأَنْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ [القمر: ١]، قال: قد كان ذلك على عهد رسول الله ﷺ؛ انشق فلقين، فلقه دون الجبل وفلقه خلف الجبل، فقال رسول الله ﷺ: اشهدوا.

ووقع في نظم السيرة للحافظ أبي الفضل العراقي: وانشق مرتين بالإجماع.
قال الحافظ ابن حجر: «وأظن قوله «بالإجماع» متعلق بانشق لا بمرتين؛ فإنني لا أعلم من جزم من علماء الحديث بتعدد الانشقاق في زمنه ﷺ اهـ.
وما أحقّه ﷺ بقول أبي الطيب:

متى ما يُشِرُّ نحوَ السماءِ بَطْرُفه تَخَرُّ له الشُّعْرى، وينكسفُ البَدْرُ

وأن الملائكة من قريش تعاقبوا على قتله، فخرج عليهم، فخفصوا أبصارهم وسقطت أذقانهم في صدورهم، وأقبل حتى قام على رؤوسهم فقبض قبضةً من تراب وقال: شأنت الوجوه، وحصبهم، فما أصاب رجلاً منهم من تلك الحصباء شيء إلا قُتل يوم بدر.

ورمى يوم حنين بقبضة من تراب في وجوه القوم، فهزمهم الله تعالى.
ونسج العنكبوت، وتعشيش الحمامتين الوحشيتين عليه في الغار، ونبات الشجر
هناك تجاهه سترًا له وحفظًا من الكفار.

ونصره بريح الصبا «الشرقية»، وبالرعب للعدو يسير بين يديه مسيرة شهر، وتأيده
بالملائكة، وعصمته في السر والجهر. وما كان من أمر سراقه بن مالك، إذ بُعث خلفه
في الهجرة فساخت قوائم فرسه في الأرض الجلمد. ومسح على ظهر عناق لم ينز
عليها الفحل فدرت، وشاة أم معبد، ودعوته لعمر بن الخطاب أن يُعزَّ الله به الإسلام،
ودعوته لعلِّي رضي الله عنه أن يذهب عنه الحرَّ والبرد، وتقله في عينيه وهو أرمَد
فعوفي من ساعته ولم يرمد بعد ذلك.

ورَّده عين قتادة بعد أن سالت على خده، فكانت أحسنَ عينيه وأحدهما.
ودعاؤه لعبد الله بن عباس رضي الله عنهما بالتأويل والتفقه في الدين، وكان يسمَّى
الحَبْر والبحر لعلمه.

ودعاؤه لجَمَل جابر فصار سابقًا بعد أن كان مسبوقًا.
ودعاؤه لأنس^(١) بن مالك رضي الله عنه بطول العمر وكثرة المال والولد فعاش
مائة سنة أو نحوها، ووُلد له مائة وعشرون ولدًا ذكرًا لصلبه، وكان نخله يحمل في
السنة مرتين.

ودعاؤه في تمر جابر بالبركة، فأوفى غرماءه وفضل ثلاثة عشر وسقًا.
ومن معجزاته نزول الغيث المغيث باستسقاؤه عليه الصلاة والسلام، مرةً للمشرَكين
بمكة، ومرةً للمسلمين بالمدينة يستمر فيها أسبوعًا.

وإذا النوائبُ أظلمتْ أحداثُها لبستْ بوجهك أحسنَ الإشراق

(١) هو أنس بن مالك بن النضر الأنصاري الصحابي خادم رسول الله ﷺ: دعا له رسول الله ﷺ: «اللهم أكثر ماله
وولده وبارك له في ما آتيته» توفي سنة ٩٣ هـ من (شجرة النور الزكية في طبقات المالكية).

ودعاؤه على عتبة بن أبي لهب بقوله: «اللهم سلط عليه كلبًا من كلابك» فأكله الأسد بالزرقاء من الشام.

وشهادة الشجر له بالرسالة في خبر الأعرابي الذي دعاه إلى الإسلام فقال: هل لك من شاهد على ما تقول؟ فقال: نعم، هذه الشجرة، ثم دعاها فأقبلت، فاستشهدها فشهدت أنه كما قال ثلاثًا ثم رجعت إلى منبتها.

وأمر إنسانًا أن ينطلق إلى نخلات فيقول لهن: «أمركن رسول الله ﷺ أن تجتمعن، فاجتمعن»، فلما قضى حاجته أمره أن يأمرهن بالعود إلى أماكنهن فعدن^(١).
وقوله: «إني لأعرف حجرًا بمكة كان يُسَلَّمُ عليَّ قبل أن أُبعث»^(٢).

وحينُ الجذع لما فارقه للمنبر حتى سُمع منه صوتٌ كصوت الإبل، فضمه إليه فسكن، فقال عليه الصلاة والسلام: «والذي نفسي بيده لو لم ألتزمه لم يزل هكذا إلى يوم القيامة».

وكان الحسن البصري رضي الله عنه إذا حدث بهذا الحديث بكى وقال: «يا عباد الله، الخشبة تحن إلى رسول الله ﷺ شوقًا إليه، فأنتم أحق أن تشتاقوا إلى لقائه» اهـ.
وتسبيح الحصى في كفه: قال أنس بن مالك رضي الله عنه: كنا جلوسًا عند رسول الله ﷺ فأخذ سبع حصيات (كما في رواية أبي ذر)، حتى سمعنا التسبيح، ثم صبَّهن في يد أبي بكر فسبَّحن، ثم في يد عمر فسبَّحن، ثم في يد عثمان فسبَّحن، ثم صبَّهن في أيدينا فما سبَّحن. وكذلك الطعام بحضرته. وإعلام الشاة له بسمِّها، وشكوى البعير إليه كثرة العمل وقلة العلف، وسؤال الطيبة له أن يُخلصها من الحبل لتُرضع ولديها وتعود، فخلصها. وليس من المعجزات^(٣) أن الثعبان كلمه.

وأخبر ﷺ عن مصارع المشركين يوم بدر، فلم يعد أحدٌ منهم مصرعه.

(١) وذلك لستره ﷺ أثناء قضاء حاجته، ومثل هذه الأشياء معروفة لا ينكرها إلا منكوس القلب.

(٢) رواه مسلم، والإمام أحمد، والترمذي.

(٣) أي لم يثبت في الصحيح.

وإخباره أن طائفة من أمته يغزون في البحر، وأن أم حرام بنت ملحان منهم، فكان كذلك.

وقال لعثمان رضي الله عنه: «تُصِيبُهُ بَلَوَى شَدِيدَةٌ» فكانت، وقُتِلَ.
وقوله للأَنْصار: «إِنَّكُمْ سَتَلْقَوْنَ بَعْدِي أَثَرَهُ» (أي تعباً وشدة) فكانت زمن معاوية،
وقوله في الحسن رضي الله عنه: «إِنْ ابْنِي هَذَا سِيدٌ، وَإِنَّ اللَّهَ يُصْلِحُ بِهِ بَيْنَ فِئَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ» فكان في زمن معاوية. وإخباره بقتل العنسي الكذاب، وهو بصنعاء ليلة قتله وبمن قتله.

وقال لثابت بن قيس: «تَعِيشَ حَمِيدًا وَتُقْتَلَ شَهِيدًا» فُقْتُلَ يوم اليمامة.
وارتدَّ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، ولحق بالمشركين فبلغه أنه مات، فقال: إِنَّ الْأَرْضَ لَا تَقْبَلُهُ، فكان كذلك.

وقال لرجل يأكل بشماله: كل بيمينك، فقال: لَا أَسْتَطِيعُ، فقال له: لَا اسْتَطَعْتَ، فَلَمْ يُطِقْ أَنْ يَرْفَعَهَا إِلَى فِيهِ بَعْدَ^(١).

ودخل مكةَ عَامَ الْفَتْحِ، والأَصْنَامُ حَوْلَ الْكَعْبَةِ مَعْلَقَةٌ، وبِيَدِهِ قُضِيبٌ، فجعل يشير إليها ويقول: «جاء الحق وزهق الباطل» وهي تتساقط.

وقصةُ مَازِنِ بْنِ الْغَضُونَةِ الطَّائِي وَسَوَادِ بْنِ قَارِبٍ؛ فَإِنَّهُمَا تَكَلَّمَا فِي نُبُوته ﷺ، فخافاها، وأسلما. وَمِنْ نَظْمِ سَوَادِ بْنِ قَارِبٍ:

فَكُنْ لِي شَفِيعًا يَوْمَ لَا ذُو شَفَاعَةٍ بِمَغْنٍ فَتِيلًا عَنْ سَوَادِ بْنِ قَارِبٍ^(٢)
وشهادةُ الضَّبِّ بنبوته.

وَإِطْعَامُ أَلْفٍ مِنْ صَاعِ شَعِيرٍ بِالْخَنْدَقِ فَشَبِعُوا وَالطَّعَامُ أَكْثَرُ مِمَّا كَانَ، وَأَطْعَمَهُمْ مِنْ تَمَرٍ يَسِيرٍ، وَجَمَعَ فَضْلَ الْأَزْوَادِ عَلَى نَطْعٍ وَدَعَا لَهَا بِالْبَرَكَةِ ثُمَّ قَسَمَهَا فِي الْعَسْكَرِ،

(١) إنما دعى عليه النبي ﷺ، لأنه كان كذاباً، وكان يستطيع، فمنعه الكثير.

(٢) ولإسلام سواد بن قارب قصة جميلة فارجع إليها في المطولات من كتب السير.

فقامت بهم.

وأناه أبو هريرة بتمرات قد سفَّهن في يده، وقال: ادعُ لي فيهن بالبركة، فدعا له، قال أبو هريرة رضي الله تعالى عنه: فأخرجتُ من ذلك التمر كذا وكذا وسقًا في سبيل الله، وكنا نأكل منه ونطعم حتى انقطع في زمن عثمان رضي الله عنه.

ودعاؤه أهل الصُّفَّة لقصة ثريد، قال أبو هريرة رضي الله عنه: فجعلتُ أطاول ليدعوني حتى قام القوم وليس في القصة إلا اليسير في نواحيها، فجمعه رسول الله ﷺ فصار لقمةً ووضعها على أصابعه، وقال: كُلْ بِسْمِ الله، فوالذي نفسي بيده ما زلتُ أكل منها حتى شبعْتُ. اهـ.

وأهل الصُّفَّة فقراء لا منازل لهم ولا عشائر، ينامون في المسجد ويظَّلون فيه، وصُفَّة المسجد (أي الموضع المظلل منه) مثواهم، فُنُسبوا إليها، ويقال لهم: ضيوف الإسلام، فكان ﷺ يُعَشِّي معه بعضهم، ويفرِّق بعضهم على الصحابة يعيشونهم، ومن مشاهيرهم أبو هريرة، ووائلة بن الأسقع، وأبو ذر رضي الله عنهم.

ومن معجزاته أنه أمر عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن يزود أربعمئة راكب من تمر كان في اجتماعه كربضة البعير^(١)، فزودهم كلهم منه، وبقي تحسُّبه كما كان.

ونبع الماء من بين أصابعه الكريمة كأمثال العيون في الانسجام، حتى شرب القوم وتوضأوا وهم ألف وأربعمئة.

قال ابن العربي في «قبسه»: وذلك خصيصة له، لم تكن لأحد قبله.

وأُتي بقدح فيه ماء فوضع أصابعه في القدح فلم تسع، فوضع أربعة منها وقال: «هَلُمُّوا»، فتوضأوا أجمعين وهم من السبعين إلى الثمانين.

وورد في غزوة تبوك على ماء لا يروي واحدًا والقوم عطاش، فشكوا إليه، فأخذ سهمًا من كنانته فغرسه فيه، ففار الماء وارتوى القوم، وكانوا ثلاثين ألفًا.

(١) يعني كان مقدارًا يسيرًا.

وشكا إليه قومٌ ملوحةً في مائهم، فجاء في نفر من أصحابه حتى وقف على بئرهم، فتنفل فيه، فتنفجر بالماء العذب.

وأنته امرأةٌ بصبيٍّ لها أقرعٌ، فمسح على رأسه فاستوى شعره وذهب داؤه. وانكسر سيفٌ عكاشة يوم بدر فأعطاه جزلاً من حطب، فصار في يده سيفاً ولم يزل بعد ذلك عنده.

وعزّت كُذبةٌ^(١) بالخنديق عن أن يأخذها المعول، فضربها فصارت كثيباً أهيل^(٢). ومسح على رجل أبي رافع وقد انكسرت فكأنه لم يشكها قط. وقوله ﷺ: «إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها، وسيلبغ ملئك أمّتي ما زوى لي منها»^(٣).

قال الصّلاح الصفدي: وقد صدّق الله قوله بأنّ ملئك أمّته بلغ أقصى المشرق والمغرب، ولم ينتشر في الجنوب ولا في الشمال.

وقال لرجل يدّعي الإسلام وهو معه في القتال: «إنه من أهل النار» فصدّق الله قوله بأن ذلك الرجل نحر نفسه، وهذا لا يعرف ألّبتة بشيء من النجوم ولا بالنظر في الكتب. وأبطل الله تعالى ببعثته الكهانة، فانقطعت، وكانت ظاهرة موجودة. وأخبر بأن عمّاراً تقتله الفئة الباغية، فكان مع علي - رضي الله عنه - وقتله جماعة معاوية.

وأنذر بموت النجاشي، وخرج هو وأصحابه إلى البقيع فصلّوا عليه، فورد الخبر بموته - بعد ذلك - في ذلك اليوم.

وخرج على نفرٍ من أصحابه مجتمعين، فقال: «أحدكم في النار ضرّسه مثل أحد»

(١) صخرة.

(٢) مجتمع الرمل يتساقط باندفاع.

(٣) في حديث طويل رواه الإمام أحمد ومسلم وأبو داود، والترمذي وابن ماجه.

فماتوا كلهم على الإسلام، وارتدّ منهم واحد، وهو الدجال الحنفي، فقتل مرتدّاً مع مسيلمة الكذاب.

وقال لآخرين منهم: «آخِرُكُمْ موتاً في النار» فسقط آخِرُهم موتاً في نارٍ، فمات، وهو سمرة بن جندب.

وأخبر بأنه يقتل أمية بن خلف الجمحي، فخدشه يوم أحد خدشاً لطيفاً، فكانت مَنِيَّتُهُ مِنْهُ.

وأخبر فاطمة بنته رضي الله عنه أنها أوّلُ أهله لحوقاً به: فكان، وبأن أطول نسائه يداً أسرعهن لحوقاً به، فكانت زينب بنت جحش الأسدية؛ لطول يدها بالصدقة.

وأخبر بمقتل الحسين ومصرعه وأهله، فكان كذلك.

وخطبَ أمانة بنت الحارث بن أبي عوف، وكان أبوها أعرابياً جافياً فقال: إن بها برصاً، ولم يكن بها، فقال: «فلتكن كذلك»، فبرصت من وقتها، فتزوجها ابن عمها يزيد، فولدت له الشاعر شبيب بن يزيد، وهو المعروف بابن البرصاء.

وحكى^(١) الحَكَمُ بن أبي العاص مشيئته ﷺ، وكان النبي ﷺ يتكفأ في مشيئته، فالتفت يوماً فراّه^(٢) وهو يتخلّج في مشيئته، فقال: «كُنْ كذلك»، فلم يزل يرتعش في مشيئته من يومئذ إلى أن مات في خلافة عثمان. وقد ثبت أن النبي ﷺ نفاه من المدينة إلى الطائف، فلذلك كان طريداً رسول الله ﷺ وقد اختلف في السبب الموجب لنفي رسول الله إياه، فقليل: كان يتسمّع سرّاً رسول الله ﷺ ويطلع عليه من باب بيته، وأنه الذي أراد النبي ﷺ أن يفقأ عينه بمِدْرَى^(٣) في يده، لما اطلع عليه من الباب. وقيل سببه: أنه كان يحكيه في مشيئته وبعض حرركاته. وقد ذكره عبد الرحمن بن حسان بن ثابت في هجائه لمروان بن الحكم فقال:

(١) أي حاكى وقد سخرية منه ﷺ.

(٢) بل كان عليه الصلاة والسلام يرى من خلفه كما يرى من أمامه كما هو ثابت في الحديث الصحيح.

(٣) حديدة أو خشبة مدببة الطرف.

إِنَّ اللّٰعِينَ أَبُوكَ فَارُمَ عَظَمَاهُ إِنَّ تَرَمَ تَرَمَ مُخَلَجًا مَجْنُونًا
يَمْشِي خَمِيصَ الْبَطْنِ مِنْ عَمَلِ التُّقَى وَيَظُلُّ مِنْ عَمَلِ الْخَيْثِ بَطِينًا

ومعنى قول عبد الرحمن: «إِنَّ اللّٰعِينَ» إلى آخره: كما رُوي عن عائشة رضي الله عنها من طرق ذكرها ابن أبي خيثمة أنها قالت لمروان بن الحكم، حين قال لأخيها عبد الرحمن بن أبي بكر لما امتنع من البيعة ليزيد بن معاوية بولاية العهد، ما قال، والقصة مشهورة: «أما أنت يا مروان، فأشهد أن رسول الله ﷺ لعن أباك وأنت في صُلبه»^(١).

وقد رُوي في لعنه ونفيه أحاديث كثيرة، ولا حاجة إلى ذكرها، إلا أن الأمر المقطوع به أن النبي ﷺ مع حلمه وإغضائه على ما يكره ما فعل به ذلك إلا لأمر عظيم، ولم يزل منفياً حياة النبي ﷺ، فلما ولي أبو بكر الخلافة قيل له في الحكم ليردّه إلى المدينة فقال: ما كنت لأحلّ عقدة عقدها رسولُ الله ﷺ، وكذلك عمر، فلما ولي عثمان رضي الله عنه الخلافة ردّه، وقال: «كنت قد شفعتُ فيه إلى رسول الله ﷺ فوعدني برده»^(٢). وتوفي في خلافة عثمان رضي الله عنه.

إلى غير ذلك مما لا يُحصى، ويكفي أن منها^(٣) كرامات الأولياء التي لا تُستقصى^(٤). وما يذكره بعض القصاص من أن القمر دخل في جيب النبي ﷺ، وخرج من كفه، فليس له أصل، كما حكاه الشيخ بدر الدين الزركشي عن العماد بن كثير، وكذلك لم يُخلق الورد من عرقه ولا من غيره كما يتخيله بعض العوام أنه من عرقه أو البراق أو جبريل، بل خلقه الله كسائر الأزهار، ولم يكن وطؤه ﷺ يؤثر في الصخر دون الرمل، كما توارد عليه كثيرون^(٥)، بل كان كغيره من الناس، أي في عدم تأثير وطء قدميه

(١) وبقية كلامها له: «فأنتَ فظاظة من لعنة الله».

(٢) وهذه أيضاً رد على الذين يزعمون أن عثمان كان يوالي أقرباءه. ألا لعنة الله على الكذبة.

(٣) أي من معجزاته ﷺ: كل كرامة أكرم بها ولي من الأولياء، فإن سببها رسول الله ﷺ؛ إذ لولاه ما كان ولياً.

(٤) الهامش السابق.

(٥) كونه ﷺ إذا مشى في الصخر أثر، وإذا مشى على الرمل لا يؤثر: اشتهر ذلك عن بعض العلماء، ولم يرد في الصحاح. والله أعلم.

الكريمتين في الحجر وتأثيرهما في الرمل.

وقال بعضهم معدداً لآياته ﷺ:

ومن تِلْكَمُ الْآيَاتِ وَحْيِي أَنِّي بِهِ
تَقَاصَرَتِ الْأَفْكَارُ عَنْهُ فَلَمْ يُطِغْ
حَوَى كُلِّ عِلْمٍ، فَاحْتَوَى كُلَّ حِكْمَةٍ
أَتَانَا بِهِ لَا عَنْ رَوَايَةٍ^(١) مُرْتَبِي
يَوَاتِيهِ طَوْرًا فِي اسْتِجَابَةِ سَائِلِ
وَإِبْثَاتِ بُرْهَانٍ وَفَرْضِ شَرَائِعِ
وَتَصْرِيفِ أَمْثَالٍ وَتَثْبِيتِ حُجَجَةٍ
وَفِي مَجْمَعِ النَّادِي وَفِي حَوْمَةِ الْوَعْيِ
يُصَدِّقُ مِنْهُ الْبَعْضُ بَعْضًا كَأَنَّمَا
فِيَأْتِي عَلَيَّ مَا شِئْتُ مِنْ طَرَقَاتِهِ
وَعَجْزُ الْوَرَى عَنْ أَنْ يُجِيبُوا بِمِثْلِ مَا
وَذَكَرَ الْإِمَامُ فخر الدين أن من كانت معجزاته أظهر يكون ثواب أمته أقل، قال
السبكي: إلا هذه الأمة؛ فإن معجزات نبيها أظهر وثوابها أكثر من سائر الأمم. وقد ألف
العلماء الحفاظ والثقات الأيقاظ في سيرته ومعجزاته كتبًا كثيرة ومجلدات كبيرة، وما
أتوا بعشر معشار فضائله، ولا بقطرة من بحار فواضله (وكان أكثر مما قيل ما تركوا)
كما قال بعضهم:

لو أَنَّ بَحْرًا مَدَادُ الْكَاتِبِينَ وَمَا
لَمْ يَحْصِرُوا بَعْضَ فَضْلِ الْمُصْطَفَى أَبَدًا
فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرِ أَقْلَامٍ مُسْتَطَرِ
وَكَيْفَ يُحْصَرُ شَيْءٌ غَيْرُ مَنْحَصِرٍ

(١) في الأصل المطبوع (رؤية) وبها ينكسر الوزن، وقد رأينا أن كلمة (رواية) تجبر كسر الوزن وتؤدي المعنى.

الفصل الرابع

في ذكر أزواجه عليه السلام وقرباته ومواليه

قد سلف تزوجه عليه السلام من خديجة وعائشة وغيرهما، وموضوع هذا الفصل ذكر أزواجه أمهات المؤمنين بالبيان، وعدتھم خمس عشرة، دخل بإحدى عشر منهن، ولم يدخل بأربع، وتوفيت في حياته اثنتان، وقُبض -عليه الصلاة والسلام- عن تسع.

١- وتزوج النبي عليه السلام السيدة خديجة بنت خويلد ولها أربعون سنة، وكانت مسمّاة لورقة بن نوفل، فآثر الله عزّ وجلّ بها نبيّه عليه السلام، وأقامت معه عليه السلام بعد الزواج أربعاً وعشرين سنة وخمسة أشهر وثمانية أيام؛ خمس عشرة سنة قبل الوحي والباقي بعده، ونزل رسولُ الله عليه السلام في قبرها، ولم تكن سنّت الصلاة على الجنائز يومئذ، وغسلتها أمُّ أيمن وأم الفضل، ودُفنت بالحجون، عن نحو خمس وستين سنة. وهي سيدة النساء وأسبَقهنّ نكاحاً وإسلاماً، ولا خلاف في أن أوّل أزواجه عليه السلام خديجة، وكان تزوّجها وهو ابن خمس وعشرين سنة.

قال في المواهب: وخرّج الإمام أحمد عن ابن عباس أنه عليه السلام قال: «أفضلُ نساء أهل الجنة خديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، ومريم ابنة عمران، وآسية امرأة فرعون»^(١).

وصحّح ابن العماد تفضيلَ خديجة لما ثبت أنه عليه السلام قال لعائشة حين قالت له: «قد رزقك الله خيراً منها»: «لا والله ما رزقني خيراً منها؛ آمَنْتُ بي حين كَذَّبني الناس، وأعطتني مالها حين حرمني الناس، ورزقْتُ منها الولد وحُرِّمْتُه من غيرها».

(١) رواه الطبراني والحاكم، وهو حديث متواتر.

وسُئِلَ ابن داود: أيتهما أفضل؟ فقال: عائشة أقرأها النبي ﷺ السلام من جبريل، وخديجة أقرأها جبريل من ربها السلام على لسان محمد ﷺ؛ فهي أفضل. قيل له: فمن أفضل: خديجة أم فاطمة؟ قال: إن رسول الله ﷺ قال: «فاطمة بضعة مني»، فلا أعْدَلُ بِبُضْعَتِهِ أَحَدًا»^(١) ويشهد له قوله ﷺ: «أما تَرْضَيْنَ أَنْ تكوني سيدة نساء أهل الجنة؟!»^(٢).

واحتجَّ مَنْ فَضَّلَ عائشةَ بأنها في الآخرة مع رسول الله ﷺ في الدرجة، وفاطمة مع عليٍّ فيها.

وقال شيخ الإسلام في شرح البهجة: «الذي أخْتَارَهُ أَنَّ الأفضلية محمولة على أحوال؛ فعائشة أفضل من حيث العلم، وخديجة من حيث تقدمها، وإعانتها له ﷺ في المهمات، وفاطمة من حيث البضعة والقربة، ومريم من حيث الاختلاف في نبوتها، وذكرها في القرآن مع الأنبياء، وآسية من حيث الاختلاف في نبوتها، وإن لم تُذكر مع الأنبياء اهـ.

وسُئِلَ السبكي عن ذلك، قال: الذي نختاره وندين الله به أن فاطمة أفضل، ثم أمها خديجة، ثم عائشة، وأما خبرُ الطبراني^(٣) «خيرُ نساء العالمين مريمُ ابنةُ عمران، ثم خديجة بنتُ خويلد، ثم فاطمة بنت محمد، ثم آسية امرأة فرعون»، فأجاب عنه ابنُ العماد بأن خديجة إنما فَضِّلَتْ فاطمة باعتبار الأمومة، لا باعتبار السيادة، واختار السبكي أن مريم أفضل من خديجة لهذا الخبر، وللاختلاف في نبوتها.

ووقع الاختلاف في نبوة أربع نسوة: مريم، وآسية، وسارة، وهاجر، وزاد العلامة المتقن السراج بن الملقن في شرحه لعمدة الأحكام: حواء، وأم موسى عليهما السلام.

(١) وقد قال أحد العلماء: «إن خديجة أفضل من ناحية أنها أم لها، أفضل من بنتها قطعاً، وفاطمة أفضل من ناحية أنها بضعة منه ﷺ»، وعلى كل حال فمسألة التفضيل أمرها إلى الله، وليس لنا أن نخوض في ذلك.

(٢) انظر مناقب السيدة فاطمة في كتب الحديث والسير.

(٣) والإمام أحمد.

وسياتي ما يردُّ على التفضيل بالحيثيات.

ومما يناسب ذكره هنا أنه وُجد في بعض الرسائل ما نصَّه: في ليلة السابع والعشرين من شهر رجب الفرد من سنة اثنتين وتسعين وتسعمائة، قرأ شيخُ الإسلام قطب الأنام، من خضعت له رقاب الفضلاء، وارتضع من ثدي معارفه النبلاء، العارف بالله تعالى الشيخ محمد الصديقي: المعراج الشريف، وأبدع فيما قرأ، وقَدَّم للحاضرين أحسن قرأ، ووقع أن سألَه إنسان: هل الأفضل إبراهيم ابنُ نبينا وأخته، أو أبو بكر الصديق؟ فأجاب بأنَّ أبا بكر أفضل، وجرى بينه وبين السائل كلامٌ لا ينبغي ذكره، فكتب بعضُ الأفاضل سؤالاً ورفعَه إلى العلماء من أهل العصر، فكتب شيخ الإسلام أحمد بن قاسم الجواب عنه. وصورةُ السؤال:

«الحمد لله»: ما تقول ساداتنا وموالينا الأئمةُ الأعلام، علماءُ السنَّة وعقائد الإسلام، مَنْ أعظم الله عن الإنيان بمثلهم الليالي والأيام، حفظهم الله على كافة الأنام، ونصر بهم شريعة نبيه، وأحمد بهم عقائد أهل الشيع والبدع إلى يوم السلام، بجاه سيدنا ونبينا محمد عبده ورسوله عليه أفضل الصلاة وأشرف السلام، آمين.

هل أحد من أولاد أبينا آدم ﷺ غير النبيين والمرسلين من أهل البيت، ومن أولاد النبي ﷺ أو من الصحابة رضي الله عنهم أجمعين، أفضل من سيدنا عبد الله أبي بكر الصديق رضي الله عنه أو لا؟ وإذا قلتم لا، فهل قول الحافظ جلال الدين السيوطي في «خصائصه الصغرى»: «وذكر الإمام علم الدين العراقي أن فاطمة وأخاها إبراهيم أفضل من الخلفاء الأربعة باتفاق صحيح بجواز اعتقاد والإفتاء به أو لا؟ وإذا قلتم لا، فهل إفتاء بعض الموجودين بأنه لا يجوز أن يقال: إن أبا بكر الصديق رضي الله عنه أفضل من سيدنا إبراهيم، وأخته فاطمة، ولَدَي رسول الله ﷺ مصيبٌ فيه أو لا؟ وما هو مذهب أهل السنة؟ بسطوا لنا الجواب، أحسن الله لكم الثواب؛ فإن غالب الناس خصوصاً بعض العوام اعتقدوا أن ما أفتى به هذا البعض هو الصحيح، وأنتم العلماء الراسخون ذوو الترجيح فلا تكلونا إلى التلويح.

وصورة الجواب:

الحمد لله الهادي للصواب، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين آمين.

الحق - إن شاء الله تعالى -، وهو الذي دلَّت عليه نصوصُ الشرع، ونصوصُ أئمة الشرع، أن مولانا الصديق أفضلُ مَنْ عدا الأنبياء من الناس من غير استثناء أحد بعد ذلك مطلقاً، وهذا هو الذي نعتقه وندين الله به، ولم نعلم أحداً من العلماء الذين أخذنا عنهم حكي خلاف ذلك، ولولا خوفُ الإطالة التي لا يحتملها المقام نقلنا نصوص الشرع ونصوص أئمته، وبينّاها بما يندفع به توهم القاصرين واغترار المغرورين.

وأما ما ذكر عن الجلال السيوطي نقلاً عن العَلَم العراقي فلا يجوز التعويل عليه، ولا العمل به عند من ألهم رشد، وكان له إلمامٌ بكلام الأئمة وتصرفاتهم، فإنه مجرد دعوى مخالفة لنصوص الشرع وأئمته من غير سند يُعتدُّ به، وليست دعوى الاتفاق بالأمر الهين، ولا كل من ادّعه يُقبل منه ذلك، وكم دعاوي للاتفاق، بل وللإجماع مردودة لا يلتفت إليها كما لا يخفى على ممارس العلوم، ويكفي في رد هذه الدعوى أنهم حكوا في التفضيل بين عائشة وفاطمة رضي الله عنهم ثلاثة أقوال: تفضيل عائشة، تفضيل فاطمة، التوقف. وممن حكى هذا الخلاف العلامة الإمام عز الدين ابن جماعة، فقال: اختلف في التفضيل بين عائشة وفاطمة على مذاهب ثلثها - وهو الأسلم - التوقف اهـ.

ومعلومٌ انحطاط رتبة عائشة عن الصديق رضي الله عنهما؛ فإذا جرى قول بتفضيل عائشة على فاطمة رضي الله عنهما، وقول آخر بالتوقف بينهما، فكيف يصح دعوى الاتفاق على تفضيل فاطمة رضي الله عنها على الخلفاء الأربعة الذين منهم وأفضلهم الصديق رضي الله عنه؟! ودعوى الخلاف مقدّمة على دعوى الاتفاق؛ لأن الأول من قبيل الإثبات، والثاني من قبيل النفي، والإثبات مقدّم على النفي لأن معه زيادة علم كما تقرّر ذلك في الأصول، وبهذا ثبت ردُّ دعوى الاتفاق بالنسبة لفاطمة رضي الله عنها،

فليثبت رده بالنسبة للباقي، إذ لا قائل منا ومن هذا المدعى لذلك الاتفاق بالفضل، بل مجرد النظر إلى رده بالنسبة لفاطمة رضي الله عنها قرينة قوية تقرب من الصريح إن لم تكن منه، على اختلال تلك الدعوى وعدم تحرري صاحبها وعدم احتياطه في نقله. ومما يعارضها أشد المعارضة إن لم يكن مصرحاً بردها قول العلامة محمد بن أبي بكر الرازي في شرح «يقول العبد»: واعلم أنه تعالى قد فضل محمداً على جميع الأنبياء، ثم بعده أفضل هذه الأمة وأرجحهم من جميع الصحابة والآل: أبو بكر الصديق رضي الله عنه.

ثم قال: ومن قال إن أحداً أفضل من أبي بكر كان معتزلياً ورافضياً، ثم قال أيضاً: واعلم أن بعد أبي بكر وعمر وعثمان لم يكن أحد في أمة محمد ولا في أصحابه وأهل بيته أفضل من علي رضي الله عنه اهـ.

فتأمل قوله «في أمة محمد ولا في أصحابه وأهل بيته» فإنه بمنزلة الصريح إن لم يكن صريحاً في تفضيل علي رضي الله عنه على جميع من عدا الثلاثة من أهل البيت وغيرهم من غير استثناء أحد منهم، وإذا كان هذا في علي رضي الله عنه، فكيف بمن هو أفضل منه كالصديق رضي الله عنه، ولما استدل الكمال بن الهمام على تقديم علي رضي الله عنه بعد الثلاثة بقوله ما نصه: «ولما أجمعوا (أي الصحابة) على تقديم علي بعدهم، دل على أنه كان أفضل من بحضرته؛ فكان منهم الزبير وطلحة، فثبت أنه كان أفضل الخلق بعد الثلاثة». بحث معه في هذا الاستدلال تلميذه العلامة الكمال بن أبي شريف، فقال: لا يلزم من كونه أفضل الخلق بعد الثلاثة ممن بحضرته، ومن غاب عنه أو تقدمت وفاته على الإجماع المذكور كأبي عبيدة بن الجراح، وحزمة والعباس، وفاطمة، نعم إذا ضم إلى ذلك الإجماع على أنه أفضل ممن عدا الثلاثة من الخلق ثبت ذلك، وثبتت أفضليته عليهم بأدلة السمع اهـ.

فانظر قول هذا العلامة المتأخر الواسع الإطلاع «نعم إذا ضم إلى ذلك الإجماع إلى آخره» مع التمثيل قبله بفاطمة رضي الله عنها تجده جازماً بتفضيل علي - رضي

الله عنه- على فاطمة رضي الله عنها، فكيف بمن هو أفضل من عليٍّ بمراتب، وهو الصديق رضي الله عنه؟! وهذا مما يردُّ دعوى الاتفاق بالنسبة لفاطمة رضي الله عنها، ويقتضي ردّه بالطريق الذي قدّمناه.

وأما إفتاء بعض الموجودين المشار إليه، فقد عُلم حاله وحالنا فيه، مما قررنا. والرأي: الضربُ عنه صفحاً؛ فإنه لا أثر له، لا سيما ولم نعلم أن أحداً من أهل الإفتاء أفتى بخلاف ما قلناه، ومنصب الإفتاء قد انحطت رُتبته وتسوّره كل من أراد، بل تجرأ عوام الطلبة على التكلم فيما شاءوا بما شاءوا^(١) وعلى إساءة الأدب في حق علماء الدين وسادات العارفين، لتغافل العلماء من أولي الأمر عن أحوالهم وتشاغلهم عن البحث عن أوصافهم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وأما قول السائل: فإن غالب الناس -خصوصاً العوام- إلى آخره فهو عجيب، فإنه يدل على أن غير العوام اعتقد ذلك أيضاً، مع أنه لا يعتقد ذلك من عنده أدنى معرفة، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، والله تعالى أعلم.

(قال ذلك وكتبه الفقير أحمد بن قاسم العبادي، غفر الله ذنوبه، وستر عيوبه، وفعل ذلك بوالديه ومشايخه آمين، وصلواته على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين).

قال العزيزي في شرح الجامع الصغير في حديث: «أفضلُ نساء أهل الجنة خديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد ومريم بنت عمران، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون» ما نصه: قال العلمي: «وأفضلهن فاطمة، بل هي وأخوها إبراهيم أفضل من سائر الصحابة، حتى الخلفاء الأربعة» اهـ.

وقال الرملي: «أفضل نساء العالم مريم بنت عمران، ثم فاطمة بنت النبي ﷺ، ثم خديجة، ثم عائشة». رواه الإمام أحمد والطبراني عن ابن عباس اهـ.

وقد تقدّم في جواب البكري وابن قاسم العبادي ما يخالف ذلك، وأنَّ الصديق

(١) هذا في وقته هو، فكيف به في وقتنا الذي انطلقت فيه الألسنة بدعوى الاجتهاد، وأوقعوا المسلمين في الحرج.

أفضل الناس بعد الأنبياء، على أن العريزي قال في حديث: «إن الله اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً، وإنَّ خليلي أبو بكر» هو أفضل الناس على الإطلاق بعد الأنبياء اهـ.

وقول ابن قاسم فيما تقدم: «ويكفي في رد هذه الدعوى» إلى آخره، قال شيخ الإسلام في شرح البهجة: «الذي أختاره أن الأفضلية محمولة على أحوال؛ فعائشة أفضل من حيث العلم، وخديجة أفضل من حيث تقدمها، وإعانتها له ﷺ في المهمات، وفاطمة من حيث البضعة والقرابة، ومريم من حيث الاختلاف في نبوتها، وذكرها في القرآن مع الأنبياء، وآسية من حيث الاختلاف في نبوتها، وإن لم تُذكر مع الأنبياء اهـ.

وأقول: إن صحَّ التفضيل بالحيثية رجع الخلاف لفظياً ودفع التعارض في الأقوال، إلا أنه لا يمكن أخذه بالقبول على عمومته في جميع الحيثيات؛ لأنه فتح باب يُعْيِي سُدَّهُ، فلو سُلِمَ قبوله في حق السيد فاطمة وأخيها، فلا يُقبل في حق الإمام علي كرم الله وجهه بالنسبة إلى أبي بكر رضي الله عنه، نظراً إلى حيثية القرابة القريبة أو الصهارة، على أنه يلزم من ذلك اعتبار الحيثية في حق السيدة رقية وأم كلثوم، زوجتي عثمان بن عفان رضي الله عنه، كما يلزم أن الشخص الواحد يكون فاضلاً من جهة ومفضولاً من أخرى، فيرجع إلى التساوي، مع أنَّ مَطْمَحَ النظر الأفضلية واعتقادها. وأما المحبة لمثل علي رضي الله عنه لحيثية النسب من ذريته، على اختلاف طبقاتهم، فشيء آخر إذا كان معها حب أبي بكر رضي الله تعالى عنه وبقية الصحابة، ولذلك قال علي كرم الله وجهه «لا يجتمع حبُّ وبغضُ أبي بكر وعمر» لأنهما ضدَّان، وهما لا يجتمعان؛ فالمحبة المعتبرة الممدوحة هي ما كانت مع اتباع سُنَّةِ المحبوب؛ إذ محبته من غير اتباع سنته - كما عليه الشيعة والرافضة من محبتهم مع مجانبتهم للسنة -، لا تفيد مدحها شيئاً من الخير؛ لأنها ليست محبة حقيقية، بل هي خالية عن التأدب بأداب المحبوب، فأتباع عليّ الحقيقيون هم أهل السنة، لا الشيعة، وعليه الحديث الذي أخرجه الدارقطني مرفوعاً: «يا أبا الحسن، أما أنت وشيعتك (أي حزبك المولعون

بحبك أكثر من غيرك) في الجنة، وإن قوماً يزعمون أنهم يحبونهم يصغرون الإسلام ويلفظونه ويمرقون منه كما يمرق السهم من الرمية، لهم نبي يقال لها الرافضة، فإذا أدركتهم فقاتلهم؛ فإنهم مشركون» قال الدارقطني: ولهذا الحديث عندنا طرق كثيرة.

٢- ثم تزوج عليه السلام بعد موت خديجة سودة بنت زمعة بنت قيس بن عبد شمس بن عبدود بمكة قبل الهجرة، وكبرت عند النبي عليه السلام، فأراد فراقها، فوهبت نوبتها من النبي عليه السلام عائشة، وقالت: لا رغبة لي في الرجال، وإنما أريد أن أحشر مع أزواجك، فأمسكها. وكان يقسم لبقية أزواجه ويقسم نوبتها لعائشة، وتوفيت بعده في شوال سنة أربع وخمسين بالمدينة.

والقسم في حقه عليه السلام غير واجب، وإنما هو من باب العدل والإنصاف.

٣- ثم تزوج عليه السلام عائشة بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنه بمكة، قبل الهجرة بستين، وقيل بثلاث، وهي بنت ست أو سبع، وقالت: تزوجني رسول الله عليه السلام وإني لألعب مع الجواري والبنات، فما شعرت بذلك حتى حبستني أمي عن الخروج، فوقع في نفسي أنني قد زوّجت، وما سألتها حتى أخبرتني ابتداء. وبنى بها عليه السلام في المدينة، وهي بنت تسع، ومات عنها وهي بنت ثماني عشر. وتوفيت سنة ثمان وخمسين، وقيل غير ذلك، وصلى عليها أبو هريرة، ودفنت بالبقيع، ونزل في حفرتها عبد الله بن الزبير، وهو ابن أختها أسماء بنت أبي بكر. ولم يتزوج بكراً غيرها. ورؤي عن حماد بن سلمة عن هشام بن عروة عن عروة عن عائشة أنها أنشدت بيت لبید:

ذهب الذين يعاش في أكنافهم وبقيت في خلف كجلد الأجر

فقلت: رحم الله لبیداً فكيف لو رأى هذا الزمان! وقال عروة: وأنا أقول: رحم الله أم المؤمنين، فكيف لو رأت هذا الزمان! وقال هشام: رحم الله عروة فكيف لو رأى هذا الزمان! وقال حماد: رحمهم الله فكيف لو رأوا زماننا! ^(١).

(١) ونحن نقول: رضي الله عنهم: كيف لو رأوا زماننا هذا؟

٤- ثم تزوج ﷺ حفصة، زوجه إياها أبوها عمر بن الخطاب رضي الله عنه في شعبان، على رأس ثلاثين شهراً من مهاجره ﷺ، بعد وفاة زوجها خنيس بن حذافة ابن قيس السهمي، وكان صحابياً بدرياً توفي بالمدينة من جراحة أصابته ببدر، وقيل بأحد، وتوفيت في شعبان سنة خمس وأربعين بالمدينة، وقد بلغت ستين سنة. وروي أن النبي ﷺ طلقها فأتاه جبريل، فقال: إن الله يأمرك أن تراجع حفصة فإنها صوامة قوامة، وروي أنه لما بلغ عمر طلاقها حثا على رأسه التراب، وقال: «ما يعبا الله بعمر وابنته بعد هذا». فنزل جبريل من الغد، وقال للنبي ﷺ: إن الله يأمرك أن تراجع حفصة رحمةً لعمر.

٥- ثم تزوج ﷺ أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان، وكانت قبله تحت عبد الله بن جحش، فولدت له جارية سُميت حبيبة، فكنيت بها، وهاجرت معه إلى أرض الحبشة، وأصدقها عنه النجاشي أربعمئة دينار، وروي أربعة آلاف، وبعث بها إلى رسول الله ﷺ مع شرحبيل بن حسنة، وهو الذي تولى نكاحها وكتب بذلك إلى رسول الله ﷺ، فقبل. وروي عن أم حبيبة أنها رأت في المنام كأن زوجها عبد الله بن جحش بأسوأ حال، وأرثها، فلما أصبحت أعلمها أنه قد تنصّر وارتد، فثبتت عليها لإسلام، وأكبت على الخمر، فلم يزل يشربها حتى مات، ورأت في المنام أباها يقول لها: «يا أم المؤمنين». ولما بلغ أبا سفيان تزويج رسول الله ﷺ أم حبيبة ابنته، قال: «ذلك الفحل لا يُقدحُ أنفه». وعن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوْدَةً﴾ [الممتحنة: ٧]، قال: نزلت حيث تزوج رسول الله ﷺ أم حبيبة بنت أبي سفيان، وقيل إن الذي ولي نكاحها عثمان بن عفان، وقيل خالد بن سعيد بن العاص، وتوفيت سنة أربع وأربعين، وهي السنة التي حجَّ فيها معاوية، وصلى عليها مروان.

٦- ثم تزوج ﷺ أم سلمة، واسمها هند بنت أبي أمية، واسمها حذيفة، ويقال سهل بن المغيرة، القرشية المخزومية، وأخت عمار بن ياسر لأمه، وقيل من الرضاع، تزوجها رسول الله ﷺ بعد انقضاء عدتها أربعة أشهر وعشرًا، وأعرس بها في شوال سنة

أربع من الهجرة، روت عن النبي ﷺ وعن أبي سلمة بن عبد الأسد، وفاطمة الزهراء، وروى عنها ابن عباس، وأسامة بن زيد، وخَلَق. ماتت في شوال سنة تسع وخمسين، ويقال ماتت سنة اثنتين وستين، وعمرها أربع وثمانون سنة، وهي آخر أزواج النبي ﷺ موتًا، وقيل ميمونة آخرهن موتًا، وكانت قبله تحت أبي سلمة عبد الله بن عبد الأسد، فولدت له سلمة، وعمر، ودرّة، وكانت أم سلمة هاجرت مع زوجها أبي سلمة إلى أرض الحبشة، ورُمي يوم أُحد بسهم فمات منه في جمادي الآخرة سنة أربع، وكان ابنُها عمر مع علي بن أبي طالب يوم الجمل، وولاه البحرين، وله عقب بالمدينة.

٧- ثم تزوج ﷺ زينب بنت جحش بن رباب بن يعمر بن صبرة بن مرة، وهي ابنة عمته «أميمة» بالتصغير بنت عبد المطلب، وكانت قبله ﷺ عند مولاه زيد بن حارثة الكلبي، مولى النبي ﷺ، فشكاها إليه، وقال: إنها سيئة الخلق، واستأمره في طلاقها، فقال له ﷺ: «أمسك عليك زوجك يا زيد»، وهو قول الله عز وجل: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ (بِالْإِسْلَامِ) وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ (بِالْعَتَقِ) أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ [الأحزاب: ٣٧]، وكان ﷺ رآها فأعجبته، فقال: سبحان الله مقلب القلوب، ثم إن زيدًا ضاق ذرعًا بما رأى من سوء خلقها فطلقها، فزوجها الله عز وجل من السماء نبيه ﷺ سنة ثلاث، حين انقضت عدتها بغير مهر، ولا تولى أمرها أحدٌ كسائر أزواجه. ولم تلد زينب لزيد، ولما بُشِّرَتْ زينب بتزويج الله عز وجل نبيه ﷺ إياها، ونزول الآية في ذلك جعلت على نفسها صوم شهرين شكرًا لله عز وجل، وأعطت من بشرها حليًا كان عليها. وقيل: تزوجها سنة أربع، وقيل خمس من الهجرة بالمدينة، وهي بنت خمس وثلاثين سنة، وصنعت له أم سلمة حيسًا، ولم يعقد له ﷺ بها غير الله، وهي التي قال الله تعالى فيها: ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاهَا﴾ [الأحزاب: ٣٧] وأولم عليها، وأطعم المساكين خبزًا ولحمًا، وفيها نزلت آية الحجاب، وكانت كثيرة الصدقة، وصحَّ أنها كانت تقول لأزواج النبي ﷺ «زَوَّجَكُنْ أَبَاؤُكُنْ وَزَوَّجَنِي اللَّهُ مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَوَاتٍ». وتوفيت في خلافة عمر رضي الله عنه بالمدينة، سنة عشرين، وقيل عاشت ثلاثًا وخمسين، ودُفنت

بالقيع، وهي أول من مات من أزواجه بعده، وأول مَنْ حُمِلَ على نعش، ورُوي عن عائشة أنها قالت: «يرحم الله زينب لقد نالت الشرف الذي لا يبلغه شرفٌ في الدنيا، إن الله عز وجل زَوَّجَهَا نَبِيَهُ ﷺ، ونطق بذلك كتابه، وإن رسول الله ﷺ قال ونحن حوله: «أسرعُكن لحوقاً بي أطولُكن يداً» فبشَّرها بسرعة لحاقها به، وأنها زُوِّجَتْهُ في الجنة. وعن الشعبي أن رسولَ الله ﷺ قال لنسائه: «أطولُكن يداً أسرعُكن بي لحاقاً» فكانت سودة أطولهن يداً، فلما توفيت زينب قلن: صدق رسول الله ﷺ كانت أطولنا يداً في الخير.

٨- ثم تزوج ﷺ **جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار بن خبيب بن عايد -بالياء والذال-** ابن مالك بن جذيمة بالجميم والذال المعجمة، وجذيمة هو المصطلق من خزاعة. سُبِّت في غزوة المريسيع، وهي غزوة بني المصطلق، ف وقعت في سهم ثابت ابن قيس بن شماس، فكاتَبَها على تسع أواق، فأَتَتْ رسولَ الله ﷺ تستعينه في كتابتها، وكانت امرأة ذات ملاحه، فقال رسول الله ﷺ: «أَوْ خَيْرٌ مِنْ ذَلِكَ، أُوْدِي عَنْكَ كِتَابُكَ وَأَتَزَوَّجُكَ؟» فقبلت، ف قضى عنها النبي ﷺ كتابتها ثم أعتقها وتزَوَّجَهَا في سنة ست من الهجرة، وأعتق أربعين من أهل بيتها، ولم تبقَ مصطلقيةً عند رجل من المسلمين إلا أعتقها صاحبها، فكانت أعظم امرأة بركةً على قومها، وكان اسمها «بَرَّة» فغيَّره النبي ﷺ وسَمَّاها «جويرية» لما في برة من تزكية النفس، وقد قال تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [النجم: ٣٢]، وتُوفيت بعده بالمدينة سنة ست وخمسين، وصَلَّى عليها مروان ابن الحكم، وهو أمير المدينة، وقد بلغت سبعين سنة.

٩- ثم تزوج ﷺ **صفية بنت حُيَيِّ بن أخطب بن سَعْيِه** (بفتح السين المهملة وسكون العين المهملة) ينتهي نسب أبيها إلى النَّضِرِ (بفتح النون وكسر الضاد المعجمة) من بني إسرائيل، ومن نسل هارون بن عمران أخي موسى بن عمران. ولَدَهَا مائة نبي، ومائة مَلِكٍ حتى صارت إليه ﷺ، لما قَدِمَ خيبر. وكانت عروساً لكنانة بن أبي الحقيق اليهودي، فرأت أَنَّ القمر وقع في حِجْرِها، وقيل: رأت الشمس وقعت على صدرها،

وقصّتها على أبيها أو زوجها فلطمّها، وقال: أتريدين مُلْكَ يثرب؟! وفي رواية: «ما تمنين إلا هذا الملك الذي نزل». فافتتح ﷺ خيبر وجمع السبي، فقال دحية: يا رسول الله أعطني جارية من السبي، فأخذت، فذكرت لرسول الله ﷺ، فأعطاه سبعة رؤوس مكانها، وأخذها ﷺ فأعتقها، وجعل عتقها صداقها، وهو مذهب الإمام أحمد، وهو من مفردات مذهبه، وقد سبق ذلك في الفصل السادس من الباب الرابع من المقالة الخامسة من الجزء الثاني. ثم إن رسول الله ﷺ دفعها إلى أم سليم تُهَيّئها، فلما ارتحل ﷺ بنى بها بعد أن حاضت حيضة، ولما دخل ﷺ بها بات أبو أيوب الأنصاري خالد ابن زيد على باب الستارة أو بقرّبها شاهراً سيفه، فلما أصبح النبي ﷺ رآه، فقال: يا أبا أيوب ما لك شهرت سيفك؟ فقال: إنها جارةٌ حديثة عهد، وكنت قتلت أباها وزوجها فلم آمنها. فضحك، وقال له خيراً. ثم صنع ﷺ حَيْسًا في نَظْعٍ صغير، وقال الناس: لا ندري أتزوّجها أم اتخذها أمّ ولد؟ فلما أراد أن يركب حجبها، فقعدت على عجز البعير، فعرفوا أنه تزوّجها. وقُتل كنانة يوم خيبر سنة سبع من الهجرة، وكانت صفية بنت حبيّ صَفِيَّ رسول الله ﷺ يوم خيبر، وكان له من كل مغنم صفي يُصطفى: عبدٌ أو أمة أو سيف أو غير ذلك قبل الخمس، وتوفيت سنة خمسين، وصلى عليها سعيد بن العاص رضي الله عنه، وقيل: إنها آخر أمهات المؤمنين موتاً.

١٠- ثم تزوج ﷺ بميمونة بنت الحارث بن حَزْن (بفتح الحاء المهملة وسكون الزاي وبالنون) بن بُجير (بضم الباء الموحدة وفتح الجيم وسكون الياء) بن الهُزَم (بضم الهاء وفتح الزاي) وهي التي وهبت نفسها للنبي ﷺ، وقيل الواهة نفسها خولة بنت حكيم، ويجوز أن تكون وهبتا أنفسهما، فلا تضاد. وكانت قبله تحت أبي رهم بن عبد العُزَّى، وتوفي عنها وتزوّجها رسول الله ﷺ سنه سبع، وماتت سنة ثمان وثلاثين، وقيل غير ذلك، قال الشعبي: أقام رسول الله ﷺ بمكة حين خرج لعمره القضاء ثلاثة أيام، فبعث إليه حويطب بن عبد العُزَّى: «إِنَّ أَجَلَكَ قد مضى وانقضى الشرط، فاخرج من بلدنا» فقال له سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل: كذبت؛ البلد بلد رسول الله ﷺ

وآبائه، فقال ﷺ: مهلاً يا سعيد، فقال حويطب: أقسمتُ عليك لما خرجتَ. فخرج وخلف أبا رافع، وقال: ألحقني بميمونة. فحملها على قلوص، فجعل أهل مكة ينفرون بها، ويقولون: لا بارك الله لك. فوافى رسول الله ﷺ بسرف، وكان دخول رسول الله ﷺ بسرف، وهي آخر أميال من مكة. وهي آخر امرأة تزوجها رسول الله ﷺ، وآخر من تُوفي من أزواجه ﷺ ورضي عنهم، وصلى عليها عبد الله بن عباس، ونزل في قبرها. وهؤلاء التسعة من سودة إلى ميمونة اللاتي تُوفي ﷺ وهُنَّ في عصمته، خمس منهن من قريش: عائشة، وحفصة، وأم حبيبة (رملة بنت أبي سفيان) وسودة بنت زمعة، وأم سلمة، واسمها هند، وثلاث من العرب غير قريش: ميمونة بنت الحارث، وزينب بنت جحش، وجويرية بنت الحارث، ومن غير العرب: صفية بنت حيي، وإلهن أشار الحافظ أبو الحسن بن الفضل المقدسي بقوله:

توفي رسول الله عن تسع نسوة إلهن تُعزى المكرمات وتُنسبُ
فعائشة، ميمونة، وصفية وحفصة، تتلوهن هند وزينبُ
جويرية مع رملة، ثم سودة ثلاث وست: ذكرهن مهذبُ

ثم تزوج ﷺ زينب بنت خزيمة كانت تُسمى في الجاهلية أم المساكين؛ لإطعامها إياهم. وكان زواجها سنة ثلاث من الهجرة، وكانت تحت عبيد بن الحارث بن المطلب ابن عبد مناف، فقتل يوم بدر شهيداً، فتزوجها النبي ﷺ، فلم تلبث إلا يسيراً شهرين أو ثلاثة، وتوفيت ودُفنت بالبقيع، ولم يمُت من أزواجه في حياته إلا هي وخديجة رضي الله عنهما.

ثم تزوج ﷺ فاطمة بنت الضحَّاك الكلابية بعد وفاة ابنته زينب، وخيرها حين نزلت آية التخير، وهي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ [الأحزاب: ٢٨]، فاختارت الدنيا، ففارقها، وكانت بعد ذلك تلتقط البعر، وتقول: «أنا الشقية اخترت الدنيا!».

وتزوج ﷺ بشَراف الكلبية (بفتح الشين المعجمة وتخفيف الراء والفاء) بنت خليفة، وأخت دحية بن خليفة الكلبي، تزوّجها النبي ﷺ ولم يدخل بها.

وتزوج ﷺ أسماء بنت النعمان بن أبي الجون (بفتح الجيم وبالنون) بن الحارث الكندية، وطلّقها قبل أن يدخل بها.

وتزوج ﷺ امرأة من غفار، فلما نزلت ثيابها رأى بها بياضاً، فقال: «الحَقِّي بأهلك». وتزوج ﷺ بامرأة تميمية فلما دخل عليها قالت: أعوذ بالله منك. فقال: «لقد استعذتِ بُمعيذٍ، الحَقِّي بأهلك»، وقيل: إن بعض نسائه علّمها ذلك، وقالت: إنك تحظين به عنده، هكذا قاله بعض أرباب السير، وهو بعيد لأن المعلمة سبّابة، ولا يليق بحال أزواجه السباب.

وتزوج ﷺ عالية بنت ظبيان، وقيل اسمها سبا (بالسين المهملة وبالباء الموحدة) السلمية، وقيل بالنون، ماتت قبل أن تصل إليه.

وتزوج ﷺ مليكة الليثية بنت كعب الليثي، فلما دخل عليها قال: هَبِي لي نفسك، فقالت: وهل تهب الملكة نفسها للسوقة؟! فسرّحها.

وخطب ﷺ امرأة من مُرة، فقال أبوها: إن بها مرضاً، ولم يكن، فرجع فإذا هي برصاء.

وخطب ﷺ امرأة من أبيها، فوصفها له، وقال: أزيدك أنها لم تمرض قط، فقال: «ما لهذه عند الله من خير»، فتركها، وقيل إنه تزوّجها، فلما قال أبوها ذلك طلقها، ولم يَنْ بها.

وتزوج ﷺ خولة بنت الهذيل، فماتت في طريق الشام، وقبل وصولها إليه.

وتزوج ﷺ بأمر شريك، وفارقها ﷺ، وفي الدخول بها خلاف.

وذكر أبو سعيد في «شرف النبوة» أن جملة أزواج النبي إحدى وعشرون، طلق منهن ستاً، ومات عنده خمس، وتوفي عن عشر [منهن] واحدة لم يدخل بها، وكان

ﷺ يقسم لتسع، وكان صداقه لنسائه خمسمائة درهم لكل واحدة، وهذا أصح ما قيل، إلا صفة فإنه جعل عتقها صداقها، وأم حبيبة أصدقها عنه النجاشي أربعمائة دينار.

وأما سراريه عليه الصلاة والسلام فأربع: مارية القبطية، وريحانة بنت شمعون النسطورية، وجميلة أصابها في السبي، وجارية وهبتها له زينب بن جحش.

فهؤلاء زوجاته ﷺ وسراريه، وهن أمهات المؤمنين، وكلهن فاضلات طيبات طاهرات، وكما فضل الله تعالى أصحابه على سائر الأصحاب ورفع بعضهم فوق بعض درجات، كذلك فضل زوجاته على سائر الزوجات، ورفع بعضهن فوق بعض درجات، لقوله تعالى: ﴿يَنْسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ﴾ [الأحزاب: ٣٢]، فكما أن أفضل الصحابة أبو بكر الصديق رضي الله عنه، كذلك أفضل أزواج النبي ﷺ بعد خديجة عائشة بنت الصديق رضي الله تعالى عنهما، فكيف لا وهي التي نزلت براءتها في سورة النور! وقال ﷺ: «أحب النساء إليَّ عائشة، ومن الرجال أبوها»، وقال ﷺ: «فضل الثريد على الطعام كفضل عائشة على النساء»^(١) ضرب المثل بالثريد لأنه أفضل طعامهم، ولأنه رُكب من خبز ولحم ومرقة، ولا نظير له في الأطعمة، ثم أنه جامع بين الغذاء واللذة والقوة وسهولة التناول وقلة المؤنة في المضغ، وسرعة المرور في الحلقوم.

والصواب أن الحاجة للخبز أعم، واللحم أفضل، وهو أشبه بجوهر البدن من كل ما عداه، وخصَّ رسول الله ﷺ المثل بالثريد إيداناً بأن عائشة جمعت مع حسن الخلق وحسن الحديث، وحلاوة المنطق، وفصاحة اللهجة، وجودة القريحة، ورزانة الرأي ورصانة العقل التحبُّب إلى البعل، ومن ثم عقلت منه ما لم يعقل غيرها من نسائه، وروت عنه ما لم يرو مثلاً من الرجال والنساء، وقد خُصِّت على نساء النبي ﷺ بعشر خصال؛ فيما روى عروة بن الزبير رضي الله تعالى عنهما، قال: «سمعتُ خالتي عائشة رضي الله تعالى عنها تقول: خُصِّصْتُ على نساء النبي بعشر خصال: تزوّجني بكرة ولم

(١) والمعروف من الحديث: «فضل عائشة على النساء، كفضل تهامة على سائر الأرض، وفضل الثريد على سائر الطعام» رواه أبو نعيم في فضائل الصحابة.

يتزوج بكرًا غيري، وأسلم أبي وجدي وأمي وأم أبي وإخوتي وأخواتي، وأنا حبيبته من النساء، وأبي وزيره وحبيبه من الرجال، ومات في صدري، وقُبِضَ في يومي، ودُفِنَ في حجرتي، وأمرني بالمقام عنده كيلا أفارقه، فَأُنْسِي به مَيِّتًا كَأُنْسِي به حيًّا، وفي كل يوم أُسَلِّمُ عليه عند الصباح، وأعلم أنه يسمعني فأسمع في قلبي ردَّ السلام، وكم ليلة رأيته في المنام، وهو يقول: «يا عائشة أقرئي أصحابي السلام، فأصبح وأبلغهم سلامه، ومات وهو راض عني، وورثني علمه، فأنا عالمة الأمة، ولي الهجرة والسُّبُقُ إلى الإسلام، ولا أشركتُ بالله طرفة عين، ولا رأيت بعيني صنمًا منذ خُلِقت، ولا كتب الملك عليّ ذنبًا؛ إذ رُبيت في حجر الصديق، ثم انتلقتُ إلى حجر الصادق، وصليتُ إلى القبلتين، وما نزل الوحي في لحاف غيري، ورأيتُ جبريل، وكان رفيقي ليلة هجرتي ورأيتُه على صورة دحية الكلبي، وأعطيتُ شَطْرَ العلم، وكان لكل امرأة من نسائه يومٌ وليلة ولي يومان وليلتان، وصوّر الله صورتني في الجنة في سندسة خضراء، وأهداني إلى حبيبه محمد ﷺ، وأمره بزواجي، فقاضي رب العالمين، ووليّ أبو بكر خاتم الصديقين، وبعلي محمد الصادق الأمين، خاتم المرسلين، وأنا أفضل أمهات المؤمنين».

وفي علم عائشة قال رسول الله ﷺ: «خُذُوا شَطْرَ علمكم من الحميراء» تصغير حمراء ومعناها البيضاء، قال قوم: الشطر هو النصف؛ لأن نصف الشيء شطره، وقال قوم: «الشطر هو الكل» وقال عليه الصلاة والسلام: «عائشة عالمة هذه الأمة» ولذلك كان أكابر الصحابة يأتون إليها ويسألونها عما أشكلَ عليهم من الفرائض، كما رُوي عن أبي موسى الأشعري قال: «ما أشكلَ علينا -أصحاب رسول الله- حديثٌ قط وسألنا عنه عائشة إلا ووجدنا عندها منه علمًا» ولقد سُئِلَ عروة بن الزبير عن علم عائشة فقال: والله ما رأيتُ امرأةً أَعْلَمَ بالفرائض والسنن والتزيل والتأويل من عائشة رضي الله عنها، حتى أشعار العرب وأيامهم وأنسابهم والطب والأدوية، فقلتُ لها: من أين لك علم الطب والأبدان؟ فقالت: من رسول الله ﷺ؛ كان إذا مرض يتداوى، وإذا مرضتُ يصف لي فأبرأ، وإذا سُئِلَ يصف للمرضى، فتعلمتُ منه، فقلتُ: ومن أين لك

معرفة بأنساب العرب، وأيامها وأشعارها؟ قالت: فوالله يا ابن أختي ما سمعتُ أذني شيئاً فيه نفعٌ للناس إلا حفظته ولا أنساه. وقال عروة: والله ما ندمتُ على شيء قط أشدَّ مني ندماً على ما فاتني من علم عائشة رضي الله عنها، وما الذي يمنعها وقد ربّاهما أعلم العلماء، وأحكم الحكماء، وأفصح الفصحاء رسول الله ﷺ، وأبوها علامة قريش، المفتي في حضرة النبي ﷺ، و«الولد سر أبيه».

وأما فصاحتها فيما رواه علي بن أبي طالب كرم الله وجهه أنه قال: دخلتُ على عائشة رضي الله عنها بعض الأيام، فرأيتهما جالسةً وعليها قميصٌ مرقّع، فحمدتُ الله تعالى بما هو أهله، وثنتُ بالصلاة على نبيه، وذكرُ بعض ما وهبه الله تعالى من فضله، وأثنتُ على أبي بكر وعمر وعثمان بما كان فيهم من العدل والإحسان، ثم حَضَّتْ بالافتداء بهم واتباع أمرهم، فوالله ما سمعتُ أذني من سائر النساء أفصحَ منها وأنظَمَ من كلامها ولا أرشدَ من رأيها، فقلتُ لها: أنت والله أم المؤمنين حقاً، والعالمة بالله ورسوله، الناصحة المشفقة الواعظة المبلّغة، دَلَّتِ الناسَ على الحق، وأمرتهم باتباعه، ونهيتهم عن حظ أنفسهم، وأنتِ أهلٌّ أن يُسمعَ قولك، ويُطاعَ أمرُك، ويُقبلَ نصحك. ثم قمتُ وخرجتُ واضعاً يدي على كتفِ ذكوان، وقلت: والله يا ذكوان، ما سمعتُ أذني خطيباً من أكثر الصحابة أفصحَ من عائشة، ولا أبلغَ من موعظتها، فلو كانت إمرةً لامرأةً بعد النبوة، لاستحقت عائشة الخلافة»^(١).

روى عن الأحنف بن قيس أنه قال: سمعتُ كلام أبي بكر حتى مضى، وكلام عمر ابن الخطاب رضي الله عنه حتى مضى، وكلام عثمان بن عفان - رضي الله عنه - حتى مضى، وكلام علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه حتى مضى، ولا والله - ما سمعتُ فيهم أبلغَ من عائشة رضي الله عنها.

وأما شفقتها ورحمتها لعصاة هذه الأمة، فمما ورد من ذلك ما رواه عروة بن الزبير

(١) هذا هو علي بن أبي طالب يصف أم المؤمنين بهذا الوصف، فماذا يقول الشيعة؟!!!

رضي الله تعالى عنه: لما نزل قوله تعالى ﴿الَّتِي أُولَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ [الأحزاب: ٦] قالت عائشة رضي الله تعالى عنها: يا رسول الله، وأنا أم المؤمنين؟ فقال: أنت أفضل أمهات المؤمنين، فقالت: والذي بعثك بالحق رسولاً؛ إن أمهاني ربي يوم القيامة لا دخلت الجنة حتى يدخل معي أولادي. فنزل جبريل عليه السلام وقال: «يا رسول الله، قل لعائشة أبشري، كلُّ من أحبك وأحبَّ أباك واقتدى بكما وأقرَّ بفضلكما فهو معكما في الجنة». فإنَّ صحَّ حديث عروة هذا كان نصًّا في فضلها - رضي الله تعالى عنها - وإلا، بأن كان ضعيفاً، جاز الاستدلال به على المناقب. وقول الله تعالى ﴿وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ سواءً من مات عنها أو ماتت وهي تحته: في تحريم نكاحهن، ووجوب احترامهن، لا في نظر ولا خلوة، ولا يقال بناتهن أخوات المؤمنين، ولا آبائهن وأمهاتهن أجداد وجدات، ولا إخوتهن ولا أخواتهن أخوال وخالات، كذا في المواهب.

وقال الرملي في «شرح المنهاج»: «تحرَّم زوجاته ﷺ على غيره ولو مطلقات ومختارات فراقه، ولو قبل الدخول». «ونقل في الشرح المذكور أيضاً أن الأمة التي وطئها تحرَّم على غيره، واعتمده، وإنما حرمت على غيره لأنه ﷺ حيٌّ في قبره، أو رعاية لشرفه، ولأنهن أزواجه في الجنة، والمرأة في الجنة مع آخر أزواجهن، ولأنهن أمهات المؤمنين، كما أفاده الشمس الخطيب في تفسيره، انتهى.

والمراد أمهات المؤمنين الرجال دون النساء؛ لحديث مسروق أن امرأة قالت لعائشة رضي الله عنها: يا أمَّه، فقالت: «لستُ لك بأم، إنما أنا أمُّ رجالكم». فالمراد بالأئمة تحريم نكاحهن على التأييد كالأمهات.

وبالجملة فقد رُبيت السيدة عائشة في صدر الرسول، وبلغت من الفضل والعلم كلَّ مسؤول، وتوجت دنيا وأخرى بتاج القبول، ويأبى الله أن يجمع حبَّها وحبَّ فاطمة في قلب جهول مغلول، فهي سيدة نساء العالمين، حبيبة الرسول ﷺ، ولا يفضِّلها إلا إن كان من جهة البضعة النبوية فاطمة البتول. وقد أنشد الإمام العالم الكامل الشيخ

كمال الدين بن العديم، قاضي حلب الشهباء رحمه الله في مدح الصديقة بنت الصديق عائشة رضي الله تعالى عنها وعن أبيها، وذكر فضلها والرد على من انتقصها أو بغضها مترجماً بذلك عن قولها رضي الله عنها، فقال:

ما شَأْنُ أم المؤمنين وشأنِي	هُدِيَ المحبُّ لها وَضَلَّ الشانِي
إِنِّي أقولُ مُبَيَّنًا عن فَضْلِها	ومترجماً عن قولها بلسانِي
يا مبغضي لا تأتِ قَبْرَ مُحَمَّدٍ	البيتُ بَيْتِي والمكانُ مكانِي
إِنِّي خُصِّصْتُ على نساءِ مُحَمَّدٍ	بِصِفَاتٍ بِرِ تحتَهُنَّ معانِي
وسبقتُهُنَّ إلى الفضائلِ كُلِّها	فالسَّبْقُ سَبْقِي والعِنانُ عِنانِي
قُبُضَ النَّبِيُّ وماتَ بينَ ترابِي	واليومُ يَومِي والزمانُ زمانِي
زوجي رسولُ الله لم أرَ غيرَه	اللهُ زَوَّجَنِي به وَحَبَّانِي
وأناهُ جبريلُ الأمينُ بصورَتِي	فأَحَبَّنِي المختارُ حينَ رَأَيتِي
وتكلَّمَ اللهُ العظيمُ بِحُجَّتِي	وبراءَتِي في مُحكَمِ القُرآنِ
واللهُ عَظَّمَنِي وَعَظَّمَ حُرْمَتِي	وعلى لسانِ نَبِيِّهِ برَّانِي
واللهُ في القرآنِ قد لعَنَ الَّذِي	بَعَدَ البَرَاءَةَ بالقُبُوحِ رَمانِي
إِنِّي لَمُحَصَّنَةٌ الإِزارَ بِرِيَّةٌ	ودليلُ حُسْنِ براءَتِي إحصانِي
اللهُ خَصَّصَنِي بِخاتَمِ رُسُلِهِ	وأذَلَّ أَهْلَ الكُفْرِ والطَّغِيانِ
وسمعتُ وَحْيَ اللهِ عندَ مُحَمَّدٍ	من جبرئيلَ ونورُهُ يَغْشَانِي
أَوْحَى إِلَيهِ وَكُنْتُ تحتَ ثِبابِهِ	فَحَنَى عَلَيَّ بثوبِهِ وَحَبَّانِي
مَنْ ذا يَفاخِرُنِي وَيُنكِرُ صُحْبَتِي	ومحمدٌ في حِجرِهِ رَبَّانِي
وأنا ابنةُ الصِّدِّيقِ صاحبِ أَحمدِ	وحبيبِهِ في السِّرِّ والإِعلانِ
وأخذتُ عَنَ أبويَّ دينَ مُحَمَّدٍ	وهما على الإسلامِ مصطحبانِ

فالفخرُ فخرِي، والخلافةُ في أبي
وأبي أقامَ الدينَ بَعْدَ مُحَمَّدٍ
نَصَرَ النبيَّ بِمالِهِ وَبَنَفْسِهِ
ثانيه في الغار الذي سَدَّ الكُوى
وجفا الغنى حَتَّى تَخْلَلَ بِالْعَبَا
وتخلَّلتَ مَعَهُ ملائكةُ السَّما
وهو الذي لم يَخْشَ لَوَمَةَ لائِمٍ
قَتَلَ الذي مَنَعَ الزكاةَ بِجَهْلِهِ
سَبَقَ الصحابةَ والقراةَ بِالهُدَى
والله ما سَبَقُوا لِمِثْلِ فضيلةٍ
إلا وَصَّارَ أَبِي إلى عليائها
وإذا أراد الله نصرَ رَعة عبدهِ
جَمَعَ الإلهُ المؤمنينَ على أبي
مَنْ حَبَّنِي فَلْيَجْتَنِبْ مَنْ سَبَّنِي
وإذا مُحِبِّي قَدِ أَلَمَ بِمُبْغِضِي
إني لَطَيِّفٌ خُلِقْتُ لَطِيبٍ
والله حَبَّنِي لقلبِ نبيِّهِ
إِنِّي لَأُمُّ المؤمنينَ فَمَنْ أَبِي
والله يُكْرِمُ مَنْ أَرَادَ كَرَامَتِي
والله أَسْأَلُهُ زِيَادَةَ فَضْلِهِ
يا مَنْ يَلُوذُ بِأَهْلِ بَيْتِ مُحَمَّدٍ

حَسْبِي بهذا مَفْخَرًا وَكَفَانِي
فَالنَّصْلُ نَصْلِي وَالسَّانُ سِنَانِي
وخروجه مَعَهُ مِنَ الأوطانِ
بردائه أَكْرَمَ بِهِ مِنْ ثانِي
زُهْدًا وَأَظْعَمَ أَيَّمَا أَظْعَمَانَ
وَأَتَتْهُ بِشَرِّى اللهِ بِالرَّضْوَانِ
في قَتْلِ أَهْلِ الكَفْرِ والطغيانِ
وأَذَلَ أَهْلَ البَغْيِ والعُدْوَانِ
هو شيخُهم في العَدْلِ والإحسانِ
مثل استباقِ الخيلِ يومَ رَهْـمَانَ
فمَكَانُهُ مِنْهُمْ أَجَلُّ مَكَانِ
مَنْ ذَا يُطِيقُ لَهُ على خُذْلانِ
واستبدلوا مِنْ خَوْفِهِمْ بِأَمَانِ
إِنْ كَانَ صَانَ مَحَبَّتِي ورعَانِي
فكلاهما في بَغْضِنَا سَيِّئَانِ
ونسَاءُ أَحْمَدَ أَطِيبُ النِّسْوَانِ
وإلى الصراطِ المستقيمِ هَدَانِي
حُبِّي فَسَوْفَ يَبُوءُ بِالْخُسْرَانِ
وَيُهِينُ رَبِّي مَنْ أَرَادَ هَوَانِي
وَحَمْدَتُهُ شُكْرًا لِمَا أَوْلَانِي
يَرْجُو بِذَلِكَ رَحْمَةَ الرَّحْمَنِ

صِلْ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ وَلَا تَحِدْ	عَنِّي فَتُسَلَبْ حُلَّةُ الْإِيمَانِ
وَيْلٌ لَعَبْدٍ خَانَ آلَ مُحَمَّدٍ	بِعَدَاوَةِ الْأَزْوَاجِ وَالْأَخْتَانِ
أَكْرِمْ بِأَرْبَعَةِ أُنْمَةٍ شَرَعْنَاهَا	فَهُمْ لَبِيتَ الدِّينَ كَالْأَرْكَانِ
نَسَجَتْ مَوَدَّتَهُمْ سُدَى فِي لَحْمَةٍ	بُنْيَانُهَا مِنْ أَثْبَتِ الْبُنْيَانِ
رُحَمَاءَ بَيْنَهُمْ صَفَتْ أَخْلَاقُهُمْ	وَحَلَّتْ قُلُوبُهُمْ مِنَ الْأَشْنَانِ
اللَّهُ أَلْفَ بَيْنٍ وَدَّ قُلُوبَهُمْ	فِي بُغْضِ كُلِّ مَنَافِقٍ طَعَّانِ
طَوَّبَى لِمَنْ وَالَى جَمَاعَةَ صَحْبِهِمْ	فَسَبَّأَهُمْ سَبَبٌ إِلَى الْحَرَمَانِ
خُذْهَا إِلَيْكَ فَإِنَّمَا هِيَ رَوْضَةٌ	مَحْفُوفَةٌ بِالرَّوْحِ وَالرَّيْحَانِ
تَجْلِي النُّفُوسِ إِذَا تَلَاهَا مُسْلِمٌ	وَعَلَى الرُّوَافِضِ لَعْنَةُ الرَّحْمَنِ
صَلَّى إِلَهُهُ عَلَى النَّبِيِّ وَلِآلِهِ	فَبِهِمْ تَتِمُّ أَزَاهِرُ الْبُسْتَانِ
وَالتَّابِعِينَ وَتَابِعِيهِمْ مَا شَدَتْ	فِي دَوْحَةٍ وَرُقٌّ عَلَى الْأَغْصَانِ

وقد تقدّم ذكرُ أولاده ﷺ في الفصل الثالث من الباب الأول من المقالة الخامسة من الجزء الثاني.

* * *

وأما أعمامهم ﷺ فاثنا عشر، وهم أولا عبد المطلب.

الأول: الحارث، وبه يكنى عبد المطلب؛ لأنه أكبر ولده، وولد وَلَدَهُ جَمَاعَةً لَهُمْ صحبة من النبي ﷺ، منهم: أبو سفيان بن الحارث أسلم عام الفتح، وشهد حنينًا، وقال في حقه النبي ﷺ: «أبو سفيان سيد فتيان الجنة»، ونوفل بن الحارث هاجر وأسلم أيام الخندق، وله عقب. وعبدُ شمس بن الحارث، وسماه رسول الله ﷺ عبد الله. وقُتُمُّ مات صغيرًا.

الثاني: قُتُمُّ هو أخو الحارث لأمه.

الثالث: الزبير (تصغير الزبير بفتح الزاي على وزن أمير، ومعناه الشديد من الرجال) ويكنى بأبي الحارث، وكان من صناديد قريش، وابنه عبد الله بن الزبير، شهد حنيناً وثبت يومئذ، واستشهد بأجنادين، وذكر أنه وُجدَ إلى جنبه سبعةٌ قد قتلهم وقتلوه. وكان سيداً شريفاً شاعراً، وهو أولُ مَنْ تكلَّم في حلف الفضول ودعا إليه، وكان سبب ذلك الحلف أن الرجل من العرب أو العجم كان يُقدِّم بالتجارة، فربما ظلمَ بمكة، فقدم رجل من زبيد بسلة، فباعها من العاص بن وائل السهمي، فظلمه فيها وجحده ثمنها، فناشده بالله فلم ينفعه، فنادى ذات يوم عند طلوع الشمس وقريشٌ في أُنديتها:

يا آلَ فُهرٍ لِمَظْلُومٍ بضاعتُهُ بِبَطْنِ مَكَّةَ نائِي الحَيِّ والنَّفَرِ
ومحرمٍ أشعثٍ لم يُقْضِ عمرته يا آلَ فُهرٍ، وبين الركن والحجر.
وقال أيضاً:

يالَ قُصَيٍّ كيفَ هذا في الحَرَمِ وحرمةُ البيتِ وأخلاقِ الكرمِ
أُظْلِمَ لا يُمنَعُ مِنِّي مَنْ ظَلَمَ

فقال الزبير: ما لهذا يُترك^(١)؟! فجمع إخوته واجتمعت بنو هاشم وبنو المطلب، وبنو أسد بن عبد العزى، وبنو زهرة في دار أبي زهير: عبد الله بن جدعان القرشي، فتحالفوا ألا يجدوا بمكة مظلوماً إلا نصروه ورَفَدوه^(٢) وأعانوه، حتى يودَى إليه حقه، وينصفه ظالمه من مَظْلَمَتِهِ^(٣)، وعادوا عليه بفضول أموالهم ما بَلَّ بحرٌ صوفة. وشهد رسولُ الله ﷺ ذلك الحلف، وكان يقول: «ما سرَّني بحلفٍ شهدته في دار عبد الله بن جدعان حُمُرُ النِّعَمِ»، فسمَّى الحلف حِلْفُ الفضول؛ لبذلهم فضول أموالهم، وتكلفتهم فضولاً لا تَجِبُ عليهم، وقام الزبير ومن معه بأمر الزبيدي حتى أنصفه العاص بن وائل،

(١) يعني كيف يترك هذا؟!

(٢) من الرفادة: أي الإكرام والضيافة.

(٣) أي يرغب الظالم على أن يردَّ له مظلَّمته.

ومات الزبير ورسول الله ﷺ ابنُ بضع وثلاثين سنة، وكان للزبير بنتٌ يقال لها أم الحكم، وكانت رضیعة النبي ﷺ.

الرابع: حمزة بن عبد المطلب، أسدُ الله وأسدُ رسوله، وأخوه من الرضاعة، وأسلم قديمًا وهاجر إلى المدينة، وشهد بدرًا، وقُتل يوم أحد شهيدًا ولم يكن له إلا ابنه الفضل.

الخامس: العباس، أسلم وحسُن إسلامه وهاجر إلى المدينة، وكان أَسَنَ من النبي ﷺ بثلاث سنين، وقيل بستين، وكان له من الولد: الفضلُ، وهو أكبر ولده، وبه كان يُكنَى، وعبدُ الله، وعبيدُ الله، وقُثم، ولهم صحبة، وكان لهم السقاية وزمزم، دفعهما لأبيهم العباس النبي ﷺ يوم الفتح، تُوفي سنة اثنتين وثلاثين في خلافة عثمان رضي الله عنه في المدينة، بعد أن كُفَّ بصره.

السادس: أبو طالب، واسمُه عبدُ مناف، وهو أخو عبد الله أبي النبي ﷺ من أمه، ومات على دين قومه، وفيه قال بعضهم:

أبا طالبُ ما أنتَ قرْنٌ لِحَمْزَةٍ لأنكما في الدين مختلفان

دعاكَ النَّبِيُّ الهاشميُّ فلم تُجِبْ وحمزةً لبَّاه بكلِّ لسان

وعاتكة صاحبة الرؤيا في بدر، أخت عبد الله وأبي طالب لأُمهما، وأُمهم فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم.

ولأبي طالب من الولد: طالب، ومات على دين قومه، وعقيل، وجعفر، وعلي، وأم هانئ، وجمانة، واسم أم هانئ: فاختة، وقيل هند، وقيل فاطمة، أسلموا ولهم صحبة. وسائر بني أبي طالب أُمهم فاطمة بنت أسد بن هاشم التي أسلمت بعد موت زوجها بمكة، وكان النبي ﷺ يدعوها إلى الإسلام فتأباه وتقول: «إني لأعلم منك صدقًا وخيرًا، ولكنني أكره أن أموت إلا على دين عمك». إلى أن أسلمت في مرضها.

وكان أبو طالب منيعًا عزيزًا في قريش، وكانت قريش تُطعم، فإذا أطعم أبو طالب لم يطعم يومئذ أحدٌ غيره، ومن كلامه:

منعنا الرسولُ رسولَ المليـ
لِكِ بيضِ تلاًءٍ مثلِ البُـروقِ
أذبَ وأحمى رسولَ المليـ
لِكِ حمايةً عمَّ عليه شفيقُ

السابع: أبو لهب بن عبد المطلب، واسمه عبدُ العُزَّى، كناه أبوه بذلك لِحُسْن وجهه. وأولاده: عتبة، وعتيبة، ومعتب، أسلما يوم^(١) الفتح ولم يهاجرا من مكة، وعتيبة لم يُسلم، قتله الأسد بالزرقاء من الشَّام بدعوة النبي ﷺ^(٢)، وسبيعة، وبعضهم عدَّ مَنْ أولاده «درة» ولعلها لقبٌ لسبيعة، ولهم صحبة. وأما عزة وخالدة فلم تثبت لهما رواية.

الثامن: عبد الكعبة، واسمه «المغيرة» ولقبه «حَجَل» (بفتح الحاء المهملة وسكون الجيم وباللام، وفي كتاب عبد البر تقديم الجيم على الحاء وقد صَحَّح عليه) وهو أخو العباس لأمه.

التاسع: الغيداق بن عبد المطلب (بفتح الغين المعجمة وسكون الياء التحتية وبالذال المهملة والقاف) لُقِّب بذلك لِجوده، وكان أكثر قريش مالاً، واسمه «مصعب» وقيل «نوفل».

العاشر: ضرار بن عبد المطلب (بكسر الضاد المعجمة وتخفيف الراء الأولى) وهو شقيق العباس.

الحادي عشر: المقوم (بضم الميم وفتح القاف وتشديد الواو مفتوحة ومكسورة) ويكنى أبا بكر.

وروى ابنُ ماجة بسنده عن علي بن صالح، قال: كان وَلَدُ عبد المطلب عشرةً كل واحد منهم يأكل الجذعة^(٣) اهـ.

(١) الضمير في قوله «أسلما» يعود إلى عتبة ومعتب.

(٢) قال عليه الصلاة والسلام: «اللهم سلِّطْ عليه كلباً من كلابك» وبه استدلوا على أن الأسد من فصيلة الكلاب.

(٣) الجذعة: الصغير من البقر والغنم....

فهم عشرة من دون عدّ قثم الذي مات صغيراً، وقد ذكر الخلاف في عددهم قلةً وكثرةً في الفصل الأول من الباب الأول من هذا الكتاب.

ولم يدرك الإسلام منهم غير أربعة: أبو طالب، وأبو لهب، وحمزة، والعباس، وفضلهما^(١) مشهور، وحُبُّه ﷺ لهما مما ذاع عند جميع الناس.

وأما عماته ﷺ: فأولاهن صفية بنت عبد المطلب، شقيقة حمزة، أسلمت وهاجرت، وهي أم الزبير بن العوام، توفيت بالمدينة في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وهي أخت عبد الله لأبيه، وشقيقة حمزة.

الثانية: عاتكة بنت عبد المطلب، قيل إنها أسلمت، وهي صاحبة الرؤيا في بدر، وكانت عند أبي أمية بن عبد الله بن مخزوم، ولدت له عبد الله، أسلمَ وله صحبة.

الثالثة: أروى: وكانت تحت عمير بن وهب بن عبد الدار بن قصي، فولدت له ولداً كان من المهاجرين، قتل شهيداً في بدر، وقيل بأجنادين، وليس له عقب.

الرابعة: أميمة، كانت تحت جحش بن رباب بن يعمر، فولدت له عبد الله بن جحش، وزينب زوج النبي ﷺ، وحمنة، وحبيبة، كلهم له صحبة، وعبد الله بن جحش أسلم ثم تنصّر ومات بالحبيشة^(٢).

الخامسة: برة، كانت تحت عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم، ولدت له أبا سلمة، واسمه «عبد الله» وكان زوج أم سلمة قبل النبي ﷺ، وتزوجت برة بعد عبد الأسد، أبو رهم بن عبد العزى بن قيس، فولدت له «أبا سبرة» ابن أبي رهم.

السادسة: أم حكيم، واسمها «البيضاء» وكانت عند كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس بن عبد مناف، فولدت له: «أروى» بنت كريز، وهي أم عثمان بن عفان. ولم يُسلم منهن بلا خلاف غير «صفية» وشهدت الخندق، وقتلت رجلاً من اليهود، فضرب

(١) الضمير يعود إلى حمزة والعباس.

(٢) مات على النصرانية.

لها عليه الصلاة والسلام بسهم، واختلف في إسلام أَرْوَى وعاتكة، وإلى إسلامهما ذهب أبو جعفر العقيلي، وعدّهما في الصحابة.

وأما أخواله ﷺ فأربعة:

الأول: عبد بن يغوث، **والثاني:** عبيد بن يغوث، وهما من صفية زوجة وهب، أبي آمنة، فهما أخواها لأبيها، ذكر ذلك الزبيدي في أنساب قريش، وكان معاصراً للبخاري، ولم يثبت فيهما الإسلام.

والثالث: الأسود بن وهب. **والرابع:** عمير بن وهب، وكانا صحابيين، ذَكَرَهُمَا السخاوي في المقاصد الحسنة، وابن حجر في الإصابة في معرفة الصحابة. وروى أن عميراً أتى للنبي ﷺ فبسط له رداءه، فقال: كيف أجلس على ردائك يا رسول الله؟ فقال ﷺ: «نعم، إنما الخالُ أب»، وكذلك وقع لخاله «الأسود بن وهب» كما ذكره السخاوي في المقاصد.

ولم يكن لعبد الله ولا لآمنة وَلَدٌ غير النبي ﷺ، فلذلك لم يكن له أخ، ولا أخت، كذا في الذخائر.

وأما موالیه ﷺ من الرجال فهم فوق الثلاثين رجلاً:

فمنهم **زيد بن حارثة** بن شرحبيل، ويقال ابن شراحيل (الكلبي) بن عبد العزى بن امرئ القيس بن عامر بن النعمان بن عبد ودّ، وأم زيد هذا هي «سعدى» بنت ثعلبة (من طيء)، وقد كانت سعدى زارت قومها، فأغارت خيلُ لبني القين في الجاهلية، ومروا على أبيات بني معن، فاحتملوا زيدا وهو يومئذ غلام، فوافوا به سوق عكاظ، فاشتراه منهم حكيم بن حزام بن خويلد لعمته خديجة بنت خويلد بأربعمائة درهم، فلما تزوجها رسولُ الله ﷺ استوهبه منها فوهبته له، فقبضه رسولُ الله ﷺ وأعتقه وتبنّاه، كما سيأتي، وكان يقال له زيد ابن محمد، وكان عمره ثماني سنين، وكان حارثةً أبو زيد قال فيه حين فُقدَ أبياتاً منها:

بَكَيْتُ عَلَى زَيْدٍ وَلَمْ أَذْرِ مَا فَعَلَ
فَوَاللهِ مَا أَذْرِي وَإِنْ كُنْتُ سَائِلًا
فِيالَيْتَ شِعْرِي هَلْ لَكَ الدَّهْرَ رَجْعَةً
تُذَكِّرُنِيهِ الشَّمْسُ عِنْدَ طُلُوعِهَا
وَإِنْ هَبَّتِ الْأَرْوَاحُ^(٣) هَيَّجَنَ ذِكْرَهُ
سَاعَمِلَ نَصَّ^(٤) الْعَيْسِ فِي الْأَرْضِ جَاهِدًا
حَيَاتِي أَوْ تَأْتِي عَلَيَّ مَيِّتِي
سَأُوصِي بِهِ عَمْرًا وَقَيْسًا كِلَيْهِمَا
أَحْيَيْ فَيُزْجِي أُمَّ تَخَرَّمَهُ الْأَجَلُ
أَغَالِكَ سَهْلُ الْأَرْضِ أَمْ غَالِكَ الْجَبَلُ
فَحَسْبِي مِنَ الدُّنْيَا رُجُوعُكَ لِي يَحَلَّ^(١)
وَيَعْرِضُ ذِكْرُهُ إِذَا عَارَضَ الطِّفْلُ^(٢)
فِيَا طَوَّلَ أَحْزَانِي عَلَيْهِ وَيَا وَجَلُ
وَلَا أَسْأَمُ التَّطَوَّافَ أَوْ تَسْأَمُ الْإِبِلُ
وَكُلُّ أَمْرِي فَاِنْ وَإِنْ غَرَّهُ الْأَمَلُ
وَأُوصِي يَزِيدًا ثُمَّ مِنْ بَعْدِهِ جَبَلُ

يعني جبلة بن حارثة أخا زيد، وكان أكبر من زيد، ويزيد كان أخا زيد لأمه، وهو يزيد بن كعب بن شراحيل، فَحَجَّ نَاسٌ مِنْ كَلْبٍ، فَرَأَوْا زَيْدًا فَعَرَفُوهُ وَعَرَفُوهُ، فَقَالَ لَهُمْ: أَبْلَغُوا أَهْلِي هَذِهِ الْأَبْيَاتِ؛ فَإِنِّي أَعْلَمُ أَنَّهُمْ قَدْ جَزَعُوا عَلَيَّ، فَقَالَ:

أَحْنُ إِلَى قَوْمِي وَإِنْ كُنْتُ نَائِيًا
فَكَفُّوا مِنَ الْوَجْدِ الَّذِي قَدْ شَجَاكُمْ
فَإِنِّي بِحَمْدِ اللَّهِ فِي خَيْرٍ أَسْرَرَةً
فَإِنِّي قَعِيدُ الْبَيْتِ عِنْدَ الْمَشَاعِرِ
وَلَا تُعْمَلُوا فِي الْأَرْضِ نَصَ الْأَبَاعِرِ
كَرَامَ مَعْدٍ كَابِرًا بَعْدَ كَابِرٍ

فَانْطَلَقَ الْكَلْبِيُّونَ، فَأَعْلَمُوا أَبَاهُ حَارِثَةً بِمَكَانِهِ وَأَخْبَرُوهُ، فَخَرَجَ حَارِثَةُ وَكَعْبُ ابْنَا شَرَاحِيلَ، وَجَبَلَةُ بْنُ حَارِثَةَ بِفَدَائِهِ، فَقَدِمُوا مَكَّةَ، فَسَأَلُوا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، فَقِيلَ: هُوَ فِي الْمَسْجِدِ، فَدَخَلُوا عَلَيْهِ، فَقَالُوا: يَا ابْنَ عَبْدِ اللَّهِ وَعَبْدَ الْمَطْلَبِ وَابْنَ هَاشِمٍ سَيِّدِ قَوْمِهِ، أَنْتُمْ حَرَمُ اللَّهِ وَجِيرَانُهُ، تَفَكُّونَ الْعَانِي، وَتُطْعَمُونَ الضَّيْفَ، جَنَّاكَ فِي ابْنَتِنَا عِنْدَكَ، فَاْمُنُّنْ

(١) أي تعظيمًا.

(٢) الطفل: إقبال الليل والظلمة.

(٣) الأرواح: لغة في الرياح.

(٤) نص العيس: منتهى ما تصل إليه. العيس: الإبل الكريمة.

علينا، وأحسن، في فدائه إلينا. فقال رسول الله ﷺ: «فهلّا غير ذلك، ادعوه فأخبره، فإن اختاركم فهو لكم بغير فداء، وإن اختارني فوالله ما أنا أختار على من اختارني شيئاً» فقالوا: قد زوّدنا على النّصف^(١) وأحسنّت. فدعا رسول الله ﷺ زيداً فقال: أتعرف هؤلاء؟ فقال: نعم، أبي وأخي وعمي، فقال: «أنا من قد علمت، وقد رأيت صحبتي، فاخترني أو اخترهم»، فقال: ما أنا بمختارٍ عليك أحداً، أنت منّي مكان العم والأب. فقال له أبوه: ويحك يا زيد، أتختار العبودية على الحرية وعلى أبيك؟ قال: نعم؛ قد رأيتُ من هذا الرجل شيئاً ما أنا بمختار عليه أحداً. فلما رأى رسول الله ﷺ ذلك من زيد، أخرجه إلى الحجر، وقال لمن حضر: اشهدوا أن زيداً ابني أرثه ويرثني. فطابت نفوسهم، فكان زيد يُدعى: زيد بن محمد. حتى جاء الله عز وجل بالإسلام فزوّجه رسول الله ﷺ زينب بنت جحش، وهي بنت عمّة رسول الله ﷺ أميمة بنت عبد المطلب، فطلّقها زيد، وخلف عليها رسول الله ﷺ، فتكلم المنافقون وطعنوا في ذلك، وقالوا: محمد يُحرّم نساء الولد وقد تزوج امرأة ابنه، فأنزل الله عز وجل: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾ [الأحزاب: ٤٠]. ونزلت: ﴿ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَاِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ﴾ [الأحزاب: ٥] فدُعي يومئذ: زيد بن حارثة، ونُسب كل رجل تبناه رجل من قريش إلى أبيه، مثل سالم مولى أبي حذيفة، وعامر بن ربيعة. وكان زيد يسمى «الحب»^(٢) لأنه حب رسول الله ﷺ، فكان يقال: «الحب بن الحب»، وكان أسامة ابنه يدعى الرّدف لأن رسول الله ﷺ كان يردفه كثيراً؛ عن عروة عن أسامة أن النبي ﷺ ركب حماراً بإكاف^(٣) على قطيفة، فأردف أسامة خلفه، وأتى سعد بن عبادة يعودوه قبل وقعة بدر.

(١) أي فعلت شيئاً أكثر من الإنصاف.

(٢) بكسر الحاء، أي المحبوب.

(٣) البرذعة أو ما يقوم مقامها.

ولم يُذكر في القرآن أحد من الصحابة باسمه إلا هو^(١)، كما أنه لم تُذكر امرأة باسمها في القرآن إلا مريم.

ولم يزل زيد عند رسول الله ﷺ حتى بعثه الله، فصدّقه وأسلم، وصلى معه وشهد بدرًا وأحدًا والمشاهد، روى عنه ابنه أسامة، وابن عباس، والبراء بن عازب، وغيرهم رضي الله عنهم.

ومنهم ثوبان (بفتح الثاء وبالباء الموحدة) ابن بُجْدُد (بضم الباء الموحدة) وسكون الجيم وضم الدال المهملة) وهو من حمير (من اليمن) وله نسب فيهم، وقيل هو من السراة موضع بين مكة واليمن، وقيل هو من سعد العشيرة من مذحج، اشتراه رسول الله ﷺ وأعتقه، وقال له: «إِنْ شِئْتَ أَنْ تَلْحَقَ بِمَنْ أَنْتَ مِنْهُمْ، وَإِنْ شِئْتَ أَنْ تَكُونَ (من)^(٢) أَهْلَ الْبَيْتِ؟» فثبت على ولاء رسول الله ﷺ، ولم يزل معه سفرًا وحضرًا إلى أن توفي رسول الله ﷺ. فخرج إلى الشام، فنزل إلى الرملة وابتنى بها دارًا، وابتنى بمصر دارًا، وبحمص دارًا، وتوفي بها سنة أربع وخمسين. وشهد فتح مصر، روى عن النبي ﷺ أحاديث ذوات عدد، روى عنه شدّاد بن أوس، وأبو إدريس الخولاني، ومعدان بن أبي طلحة، وأبو الأشعث الصنعاني، وأبو الخير اليزني وغيرهم.

روى عن ثوبان أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ زَوَى لِي الْأَرْضَ حَتَّى رَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَأَعْطَانِي الْكَنْزَيْنِ: الْأَحْمَرَ وَالْأَبْيَضَ، وَإِنَّ مَلِكَ أُمَّتِي سَيَلِّغُ مَا زَوَى لِي مِنْهَا، وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لِأُمَّتِي أَنْ لَا يُهْلِكَهَا بَسَنَةً^(٣) عَامَّةً، وَأَنْ لَا يَسْلُطَ عَلَيْهَا عَدُوٌّ مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ، فَيَسْتَبِيحُ بَيْتَهُمْ، وَإِنْ رَبِّي قَالَ لِي: يَا مُحَمَّدُ، إِنِّي إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً، فَإِنَّهُ لَا يُرَدُّ، وَإِنِّي قَدْ أَعْطَيْتُ لَأَمْتِكَ أَنِّي لَا أَهْلِكُهُمْ بَسَنَةً عَامَّةً، وَأَنْ لَا أَسْلُطَ عَلَيْهِمْ عَدُوٌّ مِنْ

(١) في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا﴾ [الأحزاب: ٣٧]، وكناه هذا شرفًا، وأي شيء أعظم من هذا؟

(٢) ما بين القوسين وضعناه لإصلاح الكلام.

(٣) جذب وقحط.

سوى أنفسهم فيستبجح بيضتهم، ولو اجتمع عليهم من أقطارها حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً».

وروى ثوبان أيضاً عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يوشك أن تتداعى عليكم الأمم كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها، قيل: يا رسول الله أمن قلة نحن يومئذ؟ قال: أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله عز وجل المهابة عن صدوركم، وليقذفن الوهن في قلوبكم، قيل: يا رسول الله، وما الوهن؟ قال: حب الدنيا وكراهة الموت»^(١).

قال النبي ﷺ: من يضمن لي خصلة أضمن له الجنة؟ قال ثوبان: أنا يا رسول الله. قال: «لا تسأل الناس شيئاً». فكان ثوبان يقع سوطه من يده فلا يقول لأحد «ناولنيه» حتى ينزل فيأخذه، وكانت عائشة تقول: «تعهدوا ثوبان؛ فإنه لا يسأل الناس شيئاً».

ومنهم أسامة بن زيد بن حارثة السالف الذكر، ويكنى أبا محمد، أمه أم أيمن حاضنة النبي ﷺ، فهو وأيمن أخوان لأم، وهو مولى رسول الله ﷺ من أبويه.

روى ابن عمر أن النبي ﷺ قال: «إن أسامة بن زيد لأحب الناس إليّ، أو من أحب الناس إليّ، وأنا أرجو أن يكون من صالحكم، فاستوصوا به خيراً».

واستعمله النبي ﷺ وهو ابن ثماني عشرة سنة على جيش، كما سيأتي بعد. ورؤي عن عائشة رضي الله عنها، قالت: عثر أسامة بأسكفة الباب، فشجّ في وجهه، فقال لي رسول الله ﷺ: «أميطي عنه»، فكأنني تقدّرتُه، فجعل رسول الله ﷺ يمضه ثم يمجّه.

وقال: «لو كان أسامة جاريةً لكسوته وحليته حتى يتقه»^(٢).

ولما فرض عمر بن الخطاب رضي الله عنه للناس، فرض لأسامة بن زيد خمسة

(١) وفي رواية: «يوشك أن تتداعى عليكم الأمم كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها، قالوا: أمن قلة نحن يومئذ يا رسول الله؟ قال: بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله المهابة من قلوب أعدائكم منكم وليقذفن في قلوبكم الوهن، قالوا: وما الوهن يا رسول الله؟ قال: حب الدنيا وكراهية الموت».

(٢) الثقة هنا معناه: الفهم، والمقصود -والله أعلم- أي حتى يبلغ ويفهم.

آلاف، وفرض لابنه عبد الله بن عمر ألفين، فقال ابن عمر: فضَّلتُ عليَّ أسامة، وقد شهدتُ ما لم يشهد! فقال: إن أسامة كان أحبَّ إلى رسول الله ﷺ منك، وأبوه أحبُّ إلى رسول الله ﷺ من أبيك.

ولم يبايع أسامة عليًّا ولا شهد معه شيئاً من حروبه، وقال له أيُّ لِعَلِيٍّ: «لو أدخلت يدك في فم تنين لأدخلت يدي معها، ولكنك قد سمعتَ ما قال لي رسول الله ﷺ حين قتلْتُ ذلك الرجل الذي شهد أن لا إله إلا الله»، وهو ما أخبرنا به أبو جعفر عبيد الله بن أحمد بن علي البغدادي، بإسناده عن يونس بن بكير، عن ابن إسحاق: حدَّثني محمد بن أسامة بن محمد بن أسامة بن زيد، عن أبيه، عن جده أسامة بن زيد، «قال أدركته (يعني كافراً كان قتل في المسلمين في غزاة لهم) أنا ورجلٌ من الأنصار، فلما شهرنا عليه السلاح، قال: أشهد أن لا إله إلا الله، فلم نبرح عنه حتى قتلناه، فلما قدمنا على رسول الله ﷺ أخبرناه خبره، فقال: يا أسامة، من لك بلا إله إلا الله!! فقلت: يا رسول الله إنما قالها تعوذاً من القتل. فقال: ما لك يا أسامة بلا إله إلا الله!! فوالذي بعثه بالحق ما زال يرددها حتى وددتُ أن ما مضى من إسلامي لم يكن، وأني أسلمتُ يومئذ، فقلت: أعطي الله عهداً أن لا أقتل رجلاً يقول لا إله إلا الله»^(١).

وروى محمد بن إسحاق، عن صالح بن كيسان، عن عبيد الله بن عبد الله، قال: رأيتُ أسامة بن زيد يصليّ عند قبر النبي ﷺ، فدُعي مروان إلى جنازة ليصليّ عليها، فصلّي عليها، ثم رجع وأسامة يصليّ عند باب بيت النبي، فقال له مروان: «إنما أردتُ أن يُرى مكانك، فعَلَ الله بك»، وقال قولاً قبيحاً، ثم أدبر، فانصرف أسامة، وقال: «يا مروان، إنك آذيتني، وإنك فاحش متفحش، وإنني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن

(١) ومن مثل هذا يُفهم أنَّ الصحابة الذين امتنعوا عن القتال مع الإمام علي رضي الله عنه وكرم الله وجهه: إنما امتنعوا لعل وأسباب أخرى، لا لكرهية القتال مع الإمام، رضي الله عنهم جميعاً، وأن الذين خاضوا في أعراض الصحابة إنما ارتكبوا جرماً وإجراماً؛ نسأل الله السلامة والعافية.

الله يبغض الفاحش المتفحش»^(١).

وقال بعضهم: يجوز للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والمؤدّب أن يقول لمن يخاطبه في ذلك الأمر: يا ضعيف الحال أو يا قليل النظر لنفسه، أو يا ظالم نفسه، وما أشبه ذلك، بحيث لا يتجاوز إلى الكذب، ولا يكون فيه لفظ قذف؛ لأن الغرض به التأديب والزجر، وليكون الكلام أوقع في النفس، لما روى أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ رأى رجلاً يسوقُ بَدَنَةً^(٢)، فقال: اركبها، فقال: إنها بدنة، قال: اركبها، قال: إنها بدنة، قال في الثالثة: «اركبها ويلك». ولقول أبي بكر الصديق رضي الله عنه لابنه عبد الرحمن لما لم يجده عشيّ أضيافه: «يا غنثر»^(٣).

ونهى عن انتهاز الفقراء والضعفاء واليتيم والسائل ونحوهم، بل يُلين لهم القول ويتواضع معهم، لقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠﴾ [الضحى: ٩، ١٠] ولقوله تعالى: ﴿وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝﴾ [الحجر: ٨٨].

وكان أسامة أسودَ أفتس، وتوفي آخر أيام معاوية سنة ثمان أو تسع وخمسين، وقيل: توفي بعد قتل عثمان بالجرف، وحُمل إلى المدينة.

روى عنه أبو عثمان، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة وغيرهما، أخرجه ثلاثتهم. وقد ذكر ابن منده أن النبي ﷺ أمرَ أسامةَ بن زيد على الجيش الذي سَيَّرَهُ إلى مؤتة في عِلته التي توفي فيها، وهذا ليس بشيء؛ فإن النبي ﷺ استعمل على الجيش الذي سار إلى مؤتة أباه زيد بن حارثة، فقال: «إِنْ أَصِيبَ فَأَمِيرُكُمْ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، إِنْ أَصِيبَ فَأَمِيرُكُمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ الْأَنْصَارِيِّ، إِنْ أَصِيبَ فَسَيْفَتُ اللَّهِ عَلَى يَدَيَّ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ» وأشار بيده إلى خالد بن الوليد^(٤)، فلما التقوا مع الروم وقتل زيد أخذ

(١) رواه الإمام أحمد.

(٢) بقرة.

(٣) الغنثرة: كثرة الشعر، وكلمة شتم.

(٤) ومنه تأخذ أن تأمير خالد على هذا الجيش، إنما كان أيضًا بأمر رسول الله ﷺ.

الراية جعفر، فقاتل حتى قُطعت يده اليمنى، فأخذها بشماله فقاتل حتى قُطعت شماله، فحُضِن الراية وقاتل حتى قُتل رضي الله عنه، ويقال: إنه وُجد فيما أقبل من بدنه أربعة وخمسون جرحًا، ما بين طعنة رمح وضربة بسيف، وقُتل في ثمانية من الهجرة.

وأما أسامة: فإن النبي ﷺ استعمله على جيش، وأمره أن يسير إلى الشام أيضًا، وفيهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فلما اشتد المرض برسول الله ﷺ أوصى أن يسير جيش أسامة، فساروا بعد موته ﷺ، وليست غزوة مؤتة.

ومنهم أبو كبشة: واسمه «سليم» من مؤلدي السراة، وقيل من مولدي مكة، وقيل من أرض دوس. شهد بدرًا وأُحُدًا والمشاهد كلها، وأعتقه رسول الله ﷺ، وتوفي في أول يوم من خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

ومنهم «أنسة» من مؤلدي السراة، يكنى «أبا سرح» اشتراه النبي ﷺ وأعتقه، قيل: قُتل يوم بدر، وقيل: بل شهد يوم أحد، وتوفي في خلافة أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه، وكان يأذن على النبي ﷺ.

ومنهم شقران، واسمه «صالح»، قيل ورثه ﷺ من أبيه، وقيل: اشتراه من عبد الرحمن ابن عوف، شهد بدرًا وهو مملوك، فاستعمله رسول الله ﷺ على الأسرى ولم يُسهم له، فأهداه كل رجل كان له أسير، فأصاب أكثر مما أصابه رجل من المقسم، وأعتقه ﷺ. وكان «شقران» ممن نزل في قبر رسول الله ﷺ.

ومنهم رباح، ويكنى «أبا أيمن» وهو عبد أسود نوبي، اشتراه ﷺ من وفد عبد القيس، وأعتقه، وكان يأذن على رسول الله ﷺ أحيانًا، وهو الذي استأذن لعمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه على النبي ﷺ لَمَّا اعتزل نساءه في المشربة (بفتح الميم هي الغُرْفَة) ثم صَيَّرَه ﷺ مكان يسار حين قُتل، فكان يقوم بأمر لقاحه (*).

ومنهم يسار الراعي النوبي، أصابه ﷺ في بعض غزواته، وأعتقه، وجعله في لقاحه

(*) اللقاح: جمع لقحة الناقة الحلوب الغزيرة اللبن.

يرعاها، فأغار عليها قوم من «عرينة» وأخذوا يسارًا وقطعوا يديه ورجليه، وغرزوا الشوك في عينيه ولسانه، واستاقوا اللقاح، وأدخل المدينة ميتًا. فقام بأمر اللقاح بعده «رباح» كما سلف.

ومنهم **أبورافع**، واسمه «أسلم» كان عبدًا قبطيًا للعباس بن عبد المطلب، فلما بشر رسول الله ﷺ بإظهار العباس إسلامه أعتقه وزوجه «سلمى» مولاته ﷺ، وولدت له عبيد الله. ووجه رسول الله ﷺ أبا رافع مع زيد بن حارثة من المدينة لحمل عياله من مكة، وبشر رسول الله ﷺ بولادة إبراهيم، فوهب له غلامًا، وكانت سلمى زوجته قابلة^(١) إبراهيم، وشهدت خير مع زوجها، وكان عبيد الله ابنه خازنًا لعلي بن أبي طالب، أو كاتبًا له أيام خلافته. وشهد أبو رافع أحدًا والخندق وما بعدهما من المشاهد، ولم يشهد بدرًا لأنه كان بمكة، كما تدلُّ عليه قصته مع أبي لهب الآتية؛ قال أبو رافع: كنت غلامًا للعباس، فأسلم العباس، وأسلمت أم الفضل وأسلمت، وكان العباس يهاب قومه ويكره خلافهم، وكان يكتُم إسلامه، وكان ذا مال كثير متفرِّق في قومه^(٢) فلما جاء مصاب أهل بدر وجدنا في أنفسنا عزةً وقوةً، وكنت ضعيفًا أعمل الأقداح وأنحتها في حجرة زمزم، فبينما أنا أنحتُ أقداحي وعندي أم الفضل جالسة، وقد سُررنا بما جاءنا من خبر أهل بدر، أقبل أبو لهب فجلس، وجاء أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، فقال أبو لهب: إليَّ يا ابن أخي، ما خبرُ الناس؟ فقال: ما هو إلا أن لقيناهم حتى منحناهم أكتافنا، ولقينا رجالًا على خيل بُلق^(٣)، فقلت: تلك الملائكة. فلطمني أبو لهب لطمَةً شديدة، وثاورته، فضرب بي الأرض، فقالت له أم الفضل: أراك تستضعفه إن غاب عنه سيده، وأخذتُ شيئًا فضرَبته به فشجته، فقام ذليلاً، فوالله ما عاش إلا سبع ليالٍ حتى رماه الله بالعدسة فقتله، وقد تركَ حتى أتت وتباعدَ عنه بنوه،

(١) يقصد قابلة أم إبراهيم أي التي قامت بتوليدها.

(٢) ذلك والله أعلم هو سر من أسرار إخفائه الإسلام حتى يتمكن من جمع ماله من قريش.

(٣) بيضاء.

فبقي ثلاثاً لا تُقَرَّبُ جنازته ولا يُدفن، فلما خافوا السُّبَّةَ دفعوه بعود في حفرة، ودفن بأعلى مكة، وقذفوا عليها الحجارة من بعد حتى واروه بها، كما سبق في الفصل الأول من الباب الأول، وتوفي أبو رافع قبل عثمان، وقيل في خلافة علي رضي الله عنهم. [و«العدسة» بُثِّرَ كانت تخرج على الناس، تزعم العرب أنها تُعدي، شبيهة بالطاعون].

وعلى ذكر ذلك فقد روي عن عبد الرحمن بن عوف قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كان الوباء بأرض وأنتم بها، فلا تخرجوا فراراً منه، وإذا سمعتم به بأرض فلا تَقْدُموا عليه». رواه الشيخان، وقد سبق التنويه إلى ذلك في «الفصل الأول من الباب الأول»، وفي نهيه ﷺ عن الدخول في الأرض التي حلَّ بها الطاعون فائدتان، الأولى: لئلا يستنشقوا الهواء الذي قد عفن وفسد فيمرضون، والثانية: لئلا يجاوروا المرضى الذين قد مرضوا بذلك، فتضاعف عليهم البلية لوجود الأُمَريين.

وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّ مِنَ الْقَرْفِ^(١) التَّلَفَ» (والقرف مدانة الوباء ومدانة المرض).

وقوله: «فلا تدخلوا عليه» إثبات الحذر، والنهي عن التعرض للتلف، وفي قوله: «فلا تخرجوا فراراً منه» إثبات التوكل والتسليم لأمر الله؛ فأحد الأمرين تأديب وتعليم، والآخر تفويض وتسليم. وقال الحافظ الجوزي: «إنما نهى عن الخروج لأن الأصحاء إذا خرجوا هلكوا المرضى؛ فلا يبقى من يقوم بحالهم؛ فخرجوهم لا يقطع بنجاتهم، وهو قاطع بهلاك من بقي؛ لقوله ﷺ «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً»^(٢)، وقال ﷺ: «الله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه». والوباء مرض عام، يُفضي إلى الموت غالباً، وسببه فساد جوهر الهواء الذي هو مادة الروح وسبب لصلاحه، ولذلك لا يمكن حياة الإنسان بدون استنشاق، ومتى عدم الحيوان استنشاق الهواء وتَنَسَّمَهُ مات

(١) في مختار الصحاح: القرف: مدانة المرض، وفي الحديث أن قوماً شكوا إليه وباء أرضهم فقال «تَحَوَّلُوا»، فإن من القرف التلف.

(٢) رواه الترمذي، والنسائي، والبخاري ومسلم.

مختنقًا. والوباء مُضِرٌّ بالأبدان مُزِيلٌ لصحتها، مُعَرِّضٌ لهلاكها، فلذلك نهاهم النبي ﷺ عن الدخول بأرض حَلَّ بها الوباء، فيحرم دخولها خوفًا عليهم وتعليمًا لهم، وقال بعضهم: في نهيه عن الخروج منها معنيان، أحدهما: ثقةً بالله وتوكلًا عليه، فيحرم ذلك بقصد الفرار، وقال الشيخ ابن سينا: يجب على كل محترز من الوباء أن يُخرج عن بدنه الرطوبات الفضلية، ويقلل الغذاء، ويميل إلى التدبير المجفّف من كل وجه، ويجتنب الرياضة والحمام، فإنهما مما يجب أن يحذرا؛ لأن البدن لا يخلو غالبًا من فضل رديء كان فيه، فيثيره، وذلك يجلب بلية عظيمة، بل يجب عند وقوع الوباء السكون والراحة وتسكين هيجان الأخلاط؛ إذ لا يمكن الخروج من أرض الوباء إلا بالحركة، وهي مُضرة.

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه خرج إلى الشام حتى إذا كان بـ «سرغ» لقيه أبو عبيدة بن الجراح وأصحابه، فأخبروه أن الوباء والطاعون قد وقع بالشام، قال ابن عباس: قال لي عمر: ادعُ لي المهاجرين الأولين. فدعوتهم، فاستشارهم وأخبرهم أن الوباء قد وقع بالشام، فاختلفوا، فقال بعضهم: خرجت لأمر فلا نرى أن ترجع عنه، وقال آخرون: معك بقية الناس وأصحاب رسول الله ﷺ فلا نرى أن نُقدّمهم على هذا الوباء والطاعون، فقال عمر: ارتفعوا عني، ثم قال: ادعُ لي الأنصار. فدعوا، فاستشارهم، فسلّكوا سبيل المهاجرين، واختلفوا كاختلافهم، فقال: ارتفعوا عني، فقال: ادعُ لي من ههنا من مشيخة قريش، من مهاجرة الفتح. فدعوا له، فلم يختلف عليه منهم اثنان، قالوا: نرى أن ترجع بالناس، ولا نرى أن نُقدّم على هذا الوباء والطاعون، فأذن عمر في الناس: إني مُصبح على ظهر^(١) فأصباحوا عليه. قال أبو عبيدة بن الجراح: يا أمير المؤمنين، أفرارًا من قدر الله! فقال: «لو غيرك قالها بأبا عبيدة!! نعم؛ نفرّ من قدر الله إلى قدر الله، أرايت لو كان لك إبل فهبطت واديا له عدوتان، إحداها خصبة والأخرى جدبة، ألتست إن رعيت الخصبة رعيتها بقدر الله، وإن رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله؟!» قال: فجاء عبد الرحمن بن عوف، وكان متغيبًا في بعض حاجته، فقال: إن

(١) كناية عن أنه سيركب دابته مسافرًا.

عندي في هذا علمًا، وذكر الحديث المتقدم ذكره، فحمد الله ثم انصرف.

فعلمنا من هذه الأحاديث حُكْمُ النهي عن دخول بلد بها الطاعون والخروج منها بقصد الفرار منه، وعن أبي نعيم أن النبي ﷺ قال: «الطاعون شهادةٌ لأمتي، ووخز أعدائكم من الجن، غدةٌ كغدة الإبل تخرج في الآباط والمرافق، من مات فيه مات شهيدًا، ومن قام فيه كان كالمرباط في سبيل الله، ومن فرَّ منه كان كالفارِّ من الزحف» رواه الطبراني^(١).

وقال صاحب الصحاح: «الطاعون من حيث اللغة: الموت بالوباء، ومن حيث الطب: ورمٌ رديءٌ قتال، يخرج مع تلُّب شديد مؤذٍ، ويصير ما حوله في الأكثر أسود وأخضر وغير ذلك، ويؤول أمره إلى التقرُّح سريعًا.

وقال بعضهم: المسكُ عظيمٌ في دفع ضرر الطاعون شربًا وشمًا، وركوب البحر. وكذلك العنبر، يدفع ضرر الطاعون والوباء، بخورًا وشمًا، وهو أفخر أنواع الطيب بعد المسك، وألوانه مختلفة؛ فمنه الأبيض، والأشهب، والأحمر، والأصفر، والأخضر، والأزرق، والأسود، وأجوده الأشهب القوي، الخفيف الدسم، ثم الأزرق، ثم الأصفر، وأردؤه الأسود، يُغش بالشمع، واللاذن وغيره، ويقاومُ الهواء المحدث للوباء إذا أُدمن شمه والتبخر به، وشربه يدفع ضرر الطاعون والوباء. وأكله ينفع من استطلاق البطن، وينفع من الزكام بخورًا وطلاءً، وكذلك العود عظيم في دفع ضرر الطاعون والوباء بإذن الله تعالى: شربًا وبخورًا. والعود أنواع: أفضلها الهندي، ثم الصيني، وأجوده الأسود النقي من البياض، الصُّلب الرزين الدسم، المرُّ الأرسب في الماء، والطافي رديء.

وقال الشعراني: اللبان عظيمٌ في دفع ضرر الطاعون والوباء بخورًا، يُسنُّ تبخير المنزل به، فيدفع ضرر الوباء والطاعون وريح الهواء؛ لما روى أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «بَخَرُوا بيوْتَكُمْ باللبان».

(١) وروى مسلم عن أسامة بن زيد: «الطاعون آيةُ الرجز، ابتلى الله به ناسًا». وقال ﷺ: «الطاعون شهادة لكل مسلم» رواه البخاري، ومسلم، والإمام أحمد. وللحديث طرق أخرى.

وقال الشيخ ابن سينا: والطواعين تكثر في الوباء، وفي البلاد الوبائية، ولمّا كان ذلك كذلك كانوا يعبرّون بالطاعون عن الوباء لشهرة هذا الاسم عندهم، ولملازمته للوباء في أكثر الأحوال، قال بعضهم: الوباء: الطاعون. وقيل: هو كل مرض عام.

وقال العلامة القاضي عياض: أضلُّ الطاعون: القروح الخارجة في الجسد، والوباء: عمومُ الأمراض، فسُميت طاعوناً لشبهها في الهلاك بذلك، وإلا فكل طاعون وباء، وليس كلُّ وباء طاعوناً. والصحيح الذي قاله المحققون في الفرق بينهما أنَّ الوباء مرضٌ لكثير من الناس في جهة من الأرض دون سائر الجهات، ويكون مخالفاً للمعتاد في الكثرة وغيرها، ويكون مرضهم نوعاً واحداً، بخلاف سائر الأوقات، وقد رُوي عن جماعة من السلف أنهم فروا من الطاعون، منهم أبو موسى، ومسروق، والأسود بن هلال، وقال عمرو بن العاص: «فرّوا عن هذا الرجز في الشعاب والأودية ورؤوس الجبال» ذكره الإمام النووي في شرح مسلم.

(تنبيه) قال أبو الحسن المدائني: كانت الطواعين المشهورة العظام في الإسلام

سنة:

الأول: طاعون شيرويه بالمدائن، في عهد رسول الله ﷺ سنة ستة من الهجرة.

الثاني: طاعون عمواس في زمن عمر بن الخطاب، كان بالشام، ومات فيه خمسة وعشرون ألفاً.

الثالث: طاعون في زمن خلافة عبد الله بن الزبير، في شوال سنة تسع وستين، ومات فيه بالطاعون في ثلاثة أيام كل يوم سبعون ألفاً، ومات فيه لأنس بن مالك ثلاثة وثمانون ولداً، ومات فيه لعبد الرحمن بن عوف أربعون ولداً.

الرابع: طاعون الفتیان، في شوال سنة سبع وثمانين بالبصرة وواسط والشام والكوفة، ويقال له طاعون «الأشراف» لما مات فيه من الأشراف.

الخامس: طاعون سنة إحدى وثلاثين ومائة، في رجب، واشتد في رمضان، وكان

يخرج في كل يوم ألف، ثم خَفَّ في شَوَّال.

السادس: طاعون كان بالكوفة سنة خمس، وفيه توفي المغيرة بن شعبة.

ولم يقع الطاعون بالمدينة المنورة ولا مكة قط، قال الإمام النووي.

وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إذا طلع النجمُ ارتفعت العاهةُ عن كل بلد» وأراد بالنجم الثرياً^(١) قال ابن عباس: يعني الثريا، والعرب تسمى الثريا نجماً، والمراد بالعاهة الآفة التي تلحق الزرع والثمار في فصل الشتاء، وصَدَرَ فصل الربيع، فيحصل الأمنُ عليها عند طلوع الثريا في الوقت المذكور، وقال ابن عمر: «إذا طلعت الثريا فقد أَمِنَ» يعني صاحب الزرع والثمار، ولذلك نهى النبي ﷺ عن بيع الثمرة وشرائها قبل أن يبدو صلاحها. اهـ.

ومن شعر سيدي عبد العزيزي الديريني:

وَصُغَّرَتْ ثَرِيَّةٌ لِكَثْرَتِهِ وَالْخِصْبُ فِي طُلُوعِهَا وَالْيُسْرَه

رَجَعَ إِلَى ذِكْرِ مَوَالِيهِ:

ومنهم أبو مويهبة: وهو من مُولَّدي مُزَيْنَةَ، اشتراه رسولُ الله ﷺ وأعتقه، فشهد المريسيع، وكان يقود لعائشة رضي الله تعالى عنها بغيرها.

ومنهم فضالة اليماني، نزل بالشام ومات بها.

ومنهم رافع، وهو «رويفع»، كان لسعيد بن العاص، فابتاعه رسولُ الله ﷺ وأعتقه. وعن عبد الله بن عمرو بن العاص، قال: قلنا يا نبيَّ الله، مَنْ خَيْرُ الناس؟ قال: «ذو القلب المخموم، واللسان الصادق»، قلنا: قد عرفنا اللسان الصادق، فما القلب المخموم؟ قال: «هو التَّقِيُّ النَّقِيُّ النَقِيُّ الذي لا إثمَ فيه ولا بَغْيٍ، ولا حَسَدٍ»^(٢). قلنا: يا رسول الله فمن على أثره؟ قال: «الذي يشنأ الدنيا ويحب الآخرة»، قلنا: ما نعرف

(١) لقوله ﷺ: «إذا طلعت الثريا أَمِنَ الزرع من العاهة» رواه الطبراني في الأوسط.

(٢) في المختار: قلب مخموم: أي نقي من الغل والحسد.

هذا فينا، إلا أن يكون رافعاً مولى رسول الله ﷺ، فمن على أثره؟ قال: «مؤمن له خلق حسن».

ويقال إن أولاد سعيد بن العاص لما ورثوا رافعاً عن أبيهم أعتقه بعضهم وأمسكه بعضهم، فجاء رافع إلى النبي ﷺ يستعينه، فوهب له، وكان يقول: أنا مولى النبي ﷺ. وبعض أرباب السير يخلط أبا رافع المسمى «أسلم» برافع، فيقول: إن رافعاً وأبا رافع هما شخص واحد ويجعل «رويفعاً» من سبي هوازن، وأن النبي ﷺ أعتقه.

ومنهم «مدهم» بكسر الميم وسكون الدال المهملة وفتح العين المهملة، هو عبد أسود لرفاعة بن زيد بن وهب الجذامي، ثم الضبيي (بضم الضاد المعجمة وفتح الباء الموحدة بصيغة التصغير) أهداه له رفاعة، وهو الذي قُتل بوادي القرى بسهم أصابه، فقال الناس: هنيئاً له الجنة، فقال رسول الله ﷺ: «كلا والذي نفسي بيده؛ إن الشملة التي أخذها يوم خيبر من الغنائم لم تُصِبْها المقاسم تشتعل عليه ناراً» وكنيته أبو سلام. ومنهم «كركرة» (بفتح الكاف الأولى وكسرهما والثانية مكسورة فيهما) هو عبد نوبي، أهداه له هوزة بن علي الحنفي فأعتقه، وقيل: مات وهو مملوك، وكان على ثقل رسول الله ﷺ، فلما مات قال ﷺ: «هو في النار» فذهبوا ينظرون إليه فوجدوا عبادة قد غلّها.

ومنهم «زيد» جد هلال بن يسار بن زيد بن عبيد بن طهمان.

ومنهم مأبور القبطي، وهو عبد خصي أهداه له المقوقس.

ومنهم «واقدة» أبو واقد، وجعلهما ابن سيد الناس اثنين.

ومنهم هشام، وهو الذي روى عن النبي ﷺ حديث: «أن رجلاً أتاه فقال: يا رسول الله إن لي امرأة لا تدفع كفّ لأمس، فقال: طلقها»^(١).

(١) معنى (لا تدفع كفّ لأمس) أنها غير عفيفة، وأنها لعب يسهل استدراجها إلى الفاحشة، وهي كناية لطيفة عن هذا المعنى الذي يستحي من ذكره صراحة.

ومنهم «أبو ضميرة» ويقال له: «أبو ضميرة» وهو من العرب، مما أفاء الله عز وجل على رسوله، فأعتقه، ثم خيَّره أن يقيم معه أو يلحق بقومه، فاختر المقام، فكتب رسول الله ﷺ له ولأهل بيته كتاباً أن يحفظهم كل من لقيهم من المسلمين. فذكروا أن لصوصاً لقوا قوماً منهم، فأخرجوا كتاب رسول الله ﷺ، فلم يتعرَّضوا لهم.

ووفد حسين بن عبد الله بن ضميرة بن أبي ضمرة على المهدي أمير المؤمنين، وجاء معه بكتاب رسول الله ﷺ الذي كتبه له، فأخذ المهدي الكتاب وقبله ووضع على عينيه وأعطى حسيناً خمسمائة دينار.

ومنهم «سفينة» أعتقه رسول الله ﷺ، وقيل: كان عبداً لأم سلمة، فأعتقه وشرطت عليه أن يخدم النبي ﷺ حياته، فقال: لو لم تشرطي عليّ ما فارقت. وكان اسمه «مفلح» وقيل كان اسمه «رباحاً»، وقيل: «مهران» فسماه النبي ﷺ سفينة؛ لأنه كان معهم في سفرة، فكان كل من أعيأ ألقى عليه متاعه: ترساً أو سيفاً، فمر به النبي ﷺ فقال: أنت سفينة، ورؤي عنه أنه قال: كنا مع النبي ﷺ، فقال: أبسط كساءك، وقال للقوم: اطرحوا أمتعتكم فيه، ثم قال: احمل إنما أنت سفينة، وقال: فلو كان قر بعير أو بعيرين أو ثلاثة أو أربعة أو خمسة لحملت. وهو أسود من مولدي الأعراب.

ومنهم «أبو هند» مولى فروة بن عمرو البياضي، ابتاعه النبي ﷺ عند منصرفه من الحديبية، وأعتقه، وكان حجاً رسول الله ﷺ، فقال فيه النبي ﷺ: «يا بني بياضة، زوّجوا أبا هند وتزوّجوا إليه»، ففعلوا، ولم يشهد بدرّاً، وشهد المشاهد كلها. قيل اسمه «عبد الله» وقيل «يسار».

ومنهم «أنجشة» (بفتح الهمزة وسكون النون وفتح الجيم وبالشين المعجمة) كان عبداً أسود وقيل حبشياً يكنى «أبا مارية»، وكان حادي النبي ﷺ، وكان حسن الصوت بالحُداة، فحدا بأزواج النبي ﷺ في حجة الوداع، فأسرعت الإبل، فقال النبي ﷺ: «ويحك يا أنجشة، رفقاً بالقوارير» والقوارير أواني الزجاج، الواحدة قارورة، شبّهن

لضعف قلوبهنّ بقوارير الزجاج.

وَيُرَوَّى أَنَّ أَنْجَشَةَ كَانَ يَحْدُو بِالنِّسَاءِ، وَكَانَ الْبَرَاءُ بْنُ مَالِكٍ يَحْدُو بِالرِّجَالِ.

وَمِمَّنْ حَدَا بِمَشْهَدٍ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ، فَقَدْ رَوَى النَّسَائِيُّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ رَوَاحَةَ أَنَّهُ كَانَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي مَسِيرٍ لَهُ، فَقَالَ لَهُ: يَا ابْنَ رَوَاحَةَ، انْزِلْ فَحَرِّكْ الرِّكَابَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ قَدْ تَرَكْتُ ذَلِكَ، فَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: اسْمَعْ وَأَطِعْ، فَرَمَى بِنَفْسِهِ، وَقَالَ:

لَاهُمَّ لَوْلَا أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَلِّنَا

فَأَنْزَلُنْ سَكِينَةً عَلَيْنَا وَثَبَّتِ الْأَقْدَامَ إِنْ لَأَقَيْنَا

وَالْحَدُوَّ وَالْحَدَاءَ: سَوَّقَ الْإِبِلَ وَالْغَنَاءَ لَهَا. قَالَ الشَّاعِرُ:

فَغَنَّا فَهِيَ لَكَ الْفِدَاءُ إِنْ غَنَاءَ الْإِبِلَ الْحَدَاءَ

وَمِنْ مَوَالِيهِ «أَبُو لُبَابَةَ» وَاسْمُهُ «زَيْدُ بْنُ الْمَنْذَرِ» مِنْ بَنِي قَرِيظَةَ، كَانَ لِبَعْضِ عَمَاتِهِ، فَوَهَبَتْهُ لَهُ، فَأَعْتَقَهُ، وَقِيلَ: ابْتَاعَهُ ﷺ وَهُوَ مُكَاتِبٌ فَأَعْتَقَهُ.

هُؤُلَاءِ الْمَوَالِي الْمَشْهُورُونَ، وَلَهُ ﷺ غَيْرُهُمْ، وَقِيلَ يَبْلُغُونَ أَرْبَعِينَ مَوْلَى.

* * *

وَأَمَّا مَوَالِيَاتُهُ ﷺ:

فَسَلَمَى أُمُّ رَافِعٍ، وَيُقَالُ: كَانَتْ مَوْلَاةً لَصَفِيَّةَ عَمَّتِهِ، وَهِيَ زَوْجَةُ أَبِي رَافِعٍ، وَدَايَةُ فَاطِمَةَ الزَّهْرَاءِ، وَقَابِلَةُ إِبْرَاهِيمَ ابْنِ النَّبِيِّ ﷺ.

وَأُمُّ أَيْمَنَ، وَاسْمُهَا بَرَكَةُ الْحَبَشِيَّةِ، وَرَثَهَا النَّبِيُّ ﷺ مِنْ أَبِيهِ، وَهِيَ أُمُّ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ، كَانَتْ وَصِيفَةً لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الْمَطْلَبِ: وَقِيلَ: كَانَتْ لَأُمِّ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَكَانَتْ مِنَ الْحَبَشَةِ. فَلَمَّا وَلَدَتْ أَمْنَةً رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَعْدَ مَا تَوَفَّى أَبُوهَ، كَانَتْ أُمُّ أَيْمَنَ تَحْضِنُهُ حَتَّى كَبُرَ، فَأَعْتَقَهَا حِينَ تَزَوَّجَ خَدِيجَةَ، وَزَوَّجَهَا عُبَيْدَةَ بْنَ زَيْدِ بْنِ الْحَارِثِ الْحَبَشِيِّ، فَوَلَدَتْ لَهُ أَيْمَنَ وَكُنِيَ بِهِ، وَاسْتُشْهِدَ أَيْمَنُ يَوْمَ حَنْينَ، ثُمَّ تَزَوَّجَهَا زَيْدُ بْنُ

حارثة بعد النبوة فولدت له أسامة، وقيل: أعتقها أبو النبي عليه السلام، وهي التي شربت بول النبي ﷺ. وفي الشفاء^(١) روي أَنَّ أم أيمن كانت تخدم النبي ﷺ، وكان له قدح من عيدان يوضع تحت سريره يبول فيه من الليل، فبال فيه ليلة، ثم افتقده فلم يجد فيه شيئاً، فسأل بركة عنه، فقالت: قُمتُ وأنا عطشانة فشربته وأنا لا أعلم، فقال: «لن تشككي وجع بطنك أبداً»، وللترمذي «لن تلج النار بطنك» وصححه الدارقطني، وحمله الأكثرون على التداوي.

وأخرج حسن بن سفيان في مسنده، والحاكم والدارقطني، وأبو نعيم، والطبراني، من حديث أبي مالك النخعي يُبلغه إلى أم أيمن أنها قالت: قام رسول الله ﷺ من الليل إلى فحارة في جانب البيت فبال فيها، فقمْتُ من الليل وأنا عطشانة فشربت ما فيها، وأنا لا أشعر، فلما أصبح النبي ﷺ، قال: «يا أم أيمن، قومي فأهريقني ما في الفحارة»، قلت: قد والله شربتُ ما فيها؟ قالت: فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذه، ثم قال: «أما والله لا يجعن بطنك أبداً».

وعن ابن جريج قال قال: أُخبرت أن النبي ﷺ كان يبول في قدح من عيدان ثم يوضع تحت سريره، فجاء فإذا القدح ليس فيه شيء، فقال لامرأة يقال لها «بركة» كانت تخدم أم حبيبة، جاءت معها من أرض الحبشة: «أين البول الذي كان في القدح؟» قالت: شربته، قال: «صحة يا أم يوسف» فما مرضت قط، حتى كان مرضها الذي ماتت فيه.

وقال النبي ﷺ: «أُم أيمن أُمِّي بعد أُمِّي» وكان يزورها، ثم أبو بكر، ثم عمر.

وقال الواقدي: حضرت أم أيمن أحدًا فكانت تسقي الماء وتداوي الجرحى وشهدتُ خير، وتُوفيتُ في أول خلافة عثمان، كذا في الصفوة.

قال ابن الجوزي: مواله ثلاثة وأربعون، وإماؤه إحدى عشرة، كذا في المواهب اللدنية. ولم يكونوا في وقت واحد، بل كان كلُّ بعضٍ في وقت.

(١) كتاب القاضي عياض.

ويأتي ذلك موضحًا في الفصل الأول من الباب الأول الآتي في خدمه وحشمه وأرباب الوظائف الدينية التي كانت إذ ذاك في الخطة الإسلامية، واقتدى به فيها الخلفاء الراشدون، وتوسّع فيها الملوك والسلطين المقتدون.

قال صاحب كتاب «تخريج الدلالات السمعية»^(١) ما ملخصه: «إِنَّ مَنْ لَمْ تَرْسَخْ فِي الْمَعَارِفِ قَدَمُهُ، وَلَيْسَ لَدَيْهِ مِنْ أَدَوَاتِ الطَّالِبِ إِلَّا يَدَاهُ وَقَلَمُهُ، يَحْسَبُ كَثِيرًا مِنَ الْأَعْمَالِ السُّلْطَانِيَةِ مَبْتَدَعًا لَا مَتَبَعًا، وَأَنَّ الْعَامِلَ عَلَى خُطَّةِ دُنْيَوِيَةٍ لَيْسَ عَامِلًا فِي عَمَالَةِ سُنِّيَّةٍ، وَيُظَنُّ أَنَّ عَمَالَتَهُ دُنْيَوِيَّةٌ، فَلِهَذَا جُمِعَتْ مَا عَلِمْتُهُ مِنْ تِلْكَ الْعَمَالَاتِ فِي كِتَابٍ يُوَضِّحُ نَشْرَهَا، وَيُبَيِّنُ الْأَمْرَ لِمَنْ جَهِلَ أَمْرَهَا، فَيَعْتَرِفُ الْجَاهِلُ، وَيُنْصَفُ الْمُتَحَامِلُ، فَذَكَرْتُ فِي كُلِّ عَمَالَةٍ مَنْ وَلَّاهُ عَلَيْهَا الرَّسُولُ ﷺ مِنَ الصَّحَابَةِ، لِيَعْلَمَ ذَلِكَ مَنْ يَلِيهَا الْآنَ، فَيُشْكِرَ اللَّهَ عَلَى أَنْ اسْتَعْمَالَهُ فِي عَمَلٍ شَرْعِي كَانَ يَتَوَلَّاهُ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَنْ صَلَحَ لَهُ، وَأَقَامَهُ الْمَوْلَى فِي ذَلِكَ مَقَامَهُ، فَيَجْتَهِدُ فِي إِقَامَةِ الْحَقِّ فِيهِ، بِمَا يَوْجِبُهُ الشَّرْعُ وَيُقْتَضِيهِ، فَيَكُونُ قَدْ أَحْيَا سُنَّةً وَأَحْرَزَ حَسَنَةً». اهـ.

ومن هذا الكتاب استخرجتُ الرُّبْدَ اللائقة، والخلاصات الفائقة، الآتية في أبوابها، النافعة لطلابها، حيث لم يَفِ ذلك غالبُ مؤلفي كتب السير، بل جميعهم، فبانضمام هذه العمالات والوظائف السياسية والشرعية إلى ما حوته هذه السيرة من ماجرياته ﷺ ابتداء وانتهاء، تفرز بفضيلة السبق، وترضى بعونه تعالى الخالق والخلق^(٢).



(١) للعلامة أبي الحسن علي بن محمد المعروف بالخواص التلمساني المتوفى ١٧٨٩ هـ، نشره المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية عام ١٤١٥ هـ / ١٩٩٥ م.

(٢) الحديث في الفقرتين الأخيرتين عن كتاب آخر يعدّه المؤلف متممًا لهذا الكتاب، ويحمل عنوان (الدولة الإسلامية، نظامها وعمالات).

ملخص يضبط ما تفرّق من الغزوات التي سبق ذكرها تفصيلاً

كان الوالد -أحسن الله إليه، وأسبغ نعمة الرحمة والرضوان عليه- شافهني بأنّ في نفسه أن يضع ضابطاً للغزوات، مجملاً لما سبق، عند ذكر كل غزوة من التفصيلات، ولكن أبى الله إلا ما أراد، وما كأني إلا أنا المقصود في خطابه والمراد، فبادرت لتمام أمنيته التي حُجبت بمنيته، وجمعت هذا الملخص تابعا فيه طريقة الأصل، معتمداً على سياقه في تاريخ السنين باعتبار الباب والفصل.

علي فهمي رفاعه

١ - غزوة «الأبواء» وتسمى غزوة «ودان»

سنة الغزو: ١ هجرية.

عدد المجاهدين: ٧٠.

«ودان» قرية كبيرة بينها وبين الأبواء نحو ثمانية أميال، والأبواء قرية ما بين مكة والمدينة، وفي هذه الغزوة عقد ﷺ الصلح مع سيد بني ضمرة «مجدى بن عمرو الجهني» على ألا يغزوهم ولا يغزونه، ولا يُكثر عليه جمعاً ولا يُعين عليه عدوًّا، وكتب بينه وبينهم كتاباً سبق ذكره عند ذكر هذه الغزوة في هذا الكتاب. وكان العامل على المدينة سعد بن عباد، وكون هذه الغزوة كانت في السنة الأولى، وهو ما قاله أهل السير. والصحيح أنها كانت في السنة الثانية.

٢ - غزوة «بواط»

سنة الغزو: ١ هجرية.

عدد المجاهدين: ٢٠٠.

عدد المشركين: ١٠٠.

«بواط» بضم الموحدة وفتحها، قيل: إنها كانت في السنة الأولى، والصحيح أنها في الثانية، و«بواط» جبل ببنيع. وكان كبير المشركين «أمية بن خلف». وحامل اللواء في هذه الغزوة «سعد بن أبي وقاص» رضي الله عنه، والعامل على المدينة: السائب بن عثمان بن مظعون، وقيل «سعد بن معاذ».

لما انتهى ﷺ إلى «بواط» لم يجد كيداً، فرجع إلى المدينة من دون حرب.

٣ - غزوة العشيرة

سنة الغزو: ١ هجرية.

عدد المجاهدين: ٢٠٠.

«العشيرة» بالعين المهملة والشين المعجمة وبالمهملة أيضاً على صيغة التصغير موطن

ببطن ينبع.

والصحيح أنها كانت في السنة الثانية، وكان قائد المشركين فيها أبو سفيان، وكان فيهم: «مخرمة بن نوفل» و«عمرو بن العاص».

وقد كانت هذه الغزوة سبباً لوقعة بدر الكبرى، واستخلف ﷺ على المدينة «أبا سلمة بن عبد الأسد، والحامل للواء «حمزة بن عبد المطلب». ولم يكن في هذه الغزوة حرب؛ لكون العير التي كان فيها أبو سفيان، قد مضت قبل أن يصل إليها ﷺ، وقد وادع فيها بني مدلج.

٤ - غزوة «سفوان» ويُقال لها بدر الأولى

سنة الغزو: ٢ هجرية.

استعمل ﷺ على المدينة «زيد بن حارثة». وحامل اللواء «علي بن أبي طالب» رضي الله عنه.

٥ - غزوة بدر الكبرى

سنة الغزو: ٢ هجرية.

عدد المجاهدين: ٣١٣ (١).

عدد المشركين: ١٠٠٠.

هذه الغزوة أفضل الغزوات، ويُقال لها «بدر القتال» و«بدر الفرقان».

ولم يكن في المجاهدين سوى فارسين: «المقداد بن عمرو الكندي» و«الزبير بن العوام».

وكان الحامل للواء «مصعب بن عمير» وكان الإمداد فيها من قبل الله تعالى بالملائكة

بنص القرآن في قوله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال: ٩].

وأول مبارزة وقعت في الإسلام كانت في هذه الغزوة.

واستشهد أربعة عشر رجلاً من المهاجرين والأنصار، وقُتل من المشركين سبعين، وأسر

سبعون، وانهزم باقيهم.

(١) بعدد أصحاب طلوت؛ إذ كان عدد أصحابه ثلاثمائة وثلاث عشرة.

٦ - غزوة بني قينقاع

سنة الغزو: ٢ هجرية.

عدد المشركين: ٧٠٠.

«قينقاع» بفتح القاف وإسكان الياء وتثنية النون (بطن من يهود المدينة) لهم شجاعة وصبر، وكانوا حلفاء «عبادة بن الصامت» وعبد الله بن أبي بن سلول المنافق، وحلفاء للخزرج، ولما كانت وقعة بدر نبذوا عهده ﷺ، وكان اللواء بيد حمزة بن عبد المطلب، ومدة الحصار خمسة عشر ليلة.

٧ - غزوة السويق

سنة الغزو: ٢ هجرية.

عدد المجاهدين: ٢٠٠.

عدد المشركين: ٢٠٠.

سبب هذه الغزوة هو ما وجده في نفسه أبو سفيان بعد هزيمته في غزوة بدر الكبرى، فنذر ألا يمس النساء والطيب حتى يغزو محمداً ويثأر منه ومن أصحابه بمن أصيب من المشركين يوم بدر، وكانت غيبته ﷺ عن المدينة خمسة أيام، وسُميت غزوة السويق؛ لإلقاء السويق من رحال المشركين عند هربهم لتخفيفها، ولأخذ المسلمين لذلك، ولم يكن في هذه الغزوة كيد.

٨ - غزوة قرقرة الكدر

سنة الغزو: ٢ هجرية.

عدد المجاهدين: ٢٠٠.

عدد المشركين: ٢٠٠.

«قرقرة الكدر» أرض مما يلي جادة العراق إلى مكة. وكان الحامل للواء: علي بن أبي طالب، كرم الله وجهه.

وقيل كانت هذه الغزوة في المحرم سنة ثلاث، ويمكن الجمع بين القولين بأنها ابتدأت في أواخر الحجة وأخذت من المحرم أيامًا، وكان خليفة رسول الله ﷺ على المدينة «ابن أم مكتوم».

٩ - غزوة إِمْرٍ وَيُقَالُ لَهَا غَزْوَةُ «غطفان» وغزوة «أنمار»

سنة الغزو: ٣ هجرية.

عدد المجاهدين: ٤٥٠.

«إِمْرٍ» (بكسر الهمزة وفتح الميم وتشديد الراء) اسم ماء، وسبب هذه الغزوة أن دعثور بن الحارث الغطفاني جمع جمعًا بموضع من ديار غطفان، يريد الإغارة على أطراف المدينة، فخرج ﷺ في أصحابه، واستخلف «عثمان بن عفان» على المدينة، فهرب المشركون في رؤوس الجبال. وفي هذا المحل بُلَّت ثيابه ﷺ وثياب أصحابه من كثرة المطر، فنزع ﷺ ثوبيه ونشرهما على الشجرة، واضطجع بمرأى من المشركين، فجاء إليه دعثور، وقال: من يمنعك مني اليوم؟ فقام ﷺ، ودفعه جبريل في صدره فوق وقع السيف من يده، فأخذ السيف رسول الله ﷺ فاستجار به، فأجاره، فأسلم، وحمل أصحابه على الإسلام، ونزلت هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ ءَن يَسُطُّوْا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ...﴾ الآية [المائدة: ١١].

١٠ - غزوة «بحران» وتُسمى غزوة بني سليم

سنة الغزو: ٣ هجرية.

عدد المجاهدين: ٣٠٠.

بحران (بفتح الباء أو ضمها وحاء مهملة ساكنة) موضع على ثلاثة برد من المدينة، لم يَلَقَ ﷺ حربًا؛ لتفرق المشركين ورجوعهم إلى مياههم، وكانت غيبته عشر ليال، وكان المستخلف على المدينة ابن أم مكتوم.

١١ - غزوة أحد

سنة الغزو: ٣ هجرية.

عدد المجاهدين: ١٠٠٠.

عدد المشركين: ٣٠٠٠.

كان قائد جيش المشركين أبا سفيان ويُقال: إن عدّة أصحابه ﷺ تسعمائة، وفيهم مائة دارع، ولم يكن معهم من الخيل سوى فرسين: إحداهما لرسول الله ﷺ، والأخرى لأبي بردة. وكان اللواء مع «مصعب بن عمير». وفي هذه الغزوة قُتل «حمزة رضي الله عنه»، قتله وحشي، وكان حبشيًّا. وكان عدّة الشهداء من المسلمين سبعين، وعدّة قتلى المشركين اثنين وعشرين.

١٢ - غزوة حمراء الأسد

سنة الغزو: ٣ هجرية.

«حمراء الأسد» جبل بناحية «العقيق» على ثمانية أميال من المدينة، وكان حامل اللواء عليّ أو أبو بكر رضي الله عنهما.

١٣ - غزوة بني النضير

سنة الغزو: ٤ هجرية.

وفي هذه السنة قصرت الصلاة الرباعية في السفر، ونزلت آية التيمم. وسبب الغزوة أنه ﷺ استعان بهم في دية رجلين مواعين له كان عمرو بن أمية الضمري قتلها غلطًا ظانًّا أنهما حربيان، وكان قد تعاهد مع بني النضير على ترك القتال وإعانتهم له في الديات، فلما حضر إليهم هو وبعض من أصحابه أرادوا الغدر به، فانصرف إلى المدينة، فتجهز إليهم وغزاهم.

١٤ - غزوة ذات الرقاع

سنة الغزو: ٤ هجرية.

عدد المجاهدين: ٤٠٠.

«الرقاع» (بكسر الراء) جبلٌ سميت به؛ لأن فيه بقعًا حمراء وسوداء، أو لأن خيلهم كان بها سواد وبياض، أو لأن صلاة الخوف كانت بها، فسميت بذلك لترقيع الصلاة فيها، أو لأنها نقرت فيها أقدام الصحابة وسقطت أظفارهم.

وتسمى هذه الغزوة أيضًا: غزوة الأعاجيب، وغزوة «بني محارب» وغزوة «بني ثعلبة».

بعد هذه الغزوة رجع ﷺ إلى المدينة، وكانت مدة غيبته خمس عشرة ليلة.

١٥ - غزوة «بدر الموعد»

سنة الغزو: ٤ هجرية.

عدد المجاهدين: ١٥٠٠.

عدد المشركين: ٢٠٠٠.

تسمى هذه الغزوة أيضًا غزوة «بدر الصغرى» و«الصفراء» بالفاء، و«بدر الثانية» و«الثالثة». وكان على قريش أبو سفيان، خرج من مكة حتى نزل خارجها، وخرج النبي ﷺ وأصحابه فأقاموا ببدر ثمانية أيام، ولم يحصل حرب؛ لكون أبي سفيان رجع؛ لجذب العام غير الصالح للقتال، فرجع المسلمون وباعوا تجارتهم وربحوا كثيرًا، وفيها نزلت آية: ﴿فَأَنقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفُضِّلَ...﴾ [آل عمران: ١٧٤] وانصرف ﷺ إلى المدينة.

١٦ - غزوة الخندق

سنة الغزو: ٤ هجرية.

عدد المشركين: ١٠٠٠٠.

وتسمى هذه الغزوة أيضًا «غزوة الأحزاب». وذكر بعض أهل السير أنها كانت في السنة الخامسة، والصحيح في الرابعة.

كان المدبر لأمر هذه الغزوة والقائم بشأنها أبو سفيان، وعمل رسول الله ﷺ الخندق بإشارة «سلمان» الفارسي، رضي الله عنه، فكان من مكاييد الفرس لا من مكاييد العرب. ولما فرغ منه ﷺ أقبلت قريش ومن معها من بني قريظة وقبائل العرب المشركين، واشتد البلاء، حتى ظن المؤمنون كل الظن، ومكث الفريقان مدة لم يكن بينهم إلا الرمي بالنبل والحصار، ولم يتمكن المشركون من عبور الخندق، ثم نصر الله النبي ﷺ، فهبت رياح عاصفة في ليال شديدة البرد، فتقطعت أطناب خيامهم، وانكفأت قدورهم، فرحلوا، فقال النبي ﷺ: «الآن نغزوهم ولا يغزونا» حتى فتح مكة.

١٧ - غزوة بني قريظة

سنة الغزو: ٤ هجرية.

عدد المجاهدين: ٣٠٠٠.

«بنو قريظة» قوم من اليهود بالمدينة من حلفاء الأوس، جهَّز ﷺ أصحابه إليهم بأمر الوحي عقب غزوة الخندق، فسار إليهم النبي ﷺ وأصحابه، وحاصروهم خمسًا وعشرين ليلة إلى أن نزلوا على حُكم رسول الله ﷺ، ثم أمر أن يجمع ما وُجد في حصونهم، فقسَّمه ﷺ بين أصحابه.

١٨ - غزوة دومة الجندل

سنة الغزو: ٥ هجرية.

عدد المجاهدين: ١٠٠٠.

«دُومة الجندل» (بضم الدال المهملة)، والجندل (بفتح الجيم والدال المهملة): بلد بين الحجاز والشام، وهذه الغزوة أوَّلُ غزوات الشام، وصاحب دومة الجندل يسمى «أكيدر» وهو الذي أسسها، ويزعم بعضهم أن تحكيم الحكيمين بين علي ومعاوية - رضي الله عنهما - كان بدومة الجندل.

وسبب الغزوة ما بلغه ﷺ من أن بها جمعًا كثيرًا يظلمون من مرّ بهم، وأنهم يريدون أن يدنوا من المدينة.

وكان المستخلف على المدينة «سباع بن عرفة». وانتهت هذه الغزوة من دون حرب، حيث أصاب فيها المسلمون غنائم كثيرة، وهرب أهل «دومة الجندل». وفي رجوعه ﷺ صالح عيينة بن حصن، واسمه «حذيفة الفزاري» أن يرعى بمحل بينه وبين المدينة ستة وثلاثون ميلاً؛ لجذب أرضه. ولما سمن حافره وخفه، وانتقل إلى أرضه، أغار على لقاح رسول الله ﷺ «بالغابة»، ثم انتهى به الحال إلى أن أسلم بعد الفتح، وشهد بعض المشاهد، وكان من المؤلفة، وارتدّ زمن الصديق رضي الله عنه، ثم أسلم ولم يزل مظهرًا للإسلام.

١٩ - غزوة بني لحيان

سنة الغزو: ٥ هجرية.

عدد المجاهدين: ٢٠٠.

لحيان (بكسر اللام وفتحها) قبيلة من هذيل. سبب هذه الغزوة هو إرادة انتقامه ﷺ من هذيل بعدما وقعت وقعة عاصم بن ثابت وخبيب بن عدي وغيرهما من الصحابة الذين قتلهم هذيل. ولما وصل ﷺ إليهم تمنّعوا في رؤوس الجبال، وفاته الغرة فيهم فلم يلق كيداً، ومنها خرج لغزوة الغابة المعروفة بغزوة ذي قرد، وكان المستخلف على المدينة: ابن أم مكتوم.

٢٠ - غزوة الغابة المعروفة بغزوة ذي قرد

سنة الغزو: ٦ هجرية.

عدد المجاهدين: ٥٠٠.

«قرد» (بفتح القاف والراء وبالذال المهملة): موضع على ميلين من المدينة على طريق خيبر، قال البخاري ومسلم: «كانت قبل خيبر بثلاثة أيام»، ولكن أجمع أهل السير على خلافهما. وهذه هي الغزوة التي أغار فيها عيينة بن حصن في أربعين فارساً من غطفان وفزارة على لقاح رسول الله ﷺ «بالغابة» (واللقاح: ذوات اللبن القريبات من الولادة) فنادى ﷺ: «يا خيل الله اركبي». وأول من أقبل عليه ﷺ من الفرسان المقداد بن الأسود رضي الله عنه، فقد له لواء في رمحه، ثم تلاحقت به الفرسان، وأميرهم سعيد بن زيد.

٢١ - غزوة بني المصطلق

سنة الغزو: ٦ هجرية.

ويُقال لها أيضًا غزوة المريسيع.

سبب هذه الغزوة هو ما بلغه ﷺ من أن الحارث بن ضرار سيد بني المصطلق (الذي أسلم بعد ذلك) قد جمع لحرب رسول الله ﷺ جموعًا، فبعث بريدة بن الحصيب يعلم على ذلك، فلقي الحارث وكلمه، ورجع إليه ﷺ فأخبره بذلك، فخرج حتى لقيه على ماء من مياههم يقال له «المريسيع»، والخليفة على المدينة زيد بن حارثة، فلما وصل إليهم عرض عليهم الإسلام فأبوا وحاربوا، فاستأصلهم قتلاً وأسرًا ونهبًا، وغنم منهم كثيرًا، واستعمل عليهم مولاه سُقران (بضم الشين المعجمة وكان حبشيًا واسمه صالح)، وفي هذه الغزوة كانت قصة الإفك على عائشة، وهي شهيرة، وقد تقدم ذكرها.

٢٢ - غزوة الحديبية

سنة الغزو: ٦ هجرية.

عدد المجاهدين: ١٤٠٠.

«الحديبية» بئر قريب من مكة، وقيل شجرة، وقيل قرية.

سبب هذه الغزوة أن رسول الله ﷺ رأى رؤيا منام قبل أن يخرج إلى الحديبية؛ رأى أنه دخل هو وأصحابه المسجد الحرام وأخذ مفتاح الكعبة بيده، وطافوا واعتمروا، وحلق بعضهم وقصّر بعضهم، فأخبر بذلك أصحابه، وحسبوا أنهم داخلو مكة عامهم ذلك، فأخبر أصحابه أنه معتمر، فخرج من المدينة في ذي القعدة بالمهاجرين والأنصار لا يريد حربًا حتى وصل إلى «ثنية المزار» مهبط الحديبية، وأمر بالنزول، ووقع من معجزاته ﷺ نبع الماء في ذلك المكان، فتأهبت قريش للقتال.

٢٣ - غزوة خيبر

سنة الغزو: ٧ هجرية.

«خيبر» بلدة بينها وبين المدينة ثمانية برد، وفرّق ﷺ الرايات يومئذ، وكانت قبل ذلك الألوية، واستشهد بها من المسلمين نحو من عشرين رجلاً.

٢٤ - غزوة مؤتة

سنة الغزو: ٨ هجرية.

عدد المجاهدين: ٣٠٠٠.

عدد المشركين: ١٠٠٠٠.

قرية من قرى البلقاء بالشام. وهذه الغزوة هي أول الغزوات بين المسلمين والروم، وانضم إلى الروم بعض العرب المتنصرة.

٢٥ - غزوة فتح مكة

سنة الغزو: ٨ هجرية.

عدد المجاهدين: ١٠٠٠٠.

خرج ﷺ من المدينة لعشر مضت من رمضان، ومعه المهاجرون والأنصار، واستخلف على المدينة عبد الله ابن أم مكتوم.

٢٦ - غزوة حنين

سنة الغزو: ٨ هجرية.

عدد المجاهدين: ١٢٠٠٠.

«حنين» (واد قرب الطائف بينه وبين مكة ثلاث ليال) وتسمى هذه الغزوة بغزوة «أوطاس» وخرج معه ﷺ اثنا عشر ألفاً: ألفان من أهل مكة، والعشرة آلاف التي كانت معه، وفتح بها مكة.

٢٧ - غزوة الطائف

سنة الغزو: ٨ هجرية.

«الطائف» بليدة كثيرة الفواكه، وهي أبرد مكان بالحجاز، وطيبة الهواء، ينتجع إليها أهل مكة أيام الصيف.

٢٨ - غزوة تبوك

سنة الغزو: ٨ هجرية.

عدد المجاهدين: ٣٠٠٠.

«تبوك» في طرف الشام من جهة القبلة، بينها وبين المدينة نحو أربع عشرة مرحلة، وهي آخر غزواته ﷺ.

واستخلف على المدينة علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ويُقال لها غزوة العسرة، ويُقال لها أيضاً: الفاضحة؛ لافتضاح المنافقين بها.

وتخلف عن الخروج معه ﷺ عبد الله بن أبي المنافق ومن تبعه من أهل النفاق.



الفهرس

٥	تقديم: رفاعة الطهطاوي ومدخل حديث لكتابة السيرة النبوية
٦١	ترجمة المؤلف
٦٩	مؤلفاته ومترجماته
٧٣	نسب الرسول ﷺ
٧٥	الباب الأول: في مولده الشريف إلى بعثته ﷺ
٧٨	الفصل الأول: طهارة نسبه ﷺ
٨١	مولده
٨٢	أسماءه ﷺ
٨٧	طهارة مولده وشرفه
١٠٣	زواج أبيه بأمه
١٠٦	تعبده ﷺ قبل البعثة
١٠٧	رضاعه
	الفصل الثاني: في ذكر عمل مولده الشريف، وإشهاره كل سنة
١٢١	وفيما جرى في مولده وفيما بعده من الوقائع
١٢٢	الاحتفال بالمولد
	الفصل الثالث: في زواجه بخديجة بنت خويلد
١٤٧	رضي الله عنها وما رزقه الله من الذرية منها
١٤٩	أولاده من خديجة
	الباب الثاني: في مبعثه ﷺ، ودعائه الناس إلى الدين الحق
١٦٧	وهجرة المسلمين إلى الحبشة، وخروجه إلى الطائف
١٦٩	الفصل الأول: في رسالته ﷺ على رأس الأربعين إلى كافة الناس بشيراً ونذيراً
١٧٥	كفالاته علياً

١٧٩	اشتداد الأذى عليه ﷺ
١٨١	الفصل الثاني: في الهجرتين إلى الحبشة
١٨١	الهجرة الأولى إلى الحبشة
١٨٣	مسألة الغرائق وما سمّوه الآيات الشيطانية
١٩٩	الهجرة الثانية
٢٠٧	الفصل الثالث: في خروجه ﷺ إلى الطائف قبل هجرته إلى المدينة المشرفة
	الفصل الرابع: في الإسراء به ﷺ ليلاً من المسجد الحرام
٢١٣	وعروجه من المسجد الأقصى إلى السموات العلّٰى
٢١٥	شق صدره
٢٢٦	مسألة رؤية الله
	الباب الثالث: في هجرته ﷺ إلى المدينة وما ترتب على ذلك
٢٤٣	من المظاهر الإسلامية والظواهر التعليمية، وفيه فصول
٢٤٥	الفصل الأول: في الأسباب الباعثة على هذه الهجرة والتمهيد لها
٢٥٠	الهجرة إلى المدينة
٢٥٠	التأمر على الرسول ﷺ في دار الندوة
	الفصل الثاني: في سيره مهاجراً إلى المدينة مع صاحبه: صديقه
٢٥٧	رضي الله تعالى عنه، وهو ابتداء التاريخ الإسلامي
٢٦٥	مبدأ التأريخ الإسلامي
٢٧١	مسألة: الرسول ﷺ والشعر
٢٧٤	هجرة بقايا المسلمين من مكة
٢٧٩	فرق اليهود
٢٨٣	الفصل الثالث: في ذكر الظواهر الحادثة بعد الهجرة إجمالاً
	الباب الرابع: في تفاصيل الظواهر التي حدثت بعد هجرته عليه الصلاة والسلام
٢٨٧	إلى وفاته ﷺ، وفيه فصول
٢٨٩	الفصل الأول: في ظواهر السنة الأولى من الهجرة وما فيها من الغزوات

٢٩١	المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار
٢٩٥	الفصل الثاني: في ظواهر السنة الثانية من الهجرة، وما فيها من الغزوات
٣١٢	إسلام عمير بن وهب
٣٣٣	الفصل الثالث: في ظواهر السنة الثالثة من الهجرة وما فيها من الغزوات
٣٤٥	الفصل الرابع: في ظواهر السنة الرابعة من الهجرة وما فيها من الغزوات
٣٤٨	غزوة بني النضير
٣٥٠	الرَّجْم
٣٨١	الفصل الخامس: في ظواهر السنة الخامسة وما فيها من الغزوات
٣٨٥	الفصل السادس: في ظواهر السنة السادسة وما فيها من الغزوات
٤٠٩	الفصل السابع: في ظواهر السنة السابعة وما فيها من الغزوات
٤١٩	رَجْع
٤٣١	تنبيه
٤٣٥	الفصل الثامن: في ظواهر السنة الثامنة وما فيها من الغزوات
٤٦٧	الفصل التاسع: في ظواهر السنة التاسعة وما فيها من الغزوات
٤٧٧	الفصل العاشر: فيما وقع من وفود العرب عليه ﷺ، وفي حجة الوداع
٤٨٨	خطبة الوداع
	الباب الخامس: في وفاته ﷺ وذكر بعض أخلاقه وصفاته. ومعجزاته، وأزواجه،
٤٩٣	وأعمامه، وعماته، وأخواله، ومواليه، وخدمه، وحشمه ﷺ، وفيه فصول
٤٩٥	الفصل الأول: في ذكر وفاته ﷺ وما يتعلق بذلك
٥٠٩	الفصل الثاني: في ذكر بعض أخلاقه وصفاته ﷺ
٥٣١	الفصل الثالث: في ذكر معجزاته
٥٣٤	كيفية نزول القرآن
٥٤٩	الفصل الرابع: في ذكر أزواجه ﷺ وقرابته ومواليه
٥٩٣	ملخص يضبط ما تفرَّق من الغزوات التي سبق ذكرها تفصيلاً

